الآثار الكاملة



الدكتور كمال مظهر

المجلد الثامن

اعداد

الدكتور جبار قادر　　الدكتور دلشاد محمود

الدكتور آزاد عبيد　　الدكتور كامران محمد

أربيل
٢٠٢٢

الآثار الكاملة
الدكتور كمال مظهر

المجلد الثامن

اعداد

الدكتور جبار قادر　　الدكتور دلشاد محمود

الدكتور آزاد عبيد　　الدكتور كامران محمد

اربيل ٢٠٢٢

* اسم الكتاب: الآثار الكاملة - الدكتور كمال مظهر - المجلد الثامن
* اعداد: اللجنة المختصة بجمع ونشر الآثار الكاملة للأستاذ الدكتور كمال مظهر احمد
* الاعمال الفنية والاشراف على الطبع: عثمان پيرداود كواز
* صورة الغلاف: الفنان نورالدين الجاف
* الطبع: مطبعة دانشفر- أربيل
* عدد النسخ: ١٠٠٠
* رقم الايداع (٩١٨) لسنة ٢٠٢٢
* السعر(٦٠،٠٠٠) دينار

المجلد الثامن:

يضم هذا المجلد الكتب التالية:

* دراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر.
* أضواء على قضايا دولية في الشرق الأوسط.
* النهضة.

تقديم

من دواعي الفخر للجنة المختصة بجمع ونشر النتاج العلمي والثقافي للراحل المؤرخ الفذ والمربي الكبير الأستاذ الدكتور كمال مظهر أن تضع بين أيدي قراء اللغتين الكردية والعربية الكرام أعماله الكاملة التي تتوزع على عشرة مجلدات، الستة الأولى منها بالكردية ومايليها حتى العاشر منها بالعربية وهي بمجملها تمثل القسم الأول من مشروع كبير يهدف الى جمع ونشر مجمل منجزه العلمي والثقافي.

يعد الدكتور كمال مظهر أحمد رائدا للدراسات التاريخية الكردية الحديثة، بل ومؤسسا لمدرسة تاريخية كردية متميزة؛ فقد إطلعت أجيال عديدة منذ سبعينات القرن الماضي لأول مرة على دراساته المتعلقة بتاريخ الكرد وكوردستان وفق منهجية علمية لم يألفوها من قبل، إذ كانت هاتيك الأجيال تقرأ حكايا وأساطير تغنت بمناقب أمرائهم وزعمائهم المحليين وتحسبها مصادر ومظانا تاريخية! وبتأثير كتبه المؤلفة ومقالاته التاريخية عشقت الأجيال الجديدة من سواد القراء ومن المثقفين تاريخ الكرد، وراحت تدلو بدلائها في دراسة تاريخ أمتها الكردية المستضعفة إضافة الى دوره الكبير في دفع العديد من الطلبة في أقسام التاريخ في الجامعات لإكمال دراساتهم العليا في مجال التاريخ داخل العراق وخارجه، كما وجدت محاضراته على الطلبة ومعظمهم من غير الكرد دورا مماثلا في التوجه الى الدراسات العليا لدراسة التاريخ بمنهج علمي وظلوا أمناء لمعلمهم الكبير طوال حياتهم ومسيرتهم العلمية. ولم يقتصر عمله هذا على الطلبة الكرد فقط بل وشمل الجميع ممن أشرف عليهم أو إستشاروه في دراساتهم ومشاريعهم البحثية.

لطالما أكد الدكتور كمال على أن مجال التاريخ الكردي كالأرض غير المحروثة والمزروعة؛ وتحتاج هذه المهمة الكبيرة الى أجيال من الباحثين لكي ينجزوا جزءا من هذه المهمة! وكان من أسباب سعادة الدكتور كمال أن يلتفت الى منجزه التربوي فيشهد العديد من الباحثين والمتخصصين في التاريخ الكردي من الذين أسهم مباشرة في إعدادهم تعليما أو إشرافا أو تنويرا من خلال مؤلفاته كتبا ومقالات وبحوث علمية ،وما ترجمه من أعمال في التاريخ والفكر التاريخي التي كانت تثير إهتمام أوساط واسعة من القراء والمثقفين الكرد والعراقيين عموما.

غني عن القول أن جمع وتحقيق الآثار الكاملة لمؤرخ غزير الإنتاج مثل الراحل كمال مظهر يستوجب تكاتف العديد من الباحثين والمثقفين، بل إنه مهمة مؤسسة متخصصة مع كوادر علمية وإدارية متفرغة لهذه المهمة، وليست مهمة لجنة من

المتطوعين غير المتفرغين يعملون هنا وهناك، ومنهم أساتذة في الجامعات منهمكون بإعداد محاضراتهم وبحوثهم العلمية.

لقد إرتأت اللجنة المتشكلة قبيل وفاة العلامة كمال مظهر بأيام معدودة؛ بهدف جمع تراثه العلمي والثقافي وتصنيفه، ومن ثم طبعه ونشره، إرتأت تقسيمه الى ستة أقسام على النحو الآتي:

القسم الأول والذي يسرنا أن نضعه بين أيدي القراء يضم كل مؤلفاته المنشورة باللغتين الكردية والعربية في عشرة مجلدات، بلغ مجموع صفحاتها سبعة آلاف ومائتين وخمسين صفحة.

القسم الثاني: سيشتمل على بحوثه العلمية ومقالاته المنشورة في الصحف والمجلات الكردية والعربية، وقد قامت اللجنة بتصوير وجمع قسم منها، لكنما مازال هناك الكثير مما ينتظرها في هذا المجال؛ وهو يستوجب بذل جهود شاقة من قبل عدد أكبر من أعضاء اللجنة المشرفة.

القسم الثالث: وسيضم أعماله العلمية والصحفية باللغة الروسية وسيربو عدد صفحات هذا القسم على ألف وخمسمائة صفحة. ومن الضروري ترجمته الى اللغة الكردية وقد خطت اللجنة الخطوات الأولى على هذا الطريق. ولقد تبين لنا عند الإطلاع على قائمة مؤلفاته وبحوثه أنه قد ترجم بعض بحوثه ومقالاته في حينها من الروسية الى الكردية أو العربية أو وظفها كنواة لدراساته وبحوثه اللاحقة.

القسم الرابع: وقد خصص لجمع كلمات التقديم التي كتبها لعدد معتبر من الكتب والمؤلفات لباحثين كرد وعرب فضلا عن مذكرات قام بتقديمها وإعدادها للنشر، وتنطوي هذه المقدمات على أفكار ومعلومات مهمة تفرض علينا الإهتمام بجمعها في أكثر من مجلد.

القسم الخامس: تسعى اللجنة الى تخصيصه ليضم لقاءاته الصحفية والحوارات معه، التي عبر من خلالها عن آرائه وتصوراته عن الكثير من المسائل العلمية والقضايا الفكرية والثقافية، وهي تشهد على إطلاعه الواسع وواقعية تصوراته وعمق تحليلاته. وهي تشكل مادة غنية؛ لإجراء البحوث والدراسات عن رؤاه الفكرية وتوجهاته الثقافية.

القسم السادس: من المأمول أن يتضمن كل ما كتب ونشر عن الراحل من دراسات وبحوث ورسائل علمية وما قيل عنه أثناء وفاته أو في الذكرى السنوية الأولى

لرحيله. ووجدنا من الضروري أن ندرج في هذا القسم رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه التي أشرف عليها الأستاذ الدكتور كمال مظهر أحمد وهي بحوث مشتركة بحكم التعليمات. وكان الراحل خلاقا في دعم المنجز العلمي لطلبته في مشاريع رسائلهم وأطاريحهم فكرة وعنوانا وموضوعا وتحليلا وتركيبا؛ ولذا وجدنا من الضروري أن نفهرس في هذا القسم عناوين رسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراه التي أشرف عليها الدكتور كمال مظهر وإسم الطالب ومستوى العمل وتاريخه. والجدير بالذكر هنا إسهاماته المشهودة في مناقشة العشرات من رسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراه. ولئن كانت هاتيک المناقشات مسجلة صورة وصوتا؛ فسنسعى الى الإتصال بذوي العلاقة للحصول على نسخ من هاتيک التسجيلات، وسنقوم بتفرغيها وطبعها ورقيا وإصدارها ضمن الأعمال الكاملة. كما ستعمل اللجنة على الإتصال بتلامذته المتميزين؛ لكتابة مقالات عن أسلوبه في محاضراته.

لقد قامت اللجنة المتخصصة المشكلة من: (الأستاذ الدكتور جبار قادر، الأستاذ الدكتور آزاد عبيد، الأستاذ المساعد الدكتور دلشاد محمود عبدالرحمن والأستاذ المساعد الدكتور كامران محمد حاجي) قامت خلال العام الأول من عمرها بإنجاز بيبليوغرافيا أولية لمجمل الأثار العلمية والثقافية للراحل كمال مظهر فضلا عن إعداد مؤلفاته وترجماته باللغتين الكردية والعربية للطبع، وهو هذا القسم الذي نضعه بين أيدى القراء والباحثين. كما قامت اللجنة بجمع كل ما ظفرت به في مكتبته الشخصية وكل ما وقع تحت أنظار أعضاء اللجنة والعديد من الزملاء والأصدقاء من خارج اللجنة من المقالات والبحوث والكتب المتعلقة بالراحل باحثا أو مترجما أو معلقا على مسألة عامة أو خاصة أو قام به تلامذته وأساتذتهم وأصدقاء الراحل من كتابات عن سيرته وترجمة لحياته الشخصية والعلمية. كما قامت اللجنة بطبع العديد من مقالاته وبحوثه ومراجعتها بصورة دقيقة. وستواصل اللجنة بعد نشر مؤلفاته الكاملة سعيها لإنجاز المراحل الأخرى من هذا المشروع العلمي والثقافي الكبير؛ خدمة للحقيقة والتاريخ وتذكيرا لعطاء هذا الإنسان العالم والمؤرخ والمربي الكبير الذي قلما يجود الزمان بمثله.

ومن هنا تناشد اللجنة المشرفة الباحثين والقراء المهتمين بتراثه العظيم أن تمد يد المساعدة للجنة بتزويدها بما يتوافر لديهم من صحف ومجلات تضم بحوثا ومقالات أو لقاءات صحافية منشورة للراحل. ومن المؤكد أن مؤازرتهم ستساهم

حتما في تأسيس مكتبة خاصة ومتحف خاص يجمع فيهما كل ما يتعلق به.

شكل توزيع مؤلفات الراحل الكبير من حيث المواضيع وعدد الصفحات تحديا أمام اللجنة وجرى نقاش مطول حول الأمر الى أن إستقر الرأي في النهاية على توزيعها على الشكل التالي، ونثبت هنا عناوين الكتب المنشورة في مجلدات القسم الأول:

المجلد الأول: "كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى"، "التاريخ- دراسة علمية موجزة عن التاريخ والكرد والتاريخ" و"كتاب الحركة التحررية للكرد والآذربايجانيين في إيران".

المجلد الثاني: "تێگەیشتنی ڕاستی (أي فهم الحقيقة) – وموقعها في الصحافة الكردية" و"صفحات من تاريخ الشعب الكردي – الجزء الأول".

المجلد الثالث: "صفحات من تاريخ الشعب الكردي – الجزء الثاني".

المجلد الرابع: الترجمات الكردية لكتبه "مكيافيللي والمكيافيلية"، و"النهضة"، و"الطبقة العاملة العراقية: التكون وبدايات التحرك" ومؤلفه "المرأة في التاريخ".

المجلد الخامس: "الكرد وكردستان في الوثائق السرية للحكومة البريطانية".

المجلد السادس: "الكرد وكردستان في الوثائق السرية للحكومة البريطانية". وكما أسلفنا فإن هذه المجلدات الستة تضم مؤلفاته باللغة الكردية أو التي ترجمت إليها من اللغة العربية.

المجلد السابع: الترجمة العربية لكتاب: "كوردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى" ومؤلفه "كركوك وتوابعها، حكم التاريخ والضمير – دراسة وثائقية عن القضية الكردية في العراق ".

المجلد الثامن: "دراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر" و"أضواء على قضايا في الشرق الأوسط "و"النهضة".

المجلد التاسع: "صفحات من تاريخ العراق المعاصر"، و"الطبقة العاملة العراقية – التكون وبدايات التحرك"، و"ثورة العشرين في الإستشراق السوفيتي"، و"رأي للمناقشة".

المجلد العاشر: "دور الشعب الكردي في ثورة العشرين"، و"إنتفاضة ١٩٢٥ في كردستان تركيا"، وترجمته لكتاب شاميلوف"حول مسألة الإقطاع بين الكرد"، و"ميكافيللي والمكيافيلية" و"تاريخ الدول الكبرى بين الحربين العالميتين". وكما نوهنا فإن المجلدات الأربعة الأخيرة هي باللغة العربية.

وختاما تشكر اللجنة كل من أبدى إستعداده لدعم المشروع ماديا أو معنويا وهم كثر، وفي مقدمتهم رئيس الأكاديمية الكردية الأستاذ الدكتور عبدالفتاح البوتاني الذي خصص غرفة خاصة للجنة في الأكاديمية. كما تشكر اللجنة الأستاذ الدكتور عماد الجواهري الذي كان لملاحظاته دورا مهما في إضافة محور جديد الى القسم السادس من المشروع، وكل من ساهم ولو بإعلام اللجنة بوجود مقالة أو دراسة للراحل في صحيفة ما أو مجلة. وتعبر اللجنة كذلك عن إمتنانها للأستاذ جلال زنگابادي على جهوده المخلصة لإخراج المشروع بأفضل صورة.

اللجنة المختصة
بجمع ونشر الآثار الكاملة
للدكتور كمال مظهر احمد

الدكتور كمال مظهر احمد

دراسات

في تاريخ ايران الحديث والمعاصر

ساعدت الأمانة العامة للثقافة والشباب
لمنطقة الحكم الذاتي على طبع الكتاب

بغــداد ١٩٨٥

الدكتور كمال مظهر احمد

دراسات

في تاريخ ايران

الحديث والمعاصر

ساعدت الأمانة العامة للثقافة والشباب
لمنطقة الحكم الذاتي على طبع الكتاب

بغداد ١٩٨٥

المقدمة

يحظى تاريخ ايران باهتمام كبير من لدن المؤرخين في جميع الاقطار المتقدمة في العالم. وربما يكفي ان نشير بهذا الصدد الى ان مالايقل عن عشرة مراكز علمية في الاتحاد السوفيتي وحده تولي هذا الموضوع اهتماما خاصا، وان الاوساط الاكاديمية في الولايات المتحدة الامريكية باشرت منذ سنوات باعداد دائرة معارف خاصة بتأريخ ايران من المقرر ان تقع في عدد من المجلدات الضخمة[1]. وبالمقابل لم يول هذ الموضوع ما يستحق من اهتمام من لدن مؤرخينا، لذا تعاني مكتباتنا من نقص كبير فيما يخص تأريخ ايران في جميع مراحله. فان المكتبة العربية، والعراقية منها بالتحديد، لاتعاني من فقر مدقع فيما يخص تأريخ ايران حسب، بل فيها، ايضا، مالايشرف العلم على اي حال. فمثلا، وهذا غيض من فيض، ان فتح علي شاه، ثاني ملوك آل قاجار الذي، كما نلاحظ، ابتلى هو وجيشه وبلاده باطماع القياصرة الروس، ونجاحاتهم المتلاحقة التي أدت الى ان تفقد ايران كل ماكان لديها من سيطرة ونفوذ على جورجيا (كرجستان) وارمينيا واذربيجان الشمالية، انه، لاغيره، قد «استولى على كرجستان وضمها الى روسيا، وضم روسيا الى بلاده، كما انه ارسل ابنه عباس للحرب مع الروسيين (!) والذي (!) دام (!) حوالي عشرة (!) سنوات» (نقل النص حرفيا).

ان هذا «الكلام» ورد بعد ٧١ صفحة من اللغو المشابه في كتاب يحمل مثل هذا العنوان الضخم والفخم:

---

(١) تسمى «Iranica»

«موجز ترجمة التأريخ الفارسي مع مقدمة في الاحوال الاجتماعية»[٢]. وحكم الافشاريون ايران من عام ١٧٣٦ حتى عام ١٧٩٦، ومن ثم بدأ حكم الزنديين في العام ١٧٩٦ وانتهى عام ١٩٢٦[٣] في كتاب سليم واكيم الذي سماه «ايران في الحضارة. دراسة علمية»[٤].

وتحول الثوري الايراني المعروف مرزا كوجك خان[٥] الى «قائد للحملة الروسية» على ايران لدى محمد الهاشمي[٦]، الذي يؤكد ايضا على ان رضا شاه تمكن من «القضاء على الامية والجهالة»[٧]، مع العلم ان نسبة الامية بين الايرانيين بلغت ٨٥٪ حسب المعلومات الواردة في وثائق الاحصاء الرسمي للعام ١٩٥٦، اي بعد مرور عقد ونصف عقد على انتهاء حكم مؤسس العهد البهلوي في ايران.

كما ان المراجع العربية المتوفرة عن تأريخ ايران مشحونة باغرب الاخطاء فيما يخص اسماء الاعلام والمواقع. وقد امتدت آثار هذا النقص الى الكتب المعربة ايضا. ففي كتاب «نفط ودماء» الذي ترجمه عبدالغني الخطيب[٨] تحول اسم بشت كوه الى «بوشدى كوه»، والبارون رويتر الى «دى ريدر»، وروسيا القيصرية الى «روسيا السارية»، وتحولت لاحقة الدين في اسم الشاه القاجاري مظفر الدين الى «التين والتيني»، فتحول اسم الملك القاجاري الخامس الى «مظفر التيني» بكل بساطة. وتحول نهر كارون الى

---

(٢) «موجز ترجمة التأريخ الفارسي مع مقدمة في الاحوال الاجتماعية»، ترجمة وتلخيص سعيد علي، النجف، ١٩٦٠. لم يكلف المترجم نفسه بذكر اسم المؤلف واللغة التي ترجم منها الكتاب.

(٣) ينقسم تأريخ ايران الحديث، والمعاصر على العهود التالية: الصفوي من عام ١٥٠٢ حتى عام ١٧٣٦، مع العلم ان الملوك الصفويين فقدوا السلطة فعليا منذ عام ١٧٢٢ عندما انتقل حكم ايران الى محمود شاه الافغاني (١٧٢٢ - ١٧٢٥)، ثم الى اشرف شاه الافغاني (١٧٢٥ - ١٧٣٠)، ثم الى نادر شاه الافشاري (١٧٣٠ - ١٧٤٧)، ثم الى علي قلي مرزا افشار المعروف بعادل شاه (١٧٤٧ - ١٧٤٨). ومنذ العام ١٧٤٨ لم تبق بيد الافشاريين سوى خراسان التي كان يحكمها شاهروخ، حفيد نادر شاه، فقد انتقل حكم ايران الى الزنديين في الفترة الواقعة بين عامي ١٧٦٠ و١٧٩٤، ويبدأ العهد القاجاري عام ١٧٩٦ لينتهي في العام ١٩٢٥ الذي يعتبر بداية للعهد البهلوي.

(٤) سليم واكيم، ايران في الحضارة. لمناسبة مرور ٢٥٠٠ عام على تأسيس الامبراطورية. دراسة علمية، بيروت، ١٩٧١، ص ٨.

(٥) عنه راجع موضوع «حقائق عن النضال التحرري الكردي في ايران».

(٦) محمد الهاشمي، الابطال الثلاثة. الملك فيصل - الغازي مصطفى كمال - البهلوي رضا شاه، بغداد، بلا، ص ٧٦.

(٧) المصدر نفسه، ص ٨٦.

(٨) هاكوب ق. توريانتز، نفط ودماء، تعريب عبدالغني الخطيب، بيروت، ١٩٦٢.

«نهر قروت»، وحقل نفط مسجد سليمان الى «مجيد سليمان». والانكى من كل ذلك ان يحول الخطيب الشيخ خزعل الى «الشيخ غزال»[٨]. مع العلم ان المعرب يقول ان بين دفتي الكتاب «مالم يتضمنه اي كتاب اخر نشر عن سياسة البترول وصناعة البترول، فكانت هذه الكتب ملهاة للشعوب عن المأساة الحقيقية، خلافا لسفر صديقي الاستاذ هاكوب ق. توريانتز الذي سبر غور الرأسمالية بحثا عن الحقيقة، تماما كما سبرت الرأسمالية غور الارض بحثا عن الذهب الاسود»[١٠]. ولئن كان في هذا القول الكثير من المبالغة، لان في المكتبة العربية دراسات مخلصة ومجدية عن النفط، اولها كتاب يوسف ابراهيم يزبك الرائع اسما ومحتوى[١١]، الا ان الكتاب الذي عربه عبدالغني الخطيب بهذ الاسلوب المشوه كتاب جيد على مايبدو.

ولم تسلم دراسات بعض الاساتذة والكتاب، وكذلك بعض الرسائل الجامعية من اخطاء علمية كان من المفروض ان لاتقع فيها. واذا استثنينا عددا قليلا من الدراسات الجادة، فان مايتوفر في المكتبة العربية من مراجع لايمكن لها ان تقدم للمتتبعين صورة واضحة عن تأريخ ايران الحديث والمعاصر، الامر الذي يجعل من دراسة ذلك التأريخ مهمة علمية ضرورية وملحة.

المواضيع التي اقدمها بين دفتي هذا الكتاب حصيلة جهد علمي تعود بداياته الى اواخر العام ١٩٦٠ عندما بدأت اهتم بجوانب من تأريخ ايران الحديث والمعاصر بحكم اختصاصي. وبعد مخاض عسير وجد قسم قليل منها الطريق الى النشر في السنوات الاخيرة في مجلتي «آفاق عربية» و «دراسات للاجيال»[١٢]، كما القي البحثان «صفحات من تأريخ العلاقات الايرانية ـ السوفيتية» و «حقائق عن المؤسسة الدينية في ايران» في ندوة «ايران الحاضر والمستقبل» التي نظمها المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية التابع لجامعة المستنصرية في نيسان عام ١٩٨١.

---

(٩) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٣ ـ مقدمة المعرب.

(١١) يوسف ابراهيم يزبك، النفط مستعبد الشعوب، بيروت، ١٩٣٤. وردت في الكتاب معلومات مهمة عن نفط ايران، وعن اطماع الدول الكبرى الاستعمارية فيه.

(١٢) نشر موضوع «العراق وايران بين سازانوف وغراي. وثائق جديدة» في العدد الثاني، تشرين الاول ١٩٨٢ من «آفاق عربية» (ص ٢ ـ ١٠)، وموضوع «رضا المازندراني والعرش الايراني» في العدد الثالث، تشرين الثاني ١٩٨٢ من المجلة نفسها (ص ٣٥ ـ ٦٤)، وموضوع «تاريخ ايران الحديث في الوثائق الروسية» في مجلة «دراسات للاجيال» (العددان الرابع والخامس، تشرين اول ١٩٨٣، ص ٦٧ ـ ٨٤).

الموضوع الأول

من تاريخ الحروب الايرانية - الروسية

(صفحة من العلاقات الدولية في الشرق الاوسط قبل ظهور الامبريالية)

المدخـــــل :

تعتبر الحروب الايرانية ـ الروسية من أهم مواضيع التأريخ الحديث لايران وروسيا ومنـاطق القفقـاس ومـا وراء القفقـاس، وحتى اواسـط اسيـا. كما مست آثارها رقعة حسـاسـة من الشـرق الاوسط بصورة مباشرة. ولكن رغم ذلك لم تجد تلك الحروب ماتستحق من اهتمام من لدن اوساطنا الاكاديمية، بل وردت اخطاء كبيرة بصددها في بعض دراساتنا ومؤلفاتنا بلغت حد التجاوز على اطارها التاريخي، واسماء اهم وقـائعهـا[1] ولاشـك ان هذا الاهمال وجد له قدرا واضحا من الانعكاس بين اوساط الرأي العام الذي نسج شيئا كثيرا من الخيال حول وقائع الحروب الايرانية ـ الروسية.

ان السبب الاول والاسـاس الـذي مهـد الطـريق الى الصدام المباشر بين روسيا وايـران يكمن في الاختـلاف الكبيـر الـذي طرأ على سرعـة مدى التطور الاجتماعي والاقتصـادي والسيـاسي في البلدين المتجاورين منذ بدايات العصر الحديث. ففي النصف الثاني من القرن السابع عشر دخلت ايران مرحلة جديدة من تأريخها تميزت بالانحـلال الاقتصـادي والسيـاسي. وممـا زاد من تفاقم هذا الانحلال ان ايران التي ظلت تؤلف على مدى مئات السنين حلقة وصل رئيسة بين الشرق الاقصى الاسيوي والغـرب الاوربي، فقـدت اهميتهـا تلك بصورة مفاجئة اثر الاستكشافات الجغرافية الكبـرى في القـرنين الخامس عشر والسادس عشر، والتي تمخضت عن ايجاد طرق مائيـة مبـاشـرة تربـط اوربـا ببـلاد البهـارات والعطـور. ولقـد حاول الحكـام، وكبار الاقطـاعيين التعـويض عمـا لحق بهم من خسـائـر مادية بسبب ذلك بممارسة ضغط متزايد على الفلاحين وحرفيي المدن، الامر الذي ادى الى ان تتعمق عوامل الخراب الاقتصادي للبلاد اكثر فاكثر. وللاستدلال على ذلك يكفي ان نشير الى انه في عهد السلطــان حسين (١٦٩٤ ـ ١٧٢٢)، آخـر شاه صفـوي، ارتفعت نسبـة الضـرائب المفـروضـة على الايرانيين بمقدار يتراوح مابين مرتين الى ثلاث مرات، ولم تنج من الضرائب الجديدة حتى العشائر المتنقلة التي ماكانت تخضع للضرائب الحكومية من قبل[2].

---

(١) راجع على سبيل المثال مقالة الدكتور محمود علي الداود في مجلة «النفط والعالم»، بغداد، العدد ٨٩، تموز ١٩٨١، ص ١٤ وكتاب حربي محمد «تطور الحركة الوطنية في ايران من ١٨٩٠ ـ ١٩٥٣»، بغداد، ١٩٧٢.

(2) M.S. Ivanov, Ochirk istorii Irana, Moscow, 1952, P. 79

(م. س. ايفانوف، موجز تاريخ ايران، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٥٢، ص ٧٩)؛

D. Wilber, Iran. Past and present, sixth edition, Princeton - New Jersey, 1967, PP. 1 - 2.

جعـل تفـاقم الاستغلال الاقطاعي بالتزاماته المرهقة، وضرائبه الجديدة، القرية الايرانية في ازمة اقتصادية حقيقية أدت الى تقلص التبادل التجاري الداخلي بصورة ملمـوسـة، والى تدهـور الانتـاج البضـاعي الى حد كبيـر، فتعمقت التنـاقضـات الاجتمـاعيـة بصـورة لم يسبق لهـا مثيـل. ولم يكن مجـرد صدفـة ان شهدت مناطق مختلفة من ايران، في اواخر القرن السابع عشر وطيلة القرن الثامن عشر، عددا كبيرا جدا من الانتفـاضـات والحـركـات الثـوريـة، خصوصا بين شعوبها غير الفارسية من افغـانيـة وتـركمـانيـة وكردية وارمنية واذرية وجورجية. ولا يخلو من مغزى ان انفجرت سلسلة من الانتفـاضـات المسلحـة القـويـة في كل من القفقـاس وفـارس واستراباد وسيستـان وكـرمـان في غضـون السنـوات الاربـع الاخيرة فقط من عهد اقوى ملك ايـراني ظهـر في تلك الفتـرة، وهـو نادر شاه الافشـاري (١٧٣٦ ـ ١٧٤٧) الذي غدا بنفسـه ضحيـة واحـدة من مؤ امـرات البـلاط التي تحولت الى ظاهرة ثابتة من ظواهر تاريـخ ايـران يومـذاك. وبعـد مقتـل نادر شاه بدأت فتـرة فوضى سيـاسيـة في البـلاد استمـرت لغـايـة اواخـر القرن الثامن عشر[٣] عندما حسم صراع دموي مستفحل بين الاسرتين الزندية والقاجارية لصالح الاخيرة منهما، ليبدأ منذ سنة ١٧٩٦ عهد جديد في تاريـخ ايـران الحديث يعرف بالعهد القاجاري الذي تعمقت ازمة البلاد السياسية والاجتمـاعيـة والاقتصادية في ظل ملوكه السبعة دون استثناء[٤]. ولا بأس من ان نشير ايضا الى ان ايران لم تشهد طيلة القرن الثامن عشر شاعرا كبيرا، او فيلسوفا معروفا، او فنانا بارزا من النوع الرفيع الذي اشتهرت به في العصر الوسيط.

كان الـوضـع في الجـانب الاخر على اختلاف بين من ذلك. فمنذ القرن السـابع عشـر بدأت روسيـا تعيش تغييـرات اجتماعية واقتصادية وسياسية مهمة، فقد شهدت في ذلـك القـرن ميـلاد اولى العـلاقـات الـرأسمـالية في الانتاج ادى الى نمو التبادل البضـاعي على الصعيـد الاقتصادي، والى امتزاج اجزاء مختلفة من البلاد في وحدة متمـاسكـة على الصعيـد السيـاسي. وفي مطلع ذلـك القـرن بالـذات جاءت اسـرة رومـانـوف الى الحكم[٥] والتي انتقلت روسيـا في عهـد ملوكهـا الى مصـاف الـدول الكبرى، لاسيما في عهد بطرس الكبير (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥) ابرز قياصرة روسيا قاطبة. فقـد ادرك بطـرس ان تحقيق طموحات بلاده، والوصول الى بحار الاسود وقزوين في

(٣) يستثنى من ذلك عهد كريم خان الزند الذي شمل الفترة الواقعة بين عامي ١٧٦٠ و ١٧٧٩.

(٤) وهم على التوالي اغا محمد خان وفتح علي شاه ومحمد شاه وناصر الدين شاه ومظفر الدين شاه ومحمد علي شاه واحمد شاه.

(٥) ظلت في الحكم لغاية ثورة شباط ١٩١٧.

الجنوب، والبلطيق في الغرب، يتطلب بناء اقتصاد رصين وجيش قوي واسطول متطور ونظام اداري مركزي حديث. واكتملت «سمير اميس الشمال»، الالمانية الاصل كاترين الثانية (١٧٦٢ - ١٧٩٦)، ما بدأه سلفها بطرس الكبير. فيعتبر عهدها الذي يوافق النصف الثاني من القرن الثامن عشر تقريبا زمن تطور الرأسمالية في اقتصاد روسيا. ففي منتصف ذلك القرن شغلت روسيا المكان الاول في مجال صهر الحديد الصب، ومكانا متقدما في مجال التعدين عموما على صعيد العالم (في العام ١٧٥٠ بلغ عدد مؤسسات التعدين في روسيا حوالي ١٠٠ مؤسسة)[6]. وفي اواخر القرن نفسه تجاوز عدد المؤسسات الصناعية الروسية الالفين، كان نصفها يدخل في عداد المؤسسات الصناعية الكبيرة حسب مقاييس ذلك الزمن، اذ بلغ مجموع العاملين في هذه، وتلك حوالي ٢٠٠ الف شخص. وعند حلول القرن التاسع عشر تضاعف الرقم الاخير، فقد بلغ عدد العمال الاجيرين في روسيا انذاك اكثر من ٤٠٠ الف[7].

ولئن اصبحت روسيا متقدمة بذلك قياسا مع الشرق المجاور لها، الا انها بقيت متخلفة قياسا مع الغرب المنافس لها. من هنا فان مصالح روسيا النامية تطلبت الاستمرار في البحث عن الاسواق، وعن مصادر للخامات، وعن طرق مائية صالحة لتجارتها، وعن اراض خصبة جديدةً ان امكن ذلك. وبعد ان بلغ التوسع الروسي غربا مداه الاقصى بسبب الاقتراب من قوى اوروبية متمكنة، جاء دور الجنوب باتجاه القفقاس وبحري الاسود وقزوين حيث مناطق حساسة وغنية كانت تعاني الامرين من ظواهر الانحلال والتفكك والاضطهاد لتؤلف بذلك نوعا من الفراغ السياسي امام دولة اوروبية كبرى على تخومها. ويعتبر ردع تتر القرم، الذين كانوا يشنون غزوات منهكة على حدود روسيا الجنوبية، عاملا اضافيا حفز بطرسبورغ اكثر للتوجه نحو الجنوب.

تمكنت روسيا القيصرية من تحقيق هذه الاهداف بفضل سلسلة من الحروب خاضتها ضد تركيا وايران. ففي الفترة الممتدة بين عامي ١٦٧٦ و١٨٧٨ خاضت

---

(6) «Istoria SSSR», Vol. I, Moscov., 1970, P. 82

«تاريخ الاتحاد السوفيتي»، باشراف البروفيسور ب. د. داتسيوك، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٧٠، ص ٨٢.

(7) Ibid, PP. 82, 97 - 98;

«تأريخ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. موجز»، موسكو، بلا، ص ١٠٦، ١٠٩.

روسيا عشر حروب ضد تركيا[8] تحول ما حققتها من مكاسب بفضلها، خصوصا في حربي ١٧٦٨ - ١٧٧٤ و ١٧٨٧ - ١٧٩١، الى عامل محرك اخر لتوجهات حكامها نحو ايران .

بدايات التوجه الروسي نحو ايران :

منذ أواخر العصر الوسيط توجهت انظار الروس نحو ايران ضمن اهتمامهم المبكر بمناطق الشرقين الاوسط والاقصى في اطار تجاري وديني . فقد ورد اسم مدينة تبريز مرارا في كتابات الرحالة الروس الاوائل الذين زاروا مناطق شرقية مختلفة[9] . فقبل ان ينتهي القرن الخامس عشر مر افناسي نيكيتين بالمدينة المذكورة في طريق عودته من الهند[10]، فوصفها كمركز مهم للقوافل التجارية[11] .

---

(٨) هي على التوالي :

١- حرب عام ١٦٧٦ - ١٦٨١ .
٢- حرب عام ١٦٨٦ - ١٦٩٩ .
٣- حرب عام ١٧١٠ - ١٧١٣ .
٤- حرب عام ١٧٣٥ - ١٧٣٩ .
٥- حرب عام ١٧٦٨ - ١٧٧٤ .
٦- حرب عام ١٧٨٧ - ١٧٩١ .
٧- حرب عام ١٨٠٦ - ١٨١٢ .
٨- حرب عام ١٨٢٨ - ١٨٢٩ .
٩- حرب عام ١٨٥٣ - ١٨٥٦ .
١٠- حرب عام ١٨٧٧ - ١٨٧٨ .

(٩) للتفصيل حول الموضوع راجع :

B.M. Dantsig, Russki putishestviniki na Blijnim Vostoke, Moscow, 1965, PP. 23 - 24.

ب . م . دانتسيك، الرحالة الروس في الشرق الادنى ، باللغة الروسية ، موسكو، ١٩٦٥ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(١٠) قام نيكيتين بسفرته الى الهند عبر ايران ذهابا وايابا في الفترة الممتدة بين عامي ١٤٦٦ و ١٤٧٢ . للتفصيل راجع :

L. Lockhart, The Fall of the Safavi Dynasty and the Afghan occupation of Persia, Cambridge, 1958, PP. 55 - 58.

(11) B.M. Dantsig, Blijnii Vostok v russkoy nauke i literature, Moscow, 1973, PP. 20 - 21.

ب . م . دانتسيك، الشرق الادنى في العلم والادب الروسيين، باللغة الروسية ، موسكو، ١٩٧٣ ، ص ٢٠ - ٢١ .

وبعد مرور نصف قرن دخلت اعتبارات جديدة ومهمة لدفع الروس باتجاه الجنوب . ففي سنة ١٥٥٦ تمكن القيصر الروسي ايفان الرابع الملقب بالرهيب، من الاستيلاء على خانية استراخان، فانتقلت بذلك كل الفولغا، اطول انهار اوروبا[١٢]، من منابعها حتى مصبها في بحر قزوين الى أيدي الروس، مما ادى الى ازدياد اهميتها التجارية، اذ بدأت مئات السفن المحملة بالبضائع تقطعها شمالا وجنوبا . وتبعا لذلك ازدادت اهمية المناطق المجاورة لوادي الفولغا واستراخان، وفي مقدمتها السواحل الشمالية لبحر قزوين . ويمكن تأشير ذلك بمثابة بداية طريق روسيا الى ايران والمناطق الغنية التي كانت بحوزتها . فلم ينقض عهد ايفان الرهيب (مات في موسكو سنة ١٥٨٤) حتى وصل التجار الروس الى شماخى في منطقة شيروان التي كانت تخضع لايران يومذاك[١٣]. وفي سنة ١٦٦٤ وصلت اصفهان بعثة روسية تتألف من سفيرين وما لايقل عن ٨٠٠ تابع، حملت رسالة خاصة وجهها القيصر الكسي ميخائيلوفيتش الى الشاه عباس الثاني . وبعد ثلاثة عقود من ذلك التأريخ وصل تاجران روسيان مدينة اصفهان، ذهبا منها الى ميناء بندر عباس على الخليج العربي ليسافرا من هناك الى الهند بحرا[١٤].

لم تتخذ بدايات التوجه الروسي نحو ايران طابعا سلميا صرفا . ففي العام ١٦٦٨، مثلا، قامت قوة روسية من القوزاق بالهجوم على المدينة الشمالية الايرانية مازندران[١٥].

ان هذه الامور، مع امور غيرها مشابهة لها، هيأت في مجملها خلفية، او اساسا لتوجه روسي لاحق نحو ايران، سرعان ماتتخذ طابعا جديدا في عهد بطرس الكبير.

---

(١٢) يبلغ طول نهر الفولغا حاليا ٣٥٣٠ كيومترا، اما في ذلك العهد فقد كان يبلغ من الطول ٣٦٩٠ كيلومترا .

(١٣) تدخل حاليا ضمن اذربيجان السوفيتية .

(١٤) للتفصيل راجع :

L. Lockhart, Op. Cit., PP. 55 - 58.

(15) G.N. Curzon, Persia and the Persian Question, Vol. I, second impression, London, 1966, P. 374.

الحملة او المسيرة الفارسية الاولى ونتائجها:

يعتبر عهد بطرس الكبير (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥) نقطة تحول مهمة على صعيدي السياستين الداخلية والخارجية في تأريخ روسيا الحديث. فقد اجرى بطرس اصلاحات كبيرة في حقول الاقتصاد والثقافة، والشؤون العسكرية والادارية. وكان بطرس يدرك حاجة البلاد الملحة الى منافذ بحرية كان يعتمد على ايجادها تطور روسيا اللاحق، واصبح قوله المعروف «ان روسيا بحاجة الى البحر» دليل عمل جاد للموسط الحاكم في بطرسبورغ، خصوصا وان «البحر كان قريبا، ولكن الوصول اليه كان متعذرا» حسب التعبير الموفق للبروفيسور بيوتر بيبفانوف[١٦] .

ولم تحقق روسيا في عهد بطرس القليل في هذا الميدان الحيوي، والمتشعب. ففي عامي ١٦٩٥ و١٦٩٦ شنت القوات الروسية ماعرف بحملات آزوف[١٧] التي انتهت بالاستيلاء على حصن آزوف المهم الذي كان يقع عند مصب نهر الدون في البحر الاسود[١٨]. وبعد اربع سنوات، وعلى مدى حوالي ربع قرن (من عام ١٧٠٠ حتى عام ١٧٢١) خاضت روسيا ماعرف بالحرب الشمالية ضد السويد، والتي انتهت باستيلائها على جزء حساس من سواحل بحر البلطيق[١٩] .

وفي اطار السياسة نفسها ازداد اهتمام روسيا بايران في عهد بطرس الكبير بصورة ملموسة، خصوصا وان بطرس كان يفكر في اقامة تجارة مباشرة بين روسيا والهند اما عن طريق بحر قزوين مرورا بايران، اوعن طريق خيوه وبخارى. وفي كل الاحوال كان القيصر الروسي يخطط من أجل السيطرة على تجارة الحرير الايراني الشهير،

---

(١٦) بيوتر بيبفانوف وايفان فيدوسوف، تأريخ الاتحاد السوفيتي، ترجمة خيري الضامن ونقولا طويل، موسكو، بلا، ص ١٩٩.

(١٧) نسبة الى بحر آزوف الذي يؤلف امتدادا للبحر الاسود، وتبلغ مساحته ٣٨ ألف كم^2، ومعدل عمق مياهه ٨ أمتار، وعمقه الاقصى ١٤ مترا.

(١٨) يقع ميناء ازوف على نهر الدون قبل مصبه في بحر ازوف بمسافة سبعة كيلومترات. احتل الاتراك موقعه عام ١٤٧١ وحولوه الى قلعة عسكرية. بعد احتلال القلعة من قبل قوات بطرس الكبير اعيدت ثانية الى تركيا سنة ١٧١١، ثم ضمت الى روسيا نهائيا بموجب بنود معاهدة «كوجك ـ كينارجى» في العام ١٧٧٤.

(١٩) للتفصيل راجع:

B.D. Datsiok, Op. Cit., PP. 88 - 91.

وعلى قزوين الـذي كان يرغب في ربطـه بأواسـط روسيـا بواسطـة عدد من الانهـر والقنـوات . ولئن كان اهتمـام بطـرس بقـزوين نابعـا في البـداية من رغبته في تحويل تجـارة التـرانسيت المهمة للحرير والبضائع الاخرى بين ايران واوروبا الى بلاده بدلا عن حلب وسميرنا ، فان اهتمامه به قد ازداد اكثر فاكثر باعتباره ممرا الى مناطق معينة في ما وراء القفقاس واواسط اسيا ، فضلا عن كونه بداية الطريق الى الهند عبر ايران[٢٠] .

انصب اهتمـام بطـرس الكبيـر بايـران في ظواهر واحداث متباينة ، قسم منها كان سلميا ، والاخر كان عسـكريا . ففي العام ١٦٩٧ بعث ممثلا عنه الى اصفهان بهدف تحريض حكام ايران على اعلان الحرب ضد الدولة العثمانية . وبعد احد عشر عاما بعث بطـرس اسـرائيـل اوري (Israel Ori) سفيـرا عنـه الى ايـران ، وقـد اثـار وصـوله المخـاوف لدى ممثلي الـدول الاوروبيـة الاخـرى في البـلاط الصفوي . وفي العام ١٧١٥ ارسـل بطـرس ، الـدبلومـاسي الشـاب ارتيم بيتـروفيتش فولينسكي (Artemii Petrovich Volynsky) الى ايـران ليمثـل بلاده هنـاك حسب الاصول الرسمية المتبعة يومذاك . وقد زود القيصر سفيره الثاني بتعليمات تقضي بالعمل من أجل :

١ـ عقد معاهدة تجارية مع ايران .

٢ـ اقناع الشاه ووزرائه بتحويل طريق نقل الحرير الايراني الى اوروبا من قبل التجار الارمن عبر الاراضي السورية والتركية الى الاراضي الروسية .

٣ـ اذا فشل في تحقيق مهمته المذكورة في البند السابق ، حينذاك عليه ان يبذل كل ما في وسعه لوضع العراقيل والصعوبات في طريق التبادل التجاري بين ايران والاقطار الاوروبية .

٤ـ جمـع معلومـات تفصيلية عن ظروف ايران ، وعن طرق مواصلاتها ، وانهارها التي تصب في بحر قزوين ، ومعرفة ما اذا كان بينها نهر تقع منابعه داخل الهند .

٥ـ جمع اكبر مايمكن من المعلومات عن قوة ايران العسكرية[٢١] .

استقبلت بعثة فولينسكي في العاصمة الايرانية اصفهان بحفاوة ، واسكن افرادها في احـد قصـور الشـاه هناك . وعلى ما يبدو ان فولينسكي انجز مهمته بنجاح ، فوضع

---

(٢٠) للتفصيل راجع :

L. Lockhart. Op. Cit., P. 59.

(21) Ibid. PP. 61, 103 - 104

تقارير مسهبة عن أهمية ايران، وعن واقع انحلال الحكم الصفوي الذي كان بطرس يرغب في معرفة كل ما يتعلق به(٢٢).

أثرت تقارير فولينسكى عن ايران على شخص بطرس الكبير الذي اصدر تعليمات جديـدة تقضي بالتوسـع في جمـع المعلومـات عن سواحـل قزوين، وعن الطـرق العسكـريـة في المنـاطق الشمالية من ايران. فانهمك المختصون بوضع خرائط عن قزوين تعتبر الاولى من نوعها، وبوضع تقارير مفصلة عن الطرق الصالحة للعمليات العسكرية داخل الاراضي الايرانية، خصوصا في منطقة كيلان(٢٣).

اعطت توجهات بطرس الكبير الايرانية ثمارها بسرعة. فلم ينته القرن السابع عشر الا واصبـح لدى روسيـا عدد من السفن في ميـاه قزوين. وفي العـام ١٧١١ توصـل الـروس الى اتفـاق مع تجـار الحرير في ايران، الذين كانوا من الارمن اساسا، بصدد تصـديـر الحـرير الايراني الى اوروبا عن طريق روسيا بدل الاراضي العثمانية، الامر الـذي عززه الـروس فيمـا بعـد بعقـد اتفـاق مشـابـه مع التجار البريطانيين حول نقل البضائع الاوروبية المصدرة الى ايران، وكذلك كل الحرير المصدر من قبل الاخيرة الى اوروبا عبر الاراضي الروسية(٢٤). وفي العام ١٧١٧ تم ابرام معاهدة تجارية بين روسيـا وايران نصت بنـودهـا على منـح التجـار الـروس حق شراء الحـريـر الايراني، وممـارسـة اعمـالهم بحـريـة في البـلاد كلهـا. وبموجب احد بنود المعاهدة تعهدت الحكـومـة الايرانية بأن تضمن الحماية للرعايا الروس. كما تم في أواخر سنة ١٧١٩ تعيين اول قنصل روسي في رشت هو سيميون افراموف (S. Avramov) (٢٥).

ولكن روسيـا كانت تطمـع في اكثـر ممـا حققت، الامر الذي ادى الى وقوع اول صدام عـسكـري مبـاشـر لهـا مع ايـران. وعلى مايبدو ان بطرس الكبير قد خطط لهذا

---

(٢٢) تعتبـر المـراكـز المختصـة بالدراسات الايرانية في الاتحاد السـوفيتي تقارير فولينسـكي مصدرا اصيلا ومهما لدراسة المراحل الاخيرة من العهد الصفوي. راجع:

M.S. Ivanov, Ochırk istorii Irana, P. 86.

(23) L. Lockhart, Op. Cit., PP. 176 - 177

(24) S.G.W. Benjamin, Persia and the Persians, London, 1887, PP. 416 - 417.

(25) L.Lockart, Op. Cit., PP. 103 - 104, 177; N.G. Kukanova, Ochirki po ıstorii russko - iranskikh torgovikh otnosheni :: xvii - pervoi polovine xix veka, Saransk, 1977, P. 263.

ن. ك. كوكـالـوفـا، موجـز تاريـخ العـلاقات التجارية الروسية الايرانية في القرن السـابع عشر حتى النصف الاول من القرن التاسع عشر، باللغة الروسية، سارانسك، ١٩٧٧، ص ٢٦٣.

الامر قبل وقوعه بسنوات[٢٦]، الا ان انشغاله باحداث الحرب الشمالية مع السويد أخر تنفيذه. وعلى اي حال بدأت بوادر الخلاف بين الدولتين بسبب باكو- الميناء القزويني المهم المعروف بنفطه منذ القديم[٢٧]، والذي جلب انظار بطرس الكبير بصورة خاصة، فطلب ان يبعث له بنموذج منه[٢٨].

في سنة ١٧٠٠ طالب الروس من الايرانيين بأن يمنحوهم حق الدخول في ميناء باكو بحرية، الا ان الشاه رفض الطلب، وأمر باقامة التحصينات الضرورية في الميناء.

ولئن لم يؤد الموقف الى تردي العلاقات بين الدولتين بصورة مباشرة، الا انه كان يدل على اطماع روسيا، وتوجهاتها نحو السواحل الجنوبية لبحر قزوين، والتي تجسدت مباشرة مع انتهاء الحرب مع السويد سنة ١٧٢١. فلم يمض سوى عام واحد على انتهاء الحرب المذكورة حتى بعثت بطرسبورغ بمندوب الى البلاط الايراني في اصفهان طالبة تعويضا ماليا عما لحق من اضرار بعدد من التجار الروس في مدينة شماخي الاذرية الشمالية على أيدي اللزكين[٢٩] الذين كانوا في ثورة ضد الفرس. وعندما وصل السفير الى اصفهان وجد الشاه السلطان حسين الصفوي قد تركها[٣٠]، وان الغازي الافغاني محمود يحتل عرش طاوس[٣١]. وقد رفض الاخير الاستجابة للطلب الروسي، وكان رده:

---

(٢٦) في رأي لوكخارت ان فكرة غزو ايران اختمرت في رأس بطرس الكبير في حدود العام ١٧١٥ (L. Lockhart, Op. Cit., P. 176)

(٢٧) ظلت نيران منابع النفط تشتعل في حقول سوره خاني المجاورة لمدينة باكو لغاية العقد الاخير من القرن الماضي.

(28) L. Lockhart, Op. Cit., P. 244

(٢٩) مجموعة اثنوغرافية صغيرة جورجية الاصل، تعيش في منطقة القفقاس، وفي تركيا.

(٣٠) ثار الافغانيون ضد الحكم الصفوي، وغزوا اراضي ايران سنة ١٧٢٢، وتمكنوا من وضع نهاية للعهد الصفوي بعد حصار العاصمة اصفهان، الامر الذي حاول بطرس الكبير استغلاله لتنفيذ خططه فيما يخص ماوراء القفقاس وبحر قزوين.

(٣١) «تخت طاوس» (عرش طاوس) مصطلح يطلق عادة على العرش الايراني، وهو عبارة عن كرسي مزخرف، ومطعم بالاحجار الكريمة، كلف في حينه مابين ١٠٠ الى ٢٠٠ ألف باون، قدمه الزعيم الروحي لاصفهان محمد حسين خان «هدية متواضعة» الى فتح علي شاه بمناسبة احدى زيجاته الألف.

«ان على القيصر حماية تجارته بنفسه»[٣٢]

تحول هذا الموضوع الى السبب المباشر لتنظيم الحملة التي دخلت التأريخ باسم «الحملة الفارسية الاولى» أو «حملة بطرس على ايران»، والتي عجل في أمرها ايضا تدخل الاتراك النشط في شؤون منطقة شيروان يومذاك. وقد حاول بطرس تبرير حملته في بيان له بالتأكيد على ضرورة معاقبة اللزكين، و«حماية مسيحيي ماوراء القفقاس من جورجيين وأرمن»[٣٣]. ومما له مغزاه الكبير ان القيصر الروسي قاد بنفسه حملة قواته على ايران. ثم انه حاول بذكاء استغلال السياسة القومية والدينية القصيرة النظر لحكام ايران تجاه شعوب ماوراء القفقاس التي غدت ترنو الى روسيا لانقاذها من وضع مأساوي دفع حتى أهل باكو ودربند ورشت، وهم شيعة مسلمون، للاستغاثة بحكام روسيا[٣٤]. وأثناء حملته الاولى على ايران تعاون مع بطرس باخلاص كل من القيصر الجورجي كارتلي فاختانغ السادس[٣٥] وعيسى الزعيم الروحي للارمن.

في أوائل صيف عام ١٧٢٢ بدأت حملة بطرس على ايران، وكان قوامها حوالي ٤٤ ألف رجل[٣٦]، نصفهم من المشاة اقلتهم ٢٧٤ سفينة عبر نهر **الفولغا** الى استراخان في ١٨ تموز، والنصف الاخر منهم كان يتألف من الخيالة. وبعد ان اجتمعت القوتان في استراخان توجهت الحملة صوب داغستان، ومن ثم دخلت اراضي اذربيجان الشمالية. واثر هزيمة السلطان اوطميش امام الجيش الزاحف في أواخر آب، دخل الروس دون قتال الى مدينة دربند.

وبحكم مجموعة من العوامل توقف الزحف الروسي في اولى مراحله عند دربند. فقبل كل شيء جابهت القوات الروسية صعوبات جمة في تجهيز رجالها بالمؤن، وخيولها بالعلف جراء الظروف المناخية التي عرقلت تحرك الاسطول في قزوين والفولغا. كما ان بلوغ ألروس دربند، وعزمهم على احتلال باكو اثارا حفيظة الباب العالي الذي كان يدعي السيادة على مناطق القفقاس. فحضر مقر بطرس في دربند

---

(32) G.N. Curzon, Op. Cit., Vol. I, P. 374

(33) M.S. Ivanov, Ohlrk..., P. 86.

(34) L. Lockhart, Op. Cit., PP. 186, 245

(٣٥) فاختانغ السادس (١٦٧٥ ـ ١٧٣٧) قيصر جورجيا الشرقية منذ عام ١٧٠٣. مثقف وسياسي بارز، اسس اول مطبعة في تبليس سنة ١٧٠٩.

(٣٦) تشير بعض المصادر خطأ الى ان الحملة كانت تتألف من ٣٠ ألف رجل

(راجع: G.N. Curzon, Op. Cit., P. 374)

مبعوث عثماني حاملا معه انذار السلطان الذي هدد بالتعاون مع الايرانيين لوقف التقدم الروسي(٣٧).

ومهما يكن من امر فان القيصر الروسي قرر الانسحاب من دربند الى استراخان قبل حلول فصل الشتاء، ومن هناك عاد الى بطرسبورغ بعد ان عهد بقيادة الحملة الى الجنرال م. أ. ماتيوشكين. كما ترك حاميتين، الاولى في دربند، والثانية في حصن ستراتيجي قريب بناه حديثا واطلق عليه اسم «الصليب المقدس».

وقبل ان يغادر بطرس مدينة استراخان جاءه مندوب يحمل رسالة من زعيم كيلان يقترح عليه تسليمه مدينة رشت مقابل تعاون الطرفين لردع الغزو الافغاني الذي بدأ يهدد المناطق الشمالية الايرانية. وقد رحب القيصر بالاقتراح، فتوجهت السفن الروسية الى رشت التي دخلتها في كانون الاول عام ١٧٢٢، لتغدو منطقة واسعة من كيلان تحت سيطرة روسيا اثر ذلك(٣٨).

بعد احتلال رشت جاء دور باكو التي دخلت سفن الاسطول الروسي مياهها في تموز من السنة التالية. وبعد قصف مدفعي دام اربعة ايام دخلت القوات الروسية المدينة نفسها يوم ٢٦ تموز، الامر الذي ادخل بهجة غامرة في نفس بطرس الكبير لانه كان يعتبر باكو «مفتاحا لكل اهدافه» حسب تعبيره(٣٩).

ان تقدم القوات الروسية، وواقع الانحلال الداخلي في ايران بسبب الغزو الافغاني دفعا بتركيا الى ارسال قواتها بدورها الى عمق مناطق ماوراء القفقاس واحتلال جورجيا مع عاصمتها تبليس، مما ادى الى تراجع الشاه طهماسب امام الروس، فوقع سفيره اسماعيل بيك «معاهدة تحالف» مع بطرس الكبير يوم ٢٣ أيلول ١٧٢٣ في بطرسبورغ، نصت على اربع نقاط رئيسة هي:

١- ان يقدم القيصر الروسي مساعدات عسكرية للشاه الصفوي ضد الغزو الافغاني والتهديد التركي، ومن أجل تثبيت عرش طهماسب.

٢- يعترف الشاه مقابل ذلك بعائدية مدينتي دربند وباكو، ومايتبعهما من مناطق لروسيا «الى الابد»، كما يتنازل لها ايضا عن مدن كيلان ومازندران واستراباد.

٣- يتعهد الشاه بتزويد القوات الروسية التي تدخل الاراضي الايرانية بالمؤن والجمال.

٤- اقامة «علاقات ود ثابتة» بين البلدين، وضمان حرية التجارة والتنقل لاتباع كل واحد منهما لدى الطرف الاخر.

(37) G.N. Curzon, Op. Cit., P. 374

(38) Ibid; M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 86

(39) L. Lockhart, Op. Cit., P. 246

ان معـاهـدة بطـرسبـورغ وان كانت «مجـرد اقـرار لواقـع راهن» حسب تعبيـر كيرزن[٤٠]، الا انها كانت مؤشرا مهما لما حققته توجهات روسيا الايرانية في مراحلها المبكـرة، اتبعتهـا مكـاسب آنيـة جديـدة في اطـار آخـر لمـوازين القوى في المنطقة نفسها. ففي البداية توترت العلاقات بين بطرسبورغ واستانبول اكثر من السابق جراء التـوقيـع على المعـاهـدة المـذكورة، مما حدا بالاتراك للتوغل في المناطق الشمالية الغـربيـة الايرانية، واحتلال مدينة كرمانشاه الكردية. وكاد ان يؤدي ذلك الى اندلاع نيـران حرب جديـدة بين روسيـا والدولة العثمانية لولا تدخل الفرنسيين لاصلاح ذات البين، فبـدأت مفـاوضـات مباشرة بين الدولتين اللتين كانت كل واحدة منهما تخشى تزايـد نفـوذ الطـرف الاخـر في ايـران، فاتفقتا على امور كان من شأنها ايجاد نوع من التـوازن بينهمـا في اطـار معـاهـدة وقعتا عليها في ٢٤ حزيران ١٧٢٤، نصت بنودها على تقسيم المنـاطق الشمـاليـة، مع جزء من المنـاطق الغربية الايرانية بينهما. فقد وافقت تركيا على ان تضم روسيا اليها جميع المناطق الايرانية التي تنازل عنها الشاه طهمـاسب بمـوجب معاهدة بطرسبورغ دون الاشارة اليها بالاسم. وبالمقابل وافقت روسيـا على ان تضم تركيـا اليهـا كل اذربيجـان وكـردستان الايرانيتين الى حد مدينة همـدان. ووافق الطـرفـان على ابـداء العـون للشاه طهماسب في حالة موافقته على مضمون المعاهدة الجديدة، والا فانهما هددا بالعمل من أجل تنصيب شخص آخر مكانه[٤١].

لم يستمـر اتفـاق بطـرسبـورغ واستـانبـول بصـدد ايران طويلا، خاصة لان تركيا سرعـان مابـدأت بالتجـاوز على ماحددته لها معاهدة حزيران ١٧٢٤. فلم تمر سوى اشهـر قليلة على ابـرام المعـاهـدة عندما استولت تركيا على قزوين واستراباد، ومدن ايـرانيـة اخـرى ابقتها بنود المعاهدة في حوزة الشاه طهماسب. ولم ينته العام ١٧٢٥ حتى توجهت القـوات التـركيـة صوب العـاصمـة الايرانية اصفهان. وفي غضون فترة وجيـزة استـولى الاتـراك على جورجيـا وارمينيـا واذربيجان وكردستان، وعلى جزء من داغستـان وشيـروان، مع قسم كبيـر من اواسط ايران. ولم يبق في حوزة الروس سوى جزء من داغستان وشيروان.

ولكن سرعـان ماطـرأ تغييـر مهم آخـر على السـاحـة الايرانية رافق ظهور نادر شاه الافشـاري فوق المسـرح في اواخر العقد الثالث من القرن الثامن عشر[٤٢]. فبعد ان

---

(40) G.N. Curzon, Op. Cit., P. 736

(41) M.S. Ivanov, Ochirk..., PP. 87 - 90; L. Lockhart, Op. Cit., PP. 233 - 235.

(٤٢) برز نادر شاه الافشـاري (١٦٨٨ ـ ١٧٤٧) في حيـاة ايـران السيـاسية منذ عام ١٧٢٦. تسنم العـرش سنـة ١٧٣٦ ليبـدأ بذلـك مايعرف في تأريخ ايران بالعهد الافشاري، نسبة الى اسم عشيرة الافشار القزلباش الذي تحول الى لقب لنادر شاه.

نجح الزعيم الافشاري في طرد الافغان من ايران توجه نحو تركيا التي دخل في حرب ضدها استمرت من عام ١٧٣٠ حتى عام ١٧٣٦ ، تمكن بفضلها من استعادة ارمينيا وجورجيا وداغستان واذربيجان وكردستان وغيرها من المناطق التي استولت عليها القوات التركية. وقد ابدى الروس المساعدة العسكرية للقوات الايرانية العاملة ضد القوات التركية في اطراف ماوراء القفقاس[٤٣].

اتخذ التقارب الروسي ـ الايراني في عهد نادر شاه مدى ابعد من ذلك، الامر الذي نجم عن جملة عوامل تأتي في مقدمتها تردي العلاقات بين بطرسبورغ واستانبول[٤٤]، وموت القيصر الطموح بطرس الكبير في كانون الثاني ١٧٢٥، وتثبيت نادر شاه[٤٥] لاركان حكمه، ونمو قوته. وبما ان روسيا كانت على وشك الدخول في حرب جديدة ضد تركيا، فانها حاولت في العقد الرابع من القرن الثامن عشر خطب ود ايران، فوقعت معها في ١ شباط ١٧٣٢ معاهدة في مدينة رشت نصت على ان تعيد روسيا لايران مدن كيلان ومازندران واسترا باد التي منحتها اياها «معاهدة بطرسبورغ ١٧٢٣». والتزمت روسيا بسحب قواتها الموجودة في المدن المذكورة الى ماوراء نهر كورا الذي اعتبر حدا فاصلا بين ممتلكات الدولتين في ماوراء القفقاس. وبموجب «معاهدة رشت» حصلت روسيا على امتيازات اقتصادية، بما في ذلك اعفاء صادراتها الى ايران، ووارداتها منها من كل انواع الضرائب الكمركية.

وبعد عامين ونيف وقعت الدولتان معاهدة جديدة قرب مدينة كنجه[٤٦] الاذرية الشمالية (٢١ آذار ١٧٣٥) اعادت روسيا الى ايران بموجب بنودها مدينتي دربند وباكو وما والاهما من مناطق، والتزمت ايران بأن لاتسمح لطرف دولي ثالث بفرض سيطرتها عليها. وبموجب البند الثاني من «معاهدة كنجة» تعهدت ايران بأن تستمر في حربها الجارية مع تركيا لغاية ان تستعيد منها كل المناطق التي كانت تخضع سابقا للنفوذ الايراني، وان تعيد من بينها الجزء الشرقي من جورجيا الى مملكة كارتيل فاختانغ السادس. كما التزم الطرفان المتعاقدان بعدم الدخول مع تركيا في مفاوضات من شأنها ان تضر بمصالح احدهما، وان لايعقد اي منهما صلحا منفردا

---

(43) M.S. Ivanov, Ochırk..., PP. 94 - 95

(٤٤) دخلت روسيا في حربها الرابعة ضد تركيا سنة ١٧٣٥ والتي استمرت لغاية سنة ١٧٣٩.

(٤٥) تلقب بالشاه في العام ١٧٣٦، الا انه تحول الى الحاكم الفعلي لكل ايران قبل ذلك التأريخ بسنوات.

(٤٦) كان كنجه مركزا اسلاميا مهما في القفقاس، تعرف حاليا بكيروفاباد (مدينة كيروف)، وتعتبر ثاني مدينة بعد العاصمة باكو في اذربيجان السوفيتية.

مع تركيا[٤٧] . ومن جديد اكدت بنود المعاهدة مصالح روسيا التجارية في ايران.

وهكذا لم تبق لدى روسيا في ايران في اواسط القرن الثامن عشر سوى مقيمية في ميناء انزلي على قزوين، ووكيل تجاري في دربند اقتصرت مهمتهما اساسا على الاشراف على تجارة الحرير هناك[٤٨] . وبالطبع لم يعن ذلك وضع حد لتوجهات روسيا الايرانية التي دخلت مرحلة جديدة قبل نهاية القرن الثامن عشر.

مرحلة جديدة في العلاقات الايرانية ـ الروسية :

مع تطور العلاقات الرأسمالية في روسيا، وتشعب سياستها ومصالحها الدولية، ازدادت اهمية ايران في نظر حكامها اكثر فاكثر، خصوصا بعد ان بدأوا بدورهم يرنون الى الهند الاسطورية كورقة مؤثرة في العلاقات الدولية. ففي العام ١٨٨٥ وضع الجنرال كرابوتكين (Krapotkin) خطة سرية لغزو الهند أخذت بنظر الاعتبار ضم كيلان ومازندران واذربيجان وخراسان في اطار ماوصف «بالمرحلة الايرانية للعمليات»[٤٩] .

وفي الوقت نفسه استمر الروس في محاولاتهم لاستغلال استياء شعوب ماوراء القفقاس من سياسة حكام ايران، محققين الكثير في مجاله، فقد تحولت بلادهم الى ملجأ لكبار ساسة جورجيا المضطهدين. ففي العقد الرابع من القرن الثامن عشر بلغ عدد اللاجئين الجورجيين الى مدينة موسكو وحدها حوالي ثلاثة الاف شخص، من بينهم فاختانغ السادس، وعدة مئات من رجاله ظلوا على اتصال مباشر ببني جلدتهم، واسهموا كثيرا في توطيد علاقاتهم بالروس. وازداد التقارب بين الطرفين اكثر في عهد القيصر الجورجي هيراكلي الثاني (Heraclius II) (١٧٤٤ ـ ١٧٩٨)[٥٠] الذي وقع في كانون الثاني عام ١٧٨٣ «معاهدة صداقة» مع الروس وضع بلاده

---

(٤٧) لم يلتزم نادر شاه بهذا البند من «معاهدة كنجه»، ففي اواخر عام ١٧٣٥ دخل بصورة منفردة في مفاوضات الصلح مع تركيا، والتي اسفرت عن توقيع معاهدة استانبول يوم ٢٨ أيلول ١٧٣٦، فيما استمرت روسيا في حربها الرابعة مع تركيا مدة ثلاث سنوات اخرى.

(48) G.N. Curzon, Op. Cit., PP. 734 - 735

(49) Ibid, P. 386

(٥٠) هيراكلي الثاني (١٧٢٠ ـ ١٧٩٨) سياسي جورجي متنور، اصبح قيصرا على جورجيا الشرقية سنة ١٧٤٤ . بذل جهودا كبيرة من أجل توحيد بلاده وتطويرها.

بموجب بنودها تحت حمايتهم[٥١]. وفي السنة نفسها وصلت العاصمة تبليس حامية روسية.

ولكن رافق الانعطاف الجديد، والخطير في علاقات ايران وروسيا ظهور القاجاريين فوق المسرح السياسي في اواخر القرن الثامن عشر.

استغل اغا محمد خان القاجاري (١٧٤٢ - ١٧٩٧) انحلال حكم الزنديين[٥٢] في ايران، فدخل منذ اواسط العقد التاسع من القرن الثامن عشر في صراع مستميت معهم استمر لمدة حوالي عقد من الزمن، لينتهي في اواخر سنة ١٧٩٤ بانتصار ساحق له دشن بداية عهد جديد في تأريخ ايران الحديث يعرف بالعهد القاجاري[٥٣] الذي استمر لغاية اواسط العقد الثالث من القرن العشرين.

كان اغا محمد خان يحلم ببعث سطوة الصفويين، واحياء امبراطورية نادر شاه الافشاري الواسعة. فقد كان يخطط من أجل اقامة دولة شاسعة تضم كل خراسان، وسهوب تركمانيا، وكل مناطق القفقاس، وهرات في افغانستان، وكل كردستان[٥٤]، دون ان يأخذ واقع تناسب القوى على الصعيد الدولي بنظر الاعتبار. فما ان استتبت

---

(٥١) دكتور علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول (از كلناباد تا تركمانجاى ١١٣٤ - ١٢٤٣ هـ)، جاب سوم، تهران، ١٣٤٢، ص ٣٨؛

P. Avery, Modern Iran, London, Second Impression, 1965, P. 25.

(٥٢) الزند عشيرة كردية معروفة تسكن غرب ايران وجنوبها. تمكن زعيم الزنديين المعروف محمد كريم خان (١٧٠٤ أو ١٧٠٥ - ١٧٧٩) من استغلال ظروف التسيب التي سادت البلاد، ففرض حكمه على كل ارجائها. استمر العهد الزندي من عام ١٧٦٠ حتى عام ١٧٩٤، وقد حكم خلاله كريم خان الزند (١٧٦٠ - ١٧٧٩) الذي يطلق عليه المؤرخون الغربيون لقب «الملك الصالح»، وابو الفتح خان (١٧٧٩ - ١٧٨٢)، وعلي مراد خان (١٧٨٢ - ١٧٨٥)، وجعفر خان (١٧٨٥ - ١٧٨٩)، ولطف علي خان (١٧٨٩ - ١٧٩٤).

(٥٣) القاجاريون - نسبة الى القاجارية وهي عشيرة تركية الاصل، شيعية المذهب، تقطن شمال اذربيجان ومازندران، أبدت مساعدات قيمة للصفويين، مكنتهم من فرض سيطرتهم على اذربيجان اولا، ثم على كل ايران في القرنين الخامس عشر والسادس عشر (للتفصيل عن اصل القاجاريين راجع الدراسة العلمية التي اجراها المؤرخ الايراني سعيد نفيسي في كتابه:
«تاريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر»، مجلد اول (از اغاز سلطنت قاجارها تا بايان جنك نخستين با روسية)، تهران، ١٣٣٥، ص ٥ - ١٩.

(54) N.A. Kuznitsova, Politicheskoya sotsialno - i economicheskoe polojenie Irana v kontse XV 111 - pervoy polovine X1X v., «Ochirk novoy Istorii Irana», Moscow, 1978, P. g.

أ. ن. كوزنيتسوفا، الوضع السياسي والاجتماعي - الاقتصادي لايران في اواخر القرن الثامن عشر - النصف الاول من القرن التاسع عشر، في كتاب «موجز تأريخ ايران الحديث»، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٧٨، ص ٩.

له الامور في الداخل[٥٥] حتى بدأ يخطط لاعادة سيطرة بلاده على مناطق ماوراء القفقاس، وخصوصا على وادي نهر كورا الاوسط وكل جورجيا. ولتحقيق احلامه اولى مؤسس الدولة القاجارية الجيش جانبا كبيرا من اهتمامه[٥٦]. كما مارس ضغطا مباشرا على القيصر الجورجي، هيراكلي الثاني. ففي نيسان ١٧٩٥ بعث اليه رسالة تهديد يطالبه فيها بالاعتراف بسيادة ايران على بلاده، ودفع ماترتب عليه من اموال. وعبر الزعيم القاجاري في رسالته عن استغرابه لتوجه هيراكلي الى الروس، مع ان جورجيا «كانت خاضعة لايران على مدى مئات السنين». وكتب له ايضا «صحيح اننا لسنا على دين واحد، الا ان علاقاتكم كانت دائما مع ايران». وفي الختام بدأ سيل التهديد، فقد ذكر مانصه:

«انني اليوم في منتهى قدرتي اخطركم بقطع كل علاقاتكم مع روسيا، والا فانني سأزحف بجيشي على جورجيا قريبا، واريق نهرا من دماء الروس والجورجيين»[٥٧].

جاء جواب هيراكلي الثاني مخيبا لآمال اغا محمد خان، فقد اكد له انه «لايعترف الا بسيادة روسيا»[٥٨].

وكان من الطبيعي ان تسوء العلاقات بين روسيا وايران في العهد القاجاري بسرعة. ففي بداية حكمه سمح اغا محمد خان للروس باقامة وكالة تجارية لهم قرب استراباد عرفت بدار المعاملة او «تجار تخانه»، الا انه سرعان ماطرد العاملين فيها

---

(٥٥) لغاية اواخر عام ١٧٩٤ تمكن اغا محمد خان من فرض سيطرته على جميع ارجاء ايران فيما عدا خوراسان وجزء من كردستان.

(٥٦) كان الجيش الايراني في العهد القاجاري يتألف من قوات ثابتة قوامها حرس الشاه الخاص، والقوات التي تقدمها الولايات. للتفصيل راجع:

K.S. Lambton, Landlord and Peasant in Persia. A study of land tenure and land revenue administration, London, 1953, P. 137.

(٥٧) نشرت مجلة «Revue du Monde Musulman» الفرنسية نص رسالة اغا محمد خان بعددها الصادر في كانون الثاني ١٩١٠.

(٥٨) للتفصيل حول الموضوع راجع:

دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ٣٩ ـ ٤٠؛

«History of Persia under Qajar rule», translated from the persian of Hasan-e Fasa'i's «Farsnama-ye Naseri», by H. Busse, New York and London, 1972, PP. 65-68.

بحجة انهم اقاموا هناك مايشبه قلعة عسكرية[٥٩]. وسرعان ماتوالت الاحداث التي انتهت بوقوع صدام واسع بين ايران وروسيا، تحول غزو اغا محمد خان لجورجيا الى سببه المباشر والاساس.

ان اغا محمد خان الذي تصفه المصادر الفارسية كشخص قاسي القلب، لئيم الطبع، ماكر السريرة[٦٠]، قد هيأ لحملته على جورجيا بكتمان كبير، فجمع في ضواحي طهران، التي اتخذها عاصمة لملكه، جيشا جرارا قوامه ٦٠ ألف مسلح، دون ان يعلم أحد بوجهته على وجه التحديد[٦١]. وفي ربيع عام ١٧٩٥ تحرك على رأس قواته صوب القفقاس، فاحتل قره باغ واذربيجان الشمالية، ثم دخل اراضي جورجيا متوجها نحو عاصمتها تبليس التي اضطر هيراكلي الثاني الى تركها، والتوجه الى الجبال المجاورة بعد ان ابدى مقاومة يائسة للقوات الغازية، اذ لم يكن بوسعه ان يجمع اكثر من خمسة الاف مسلح لردع المعتدين[٦٢].

دخل اغا محمد خان مدينة تبليس يوم ١٢ ايلول ١٧٩٥ دون قتال، وعلى مدى ثمانية أيام اطلق العنان لرجاله ليفعلوا ما يشاءوا باهلها، فارتكبوا جرائم فظيعة اسهبت في وصفها المصادر الفارسية والغربية على حد سواء[٦٣]، والتي ذهبت ضحيتها الاف مؤلفة من الابرياء، مع قدر غير قليل من الاثار الحضارية الجورجية. ولم تكن ضحايا الجورجيين في المناطق الاخرى أقل من ذلك، بحيث ان بعض الوثائق التي تعود الى تلك الفترة تؤكد على ان عدد سكان جورجيا قد تقلص الى النصف تقريبا

---

(٥٦) ابراهيم تيموري، عصر بى خبرى يا تاريخ امتيازات در ايران، تهران، ١٣٣٢، ص ٢٥٠.

(٦٠) راجع:

سعيد نفيسى، تأريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، جلد اول، ص ٤٦ - ٤٩، ٥٢ - ٥٤.

(٦١) عبدالله رازي، تاريخ مفصل ايران از تاسيس سلسله ء ماد تا عصر حاضر، جاب دوم، تهران، ١٣٣٥، ص ٤٥٦ - ٤٥٧؛ سعيد نفيسى، تاريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، جلد اول، ص ٥٠.

(٦٢) «وزارة الخارجية. السياسة الخارجية لروسيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وثائق وزارة الخارجية الروسية. التسلسل الاول (١٨٠١ - ١٨١٥)، المجلد الاول (آذار ١٨٠١ - نيسان ١٨٠٤)، ص ٧٣، الوثيقة رقم ١٧.

(٦٣) دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسى ايران، جلد اول، ص ٤٤؛ سعيد نفيسى، تاريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص ٥٠، ٦٤؛

M.S. Ivanov, Ochirk..., PP. 113 - 114.

قيـاسـا مع ماكـان عليـه عام ١٧٨٣ (من ٦١ ألف اسـرة الى ٣٥ ألف)[٦٤]. وحسبما يؤكد المستشرق السوفيتي المعروف البروفيسورم . س. ايفانوف فان اغا محمد خان نظم حملة دعاية لتغطية اعماله في جورجيا التي اعتبرها «نضالا من أجل الدين، من أجـل الاسـلام»[٦٥]، الا انـه لم يتـردد أثناء الحملة نفسها في استخدام قدر كبير من القسـوة ايضـا مع المسلمين من سكـان طالش الجبليين[٦٦]، وسكان بعض المناطق في قره باغ لمجرد انهم لم يعلنوا الولاء له مباشرة[٦٧].

بعد ان أمضى اغا محمد خان تسعة ايام في العاصمة الجورجية قفل راجعا الى بلاده مستصحبا معه ١٦ ألف شاب وشابة حول معظمهم الى خدم في بيوت الامراء والاثرياء[٦٨]. ولقد بلغ اعتزازه بما حققه في القفقاس حد انه بعد عودته فقط وافق ان يتبـوأ العـرش، ويلقب باول شاه قاجـاري، ويتقلد السيف الـذي كان فوق قبـر الشاه اسمـاعيـل الصفوي في أردبيل[٦٩]. ومنذ ذلك الوقت اصبح يعرف بلقبه الجديد اغا محمد شاه.

كان رد فعل روسيا على حملة اغا محمد خان قويا، فاصدرت بطرسبورغ الاوامر الى «حامية قزوين» المؤلفة من ١٣ ألف رجل، يقودهم الجنرال فاليرى زوبوف (V. Zubov)، ويـسـانـدهم اسطـول قزوين، بالتـوجـه الى اذربيجان عبر داغستان، ليبدأ بذلك مايعرف بالحملة الفارسية عام ١٧٩٦.

بعـد تعـزيزها تقدمت القوات الروسية من قزلر يوم ١٨ نيسان ١٧٩٦، وفي ٢ أيار حاصـرت دربنـد التي احتلتهـا بعـد ثمـانية ايام. وفي ١٥ حزيران دخل الروس كوبا ويـاكـو في وقت واحـد دون قتال، واصلوا بعده التقدم واحتلوا شيروان ونوخا وقره باغ

---

(٦٤) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، التسلسل الاول، المجلد الاول، ص ٧٣، الوثيقة رقم ١٧.

(65) M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 113.

(٦٦) طالش شعب مسلم صغيـر، شيعي المـذهب، يقطن في جنـوب اذربيجـان الـسـوفيتية، وفي شمال ايران. بموجب تقديرات سنة ١٩٧٢ بلغ تعداد الطالش في ايران ٧٢ ألف شخص.

(67) N.A. Kuznitsova, Op. Cit., P. 10

(٦٨) تشير بعض المصادر الى ١٥ ألف شخص نقلهم اغا محمد خان معه الى داخل ايران (راجع على سبيل المثال: سعيد نفيسى، تأريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص ٦٤).

(٦٩) سعيد نفيسى، تأريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص ٥٠ ـ ٥١.

التي تشرف على هضبة أرمينيا[٧٠] . ولغاية ٢١ تشرين الثاني من العام نفسه وصلت القوات الروسية الى النقطة التي يلتقي فيها نهرا اراس وكورا استعدادا للتقدم في عمق الاراضي الايرانية بعد ان أصبح الطريق الى تبريز مفتوحا امامها، الامر الذي حال دون تحقيقه موت الامبراطورة كاترين الثانية، وانتقال العرش الى ابنها بول (بافل) الاول في سنة ١٧٩٦ ، فقد اتبع القيصر الجديد سياسة جديدة على الصعيد الخارجي امتدت آثارها الى ايران، ومناطق القفقاس ايضا . ففي كانون الاول من العام نفسه اصدر الاوامر الى قواته العاملة في الجبهة الايرانية بالانسحاب من منطقة قفقاس، الامر الذي وضع القيصر الجورجي هيراكلي الثاني في موقف حرج للغاية، خصوصا بعد ان تجاهل جميع رسائل الشاه الايراني بصدد الخضوع له[٧١] .

ولكن لم يحل قرار القيصر الروسي دون اقدام اغا محمد شاه على تنظيم حملة ثانية ضد جورجيا التي كان متعطشا للانتقام من قيصرها هيراكلي لكونه قد طلب مساعدة روسيا لردع الخطر الايراني . ومن الجدير بالذكر ان الفرنسيين كانوا يحاولون من جانبهم تشجيع اغا محمد شاه، ودفعه للاستمرار في موقفه المعادي للروس، وكانوا يميلون الى ايجاد تحالف وثيق بينه وبين السلطان العثماني في ذلك الاتجاه . ولتحقيق هذا الهدف بعثت باريس بمندوبين الى الشاه هما برونييه (Brugniere) واوليفييه (Olivier) ، كانا يحملان معهما صورة معاهدة عقدها البلدان في العهد الصفوي[٧٢] .

باشر اغا محمد شاه حملته الثانية على جورجيا من طهران في آذار عام ١٧٩٧ . وفي غضون فترة وجيزة وصل رجال الحملة نهر اراس، وبعد ان عبروه احتلوا قلعة شوش . ومع تقدم الحملة وزعت اوامر الشاه على الحكام والمتنفذين تطلب منهم الخضوع المطلق للحكم القاجاري، ولقد اضطر العديد من المعارضين الى اللجوء للمناطق الحصينة هربا من بطش الغزاة .

توقف اغا محمد خان في شوش انتظارا لانسحاب القوات الروسية من جورجيا،

---

(٧٠) دكتر علي بينا، تأريخ سياسي وديلوماسي ايران، جلد اول، ص ٤٩ ؛
W.D. Allen and P. Muratoff, Caucasian battlefields. A history of the wars on the Turco - Caucasian border 1828 - 1921, Cambridge, 1953, P. 19.

(71) N.A. Kuznitsova, Op. Cit., P. 14.

(٧٢) دكتر علي بينا، تأريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ٤٦ - ٤٨ ؛
M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 129.

فقد بلغه قرار بطرسبورغ بخصوص ذلك قبل ان يغادر طهران[٧٣].

ولكن حدث في شوش مالم يكن في الحسبان، فقد دبر اثنان من حرس الشاه[٧٤]، كانا على اتصال بزعماء مستائين، امر اغتياله في خيمته يوم ١٨ أيار ١٧٩٧[٧٥].

ساء وضع الجيش الايراني بعد مقتل اغا محمد شاه، فقد انهمك قادته في تقسيم الغنائم، وبالنزاعات الشخصية، حتى ان مراسيم دفن الشاه قد تأخرت لمدة عدة ايام بسبب ذلك[٧٦]. كما رجع العديد من اعوانه المقربين مع رجالهم الى مواطنهم، منهم رئيس عشيرة شكاك الكردية صادق خان الذي حامت حوله الشبهات في تدبير امر اغتيال الشاه، خصوصا وانه استولى على مجوهراته، ومنح حمايته لمنفذي مؤامرة اغتياله، بل انه طالب ان يخلفه في العرش[٧٧]. اما ماتبقى من الجيش النظامي فقد قفل راجعا الى طهران بعد ان تعرضت معسكراته للسلب والنهب من قبل السكان المحليين[٧٨].

أعقبت مقتل اغا محمد شاه فترة هدوء نسبي في العلاقات بين ايران وروسيا لم تستمر طويلا، ولاسيما ان احداثا جديدة عجلت في وقوع صدام آخر أوسع بينهما.

---

(73) N.A. Kuznitsova, Op. Cit., P. 14.

(٧٤) تشير بعض المصادر الى ان ثلاثة من حراس الشاه اشتركوا في تنفيذ مؤامرة اغتياله. راجع مثلا:

«Farsnama-ye Naseri», PP. 73 - 75

(٧٥) دكتر علي بينا، تأريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ٥٠ ـ ٥٢. تشير بعض المصادر الى يوم ١٧ حزيران ١٧٩٧ تاريخا لاغتيال اغا محمد شاه.

(٧٦) دفن اغا محمد شاه في شوش، ونقلت رفاته فيما بعد الى مسجد عبدالعظيم قرب طهران ومن ثم نقلت من هناك الى النجف.

(٧٧) توجد آراء متباينة حول اسباب مقتل اغا محمد شاه، ففضلا عن الرواية المتعلقة بصادق خان الشكاكي الذي يقال انه كان على اتصال مباشر بالاذربيجانيين والجورجيين، يوجد رأي آخر يؤكد ان احد حراس الشاه كان جورجيا في الاصل، فاقدم على فعلته بتحريض من ابناء جلدته. وحسب رأي آخر ان الشاه كان ينوي تنفيذ حكم الموت بثلاثة من حراسه، فاقدم هؤلاء عى اغتياله طلبا للنجاة، لكن الرأي الارجح هو ان الامر كان من تدبير صادق خان (للتفصيل حول الموضوع راجع: سعيد نفيسي، تأريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص ٧٥؛ دكتر علي بينا، تأريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ٥٢؛

«Farsnama-ye Naseri», PP. 73 - 75; N.A. Kuznitsova, Op. Cit., P. 14).

(78) «Farsnama-ye Naseri», P. 75.

فبعد فترة استتبت الامور داخل ايران لصاحب اطول لحية في العالم(٧٩)، زوج الف اجمل امرأة فارسية وتركمانية واذرية وجورجية وكردية، ووالد ٢٦٢ ولدا وبنتا دفن منهم في الحياة ١٥٩(٨٠)، المؤمن بالسحر والطلسم والتنجيم، الضعيف امام الشدائد، الغارق حتى اذنيه في البخل والجشع، ثاني ملوك ال قاجار، ابن شقيق اغا محمد شاه(٨١) بابا خان الذي اصبح يعرف بفتح علي شاه منذ يوم احتفاله لمناسبة تسنمه للعرش في عيد نوروز، ٢١ آذار ١٧٩٨، والذي دام حكمه حوالي ٤٠ عاما، ولكن دون ان «يخلف شيئا يخلده في التأريخ» حسب تعبير البارون كورف(٨٢).

ومع ان فتح علي شاه، على العكس من عمه المتوفي تماما، لم يكن جريئا، ولم يكن عسكريا مرموقا(٨٣)، الا انه كان متعطشا للتوسع، فوقع فريسة سهلة للاحداث، والعلاقات الدولية المتشابكة التي حملته على دفع بلاده الى اتون عدد من الحروب.

وقد توجهت انظار الدول الكبرى فعلا نحو ايران اكثر من السابق، خصوصا بعد بروز نابليون بونابارت فوق المسرح. فبعد ان فشلت حملته على مصر بدأ نابليون يفكر في حملة جديدة تكون وجهتها الهند عن طريق ايران. ولتحقيق ذلك عقد نابليون في اواخر عام ١٨٠٠ معاهدة مع القيصر الروسي بول الاول(٨٤) نصت بنودها على اشتراك قوات بلديهما في الحملة المقررة، التي كان يجب حسب الخطة المرسومة لها ان يقوم الجيش الروسي بغزو شمال الهند عن طريق اسيا الوسطى، فيما تقرر ان يتقدم الفرنسيون من البحر الاسود الى نهر الدون، ثم نهر الفولغا،

---

(٧٩) حسبما يذكر شاهد عيان اوروبي كانت لحية فتح علي شاه تصل القسم الاسفل من بطنه، وارضاء له كان الفنانون يرسمون لحيته بطول اكبر من واقعها. راجع:

Baron E. Korf, Vospominania o Persia 1834 - 1835, St.Pet., 1838, P. 138

البارون ي. كورف. ذكريات عن بلاد فارس في ١٨٣٤ - ١٨٣٥، باللغة الروسية، بطرسبورغ، ١٨٣٨، ص ١٣٨.

(٨٠) في العام ١٨٨٢ بلغ عدد نسله حوالي عشرة الاف شخص كان جميعهم يحملون لقب الامير او الاميرة، حتى غدا قولا مألوفا بين الناس انه «حيثما تذهب فهناك القمل والجمال والامراء».

(٨١) كان اغا محمد شاه خصيا، فلم يخلف أحدا من بعده.

(82) E. Korf, Op. Cit., P. 138.

(٨٣) لم يشترك فتح علي شاه في اي من حملات بلاده العسكرية الكثيرة سوى مرة واحدة اثناء الحرب مع روسيا، ولكن ماان علم في الطريق باندحار جيشه حتى قفل راجعا الى عاصمة ملكه.

(٨٤) كانت روسيا قبل ذلك في تحالف مع اعداء فرنسا، لاسيما مع النمسا وانكلترا، الا ان استيلاء الاخيرة على جزيرة مالطا اثارت القيصر الروسي بول الاول الذي انتقل اثر ذلك الى الخندق المقابل.

فيصلون عن طريقهـا الى بحـر قزوين، فاستـرابـاد في طريقهم الى هرات داخـل افغانستان والالتقاء بالقوات الروسية على الحدود الشمالية ـ الغربية للهند. وقد باشر القيصر الروسي فعلا بتنفيذ المرحلة الاولى من خطة الغزو حينما اصدر في مطلع سنة ١٨٠١ اوامـره الى قوة من القـوزاق قوامهـا ٢٢,٥ الف رجـل، بالتحـرك صوب الهنـد[٨٥]. ومن جانبهم اجرى الفـرنسيـون اتصالا مباشرا بفتح علي شاه بخصوص غزو الهند عبر الاراضي الايرانية[٨٦]. وكان من الطبيعي ان يتحرك البريطانيون باتجاه معاكس.

ولكن سرعان ما وئدت الخطة الفرنسية ـ الروسية المشتركة لغزو الهند اثر اغتيال القيصـر الـروسي بول الاول الـذي تصفـه المصـادر الـروسية كحاكم «ضيق الافق، غريب الطبـاع، قاس»[٨٧]. ففي ليلة ١١ على ١٢ آذار سنـة ١٨٠١ قتـل بول في احـدى غرف قصـره اثـر تنفيذ مؤامرة كان الانكليز احد اطرافها. فلم يكن من السهل على لنـدن ان ترى فوق عرش دولـة كبـرى ملكـا يمـد يد التعـاون الى الـد اعـدائها يومـذاك. وفي الـوقت نفسـه نشطت محـاولات الانكليـز للتغلغـل في ايـران بهدف الحيلولة دون وقوعها فريسة سهلة بايدي الاعداء انفسهم الذين كانوا يحاولون بشتى السبـل النيـل من درة تاجهم الاثمن. ولتحقيق هذا الهـدف الستراتيجي المهم بعث المسؤولـون البـريطـانيون في الهند الكابتن النشط جون مالكولم الى ايران في اواخر سنة ١٨٠٠.

حقق المبعـوث البـريطـاني نجـاحـا ملمـوسا في مهمته، خصوصا بفضل ما كان يحمل من هدايا ثمينة تقدر المصادر الفارسية قيمتها بمليوني روبية[٨٨]، بينها ماسة كبيـرة[٨٩] اضـافت الى «وهـج فتح علي شاه»[٩٠] نورا جديدا. فقد وقع جون مالكولم معاهدة مع الشاه نصت بنودها على:

١ـ ان تقـوم القـوات الايـرانيـة بغـزو اراضي افغانستان في حالة قيامها بالهجوم على الهند، على ان تحتفظ ايران بقواتها هناك لحين تخلي االافغانستان عن اطماعها في الهند.

---

(85) M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 129

(٨٦) عبدالله رازي، تأريخ مفصل ايران از تاسيس سلسله ء ماد تا عصر حاضر، ص ٤٦٠ ـ ٤٦٢.

(٨٧) ييفانوف وفيلوسوف، المصدر السابق، ص ٢٦٠.

(٨٨) سعيد نفيسى، تأريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص ٩٣.

(89) J.M. Upton, The history of Modern Iran. An interpretation, 4th edition, Harvard, 1968, P.4.

(٩٠) وصفه الرحالة بانه كان مثل «قطعة وهج» لكثرة المجوهرات التي كانت تزين ملابسه، وغطاء رأسه.

٢ـ ان يتعاون الطرفان لوضع حد لمحاولات فرنسا للتغلغل في المنطقة.
٣ـ ان تقدم انكلترا المساعدات العسكرية الضرورية لايران في حالة تعرضها لهجوم فرنسي، أو أفغاني.
٤ـ ان تفتح ايران موانئها امام التجار الانكليز والهنود، وتعفي البضائع الانكليزية (الاقمشة، والمعدات الحديدية، وغيرها) من دفع الرسوم[٩١].

وكما نلاحظ فيما بعد ان عقد هذه المعاهدة دشن بداية عهد جديد لتغلغل الدول الكبري في ايران، وانعكس من نواحي عديدة على علاقات الدولتين المتعاقدتين بروسيا، وعلى حروب الاخيرة مع ايران، والتي اندلعت نيرانها من جديد بعد انتقال العرش الروسي الى الكسندر (اسكندر) الاول بسنوات قليلة.

بعد مجيء اسكندر الاول (١٨٠١ ـ ١٨٢٥) للحكم طرأ تحول جديد في سياسة روسيا الخارجية، وقد امتدت اثار هذا الواقع الى مناطق ماوراء القفقاس مباشرة. فقد عاد حكام روسيا الى نهج السياسة نفسها التي اتبعتها كاترين الثانية تجاهها. فأصدر القيصر الجديد اسكندر الاول في ١٢ أيلول ١٨٠١ بيانا يقضي بضم جورجيا الى روسيا التي بدأت منذ ذلك التاريخ تولي تحصينها اهتماما خاصا[٩٢].

وعلى الغرار نفسه دب نشاط كبير في الاتصالات المتبادلة بين المسؤلين الروس وزعماء ارمينيا وقره باغ واذربيجان الذين تفاقم نفورهم من سياسة حكام ايران القصيرة النظر. ففي مذكرة بعثها زعماء الارمن اواخر سنة ١٨٠٢ الى بطرسبورغ بواسطة القائد العام للقوات الروسية في جورجيا يطلبون صراحة «حماية القيصر الروسي» وارسال القوات «لانقاذ الارمن الذين بقوا تحت سيطرة ايران، والذين يهددهم خطر التهجير الى المناطق الداخلية من البلاد»[٩٣]. ثم ان العديد من كبار المسؤولين في مناطق ماوراء القفقاس التي كانت ايران تدعي السيادة عليها، قد تحولوا الى اشبه مايكونوا بحكام مستقلين عن طهران. ففي مطلع القرن التاسع عشر كان خان، او سردار (حاكم) يريفان، عاصمة ارمينيا، لايدفع الموازد للشاه. ومع انه، حسب اقوال شاهد عيان، كان يحكم منطقة شاسعة «تبلغ من الطول ٢٠٠ ميل، ومن العرض ١٠٠ ميل»، وكان بوسعه جمع ١٨ ألف مسلح متى ماأراد، الا انه

---

(91) R.K. Ramazani, The Foreign Policy of Iran. A developing Nation in World Affairs, Virginia, 1966, PP. 38 - 39; M.S. Ivanov, Ochirk..., PP. 129 - 130.

(٩٢) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، التسلسل الاول، المجلد الاول، ص ٢٤ ـ ٢٦، الوثيقة رقم ٧، ص ٧٢ ـ ٧٧، الوثيقة رقم ١٧.

(٩٣) نفس المصدر، المجلد الاول، ص ٣٦٧.

ماكان يقدم للشاه في حالة الحرب سوى بعض القوات الرمزية[٩٤]. ولقد فاوض هو، ونظيره في قره باغ، الروس بصدد الانضمام الى بلادهم[٩٥]

أثارت هذه الامور حكام ايران اكثر، فبدأوا يعدون العدة لحملة جديدة على ارمينيا وجورجيا ففي آذار عام ١٨٠٢ أخبر القائد العام للقوات الروسية في جورجيا اسكندر الاول نفسه عن استعدادات فتح علي شاه للهجوم على يريفان ضمن خطة شاملة استهدفت جورجيا. وفي رسالة لاحقة اكد القائد نفسه قرار الشاه بخصوص الهجوم على يريفان، وانه هيأ لهذا الغرض جيشا قوامه ٤٠ ألف رجل، واتصل بعدد من المتنفذين الجورجيين يطلب منهم التعاون معه[٩٦]. وردا على ذلك بعث اسكندر الاول توجيهات سرية الى القائد العام لقوات بلاده في جورجيا تقضي باتخاذ الاجراءات الضرورية للحيلولة دون احتلال يريفان من قبل الايرانيين، وردعهم من الدخول في اراضي جورجيا[٩٧]. وهكذا اصبحت الحرب وشيكة الوقوع بين الدولتين في كل لحظة.

حرب ١٨٠٤ - ١٨١٣:

هيأ هذا التزتر المستمر الطريق لاندلاع حرب الاعوام ١٨٠٤ - ١٨١٣ بين ايران وروسيا، خاصة بعد ان اقدمت القوات الروسية في كانون الثاني ١٨٠٤ على احتلال كنجه في اذربيجان الشمالية.

لم تكن ايران مهيأة عسكريا لخوض غمار حرب مع دولة اوروبية كبرى مثل روسيا. فرغم الجهود الكبيرة التي بذلها ولي العهد، والقائد العام عباس مرزا[٩٨]،

---

(94) Sir Robert Ker Porter, Travels in Georgia, Persia, Armenia, Ancient Babylonia during the years 1817, 1818, 1819 and 1820, Vol. I, London, 1821, P. 202.

(95) M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 131.

(٩٦) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، المجلد لاول، ص ١٨٤، ١٩١ - ١٩٢، الوثيقة رقم ٦٨.

(٩٧) المصدر نفسه، المجلد الاول، ص ١٩٦.

(٩٨) عباس مرزا (١٧٨٨ - ١٨٣٣) هو الابن الثالث لفتح علي شاه الذي اختاره وليا للعهد بين العشرات من ابنائه بسبب مقدرته، فلم توجد في العهد القاجاري قوانين محددة حول انتقال العرش الذي كان يعتمد على رغبة الشاه. ترك انطباعا جيدا لدى الرحالة الاجانب، ويعتبره المؤرخون «اعظم امير قاجاري» (راجع: عبدالله رازي، تأريخ مفصل ايران از تاسيس سلسله ء ماد تا عصر حاضر، ص ٤٧٣).

واتصـالـه بمترنيخ رئيس وزراء النمسا املا في نيل مساعدته، الا ان الجيش الايراني كان يعـاني من نقص خطيـر في التـدريب والتجهيـز، وكـان جانب منـه يتألف من «الخبازين والخياطين والسراجين وباعة الفواكه» حسب تعبير المؤرخ الايراني سعيد نفيسي، ولم يكن لديـه سوى عدد قليـل من المـدافع، والمدفعيين الذين كانوا «غير مطلعين كليـا على الامـور الفنيـة»[٩٩]، لذا كان من الطبيعي ان يكـون الاندحار منذ البداية من نصيب القوات الايرانية. ففي المعركة التي وقعت بين قوات الطرفين قرب المـركـز الـديني الارمني المعروف اجمادزين، اندحر الجيش الايراني بقيادة عباس مرزا رغـم تفـوقـه عددا على الـجيش الـروسـي الـذي كان يقـوده الـجنـرال تسيتسيانوف[١٠٠]. وفي الواقع لولا الظروف الدولية لحسمت القوات الروسية الموقف بسرعة، فقد بدأت مناورات واسعة للدول الكبرى، وفي اطار العلاقات الدولية على صعيـد المنطقـة، وعلى صعيـد القـارة الاوروبيـة في ظروف الحـروب النـابليـونيـة المعـروفـة. ولقـد حققت تلك الـدول جانبـا كبيـرا ممـا ارادت، كل واحدة في اطار امكـانـاتهـا، وفي ضوء تناسب القوى على الصعيد الدولي. ولم يلعب قصر نظر فتح علي شاه، وضحـالتـه دورا قليـلا فيمـا آلت اليه الامور. فانه ماكان يستشير احدا في اعماله وإدارته لشؤون الدولة، ومع انه لم يكن مطلعا على امور الدنيا، وعلى سياسة الـدول، الا انـه ماكـان يعتبـر نفسه أقل شأنا من معاصره نابليون بونابارت في شيء، وكـان يتعـامـل في علاقاته الخارجية على هذا الاساس. يقول المؤرخ سعيد نفيسي بهذا الخصوص مانصه:

«كـان فتـح علي شاه يتعـامـل دائما مع الدول الكبرى، مع انكلترا وروسيا وفـرنسـا والدولة العثمانية، في سياسته الخارجية بنفس الغرور، اذ لم يكن يتصـور ابـدا ان بوسـع اي من هذه الدول ان تتحداه، او ان يكون هو نفسه قد ارتكب خطأ، او عملا غير مناسب»[١٠١].

كان الفـرنسيـون هم السبـاقين في محـاولـة جادة لاستغلال الحرب الجديدة بين طهـران وبطـرسبـورغ من أجل تثبيت مواقع اقدامهم في ايران، خصوصا أنهم وجدوا لدى الشـاه ميـلا نحـوهم بعـد ان فشـل في نيـل مساعدة البريطانيين اثر اتصاله بهم مرتين، الاولى عن طريق ممثلهم في بغـداد السـر هارفـرد جونس، والثانية عن طريق

---

(٩٩) سعيد نفيسي، تأريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص ٢١١، ٢٦١ ـ ٢٦٤.

(100) M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 131.

(١٠١) سعيد نفيسي، تأريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص ٨٠.

مسؤوليهم في الهنـد[١٠٢]، فقـد اراد الشـاه الحصـول على مسـاعـدة لنـدن تنفيـذا لمعاهدة عام ١٨٠١.

عاود الفـرنسيـون محـاولاتهم للتقـرب من الايـرانيين عشيـة الحرب. ففي العام ١٨٠١ جاء تاجر ارمني برسالة من جان فرانسوا روسو، القنصل الفرنسي ببغداد، الى طهـران، ولكن بمـا ان احـدا لم يستطـع قراءة الرسالة فان محاولة روسولـم تسفر عن نتيجـة. وفي الثـاني من تشـرين الاول ١٨٠٣ اخبـر شارل موريس تاليـران، وزيـر خارجيـة فرنسـا المعروف، روسو في بغداد برغبة نابليون الاكيدة في توطيد العلاقات مع ايران[١٠٣].

ومع اندلاع نيران الحرب بين ايران وروسيا تبادل فتح علي شاه ونابليون بونابارت عددا من الـرسـائل، أبدى الاخير فيها عن استعداده للتعاون مع ايران «لتنظيم هجوم مشتـرك ضد روسيا»[١٠٤]. وفي اذار ١٨٠٥ ارسل نابليون جوبير (Amedee Jaubert) ممثـلا عنـه الى طهران، والذي يدل اختياره بحد ذاته على اهمية المهمة التي اوكلها الامبـراطـور اليـه. فلقـد كان جوبيـر مستشرقا معروفا، يجيد التركية والعربية، ورافق نابليـون في حملتـه على مصـر، وقضى بعـد ذلك فترة في استانبول، كما كان مطلعا على الاوضاع في روسيا[١٠٥].

كان جوبيـر يحمـل رسالة شخصية من نابليون بونابارت الى الشاه مؤرخة في ١٨ شبـاط ١٨٠٥. وفي الطـريق اعتقله والي ارضـروم التـركي واودعـه السجن بتهمـة التجسـس، وبتدخل من الايرانيين افرج عنه بعد أن امضى اربعة اشهر في السجن، فوصـل طهـران يوم ٥ حزيـران حيث قدم رسالة نابيون الى الشاه والتي يطلب منه فيها ان يستمـر في حربـه ضد روسيـا، وعدا اياه بتقديم المساعدات اللازمة لقواته[١٠٦]، الامـر الـذي اقلق حكـام روسيـا بصـورة جدية، اذ اعتبر اهتمام نابليون «بمثل تلك المنطقة النائية» دليلا قاطعا على «نواياه السيئة جدا» تجاه روسيا[١٠٧]. ومع ذلك تردد

---

(١٠٢) دكتر علي بينا، تأريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ١٠٦ ـ ١٠٧

(١٠٤) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(١٠٥) سعيد نفيسي، تأريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص ٩٣ ـ ٩٤.

(١٠٦) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، التسلسل الاول، المجلد الثاني (نيسان ١٨٠٤ ـ كانون الاول ١٨٠٥)، موسكو، ١٩٦١، ص ٥٣٤، ٦٨٩، الملاحظة رقم ٢٤٦؛ دكتر علي بينا، تأريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ١١٢.

(١٠٧) «وثـائق وزارة الخـارجيـة الـروسية»، التسلسل الاول، المجلد الثاني، ص ٥٢٢، ٥٢٨، الوثيقة رقم ١٦٣

فتح علي شاه في عقد معاهدة مع فرنسا، خشية ان يؤدي ذلك الى اثارة البريطانيين ضده.

ولكن لم تمر سوى فترة وجيزة حتى بعث نابليون مندوبا آخر عنه الى فتح علي شاه هو روميو الذي وصل استانبول في اواسط ايار ١٨٠٥، وانتقل عن طريق حلب وبغداد الى طهران التي وصلها يوم ٢٤ ايلول من العام نفسه، وكان يحمل بدوره رسالة ودية موجهة من نابليون الى الشاه، لم تختلف في مضمونها عن الرسالة التي بعثها مع جوبير[١٠٨].

وفي الوقت نفسه حاول الفرنسيون دفع تركيا الى مساندة ايران في حربها ضد روسيا. ففي طريقه الى طهران سلم جوبير في استانبول السلطان العثماني رسالة خاصة من نابليون مؤرخة في ٣٠ كانون الثاني ١٨٠٥، ومتضمنة اقتراحا بذلك. وللغاية نفسها اتصل روميو، المندوب الثاني لنابليون، بالصدر الاعظم في استانبول بصورة سرية. وفي محاولة منه لتوريط تركيا بالاحداث الجارية على الساحة الايرانية حاول روميو في لقائه المذكور جلب انظار الصدر الاعظم الى اهمية جورجيا بالنسبة لتركيا[١٠٩]. وبالمقابل حاول الروس من جانبهم تحريك الاتراك ضد الايرانيين. ففي ٤ تموز ١٨٠٦ بعث قائد القوات الروسية رسالة الى والي قارص يقترح فيها ان تتعاون روسيا وتركيا ضد ايران[١١٠].

راقب البريطانيون نشاط الفرنسيين عن كثب. وحسب ما يؤكد المؤرخ الايراني الدكتور علي بينا فان الممثل البريطاني في بغداد السر هافرد جونس «اصبح على علم باقل تحرك فرنسي» في ايران، حتى انه حاول في حينه ان يحول دون وصول جوبير وروميو الى طهران[١١١]. ومع تفاقم الحروب النابليونية، وتقدم الروس في ميادين القتال، ازداد اهتمام البريطانيين والفرنسيين بالاحداث الايرانية اكثر فاكثر.

ففي ساحات الحرب حققت القوات الروسية سلسلة جديدة من الانتصارات على القوات الايرانية في بداية صيف سنة ١٨٠٦، مما دفع بالقيادة الروسية للتخطيط من أجل الاستيلاء على السواحل الجنوبية الغربية لبحر قزوين، الامر الذي حققته خلال

---

(١٠٨) المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٦٨٩ - ٦٩٠، الملاحظة رقم ٢٤٧؛ دكتر علي بينا، تأريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ١١٠ - ١١٢.

(١٠٩) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، التسلسل الاول، المجلد الثاني، ص ٦٨٢، الملاحظة رقم ١٩٨، ص ٦٨٩ - ٦٩٠، الملاحظة رقم ٢٤٧.

(١١٠) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، التسلسل الاول، المجلد الثالث (كانون الثاني ١٨٠٦ - تموز ١٨٠٧)، ص ٢١٠.

(١١١) دكتر علي بينا، تأريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ١١٠.

اشهر قليلة. ففي ٣ تموز ١٨٠٦ احتل الروس مدينة دربند، وقد انفجرت فيها عشية ذلك انتفاضة ضد حاكمها الشيخ علي خان الذي اضطر الى ترك المدينة. وفي الوقت نفسه تعاون مهدي خان شمخال مع الروس، مما سهل امر دخولهم الى دربند، فعينوه حاكما عليها[١١٢].

استمر تقدم القوات الروسية بعد احتلالها دربند، فتوجهت من داغستان نحو اراضي اذربيجان التى توالى سقوط مدنها الواحدة تلو الاخرى. ففي ١٠ تشرين الاول ١٨٠٦ احتل الروس مدينة كوبا، وبعد خمسة ايام فقط دخلوا ميناء باكو المهم الذي هرب منه حاكمه الايراني حسين قلي خان، كما احتلوا تساليان، وموغان، وغيرها من المدن القفقاسية. ولقد حقق الروس بذلك نصرا ستراتيجيا مهما، ذلك لانهم تمكنوا من ضمان حماية جورجيا بابعاد الخطر الايراني من تخومها، الامر الذي استحق عنه الجنرال كودوفيتش تهنئة حارة من شخص القيصر اسكندر الاول[١١٣].

دفعت انتصارات القوات الروسية الايرانيين الى بعض التراجع، خصوصا بعد ان غدت قواتهم عاجزة عن القيام بعمليات عسكرية واسعة اثر سقوط باكو[١١٤]، فقرر فتح علي شاه الاتصال بالقيادة الروسية من اجل عقد صلح بين الطرفين. وقد وصل استراخان بالفعل مندوب ايراني في اواخر اب ١٨٠٦ كان يحمل رسالة من حاكم كيلان يقترح فيها وضع نهاية للحرب الدائرة بين ايران وروسيا. وردا على ذلك بعث الجنرال كودوفيتش مع المندوب الايراني رسالة مؤرخة في ٢٧ ايلول ضمنها شروط بطرسبورغ لعقد الصلح، والتي كانت تنص على اعتراف طهران بنهري اراس وكورا حدودا فاصلة بين الدولتين، ومنح روسيا، فضلا عن ذلك، مقاطعتي يريفان ونخجوان[١١٥]. وبتوجيهات من شخص القيصر اسكندر الاول وضعت شروط جديدة لعقد الصلح مع ايران خلاصتها:

١ـ وقف اطلاق النار من قبل الطرفين دون تأخير

٢ـ بقاء قوات الدولتين في مواقعها

---

(١١٢) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، التسلسل الاول، المجلد الثالث، ص ٧١٧، الملاحظة رقم ٢٦٦.

(١١٣) المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص ٤٧٠ ـ ٤٧١، الوثيقة رقم ١٨٦. ٧١٧ ـ ٧١٨. الملاحظة رقم ٢٦٦.

(١١٤) المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص ٣٦٦.

(١١٥) المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص ٣٣٠، ٧٢٦، الملاحظة رقم ٣٠٥.

٣ـ حل المشاكل المعلقة حول الحدود عن طريق التفاوض
٤ـ يبعث الجانب الايراني ، عند الموافقة على هذه الشروط، ممثلا عنه الى بطرسبورغ من أجل عقد معاهدة الصلح[116] .

ولكن حالت الظروف الدولية مرة اخرى دون استسلام ايران، بل على العكس من ذلك بدأت روسيا المنتصرة تحاول من جانبها اقناع ايران من اجل عقد صلح بينهما. فقد حقق نابليون انتصارات ساحقة على صعيد القارة الاوروبية، مما جعل من انضمام تركيا الى جانب فرنسا ضد روسيا امرا محتملا، وكان من شأن ذلك ان يؤدي حتما الى تعقيد وضع الروس في ماوراء القفقاس. وقد وردت اشارات صريحة الى هذه الحقيقة في العديد من الوثائق الروسية السرية التي تعود الى تلك الفترة. فاثر انتصار نابليون على النمساويين في مطلع عام ١٨٠٦ بعث وزير الخارجية الروسي مذكرة الى الجنرال كودوفيتش يشير فيها الى احتمال انضمام تركيا الى جانب فرنسا، مما يستوجب انهاء الحرب مع ايران والعمل من اجل كسب ودها، وتحريكها ضد تركيا حتى «لايكون لروسيا عدوان في الشرق»[117] .

وعندما عززت الاحداث اللاحقة احتمال تحرك تركيا ضد روسيا، بدأت الاخيرة بتقديم الاغراءات لايران من اجل كسبها الى جانبها. ففي مذكرة سرية جديدة تحمل تاريخ ٧ تشرين الاول ١٨٠٦ اكد وزير الخارجية للجنرال كودوفيتش ضرورة انهاء الحرب مع ايران، وكسب ودها. ولتحقيق ذلك اقترح عليه ان يعطي الايرانيين وعدا يقضي بمنحهم المساعدة اللازمة «لاستعادة» مناطق قارص وبايزيد وارضروم التي كانت تخضع لهم يوما ما، على ان تحل مشاكلهم مع الروس بصدد الحدود عن طريق التفاوض[118] . وبعد عشرة ايام فقط اكد وزير الخارجية الرأي نفسه في مذكرة سرية رفعها الى شخص اسكندر الاول، اعقبتها مذكرات اخرى مشابهة[119] . ومن اجل تعزيز الاتجاه الجديد في سياسة بطرسبورغ الخارجية تقرر تأجيل هجوم الجيش الروسي على يريفان[120] .

---

(١١٦) المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص ٣٤٥ .
(١١٧) المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص ٦٤ .
(١١٨) المصدر نفسه، المجلد الثالث ص ٣٣٦، ٣٨٠ .
(١١٩) المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص ٣٧٣، ٤٦٩، الوثيقة رقم ١٥٤ .
(١٢٠) المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص ٤١٦ .

استمرت روسيا في بذل جهودها لانهاء الحرب مع ايران . فحسب توجيهات وزارة الخارجية بعث الجنرال كودوفيتش مرافقه الخاص الميجر ستيبانوف الى طهران في كانون الاول ١٨٠٦ ، وحمله رسالة شخصية الى رئيس الوزراء مرزا شفيع ، ذلك ان بطرسبورغ لم تعترف بفتح علي شاه ملكا على ايران بعد مقتل اغا محمد خان ، كوسيلة للضغط عليها ، لذا كانت اوساطها المسؤولة تتجنب الاتصال به بصورة مباشرة ، وتطلق عليه في مراسلاتها اسم بابا خان الذي كان معروفا به قبل ان يتسنم العرش .

أخر ولي العهد عباس مرزا سفر المندوب الروسي الى العاصمة طهران ، وقد فسر كودوفيتش ذلك برغبة حكام ايران في الحصول على الهدايا . ومهما يكن من امر فقد سمح لستيبانوف بالتوجه الى طهران يوم ١ شباط ١٨٠٧ ، وذلك بطلب من الشاه الذي امر ان يرافقه الى هناك حرس كبير من فرسان عباس مرزا . وفي طهران استقبل ستيبانوف بحفاوة . وفي مفاوضاته مع الايرانيين اكد المبعوث الروسي على ضرورة انهاء الحرب بين الدولتين ، وتدشين بداية للتعاون يكون من شأنه مساعدة ايران للاستيلاء على بايزيد وارضروم الواقعتين داخل الاراضي العثمانية . وكان ستيبانوف يشير في كل مناسبة الى عدم جدوى التعاون مع الفرنسيين . ولكن ظل الايرانيون يماطلون في مفاوضاتهم . فقد بعث مرزا شفيع ، باقر بيك بصحبة ستيبانوف للتفاوض باسمه مع الجنرال كودوفيتش ، وحمله رسالة لم تتضمن سوى «التمنيات الطيبة» للقائد الروسي . وفي مفاوضاتهما عبر باقر بيك شفهيا عن استعداد بلاده للتفاوض حول سلم «يكون لصالح الطرفين» . وعندما رجع المبعوث الايراني الى تبريز ارسل كودوفيتش معه دوبليانسكي الذي حمله رسالة الى مرزا بزرك ، وزير عباس مرزا ، دون ان يسفر ذلك ايضا عن نتيجة[121] .

حالت تعنت فتح علي شاه ، وتوقعاته الخاطئة ، دون انهاء الحرب بين ايران وروسيا في ظروف اصبحت مواتية بالنسبة لطهران . فقد قضت انتصارات نابليون الاخيرة على تردده في التعاون المباشر مع الفرنسيين ، كما توقع ان يتمكن من استغلال الظروف التي استجدت اثر اعلان تركيا الحرب ضد روسيا يوم ٥ كانون الثاني عام ١٨٠٧ . وعلى هذا الاساس بعث الشاه مرزا محمد رضا خان ممثلا عنه الى نابليون

---

(١٢١) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، ص ٤٨٥ ـ ٤٩٠ ، الوثيقة رقم ١٩٦ ، ٥٩١ ـ ٥٩٣ ، الوثيقة رقم ٢٤٥ ، ٦٢٩ ـ ٦٣٠ ، الوثيقة رقم ٢٥٦ ، ٧٢٩ ـ ٧٣٠ ، الملاحظة رقم ٣١٣ ، ٦٧٢ ، الملاحظة رقم ٤٢٠ .

بونـابـارت، حمله افخر الهدايا، واثمنها بلغت قيمتها حوالى ٣٣٣ الف فرنك[١٢٢]، وكلفه ان يعمل باسرع مايمكن من اجل عقد معاهدة مع فرنسا، وان يؤكد للامبراطور الفـرنسي ان «بـوسـع الايـرانيين ضرب الـروس، والانتصار عليهم»، وان يلعبوا دورا فعالا بالنسبة للحملة على مصر[١٢٣].

التقى ممثل فتح علي شاه بنابليون في معسكره بفنكنشتاين (Finkenstein) داخل بروسيـا الشـرقيـة. وبعد مفاوضات سريعة تم عقد معاهدة بين ايران وفرنسا بتاريخ ٤ أيار ١٨٠٧ دخلت التأريخ باسم «معاهدة فنكنشتاين»[١٢٤]، وقد نصت على :

١- «الصداقة والاتحاد» بين العاهلين

٢- حماية استقلال ايران

٣- ان تبـذل فرنسـا كل مافي وسعهـا لدفـع روسيـا الى عقـد معاهدة مع ايران تتخلى بموجب بنودها عن المناطق التي كانت تتبع ايران في السابق، بضمنها اراضي جورجيا

٤- تزويـد الجيش الايـراني بالاسلحة، بما فيها المدافع، وكذلك بالضباط من اجل تدريب افراده

٥- ان يكون لفرنسا لدى ايران سفير فوق العادة، مع عدد من الممثلين الدبلوماسيين

٦- ان تقطـع ايـران علاقـاتها السياسية والتجارية مع انكلترا، وتعلن الحرب ضدها، وتبـذل كل مافي وسعهـا لدفـع «الافغـان وسـائر طوائف قندهار» الى الجبهة المعادية لهـا، وان تفتـح موانئها امام سفن فرنسا الحربية، واراضيها امام قواتها البرية في حالة اقدامها على تنظيم حملة ضد البريطانيين في الهند.

٧- ان تتحالف الدولتان لمجابهة اي تحالف تعقده انكلترا وروسيا ضدهما.

وبعـد مرور اقـل من اسبـوع على توقيـع «معـاهـدة فنكنشتـاين» تقرر ارسال بعثة فرنسيـة الى ايـران برئـاسـة الجنـرال الخيـال كلود ماثيـو غاردان (Claude - Mathieu Gardane) الـذي يسميـه نابليـون في رسـالتـه للشـاه «وزيـري المختـار»، ولقد زود

---

(١٢٢) دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص١١٨.

(١٢٣) سعيد نفيسي، تاريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص ١١٠.

(١٢٤) راجع نصها في :

دكتـر علي بينـا، تاريـخ سيـاسي وديبلومـاسي ايران، جلد اول، ص ١١٦ - ١٢٣ ؛ سعيد نفيـسي، تاريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص ٩٥ - ٩٨.

بتعليمات خاصة تحمل توقيع «الامبراطور نابليون بونابارت»[١٢٥] .

ضمت بعثــة غاردان ١٥ عضــوا ســاسيـا ، و ١٤ عضــوا عـسكـريـا[١٢٦] ، منهم المستشرق اسكالن (Escalon) ، ومارشال الجيش الفرنسي فيما بعد تريزل (Trezel) كما سبق لبعضهم ان عمل في بغداد[١٢٧] .

كان على غاردان ان يبـذل كل مافي وسعـه من اجـل توسيـع شقـة الخـلاف بين بطـرسبـورغ وطهـران ، والضرب باستمرار على وتر جورجيا الحساس ، وبذل الجهود لعقد معاهدة تحالف ثلاثية تضم فرنسا وايران والدولة العثمانية ، وتطوير مصالح فرنسا التجارية في المنطقة .

استقبلت البعثة الفرنسية في طهران بحفاوة ، حتى ان رئيسها الجنرال غاردان قد خصص له جناح خاص في قصر الصدر الاعظم مرزا شفيع ، وخصصت اجنحة لبقية اعضــاء الـوفـد في دور الاعيان ، وذلك بامر من شخص الشاه الذي تعاون بحرارة مع البعثة . فقد تم مباشرة التصديق على «معاهدة فنكنشتاين» ، كما وقع الطرفان اتفاقية عسكـريـة من ست مواد نصت على تزويـد ايران بعشرين الف بندقية ، اتبعها التوقيع على معـاهـدة تجارية تتألف من ٢٣ مادة عالجت المسائل الكمركية ، ووضع السفن التجـاريـة الفـرنسية ، وحقوق المواطنين الفرنسيين في ايران ، وغيرها من الامور التي كانت تهم البلدين . وبمـوجب المـادة الســابعة عشرة من هذه المعاهدة تنازلت ايران لفـرنســا عن جزيـرة خرج ذات المـوقع الستراتيجي المهم في الخليج العربي[١٢٨] ، فتحولت فنكنشتاين بذلك الى اول معاهدة غير متكافئة عقدتها ايران مع دولة اوروبية في القـرن التـاسـع عشر، تبعتها سلسلة من المعاهدات المشابهة التي حولت البلاد في نهاية المطاف الى شبه مستعمرة تابعة للدول الكبرى قبل ان ينتهي ذلك القرن .

وفي الجانب العسكري بذل اعضاء البعثة ايضا نشاطا ملموسا لقي تعضيدا كبيرا

---

(١٢٥) راجع نص التعليمات في :

سعيد نفيسي ، تاريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص ١٠٢ ـ ١٠٦ .

(١٢٦) تشيـر بعض المصـادر الى ان عدد الضبــاط الذين رافقوا الجنرال غاردان في بعثته كان يبلغ ٧٠ ضابطا (راجع مثلا :

J.M. Upton, OP. Cit., P. 5).

(١٢٧) دكتـر علي بينـا ، تاريـخ سيــاسي وديبلوماسي ايران ، جلد اول ، ص ١٢٠ ؛ سعيد نفيسـي ، تاريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(١٢٨) للتفصيل راجع :

سعيد نفيسي ، تاريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص ٢١٦ ـ ٢١٧ ؛ دكتر علي بينا ، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران ، جلد اول ، ص ١٢٣ .

من لدن المسؤوبيس - يرانيين، في مقدمتهم ولي العهد وقائد الجيش عباس مرزا الذي اقنعته هزائم قواته المتكررة امام الروس بعدم جدوى الاسلوب الاقطاعي البالي لادارة الجيش والحرب. فتم تدريب اربعة الاف من جنود عباس مرزا في غضون فترة وجيزة، كما اسست ورشتان لصنع المدافع، الاولى في طهران انجزت ٢٠ مدفعا صحراويا، والثانية في اصفهان جربت اول مدفع لها في يوم الاحتفال بعيد ميلاد نابليون الذي ولد في ١٥ آب ١٧٦٩.

ادى التقارب بين نابليون وفتح علي شاه الى تمادي ايران في موقفها المتعنت تجاه مقترحات روسيا بخصوص عقد الصلح لانهاء الحرب بين الدولتين، الامر الذي كان يهم بطرسبورغ الى درجة كبيرة بسبب انشغالها الكبير على صعيد القارة الاوروبية، وفي ميادين القتال مع تركيا. لذا فان الروس لم يكفوا عن بذل المساعي السلمية حتى بعد عقد «معاهدة فنكنشتاين»، ووصول بعثة الجنرال غاردان الى طهران، الا ان المسؤولين الايرانيين، وعلى رأسهم عباس مرزا، بدأوا يتشددون اكثر من السابق، مما دفع الروس الى اتخاذ احتياطات عسكرية جديدة في جبهات القتال مع ايران[١٢٩].

ولكن سرعان ماطرأ تغيير جديد على الموقف الفرنسي اثر توقيع باريس وبطرسبورغ على معاهدة صلح تلست بينهما في تموز عام ١٨٠٧. واثر ذلك فتر اهتمام نابليون بايران نسبيا،الأمر الذي انعكس مباشرة على نشاط البعثة الفرنسية هناك. فقد امتنعت فرنسا عن تزويد ايران بالاسلحة والذخيرة، واستدعى الجنرال غاردان اعضاء بعثته العسكريين الى طهران، كما مارس بعض الضغط على الشاه والصدر الاعظم، على الاقل في البداية، من اجل التوقيع على معاهدة للصلح مع روسيا[١٣٠]. وكان من الطبيعي ان يهز هذا التغيير المفاجىء البلاط الايراني، حتى ان فتح علي شاه اعتبر «معاهدة تلست» خيانة من نابليون تجاه بلاده[١٣١]. الا ان الشاه لم يغير، مع ذلك، من موقفه، مع العلم ان «معاهدة تلست» نصت في احدى موادها على ان تقوم فرنسا بالتوسط بين تركيا وروسيا لانهاء الحرب بينهما[١٣٢]، تلك

---

(١٢٩) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، التسلسل الاول، المجلد الاول (تموز ١٨٠٧ ـ آذار ١٨٠٩)، موسكو، ١٩٦٥، ص ٣١ ـ ٣٢.

(130) M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 132.

(١٣١) دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ١٢٥.

(١٣٢) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، التسلسل الاول، المجلد الرابع، ص ٧٧ ـ ٧٨، الوثيقة رقم ٢٧، ٥٧٥، الملاحظة رقم ٤٨.

الحرب التي كانت طهران تراهن عليها كثيرا. ولكن الاهم من ذلك ان الشاه رغم رد فعله الكبير في البداية، الا انه لم يفقد الامل كليا لنيل المساعدة الفرنسية حتى بعد عقد معاهدة تلست، الموضوع الذي أكدت عليه الوثائق الروسية السرية مرارا[١٣٣].

ولم تلعب مناورات الفرنسيين انفسهم الدور الاخير في خلق مثل ذلك التصور لدى الشاه وولي عهده عباس مرزا. فقبل كل شيء لم يلغ الفرنسيون رسميا «معاهدة فنكنشتاين» التي كانت تتناقض في روحها مع مضمون «معاهدة تلست». بل ان وزير خارجية فرنسا اصدر بعد عقد معاهدة تلست تعليمات جديدة الى الجنرال غاردان تؤكد عليه ضرورة ان يبذل كل مافي وسعه لعقد صلح بين روسيا وايران «على اسس مشرفة لايران». ولقد فسرت طهران وتبريز توجهات وزير الخارجية الفرنسي على انها تعني اعادة جميع مناطق ماوراء القفقاس، بما فيها جورجيا وداغستان، الى ايران. ولم يكن مجرد صدفة ان اعلن فتح علي شاه يوم تصديقه لمعاهدة فنكنشتاين ان السماح لمرور القوات الفرنسية عبر الاراضي الايرانية الى الهند امر مرهون باستعادة بلاده لاراضي ماوراء القفقاس. وعلى هذا الاساس تؤكد الوثائق والمصادر الروسية على ان فرنسا لم تتخل عمليا عن سياستها المعادية لروسيا في ايران حتى بعد التوقيع على «معاهدة تلست»، وتدخل ذلك ضمن العوامل التي اضعفت فيما بعد التحالف بين باريس وبطرسبورغ[١٣٤]. وفي رسالة سرية بعثها غودوفيتش الى وزير الخارجية روميانتسيف اكد ان الجنرال غاردان يتعامل مع حكام ايران «بنفس روحية ماقبل تلست». بل بلغ الامر بالقائد الروسي ان يؤكد في رسالة لاحقة بعثها الى وزير الخارجية على ان النشاط الفرنسي المعادي في ايران اصبح «يلحق بروسيا ضررا اكبر» من السابق عندما كانت الحرب مشتعلة بينها وبين فرنسا[١٣٥]. والاغرب ان نشاط «الحليفة فرنسا» بدأ في هذه المرحلة يتعدى ايران ليمتد الى مناطق ماوراء القفقاس، بما فيها جورجيا، حيث شجع الفرنسيون افراد الجيش الروسي على الانضمام الى الجيش الايراني الذي كان يضم كتيبة مؤلفة من العسكريين الروس الهاربين. ولم يكتف الجنرال غاردان واعوانه بذلك، بل انهم اسهموا ايضا في تحصين قلعتي يريفان واجمادزين الارمنيتين حال سماعهم ان في نية الروس مهاجمتهما. واولى الفرنسيون اهتماما خاصا لقلعة يريفان، فقد قاموا بتحصينها

---

(١٣٣) المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص ٣٢، ١١٧.

(١٣٤) المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص ٤١٣ ـ ٤١٥، الوثيقة رقم ١٨٧، ٦٦٠ ـ ٦٦٣، الملاحظات ٢٦٦ و٢٦٧ و٢٦٨ و ٢٦٩.

(١٣٥) المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص ٣٠٢، ٣١١، ٣٩٧، الوثيقة رقم ١٣٨.

حسب أحدث الطرق الاوروبية عندما اقاموا لها جدارين مزودين بالمدافع، تمتد في مقدمتها حواجز مختلفة[١٣٦].

استمر الفرنسيون على نهج السياسية نفسها عندما فرضت الانتصارات العسكرية الجديدة التي حققتها القوات الروسية في ميادين القتال تراجعا مافي الموقف الايراني. فعندما وصل اغا جبار مقر قيادة غودوفيتش في نيسان ١٨٠٨ بهدف التفاوض في موضوع عقد صلح بين الدولتين، حاول الفرنسيون دفع الايرانيين الى عقد هدنة لمدة عام واحد بدل صلح نهائي. كما كانوا يؤكدون للايرانيين ضرورة نقل مفاوضات الدولتين الى باريس، واشراك شخص نابليون فيها على اساس ان من شأن ذلك «ضمان تأييد فرنسا للمطاليب الاقليمية الايرانية»، الامور التي رفضها الجانب الروسي جملة وتفصيلا[١٣٧].

وعندما بلغت مناورات فرنسا هذا الحد اتصلت بطرسبورغ بباريس مباشرة وطلبت منها رسميا عدم اتباع سياسة في ايران من شأنها الاضرار بمصالح روسيا. واشارت المذكرة الروسية بهذا الصدد الى ان الايرانيين قبل تلست كانوا هم يلحون على عقد الصلح، فيما بدأوا بعد ذلك يتشددون في مواقفهم ومطالبهم. وذكرت المذكرة ايضا انه في حالة اصرار ايران على موقفها فان روسيا «لامانع لديها ان تعاود العمليات العسكرية ضدها». وفي ١٢ آب ١٨٠٨ نقل السفير الفرنسي في بطرسبورغ الى نابليون نص كلام اسكندر الاول الذي قال «ان ايران تثير شروطا مجنونة»، معتمدة في ذلك على ماأعطيت من وعود فرنسية. وفي مقابلته مع السفير الفرنسي رفض القيصر بصورة قاطعة فكرة توسط نابليون على اساس ان علاقات ايران وروسيا لايمكن ان تهم فرنسا، مثلما لاتهم روسيا العلاقات بين فرنسا واسبانيا (كانت فرنسا يومذاك في حرب ضد اسبانيا المجاورة لها). وبهذه المناسبة ذكر الروس الفرنسيين بما قاله نابليون شخصيا للقيصر الروسي في تلست من ان التحالف مع روسيا «غير جميع الامور السابقة بالنسبة لايران»، وانه، اي نابليون، «لايعير بعثة غاردان اي اهتمام»[١٣٨].

ولئن غير نابليون قليلا من موقفه تجاه ايران فان مرد ذلك كان فشل قواته في

---

(١٣٦) المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص ٤١٣ ـ ٤١٥، الوثيقة رقم ١٨٧، ٦٦٠ ـ ٦٦١، الملاحظة رقم ٢٦٧.

(١٣٧) المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص ٢٢٩ ـ ٢٣١، ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١١ وغيرها.

(١٣٨) المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص ٦٢٤ ـ ٦٢٥، الملاحظة رقم ١٨٩.

اسبانيا، وظهور بوادر جديدة في الافق تشير الى احتمال وقوع حرب جديدة لبلاده مع النمسا، الامر الذي جعله بحاجة الى تأييد روسيا.

وفي خضم هذه الاحداث لم تغب انكلترا عن الساحة الايرانية لحظة واحدة. بل ان دبلوماسيتها نشطت، وحاولت استغلال كل ثغرة قد تنجم عن عقد «معاهدة تلست» بين غريمتها التقليدية يومذاك فرنسا، وغريمتها الجديدة روسيا. وبهذا الخصوص يقول الدكتور علي بينا ان الممثل البريطاني في بغداد «كان على علم باقل تحرك فرنسي في ايران»[١٣٩]. واعتقادا منهم بان الظروف اصبحت مواتية، بعث البريطانيون جون مالكولم مرة ثانية الى ايران، الا ان الشاه لم يسمح له بالحضور الى طهران لانه لم يفقد الامل بعد في الدعم الفرنسي له. حينذاك لجأ البريطانيون الى ممارسة ضغوط مختلفة على ايران، فقد حركوا الوهابيين ضدها، وفكروا في محاصرة موانئها الخليجية، والاستيلاء على جزيرة خرج، كما هددوا عرش فتح علي شاه بالتلميح الى استعدادهم مساندة محمد علي خان بن علي مراد خان الزند الذي كان يقيم في الهند ويطالب بالعرش الايراني، وصرفوا الاموال بسخاء لكسب كبار المسؤولين الايرانيين، حتى ان الجنرال غاردان قد اشار الى ان البريطانيين تمكنوا من «شراء ذمم اغلب الوزراء» في طهران بواسطة ماقدموه لهم من اموال وهدايا[١٤٠].

وقد منح التغيير الجزئي الذي طرأ على موقف نابليون تجاه ايران بسبب مااستجد من اوضاع على صعيد القارة الاوروبية، منح لندن فرصة افضل لاستغلال الموقف والتقرب من طهران، فقررت ارسال مندوب اخر الى العاصمة الايرانية. وقد وقع اختيار اروقة الخارجية البريطانية على السر هارفرد جونس كأجدر شخص للاضطلاع بهذه المهمة، فانه فضلا عن عمله لفترة طويلة في بغداد والبصرة، كان قد زار ايران في عهد الزنديين، وكان مطلعا على الشرق والشرقيين. ونظرا لاهمية المهمة التي كانت تنتظره وجه اليه وزير الخارجية جورج كاننغ شخصيا رسالة خاصة.

وصل هارفرد جونس ميناء بوشهر مع رجاله على متن سفينتين يوم ١٤ تشرين الاول عام ١٨٠٨. ورغم ضغوط غاردان، ومناوراته تمكن المبعوث البريطاني من ان يوصل مقترحات حكومته الى شخص فتح علي شاه، والتي كانت تدور حول عقد معاهدة تحالف بين لندن وطهران، ودفع مساعدات مالية سنوية لايران مقدارها ١٦٠ ألف تومان (ما يعادل ١٢٠ ألف باون استرليني)، مع التعهد بارسال ضباط لتدريب الجيش الايراني.

---

(١٣٩) دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ١١٠.
(١٤٠) المصدر نفسه، ص ١٤١.

وافق الشـاه على مقتـرحـات هارفرد جونس، وطلب من الجنرال غاردان ان يغادر البـلاد مع اعضـاء بعثتـه، ثم وجه الدعوة الى البعثة البريطانية يطلب منها التوجه الى العـاصمـة طهـران التي وصلتها يوم ١٤ شباط ١٨٠٩، اي بعد يومين فقط من مغادرة البعثة الفرنسية لها.

قدم هارفرد جونس اوراق اعتماده الى فتح علي شاه يوم ١٧ شباط ١٨٠٩، وكان يحمل معه مجموعة كبيرة من الهدايا الثمينة، من بينها ماسة قدمها اليه باسم جورج الثـالث ملك بريطـانيـا، ممـا كان له وقـع كبيـر جدا في نفســه، كمـا اشار الى ذلك المبعوث البريطاني في رسالته التي بعثها في اليوم نفسه الى وزير خارجية بلاده. ولم ينس جونس الوزراء الذين قدم اليهم ما «يستحقون» كل حسب مقامه، ودوره[١٤١].

وبعـد مرور اقـل من شهـر تم التـوقيـع في ١٢ أيار على معاهدة ثنائية بين انكلترا وايـران، التـزمت طهـران بموجب بنودها بان تقطع جميع علاقاتها بفرنسا، وكل دولة اخرى معادية لانكلترا التي تعهدت بتقديم مساعدة سنوية لايران مقدارها ١٦٠ ألف تومان لحين انتهاء حربها مع روسيا، والتزمت ايضا بتقديم الاسلحة والذخيرة للجيش الايـراني، وارسـال الضبـاط لتـدريب افـراده. واعتبرت المعاهدة اتفاقا تمهيديا بين الـدولتين «لغـايـة ابـرام معـاهـدة صداقـة وتحـالف نهائية» بينهما، كما ورد نصا في مدخلها (في تشرين الثاني ١٨١١ اعلنت لندن عن ابرامها للمعاهدة باعتبارها اتفاقا نهائيا بين الطرفين)[١٤٢]. وعلى اساس ماسبق فان المعاهدة، كما يؤكد البروفيسور م. س. ايفـانـوف، كانت «مـوجهـة ضد روسيا بصورة مباشرة، واستهدفت تحريض ايران للاستمرار في حربها معها»[١٤٣].

ومع ان انكلترا اوفت بتعهداتها، بل رفعت مقدار مساعدتها الى ٢٠٠ الف تومان في السنة، وبعثت ثلاثة الاف بندقية وعشرين مدفعا، وعددا من الخبراء العسكريين الى ايران[١٤٤]، الا ان ذلك، شأنه شأن المسـاعدات الفرنسية السـابقة، لم يؤثر على سيـر العمليـات العسكـرية في ميادين القتال، فقد استمر اندحار القوات الايرانية في معظم المعـارك الجـديـدة التي خاضتهـا. فلغاية خريف عام ١٨٠٨ تمكنت القوات الـروسيـة من الاستيـلاء على منـاطق واسعـة جديـدة، بضمنهـا نخجوان، وان تبلغ

---

(١٤١) المصدر نفسه، ص ١٤٤.

(١٤٢) «وثـائق وزارة الخـارجية الروسية»، التسلسل الاول، المجلد السـادس (١٨١١ - ١٨١٢)، موسكو، ١٩٦٢، ص ٧٤٠.

(143) M.S. Ivanev, Ochirk..., P. 133.

(١٤٤) عبدالله رازي، تاريخ مفصل ايران از تاسيس سلسله ء ماد تا عصر حاضر، ص ٤٦٢ - ٤٦٣.

مشارف يريفان في قلب اراضي ارمينيا، وتفرض الحصار عليها من كل جانب. ولكن لم تستسلم يريفان للقوات الروسية، وذلك لوجود الفي جندي ايراني داخلها، كانوا مدربين على ايدي الفرنسيين الذين حصنوا ايضا قلعة يريفان كما اسلفنا. وفي الوقت نفسه استمر قصف السفن الحربية الروسية لسواحل قزوين(١٤٥)

أجبر الواقع العسكري في ميادين القتال الايرانيين على بعض التراجع من جديد. ففي اوائل نيسان عام ١٨٠٩ اقترح عباس مرزا عقد صلح بين الدولتين، على ان يتوجه مندوب ايراني الى العاصمة بطرسبورغ، الامر الذي وافق عليه القيصر اسكندر الاول. وفي ٣٠ أيار من العام نفسه قدمت روسيا رسما شروطها لايقاف الحرب مع ايران، والتي نصت على:

١- اعتراف الجانب الايراني بانهار اراس وكورا واربتشاي حدودا فاصلة بين الدولتين.

٢- الاعتراف بسيادة العلم الروسي وحده في بحر قزوين.

٣- اقرار كل تغيير يجريه الجانب الروسي على الاتفاقات السابقة المبرمة بين الدولتين(١٤٦).

وفي ٩ تموز من العام نفسه وجه وزير الخارجية الروسي رسالة خاصة الى القائد العام الجديد في جبهة القفقاس وجورجيا أ. ب. تورماسوف تحتوي على التعليمات التالية للعمل بموجبها في اطار اتصاله بالايرانيين:

«نخبركم بهذا بموافقة الامبراطور اسكندر الاول على تخويلكم التفاوض حول السلم مع ايران. يجب الاشارة الى الفوائد التي يمكن لايران ان تجنيها من وراء ذلك، وهي: انتعاش تجارتها، وضمان استقرارها الداخلي، ومساعدتها من اجل استعادة مناطقها المحتلة من قبل تركيا. . . كما يجب جلب انظار الايرانيين الى الفوائد التي يمكن لايران ان تجنيها من خلال تحالفهامع روسيا، والتأكيد على النتائج المهمة التي جنتها كل من السويد، واسبانيا والنمسا من خلال تحالفها مع انكلترا»(١٤٧)

---

(١٤٥) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، المجلد الرابع، ص ٦٦٠ - ٦٦١، ٦٦٣، الملاحظتان رقم ٢٦٧ و ٢٦٩؛ دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ١٤٧.

(١٤٦) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، التسلسل الاول، المجلد الخامس (نيسان ١٨٠٩ - كانون الثاني ١٨١١)، موسكو، ١٩٦٧، ص ٢٠، الوثيقة رقم ٣٢.

(١٤٧) المصدر نفسه، المجلد الخامس، ص ٩٤.

هنـا جاء دور الانكليـز ليحـولـوا دون انتهاء الحرب بين ايران وروسيا. ففي أيلول ١٨٠٩ كتب رئيـس البعثة البريطانية هارفرد جونس الى نظيره في استانبول ادر، الذي زاول بدوره نشـاطـا واسعـا للحيلولـة دون حدوث اي تقـارب بين روسيا وايران[١٤٨]، يقول له مانصه:

«اذا تمـكنت روسيـا من ان تعقـد الصلح مع ايـران، فان ذلـك سيتحول الى ضربة توجه لسياسة بريطانيا في كل من طهران واستانبول»[١٤٩]

وبهـذا الاتجـاه بدأ هارفـرد جونس نشـاطـا متشعبا، وعلى اصعدة مختلفة. فانه، واعـوانـه، كانـوا يؤ كـدون في كل مكـان على ان الصلح مع روسيا ينتقص من سيادة ايران. وبتحريض منه عاودت القوات الايرانية عملياتها العسكرية في الجبهة دون ان تتمكن من تحقيق اي من اهدافها، كما ان بعض المسؤولين الايرانيين حجزوا لمدة شهـرين المنـدوبين الـروس الـذين ارسلهم الجنرال ترماسوف مع رسائل خاصة الى تبريز في تموز ١٨٠٩ بناء على طلب القيادة الايرانية نفسـها. وفي وقت بلغ الاستياء من السيـاسـة القـومية القصيرة النظر لحكام ايران بين شعوب المنطقة مداه، وعبر عن نفسه في سلسلة من الانتفاضات، بعث فتح علي شاه رسائل الى عدد من زعماء تلك الشعوب يطلب منهم حمل السلاح ضد روسيا، وخصوصا من اصبح منهم في تبعية الاخيرة منذ سنوات مضت[١٥٠].

وعنـدمـا يأست طهـران من تحقيق شيء بهـذه الاسـاليب تراجعت مرة اخـرى، واتصلت بالقيـادة الـروسية من اجل الدخول في مفاوضات لعقد هدنة بين الدولتين. فوافقت الحكـومـة الـروسيـة على جميـع مقتـرحـات ايـران بهـذا الصـدد، وابـدت استعـدادهـا لعقد هدنة امدها عامان، اوخمسة اعوام. وعلى هذا الاساس تم اللقاء بين عبـاس مرزا والجنـرال ترمـاسـوف في نيسـان ١٨١٠ داخل قلعة عسكران، الامر الـذي اثـار حنق البـريطـانيين، فقـدم هارفـرد جونـس في الحـال انذارا الى الحكومة الايرانية يؤ كد فيه انه «لايسعه البقاء في ايران في حالة عقد صلح مع روسيا» وابدى استعداد بلاده لتقديم مساعدات اضافية لايران في حالة استمرارها في الحرب. ومن

---

(١٤٨) للتفصيل عن ذلك راجع:

A.R. Ionisian, Prisoedinenia Zakavkazia k Russii, Erevan, 1958, PP. 240 - 245, 373, 476.

أ. ر. يوانيسيان، انضمام ماوراء القفقاس الى روسيا، باللغة الروسية، يريفان، ١٩٥٨، ص ٢٤٠ ـ ٢٤٥، ٣٧٣، ٤٧٦.

(١٤٩) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، التسلسل الاول، المجلد الخامس، ص ٦٧٦.

(١٥٠) المصدر نفسه، المجلد الخامس، ص ١٠٩، ٢٢٧، ٦٧٦.

اجـل ارضـاء البـريطانيين طرح الجانب الايراني في عسكران مشروعا للصلح يتألف من ست مواد صاغها هارفرد جونس بصورة كان الجميع لايشكون في رفضه من قبل الروس.

واثـر ذلـك انقطعت المفـاوضـات بين روسيـا وايـران، واخبر هارفرد جونس لندن واستـانبـول بذلـك على جنـاح السرعة[١٥١] . وسرعان ماوصل طهران الخبير بشؤون ايـران جون مالكـولم، الذي جلب معه عددا من المدافع والخبراء. وبعد فترة اخرى وصل العاصمة الايرانية ممثل بريطاني جديد هو غور وزلي الذي رافقه ايضا عدد من الخبـراء، وجلب معـه كمية كبيرة من الاموال، و١٢ مدفعا و١٢ ألف قذيفة و١٢ ألف بنـدقيـة، مع ١٢ ألف قطعـة من المـلابس العسكـرية. وفي آب سنة ١٨١٠ عقدت ايـران معـاهـدة مع تركيـا التي كانت مستمرة في حربها ضد روسيا[١٥٢] . وعندما علم الـروس بالاتصـالات بين الايـرانيين والاتـراك للتخطيـط من اجـل عمـل عسكـري مشترك، استولوا في الحال على قلعة ميغرى (Migri) في قره باغ التي اضطرت القوات الايرانية الى تركها. كما اصدر القيصر اوامر تقضي باستخدام القوات البرية والبحرية لحماية طالش من أي هجوم متوقع[١٥٣] .

لـم تجد المناورات الجديدة ايران في شيء، خصوصا وان التغييرات التي طرأت على السـاحـة الـدوليـة في تلك الفتـرة لـم تكن في صالحها. ففي تشرين الاول عام ١٨١١ تمكن الـروس من محـاصـرة الجيش التركي الذي كان بقيادة الصدر الاعظم احمد باشا على ضفاف نهر الدون، ووجهوا له ضربة مميتة اسفرت عن مقتل حوالي ١٥ ألف، وأسـر مالايقـل عن ١٢ ألف جنـدي تركي، ممـا اجبـر الباب العالي على الـدخـول في مفـاوضـات سلمية مع بطرسبورغ[١٥٤] . ورغم محاولاتهم، والحاحهم الكبيـر، لـم يفلح الاتـراك في فرض موضـوع الحـرب بين روسيـا وايـران على مائـدة مفاوضاتهم مع الروس[١٥٥]، تلك المفاوضات التي ولدت خيبة امل كبيرة في صفوف

---

(١٥١) المصـدر نفسـه، المجلد الخـامس، ص ٢٤٢ - ٢٤٤، ٦٧٦؛ دكتـر علي بينـا، تاريـخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ١٥٢ - ١٥٥.

(١٥٢) M.S. Ivanov, Ochirk....,pp.133-135؛ «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، التسلسل الاول، المجلد السـادس، ص ٣٣٠؛ دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ١٥٧.

(١٥٣) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، التسلسل الاول، المجلد الخامس، ص ٤٧٦ - ٤٧٧، ٤٩٩، المجلد السـادس، ص ١١٦.

(١٥٤) المصدر نفسه، المجلد السـادس، ص ٣٢٩ - ٣٣٠، ٧١٨.

(١٥٥) المصدر نفسه، المجلد السـادس، ص ٦٠، ٣١٧ - ٣١٨، ٣٥٩، ٣٨٥، ٧٣٨.

حكام ايران الذين عبروا للبريطانيين عن" استياتهم الكبير منها لانها «تجري بدونهم»[١٥٦]. ومهما يكن من امر فان انتهاء الحرب بين روسيا وتركيا بموجب «معاهدة صلح بخارست»، التي زود البريطانيون عباس مرزا بنسخة من نصها[١٥٧]، ترك اثرا سلبيا كبيرا على وضع ايران وموقفها. ولم يكن مجرد صدفة ان بعث وزير الخارجية الروسي رومیانتسيف رسالة عاجلة بتاريخ ٢٣ تموز ١٨١٢، وهو نفس اليوم الذي تسلم فيه وثائق تصديق الباب العالي لمعاهدة صلح بخارست، الى القائد العام لقوات بلاده في جبهة الحرب مع ايران ينبؤه بالخبر، ويطلب منه ايصاله بدوره الى طهران «لاقناعها بمدى فائدة التعجيل في عقد الصلح مع روسيا»[١٥٨].

وعلى صعيد القارة الاوروبية فشل «الحصار القاري» الذي فرضه نابليون على انكلترا فشلا ذريعا، بل ان روسيا كانت اول دولة خرجت على ضوابطه، وفي عز أيامه ظهر جسر سري للاتصال بين لندن وبطرسبورغ للتداول في أهم القضايا الدولية المثارة يومذاك، كانت الحرب الايرانية الروسية واحدة منها. وسرعان ماتبددت غيوم الخلاف بين الدولتين، فعادت المياه إلى مجاريها السابقة بينهما اثر توقيعهما على معاهدة للتحالف في تموز عام ١٨١٢، الامر الذي مهد الطريق لحملة نابليون على روسيا، واندحاره الكبير امام قواتها، كما نبين جانبا من تفاصيله، وتأثيره الحاسم على الحرب الايرانية - الروسية فيما بعد.

وتفاقم الوضع الاقتصادي والسياسي الداخلي لايران اكثر فاكثر بسبب حربها الطويلة مع روسيا. ففي حينه وصف فابوييه، احد اعضاء بعثة الجنرال غاردان الذي ذهب الى اصفهان في مطلع العام ١٨٠٨، وضع المدينة المأساوي، وماكان يسودها من فقر مدقع، وخواء اسواقها من البضائع[١٥٩]. كما اشتدت المعارضة الداخلية، خصوصا بين الشعوب غير الفارسية التي ظلت تعاني الامرين من السياسة القومية الشوفينية للقاجاريين. فان هؤلاء كانوا يرون في تهجير الارمن الى جنوب نهر اراس

---

(١٥٦) المصدر نفسه، المجلد السادس، ص ٣٣٠.

(١٥٧) دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديپلوماسي ايران، جلد اول، ص ١٦٦.

(١٥٨) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، المجلد السادس، ص ٥٠٦.

(١٥٩) سعيد نفيسي، تاريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص ٢١٨ - ٢١٢. لايعني ذلك، بالطبع، ان اقتصاد روسيا لم يعان من حربها مع ايران، فقد اشارت الوثائق الرسمية الخاصة، الروسية والبريطانية، الى هذه الحقيقة مرارا (راجع على سبيل المثال: «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، المجلد الخامس، ص ٥١٦، ٥٥٨ - ٥٥٩؛ دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديپلوماسي ايران، جلد اول، ص ١٥٥ - ١٥٦).

وسهلة ناجحة لضمان جبهتهم، فيما اثبت الواقع عكس ذلك تماما. ففي سنوات الحرب انتفض الارمن اكثر من مرة ضد حكم الشاه. وحدثت انتفاضات مشابهة في طالش وقره باغ وخراسان(١٦٠). وعشية انتهاء الحرب انفجرت انتفاضة كبرى بين التركمان بقيادة الحاج سيد احمد الذي حقق اعوانه الثوار انتصارين كبيرين على القوات الايرانية التي كان يقودها احد ابناء فتح علي شاه. وقد اتصل زعيم الانتفاضة بقيصر روسيا، وقيادة جيشه طالبا العون «من اجل الانتقام من العدو المشترك» كما ورد نصا في رسائله. ومن المهم ان نشير الى ان الوثائق السرية الروسية التي تعود الى تلك الفترة، تضع انتفاضة التركمان على قدم المساواة مع العوامل الاساسية الاخرى التي ادت الى استسلام ايران في نهاية الامر(١٦١).

وفي الواقع ان مناورات الانكليز في الفترة التي اعقبت سنة ١٨١٠ اطالت من عمر الحرب الايرانية الروسية لفترة اخرى من الزمن، في وقت تضافرت جميع العوامل لانهائها لصالح روسيا. فلم تكف لندن عن مناوراتها حتى بعد تحالفها الجديد مع بطرسبورغ، ذلك لانها كانت ترغب في ان تحقق روسيا اقل مايمكن من المكاسب من وراء انتصارها على ايران.

ففي ربيع سنة ١٨١٢ اضطرت ايران لاتخاذ اجراءات جدية لانهاء الحرب في اطار مساومة جزئية، وبعض التنازلات الشكلية من جانب روسيا التي صاغت في ١٩ نيسان ١٨١٢ شروطها الجديدة للصلح، اثر الاتصالات التي جرت بين الطرفين، في النقاط الاساسية التالية:

١ـ ان يرسم خط الحدود بين الدولتين بصورة تضم المناطق التي اصبحت فعلا في حوزة القوات الروسية، بدلا عن مرورها بانهار كورا واراس واريتشاي، كما كان الروس يصرون في السابق.

٢ـ ذكر جميع الشعوب القاطنة في تلك المناطق بالاسم، واعتراف ايران الكامل بسيادة روسيا عليها.

٣ـ الاعتراف المتبادل باستقلال خانية طالش.

٤ـ الاعتراف بسيادة العلم الروسي وحده في بحر قزوين.

٥ـ اعتراف روسيا بفتح علي شاه ملكا على ايران، وبالقاجاريين اسرة حاكمة فيها، وبعباس مرزا وليا للعهد على عرشها، وان تقف ضد كل من يحاول مس ذلك.

---

(160) M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 134.

(١٦١) للتفصيل راجع: «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، المجلد السابع، ص ٤٤٦، ٧٦٢.

٦ـ الاعتراف بالاتفاقات السابقة في ضوء مضمون المعاهدة الجديدة التي تعقد بين الطرفين .

٧ـ العمل من اجل اقامة علاقات تجارية متبادلة لصالح الطرفين[١٦٢] .

استمرت الاتصالات بين الجانبين على هذا الاساس، وتفاءلت القيادة الروسية من موقف عباس مرزا، وغيره من كبار المسؤولين. الا ان الانكليز اسرعوا في تخريب الجسور التي اقامها الطرفان، الامر الذي وردت تفاصيل معبرة عنه في وثيقة سرية روسية عبارة عن رسالة مسهبة وجهها القائد العام الجديد للقوات الروسية في جبهة القفقاس الجنرال ن. ف. رتيشيف (N.F. Rtischeff) الى وزير خارجية بلاده رومیانتسیف بتاريخ ٨ آب ١٨١٢ نقتطف منها مايلي توضيحا للموضوع :

«انني لااشك في اخلاص عباس مرزا في عقد الصلح، ولكني اشك كثيرا في اخلاص الانكليز، واخشى الاعيبهم وتأثيراتهم على الوزارة في طهران. ففي البداية استقبل عباس مرزا بابوف وفريبغانغ[١٦٣] بود كبير، وردا على اقتراحي بصدد ارسال ممثل من بين كبار مساعديه للاجتماع به، ابدى استعداده لان يحضر بنفسه الى هنا، كما انه اصدر اوامر تقضي بتفريق القوات التي بوشر بجمعها في تبريز لمعاودة الهجوم على قواتنا في الحدود. وامعانا في اظهار حسن نيته اخبر المندوبين (بابوف وفريبغانغ) عن قراره بالافراج عن ٦ ضباط و ١٠٠ جندي ممن اسروا مطلع هذا العام في قره باغ. ولكن ماان وصل السفير البريطاني تبريز[١٦٤] حتى تغيرت هذه الامور راسا على عقب، فبدأ فتور واضح يطغي على معاملة المندوبين، والغي قرار تفريق القوات، وكذلك قرار الافراج عن الضباط والجنود»[١٦٥] .

وسرعان مابررت الاحداث شكوك الجنرال الروسي. ففي اواخر الشهر نفسه شن جيش ايراني قوامه عشرة الاف رجل هجوما مباغتا على خانية طالش التي كانت تحت

---

(١٦٢) المصدر نفسه، المجلد السادس، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠، للوثيقة رقم ١٤٣ .

(١٦٣) مندوبان بعثهما الجنرال رتيشيف الى تبريز للتداول في وضع شروط انهاء الحرب بين البلدين .

(١٦٤) ماان علم وزلي نبأ المفاوضات الجديدة حتى حضر بنفسه الى تبريز (حزيران ١٨١٢) بعد ان حصل على كتاب من شخص الشاه يخوله حق الاشتراك في اي مفاوضات تجري بين الايرانيين والروس لانهاء الحرب .

(١٦٥) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، المجلد السادس، ص ٥٢٩ ـ ٥٣٧، الوثيقة رقم ٢٢٣ .

حماية روسيا منذ اواخر القرن الثامن عشر، فلجأ حاكمها مير مصطفى خان مع افراد اسرته الى القوات الروسية. وقد اشترك عدد من الضباط البريطانيين في الهجوم الايراني، الامر الذي حاول السفير البريطاني وزلي تبريره اثر استفسار تقدمت به القيادة الروسية حول الموضوع. وبعد ان دمر الايرانيون لنكران، عاصمة الخانية، شيدوا مكانها، بمساعدة الخبراء البريطانيين، قلعة حصينة مزودة بجميع وسائل الدفاع، مما كان من شأنه ان يعزز موقع الايرانيين في قره باغ، ومناطق اخرى من القفقاس. لذا تقدمت القوات الروسية نحو المنطقة، وحاصرت القلعة من السابع حتى الثاني عشر من كانون الثاني ١٨١٣. وعندما فشلت جميع محاولات قائد القوة الروسية لاقناع صادق خان، قائد القوات الايرانية المحاصرة، بان يكف عن المقاومة، واثر وصول معلومات تفيد عزم قوات عباس مرزا في تبريز على نجدة المحاصرين، قامت القوات الروسية ليلة ١٣ كانون الثاني بهجوم كاسح على القلعة التي سقطت بعد مقتل صادق خان اثناء المعركة، وانتقل بذلك كل ساحل طالش على بحر قزوين الى ايدي الروس[١٦٦].

وبهذه المناسبة وجه وزير الخارجية روميانتسيف مذكرة الى شخص اسكندر الاول يبين له فيها مدى اهمية الانتصار الاخير الذي حققته القوات الروسية، ورد فيها مايلي:

«ان عباس مرزا الذي يفهم جيدا مصالح دولة والده، يعتبر لنكران مفتاحا لايران، وهذا هو عين الحقيقة. لذا من الضروري، ايها العاهل، ان يصبح هذا المفتاح في جيب روسيا، وذلك لا من اجل استخدامه لدخول ايران واحتلالها، بل لاجبارها على احترامنا الثابت في المستقبل ايضا، ومن اجل لجم نواياها غير الودية تجاه امبراطوريتكم، والتي تحاول انكلترا وفرنسا استغلالها باستمرار. . .
من المتوقع، ايها العاهل، ان تتوجه انظار اعداء امبراطوريتكم في المستقبل الى ايران وحدودكم الاسيوية بالصورة التي كانت موجهة الى السويد وبروسيا من قبل. وبالتحديد ان مثل هذه الاخطار، التي ليس بوسع حكومة الامبراطورية تجنبها، تدفعني، ايها العاهل، لكي احاول الان تصحيح هذا الوضع، او تغييره، فلتبق لاحفادكم، ووطنكم هذه الضمانة لامنهم كانجاز جليل اخر للامبراطور اسكندر. اتوسل اليكم، ايها العاهل، ان لاتستهينوا

(١٦٦) المصدر نفسه، المجلد السادس، ص ٥٥٠، ٥٥٥، ٧٧٢؛ المجلد السابع، ص ٧٠٩؛ دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ١٧٢.

بهذه الاعتبارات»[١٦٧].

وفي وقت سابق (تشرين الاول ١٨١٢) الحقت القوات الروسية في اسلاندوز هزيمة اخرى بالقوات الايرانية التي كان يقودها عباس مرزا بنفسه، والذي تخلص من الاسر بشق الانفس. وفي موقعة اسلاندوز وحدها بلغ عدد من وقعوا في اسر القوات الروسية حوالي ٥٠٠ من جنود عباس مرزا، فضلا عن عدد من الضباط، و ١١ مدفعا. وكان يوجد بين قتلى هذه المعركة احد الضباط البريطانيين[١٦٨]. مع ذلك اعلنت ايران في التصريح الرسمي الذي نشر يوم ١٠ تشرين الاول من العام نفسه ضرورة «اعادة جميع المناطق المحتلة من قبل روسيا، مع تلك التي انضمت اليها اختيارا»[١٦٩].

مما سبق يبدو واضحا انه حتى اثناء حملة نابليون الكبرى على روسيا لم يتغير واقع الموقف على جبهة الحرب الايرانية ـ الروسية، مع العلم ان الحملة المذكورة ادت الى ازدياد الطابع الدولي لتلك الحرب. فقد وصل طهران مبعوث من نابليون ليؤكد للايرانيين «ان الامبراطور بر بوعده الذي قطعه للشاه بصدد غزو روسيا»[١٧٠]، وبانه «سيعيد لايران قريبا جميع ممتلكاتها في جورجيا»، ويطلب، مقابل ذلك، ان يقوم الشاه بطرد البريطانيين من ممتلكاتهم، ويقبل سفيرا فرنسيا جديدا في بلاطه[١٧١].

ولكن الشاه، على غير عادته، تأنى هذه المرة في اتخاذ الموقف، واصغى الى نصائح السفير البريطاني، فسلمه مندوب نابليون الذي بعث به بدوره الى المقيم البريطاني في بغداد كلوديوس جيمس ريج[١٧٢].

كان من الطبيعي ان يترك الانتصار الساحق الذي حققته روسيا على نابليون تأثيرا مباشرا على سير الاحداث في الجبهة الايرانية. فقبل كل شيء حاول الروس انفسهم

---

(١٦٧) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، المجلد السابع، ص ٩٧ ـ ٩٨، الوثيقة رقم ٣٩.

(١٦٨) دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديپلوماسي ايران، جلد اول، ص ١٧٢؛ P. Sykes, Op. Cit., PP. 313 - 314; M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 135.

(١٦٩) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، المجلد السادس، ص ٥٨١، الوثيقة رقم ٢٤٦.

(١٧٠) في احدى رسائله السابقة اكد نابليون لفتح علي شاه انه مستعد لارسال قواته من اجل غزو روسيا.

(١٧١) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، المجلد السادس، الوثيقة ٢٩٨، المجلد السابع، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(١٧٢) المصدر نفسه، المجلد السابع، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

آستغلال نصرهم في حملة دعاية واسعة للتأثير على حكام طهران. ففي ٢٩ كانون الثاني ١٨١٣ بعث القائد العام للقوات الروسية في جبهة القفقاس وجورجيا رسالة الى السفير البريطاني لدى بلاط الشاه وزلي ضمنها تفاصيل انتصار قوات بلاده على جيش نابليون «المؤلف من ٤٠٠ ألف رجل» قتل منهم «لغاية ١٦ تشرين الثاني ١٨١٢ فقط ١٥٠٧٨٣ شخصا من المراتب الدنيا، مع ٤٠ جنرالا و ١٨٠٠ ضابطا، كما اسر منهم ٢١ جنرالا و ١٣٨٥ ضابطا و ١٠٤٢٠٠ شخصا من المراتب الدنيا». ويطلب القائد من السفير «باسم الصداقة التي تربط بينهما، وبين دولتيهما»، ومن اجل «خير ايران وروسيا» بذل الجهد في ضوء الحقائق السالفة لعقد صلح بين الدولتين، خصوصا وان «تخطيط الحدود بالصورة المقترحة من جانب روسيا... هو الاكثر عدالة، اذ لا يلزم ذلك ايران بالتنازل عن جديد سوى ماليس بحوزتها، ولا تحت سيطرتها الان»[١٧٣].

وفي الوقت نفسه وجه وزير الخارجية رومیانتسيف مذكرة الى الجنرال رتيشيف يطلب منه ان «يوحي للحكومة الايرانية مدى فوائد النجاح الحالي للسلام الروسي، الذي قهر الجبروت الفرنسي، بالنسبة لايران نفسها، فمن المعلوم ان نابليون كان يحلم دائما بغزو الهند، واحتلال ايران اولا من اجل تحقيق ذلك الهدف... ولتحكم الحكومة الايرانية بنفسها على مدى خطل حسابات سياستها التي تجعل من وزارة طهران ان ترفض السلم معنا بموجب اكثر الشروط اعتدالا»، فعبثا تظن «انها تستطيع بعنادها، وقوتها تحقيق النصر على دولة... انـدحرت امامها جميع القوى المتضافرة للشعوب الخاضعة لبونابارت»[١٧٤].

ومع شن نابليون لحملته على روسيا طرأ تغيير ملموس على موقف البريطانيين من الحرب الدائرة بين ايران وروسيا، فقد بدأوا يشجعون الطرفين على عقد الصلح حتى تتمكن بطرسبورغ من تكريس كامل طاقاتها ضد العدو المشترك الاكبر، وكذلك لاستغلال الظروف الصعبة الجديدة لروسيا، وحاجتها الملحة للجيش لردع الهجوم الفرنسي، حتى تضمن اقل مايمكن من التنازلات لها من جانب طهران. وقد تفاعلت مع هذه الحقيقة الانتصارات الكبيرة التي حققتها القوات الروسية على القوات الايرانية ايام غزو نابليون لاراضي روسيا لتجبر طهران على التراجع بصورة جدية. ففيما يخص الموضوع الاخير ورد مايلي نصا في مذكرة سرية رفعها رومیانتسيف الى شخص اسكندر الاول بتأريخ ٩ تموز ١٨١٣:

(١٧٣) المصدر نفسه، المجلد السابع، ص ٣٠ - ٣٢، الوثيقة رقم ١١.

(١٧٤) المصدر نفسه، المجلد السادس، ص ٦١٢ - ٦١٣، الوثيقة رقم ٢٦٢.

«تشير كل الدلائل الى ان نجاحات الجنرال كتليارفسكي[175] ارعبت ايران، واجبرتها على تغيير مواقفها، فانها، على مايبدو، تبحث الان عن الصلح باخلاص. فقد بدأ الوزير الاول لبابا خان[176] الاتصالات لهذا الغرض، وهو يريد ابعاد عباس مرزا، ووزرائه عن المفاوضات، ذلك لانهم يرغبون في قرارة انفسهم في الاستمرار في الحرب»[177].

وبما ان فتح علي شاه خول السفير البريطاني وزلي حق التفاوض مع روسيا باسمه، لذا فان الاتصالات الاخيرة حول اهم مواضيع الصلح جرت اساسا بينه وبين الجنرال رتيشيف. ومن خلال هذه الاتصالات عرض وزلي باسم الجانب الايراني مقترحات مختلفة ماكانت تتفق مع التعليمات التي تسلمها الجنرال رتيشيف بصدد شروط بلاده لعقد معاهدة الصلح[178]. فقد اقترح السفير البريطاني اجراء المفاوضات في بطرسبورغ، وعدم الاصرار على موضوع الوضع الراهن بصدد الحدود[179]، وعقد هدنة امدها سنة واحدة، والتوقيع فقط على معاهدة صلح تمهيدية، الامور التي رفضها الجنرال رتيشيف لانها كانت تستهدف الحيلولة دون التحرك اللاحق للقوات الروسية، وتأخير عقد صلح نهائي بين الدولتين، وبالمقابل اصر القائد الروسي على ضرورة عقد الهدنة، ومعاهدة الصلح دون تأخير اما في طهران، اوعلى الحدود.

ولكن مع ذلك تراجع الروس جزئيا، وباسلوب لم يخل من غرور المنتصر، عن موقفهم. ففي رسالته التي وجهها الجنرال رتيشيف الى السفير البريطاني بتاريخ ٢٦ تموز١٨١٣ لمح الى امكانية النظر في «التماس» يتقدم به الايرانيون لاستعادة بعض

---

(١٧٥) قاد الجنرال كتليارفسكي (Kotlarefsky) (١٧٨٢ - ١٨٥٢) العمليات العسكرية للقوات الروسية في خانية طالش.

(١٧٦) كان الروس في مراسلاتهم الرسمية يطلقون على فتح علي شاه اسم بابا خان الذي كان معروفا به قبل تسمنه للعرش، وذلك ايحاءا منهم بانهم لايعترفون به ملكا على ايران.

(١٧٧) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، المجلد السابع، ص ٢٩٣ - ٢٩٤، الوثيقة رقم ١٢٠.

(١٧٨) المصدر نفسه، المجلد السادس، الوثيقة رقم ١٤٣.

(١٧٩) كان الروس يلحون في البداية، كما لاحظنا، على جعل انهر اراس وكورا واربجاى حدا فاصلا بين روسيا وايران، الا انهم اقتنعوا فيما بعد بالوضع الراهن (Status quo ad praesentum). اي بضم الاراضي التي احتلت فعلا من قبل القوات الروسية.

المناطق، على ان يكون ذلك بعد عقد الصلح النهائي فقط. وفي رسالة جوابية لاحقة بتأريخ ٥ أيلول ١٨١٣ اكد القائد الروسي ثانية، وبصورة قاطعة عدم موافقة بلاده على غير ابرام معاهدة صلح نهائية في ضوء الوضع الراهن، الا انه وافق على ان يوقع مع المعاهدة على محضر منفصل ينص على مايلي:

«يمنح الحق للممثلين الايرانيين الذين يستطيعون السفر، بعد التوقيع على المعاهدة، الى البلاط الروسي السامي لتهنئة حكومة جلالته، ان يلتمسوا، بغض النظر عن التوقيع على المعاهدة النهائية وابرامها من قبل الطرفين، من العاهل الروسي الامبراطور الحاجات والرغبات التي لدى الحكومة الايرانية، وتركها لعطف جلالته لا كمطاليب يجب تلبيتها، بل كمجرد التماس»[١٨٠].

وعندما اقتنع السفير البريطاني انه لاجدوى في تأخير عقد معاهدة الصلح، وان بوسع القوات الروسية تحقيق انتصارات حاسمة جديدة في حالة العودة الى القتال، اقنع فتح علي شاه وكبار المسؤولين في طهران بان يباشروا بالمفاوضات مع الروس، مع ان البلاط الايراني كان يميل، على العموم، في استمرار الحرب.

افتتحت مفاوضات السلام في المعسكر الروسي بقرية كلستان التابعة لقره باغ، وقد مثل الجانب الايراني فيها السياسي المعروف بموالاته للبريطانيين مرزا ابو الحسن خان، فيما مثل الجانب الروسي الجنرال رتيشيف. وفي ١٣ تشرين الاول ١٨١٣ وقع الطرفان اتفاقية الهدنة بينهما، والتي صيغت بهذا الاسلوب:

«من اجل اجراء مفاوضات الصلح تعقد هدنة امدها ٥٠ يوما. واذا لم يتوصل الطرفان الى عقد معاهدة الصلح بينهما، فانهما لايعاودان العمليات الحربية الا بعد مرور ٢٠ يوما على اعلانهما عن عدم اتفاقهما».

وفي اليوم نفسه باشر الوفدان المتفاوضان بوضع بنود معاهدة الصلح التي تم التوقيع على نصيها الفارسي والروسي يوم ٢٤ تشرين الاول ١٨١٣ لتدخل التاريخ باسم «معاهدة كلستان». وفي ٢٧ ايلول ١٨١٤ تبودلت نصوص المعاهدة بعد تصديقها، دون ان يلحق بها اي محضر منفصل[١٨١].

نصت «معاهدة كلستان»، التي سميت في نصها الرسمي[١٨٢] «معاهدة الصلح

---

(١٨٠) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، المجلد السادس، الوثيقة رقم ١٤٣، المجلد السابع، ص ٣٢٤، ٣٧٩، ٣٩٧، ٧٥٦ - ٧٥٧.

(١٨١) المصدر نفسه، المجلد السابع، ص ٣٩٧، ٤٤٦ - ٤٤٧، ٧٥٧، الوثيقة رقم ١٧٩.

(١٨٢) راجع نص المعاهدة باللغتين الفارسية والروسية في «وثائق وزارة الخارجية الروسية»،

والصداقة بين روسيا وايران»، والتي كانت تتألف من ١١ مادة. وبمقدمة مفصلة، على تنازل ايران لروسيا عن ولايات وخانيات قره باغ وكنجة وشيروان وشكي ودربند وباكو وكوبا، وعن الجزء الشمالي لخانية طالش. كما تخلت ايران ايضا عن ادعاءاتها بكل من جورجيا وداغستان. ونصت المادة الخامسة من المعاهدة على «حق روسيا المطلق» في امتلاك اسطول حربي داخل بحر قزوين، فيما حرمت المادة نفسها ايران، او اي دولة اخرى، من حق مشابه. واعادت المواد ٨ ـ ١٠ من كلستان العلاقات التجارية بين روسيا وايران الى سابق عهدها، فقد حصل المواطنون الروس على حرية التجارة والتجوال داخل الاراضي الايرانية، حصل المواطنون الايرانيون على حق مشابه داخل الاراضي الروسية، على ان لاتتجاوز الرسوم الكمركية التي تفرض على بضائع البلدين نسبة ٥٪.

حاول فتح علي شاه تبرير هزيمة بلاده العسكرية والسياسية باسلوب هزيل، غير منطقي. فقد تفتقت عبقريته لتعبر عن مقولة لانظير لها في اغلب الظن في مجلدات السياسة قديمها وحديثها. فبعد خراب كل مالديه نطق قائلا:

«او هل نحن بطط حتى نكون بحاجة الى مياه قزوين المالحة!»[183]

والاغرب من ذلك ان فتح علي شاه لم يتورع عن تحويل هزائمه، وانتكاساته، وفشله المتواصل في كل الميادين، الى انتصارات ساحقة، ونجاحات مشهودة تستحق ان تدبج في قصيدة شعرية في غاية الروعة، نظمها بناء على طلبه الشاعر صاحب، ومن ثم استنسخها الخطاطون باحرف مذهبة وعرضت في الاسواق للبيع. وبعد موته حفر نص القصيدة على حجر المرمر، وزين به الجدران المحيطة بلحده في قم[184].

بعد التوقيع على «معاهدة كلستان» جرت محاولات متفرقة لاعادة النظر بموادها التي فرضت على ايران تنازلات اقليمية كبيرة. فعندما ذهب مرزا ابو الحسن خان[185] سفيرا فوق العادة الى بطرسبورغ لتبادل اوراق تصديق المعاهدة، تقدم الى

المجلد السابع، ص ٤٠٣ ـ ٤٢٥. عن المعاهدة راجع ايضا:
سعيد نفيسي، تاريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص ٢٥٦ ـ ٢٦١؛ دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديپلوماسي ايران، جلد اول، ص ١٧٤ ـ ١٧٥؛

R.K. Ramazani, Op. Cit., PP. 44 - 45

(١٨٣) مقتبس من:
Bahman Nirumand, Iran. The New Imperialism in action, New York and London, 1969, P. 20.

(١٨٤) سعيد نفيسي، تاريخ اجتماعي وسياسي ايران. در دوره معاصر، ص ٧٦، ٨٠.

(١٨٥) دبلوماسي ايراني معروف بميوله نحو البريطانيين، وكان على علاقة ودية مع شخص وزلي.

كبار المسؤولين الروس باكثر من طلب حول هذا الموضوع. ففي مذكرته التي قدمها الى وزير خارجية روسيا نسلرود بتاريخ ١ شباط ١٨١٦ عبر السفير الايراني عن «ثقته الاكيدة» بان «امبراطور روسيا» يعيد الى ايران «برحابة الصدر» جميع المناطق التي استولت بلاده عليها(١٨٦). واثد أثار الايرانيون فيما بعد الموضوع نفسه مرارا، فانهم كانوا يستغلون كل فرصة لقاء لهم بالمسؤولين الروس، وفي مناسبات مختلفة، لعرضه على بساط البحث من جديد(١٨٧).

ولكن لم يسفر اي من هذه المحاولات عن نتيجة، مع ان «معاهدة كلستان» اثارت رد فعل قويا بين اطراف دولية مختلفة، من بينها تركيا التي استمرت في محاولاتها الرامية لتحريض الايرانيين ضد الروس(١٨٨). فقد اعلن القيصر اسكندر الاول في بيان له اصدره يوم ١٦ كانون الثاني عام ١٨١٨ ان مضمون «معاهدة كلستان» غير قابل للتغيير، او التعديل(١٨٩).

لم تقتصر خسائر ايران الجسيمة على ما تضمنته «معاهدة كلستان» فقط. فان عشر سنوات من الحرب ابتلعت اموال خزينة فتح علي شاه رغما عنه، واتت على ذخائر عباس مرزا، خصوصا وان خزينة اذربيجان هي التي تحملت اعباء الحرب، دون ان تشترك خزائن الولايات الاخرى بشيء يذكر.

وهكذا فان حرب ١٨٠٤-١٨١٣ سببت مشاكل مالية عويصة لايران، ومما زاد من اثارها على كاهل الناس ان الدولة لم تتبن خطة سليمة لمعالجة ظواهرها المختلفة، بل ان بعض المسؤولين، وعلى رأسهم الله يارخان اصف الدولة، حاكم تبريز عاصمة اذربيجان، تحولوا الى عبء اضافي ثقيل اثار حنق الجميع. فلم يكن مجرد صدفة ان انفجرت سلسلة من الانتفاضات بين عشائر شرقي بحر قزوين، وفي

عين سفيرا فوق العادة لدى البلاط الروسي في العام ١٨١٤، وبقي في منصبه لغاية سنة ١٨١٨، انتقل بعدها الى لندن.

(١٨٦) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، المجلد السابع، الوثيقة رقم ١٦٨، المجلد الثامن، موسكو، ١٩٧٢، ص ٣٧٠، المجلد التاسع (تشرين الثاني ١٨١٥ - ايلول ١٨١٧)، موسكو، ١٩٧٤، ص ١٤٧ - ١٤٩، الوثيقة رقم ٤٨، ص ٦٩٣ - ٦٩٤، الملاحظة رقم ٥٨؛ دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ١٨١ - ١٨٢.

(١٨٧) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، المجلد العاشر، ص ١٨٨، الوثيقة رقم ٥٦.

(١٨٨) المصدر نفسه، المجلد الثامن، ص ٥٤١ - ٥٤٧، الوثيقة رقم ٢٤٨

(٢٨٩) دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ١٩٢ - ١٩٣.

الشمال الشرقي من خراسان ايام انـدحـار القـوات الايرانية في اسلاندوز، والتي اشتـدت اكثـر بعـد التوقيع على «معاهدة كلستان»، حتى ان انتفاضة عشائر خراسان استمـرت لمـدة تجاوزت عقـدا واحـدة من الـزمن (من العـام ١٨١٣ حتى العـام ١٨٢٤). وامتـدت اثـار هذه الانتفـاضات الى العلاقات التجارية القائمة بين الصين وايران التي اصيبت بنكسة خطيرة[١٩٠].

حاول البـريطـانيون استغلال الاثار السلبية التي تركتها بنود «معاهدة كلستان» في نفوس الايرانيين من اجل تثبيت مواقع اقدامهم. فلم تمر سوى سنة وشهر واحد على عقـد كلستـان حتى جرى التـوقيـع على معـاهـدة جديـدة بين لندن وطهران (في ٢٥ تشرين الاول ١٨٢٤)، الزمت موادها الاحدى عشرة ايران بان تلغي جميع علاقاتها مع اي دولـة اوروبيـة معـاديـة لانكلتـرا، وحـرمتهـا من حق السمـاح لجيش دولـة ما باستخـدام اراضيهـا ضد الهند. وبموجب احد بنود المعاهدة الجديدة تعهدت ايران بان تسـدي المسـاعـدة للبـريطـانيين في حالة هجوم الافغان على الهند. وبالمقابل تعهـدت انكلتـرا بأن تقدم المساعدة العسكرية لايران في حالة تعرضها لاعتداء دولة اوروبيـة ما، واذا تعـذر ذلـك فانهـا التزمت بأن تقدم لها عونا ماليا سنويا مقداره ٢٠٠ ألف تومان تصرف على حاجات البلاد العسكرية «تحت اشراف السفير البريطاني». وتقـرر ايضـا ان يقـوم العسكـريـون البـريطـانيـون بتـدريب افراد الجيش الايراني. وبمـوجب البنـد الثـالث من المعاهدة تعهدت لندن بأن تبذل كل مافي وسعها لاقناع بطرسبـورغ بأن تعيـد النظـر في مواد «معاهدة كلستان»، وتعيد لايران المناطق التي استحوذت عليها نتيجة حرب ١٨٠٤ - ١٨١٣[١٩١].

وقـد بذل البـريطـانيـون بالفعـل جهودا كبيرة بالنسبة للموضوع الاخير الذي كان يتوافق كليا مع مصالحهم الخاصة في المنطقة، حتى ان الحكومة البريطانية حاولت مرارا فرض وساطتها بصدد المناطق التي كانت ايران تطالب باستعادتها، مما اثار قلقا واضحـا بين الاوسـاط الحـاكمـة الـروسيـة التي وقفت بالمـرصـاد لمناورات لندن، ومتـابعتهـا الـدقيقـة لكـل مايتعلق بالعـلاقـات بين طهران وبطرسبورغ[١٩٢]. وعندما تمادت لندن في ضغطها على بطرسبورغ بصدد «التوسط» بين ايران وروسيا، جاء رد

---

(١٩٠) للتفصيل راجع نفس المصدر، ص ١٨٣ - ١٨٥.

(191) P. Sykes, A history of Persia, Vol. II, 3d ed., London, 1930, PP. 309 - 310; M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 136.

(١٩٢) للتفصيل راجع:
«وثـائق وزارة الخـارجيـة الـروسيـة»، المجلد التـاسـع، ص ١٤٦ - ١٤٧، ١٤٩، ٢٥١ - ٢٥٤، ٦٩٤، الوثيقتان ٤٨ و ٨٣ والملاحظة رقم ٥٨.

الحكومة الروسية قاطعا على لسنان وزير الخارجية نسلرود عندما أخبر نظيره كاسلريه في ٧ آب ١٨١٩ «ان القيصر يفضل المفاوضات المباشرة بين ايران وروسيا على توسط الغير في مثل هذه الامور»[١٩٣].

في كل الاحوال لم يلعب الموقف البريطاني الدور الاخير لتمهيد الطريق لوقوع حرب جديدة بين ايران وروسيا.

الطريق الى حرب جديدة:

كان حكام ايران لايميلون، رغم هزائمهم المستمرة في جرب ١٨٠٤ - ١٨١٣، الى انهاء حربهم مع روسيا، الا ان ظروفا دولية خاصة هي التي اجبرتهم اخيرا على الرضوخ للامر الواقع، فوقعوا «معاهدة كلستان» على مضض منهم. لذا كان متوقعا ان تتحول فترة مابعد كلستان الى مرحلة الاعداد لحرب جديدة ضد روسيا. فقد ازداد اهتمام عباس مرزا بتطوير الجيش اكثر من السابق، فاقام في تبريز ورشة خاصة لانتاج المدافع اولاها جانبا كبيرا من اهتمامه ورعايته[١٩٤]. واستمرت الاستعدادات العسكرية الايرانية بصورة جلبت انظار المراقبين الروس بعد فترة وجيزة من عقد «معاهدة كلستان». ففي غضون شهر ونيف فقط من بداية عام ١٨١٦، بعث القائد العام الجديد للقوات الروسية في جورجيا أ. ب. يرمالوف[١٩٥] مذكرتين سريتين الى اسكندر الاول شخصيا، يخبره فيهما عن الاستعدادات المتزايدة للايرانيين «من اجل الاعداد لحرب جديدة ضد روسيا»، وفي الحالتين اشار الجنرال الى تشجيع البريطانيين لهم في ذلك[١٩٦].

وفي الوقت نفسه كان الايرانيون يحاولون التملص الى اقصى حد ممكن عن تنفيذ التزاماتهم بموجب بنود «معاهدة كلستان»، خصوصا فيما يخص اعادة الاسرى الروس، والسماح للاسر الحدودية الراغبة في الانتقال الى داخل الحدود الجديدة لروسيا، ووضع القوائم الخاصة بالحدود بين الدولتين حسب منطوق المادة الثانية من

---

(١٩٣) المصدر نفسه، المجلد الحادي عشر (ايار ١٨١٩ - شباط ١٨٢١)، موسكو، ١٩٧٩، ص ٨ - ١٠، الوثيقة رقم ١.

(١٩٤) بروفيسور و. مينورسكي، تاريخ تبريز، ترجمة وتحشيه عبدالعلي كارنك، تهران، ١٣٣٧ ص ٦٨.

(١٩٥) الكسي بيتر وفيتش يرمالوف (A.P. Yermalov)، جنرال مدفعي، أصبح قائدا عاما للجيش في جورجيا في الفترة من عام ١٨١٦ حتى عام ١٨٢٧.

(١٩٦) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، المجلد التاسع، ص ٣٩٨، ٥٠٢.

المعاهدة[197] . ومن المفيد ان نشير بالنسبة للنقطة الاخيرة الى ان عباس مرزا عين احد الضباط البريطانيين العاملين لدى «شركة الهند الشرقية» ليمثل ايران في اللجنة التي عهدت اليها مهمة وضع القوائم المذكورة، الامر الذي وافقت عليه بطرسبورغ شرط «ان يعامل كموظف لدى الشاه»[198] .

ولقد بلغ الخلاف بين الطرفين حول هذه الامور حد ان طلب وزير الخارجية نسلرود من الجنرال يرمالوف بتاريخ ٣٠ كانون الاول ١٨١٩ ان يخبر «بلاط الشاه ان موقف عباس مرزا المعادي، وتهربه من تطبيق بنود معاهدة كلستان، قد يجبر الامبراطور اسكندر الاول على اعادة النظر في امر الاعتراف به وليا للعهد على العرش الايراني»[199] .

وفي هذه الفترة جرى تبادل عدد من الوفود بين طهران وبطرسبورغ للتباحث من اجل حل المشاكل المعلقة بين الطرفين. ففي اواسط عام ١٨١٧ اوفد الروس الجنرال يرمالوف سفيرا فوق العادة الى ايران (وصل طهران يوم ٢ حزيران) حيث قضى خمسة اشهر هناك يتفاوض مع كبار المسؤولين في العاصمة وتبريز «دون ان يحقق ادنى نجاح دبلوماسي» حسب تأكيد المؤرخين الايرانيين[200]، الامر الذي تربطه وثائق الخارجية الروسية بطلبات حكام ايران التعجيزية التي اثاروها منذ اول اجتماع عقده معهم الجنرال يرمالوف، وكذلك بمناورات البريطانيين الذين تابعوا بعثة يرمالوف خطوة فخطوة. وفي الواقع لم تكن طلبات المبعوث الروسي اقل تعقيدا من طلبات الطرف المقابل، فانه اراد تحريض ايران ضد الدولة العثمانية، واقناع الشاه لارسال قواته الى خوارزم[201] . ولم يحقق الطبيب سميون مازاروفيتش (S.I. Mazarowich)، الذي عين عام ١٨١٨ اول سفير روسي ثابت لدى طهران، نجاحا اكبر من سلفة الجنرال يرمالوف.

ولم يقف الروس من جانبهم مكتوفي الايدي، بل كانوا يتحينون الفرص من اجل

---

(١٩٧) المصدر نفسه، المجلد العاشر، ص ١٨٩، الوثيقة رقم ٥٦، المجلد الحادي عشر، ص ٢١١، ٢١٤، الوثيقة رقم ٧٤.

(١٩٨) المصدر نفسه، المجلد العاشر، ص ٣٦، ٢٤٢.

(١٩٩) المصدر نفسه، المجلد الحادي عشر، ص ٢٠٤.

(٢٠٠) دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ١٩٢.

(٢٠١) للتفصيل عن بعثة الجنرال يرمالوف راجع:
«وثائق وزارة الخارجية الروسيه»، المجلد التاسع، ص ٢٥١ ـ ٢٥٤، الوثيقة رقم ٨٣، المجلد العاشر، ص ٣٦، ١٩٠، ٢٥٢ ـ ٢٥٥، الوثيقة رقم ٧٦ وغيرها؛ دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ١٩١ ـ ١٩٢.

مد حدودهم مع ايران لتصل الى نهر اراس، كما كانوا يبدلون الجهد من اجل تغلغل سياسي واقتصادي واسع في مختلف مرافقها. ولتحقيق ذلك لجأوا في فترة مابعد كلستان الى اساليب جديدة في العمل. فقد كسبوا عددا من العملاء بين الفرس انفسهم، بدأوا يعملون لحسابهم، يوصلون اليهم ادق التفاصيل عن اهم احداث ايران التي تابعوا دراسة اوضاعها من جميع الاوجه بنشاط اكبر من السابق(٢٠٢).

وبشتى الاساليب حاول الروس التغلغل في البلاط الايراني نفسه، وكسب الامراء القاجاريين الى جانبهم، وتغذية الخلافات بينهم. وقد تمكنوا في تلك الفترة بالفعل من ان يكسبوا محمد علي مرزا «الابن الاكبر للشاه الذي يقف على رأس حزب قوي للغاية يضم معظم الاسر الايرانية المعروفة والعريقة» حسب وصف وثيقة سرية رفعت عنه خصيصا الى شخص وزير الخارجية نسلرود بتأريخ ٦ كانون الاول ١٨١٧. وكان محمد علي مرزا، المعروف بنشاطه الجم، يطمع في ان يخلف والده في العرش، وقد بعث بمندوب خاص عنه الى بطرسبورغ بصورة سرية(٢٠٣). وحاول الروس ايضا التقرب من شخص فتح علي شاه، وكسب عباس مرزا. فقد لبوا طلبات الاول منهما، واوصوا عددا من معاملهم ان يصنعوا له خصيصا مرآة، وكل ما طلب من الاواني الخزفية والكريستال التي قدمت له هدية من اسكندر الاول في تشرين الاول سنة ١٨٢٠(٢٠٤).

وفي الوقت نفسه عمل الروس بنشاط من اجل التغلغل في صفوف العشائر الايرانية المعارضة للقاجاريين. وفي هذا الميدان اولوا التركمان اهتماما خاصا، فحاولوا استغلال استيائهم الكبير، وثوراتهم المستمرة، فاقاموا معهم اتصالات مباشرة، وزودوهم بالاسلحة، بما فيها المدافع التي ارسلوا ضباطهم لتدريبهم على استخدامها. وكان الروس يبتغون من كل ذلك «الاستعداد لاي حرب قد تقع بين ايران وروسيا»، كما ورد في احدى وثائقهم الخاصة بتعاونهم مع التركمان(٢٠٥).

واستغلت روسيا الحرب الجديدة التي اندلعت نيرانها عام ١٨٢١ بين تركيا

---

(٢٠٢) «وثائق وزارة الخارجية الروسية»، المجلد الثامن، ص ٥٤١ - ٥٤٧، الوثيقة رقم ٢٤٨، المجلد العاشر، ص ٢٧، ٦٩، ٢٢١ - ٢٢٩ وغيرها

(٢٠٣) المصدر نفسه، المجلد العاشر، ص ٦٩، المجلد الثاني عشر، ص ٦٨٤، الملاحظة رقم ١٨٩.

(٢٠٤) المصدر نفسه، المجلد العاشر، ص ٢٢١، ٢٢٨ - ٢٢٩، الوثيقة رقم ٦٧، المجلد الحادي عشر، ص ٦٠٣، ٦٠٦، ٧٩٨، الوثيقة رقم ١٩٠ و الملاحظة رقم ٢٥٧.

(٢٠٥) نفس المصدر، المجلد التاسع، ص ٣٩٣، المجلد الحادي عشر، ص ٤١.

وايـران، فاحتلت قواتهـا جزءا من المنطقـة الممتدة بين يريفان وبحيرة كوكجه التي كانت تعتبـرهـا ضمن ماالتـزمت ايران بالتنازل عنها بموجب بنود «معاهدة كلستان».

ولقد نجمت عن ذلك ازمة استفحل امرها على مدى نصف عقد لاحق، رافقها تبادل العـديـد من الوفود، والاتصال المباشر دون نتيجة[٢٠٦]. ففي شباط ١٨٢٥ جرى لقاء بين عباس مرزا والجنرال يرمالوف، اتبعه اتفاق وقع عليه ممثلا الطرفين في تبليس في الشهـر التـالي. ولكن لم تمر سوى فترة وجيزة حتى انفجرت الازمة من جديد اثر قيام قوة روسيـة قوامهـا ١٨٠٠ رجـل، واربعـة مدافـع، باحتلال كوكجه. وفي ١٩ تشرين الاول من العام نفسه احتلت قوة روسية اخرى بالغ لو التي اضطرت الى تركها تحت ضغـط رجـال حاكم يريفـان. وبعد شهر واحد وصل تبليس وفد ايراني جديد دون ان يحقق شيئا، مع انه امضى هناك مدة شهرين كاملين يجري خلالهما الاتصالات مع المسؤولين الروس.

وعنـدمـا توتـرت علاقـات الـدولتين الى هذا الحـد تقـرر مناقشة الموضوع على مستـوى ارفـع. فحضـر كل من فتـح علي شاه وعبـاس مرزا ووكيل السفير البريطاني هنري ويلولك (H. Willolk) عن الجانب الايراني، والامير مينتشيكوف (Menechikoff) عن الجانب الروسي في السلطانية، حيث اجرى الاخيران مفاوضات مباشرة دون ان يتـوصـلا الى نتيجـة، ففي ٢١ تمـوز ١٨٢٦ ترك الشـاه وولي العهـد السلطانية التي غادرها كل من مينتشيكوف و ويلولك بعد خمسة ايام فقط[٢٠٧].

وهكذا اصبحت الحرب من جديد وشيكة الوقوع بين ايران وروسيا، وقد ساعدت في تعجيلهـا ثلاثـة عنـاصـر جديـدة. فرغم محاولات بطرسبورغ لكسب ولي العهد الايـراني عبـاس مرزا الى جانبـه، الا انـه تمـادى في تصلبـه تجـاه روسيـا التي كان متعطشـا للخـوض في حرب جديـدة ضدهـا، أرادهـا وسيلة لغسل عار هزيمة حرب ١٨٠٤ ـ ١٨١٣ التي كان الجميع يعتبرونه المسؤول الاول عنها. ومما دفعه اكثر الى التشدد انه بعد وفاة شقيقه الاكبر، والمتنفذ محمد علي مرزا لم يعد احد ينافسه في عرش والده، الامر الذي جعله في غنى عن مساندة روسيا له لتبوء العرش، كما نص على ذلك أحد بنود «معاهدة كلستان».

---

(٢٠٦) للتفصيل عن ابعاد الازمة الجديدة ونتائجها راجع:

دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥؛

P. Sykes, Op. Cit., P. 317.

(٢٠٧) للتفصيل راجع: دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ٢٠٢ ـ

اما العنصر الثاني فكان يتعلق بنجاح البريطانيين في نقل الخلاف الايراني الروسي الى المحفل الدولي بصورة لم يسبق لها مثيل. فقد تعرضت حكومة القيصر الى حملة انتقاد واسعة من جانب الصحافة الغربية بسبب سياستها تجاه ايران، الموضوع الذي تناوله ايضا العديد من الشخصيات العالمية المعروفة، كما عرض على بساط البحث في مؤتمر اخن الدولي. وبذلت استانبول بدورها جهودا واسعة لتأجيج نار الخلاف بين طهران وبطرسبورغ، مما استدعى توجيه انذار من اسكندر الاول الى السلطان بتأريخ ١٧ آذار ١٨٢٦[٢٠٨]. ومن المفيد ان نشير هنا الى ان لندن اقدمت في هذه اللحظة الحرجة بالذات على تقديم وجبة من المساعدات المالية والعسكرية لطهران، التي كانت توحي لها ايضا بأن الباب العالي سيقف الى جانبها عسكريا اذا وقعت لها حرب مع الروس.

اما العنصر الثالث فكان يتعلق باضطراب الوضع السياسي الداخلي في روسيا اثر تنازل ولي العهد قسطنطين عن العرش عندما وافى الاجل شقيقه اسكندر الاول يوم ١٩ تشرين الثاني عام ١٨٢٥، فقد استغل الديكابريون (الديسمبريون) الوضع، وفجروا انتفاضة مسلحة في العاصمة بطرسبورغ، وفي اوكراينا، سرعان ماتمكنت قوات القيصر الجديد نيقولا الاول من اخمادها. الا ان عباس مرزا علق، مع ذلك، امالا كبيرة على تلك الاحداث التي صورها له البريطانيون على غير حقيقتها، اذ اكدوا له ان الانتفاضة هزت امكانات روسيا، وان ارسال الامير مينتشيكوف للتفاوض ليس الا دليلا على ضعف روسيا، واضطرارها للتراجع امام الايرانيين بسبب اوضاعها الداخلية[٢٠٩].

وبحكم هذه العوامل مجتمعة وصلت الامور بين بطرسبورغ وطهران الى طريق مسدود من جميع جهاته، مما ادى، في نهاية المطاف، الى اشتعال نيران حرب جديدة بين ايران وروسيا في اواسط عام ١٨٢٦.

---

(٢٠٨) «وثائق وزارة الخارجية الروسيه»، المجلد العاشر، ص ٢٤٧ ـ ٢٥٠، ٢٥٢ ـ ٢٥٥، ٢٦٥ ـ ٢٦٨، الوثائق ٧٤ و ٧٦ و ٨٣؛

B.P. Balayan, Mejdunarodnaya otnoshenia Irana v 1813 - 1828, Erevan, 1967, P. 131 - 132.

ف. ب. بالايان، العلاقات الدولية لايران في ١٨١٣ ـ ١٨٢٨، باللغة الروسية، يريفان، ١٩٦٧، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(209) Ibid, P. 12; W. Allen and P. Muratoff, Op. Cit., P. 20

حرب ١٨٢٦ ـ ١٨٢٨ :

اراد عباس مرزا ان يتفادى اخطاء حربه الاولى مع الروس، فبدأ يهيء الاذهان، ويثير العواطف، ويضع الخطط لحربه الجديدة. فقد امر الشاه بان تطبع رسالة خاصة بالفارسية عن الجهاد واحكامه، وفوائده نشر باسم«رساله ء جهادية» (رسالة الجهاد)(٢١٠). كما حاول الايرانيون الاستفادة الى اقصى مايمكن من زعماء القفقاس المستائين لأسباب مختلفة من الروس، منهم اسكندر مرزا الذي كان ينتمي الى اسرة هيراكلي الجورجية، ومصطفى خان الشيرواني، ومحمد حسين خان الشكي، وميرحسن خان الطالشي الذين حضر معظمهم الى تبريز، وتحولوا الى اشبه مايكونون بمستشارين لعباس مرزا، فلعبوا «دورا مفيدا ومؤثرا للغاية» حسب تأكيد التقارير البريطانية. ووعد الايرانيون كبار الاقطاعيين والتجار الارمن والجورجيين باحترام مصالحهم، وعدم المساس بها(٢١١).

تؤكد المواد الارشيفية السرية ان الشاه وولي عهده خططوا للحرب الجديدة قبل وقوعها بفترة طويلة، بل في وقت كانت تجري فيه المفاوضات بين الطرفين على اعلى المستويات. ففي اواخر اذار عام ١٨٢٥، عندما كان مبعوث عباس مرزا يجري مفاوضات مباشرة مع الجنرال يرمالوف، عقد هو في تبريز اجتماعا سريا اصر فيه على ضرورة اعلان الحرب ضد روسيا. واثناء اجتماع السلطانية الانف الذكر عقد فتح علي شاه ليلة ٢٦ حزيران ١٨٢٦ اجتماعا سريا اتخذ فيه قراره النهائي بصدد الدخول في جرب جديدة مع روسيا، الامر الذي ادى الى فشل محاولة السلطانية السلمية بالصورة التي ذكرناها.

استهدفت الخطة الستراتيجية الايرانية، التي اشترك الضباط البريطانيون في وضعها، الهجوم المباغت على اراضي ارمينيا الشرقية، واذربيجان الشمالية، وجورجيا، على ان تبدأ مرحلتها الاولى بهجوم قوات عباس مرزا باتجاه قره باغ بهدف احتلال شوش وكنجة، يرافقه هجومان موازيان ، الاول من جانب سردار يريفان حسين قلي خان الى قومري في ارمينيا(٢١٢)، والثاني على طالش من قبل القوات الخيالة التي ركزت في اردبيل واغار. بعد ذلك تبدأ المرحلة الثانية بهجوم مشترك لهذه القوات على تبليس(٢١٣).

وحسب الخطة نفسها كان على القيادة الايرانية تجنب الخوض في معارك حاسمة

---

(٢١٠) سعيد نفيسي. تاريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص ٨١.

(٢١١) دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ٢١٦ ـ ٢١٧؛
B.P. Balayan, Op. Cit., P. 129.

(٢١٢) تسمى حاليا لينينكان.

(213) B.P Balayan. Op. Cit. P. 144.

قبل التأكد التام من النصر، واستغلال التفوق العددي للجيش الايراني الى اقصى حد، فقد بلغ تعداد الجيش الذي حشده عباس مرزا ٦٠ ألف رجل، فيما لم يتجاوز عدد القوات التي حشدتها روسيا لمجابهة الهجوم خلال المرحلة الاولى من الحرب نصف هذا العدد. وفي حالة فشل الجيش الايراني في تحقيق مهماته كان عليه، حسب الخطة، ان يقوم بتدمير مناطق القفقاس قبل الانسحاب منها(٢١٤).

بدأت الحرب يوم ١٦تموز ١٨٢٦ بهجوم مباغت لسردار يريفان على باش اباران واحتلالها. ثم باشر الجيش الرئيسي هجومه بالتوجه نحو نهر اراس، لتبدأ بذلك المرحلة الاولى من الحرب التي حققت فيها القوات الايرانية سلسلة من الانتصارات المتوالية. فقد اضطر الروس الى الانسحاب من ميناء لنكران، تاركين وراءهم ستة مدافع، وكميات اخرى من الاسلحة والذخائر. وفي قره باغ فقد الروس ٢٥٠ قتيلا، و ٧٥٠ اسيرا. وفي ٢٧ تموز استسلمت قوة روسية في منطقة خنزيرك لقوة ايرانية يقودها ابن الشاه اسماعيل مرزا. كما اضطر الروس للانسحاب الى تبليس من كنجه وشيروان، ومناطق قفقاسية اخرى(٢١٥).

بعد هذه الانتصارات التي حققها الجيش الايراني في غضون الاسابيع الثلاثة الاولى من الحرب، جاء دور قلعة شوش ذات الموقع الستراتيجي المهم، فتوجه اليها عباس مرزا بنفسه على رأس قوات قوامها حوالي ٣٠ ألف رجل (٢٠ الف مشاة و ١٠ الاف خيال)، يساندهم عشرون مدفعا، وفرض عليها من يوم ٢٥ تموز حصارا دام لمدة ٤٨ يوما، ابدى الجنود الروس خلالها مقاومة ضارية للقوات الايرانية حالت دون ان تستسلم لها، مع ان قائدها منحهم ستة ايام فقط لالقاء السلاح. ان فشل الايرانيين في الاستيلاء على شوش منح قائد الجيش الروسي في القفقاس الجنرال باسكوفيتش(Paskovich) فرصة ممتازة لجمع شمل قواته المتفرقة التي بدأت بالهجوم المضاد اعتبارا من ٣ ايلول، لتبدأ بذلك مرحلة جديدة في الحرب جلبت هزائم متلاحقة للقوات الايرانية التي تلقت اول ضربة كبيرة على ايدي القوات الروسية في شمخور، قرب كنجة، يوم ١٧ ايلول عندما وقعت معركة كبيرة هناك انهزم على اثرها الايرانيون رغم تفوقهم العددي الكبير، وقيادتهم من قبل محمد مرزا نجل ولي

---

(214) Ibid, PP. 128 - 129

(٢١٥) عن العمليات العسكرية في حرب ١٨٢٦ ـ ١٨٢٨ راجع:

جهانكير مرزا، تاريخ نو (شامل حوادث دوره‌ء قاجاريه)، تهران، ١٣٢٧، ص ٢٥ ـ ١١٥؛ دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ٢١٦ ـ ٢٢٩؛

P. Sykes, Op. Cit., PP. 317 - 320; W. Allen and P. Muratoff, Op. Cit., PP. 20 - 21

العهد[٢١٦]، الذي وقع في الاسر، ونجا منه باعجوبة.

واثر هزيمة شمخور دب الذعر في صفوف القوات الايرانية في كنجه، فانسحب منها قائدها علي خان مرند على جناح السرعة، وقبل ان يتخذ الاجراءات الضرورية للحيلولة دون استفادة المهاجمين من الذخائر المخزونة داخل المدينة، مما اثار غضب عباس مرزا، فامر بقتله رميا بالرصاص، مع العلم ان عباس مرزا نفسه لم يتخذ موقفا افضل من موقف علي خان عندما اضطر بدوره للانسحاب من منطقة شوش في اواخر الشهر نفسه اثر مالحقت به من هزيمة نكراء على ايدي القوات الروسية، فاضطر رجاله الى ترك اسلحتهم، والانسحاب بصورة غير منظمة باتجاه نهر اراس، وبسرعة قياسية بلغت في بعض الحالات ١٥٠ ميلا في غضون ٢٤ ساعة فقط[٢١٧]، ولم يتوقف هو الا في مدينة اسلاندوز. وبعد عشرة ايام عقد فتح علي شاه اجتماعا موسعا حضره عباس مرزا، وكبار القادة العسكريين الذين ارتأوا اقامة خط دفاعي جديد بموازاة نهر اراس. وبعد ذلك عاد عباس مرزا الى مقر عمله في تبريز بعد ان فقدت قواته من جديد باكو وكوبا ولنكران وغيرها من المناطق التي احتلتها قبل الثالث من ايلول.

أجبرت ضربات الجيش الروسي عباس مرزا على التراجع، فبعث داود خان مندوبا عنه الى بطرسبورغ، الا ان الجنرال باسكوفيتش منعه من المرور بمناطق القفقاس، فتوسط عباس مرزا لدى النمساويين، وبعث رسالة خاصة الى مترنيخ يطلب منه العمل من اجل السماح لداود خان بالذهاب الى بطرسبورغ عن طريق استانبول. وعندما لم تسفر هذه المحاولة عن نتيجة ايضا، ذهب داود خان الى بولونيا، ومن هناك اتصل بوزير الخارجية الروسي نسلرود الذي جاء رده سريعا ومقتضبا، بان

«لاداعي لزيارة داود خان الى بطرسبورغ»[٢١٨]

عاد داود خان ادراجه الى ايران في اواخر كانون الاول سنة ١٨٢٦. حينذاك وسّط فتح علي شاه البريطانيين ليقنعوا الروس بان يسمحوا لمبعوث اخر، هو مرزا محمد علي، بالذهاب الى بطرسبورغ عن طريق القفقاس. ولاظهار حسن النية أمر الشاه باطلاق سراح ٣٠٠ من الاسرى الروس الذين ارسلوا برفقة مرزا محمد علي الى منطقة الحدود حيث جرى تسليمهم للقيادة الروسية التي سمحت للمبعوث الايراني

---

(٢١٦) خلف جده فتح علي شاه في العرش، ليصبح بذلك ثالث ملك قاجاري يحكم ايران.

(217) P. Sykes, Op. Cit., P. 318.

(٢١٨) دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

ان يذهب الى تبليس للتفاوض معه . وبعد مداولات جرت مع مرزا محمد علي وافقت القيادة الروسية في اذار ١٨٢٧ على عقد معاهدة للصلح حسب الشروط التالية :

١ـ ان توافق ايران على عقد هدنة امدها خمسة اسابيع .
٢ـ ان تتنازل ايران لروسيا عن جميع المناطق التي تمتد الى الشمال من نهر اراس .
٣ـ ان تدفع طهران لبطرسبورغ تعويضا حربيا مقداره ٧٠٠ ألف تومان[٢١٩] .

وبما ان مرزا محمد لم يكن مخولا للموافقة على مثل هذه الشروط ، فان مهمته قد انتهت بالفشل ، اذ بين له الروس انه لايوجد لدى بطرسبورغ شيء آخر غير ماعرض عليه ، لذا لايمكن السماح له ، اولغيره من الايرانيين ، بالسفر الى العاصمة، حسب تعليمات الخارجية . بل انهم رفضوا اقتراحا للمبعوث الايراني يقضي بالافراج عن ٣٠٠ من الاسرى الايرانيين كأجراء مقابل لما أقدمت عليه طهران[٢٢٠] .

وفي الوقت نفسه توالت انتصارات القوات الروسية على القوات الايرانية في ميادين القتال بعد ان دب فتور نسبي في العمليات العسكرية بسبب حلول فصل الشتاء . ففي بداية ربيع ١٨٢٧ تقدمت القوات الروسية داخل اراضي ارمينيا ، وحاصرت قلعة سردار آباد قرب يريفان . كما تقدمت قوة اخرى قوامها ٧ آلاف من المشاة ، و٣ آلاف من الخيالة ، عبر وادي اراس باتجاه المقر الديني الارمني اجمادزين في ضواحي يريفان ، واحتلته . ثم جاء دور قلعة عباس آباد التي بذل الايرانيون جهودا كبيرة لوقف الزحف الروسي عندها ، فوجهوا امدادات جديدة اليها ، بحيث بلغ تعداد القوة المدافعة عنها حوالي ٢٥ ألف مسلح[٢٢١] ، هزموا شر هزيمة ، ومرة اخرى كاد عباس مرزا ان يقع في اسر القوات المهاجمة التي دخلت عباس آباد يوم ٢٢ تموز عام ١٨٢٧ .

بعد الاندحار الفظيع الذي منيت به القوات الايرانية في معركة عباس آباد ، اقتنع ولي العهد من جديد بأن لامفر من اللجوء الى المفاوضات بصورة جدية ، فبعث مرزا صالح ، احد الشبان الايرانيين الذين درسوا في لندن[٢٢٢] ، الى مقر القيادة الروسية ،

---

(٢١٩) نفس المصدر، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

(٢٢٠) نفس المصدر، ص ٢٣٠ .

(٢٢١) تقدر بعض المصادر تعداد القوة المدافعة عن عباس آباد باربعين الف رجل (راجع : شاهين مكاريوس، تاريخ ايران الحديث، القاهرة، ١٨٩٨ ، ص ٢٣٨) .

(٢٢٢) في العام ١٨١٥ بعث عباس مرزا خمسة من الشبان للدراسة في انكلترا ، امضوا فيها أربع سنوات .

حاملا معه رسالة توصية من السفير البريطاني في ايران. ولكن لم تؤد مداولات الطرفين الى نتيجة، فتقرر ان يذهب كريبايدوف (Gribayadoff) ممثلا عن الجنرال باسكوفيتش للتفاوض مع عباس مرزا حول الصلح. وقد اعاد كريبايدوف على اسماع ولي العهد، الشروط السابقة نفسها التي عرضها الروس على الايرانيين في اذار ١٨٢٧.

عاد المبعوث الروسي الى تبليس دون نتيجة، لتستمر العمليات العسكرية بعد ذلك، وليستمر معها الانحدار تلو الانحدار للقوات الايرانية التي غدت في وضع مزر، خصوصا وان فتح علي شاه كان يبخل عليها حتى بالنزر اليسير، بل انه تركها وشأنها في أحرج ايام الحرب الحاسمة عندما ذهب، في اواسط عام ١٨٢٧، الى السلطانية قرب الجبهة لرفع معنويات افرادها، اذ ما أن أحس بحراجة موقفها حتى عاد ادراجه الى عاصمة ملكه يوم ١٣ تشرين الاول من العام نفسه، هذه المواقف التي يصمها المؤرخون الايرانيون بالخيانة[٢٢٣]. ولم يكن موقف اشقاء عباس مرزا افضل من موقف والدهم من الجيش والحرب. فانهم كانوا يتمنون في اعماقهم الهزيمة لشقيقهم المتميز عنهم، فامتنع الولاة منهم عن تزويد قواته بالرجال والمؤن[٢٢٤]، مع انها كانت بامس الحاجة لكليهما اثر انقطاع موارد المناطق المحتلة من قبل الروس، وبسبب الخراب الذي حل باذربيجان بسبب انفصال عدد كبير من خيرة قواها البشرية عن العمل والانتاج.

وبسبب السياسة التقليدية للقاجاريين اتخذ ابناء الشعوب غير الفارسية، كالسابق، موقفا سلبيا للغاية من أحداث الحرب الجارية. فان الارمن تعاونوا مع الروس باخلاص، بل تطوع عدد غير قليل منهم، وحملوا السلاح، وحاربوا الايرانيين جنبا الى جنب مع الروس، في وقت كان عباس مرزا يضع الخطط، وبالتعاون مع البريطانيين، لتهجيرهم من وطنهم الى ماوراء نهر اراس. ومما له مغزاه الكبير ان هذه الظاهرة لم تقتصر على شعوب القفقاس المسيحية، بل انها انتقلت بالقوة نفسها الى صفوف المسلمين هناك، ومنذ بداية الحرب. يقول الدكتور علي بينا بهذا الصدد مانصه:

«وعندما تقدمت القوات الايرانية في هذه الاصقاع، فانها زاولت القتل والاعتداء والسلب والنهب بالنسبة للسكان، مما اثار حفيظتهم الى درجة انهم في بعض المناطق تأسفوا لانسحاب

---

(٢٢٣) دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ٢٣٨.

(224) P. Sykes, Op. Cit., PP. 318 - 319.

القوات الروسية، الامر الذي احرج موقف الجيش الايراني، وتحول الى ضربة قوية وجهت الي عباس مرزا»[٢٢٥].

وحسب مايؤكد المؤرخ نفسه تعاون معظم رؤساء العشائر الاذربيجانية مع الروس، واقترح سكان مرند عليهم ان يقوموا معا باحتلال تبريز التي «لم يقل استياء سكانها عن استياء المرنديين»[٢٢٦]. ووردت في مصادر ايرانية اخرى اسماء العديد من الزعماء الذين انضموا الى جانب الروس، منهم، مثلا، احسان خان الذي استولى الروس بمساعدته على قلعة عباس آباد[٢٢٧].

وبحكم هذه العوامل مجتمعة اصبحت اندحارات الجيش الايراني في المرحلة الاخيرة من حرب ١٨٢٦ - ١٨٢٨ أكبر، وخسائره أفدح. ففي المعركة الدموية التي وقعت يوم ٧ آب ١٨٢٧ قرب اوشاكان داخل اراضي ارمينيا، اندحرت القوات الايرانية، واضطرت للانسحاب الى يريفان التي استسلمت بدورها في ١٥ تشرين الاول، فاستحق الجنرال باسكوفيتش عن ذلك لقب «دوق يريفان»[٢٢٨].

وباحتلال يريفان اصبح الطريق مفتوحا امام القوات الروسية الى تبريز، العاصمة الثانية للقاجاريين، ومقر اقامة ولي العهد. فلقد وجه الروس قوة بقيادة الجنرال اريستوف (Aristoff) لاحتلال المدينة التي تركها حاكمها الله يارخان اصف الدولة بعد ان رفض سكانها التعاون معه للدفاع عن مدينتهم. وفي ٢٤ تشرين الاول ١٨٢٧ فتحت تبريز ابوابها امام القوات الروسية التي استقبلها، باسم سكان المدينة، وبرفقة اشرافها المجتهد الشاب، وامام الجمعة مرزا فتاح علمي، ابن المجتهد المعروف الحاج مرزا يوسف التبريزي[٢٢٩]. واثر سقوط تبريز، والجانب الاكبر من اذربيجان، مع قسم من اراضي كردستان، بما فيها خوي ومرند ومشكين وميانه وكرومرود، والقسم الاعظم من مراغه وخلخال، نقل عباس مرزا مقر قيادته الى بلدة سلماس الكردية.

بسقوط تبريز اصبح استقلال ايران معرضا لخطر محدق، الامر الذي اجبر عباس مرزا اخيرا ان يعيد النظر في حساباته بصورة جذرية، فاقنع والده بأن يوافق على

---

(٢٢٥) دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران.، جلد اول، ص ٢٢٢.

(٢٢٦) نفس المصدر، ص ٢٣٨، ٢٤٠.

(٢٢٧) سعيد نفيسي، تاريخ اجتماعي وسياسي ايران.، در دوره معاصر، ص ٤٦٧؛ جهانكير مرزا، تاريخ نو، ص ٨١ - ٨٢.

(228) P. Sykes, Op. Cit., P. 319.

(٢٢٩) بروفيسور و. مينورسكي، تبريز، ترجمة وتحشيه عبدالعلي كارنك، ص ٦٨ - ٦٩؛
«History of Persia under Qajar rule», PP. 181 - 182.

الدخول في مفاوضات مباشرة مع الجنرال باسكوفيتش، وقد بدأت هذه المفاوضات في بلدة اذرشهر يوم ٩ تشرين الثاني. وكان العرض الروسي واضحا، وسريعا، ومركزا:

«نبقي على يريفان، ونخجوان واوردوباد، وتتنازل ايران ايضا عن مغعان وطالش، وتوافق على دفع تعويض حربي يربو على خمسة ملايين وربع مليون باون استرليني».

وعندما رفض فتح علي شاه هذه الشروط بتشجيع من العثمانيين، لم تتوان القوات الروسية في التقدم من تبريز الى طهران باتجاهين، الاول الى قافلان كو، والثاني الى اردبيل حيث استولت على مكتبة صفي الدين الزاخرة باثمن المخطوطات. وعندما بلغ الموقف الروسي هذا الحد من الحزم والخطورة، جاء دور البريطانيين ليلقوا بكامل ثقلهم في الساحة الايرانية بصورة لم تختلف أبعادها في شيء عن الموقف الذي اتخذوه ايام حرب ١٨٠٤ ـ ١٨١٣

كان البريطانيون يراقبون احداث حرب ١٨٢٦ ـ ١٨٢٨ عن كثب منذ لحظة اندلاع نيرانها. فانهم في مرحلتها الاولى لم يتحركوا من مكانهم لانهائها، اولمجرد التعليق عليها، مادامت القوات الايرانية تمكنت من دفع الروس بعيدا عن سواحل بحر قزوين، ومناطق قفقاسية حساسة، ومادامت الحرب اشغلت روسيا الى حد واضح عن منطقتي البلقان وآسيا الوسطى، وأجبرتها على التخلي وقتيا عن الحرب مع الباب العالي، الامور التي كانت تهم لندن يومذاك بصورة جدية. ولكن ماان بدأ هجوم روسيا المضاد، وتغير ميزان الحرب لصالحها حتى تتابعت مناورات الدبلوماسية البريطانية من أجل الحيلولة دون تغلغل القوات الروسية المتزايد داخل ايران، فجرى تبادل عشرات المذكرات بين لندن وبطرسبورغ، واجتمع شخص وزير الخارجية مرارا بالسفير الروسي في لندن حول الموضوع، الا ان الموقف الحازم الذي اتخذه القيصر نيقولا الاول لم يفسح المجال للبريطانيين لكي يحققوا ماكانوا يبتغونه من سياستهم ازاء الحرب الايرانية الروسية(٢٣٠).

ولكن عندما اصبح استقلال ايران مهددا، واقترب الخطر من حدود الهند، تحركت لندن بالاتجاه الذي كان من شأنه اقناع الشاه بانهاء الحرب بالصورة التي ما كانت بطرسبورغ تعترض عليها. فاقترح السفير البريطاني في طهران السرجون

---

(٢٣٠) للتفصيل حول الموضوع راجع: B.P. Balayan, Op. Cit.

مكـدونـالد التوسط بين الطرفين، وتعهد بتقديم ٢٠٠ ألف تومان تعويضا لايران التي وافقت على العرض[٢٣١].

بدأت مفـاوضـات الصلح في قرية تركمانجاى قرب تبريز بين وفدي ايران وروسيا باشتراك البريطانيين، والتي استغرقت مدة شهرين كاملين بسبب مناورات الشاه الذي كان يأمـل في اشتعـال نيـران حرب جديـدة بين بطـرسبورغ واستانبول، وكذلك لان البريطانيين كانوا يرغبون في ان تبقى القوات الروسية مشلولة داخل الاراضي الايرانية اطول فترة ممكنة حتى يتسنى للباب العالي اعداد قواته للحرب المتوقعة بصورة افضل.

أخيـرا وقـع عبـاس مرزا باسم ايـران، والجنـرال باسكوفيتش باسم روسيا، على معاهدة الصلح يوم ٢٢ شباط عام ١٨٢٨، والتي دخلت التأريخ باسم «معاهدة تركمانجاى»[٢٣٢].

تتألف معـاهـدة الصلح الجـديـدة بين طهـران وبطرسبورغ من ست عشرة مادة، نصت الاولى منها على انهاء حرب ١٨٢٦ ـ ١٨٢٨، ونصت الثانية منها على ان تحل «معـاهـدة تركمـانجـاي» محل «معاهدة كلستان». اما بقية مواد المعاهدة فقد نصت على وضـع حدود جديـدة بين الـدولتين تمر بالاساس عبر نهر اراس، بمعنى ان ايران تخلت لروسيـا عن كل مقـاطعـاتهـا غرب قزوين، وشمـال حدودهـا الحـالية معها، بضمنهـا خانيـات يريفـان ونخجـوان واوردوبـاد. وبموجب مادة اخرى من المعاهدة التزمت ايران بدفع غرامة حربية لروسيا مقدارها ٢٠ مليون روبل ذهب، اي مايعادل حوالي ثلاثـة ملايين باون استـرليني، وهـو مبلغ ضخم للغـايـة حسب القوة الشرائية السـائـدة يومـذاك. واقـرت المادة الثامنة من تركمانجاي ماورد في «معاهدة كلستان» بصدد منح الروس وحدهم حق الاحتفاظ بسفنهم الحربية في مياه قزوين. وبموجب مادة اخـرى تقـررت اقـامة العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين على مستوى السفارة، ومنـح الايـرانيـون الـروس حق تأسيس قنصليات لهم حيثما يشاءون. على ان تتمتع بكـامـل حمـايـة الحكومة الايرانية. ونصت المادة الثالثة عشرة على تبادل الاسرى، والسماح لاي شخص يرغب بالعودة الى موطنه الاصلي.

وفي الوقت نفسه تم التوقيع على ملحق تجاري لمعاهدة تركمنجاي، اقرت بنوده

---

(٢٣١) دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ٢٤١.

(٢٣٢) عن «معاهدة تركمانجاى» راجع:

نفس المصدر، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٨، ٢٥٩ ـ ٢٦٣؛

M.S. Ivanov, Ochirk..., PP. 140 - 141; R.K. Ramazani, Op. Cit., PP. 46 - 47; J.M. upton, Op. Cit., P. 5.

كل ما ورد في «معاهدة كلستان» من امتيازات اقتصادية لروسيا، ومنحتها اخرى جديدة، بضمنها حرية التبادل التجاري بين البلدين، وتحديد الرسوم الكمركية بخمسة بالمئة فقط، واعفاء البضاعة الروسية من الرسوم الداخلية في ايران. ومنح بنده الخامس الرعايا الروس داخل ايران حق شراء، او استئجار البنايات الخاصة سواء لسكناهم، او لتحويلها الى مخازن يديرونها، وذلك رغم ان القوانين والاعراف المتبعة في ايران كانت تحول دون تملك الاجنبي للاموال غير المنقولة في كل البلاد. وجردت بنود الملحق الجهات الرسمية الايرانية من حق النظر في الدعاوى التي تقام ضد المواطنين الروس داخل ايران دون حضور قنصل روسي. والانكى ان المواطنين الايرانيين العاملين لدى المؤسسات الروسية داخل ايران اصبحوا يتمتعون بالحق نفسه. وبقي حتى ماهو اسوأ من ذلك، فقد نص البند الثامن من الملحق على ان كل مسؤول ايراني في المقاطعات لايلتزم بفحوى ماورد في بنود الملحق يبعد عن وظيفته في الحال ليحل محله شخص آخر.

وهكذا فان «معاهدة تركمانجاي» تحولت الى «طوق ثقيل وضع لمدة حوالي قرن في عنق الشعب الايراني» الذي اصبح استقلاله السياسي «اسما بدون مسمى لغاية انتصار ثورة اكتوبر العظمى عام ١٩١٧» حسب تعبير المؤرخ الايراني ابراهيم تيموري[٢٣٣]. كما ان المعاهدة لم تضع نهاية رسمية للحروب العلنية بين روسيا وايران حسب، بل انها قضت ايضا، وبصورة نهائية، على كل دور للايرانيين عاملا محركا للسياسة القفقاسية بعد ان ظلوا «يؤلفون، على مدى حوالي الفي عام، العنصر الاكثر تأثيرا، سياسيا وثقافيا، في تلك المنطقة»[٢٣٤].

اما الويلات والمآسي والمصاعب الاقتصادية، والاجتماعية، وحتى النفسية التي جلبتها لايران حروبها مع روسيا فانها كانت مهولة، خاصة بالنسبة لاذربيجان. وربما يكفي ان نشير بهذا الصدد الى ان ولي العهد عباس مرزا اضطر للجوء الى صهر تحفيات اسرته الذهبية التي كانت كلفة صياغتها، وقيمتها الحضارية والفنية، تفوق قيمة معدنها، حتى يستطيع دفع ماترتب على بلاده من تعويض حربي[٢٣٥].

لاشك في ان اطماع روسيا القيصرية اللامحدودة كانت تؤلف عاملا اساسيا لما وقع من حروب، ومآس بين ايران وروسيا، ولكن لاشك ايضا في آن انتهاج سياسة حصيفة كان من شأنه تجنيب ايران الكثير من الويلات، والخسائر حتى في الارض، على مانعتقد. وفي كل الاحوال لايتعدى ذلك كونه حقيقة عامة، لاخاصة.

(٢٣٣) ابراهيم تيموري، عصر بى خبرى يا تاريخ امتيازات در ايران، تهران، ١٣٣٢، ص ٢٣٩

(234) W. Allen and P. Muratoff, Op. Cit., P. 21

(235) M.S. Ivanov, Ochirk...; P. 145.

الموضوع الثاني

مذبحة السفارة الروسية في طهران

أدت الحروب الايرانية الروسية[1]، ولاسيما حربا ١٨٠٤ - ١٨١٣ و١٨٢٦ - ١٨٢٨، الى نتائج اقتصادية واجتماعية وسياسية ونفسية وخيمه بالنسبة لايران، لم تكن مهيأة لتحمل اعبائها. وقد وقع الجانب الاكبر من ثقل هذه الحروب على كاهل الجماهير الايرانية المنتمية الى الفئات الاجتماعية الوسطى والدنيا. ومما زاد من تأثير ذلك على الناس ان حكومة فتح علي شاه لجأت لى فرض ضرائب، ورسوم جديدة حتى تتمكن من ان تدفع لروسيا التعويضات المالية الكبيرة التي فرضت عليها بموجب احد بنود «معاهدة تركمانجاي» للعام ١٨٢٨، الامر الذي ادى الى تفاقم استياء الاوساط الفقيرة الواسعة في البلاد كلها. فشهدت ايران على مدى عقود اتبعت آخر حرب لها مع روسيا، احداثا وانتفاضات وتمردات كثيرة، اتخذت طابعا خطيرا في كل من اذربيجان وكردستان وكرمان[2].

وفي الوقت نفسه تراكم الحقد في نفوس الايرانيين ضد روسيا القيصرية، خاصة وان الجهات الحاكمة، وبعض الاوساط المتنفذة الايرانية كانت تحاول باساليب شتى ابعاد نقمة الجماهير عن نفسها، وايجاد متنفس لتلك النقمة عن طريق اذكاء نار الحقد ضد روسيا، والقاء تبعات مآسي ايران كلها على عاتقها. كما ان حكومة بطرسبورغ كانت بدروها متعنتة في موقفها تجاه ايران، وتصرفت معها كأي دولة كولونيالية، الامور التي أدت الى وقوع مذبحة لاعضاء السفارة الروسية بطهران في مطلع العام ١٨٢٩، كان من بين ضحاياها احد كبار الادباء الروس، هو غريبويدوف الذي تسميه «دائرة المعارف السوفيتية الكبرى» «الكاتب الدرامي، والشاعر الروسي العظيم، والدبلوماسي البارز»[3].

ولد الكسندر سيرغييفتش غريبويدوف (A. S. Griboedov) بموسكو يوم الخامس عشر من شباط سنة ١٧٧٥ في اسرة نبيلة وعريقة، برز بين افرادها عدد كبير من العسكريين. كان مثقفا بارزا، فقد دخل جامعة موسكو في العام ١٨٠٦، ودرس فيها الادب والحقوق والرياضيات والفيزياء، وكان يجيد عددا من اللغات الاوربية

---

(١) راجع الموضوع السابق.

(٢) للتفصيل راجع:

جهانكير ميرزا (بسر عباس ميرزا نايب السلطنة)، تاريخ نو (شامل حوادث دوره قاجاريه ازسال ١٢٤٠ تا ١٢٦٧ قمري)، بسعي واهتمام عباس اقبال، تهران، ١٣٢٧، ص ١٤٤ - ١٤٥، ١٥٢ - ١٥٣، ١٥٥ - ١٧٠ وغيرها.

(3) «Bolshaya Sovetskaya Encyclopedia», T. X11, Moscow, 1952, P. 582.

«دائرة المعارف السوفيتية الكبرى»، الطبعة الثانية، المجلد الثاني عشر، موسكو، ١٩٥٢، ص

والشرقية. عشق الموسيقى، فدرسها، ولحن فيها. اتصل منذ سني دراسته الجامعية بالثوريين الراديكاليين الذين اصبحوا يعرفون بالديسمبريين، او الديكابريين[٤] فيما بعد[٥].

عرف غريبويدوف بمواقفه الوطنية. ففي ايام حملة نابليون بونابارت على بلاده ترك مقعد الدراسة، وتطوع للدفاع عن الوطن. وفي اواخر كانون الثاني ١٨٢٦ اعتقل بتهمة التعاون مع الديسمبريين الذين فجروا انتفاضة معادية للنظام القيصري في العاصمة بطرسبورغ قبل اعتقاله بشهر واحد. ومع انه افرج عنه بسبب فشل اللجنة التي كلفت بالتحقيق معه في اثبات تهمة انتمائه للديسمبريين، الا انه وضع تحت رقابة البوليس السري بامر شخصي من القيصر نيقولا الاول.

طرق غريبويدوف ابواب الادب وهو طالب جامعي، وسرعان مابرز في ميدانه، واصبح على اتصال وثيق بابرز اعلامه في ذلك العصر، منهم الشاعر الكبير بوشكين. وقد ارتبطت شهرته الادبية الواسعة بروايته الشعرية «تعاسة من العقل»، التي بدأ بتأليفها سنة ١٨٢٢، وانتهى منها بعد سنتين، والتي يعتبرها النقاد المعاصرون واحدة من اعظم روايات الدراما الروسية، ونموذجا موفقا للربط بين الادب وحياة المجتمع، فتكون بذلك قد اسهمت في تهيأة الدرب لانتصار الواقعية في الادب الروسي[٦].

كانت روايات غريبويدوف «تعاسة من العقل»و«سفرة الى ضواحي المدينة» و «الزوجات الشابات» و «من الشقيق، من الشقيقة» وغيرها، تعكس افكار الفئة المثقفة الثورية المنتمية الى الارستقراطية الروسية، وتدين العلاقات الاقطاعية، ونظام القنانة من منطلق افكار الديسمبريين، لذا فانها تعرضت لمحاربة رقابة المطبوعات، فلم يسمح بنشر معظمها في حياته[٧]. مع ذلك فان رجال القلم والفكر الروس قيموا غريبويدوف، ومؤلفاته عاليا في وقت مبكر، منهم بوشكين وبلينسكي. ومما قاله فيه بوشكين انه «أدى ماعليه، إذ يكفي انه ترك لنا تعاسة من العقل»[٨]. كما استفاد لينين كثيرا من الافكار التي وردت في روايته «تعاسة من العقل» التي اعيد

---

(٤) يعرفون بالديكابريين او الديسمبريين نسبة الى الانتفاضة التي فجروها في العاصمة بطرسبورغ يوم ٢٦ ديسمبر (كانون الاول) سنة ١٨٢٥.

(٥) «Vsemirnaya Istoria», Vol. VI, Moscow, 1959, PP. 165, 662.

«تاريخ العالم» (مجموعة مؤلفين)، المجلد السادس، موسكو، ١٩٥٩، ص ١٦٥، ٦٦٢.

(٦) من المحتمل ان غريبويدوف قد تأثر في اختيار اسم روايته بارازمس ومؤلفه الشهير «في مديح الغباوة».

(٧) طبع القسم الاكبر من مؤلفاته لاول مرة عام ١٨٥٩ المصادف للذكرى الثلاثين لاغتياله.

(8) «Vsemirnaya Istoria», Vol. VI, P. 662.

طبعها عشرات المرات، وترجمت الى عدد من اللغات. وكان الكاتب المعروف غوغول من بين الذين تأثروا في نتاجاتهم بكتابات غريبويدوف[9].

أحب غريبويدوف الشرق والشرقيين. فقد تزوج من جورجية، وتعلم عددا من لغات شعوب القفقاس، وكرس بعض رواياته للتحدث عن مآثر ابناء تلك الشعوب ومآسيهم، وعن جمال اوطانهم، منها «ليالي جورجيا» و«روداميست وزنوبيا» التي تتحدث عن الارمن، وقد طبعت كلتاهما سنة ١٨٥٩. وعلى مايبدو انه كان مطلعا على قصائد المتنبي[10].

برز غريبويدوف في عمله في السلك الدبلوماسي. ففي سنة ١٨١٦ انتقل للعمل في وزارة الخارجية الروسية، التي اختارته بعد عامين فقط ليشغل منصب السكرتارية في السفارة الروسية بايران، واستقر في تبريز، مقر اقامة ولي العهد. وفي العام ١٨٢٢ عين سكرتيرا دبلوماسيا لقائد الجيش الروسي في القفقاس الجنرال يرمالوف. وفي فترة الحرب الايرانية الروسية ١٨٢٦ ـ ١٨٢٨ زاول غريبويدوف نشاطا دبلوماسيا واسعا، فقد ذهب موفدا الى قره ضياء الدين، حيث اجتمع بقائد الجيش الايراني، ولي العهد عباس مرزا، وتفاوض معه بصدد انهاء الحرب بين الدولتين. كما انه لعب دورا كبيرا في صياغة مواد «معاهدة تركمانجاي» عام ١٨٢٨ التي وضعت نهاية لآخر حرب وقعت بين ايران وروسيا. واثناء مفاوضات عقد المعاهدة اعترض غريبويدوف بشدة على موقف رئيس الوفد الروسي الى تركمانجاي الجنرال باسكوفيتش لموافقته على اشتراك الانكليز في المفاوضات الجارية لانهاء الحرب[11].

بعد التوقيع على «معاهدة تركمانجاي» حمل غريبويدوف نصها معه الى بطرسبورغ في اذار ١٨٢٨، وذلك لعرضها على حكومته، وابرامها. وهناك تقرر تعيينه سفيرا فوق العادة لروسيا لدى ايران، الامر الذي اعتبره شخصيا ابعادا سياسيا بالنسبة له، ولم يتوقع هذه المرة ان يعود ثانية الى وطنه. وكان ذلك قدره بالفعل.

رغم احترام غريبويدوف لوظيفته، ورغم اعتقاده ان واجبه يقتضي منه العمل من

---

(9) Ibid, P. 665.

(١٠) «كيهان»، تهران، جهارشنبه، ١٦ خرداد ٢٥٣٥، ١٦ زوئن ١٩٧٦، شماره ٩٨٩٠ (ضميمه ويزه ـ مرك وزير مختار)، ص ٣٤.

(11) B.P. Balayan, Mejdonarodnaya Otnoshenia Irana V 1913 - 1828, Erevan, 1963, PP. 21, 23 - 24.

ب. ب. بالايان، العلاقات الدولية لايران في سنوات ١٨١٣ ـ ١٨٢٨، باللغة الروسية، ملخص رسالة دكتوراه، يريفان، ١٩٦٣، ص ٢١، ٢٣ ـ ٢٤.

أجل «فرض احترام روسيا ومطاليبها» حسب تعبيره، الا انه كان يميل بشدة للتصرف مع الايرانيين باسلوب من شأنه ان يؤدي الى تبديد شكوكهم، وحساسيتهم تجاه روسيا ومن اجل ذلك فقد حاول تنظيم زيارة عباس مرزا الى العاصمة الروسية بطرسبورغ، كما اقترح على نيقولا الاول ان يخفف من ضغط حكومته على ايران، ويوافق على قبول التعويض الحربي على شكل بضائع ايرانية من حرير وقطن وخيل واحجار كريمة بدل النقود، لاسيما وانه كان على علم بأن عباس مرزا اضطر الى صهر تحفيات اسرته حتى يتمكن من دفع ماترتب على بلاده من تعويض مالي الى روسيا، الامر الذي بعث بصدده مذكرة سرية خاصة الى وزير الخارجية نسلرود بتأريخ ٢٠ تشرين الاول ١٨٢٨ . ولكن القيصر رفض الطلب، وأصر على ضرورة «تطبيق مضمون معاهدة تركمانجاي نصا وروحا»[١٢] .

وكما تشير المصادر ان غريبويدوف بذل في تلك الفترة بعض الجهود من أجل تحسين العلاقات بين العراقيين والايرانيين، باعتبار ذلك عاملا مساعدا للتقريب بين طهران وبطرسبورغ . يقول الدكتور ب . ب . بالايان بهذا الخصوص مانصه :

« . . ان غريبويدوف تمكن من ان يجعل من عباس مرزا يميل للتحالف مع روسيا، كما انه تمكن ايضا من التقريب بين ايران وبلاد مابين النهرين التي كانت يومذاك ولاية تركية، فيما كان حكامها الاقطاعيون يخضعون اسميا للسلطان، ويستعدون للقيام ضد الباب العالي»[١٣] .

لم تؤد جهود غريبويدوف المخلصة الى نتيجة . ففي تشرين الاول عام ١٨٢٨ طلبت بطرسبورغ منه ان يقدم مذكرة الى حكومة الشاه بخصوص دفع القسط السنوي من الغرامة الحربية المفروضة عليها نقدا . ومن أجل ايجاد مخرج للمشكلة قرر السفير ان يذهب بنفسه من تبريز، حيث مقر عمله، الى العاصمة طهران للقاء فتح علي شاه شخصيا .

مع وصول غريبويدوف بدأت في طهران حملة واسعة معادية له، ولبلاده، لعب فيها بعض كبار المسؤولين دورا مباشرا، منهم الوزير، وخال الشاه الله يارخان اصف الدولة، وغيره ممن كانوا يعتقدون ان الظروف اصبحت مواتية للخوض في حرب جديدة ضد روسيا طالما انها كانت منهمكة يومها بحربها مع تركيا . ولم يكن دور

---

(12) Ibid, P. 25; «Vsemirnaya Istoria», Vol. VI, P. 279; M.S. Ivanov, Ochirk Istorii Irana, P. 145.

(13) B.P. Balayan, Op. Cit., P. 25

الانكليز في تحريض الايرانيين قليلا ، فانهم كان يهمهم فتح جبهة جديدة ضد روسيا بهدف تخفيف ضغطها على تركيا التي اضطرت قواتها الى الانسحاب من مواقع مهمة بسبب اندفاع الجيش الروسي . كما لم تكن لندن مرتاحة ، بالطبع ، مما حققه الروس من تعزيز لمواقعهم في ايران بفضل بنود «معاهدة تركمانجاي » التي كانت تؤلف ، في الوقت نفسه ، ضربة لنفوذها في تلك البلاد .

رافقت الحملة المعادية لروسيا اجتماعات عقدت في «البازار» والشوارع ، وساحات المساجد التي القيت فيها خطب حماسية ، صور اصحابها غريبويدوف مسؤولا مباشرا عن الضرائب الجديدة التي فرضها الشاه على الايرانيين[14] . كما حاول المحرضون استغلال حادثة لجوء ارمنيتين ، كانتا جاريتين لدى الله يارخان اصف الدولة ، وجورجي واحد ، الى دار السفارة الروسية بهدف ترحيلهم الى اوطانهم حسب منطوق المادة الثالثة عشرة من «معاهدة تركمانجاي» التي جعلت من ذلك حقا يتمتع به كل مواطن قفقاسي اصبح في الطرف الاخر من الحدود الجديدة الممتدة بين الدولتين[15] . ومما زاد في الطين بلة ان المجتهد الحاج مرزا مسيح اصدر فتوى أجاز فيه «انقاذ المسلمات[16] من أيدي المشركين»[17] .

وهكذا هاج االمجتمعون يوم ١١ شباط ١٨٢٩ في ساحة «جامع المسجد» بطهران ، وتوجهوا نحو مقر السفارة الروسية ، حيث كان غريبويدوف يهيء نفسه للعودة الى تبريز بعد نجاح مهمته ، وتوديع فتح علي شاه في آخر لقاء به صبيحة ذلك اليوم . فوقع صدام دموي ، دافع غريبويدوف فيه بجرأة حتى النفس الاخير ، وقد قتل معه جميع اعضاء بعثته فيما عدا سكرتيرها ملتسوف الذي لم يكن موجودا في دار السفارة صدفة اثناء وقوع المذبحة . وحسب بعض المصادر الايرانية قتل من المهاجمين مابين ٧٠ الى ٨٠ شخصا[18] .

مثل المتعصبون بجثث القتلى ، فقطعوا راس غريبويدوف ، ثم سحلوا الجثث ، مع كلاب وقطط ميتة ، في شوارع طهران لمدة ثلاثة أيام ، ليلقوا بها فيما بعد في حفرة

---

(١٤) جهانكير ميرزا، تاريخ نو . . . ، ص ١٢٢ ؛
«Vsemirnaya Istoria», Vol. VI, P. 279.

(١٥) عبدالله رازي ، تاريخ مفصل ايران از تأسيس سلسلهء ماد تا عصر حاضر، جاب دوم ، تهران ، ١٣٣٥ ، ص ٤٦٩ ؛ جهانكير ميرزا، تاريخ نو . . . ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(١٦) على اساس ان الفتاتين الارمنيتين ، شأنهن شأن الجواري الاخريات ، قد اعتنقن الاسلام .

(١٧) بروفيسور حامد الكار، دين و دولت در ايران . نقش علماء در دورهء قاجار، ترجمهء دكتر ابو القاسم سري ، تهران ، ص ١٤٠ .

(١٨) المصدر نفسه ، ص ١٤١ ؛ جهانكير ميرزا، تاريخ نو . . . ، ص ١١٩ ـ ١٢٣ ؛
«Vsemirnaya Istoria», Vol. VI, P. 279.

خارج المدينة. اما رأس الكاتب الكبير فقد احتفظ به صانع كباب طهراني، وبعد ان اضطر لان يهيء نفسه لاستقبال العيد رماه في أحد مجاري العاصمة. وقد ادخلت المذبحة الذعر في نفوس الارمن الموجودين في طهران، فتركوها خلسة.

حاولت الاوساط المسؤولة الايرانية القاء تبعة مذبحة السفارة الروسية بطهران على عاتق غريبويدوف، الذي تصفه بعض المصادر الفارسية، تجنيا، كانسان «مغرور ومتكبر جدا»، اساء التصرف في لقائه بفتح علي شاه[19]. وبدوافع مختلفة اظهر القيصر الروسي نفسه مقتنعا بالادعاء الايراني القائل «ان ماحدث كان نتيجة انفعال طائش من قبل المرحوم غريبويدوف»[20]. فقبل كل شيء ان روسيا التي كانت تخوض غمار حرب حاسمة ضد تركيا، لم تر من مصلحتها ان تفتح جبهة ثانية في الشرق. كما ان مقتل كاتب ثوري ديسمبري كان، في كل الاحوال، امرا مرغوبا فيه في اعماق نيقولا الاول، الذي كان الديسمبريون اول من هبوا بوجه نظامه حين انتقال العرش اليه. لذا نرى ان بطرسبورغ تكتفي بقرار الحكومة الايرانية ارسال وفد الى العاصمة الروسية لتقديم اعتذار رسمي الى القيصر، وباجراءاتها الشكلية التي اقتصرت على تنبيه احد القتلة من اتباع المجتهد الحاج مرزا مسيح، وابعاد الاخير من العاصمة طهران[21].

ترأس الوفد الايراني حفيد الشاه خسرو مرزا بن عباس مرزا[22]، الذي استقبل في تبليس بفتور واضح من قبل الجنرال باسكوفيتش. وقد تماهل الامير في الطريق بشتى الحجج، بحيث انه لم يدخل العاصمة الروسية الا في ٤ آب ١٨٢٩، اي بعد مرور حوالي ستة أشهر على مقتل غريبويدوف ورفاقه. فان انتصارات جزئية للقوات التركية على القوات الروسية بعثت الامال في نفوس المسؤولين الايرانيين، فغدوا يتوقعون من جديد اندحار الروس وانتصار الاتراك، الامر الذي كانوا يعتبرونه فرصة مواتية ليخوضوا بدورهم غمار حرب جديدة ضد روسيا. الا ان امالهم تحطمت بعد ان تمكنت القوات الروسية من الحاق هزيمة نكراء بجيش تركي كبير يوم ١١ حزيران

---

(١٩) جهانكير ميرزا، تاريخ نو . . . ، ص ١٢٠ - ١٢١.

(20) «Vsemirnaya Istoria», Vol. VI, P. 279.

(٢١) عبدالله رازي، تاريخ مفصل ايران از تأسيس سلسله ماد تا عصر حاضر، ص ٤٧٠، ٤٧٤ - ٤٧٥.

(٢٢) بعد موت فتح علي شاه اصبح خسرو مرزا من بين ضحايا الصراع السياسي المستمر في ايران عهد القاجاريين، فقد سملت عيناه، وقضى بقية حياته مكفوفا.

عام ١٨٢٩ . حينذاك اسرع خسرومرزا الخطى الى بطرسبورغ، حيث القى كلمة بين يدي نيقولا الاول، اعتذر فيها عما وقع «على أيدي الظالين في طهران»[٢٣] . وقد تلقى العاهل الروسي بارتياح كبير هدية فتح علي شاه الخاصة له، والتي كانت عبارة عن ماسة ثمينة تعرف باسم «نادر شاه»، قدمها له خسرومرزا مع رسالة جده الذي عبر فيها « عن امله في توطيد العلاقات الودية بين الدولتين»[٢٤] . وبالمقابل تنازل القيصر عن مليوني روبل (٣٠٠ الف باون) من مبلغ التعويض الحربي الذي فرضته «معاهدة تركمانجاي» على ايران، كما وافق على تأجيل اقساطه لمدة خمس سنوات[٢٥] .

بعد مذبحة السفارة الروسية بطهران بفترة نقل ماتبقى من جثمان الاديب والشاعر والدبلوماسي البارز، عاشق الشرق والشرقيين، اسكندر سيرغييفيتش غريبويدوف الى تبليس، عاصمة جورجيا، حيث دفن فوق جبل داود. وفي الذكرى ١٣٠ لاغتياله ازيح الستار عن تمثال شامخ له في احدى ساحات موسكو لتروي الى الابد قصة احدى ضحايا التخلف والعنف، التي دبجها ببراعة ايضا يراع الكاتب الروسي يوري تينيانوف عام ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ في رواية كبيرة تحمل عنوان «مقتل الوزير المختار» التي اعيد طبعها حتى الان اكثر من مرة[٢٦] .

---

(٢٣) دكتر فريدون آدميت، امير كبير و ايران، جاب دوم با تجديد نظر و اضافات، تهران، ١٣٣٤، ص ٣١ ـ ٣٢.

(٢٤) راجع نص رسالة فتح علي شاه في:
حسين مكي، زندكاني مير زا تقيخان ـ أمير كبير. بمناسبة صدمين سال قتل امير كبير، جاب دوم، تهران، ١٣٢٩، ص ٨ ـ ٩.

(25) M.S. Ivanov, Ochirk ..., P. 14; «Vsemirnaya Istoria», Vol. VI, P. 279; P. Sykes, A History of Persia, Vol. II, London, 1963, P. 322.

(٢٦) تقع الطبعة الاخيرة من الرواية (عام ١٩٧١) في ٤٣٢ صفحة، وقد افادتنا كثيرا لاعداد هذا البحث، لاسيما ان صاحبها استند في كتابتها الى أدق الوثائق الاصيلة الخاصة بتفاصيل موضوع مقتل غريبويدوف ورفاقه. . .

الموضوع الثالث

العراق وايران

بين سازانوف وغراي

(وثائق جديدة)

الوثائق التي نحن بصددها جزء من مراسلات وزير خارجية روسيا(*) سازانوف ووزير خارجية المملكة المتحدة غراي واجهزتهما في سنوات الحرب العالمية الاولى. وللرجلين باع طويل في عالم السياسة، فقد لعبا، مثلا، دورا مباشرا في عقد معاهدة «سايكس - بيكو» المشؤومة التي رسمت مصير منطقة واسعة من الشرق الاوسط حسب مشيئة الاستعماريين.

ولد سيرغي ديميترييفتش سازانوف في ٢٩ تموز ١٨٦٠ من اسرة نبيلة كانت تقطن منطقة ريزان. دخل السلك الدبلوماسي الروسي منذ عام ١٨٨٣ وتدرج في وظائفه الى ان اصبح مساعدا لوزير الخارجية في ايار ١٩٠٩ ثم عين وزيرا للخارجية في ايلول من العام التالي. كان سازانوف من بين الساسة القلائل الذين تمتعوا بتأثير مباشر على شخص القيصر نيكولاي الثاني.

عمل سازانوف من اجل التقارب مع المملكة المتحدة واليابان، مع الحرص على الاحتفاظ بافضل ما يمكن من العلاقات مع المانيا والنمسا - المجر، - الا انـه، مع ذلـك، كان من انصـار التقـارب بين تركيـا ودول البلقـان تحت اشراف روسيا كوسيلة من وسائل التغلغل المتزايد في الشرقين الآسيوي والاوربي.

ولكن مع اقتراب الحرب العالمية الاولى، ولا سيما بعد ان اندلعت نيران الحروب البلقانية في ١٩١٢ - ١٩١٣ كرس سازانوف جل جهده من اجل توثيق صلات بطرسبورغ بلندن وباريس. ومع انه حاول بعد مقتل ولي العهد النمساوي فرانس فرديناند في سيراييفو يوم 28 حزيران 1914 ايجاد مخرج للازمة السياسية الحادة التي نجمت عن الحادث، الا انه يدخل في عداد الذين يتحملون مسؤولية مباشرة عن وقوع الحرب الاولى، خاصة لان بلاده اعلنت التعبئة العامة بناء على اقتراح منه، الامر الذي زاد كثيرا من توتر الوضع الدولي على صعيد القارة الاوربية.

(*) اصل البحث نشر في مجلة «افاق عربية» (العدد الثاني، تشرين الاول ١٩٨٢، ص ٢ - ٩).

حاول سازانوف استغلال ظروف الحرب العالمية الاولى لضمان اكبر المكاسب لبلاده، فلعب دورا كبيرا في عقد سلسلة المعاهدات السرية الخطيرة التي ابرمت في تلك السنوات والتي مست منطقتنا بصورة مباشرة، وكان يرى مصلحة روسيا في ان تبقى ضمن جبهة الحلفاء حتى النهاية، لذا فانه استقال من منصبه في تموز 1916 بسبب المحاولات التي جرت لعقد صلح منفرد بين المانيا وروسيا.

ظهر سازانوف فوق المسرح السياسي من جديد بعد انتصار ثورة شباط 1917 التي اطاحت بالنظام القيصري في روسيا، فقد وقف بحماس الى جانب الحكومة المؤقتة التي تالفت على انقاض الحكومة السابقة. وبعد انتصار ثورة اكتوبر في العام نفسه انضم الى الحرس الابيض واصبح وزير خارجية الحكومة التي الفها اعداء الثورة ومثلها في مؤتمر الصلح بباريس عام 1919 حيث حاول دفع الحلفاء الى توسيع نطاق تدخلهم في روسيا السوفيتية، وبعد ان لم تسفر محاولاته عن نتيجة مجدية وانتهت الحرب الاهلية وحرب التدخل في روسيا بالفشل اعتزل سازانوف السياسة عمليا الى ان وافاه الاجل بمدينة نيس في المنفى يوم 25 كانون الاول سنة 1927 .

اما السير ادوارد غراي فهو «اشهر من نار على علم» في دوائرنا السياسية والعلمية. انه كراي اوف فالودون، ولد بلندن في 25 نيسان 1862 . اصبح له وزن سياسي منذ ان دخل البرلمان عام 1885 ممثلا عن حزب الاحرار احد اقوى حزبي المملكة المتحدة يومذاك. في العام1892 اصبح نائبا لوزير الخارجية وظل يشغل هذا المنصب لمدة ثلاث سنوات. وفي العام 1905 اصبح وزيرا للخارجية في وزارة كامبل بانرمن ثم اعيد اختياره للحقيبة الوزارية ذاتها في وزارة اسكويث عشية الحرب العالمية الاولى.

كان غراي من اشد انصار التوسع الكولونيالي، حتى انه وقف بحماس منقطع النظير بجانب حكومة المحافظين ايام حرب البوير المعروفة (١٨٩٩ - ١٩٠٢). عرف بمناوراته السياسية، فقد كان يدخل دون تردد في عقد صفقات سياسية مع الجميع، سرا وعلنا. ومع ذلك دفعته ظروف ما قبل الحرب العالمية الاولى الى ان يلعب دورا ملموسا في التقارب بين المملكة المتحدة وفرنسا وروسيا اتخذ صورة تحالف عشية الحرب وفي سنواتها.

يتحمل غراي، بدوره، مسؤولية مباشرة في اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى.

كان السير ادوارد غراي مؤمنا بالدبلوماسية السرية ال حد كبير لانه كان يرى فيها وسيلة ضرورية لاخفاء النوايا الحقيقية لسياسة بلاده، وقد لعب فعلا دورا كبيرا في عقد سلسلة المعاهدات السرية في سنوات الحرب العالمية الاولى من قبيل معاهدة لندن عام 1915 مع ايطاليا ومعاهدة سايكس - بيكو عام 1916 مع روسيا وفرنسا.

في كانون الاول 1916 انتهت مهمة غراي كوزير للخارجية مع سقوط وزارة الاحرار وتاليف وزارة لويد جورج الائتلافية الا انه عين في العام نفسه عضوا في مجلس اللوردات وتراس البعثة الاستثنائية البريطانية الى الولايات المتحدة عام 1919 ، وبقي يحتفظ بمكانته القيادية في حزب الاحرار لغاية سنة 1927 حينما اعتزل السياسة واستقر في مسقط راسه فالودون بدوقية نورثمبرلند الى ان وافاه الاجل يوم 7 ايلول سنة 1933 .

قدر لهذين السياسيين المعروفين، سازانوف وغراي، ان يتركا بصماتهما على مجرى الامور في العراق وايران خلال سنوات الحرب العالمية الاولى.

كانت الحرب العالمية الاولى تمثل ذروة الصراع الدولي في احرج صورة عرفها التاريخ حتى ذلك اليوم. وبما ان مصير اهم مناطق العالم حساسية قد تعلق بنتائج الحرب مباشرة، كان على كل طرف من طرفي الصراع ان يبذل جميع ما في وسعه لترجيح كفة الحرب الى جانبه. من هنا اصبح لكل من العراق وايران كمنطقتين حساستين من الشرق الاوسط وكجزئين من ساحة الحرب في ميدانها الأسيوي، حسابهما الخاص لدى الدوائر المنهمكة بوضع ادق التفاصيل لسياسات الدول الكبرى في سنوات الحرب.

وبحكم عاملين اساسيين كان الوضع بالنسبة لايران اكثر تعقيدا. ففيما كان العراق جزء من الدولة العثمانية - احد طرفي النزاع - كانت ايران دولة «مستقلة» لها حدود مشتركة بين دولتين تقعان في خندقي الحرب المتقابلين - روسيا وتركيا. وقد اعلنت الحكومة الايرانية «الحياد» رسميا يوم الثاني من تشرين الثاني عام 1914 ، اي بعد ان بدات الحرب على صعيد القارة

الاوربية بثلاثة اشهر وفي نفس اليوم الذي اعلن فيه الحلفاء الحرب على تركيا.

لم يحترم احد، لا الحلفاء (انكلترا وروسيا وفرنسا) ولا دول الوسط (المانيا والنمسا - المجر والدولة العثمانية) ولا حتى الايرانيون انفسهم (رسميون وغير رسميين)، هذا الحياد، ذلك لان البلاد بواقعها السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي لم تمتلك يومذاك الحد الادنى المطلوب من المقومات الضرورية للتمسك بموقف حيادي حقيقي في حرب عالمية. فان القوات الروسية كانت تحتل جزءاً حساسا من الاراضي الايرانية، وكانت رؤوس خيوط حكومة طهران بايدي القيمين على الامور في لندن وبطرسبورغ، بينما كان القوميون يميلون الى برلين والجماهير الواسعة ترنو الى استانبول «عاصمة الخلافة الاسلامية». وفيما يخص موقف الجماهير الايرانية من الحرب، وهو امر مهم لما نحن بصدده، ورد ما يلي نصا في مذكرة سرية رفعها السفير الروسي في طهران الى وزير الخارجية سازانوف في بداية الحرب :

«... يميل الرأي العام الايراني الى الاتراك، ان الحكومة (الايرانية - ك.م.) عاجزة عن التأثير في هذا الموقف حتى فيما لو افترضنا ان لديها رغبة للقيام بذلك»[1]. ومهما يكن من أمر فان «الحياد» الايراني لم يعن، في افضل الاحوال، اكثر من «الوقوف خارج الحلبة انتظارا لمعرفة المنتصر» حسب تعبير السر بيرسي سايكس الذي كان في مقدمة من كانوا يراقبون الاحداث على الساحة الايرانية عن كثب وبانتباه[2].

انعكس عدم اهتمام المعنيين بـ «الحياد» الايراني في مواقف ووثائق رسمية منذ بداية الحرب. فقبل ان تقدم الحكومة الايرانية على اعلان «حيادها» اتصلت بالحكومة العثمانية مستفسرة منها عن موقفها من «اعلان ايران الحياد» فجاء رد الباب العالي صريحا: عدم الاعتراف به مادامت القوات

---

(١) مذكرة السفير الروسي في طهران الى وزير الخارجية سازانوف بتاريخ ٤ شباط ١٩١٥. - «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة (١٨٧٨ - ١٩١٧)»، التسلسل الثالث (١٩١٤ - ١٩١٧)، المجلد السابع، الجزء الاول (١٤ كانون الثاني - ٢٣ آذار ٩١٥). ص ١٧٧ - ١٨١، الوثيقة رقم ١٣٤.

(2) Percy Sykes, A History of Persia, Vol. 2, London, 1963, P. 435.

الروسية موجودة فوق اراضي اذربيجان الايرانية، مما يستوجب «اتخاذ اجراء ما» من قبـل الجيش التـركي كمـا ورد في الجـواب الـرسمي لاستـانبـول عن استفسار طهران [3] .

وعندما طلبت الاخيرة رسميا من بطرسبورغ اتخاذ مايلزم لسحب قواتها من اذربيجان الايرانية جاء الرد الروسي سريعا:

نرفض الطلب بصورة قاطعة لان القوات الروسية هناك تؤلف «الضمانة الـوحيـدة والاكيـدة» لحمـايـة الـرعـايـا الاجانب في ايران. هذا ماورد في الرد الـرسمي، الا ان السبب الحقيقي كان يكمن فيمـا جاء على لسـان السفيـر الروسي في طهران قبل ايام من وصول جواب بطرسبورغ على طلب الحكومة الايرانية والذي قال صراحة لرئيس الوزراء الايراني في لقاء جرى بينهما ان بلاده تخشى «احتلال الجيش التركي لاذربيجان» حال قيامها بسحب قواتها منها [4]. وبصورة عامة لم يقبل الروس والبريطانيون بـ «الحياد» الذي اعلنته وزارة مستوفي الممالك ذلك لانهم كانوا يريدون من ايران الوقوف الصريح الى جانب الحلفاء او، على الاقل، اتباع ماسموه بـ «سياسة حياد ودي» تجاههم.

وهكذا شهدت الارض الايرانية منذ بداية الحرب العالمية الاولى والى حد نهايتها نشاطا محموما وغريبا لجميع الاطراف وبصورة قلما وجد لها مثيل في مكـان آخـر من العـالـم. فقـد نشـط دبلومـاسيو انكلترا وروسيا والمانيا والنمسا المجر وتركيا وعسكريوها واقتصاديوها وعملاؤ ها في آن واحد وفي شمال ايران «المحايدة» كما في جنوبها وشرقها ووسطها. وتبعا لذلك انقسم الايرانيون من مسؤولين وساسة وزعماء عشائر اشياعا وجماعات حاول معظمها، ان لم يكن كل منها، الاثراء على حساب احد الطرفين المتحاربين او، ان امكن، على حساب كليهما. وقد بلغ الامر بين زعماء بعض العشائر ان وقف الاب الى

---

(3) M.E. Yapp, 1900 - 1921, The last years of Qajar Dynasty, - (Twentieth Century Iran), New York. 1977, P. 18; Rouhollah K. Ramazani, The Foreign Policy of Iran. A Developing Nation in World Affairs, Virginia, 1966, PP. 115 - 116.

(4) R.K. Ramazani, Op. Cit., P. 116.

جانب احد المعسكرين بينما وقف الابن الى جانب المعسكر الاخر، كما فعل البختاريون في الجنوب مثلا[5] .

وفي الوقت نفسه شهدت الاراضي الايرانية عمليات حربية بين القوات العسكرية التابعة للجبهتين المتحاربتين. فان خطة وزير الحربية التركي انور باشا التي وضعها بالتعاون مع القادة الالمان كانت تستهدف، من بين ما تستهدف، الاستيلاء على المناطق الشمالية من ايران. وعلى هذا الاساس اخترقت القوات التركية الحدود الشمالية الغربية الايرانية في تشرين الثاني عام 1914 ، ودخلت مدن خوي واورميه اولا، ثم احتلت تبريز، العاصمة الثانية للقاجاريين. وردا على ذلك بدأت القوات الروسية هجومها المضاد اعتبارا من اواخر كانون الثاني عام 1915 وتمكنت من استعادة تبريز في 31 كانون الثاني ثم تقدمت باتجاه همدان وكرمنشاه واقتربت من خانقين وبدأت تخطط من أجل الدخول في الاراضي العراقية بتنسيق مع القوات البريطانية خاصة بعد أن اصبحت الاخيرة في مأزق عسكري كبير اثر محاصرة الاتراك لقطعاتها في مدينة الكوت.

ومن جانب آخر ازداد النشاط العسكري البريطاني والالماني ونشاط رجال العشائر وعملاء الطرفين في المناطق الجنوبية من ايران. وبالرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذها البريطانيون حقق الالمان في المناطق الجنوبية نجاحات كبيرة في السنة الاولى من الحرب، بحيث انهم غدوا يسيطرون كليا على الجنوب فيما عدا موانئه [6] ، وكانت مدينة شيراز المهمة في ايديهم. ولم يحقق الالمان وانصارهم نجاحا اقل في العاصمة، فقد اكتسبوا عددا كبيرا من الساسة البارزين، ومنهم قسم اساسي من اعضاء مجلس النواب في دورته الثالثة. ولم يكن تأثير هؤلاء قليلا على الشاه وعلى وزارة مستوفي الممالك التي تجاهلت كليا الهجوم التركي على الاراضي الايرانية بحيث اعتبرت «العشائر الكردية في المنطقة» ذلك بمثابة «تشجيع من الحكومة لها للقيام

(5) Percy Sykes, Op. Cit., PP. 435, 440.

(6) Ibid, P. 450.

بمساندة الاتراك» كما ورد في وثيقة سرية[7]. فلم يكن عبثا، والحالة هذه، ان تصف وثائق الحلفاء الخاصة وزارة مستوفي الممالك بـ «الوزارة المعادية» لهم[8]، وقد بلغ التوتر بين الطرفين حد ان بطرسبورغ هددت اكثر من مرة بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع طهران[9]، بل ان روسيا سحبت فعلا بعض دبلوماسييها من مدن ايرانية مختلفة. وقد هدد الروس والبريطانيو المسؤولين الايرانيين صراحة بانه في حالة قطع العلاقات الدبلوماسية مع طهران فانه يكون من الصعب في المستقبل «اعادة مثل تلك العلاقات مع ايران مستقلة وغير مقسمة»[10].

واخيرا اضطر مستوفي الممالك الى تقديم استقالته في آذار 1915 تحت ضغط الحلفاء وحل محله مشير الدولة. الا ان هذا الاجراء لم يكن بوسعه وضع نهاية لنشاط المعادين للحلفاء في ايران. فقد انتقل عدد كبير من اعضاء المجلس مع اعضاء وزارة مستوفي الممالك الى قم حيث الفوا ماسموه بـ «الحكومة الوطنية المؤقتة» التي اعترفت بها المانيا وحلفاؤها. كما الفوا قبل ذلك لجان «بعث الامة» و «الدفاع عن استقلال ايران». وكان من المقرر ان يلتحق بهم احمد شاه الذي اضطر الى التراجع في اللحظة الاخيرة تحت ضغط انذار بريطاني ـ روسي مشترك اكد له بأن «خروجه من موقفه المحايد»

---

(٧) برقية مستشار الشعبة السياسية الثالثة في وزارة الخارجية الروسية للسفير في طهران بتاريخ ٢١ كانون الثاني عام ١٩١٥ ـ ، «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية. وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة (١٨٧٨ ـ ١٩١٧)، التسلسل الثالث (١٩١٤ ـ ١٩١٧)، المجلد السابع، الجزء الاول (١٤ كانون الثاني ـ ٢٣ آذار ١٩١٥)، ص ٧٧، الوثيقة رقم ٥٥.

(٨) برقية وزير الخارجية الروسي سازانوف للسفير في طهران بتاريخ ١٤ آذار ١٩١٥، نفس المصدر، ص ١٧٨، الوثيقة رقم ٣٦٧.

(٩) نفس المصدر، المجلد الثامن، الجزء الثاني (٢٤ أيار ـ ١٦ تشرين الاول عام ١٩١٥)، الوثائق: ٦٣٧ (ص ٢١٠ ـ ٢١١)، ٦٧٩ (ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨)، ٦٨٨ (ص ٢٧٦ ـ ٢٧٨)، ٧٣٩ (ص ٢٨٣) وغيرها.

(١٠) نفس المصدر، نفس المجلد، الوثيقة رقم ٦٣٧ (برقية السفير الروسي في طهران الى وزير الخارجية سازانوف بتاريخ ٤ أيلول ١٩١٥).

يؤدي به الى ان «يفقد العرش»[11] .

رافق كل ذلك نشاط اكثر خطورة خلف الكواليس. فقبل كل شيء جرت مفاوضات سرية بين لندن وبطرسبورغ حول مستقبل ايران بعد اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى بفترة وجيزة[12] . وبعد تبادل مذكرات مفصلة بين وزير الخارجية الروسي سازانوف ووزير الخارجية البريطاني السير ادوارد غراي[13] تم التوصل الى اتفاقية سرية بينهما في آذار عام 1915 يمكن اعتبارها، كما نرى، جزءا متمماً لمعاهدة «سايكس ـ بيكو» وملحقاتها. وافقت روسيا بموجب الاتفاقية الجديدة على ترك منطقة الحياد الايرانية[14] لبريطانيا فيما عدا مدينتي اصفهان ويزد ومنطقة ضيقة عند التقاء الحدود الافغانية ـ الايرانية ـ الروسية.

ولكن الاهم بالنسبة لموضوعنا هو ما كان يجري خلف الكواليس وفي الاروقة يومذاك على حساب العراق والعراقيين. فان روسيا القيصرية ارادت استغلال الظروف التي استجدت بسبب الحرب العالمية الاولى للاقتراب اكثر ما يمكن من العراق وتحويله الى اداة جديدة في سياستها ازاء المنطقة. وعلى غرار الانكليز، ولا سيما الألمان حاول الروس بدورهم تكريس العاطفة الدينية للمسلمين لخدمة مخططاتهم بصورة او باخرى. فمنذ ان دخلت الدولة العثمانية في الحرب الى جانب المانيا وحلفائها بدات الاوساط الحاكمة الروسية تصر على ضرورة استغلال العتبات المقدسة العراقية في الحملة الدعائية للحلفاء ضد المانيا والدولة العثمانية. ففي المذكرة التي بعثها سازانوف الى سفيري انكلترا وفرنسا في بطرسبورغ بتاريخ 11 ايلول

---

(11) Percy Sykes, Op. Cit., PP. 447 - 448.

(١٢) بدأت المفاوضات بين الطرفين في أواخر عام ١٩١٤ .

(١٣) للتفصيل عنها راجع : «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية. وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة (١٨٧٨ ـ ١٩١٧) . . .»، المجلد السابع، الجزء الاول (١٤ كانون الثاني ـ ٢٣ اذار ١٩١٥)، الوثيقة رقم ٦٣٩ (تقرير وزارة الخارجية الروسية بتاريخ ١٤ اذار ١٩١٥)، راجع كذلك الوثائق ٨٦ (ص ١١٤ ـ ١١٧) و ٣٥٢ (ص ٤٥٢ ـ ٤٥٦) و ٤٠٠ (ص ٥٢٦ ـ ٥٢٨) وغيرها.

(١٤) بموجب اتفاقية خاصة بين روسيا وانكلترا عام ١٩٠٧ جرى تقسيم ايران الى منطقة نفوذ بريطانية في الجنوب ومنطقة نفوذ روسية في الشمال مع منطقة محايدة بينهما.

1915 اكد الوزير على ضرورة الاهتمام بمدينتي النجف وكربلاء و «تحريرهما من ايدي الاتراك» على حد قوله. وقد اشارت المذكرة صراحة الى «ان حكومة قيصر تعير هذا الموضوع اهتماما كبيرا» وذلك «لما له من تاثير كبير على الراي العام» في بلاد ما بين النهرين وايران [15]

ومن جانبهم اتخذ الروس بعض الاجراءات التي تدل مرة اخرى على مدى ما اولوا هذا الموضوع من اهتمام. فان الدبلوماسيين والضباط الروس الموجودين في المدن الغربية الايرانية قاموا بحملة دعاية واسعة لتحريض العشائر الكردية ضد الاتراك وحلفائهم. ولم تذهب هذه الحملة سدى، على ما يبدو. ففي المذكرة السرية التي قدمها قائد كتيبة القوزاق الايرانية في منطقة كرمنشاه الضابط الروسي اوشاكوف الى القنصلية الروسية بمدينة كرمنشاه في اواخر تشرين الاول 1914 ورد ما يلي نصا:

> «لدي معلومات تؤكد امكانية اثارة العشائر الشيعية الكردية واللرية من اجل الاستيلاء على كربلاء واخذها من الاتراك. بامكاني تهيئة هذا الامر بحذر وبدون ضجيج. استحصلوا موافقة السفير. من الضروري العمل مع الانكليز بصورة مشتركة. ان الامر مهم للغاية، وامل النجاح كبير بسبب قلة الجيش (التركي - ك.م.) في ميسوبوتاميا. ان الاستيلاء على العتبات المقدسة سيترك اثرا كبيرا على الاتراك» كما «سنحصل نحن» بسببه على عطف المسلمين.

وفي ختام مذكرته يؤكد قائد كتيبة القوزاق اوشاكوف على ان من شان تنفيذ الخطة بسرعة ان يدفع القيادة التركية الى سحب احتياطيها من الحدود

---

(١٥) «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية. وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة (١٨٧٨ - ١٩١٧)»، التسلسل الثالث (١٩١٤ - ١٩١٧)، المجلد الثامن، الجزء الثاني (٢٤ ايار - ١٦ تشرين الاول ١٩١٥)، ص ٢٧٦ - ٢٧٨ الوثيقة رقم ٦٨٨.

الروسية. وقد قام القنصل في كرمنشاه بارسال برقية تحمل مضمون الاقتراح الى السفير الروسي في طهران بتاريخ 31 تشرين الاول عام 1914 [16].

ازداد اهتمام الاوساط الحاكمة الروسية بموضوع العراق والعتبات المقدسة في عامي 1915 و 1916 وذلك في اطار الضغوط التي زاولها الحلفاء من اجل ابعاد ايران عن المانيا والدولة العثمانية، وكذلك بسبب مناورات الحكومة الايرانية لاستغلال ظروف الحرب للكسب على حساب الاخرين. ففي بداية الحرب ابدت وزارة مستوفي الممالك استعدادها للانضمام الى جانب الحلفاء حسب شروط لخصتها مذكرة السفير الروسي في طهران الى سازانوف بتاريخ 11 شباط 1915 في النقاط التالية:

١- انسحاب القطعات الروسية من اذربيجان [17].

٢- دفع مبلغ ضخم للجانب الايراني على شكل قرض او سلفة.

٣- تزويد ايران بالاسلحة والذخائر الكافية.

٤- تخفيض سعر الفائدة على القروض البريطانية والروسية السابقة [18].

٥- ضم مدينتي كربلاء والنجف الى ايران [19].

ومع ازدياد نفوذ الالمان والاتراك في ايران اتخذ هذا الموضوع طابعا اكثر جدية في نظر المسؤولين الروس الذين بلغ الامر بهم حد ان يقترح بعضهم عقد ما اسموه بـ«اتفاقية شكلية» بين ايران وانكلترا «تتنازل» الاخيرة بموجب بنودها «عن منطقة بغداد والمدن المقدسة لايران وتقيم ادارة بريطانية فيها على غرار ما في مصر وما كان في البوسنة والهرسك قبل ضمهما الى النمسا» كما

---

(١٦) مقتبس من: م. س. لازاريف، كردستـان والمشكلة الكـرديـة (تسعينات القرن التاسع عشر- ١٩١٧). باللغة الروسية، موسكو١٩٦٤ ص ٣٢٧: م. س. لازاريف، القضية الكردية (١٨٩١ - ١٩١٧)، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٧٢، ص٣٢٢، ٤٤٤.

(١٧) احتلت القطعـات الـروسيـة منـاطق حساسة من اذربيجان الايرانية قبل الحرب العالمية الأولى بعدة سنوات.

(١٨) بلغت الديون البريطانية والروسية على ايران في السنة التي اندلعت فيها نيران الحرب العالمية الاولى حوالي ٧ ملايـين جنيـه استـرليني تجاوزت فائـدتها السنوية نصف مليون جنيه، اي مابين ربع وثلث ميزانية الدولة.

(١٩) «العـلاقـات الـدولية في عصر الامبريالية. وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة (١٨٧٨ - ١٩١٧)...»، المجلد السابع، الجزء الاول، ص ٢٣٩ - ٢٤٢، الوثيقة رقم ١٨١.

ورد نصا في مقترح تقدم به السفير الروسي في طهران لسازانوف بتاريخ 4 تشرين الثاني عام ١٩١٥

وبعد ثلاثة اسابيع فقط عادت الحكومة الروسية الى الموضوع نفسه ولكن هذه المرة مع حليفتيها حكومتي انكلترا وفرنسا. ففي المذكرة السرية التي بعثها سازانوف يوم 25 تشرين الثاني الى سفيري الدولتين في بطرسبورغ اكد ثانية على موضوع انضمام ايران الى الحلفاء وشروطها وسجل مانصه:

«تعتقد حكومة قيصر انه في حالة قبول الاقتراح الايراني يصبح من الضروري منح ايران امتيازات مهمة، لذا ترى حكومة القيصر ان من واجبها ان تعود الى الاقتراح الذي تقدمت به الى وزارة لندن بصدد منح ايران ميسوبوتاميا مع المدينتين المقدستين النجف وكربلاء.. لان من شأن وعد كهذا ان يؤدي الى احداث انقلاب جذري في الرأي العام الايراني لصالح روسيا وانكلترا»[21].

كان موقف السر ادوارد غراي من مقترحات زميله الروسي بشأن العراق الرفض القاطع لانه كان يفهم جيدا ماكانت ترمي اليه تلك المقترحات من اهداف بعيدة المدى لم تكن تتعلق بما كان يجري فوق المسرح ايام الحرب بقدر ماكان يتعلق بمرحلة مابعد الحرب كما سنبين ذلك فيما بعد. ففي المذكرة التي بعثها السفير البريطاني لدى روسيا بأسم حكومته الى سازانوف بتاريخ 30 تشرين الثاني عام 1915 ذكر ان السر ادوارد غراي يتفق مع كل ما ورد من مقترحات في المذكرات الروسية بصدد العمل من اجل ابعاد ايران عن اعداء الحلفاء سوى ما يتعلق منها بالعراق «فلديه تحفظ في الوقت الراهن» بصدده لانه:

---

(٢٠) نفس المصدر، المجلد التاسع (١٧ تشرين الاول ١٩١٥ - ١٣ كانون الثاني ١٩١٦)، ص١٦٤ - ١٦٦، الوثيقة رقم ١٦٥، مذكرة السفير في طهران الى وزير الخارجية سازانوف بتاريخ ٤ تشرين الثاني ١٩١٥.

(٢١) المصدر نفسه، المجلد نفسه، الوثيقة رقم ٣٨١ (مذكرة السفير البريطاني في بطرسبورغ الى وزير خارجية روسيا سازانوف بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٥).

«حسب رأي المطلعين على الموضوع ان من شأن الاقدام على عمل كهذا ان يؤدي الى انتشار دعايات مفادها اننا نتدخل في شؤون العتبات المقدسة، الامر الذي يترك اثرا سلبيا على العالم الاسلامي باسره، ويعتبر تدخلا منا في المسائل الدينية. واكثر من ذلك ان من المشكوك فيه جدا ان يرحب رجال الدين في النجف وكربلاء بسيطرة ايران او نفوذها. ان اثارة رجال الدين في هاتين المدينتين ضدنا ستترك اثارا سيئة في الظرف الحالي»[22].

ولكن لِمَ كان كل هذا الاصرار من جانب الحكومة الروسية، هل انه كان حقا فقط من اجل كسب ايران الى جانب الحلفاء كما يبدو في الظاهر من مضامين المذكرات الخاصة المتبادلة بين الاطراف المعنية. لا ينكر ان هذا الموضوع كان مهما بحد ذاته وخاصة بعد تمادي انصار المانيا وتركيا داخل ايران في اعمالهم، الا انه لم يكن، كما نرى، العامل الاهم المحرك للموقف الرسمي الروسي. فقبل كل شيء لم يكن بوسع الموقف الايراني ان يؤثر بصورة ملموسة على ميزان القوى في ميادين القتال على الساحة الشرقية، فان الجيش الايراني قبل الحرب كان «ادنى مستوى من ان يستخف به» حسب تعبير دونالد ستيوارت [23]. وعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى كان هذا الجيش يتألف من 8 الاف رجل من القوزاق كانوا بقيادة ضباط سويديين وقوة ايرانية صغيرة «لم يعرها اي من الجانبين المتحاربين اقل اهتمام» حسب تأكيد احد كبار الضباط البريطانيين ايام الحرب [24]. وكان جميع هؤلاء مزودين باسلحة قديمة ومن نوعيات مختلفة، فقد كانوا يحملون اثني عشر نوعا من البنادق على اقل تقدير، وكانوا يكلفون ميزانية الدولة اكثر من طاقتها، فتحولوا الى عبء على عاتق الحكومة والشعب [25]. وفي وقت

---

(٢٢) المصدر نفسه.

(23) M. Zonis, The Politieal Life of Iran, Princeton, 1971 PP. 102 - 103.

(24) Percy Sykes, Op. Cit., P. 436.

(25) Ibid, PP. 436 - 437; M. Zonis, Op. Cit., PP. 102 - 103.

مبكر اشار سازانوف في برقية سرية له الى هذه الحقيقة عندما كتب الى سفير بلاده في طهران بتاريخ 11 شباط 1915 قائلا له ضمن تعليماته بهذا الصدد:

« يبدو لنا ان انضمام ايران الصريح الينا بأعلانها الحرب ضد تركيا ليس من شأنه ان يجلب فوائد ملموسة بسبب ضعف حكومة الشاه. ومن جهة اخرى ان ذلك يلزمنا، نحن وانكلترا، لا بتزويد الايرانيين بالمال والسلاح حسب، بل وربما ايضا بتقديم مساعدات عسكرية في اماكن صعبة جدا بالنسبة لنا مثل منطقة كرمنشاه. ثم ان الاشتراك المباشر في الحرب يعطي الايرانين الحق في طلب تعويضات معينة في المستقبل... وعلى هذا الاساس يبدو ان لاحاجة لطلب اكثر من حياد ودي من ايران وذلك بان تقوم باتخاذ موقف حازم ازاء الاستفزازات الالمانية - التركية والعمل من اجل عرقلة تغلغل الاتراك في ايران قدر المستطاع دون الاكتفاء بتقديم الاحتجاجات وبالاعتماد على الاكراد في ذلك، بل ربما عن طريق تنظيم حرب عصابات بين العشائر الايرانية الحدودية ضد العصابات التركية»[26].

اذن لم تنجم اهمية ايران في سنوات الحرب العالمية الاولى بالنسبة لطرفي النزاع عن وزنها العسكري بل نجمت عن موقعها الستراتيجي وثروتها النفطية، خاصة بعد ان بدأ الاسطول البريطاني يعتمد على مشتقات النفط بدل الفحم فاصبحت قطعاته في البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي تعتمد الى حد كبير على انتاج ايران من النفط الذي ارتفع خلال سنوات الحرب من 80 الف طن عام 1913 الى مليون ومئة الف طن عام 1919 . ثم ان روسيا القيصرية كانت تعلم جيدا انها تستطيع الوصول بصورة افضل الى العراق والخليج عن طريق ايران التي تحولت قبل الحرب الى شبه مستعمرة

---

(٢٦) «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية. وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة...»، المجلد السابع، الجزء الاول، ص ٢٣٠ ، الوثيقة رقم ١٧١ (برقية وزير الخارجية سازانوف الى السفير في طهران بتاريخ ١١ شباط ١٩١٥).

(٢٧) م. س. ايفانوف، موجز تاريخ ايران، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٥٢، ص ٢٥١ .

تابعة لها ولانكلترا، بل ان نفوذها كان اكبر حتى من نفوذ حليفتها هناك، فانها كانت تستطيع اسقاط الوزارات، وابعاد الوزراء، وتعيين غيرهم، كما فعلت اكثر من مرة عشية الحرب العالمية الاولى وفي سنواتها.

الموضوع الرابع

رضا المازندراني والعرش الايراني

من تاريخ تأسيس الأسرة البهلوية والخيوط الأولى لسياسة الاستعمار الجديد في الشرق الاوسط

يعتبر سقوط الاسرة القاجارية[1] بعد ان حكمت ايران لمدة ١٣٤ سنة و٤ اشهر وعدة ايام[2] وتأسيس الاسرة البهلوية في اواخر العام ١٩٢٥ من المواضيع المهمة في تأريخ ايران الحديث لا لانه حمل في طياته تغييرا نوعيا في شكل الحكم وترك تأثيرا ملموسا على داخل ايران وماحولها حسب، بل وكذلك لان مارافق التغيير وادى اليه يتضمن، كما نرى، الخيوط الاولى لسياسة الاستعمار الجديد في الشرق الاوسط.

لم يكن سقوط الاسرة القاجارية وتأسيس الاسرة البهلوية مجرد عملية تغيير آني، ذلك لان مجموعة كبيرة من العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية تفاعلت فيما بينها وهيأت الظروف الموضوعية التي مكن رضا المازندراني من ان يتحول الى المسؤول الاول، إن لم يكن الوحيد، لمنطقة حساسة من عالم ملتهب ومتصارع لحوالي عقدين من الزمن وقبل الخوض في تفاصيل الحدث نفسه نستعرض اولا العوامل المذكورة مع شيء من التركيز.

اولا - التحولات الاجتماعية والاقتصادية:

شهدت ايران في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحولات اجتماعية واقتصادية كبيرة بحكم اندماجها بالسوق الرأسمالية العالمية. فبعد ان وجدت منتوجاتها الزراعية طريقها الى الاسواق الخارجية انتقل انتاجها من الاطار الطبيعي الى الاطار البضاعي وتحول النقد الى عامل فاعل اكثر من السابق في تحديد العلاقات. فبدأت، جراء ذلك، عملية انهيار العلاقات الاقطاعية التقليدية لتحل محلها علاقات جديدة واساليب جديدة للاستغلال، اذ اخذت العلاقات الابوية والمظاهر المشاعية تختفي بسرعة حتى في اكثر مناطق البلاد إنزواء، وتحول رؤساء العشائر وغيرهم الى ملاكين يمتلكون اطيانا جد شائعة ويتفننون في استغلال اتباعهم. فقد قدرت ممتلكات الامير القاجاري ظل السلطان، مثلا، بحوالي الفي قرية كان يقطنها ما يقرب من نصف مليون شخص. وكان لدى اتابك اعظم ١٥٠٠ قرية تدر عليه دخلا سنويا يقدر بمليوني تومان[3]. وفي الوقت نفسه تحولت الارض الزراعية الى البضاعة المرغوبة والمضمونة التي تهافتت عليها عناصر جديدة من تجار

---

(١) نشر اصل البحث في «افاق عربية».

(٢) سعيد نفيسي، تاريخ سياسي واجتماعي ايران دوره معاصر. مجلد اول (أز آغاز سلطنت قاجارها تاپايان جنك نسختين باروسيا). تهران. ١٣٣٥. ص ٣٤.

(٣) اتربيت. محمد علي شاه. حركة شعبية في بلاد الاسد والشمس، باللغة الروسية. اليكسندروبول. ١٩٠٩. ص ٧٩ (في الهوامش القادمة Atrpet) م. س. إيفانوف، موجز تاريخ ايران، باللغة الروسية، موسكو ١٩٥٢، ص ١٩١ - ١٩٢ (في الهوامش القادمة (M.S. Ivanov Ocherk

ومــوظفين حكــوميين وغيـرهم حصلوا عليهـا شراء من الشـاه ومن كبـار الاقطـاعيين التقليـديين. فلغـايـة العقـد الـذي شهـد سقـوط الاسرة القاجارية تحولت ٩٠٪ من الاراضي الزراعية الى ملكية خاصة. وانذاك كان ٢٥٪ من كبار تجار تبريز و٢٧٪ من كبـار تجـار رشت بمقـاطعـة كيـلان الشمـالية و٤٤٪ من كبار تجار استراباد يمتلكون الارض الزراعية جنبا الى جنب مهنتهم الاساسية[٤].

وبحكم ازدياد الارتباط بالسوق الرأسمالية العالمية ونمو الانتاج البضاعي تطورت عمليـة تراكم رأس المـال لدى كبـار التجـار الايـرانيين في النصف الثـاني من القرن التـاسـع عشـر. فحسبما يشير اول سفير للولايات المتحدة الامريكية لدى ايران س. بينيامين في كتابه الذي نشره عام ١٨٧٨ ظهر في طهران يومذاك تجار كانت «ثرواتهم تقدر بالملايين»[٥]. إلا ان هؤلاء وجدوا امامهم ظروفاصعبة لاستثمار رساميلهم في المجـال الصنـاعي نجمت عن سيطـرة البضاعة الاجنبية على السوق المحليه. ومن ناحية اخرى ان تحول البلاد السريع الى شبه مستعمرة تابعة للدول الكبرى في العقود الاخيـرة من القـرن المـاضي ادى الى ظهـور عقبـات امام تطوير مصالحهم التجارية الصرفة. فانهم حرمـوا، مثـلا، من الامتيـازات الكبيـرة التي كان يتمتع بها التجار الاجـانب. وقـد جاء وصف هذا الـواقـع معبـرا على لسان احد الرحالة الاوربيين في القرن التاسع عشر الذي كتب يقول:

«اذا رغب التـاجـر الايـراني في تصـديـر بضـاعته الى الخارج عليه ان يدفع عند مدخـل كل مدينـة ضريبـة محددة، اما التاجر الاوربي فانه مستقل ويدفع مرة واحدة فقـط لذا يكلفـه تصـدير بضاعته اقل بكثير مما يكلف التاجر الايراني»[٦]. وجراء ذلك فان القـافلة التجـاريـة الاجنبية كانت تدفع الضريبة مرة واحدة عندما تقطع البلاد من شمالها الى جنوبها مقابل ١٤ مرة تدفعها قافلة التاجر الايراني. والانكى من ذلك ان قطاع الطرق قلما كانوا يتعرضون لقوافل التجار الاجانب على العكس تماما من قوافل التجار الايرانيين التي قلما كانوا لا يتعرضون لها[11].

---

(٤) «ايران، موجز التايخ المعاصر»، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٧٦. ص ٢٢ - ٢٤.

(5) S.G.W. Benjamin, Persia and the Persians, London, 1887, P. 472.

(٦) مقتبس من ش. م. بادي، الفئات المتوسطة المدنية الايرانية، باللغة الروسية، موسكو. ١٩٧٧. ص ٢٣. (في الهوامش القادمة Sh. M. Badi).

اذن كان من الطبيعي ان يميل هؤلاء الى تغيير النظام، الا ان ميلهم كان يتحدد بعامل اخر. فكما ذكرنا انهم كانوا، بحكم واقع التطور الاقتصادي والاجتماعي لبلدهم في تلك المرحلة، على اتصال وثيق بالانتاج الزراعي الاقطاعي. كما ان العديد من الاقطاعيين اصبحوا، بحكم الواقع نفسه، على اتصال وثيق بالراسمال التجاري، بل وحتى ان البعض منهم حاول استغلال راسماله المتراكم في المشاريع الصناعية وغيرها. وقد فرض ذلك على هاتين الفئتين الاجتماعيتين المؤثرتين ان تكونا مهتمتين بالحفاظ على الاسلوب التقليدي لاستغلال الفلاحين مادام ذلك يضمن لهم دخلا عاليا نسبيا دون الحاجة الى صرف اموالهم او المغامرة بها في مجالات انتاجية اخرى. والترجمة السياسية لهذا الامر كانت تعني حصر الفئتين في اطار واحد يقضي التعاون بينهما من اجل تغيير سياسي محدود ومقاومة كل تيار يستهدف اكثر من ذلك.

وقد ظهرت فعلا في رحم المجتمع الايراني جماعات كانت تريد اكثر من ذلك. فان الفئة المثقفة الجديدة التي تحولت بحكم اطلاعها على الافكار الحديثة واحتكاكها بالمجتمعات الاوربية الى «الابن الضال» للاوساط الاجتماعية التي خرجت منها كانت تفكر وتعمل وتخطط من اجل احداث تغيير جذري في الكيان السياسي المتخلف الجاثم على صدر الشعب والوطن. وان هذا الامر من حيث دوافعه الداخلية كان اوضح لدى الحرفيين الذين كانوا يؤلفون احد العناصر الاساسية للبازار ـ لولب التحرك السياسي في الفترة التي نحن بصددها. فقبل تأسيس الحكم القاجاري كان يوجد في تبريز، مثلا، ما لايقل عن ٢٠ الف حرفي مسجلين في الاصناف وموزعين على ٧٠ صنعة مختلفة[٧]. وفي عهد ماقبل القاجار قطع هؤلاء وزملاؤهم في المدن الكبرى الايرانية الاخرى شوطا بعيدا الى امام جعل البازار «معملا وسوقا في وقت واحد» ولغاية اوائل القرن التاسع عشر حسب تأكيد شاهد عيان[٨]. ومما له مغزاه الكبير بهذا الصدد ان

---

(٧) م.خ. حيدروف، حول تنظيم المحلات الحرفية الكبيرة وتطورها في مدن ايران الصفوي خلال القرن السابع عشر، ـ «عن الرأسمالية في بلدان الشرق من القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر»، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٦٢. ص ٣٢٦.

(٨) ف. كورف. ذكريات عن ايران في ١٨٣٤ ـ ١٨٣٥. باللغة الروسية. بطرسبورغ، ١٨٣٨، ص.٢١٤.

صناعيي انكلترا اتخذوا في القرن السابع عشر وحتى في القرن الثامن عشر بعض الاجراءات ضد استيراد شركة الهند الشرقية البريطانية لانواع من الاقمشة الايرانية الى اسواق البلاد(٩).

ولاشك في انه كان بامكان هذه النواة ان تتطور في مجرى طبيعي لو توفر لها المناخ الملائم، الا ان ضعف السلطة المركزية والتسيب الاقطاعي والحروب المتكررة لايران وعوامل اخرى مشابهة رافقت الحكم القاجاري حالت دون توفر الضمان على حياة الفرد وممتلكاته - الشرط الاول والاساس للتطور الرأسمالي، وقد حال دونه ايضا نظام الامتيازات الذي بداه الروس والانكليز وتمادوا فيه في العهد القاجاري. فبعد الاندحار الفظيع امام الجيش الروسي في عهد ثاني ملوك آل قاجار اضطرت الحكومة الايرانية الى التوقيع عام ١٨٢٨ على «معاهدة تركمانجاي» التي حدد احد بنودها الرسوم الكمركية على البضائع الروسية المستوردة بـ ٥٪ فقط، وسرعان ما امتد مفعول هذا القرار ليشمل البضائع البريطانية ومن ثم غيرها ايضا، مما تحول الى المسمار الاول في نعش الانتاج الحرفي الايراني، فنتيجة لموجة البضائع الاوربية المستوردة بدأ اقدم حقول ذلك الانتاج يعاني من ازمة حقيقية ادت الى افلاس الاف مؤلفة من الحرفيين في مدن ايران وقراها. فكان من الطبيعي ان يتحول هؤلاء الى اكثر الجماعات تحمسا للتغيير، وقد لعبوا دورا بارزا جدا في تحركات البازار السياسية، واصبح لهم صوتهم المسموع في كل حدث سياسي كبير شهدته الساحة الايرانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. والشواهد على هذه الحقيقة كثيرة جدا، منها، على سبيل المثال لا الحصر، اشتراكهم الفعال في ماعرف بـ «قلاقل اوعصيان التبغ» ضد امتياز شركة تالبوت البريطانية عام ١٨٩١، ودورهم البارز في الثورة الدستورية (١٩٠٥ - ١٩١١). ولم يكن مجرد صدفة ان اول قانون انتخابي شرع في ايران يوم ١٤ اب ١٩٠٦ منح اعضاء الاصناف حق الترشيح والتصويت. والابلغ حتى من ذلك هو طريقة توزيع المقاعد الستين المخصصة.

---

(9) Sh. M. Badi, Op. Cit., P. 21.

للعاصمة، وهي نصف مجموع مقاعد المجلس، فقد حدد للاصناف منها ٣٢ مقعدا وللتجار ١٠ مقاعد مع عدد مشابه للملاكين و ٤ مقاعد لرجال الدين والاربعة الباقية لافراد الاسرة القاجارية(١٠).

فكان الحرفيون الذين يؤلفون فئة اجتماعية متوسطة مدنية مؤثرة، متحمسين للتغيير، بل، وبدون مبالغة، لكل تغيير من شأنه هزّ اركان النظام القاجاري بصورة او باخرى. وربما يكفي القول ان العديد من حرفيي زنجان ورشت وغيرهما من المدن الايرانية ضحوا بحياتهم في سبيل حركة مشوهة لروح الاسلام كالحركة البابية.

وفي ظل الظروف نفسها لم يكن وضع الفئة المدنية الايرانية التي حاولت استثمار رساميلها في مجال الانتاج الصناعي افضل بكثير من وضع الحرفيين. فبفضل سياسة القاجاريين اشهرت في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين اكثر من خمسين معملا و ورشة صناعية ايرانية الافلاس، وهي كانت تؤلف معظم المشاريع الصناعية الحديثة التي اسست بالرأسمال الوطني الذي اصبح لاصحابه صوتهم المسموع في المجتمع الايراني خاصة عشية تأسيس الاسرة البهلوية.

ولم يكن بوسع رجال الدين الايرانيين ان يبقوا بمعزل عن التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها ايران منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فان الارض الزراعية اصبحت «مغرية» الى درجة انها جذبت بشدة انظار كبار رجال الدين الذين اصبحوا بدورهم ملاكين بارزين. فقد حولوا جانبا من اراضي الوقف الى املاك خاصة بهم، اذ كانوا السباقين لشراء القطع التي كانت تعرض للبيع بسبب الحاجة الى بناء مسجد او ترميم اخر او للصرف على المدارس الدينية وماشابه. وكما يؤكد شاهد عيان في مطلع القرن العشرين ان كبار رجال الدين لم يقتصروا على شراء اراضي الوقف فقط، بل انهم اقبلوا على اقتناء الانواع الاخرى من الاراضي ايضا من «دون حرج من اسلوبه» وكانوا، كما يؤكد، مستعدين «للاقدام على كل اساليب التعسف الممكنة من

(10) D.N. Wilber, Riza Shah Pahlavi: The Ressurrection and Reconstruction of Iran, New York, 1919 P. 28.

أجلهـا» ، فلم يكن اعتبـاطـا ، والحـالة هذه ، ان أطلق بسطاء الناس من فقراء الريف على امثالهم اسم «المجتهدين ـ الدعاة» حسبما يذكر المؤلف نفسه[11] .

وهكـذا غدت امـلاك كبار رجال الـدين تؤلف جانبـا كبيـرا من التملك الخـاص للارض الـزراعيـة. فقـد ظهـر في طهـران وقـزوين واصفهـان من الـمجتهـدين من تراوح عدد قراه مابين ٥٠ و ٢٠٠ قريـة وعشيـة سقـوط القاجاريين كان قد تحول الجانب الاكبر من اراضي الوقف في فارس الى امـلاك خاصـة لرجـال الـدين الـذين كان في حوزتهم ايضـا حوالي ٤٠٪ من اراضي رشت الـزراعيـة كملك خاص بهم. وفضـلا عن ذلـك فانهم كانـوا يستأجـرون لانفسهم اراضي الـوقف حسب شروط مجـزيـة ، وقـد زاولـوا تجارة الارض والحبـوب وغيـرهـا[12] . وبسبب ذلـك كله تحولوا بصورة لا ارادية الى انصار لادخـال التبـادل النقـدي في الـريف ، الامـر الذي كان يتناقض على طول الخط مع اسس النظام القديم .

وقد انعكست هذه الامور على مواقف كبار رجال الدين السياسية التي اتسمت بطابع خاص. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين وقف العديد منهم الى جانب الحركة الديمقراطية واحتلوا فيها مراكـز قيـاديـة مع انهم كانـوا يميلون بقـوة الى الحفـاظ على القيم والتقـاليـد القديمة شرط ان ترجح في اطارها كفة الميزان في تسيير الامور الى جانبهم كما كان عليه الامر قبل عهد ناصرالدين شاه (١٨٣١ ـ ١٨٩٦). وفي ذلك انهم كانـوا يختلفـون في موقفهم السيـاسي عن الفئـات الاخـرى التي تطـرقنا اليها. فانهم كانوا يريدون تراجع السلطات الدنيوية امامهم فوقفوا لذلك مع كل ما من شأنه تقليص نفوذ تلك السلطات مثل الدستور والبرلمان وغيرها. الا انهم ، بالمقابل ، بذلوا كل ما في وسعهم من اجل ان تكون لهم الكلمة العليا في المؤسسات المذكورة ، وقد حققوا فعلا جانبا كبيرا مما ارادوا. فبموجب اول دستـور وضـع للبـلاد اثـر المشـروطيـة اصبـح لرجال الدين عدد من المقاعد في

---

(11) Atrpet, Op. Cit., PP. 34, 137.

(١٢) للتفصيـل راجـع : أ . ي . ديـومـين ، القـريـة الايـرانيـة المعـاصرة ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩٧٧ ، ص ٢٦ ، ٢٧ ، ٥٣ .

مجلس النواب، كما نص احد بنود الدستور نفسه على تأليف لجنة خماسية عليا جميع اعضائها من كبار رجال الدين مهمتهم النظر في كل تشريع جديد يصدره المجلس قبل ان يتخذ صيغته القانونية النهائية، فهم الذين كانوا يقررون ما اذا كان مطابقا للشريعة الاسلامية ام لا.

وقد استمر كبار رجال الدين على موقفهم المتردد هذا في السنوات الاخيرة من العهد القاجاري بنفس الدوافع كما نلاحظ ذلك فيما بعد.

من كل ماسبق يبدو واضحا انه كانت توجد في ايران اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين قوى اجتماعية مؤثرة تريد التغيير بدرجات مختلفة تتفاوت مابين التغيير المحدود والتغيير الجذري، وهي كانت تصارع القديم وتتصارع فيما بينها في ان واحد وايضا بتفاوت ترك (التفاوت) بصماته على التغيير الذي وقع في نهاية المطاف وانتهى بسقوط الاسرة القاجارية وظهور الاسرة البهلوية. ولم تنقص هذه الفئات اداة التنفيذ، اذ لم يكن من الصعب عليها تحريك قطاع واسع من الجماهير الايرانية المستاءة من وضعها البائس.

ثانيا - نمو الحركة الوطنية:

وبحكم العوامل التي ذكرناها في الفقرة السابقة بدأت الحركة الوطنية الايرانية المعادية للحكم القاجاري وللوجود الاجنبي تنمو وتتصلب عودها طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مما انعكس في سلسلة من الانتفاضات والاضرابات والحركات الثورية تأتي في مقدمتها المشروطية (الثورة الدستورية). وبحكم عوامل محددة لا مجال لذكرها دخلت الحركة الوطنية هذه مرحلة جديدة حاسمة مع انتهاء الحرب العالمية الاولى.

ففي كل يوم كانت تتفجر انتفاضة قوية جديدة في زاوية من زوايا ايران، منها، على سبيل المثال لا الحصر، انتفاضة كيلان بزعامة مرزا كوجك خان وانتفاضة اذربيجان بقيادة الشيخ محمد خياباني وانتفاضة خراسان بقيادة محمد تقي خان وانتفاضة كردستان بقيادة سمكو وغيرها. وكانت بعض هذه الانتفاضات تستهدف التحرر القومي. فان الجريدة التي اصدرها سمكو في أورميه، مثلا، كانت تحمل مثل هذا الاسم «روزى كورد - شه وى عه جه م» (نهار الكرد - ليل العجم). وكادت هذه الحركات ان تعصف بالنظام القاجاري، كما ان

بعضهـا (انتفـاضتي كيـلان واذربيجـان) قطعت شوطـا لا بأس به على درب تغيير النظام تغييرا جذريا لايقضي على الاسرة القاجارية حسب بل يؤدي ايضا بكل بال وقديم وبكل وجود للاستعماريين في البلاد. ولتوضيح هذه النقطة المهمة نورد نموذجا معبرا واحدا فقط. فكما تعترف الوثائق السرية البريطانية ان جميع الاجـانب وكـل مسـؤولي الحكـومـة المركزية استعدوا للانسحاب من العاصمة طهران ايام انتفاضة الجنكليين في كيلان بزعامة كوجك خان عام ١٩٢٠ ـ ١٩٢١، اما احمد شاه نفسه فقد استعد للهرب الى اوروبا بحجة المرض[١٣].

وكما اثبتت الاحداث اللاحقة بات الحكم القاجاري اعجز من ان يقف امام التيار الجارف الجديد، الامر الذي جعل من قوى داخلية وخارجية معينة تميل الى تغيير من نوع خاص يحول دون وقوع التغيير الجذري الذي ظهرت بوادره واضحة في الافق. وهذه حقيقة موضوعية مهمة للغاية يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار عند تقييم التغيير الذي شهدته ايران في اواسط العقد الثالث من القرن العشرين.

ثالثا ـ انحلال النظام القاجاري:

لم يعجز النظام القاجاري عن الوقوف امام رياح التغيير العاصف حسب، بل انه، فضلا عن ذلك، قد انحل الى درجة بحيث تحول الى عبء ثقيل على عاتق الجماهير الايرانية. فحسب وصف المؤرخ الايراني مختار السلطنة كانت الحكومة القاجارية «حكومة استبدادية غير منظمة، يسود البلاد (في ظلها ـ ك. م.) ظلم موظفي الـدولـة وعـدوانهم، فاختفى كل اشكـال الضمـان القضائي والحقوقي، ولم يبق الناس في اطمئنان على حياتهم واموالهم»[١٤].

---

(13) (Documents on British Foreign Policy, 1919 - 1939), First Series, Vol. XIII, London, 1963, PP. 564 (Memorandum on Persian situation by Mr. Churchill), 688, 691 - 692.

(١٤) حبيب الله مختاري (مختار السلطنة). تاريخ بيداري ايران، طهران، ١٣٢٦ ـ ١٩٤٧، ص ٣٥.

وقد تفشت الرشوة في كل مرافق الدولة. فبعد انقلاب شباط ١٩٢١ طالبت الحكومة نفسها الامير فرمان فرما بمبلغ اربعة ملايين تومان تعويضا عن «جزء من سرقاته» ايام ولايته على مقاطعة فارس[١٥]. ومنذ العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر تحول جميع كبار المسؤولين الى عملاء مكشوفين للاجنبي، حتى ان جريدة «حبل المتين» المعارضة التي كانت تصدر في كلكتا عيرت جميع حكام ايران في عددها الواحد والعشرين الصادر عام ١٣١٤ للهجرة بانهم يفتخرون ويعتزون حينما يضمن لهم «الروس او الانكليز، الامريكان او الالمان» النعيم والرفاه في حياتهم الخاصة.

اما احمد شاه، آخر ملوك قاجار، الذي وصفته احدى الوثائق السرية البريطانية على لسان وزير الخارجية اللورد كرزن «كأجبن رجل في ايران كلها»[١٦]، فقد تحول في السنوات الاخيرة من حكمه الى بيدق بيد البريطانيين، فنادرا ما كان يقدم على تعيين رئيس وزراء جديد، او ابعاد آخر دون استشارة السفارة البريطانية في طهران، بل انه كان يستشير الانكليز حتى في تحركاته الشخصية داخل البلاد وخارجها، وفي بعض الاحيان كان يبعث بسكرتيره الخاص لاستشارة السفير مرتين في اليوم الواحد[١٧]. وكان «رأس الدولة» هذا يتلقى بكل بساطة الاموال من الحكومة البريطانية.. وقد ورد في وثيقة بريطانية سرية بهذا الصدد ما نصه:

«انه (أي احمد شاه ـ ك. م.) يميل الان الينا كليا وقد قرر أن يعمل معنا باسلوبه الفردي نوعا ما. وان افضل طريقة للاحتفاظ به في هذا الاطار من التفكير هي منحه او الحصول له على اكبر قدر ممكن من الاموال التي يحبها اكثر من أي شيء آخر في الدنيا»[١٨]. وقد بلغ الامر بحكومة هذا الشاه انها نزلت الى ميدان السوق السوداء على الصعيد العالمي بتشجيعها زراعة الافيون وتصديره للخارج كأحدى الوسائل الهزيلة لمعالجة العجز المستمر في ميزانيتها. وقد بلغ التسيب الاقطاعي والحزازات

---

(15) «Documents on British Foreign Policy, 1919 - 1939», First Series, Vol. XIII, PP. 730, 734;

س. م. اكاييف، ايران في فترة الازمة السياسية ١٩٢٠ ـ ١٩٢٥؛ بالللغة الروسية، موسكو، ١٩٧٠، ص ٥٨. (في الهوامش القادمة: S.L. Agaev).

(16) «Documents on BFP», First S., Vol. XIII, P. 703.

(17) Ibid, PP. 459, 463, 537, 686, 699 - 700, 738.First Series, Vol. XIII, PP. 730, 734;

(١٨) مقتبس من

M. Zonis, The Political life of Iran, Princeton 1971, P. 304.

العشـائـريـة الـذروة في ظل القاجاريين حتى غدا القول «انا وعشيرتي ضد الامة. انا وابنـاء عمـومتي ضد العشيـرة. انـا واخـوتي ضد ابناء عمومتي. انا ضد اخوتي» مثلا جاريا على الألسن في كل البلاد[19].

وفي مثل هذه الاجواء كان من الطبيعي ان لا يبقى في طول البلاد وعرضها انسان مخلص لايرغب في سقوط الحكم القاجاري.

رابعا - تبدل تناسب القوى على الصعيد الدولي:

مع قلب النظام القيصري في روسيا وانتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية طرأ تغيير كبير في تناسب القوى على الصعيد الدولي كانت اثاره بالنسبة لايران اعمق منها في معظم اجزاء المنطقة الاخرى. ففي العهد القاجاري تحولت ايران عمليا الى شبه مستعمرة تابعة لروسيا القيصرية وبريطانيا العظمى، حتى ان الدولتين قامتا بموجب اتفاقية عام ١٩٠٧ بتقسيم البلاد الى منطقتي نفوذ تابعتين لهما. وكان الدبلوماسيون والخبراء الروس يصولون ويجولون في ايران كما ان القوات الروسية كانت تحتل مناطق حساسة من البلاد وتهدد بالزحف على العـاصمـة طهـران بين الحين والاخـر. ولكن انتهت روسيـا القيصـريـة واطماعها في العام ١٩١٧ فارادت انكلترا ان تحل محلها في شمال ايران اولا ومن ثم تحـول تلك المنطقـة الى نقطـة انطـلاق لهـا نحـو منـاطق القفقاس وما وراء القزوين وحتى نحو اسيا الوسطى، وهي جميعها مناطق مغرية من وجهة نظر اقتصـاديـة وستـراتيجيـة. وعنـدمـا لم تتحقق احلام الاوساط الحاكمة في لندن ركزوا على تحويل ايران الى سد منيع امام «الخطر البلشفي» الجديد، ولكن النظام القاجاري كان اعجز من ان يأخذ تلك المهمة على عاتقه كما يجب. اذن فقد ظهر في الميدان عنصر جديد دفع بالانكليز للتفكير في التغيير من منطلقهم الخاص.

---

(١٩) Barbara English, John Companys last War, London, 1971, p.303.

ولم يقتصر التبدل في تناسب القوى على ما اسلفناه. فمع انتهاء الحرب العالمية الاولى ظهرت الولايات المتحدة الامريكية كقوة اكثر فاعلية وتأثيرا على مجرى احداث الشرق الاوسط، وهذا كان يعني، في الوقت نفسه، ظهور قوى دولية جديدة يمكن لبعض اجنحة المعارضة الايرانية الركون اليها، خاصة قبل ان تتكشف النوايا الامريكية على حقيقتها. فبدأت تلك الاجنحة تعمل من اجل التغيير بجرأة اكبر من السابق لانها كانت تتوقع المساندة الامريكية الاقتصادية والسياسية لها. وعلى الغرار نفسه نشط اليسار الايراني بصورة لم يسبق لها مثيل بحكم ما علقها من آمال على التغيير الذي حدث في روسيا تجاوزت الواقع لتكسب طابعا طوباويا في بعض منطلقاتها.

وهكذا اشتدت «لعبة شد الحبل» من اجل السلطة في ايران، فكان لابد من شخص يقرر مصير اللعبة بقوته وحزمه وطموحه ومركزه وبالاتجاه الذي يرضي الجهات ذات الوزن «الاكبر» في كفة الميزان. ومن بين الجميع كان رضا خان هو الذي تتوفر فيه هذه «المواصفات» اكثر من غيره.

خامسا - شخصية رضا خان

ينتمي رضا خان[20] الى اسرة ملاكية متوسطة كانت تقطن سوادكوه في مازندران الواقعة شمال ايران. تختلف المصادر الفارسية في تحديد نسب اسرة رضا خان من طرف والده عباس قلي خان. فان المؤرخ المعروف ملك الشعراء بهار يؤكد انتماءها الى عشيرة بالاني[21]. بينما حاولت المصادر شبه الرسمية منذ العقد الخامس ارجاع اصل الاسرة الى مجموعة «باواني بهلوي» او «باوه ندي بهلواني» التي كانت، كما ادعت، واحدة من الاسر الساسانية

---

(٢٠) لتوضيح تاريخ حياة رضا خان استفدنا من عدد من المصادر الانسكلوبيدية فضلا عن مؤلفات س. ل. آكاييف و م. س. إيفانوف ور. مليكوف ولا سيما د. ن. ولبر الذين وردت اسماء كتبهم في هوامش البحث وكذلك من: عبدالله رازي، تاريخ مفصل ايران از تاسيس سلسله ماد تا عصر حاضر، جاب دوم، تهران، ١٣٣٥، ص ٥٦١.
W. Knapp, 1921 - 1941: The Period of Riza Shah, - «Twentieth Century Iran», Edited by H. Amersadichi, New York, 1977.

(٢١) في كتابه: تاريخ مختصر احزاب سياسي، طهران، ١٣٢٣، ص٩٦. ومن الجدير بالذكر توجد قبيلة كردية تسمى (بالاني). وقد ورد اسمها في قصائد الشاعر الكردي المعروف نالي الذي عاش في النصف الاول من القرن التاسع عشر. تقطن عشيرة (بالاني) الكردية منطقة خانقين وقصر شيرين وما والاهما.

العريقة. اما والدته نوش آفرين فقد كانت قفقاسية الاصل تركت موطنها بعد انتقاله الى حوزة روسيا بموجب «معاهدة تركمانجاي» واستقرت في طهران الى ان تزوج منها عباس قلي خان في اوائل عام ١٨٧٧ فانتقلت معه الى بلدة الشت بمازندران حيث رزقا في ١٦ اذار سنة ١٨٧٨ بولد اسمياه رضا.

لم يكمل الوليد رضا السنة الاولى من عمره حينما وافى الاجل والده يوم ٢٦ تشرين الثاني عام ١٨٧٨. فانتقل بصحبة والدته الى طهران حيث تمتع برعاية خاله وحنانه خاصة بعد ان تزوجت امه ثانية. وفي صغره اودعه خاله لدى اسرة الجنرال امير تومان كاظم خان الذي كان على معرفة بعائلته، فعاش رضا وتعلم مع اولاده. ومنذ ذلك الوقت بدت علائم الجد عليه، فكما يروى عنه انه نادرا ماكان يبتسم في طفولته، وكان دؤوبا، نشطا، حتى قيل عنه فيما بعد انه كان يعمل مابين عشر واثنتي عشرة ساعة في اليوم[٢٢].

وكتقليد عائلي ترعرع رضا في جو عسكري، فقد كان والده ضابطا بلغ مرتبة الكولونيل (العقيد) قبل مماته. وكان جده علي خان هو الاخر ضابطا لقي حتفه في ميدان القتال اثناء حملة بلاده على هرات داخل افغانستان في اواخر عهد فتح على شاه ثاني ملوك القاجار. وعندما بلغ رضا الخامسة عشرة من عمره[٢٣] في عام ١٨٩٣ ادخله خاله في احدى كتائب فرقة القوزاق الجديدة بطهران.

دخل رضا المازاندراني القوزاق جنديا بسيطا، لكنه تدرج في سلكه بسرعة خاصة بعد العام ١٩٠٣ وذلك لما اثبت من كفاءة وجرأة. ففي اول ترقية له اصبح اونباشيا (قائد عشرة) ومن ثم اصبح «وكيل راست» اي عريفا، وبعد عشر سنوات من الخدمة اصبح رئيس عرفاء. وفي السنة نفسها تزوج للمرة الاولى الا ان زوجته تلك لم تأت له سوى ببنت اختفتا عن الانظار منذ عام ١٩٢٤. لكنه تزوج قبل ذلك للمرة الثانية من ابنة القائد العسكري تيمور خان مير بنج الذي كان ينتمي الى اسرة قفقاسية الاصل وزوجته الثانية هذه هي التي اصبحت اول ملكة بهلوية باسم تاج ملك وانجبت له في تشرين الاول

---

(٢٢) D.N. Wilber, Riza Shah, P. 42.

(٢٣) تؤكد بعض المصادر ان اول دخول لرضا خان في القوزاق كان عام ١٨٩١، أي في الثالثة عشرة من عمره (راجع: M.S. Ivanov, Ocherk..., P. 287).

١٩١٩ ولي عهده محمد الذي اصبح الشاه الثاني والاخير في الاسرة البهلوية.

بعد العام ١٩٠٣ اشترك رئيس العرفاء رضا المازندراني في عدة حملات عسكرية ضد حركات معادية للسلطة المركزية ابدى في جميعها صنوف الشجاعة، فرقي اثر الحملة على شاهاباد الى رتبة ملازم. وفي العام ١٩١١ اشترك في الحملة ضد سالار الدولة شقيق محمد علي شاه المخلوع وعم احمد شاه فرقي الى مرتبة ملازم ثان ورئيس وحدة. وبعد سنة واحدة فقط، اي في الرابعة والثلاثين من عمره، رقي الى رتبة «نائب» اي ملازم اول وذلك بعد اشتراكه في العمليات العسكرية للقوزاق في اقليم كردستان. اشترك بعد ذلك في الحملات الموجهة ضد العشائر المعادية في لورستان وخراسان فاصبح يعرف بين اقرانه برضا خان مكسيم نسبة الى مدفع المكسيم الذي اجاد استخدامه.

وفي سنوات الحرب العالمية الاولى تدرج رضا خان في الرتب العسكرية، فقد اصبح ياورا، اي مقدما، في العام ١٩١٥، ثم «سرهنك دو» اي عقيدا في السنة التالية ونقل الى كرمنشاه ثم الى همدان وبعدها الى العاصمة طهران.

ومنذ ان رقي الى رتبته الاخيرة اصبح لرضا خان مركز في القوازاق يحسب له حسابه، ومنذ ذلك الوقت بدأ يحتك بالحياة السياسية اكثر وازدادت طموحاته وتجسدت. فبمناورة منه وبالتعاون مع احد قادة القوزاق من الضباط الروس البيض المعادين لثورة اكتوبر بدأ يحتل مواقع جديدة في قيادة القوزاق، فقد رقي الى رتبة «سرتيب سوم» اي الزعيم او العميد وعهدت اليه قيادة اورطة بطهران اجرى فيها اصلاحات عديدة جلبت الانظار، ولاسيما انظار الضباط الشباب من الايرانيين الذين بدأوا يرنون اليه ويتمنون ان يحل محل الضباط الاجانب في قيادة القوزاق. ويومذاك بدأ رضا خان يهتم بالشؤون السياسية للبلاد اكثر فأكثر، فأخذ يتابع الصحف الايرانية التي قطعت شوطا لا بأس به منذ ايام الثورة الدستورية، وكانت الديمقراطية منها تشن حملة واسعة على النفوذ الاجنبي في البلاد، ومنذ العام ١٩١٣ بدأ بمطالعة جريدة «رعد» «الليبرالية» التي كان يصدرها الصحفي المعروف ضياءالدين طباطبائي.

ومنذ ان كان يخدم في القوزاق اطلع رضا خان على اوضاع البلاد عن كثب، فقلما وجدت منطقة مهمة في ايران لم يخدم فيها او لم يشترك في حملة موجهة ضد عشائرها. كما احتك ايضا بالاجانب بحكم مهنته. فقد كان الضباط الروس هم الذين يشرفون على القوزاق، كما عهدت اليه حراسة البعثة البريسبيتيرية الامريكية ثم السفارة الالمانية واخيرا المصرفين البريطاني والروسي، فاعجب بالالمان واصبح حساسا تجاه الانكليز، ولاسيما الروس. وبصورة عامة ما كان رضا خان يميل كثيرا للاجانب، ولكن، على مانعتقد، لم يبلغ به الامر حد ان يعلن امام عدد من كبار الضباط البريطانيين عشية انقلاب شباط ١٩٢١ بان «من واجب كل ضباط القوزاق في قزوين وطهران ان يتحدوا لطرد الاجانب من ايران وابادة الموالين لهم» كما يدعي بعض المؤرخين الايرانيين(٢٦). وينفي ذلك ايضا ماكان يتصف به من حذر وتأن في تصرفاته(٢٧).

ومهما يكن من امر فان رضا خان جلب انظار البريطانيين بقوة شخصيته وطموحه واقدامه ومنطلقاته الفكرية المعادية للديمقراطية والموالية للدكتاتورية على طول الخط.فقد ابدى الجنرال ادموند آيرونسايد، وكان من كبار قادة الجيش البريطاني في ايران يومذاك، ومن العاملين في «الانتلجنس سرفيس»، اعجابه به وابدى له مساندته مرة على مسؤوليته الخاصة وقبل استشارة لندن(٢٨). كما ان السر بيرسي سايكس توقع في وقت مبكر بأن رضا خان هو الشخص المؤهل لاجراء التغيير المطلوب في ايران(٢٩). وجاء وصفه على لسان السفير البريطاني في طهران هرمن نورمن في رسالة سرية بعثها الى وزير الخارجية اللورد كرزن بتاريخ ١٣ آذار ١٩٢١ كـ «ضابط شريف وقدير لاطموح سياسي له»(٣٠)، ولكن سرعان ماستبد به الطموح السياسي الى درجة لم يستكن الا بعد ان اعتلى عرش طاووس.

---

(٢٦) حسين مكي، تاريخ بيست ساله ايران، جلد اول، تهران، ١٣٢٣.

(27) G. Lenczowski, Russia and the West in Iran (1918 - 1948), New York, 1949, P. 72.

(28) W. Knapp, Op. Cit., P. 24.

(29) M. Zonis, Op. Cit., P. 301.

(30) (Documents on British Foreign Policy, 1919 - 1939), First Series, Vol. XII, P. 729.

البداية:

دب الانحلال كليا في جسم الدولة الايرانية مع انتهاء الحرب العالمية الاولى، فقد غدت منهوكة القوى سياسيا واجتماعيا واقتصاديا. وفي نفس الوقت ازداد اهتمام البريطانيين بايران فحاولوا ربطها نهائيا بعجلة امبراطوريتهم بان فرضوا عليها في ٩ اب ١٩١٩ معاهدة جديدة اختاروا لها اسم «اتفاقية المساعدة البريطانية من اجل تقدم ايران ورفاهها» (!)، وقد وقعها عن الجانب الايراني رئيس الوزراء وثوق الدولة وعن الجانب البريطاني السفير بيرسي كوكس بعد مفاوضات دامت لمدة عام واحد تقريبا.

منحت بنود المعاهدة[٣١] البريطانيين حق استخدام مستشاريهم في اهم المؤسسات الرسمية الايرانية، بما في ذلك الجيش الذي تقرر ان يزود ايضا بالاسلحة البريطانية. كما حصل البريطانيون على حق انشاء السكك والطرق داخل ايران. وبالمقابل تعهد الجانب البريطاني بمنح ايران قرضا بمبلغ مليوني جنيه استرليني وبفائدة سنوية مقدارها ٧٪ بضمان دخل الكمارك الايرانية. وفي مذكرة لاحقة وافقت الحكومة البريطانية بعد مفاوضات طويلة على «اعادة النظر» في المعاهدات المعقودة بين الطرفين من قبل والعمل على منح تعويضات عن الاضرار التي سببتها «الدول الاخرى» لايران في سنوات الحرب العالمية الاولى وبذل الجهود لـ «تصحيح حدود ايران» في النقاط التي يعتبرها الطرفان ضرورية وعادلة[٣٢]. ولكن سرعان ما تراجع الجانب البريطاني عن التزاماته بصدد التعويضات والغاء المعاهدات السابقة[٣٣].

وهكذا ضمنت بريطانيا لنفسها بموجب مواد المعاهدة الاشراف على جهاز الحكم الايراني وعلى اقتصادها وجيشها «دون ان تأخذ على عاتقها مهمة السيطرة المباشرة على الادارة الايرانية» والانجرار جراء ذلك« في الالتزامات المالية على نطاق واسع» كما ورد نصا في مذكرة وزير الخارجية اللورد كرزن الى اعضاء الوزارة البريطاينة بمناسبة عقد المعاهدة[٣٤].

---

(٣١) راجع نصها في:

N.S. Fatemi, Diplomatic history of Persia 1917 - 1923, New York, 1952, PP. 10 - 12.

(٣٢) احمد كسروي، تاريخ هجده ساله اذربيجان، جاب سوم، تهران، ١٣٤٠، ص ٨٢٥.

(33) S.L. Agayev, Op. Cit., PP. 18 - 19.

(34) «Documents on British Foreign Policy», First Series, Vol. IV, London, 1952, PP. 1120 - 11221.

واعتقد اللورد كرزن جازما بانه استطاع بفضل هذه المعاهدة ان يحقق الهدف الاساس من السياسة التي رسمها لبلاده تجاه ايران بعد الحرب والتي كانت تتوخى ايرانا مستقرة موحدة خاضعة للنفوذ البريطاني وتلعب دور الدولة الحاجزة بين الهند و روسيا السوفيتية وتؤثر على مجرى الامور في الشرق الاوسط بما يتوافق كليا مع المخططات البريطانية. لذا فانه لم يرغب، على مايبدو، في ان يشاركه احد فيما تحقق بفضل المعاهدة لبلاده، فقد علق بعد التوقيع عليها مباشرة قائلا:

«فوز كبير حققته بوحدي»[٣٥].

اثار عقد المعاهدة موجة احتجاج واسعة في الداخل، كما في الخارج. فقد قيمها الايرانيون كنوع من الحماية المقنعة لبريطانيا على بلادهم، الامر الذي لم يتنصل عنه البريطانيون بل حاولوا اضفاء طابع اتفاق دولي عليه. ففي عددها الصادر يوم ٢١ اب ١٩١٩، اي بعد نشر المعاهدة باقل من اسبوعين، كتبت الجريدة الايرانية شبه الرسمية «رعد» التي كان يصدرها الصحفي الموالي للبريطانيين سيد ضياءالدين طباطبائي مقالا في صدر صفحتها الاولى تقول فيه ان «الدول الكبرى الاربع في باريس[٣٦] قررت وضع ايران تحت الحماية وجعلتها جزءا من حصة بريطانيا العظمى».

عبر الايرانيون عن سخطهم على المعاهدة واحتجاجهم ضدها بشتى الصور، فقد انفجرت مظاهرات حاشدة معادية للبريطانيين وللسلطة الرجعية الحاكمة في كل مكان، ونشطت اقلام ابرز الشعراء في قدح المعاهدة وذمها، وانتحر عدد من الضباط احتجاجا على عقدها، ونشرت صحف المعارضة مقالات نارية ضدها وضد كل من كان يقف وراءها. فقد طالبت جريدة «ستاره» (النجمة) في عددها الصادر يوم ١٦ تشرين الاول ١٩١٩ المسؤولين بان يلغوا المعاهدة «لينقذوا بذلك شرف بلادهم». وبحثت جريدة «آفتاب» (النور) في عددها الصادر يوم ٦ تشرين الثاني ١٩١٩ عن «الرجال الذين بوسعهم ان ينتفضوا من اجل الحقيقة ومن اجل شرف ايران وعزها».

---

(35) M.E. Yapp, Op. Cit., P. 21.

(٣٦) تقصد مؤتمر الصلح في باريس الذي كان لايزال مستمرا في اعماله.

وفي مثل هذه الاجواء لم يجروء حتى عملاء الانكليز على الدفاع عن المعاهدة ولم يبق من يطالب بابرامها سوى حكومة وثوق الدولة وقد ورد في احدى الوثائق السرية البريطانية بهذا الصدد مانصه:

«ان اعداءنا سواء داخل المجلس او خارجه يطالبون باعلى صوتهم بتأجيل الاتفاقية والغائها، اما اصدقاؤنا فانهم يطالبوننا بصوت واحد ان ننقذهم من وضعهم الحرج بالغائها».

وحسبما تعترف الوثيقة نفسها صراحة ان ٥٥ من اعضاء المجلس الموالين للانكليز اضطروا الى نشر بيان اعلنوا فيه «وقوفهم ضد المعاهدة» بعد ان بدأ الناس يتحدثون على نطاق واسع عن «تلقيهم الرشوة» من البريطانيين «من اجل تأييدها»[٣٧]. ومما له مغزاه العميق ان ٣٩ من هؤلاء نشروا مذكرة طالبوا فيها بالغاء المعاهدة بعد يوم واحد فقط من اجتماع سري عقدوه مع السفير البريطاني تعهدوا له اثناءه بـ «الدفاع عن مصالح انكلترا السياسية»[٣٨].

وعلى الصعيد الخارجي شنت الصحافة الفرنسية، ولاسيما الامريكية حملة واسعة ضد المعاهدة الايرانية ـ البريطانية[٣٩]. فقد كتبت مجلة (The Century) الامريكية في عددها الصادر في كانون الثاني عام ١٩٢٠ عن المعاهدة تقول ان «ايران قد انتهت» وان «انكلترا هي التي جنت فوائد» خروج روسيا من اللعبة، اذ نجحت السياسة البريطانية في تصنيف ايران «الى جانب مصر وشبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين كمحمية تابعة للامبراطورية البريطانية»، الرأي الذي اكدته بنفس الحماس الدورية الامريكية «القضايا الاجنبية» (Foreign Affairs) في عددها الرابع من مجلدها السادس.

وانتقد مجلس الشيوخ الامريكي المعاهدة باسلوب لاذع. وفي ٤ ايلول ١٩١٩ طلبت واشنطن من سفيرها لدى طهران ان يخبر الحكومة الايرانية عن قرار الولايات المتحدة الرسمي برفض ابداء اي مساعدة لها احتجاجا على عقد المعاهدة. وقد نشر السفير بيانا بهذا الصدد ورد فيه التأكيد على «ان

---

(37) Documents on Britsh Foreign Policy, 1919 - 1939, First Series, Vol. XIII. PP. 720 - 721.

(38) S.L. Agaev, Op. Cit., P. 47.

(39) N.S. Fatemi. Diplomatic history of Persia. PP. 29 - 35. 54 - 64.

الـولايـات المتحـدة الامريكية تلقت باستغراب نبأ عقد المعاهدة الجديدة بين ايران وانكلتـرا» وهي ترى ان الاوسـاط الحـاكمـة الايـرانيـة اصبحت في غنى عن «تأييـد الـولايـات المتحـدة ومسـاعـدتهـا» . وقد شجع بيان السفير الامريكي بعض الفئات المعارضة الايرانية للتشدد في موقفها تجاه حكومة وثوق الدولة .

ومن المهم أن نشيـر هنـا الى ان اللورد كرزن الـذي أثـاره موقف واشنطن من المعاهدة الى اقصى حد صرح بان الامريكان كانوا على علم بمفاوضات بلاده مع ايران وبانه شخصيا اخبر الكولونيل هاوس، احد اقرب مساعدي الرئيس ولسن، بذلك في باريس وطلب منه ان يخبر الرئيس بالموضوع لذا توقع، كما اكـد في مذكـرتـه التي قدمهـا الى السفـارة الامـريكيـة بلنـدن في ٢٢ ايلول ١٩١٩ ، ان يبـارك الامـريكـان «الاتفـاقيـة من الصميم»(٤٠). وللسبب نفسـه اعتبرت الصحافة البريطانية عقد المعاهدة «امرا طبيعيا» ولم تتوقع «ان تثير اي دولة أجنبية» كما كتبت «Morning Post» اللندنية في عددها الصادر يوم ١٩ اب ١٩١٩ .

وكانت المعارضة الفرنسية للمعاهدة قوية بدورها. فقد تهجمت صحافة باريس عليهـا بشـدة، وانتقـدتهـا الحكـومـة ووقفت ضدهـا الى درجـة جعلت الاوساط الدبلوماسية البريطانية تعتقد بان السفارة الفرنسية في طهران تقف وراء بعض المظاهرات الطلابية التي جرت ضد المعاهدة في العاصمة الايرانية(٤٢).

وبالرغم من كل ذلك لم يكن من السهل على الحكومة البريطانية ان تتراجع بسرعة عن موقفها تجاه المعاهدة. ففي المذكرة الخاصة التي اعدتها الخارجية البريطانية في ٢٥ حزيران ١٩٢٠ عما اسمته بـ «المسألة الايرانية» ورد تأكيد خاص على ان «الاتفاقية الانكلو ـ ايرانية لا تزال تؤلف حجر الزاوية في سياسة حكومة صاحب الجلالة»(٤٣). وقد عبر شاه ايران اثر عودته من اوربا عن تأييده لها وعن وقوفه الى جانب رئيس الوزراء وثوق الدولة على الرغم من قناعته بان «له اعداء كثيرون وبانه لا يتمتع باي شعبية» كما اكد بصورة خاصة

(40) Ibid, PP. 35 - 36; Sh. M. Badi, Op. Cit., P. 130.

(41) N.S. Fatemi. Op. Cit., P. 37.

(42) «Documents on British Foreign Policy, 1919 - 1939», First Series, Vol. XIII, PP. 492 - 493, 502.

(43) Ibid PP. 541 - 532 (Memorandum on the Persian Question by Mr. Esmond Ovey, a member of the Northern Department).

للسفير البريطاني[44]

ولكن لم يكن بوسع مثل هذا الموقف سوى ان يذكي نار المعارضة القوية التى تعدت مقاومة المعاهدة ووزارة وثوق الدولة بان اصبحت تستهدف وجود النظام برمته. ففي تبريز اسس خياباني «الحكومة الوطنية» في حزيران ١٩٢٠ واطلق على اذربيجان اسم «ازاديستان» اي بلاد الحرية واعلن عن قطع كل صلة له بالحكومة المركزية. وفي كيلان اتخذ كوجك خان نفس الموقف. ففي العاشر من حزيران عام ١٩٢٠ بعث من رشت بثلاث برقيات للحكومة المركزية وللسفارات الاجنبية في طهران تدين نصوصها بشدة سياسة انكلترا التي «جلبت الخراب للبلد والشعب» وتعلن عن قرار «اللجنة الثورية لايران» بالغاء الملكية وتأسيس نظام جمهوري جديد يعتبر «كل اتفاقيات الحكومة البريطانية» مع «الحكومة الايرانية غير مشروعة وملغية»[45].

وهكذا فان الوضع الداخلي في ايران قد توتر الى درجة بحيث غدا البريطانيون يخشون ان تعصف المعارضة برأس «صاحب الفخامة رئيس الوزراء» بل وحتى برأس «صاحب الجلالة الشاه نفسه» كما ورد نصا في «برقية جد مستعجلة» بعثها السفير نورمن الى كرزن بتاريخ ٢٣ حزيران ١٩٢٠[46]. وبما ان ذلك كان يعني احداث ثغرة خطيرة للغاية فيما يتعلق بمخططات الانكليز بالنسبة لمنطقة حساسة وواسعة من العالم فان الحكومة البريطانية لجأت الى اجراءات عاجلة لمعالجة الموقف، بل كما يبدو واضحا من وثائقها الخاصة انها من اجل ذلك اصبحت على استعداد تام للخروج عن الاطار الذي رسمته لنفسها بحكم ظروف انكلترا الخاصة التي كانت تقتضي عدم تحميل خزينة الدولة أعباء اضافية بسبب التورط في مشاكل خارجية كان بالامكان «حلها» باساليب اخرى وبايدي الاخرين. ففي سلسلة من البرقيات «المستعجلة جدا» ابدى كرزن استعداد حكومته وتوجيهاتها «لتخصيص الاموال اللازمة» ولتحريك القوات البريطانية الموجودة في ايران للقضاء على المعارضة هناك[47] في وقت كانت الحكومة نفسها تحسب الحساب لكل مليم تصرفه في اي مجال

(44) Ibid. PP. 506 - 507.

(٤٥) Ibid, pp. 507 - 508

(٤٦) Ibid, pp. 537 - 538

(٤٧) Ibid, pp. 528, 534.

اخر، وفي حين كانت اجراءاتها الحثيثة مستمرة لسحب قواتها من المناطق الاخرى.

الا ان ذلك وحده ما كان يكفي لمعالجة الموقف بدون اجراء تغييرات معينة في مجمل السياسة البريطانية تجاه ايران، الامر الذي اقتنع به كرزن مرغما، ذلك لان «امكانات نجاح السياسة البريطانية في ايران غدت تسوء بالتدريج بعد ان كانت جيدة على مدى اشهر اعقبت التوقيع على الاتفاقية... وهي الان، في الواقع، في وضع سيء جدا» كما ورد نصا في تقرير مفصل «ومستعجل جدا» بعثه نورمن من طهران الى الخارجية البريطانية بتاريخ ١٨ حزيران ١٩٢٠[٤٨]: وقد وضع نورمن الخيوط الاساسية للسياسة الجديدة الواجب اتباعها ضمن «برقية جد مستعجلة» هي الاخرى بعثها الى كرزن بعد خمسة ايام فقط، اي يوم ٢٣ حزيران. فبعد ان يتطرق نورمن في برقيته الى الوضع اليائس الذي وصل اليه رجلهم الاول في ايران وثوق الدولة والى «فشل سياسته الداخلية» التي «خلق استياء عاما» وادت الى انتفاض «ثلاث مقاطعات في الشمال» يقول:

«اعتقد ان خلفه (خلف وثوق الدولة ك. م.) يجب ان يكون شخصا يستمر على اتباع سياسته الخارجية فيما يتبنى سياسة اخرى داخل البلد ويجب ان يكون راغبا للعمل مع القوميين وفي نيل مساندة شعبية»[٤٩].

وقد وقع اختيار نورمن على الشخصية «الليبرالية» مشير الدولة لتوفر الشروط المذكورة فيه حسب قناعته، وعندما عرض الامر على الشاه اكد الاخير انه «مقتنع كليا بكل كلمة» ذكرها له بهذا الخصوص.

وهذا ما حصل فعلا. فقد قدم وثوق الدولة في ٢٣ حزيران ١٩٢٠ استقالة وزارته الى احمد شاه الذي قبلها في اليوم التالي وكلف مشير الدولة بتأليف الوزارة الجديدة، فوافق الاخير بعد ان اجتمع «بأذن» من الشاه بالسفير البريطاني ليلة ٢٥ على ٢٦ حزيران ١٩٢٠. وفي هذا الاجتماع الثنائي الذي استغرق ساعتين ونصف الساعة استعرض الرجلان تفاصيل برنامج الوزارة المقبلة وقيما اعضاءها فردا فردا. وفي صبيحة اليوم التالي بعث نورمن «برقية

---

(٤٨) Ibid, pp. 522 - 524

(٤٩) Ibid, pp. 537 - 538

مستعجلة للغاية»[٥٠] الى كرزن ضمنها خلاصة مادار بينهما في اجتماع الليلة السابقة وردت فيها اسرار خطيرة بامكانها القاء الضوء الكافي على جوانب مهمة لما نحن بصدده. فقد ذكر نورمن لكرزن ان من بين الذين اقترحهم مشير الدولة ليشتركوا في وزارته «اثنان من القوميين البارزين» هما «مستوفي الممالك على اساس تأثيره الكبير لثقة الشعب الواسعة به، ومخبر السلطنة على اساس نفوذه في اذربيجان»، فوافق عليهما نورمن بالرغم «من سجلهما الاسود في سنوات الحرب»[٥١] كما ذكر لمشير الدولة بخبث ليضيف الى ذلك قوله للورد كرزن:

«وفي الواقع انهما بالضبط ممن نريدهم لانهما يستطيعان ان يساعدا اكثر من اي شخص اخر على ترويج سياستنا وانني على علم بانهما مهتمان بان يصبحا صديقين (لبريطانيا بالطبع - ك. م.)». ثم يضع نورمن نقاطا اكثر على الاحرف حينما يضيف: «ان بالامكان تأليف حكومة رجعية من دونهما اومن دون من هم على شاكلتهما، الا انها سوف تخرب قضيتنا»[٥٢].

وقد استأنس مشير الدولة رأي السفير في الاجتماع نفسه بخصوص ارسال وفد الى موسكو لاقناع الروس «بالانسحاب من ايران[٥٣] وايقاف دعاية البلاشفة في الداخل»، الامر الذي لم يعترض عليه نورمن. وفي اليوم التالي اجتمع مشير الدولة بالسفير ثانية واتفقا على صيغة البند الخاص بالمعاهدة البريطانية - الايرانية في البيان الوزاري المزمع نشره[٥٤]. فمن اجل امرار المعاهدة تقرر خلال الاجتماعين «ايقاف تنفيذ كل ما يتعلق بها وقتيا» واجراء انتخابات جديدة لاعضاء المجلس بسبب عدم قناعة الرأي العام بالانتخابات التي اجرتها

---

(٥٠) (most urgent).

(٥١) كانا من المؤيدين لالمانيا والدولة العثمانية في سنوات الحرب العالمية الاولى.

(٥٢) (Documents on British Foreign Policy, 1919 - 1939). First Series, Vol. XIII, pp. 546 - 549

(٥٣) دخلت قطع من الاسطول السوفيتي ميناء انزلي الايراني في تلك الفترة لاستعادة السفن الحربية الروسية التي كان يستخدمها اعداء الثورة من رجال الحرس الابيض.

(٥٤) (Documents on BFP, 1919 - 1939), First. S., Vol. XIII, pp. 549 - 550

الحكومة السابقة، ومن ثم عرض المعاهدة على المجلس بعد ذلك لاقرارها طبقا للمادة الرابعة عشرة من دستور عام ١٩٠٦ الذي ترك له حق قبول أورفض كل معاهدة او اتفاقية تعقدها الحكومة مع دولة اجنبية.

ومع ان هذه الحقائق جد خطيرة وجد مذهلة وجد واضحة الا انها ليست كل ما كان يجري خلف الكواليس على مايدو. فان السفير البريطاني هرمن نورمن قد تطرق الى اسمي مستوفي الممالك ومخبر السلطنة والى اسماء غيرهما في برقية سرية اخرى بعثها الى اللورد كرزن قبل برقيته الاخيرة بيومين فقط وردت الاشارة اليها مرتين في المجلد الثالث عشر من التسلسل الاول من وثائق السياسة الخارجية البريطانية[٥٥] لكن دون ان ينشر نصها لانها، اغلب الظن، تحتوي على اسرار اخطر تخص الدوائر المعنية وربما شخصيات لها وزنها الخاص فلا يصح نشرها(!).

ضمت وزارة مشير الدولة في عضويتها فضلا عن مستوفي الممالك ومخبر السلطنة عنصرين اخرين عرفا ايضا بميولهما القومية هما مؤتمن الملك ومصدق السلطنة الذي اصبح يعرف فيما بعد باسم الدكتور مصدق.

باشرت وزارة مشير الدولة اعمالها حسب الخطة المرسومة. فانها اوقفت جميع الاعمال التي كانت تنفذ بموجب المعاهدة حتى ان اثنين من الخبراء العسكريين البريطانيين «اضطرا» الى ترك طهران والمجيء الى بغداد انتظارا «للعوده الى ايران بعد موافقة المجلس على الاتفاقية» كما اخبر نورمن اللورد كرزن بذلك في مذكرته المؤرخة ١٨ آب ١٩٢٠[٥٦]. وفي الوقت نفسه اتخذت الوزارة الجديدة بعض الخطوات على طريق تطبيع العلاقات مع روسيا السوفيتية كما انها لم تأل جهدا من أجل القضاء على الحركة الوطنية الايرانية.

ولكن بالرغم من ذلك لم ستطع وزاره مشير ان تبقى فترة طويلة في دست الحكم بسبب مجموعة من العوامل. فقبل كل شيء لم يرض البريطانيون عنها لانها لم تتحول الى اداة طيعة بأيديهم مثل وزارة وثوق الدولة، فان الظروف

---

(٥٥) Ibid, pp. 539. 549,548

(٥٦) Ibid, pp. 588 - 591

الداخلية والدولية منحتها امكانية تبني سياسة اكثر استقلالية انعكست، مثلا، في محاولاتها للتقرب من الولايات المتحدة الامريكية رغم معارضة لندن. كما انها اجرت بعض التغييرات في قيادة الجيش الايراني بطريقة لم ترض هي الاخرى البريطانيين(٥٧). وعجزت حكومة مشير الدولة، مثل سابقتها، في القضاء على الحركة الوطنية التي اشتد اوارها اكثر ايام الوزارة الجديدة بحيث انها فكرت حتى بنقل مقر الحكومة الى الجنوب تحت ضغطها واستعد الاجانب في طهران للجلاء عنها، بينما انسحب من كان منهم موجودا في تبريز، واضطر المصرف الشاهنشاهي البريطاني الى غلق فروعه في العديد من المدن الايرانية (٥٨). وفي مثل تلك الظروف كان من الطبيعي جدا ان لا تتخذ حكومة مشير الدولة أي خطوة جدية لتصديق المعاهدة، بينما اكد الانكليز على اهميتها القصوى بالنسبة لسياستهم تجاه ايران في تقرير اعدته وزارة الخارجية البريطانية في اليوم الذي قام مشير الدولة بتأليف وزارته(٥٩). وأخيرا كان مشير الدولة «ذا طبع ضعيف ومتردد» كما وصفته الوثيقة نفسها، بينما كان البريطانيون يبحثون عن «رئيس وزراء قوي وصديق بوسعه مقاومة الدعاية البلشفية»(٦٠).

وهكذا لم تكن قد مضت على وزارة مشير الدولة «الليبرالية» سوى ستة اشهر حينما تقدمت باستقالتها الى الشاه مرتين في ١٢ و ١٥ كانون الثاني عام ١٩٢١. وقد ظهر مرشحان جديدان ليؤلفا الوزارة الجديدة هما سباهدار اعظم ومستوفي الممالك، الاول لكونه «رجلا حازما» والثاني بصفته قوميا ليبراليا. وعندما استفسر الشاه مرتين عن رأي السفير نورمن في المرشحين اجاب بانه «لن يتدخل في موضوع تعيين رئيس جديد»(٦١) لانه كان يفكر بمخرج اخر

---

(٥٧) S. L. Agayev. Op. cit., pp.33 - 34

(٥٨) (Documents on BFP, 1919 - 1939), First S., Vol. XIII, pp. 563.691 - 692... etc

حسن اعظام قدسي (اعظام الوزارة). كتاب خاطرات من ياروشن شدن تاريخ صد ساله، جلد دوم، تهران، ص ١٢ - ١٣.

(٥٩) (Documents on BFP, 1919 - 1939). First S., Vol. XIII, pp. 541 - 542

(٦٠) Ibid, pp. 541 - 545

(٦١) Ibid, pp. 699 - 755

للازمة كما تبين بعد شهر ونيف. وكان الشاه يميل الى ترشيح سباهدار اعظم لان المرشح الاخر مستوفي الممالك اخبر السفير البريطاني صراحة بانه في حالة تحمله اعباء المسؤولية يرفض عرض المعاهدة على المجلس[٦٢].

ظل الشاه يتردد في تكليف سباهدار اعظم بتأليف الوزارة الجديدة، وعندما كلفه بدا سباهدار يتردد في قبول العرض بسبب الموقف السلبي الذي اتخذه السفير البريطاني تجاه الموضوع، فظلت البلاد من دون وزارة مدة حوالي شهر واحد. واخيرا وافق سباهدار على تأليف الوزارة وفي ١٦ شباط قدم للشاه اسماء اعضائها الذين كانوا نفس اعضاء الوزارة السابقة فيما عدا اثنين منهم هما وحيد الملك ومحتشم السلطنة الذي عهدت اليه حقيبة وزارة الخارجية. ولقناعته بعدم امكانية امرار المعاهدة قدم الرئيس الجديد اقتراحين بصددهما للسفير البريطاني يقضي الاول منهما الاعلان عن عقد معاهدة بديلة «اكثر فائدة لايران»، ويقضي الثاني منهما تأليف لجنة باشتراك السفارة البريطانية لوضع تقرير حول الموضوع وعدم دعوة المجلس لغاية اعداد التقرير. وعندما استفسر سباهدار اعظم من السفير البريطاني عن رايه اجاب الاخير «ان الامر ليس في حدود صلاحياته» لذا عليه ان يستأنس برأي الخارجية في لندن بخصوصه[٦٣]، في حين ان نورمن بت قبل ذلك في امور اخطر قبل ان يعود الى وزير الخارجية اللورد كرزن، مما يدل مرة اخرى على انه كان يعد العدة لامر ادهى تتلخص منطلقاته في التركيز على الوجود البريطاني في وسط البلاد، ولاسيما جنوبها والتنازل عن التمسك بمعاهدة عام ١٩١٩ التي تحولت الى «ورقة ميتة» حسب وصف «تايمس» اللندنية لها في عددها الصادر يوم ١٩ كانون الثاني ١٩٢١، وتأليف حكومة جديدة قوية غير مكشوفة تستطيع ارجاع «الابن الضال الى رشده»، و«تنقذ» ايران الغنية بثرواتها والمهمة بموقعها من خطر «الضياع»، فظهرت في أروقة الخارجية البريطانية اسماء متباينة من الصديق الصدوق للانكليز الامير المتأورب فيروز نصرت الدولة الى السياسي المعروف باتجاهاته القومية مستوفي الممالك. ولكن جاء «الحل» اخيرا بطريقة اخرى - تدبير اول انقلاب عسكري في ايران والشرق الاوسط، خاصة وان السفير نورمن بدأ يخشى ان تفلت الامور من ايدي البريطانيين فتتألف في

---

(٦٢) Ibid

(٦٣) Ibid, pp. 727 - 728

مثل ذلك الظرف «وزارة ضعيفة» «ترفض الاتفاقية لتنال بذلك شعبية واسعة وسمعة كبيرة»[٦٤].

إنقلاب حوت:

شهدت ايران يوم الثالث حوت عام ١٢٩٩[٦٥] المصادف ليوم ٢١ شباط عام ١٩٢١ إنقلاباً قاده ضياء الدين طباطبائي سياسياً ورضا خان عسكرياً. ادى الانقلاب الى سقوط وزارة سباهدار أعظم التي لم تعش سوى ايام معدودات ودشن بداية تحول سياسي في تاريخ ايران إكتمل بسقوط الاسرة القاجارية وتأسيس الاسرة البهلوية الحاكمة.

تختفي وراء انقلاب حوت ايدي ودوافع وعوامل مختلفة تتراوح ما بين الموضوعية والمصطنعة، واشتركت فيه شخصيات متباينة في مشاربها، متفقة في اهدافها الانية.

لعب سيد ضياءالدين طباطبائي[٦٦] دورا كبيرا لاعداد الانقلاب، وفي تنفيذه. كان ضياءالدين ينتمي الى اسرة دينية معروفة من يزد، ولد عام ١٨٨٨ ودرس في باريس في الفترة ١٩١١ - ١٩١٢. كان مثقفا من الطراز الاول، مولعا بالادب والشعر، ومطلعا على التاريخ. زاول مهنة الصحافة بنجاح، فان جريدته «رعد» التي بدأ باصدارها في اواخر الحرب العالمية الاولى جلبت انظار المثقفين الايرانيين والاجانب المهتمين بشؤون ايران. وحسبما يؤكد العديد من المؤرخين انه كان من افضل من يفهم القضايا الدولية بين ساسة ايران في عهده[٦٧]. وكان يصغر رضا خان بحوالي عشر سنوات، وقد اتصف بالجرأة والاقدام وحب المغامرة. وفي الواقع يوجد اكثر من خيط يجمع بين صفات ضياءالدين ونوري السعيد.

ترجع بدايات الاحتكاك المباشر لضياءالدين طباطبائي بالحياة السياسية الى سنوات الثورة الدستورية عندما اشترك بحماس في نضال جناحها الليبرالي. ابتعد بالتدريج عن قناعاته الفكرية الاولى وانتقل الى الخندق المقابل قبل

---

(٦٤) Ibid, pp. 727 - 728

(٦٥) نسبة الى التقويم الفارسي.

(٦٦) لتوضيح تاريخ حياة سيد ضياء الدين طباطبائي واتصالاته اعتمدنا على وثائق السياسة الخارجية البريطانية (التسلسل الاول. المجلد الثالث عشر) مع مؤلفات س. ل. اكاييف وم. س ايفانوف وا و. س مليكوف ودونالد ولبر والكتب الواردة اسماؤها ضمن هوامش البحث مع عدد من المصادر الانسكلوبيدية.

(٦٧) راجع مثلا:
D.N. Wilber, Riza Shah, P. 11.

انتهاء الحرب العالمية الاولى، فقد اصبح على اتصال وثيق بالبريطانيين والى درجة ان هناك من المؤلفين الايرانيين وغيرهم من يؤكد انه كان يتلقى مخصصات مقطوعة من السفارة البريطانية في طهران، وقد وصفه السفير نورمن في رسالة سرية بعثها الى وزير الخارجية اللورد كرزن قبل انقلاب حوت بحوالي شهرين ونصف الشهر بانه «معروف جيدا لدى المستر تشرشل»(٦٨). ومهما يكن من امر فان الرجل كان مؤمنا بان بلاده تستطيع الوقوف على قدميها من جديد بمساعدة البريطانيين.

في العام ١٩٢٠ دخل ضياءالدين طباطبائي السلك الدبلوماسي الايراني حينما عين سفيرا فوق العادة لدى حكومات ما وراء القفقاس - جورجيا المنشفية وارمينيا الداشناقية و «حكومة المساواة» الاذربيجانية. وقد ايد قبل ذلك تأسيس علاقات دبلوماسية طبيعية مع الحكومة المؤقتة التي تأسست في روسيا اثر انتصار ثورة شباط ١٩١٧، بينما شن حملة واسعة ضد ثورة اكتوبر والبلاشفة فيما بعد. أيد وزارة وثوق الدولة ووقف بحماس الى جانب المعاهدة البريطانية - الايرانية للعام ١٩١٩، فقد كتب عنها بالحرف الواحد يقول:

«بدأ عصر جديد للنهضة الايرانية منذ لحظة التوقيع على المعاهدة الانكلو - ايرانية»(٦٩).

اذن توفر جانب كبير من الشروط المطلوبة في ضياءالدين طباطبائي الذي بدأ يظهر في ثوب جديد عشية الانقلاب، فقد وسع من اتصالاته بالاوساط القومية والديمقراطية من امثال الشاعرين المعروفين عشقي ميرزاده وعارف قزويني، كما كسب بعض العسكريين الى جانبه، منهم العقيد محمد تقي خان(٧٠).

مع ذلك ما كان بوسع سيد ضياءالدين طباطبائي تنفيذ انقلاب حكومي لوحده، الامر الذي تحول الى اساس مهم لتقربه من رضا خان الذي كان مستاء من الوضع السياسي للبلاد وما كان يسودها من فوضى واضطراب. ففي

---

(68) Documents on British Foreign Policy, Vol. XIII, PP. 653 - 654.

(٦٩) سيد ضياء الدين طباطبائي، عصر جديد في تاريخ ايران والمعاهدة الانكلو- ايرانية، باللغة الروسية، باكو ١٩٢٠. ص ١. الف الكتاب، على مايبدو، اثناء سفارته لدى حكومات ماوراء القفقاس.

(70) S.L. Agayev, Op. Cit, P. 47.

تلك الفترة كان ضباط القوزاق الايرانيون متذمرين بصورة عامة، وقد دفعت عوامل متناقضة بهم الى الاقتناع بضرورة وجود حكومة مركزية قوية تستطيع القضاء على الحركة الثورية (التقدم) والتسيب العشيري (التخلف) في ان واحد، خاصة بعد ان عجزت الحكومات المتعاقبة من تنفيذ اولى المهمتين. ثم انهم كانوا مقتنعين بضرورة اجراء بعض الاصلاحات في اطار فهمهم للامور، كما كانوا متحمسين لحماية استقلال البلاد. وقد ولد كل ذلك الثقة التامة لدى قيادة القوزاق بانها تستطيع تحقيق اهدافها بالاعتماد على هؤلاء الضباط الذين كانوا اكثر وعيا نسبيا من زملائهم بحكم احتكاكهم المستمر بالمناطق الشمالية ذات التقليد الثوري المعروف.

فضلا عن عوامل اخرى جمعت الرغبة في وضع حد للحركة الثورية بين ضباط القوزاق ومجموعة سيد ضياءالدين على صعيد واحد، فجرى الاتصال بين الطرفين واتفقا على برنامج عمل مشترك بسرعة ذلك لان ضياء الدين كان بحاجة الى اداة لتنفيذ الانقلاب، وضباط القوزاق كانوا بحاجة الى سياسي من نوعه يستطيع بفضل اتصاله بالانكليز ودرايته في امور الدولة ضمان النجاح لعمل العسكريين. وبعد تقييم اسماء عدد من المرشحين لقيادة الجانب العسكري من الانقلاب استقر الرأي على اختيار رضا خان لتنفيذ المهمة ذلك لانه كان «الشخص الوحيد الذي بوسعه وقف المد الجديد للحركة الديمقراطية المعادية للاستعمار» في البلاد حسب التحديد الدقيق للمتخصص الكبير في تاريخ ايران المعاصر الدكتور س. ل. آغاييف[٧١].

ومن اجل الحيلولة دون وقوع اي شكل من اشكال المقاومة من جانب الاطراف العسكرية الاخرى اخذ رضا خان على عاتقه امر الاتصال بقطعات القوزاق على ان يتصل سيد ضياءالدين من جانبه بقيادة الجندرمة. وفي ١٣ شباط اجتمع قائدا الانقلاب في قزوين واتفقا على توزيع المناصب، فتقرر ان يصبح ضياءالدين طباطبائي رئيسا للوزراء ورضا خان قائدا عاما للقوزاق[٧٢].

---

(٧١) Ibid, p. 123

(٧٢) حسين مكي. تاريخ بيست ساله ايران. مجلد اول. ص ١١٤ - ١١٥

وسرعان ما واتت الفرصة المناسبة للانقلابيين لتنفيذ خطتهم. ففي شباط ١٩٢١ قررت الحكومة تغيير قطعات القوزاق الموجودة في العاصمة باخرى افضل منها[٧٣] تجلبها من قزوين - مقر قوات رضا خان الذي لم يدع الفرصة تفوته، فتحرك بسرعة نحو طهران رغم ان الحكومة غيرت رأيها والغت قرارها السابق[٧٤] ربما لانها احست بما كان يجري خلف الكواليس بصورة او باخرى.

في صبيحة ١٨ شباط بدأت قوة القوزاق المؤلفة من ٢٥٠٠ الى ٣٠٠٠ رجل و ٨ مدافع ميدان و ١٨ مدفعا آلياً[٧٥] زحفها على طهران بقيادة رضا خان. وعلى بعد ٨ كيلومترات من العاصمة التقى سيد ضياء الدين برضا خان وعقدا اخر اجتماع لهما في مقهى شاهآباد بالقرب من مطار مهر آباد شاركهما فيه ثلاثة آخرون من قادة الانقلاب هم الكولونيل كاظم خان سياح والميجر مسعود خان كيهان وأمير احمدي. أقرّ المجتمعون خطة احتلال طهران ثم ادى سيد ضياء الدين اليمين على القرآن بان «يخدم البلاد وشعبها وأن يوقف تقدم البلاشفة ويخدم صاحب الجلالة احمد شاه». ادى رضا خان وبقية الضباط بدورهم يمين الاخلاص للوطن والشاه[٧٦]. بعد ذلك القى رضا خان كلمة حماسية في جنده مؤكدا لهم بان هدف حملتهم على طهران هو «انقاذ البلاد من الفوضى»[٧٧].

اثار نبأ تحرك القوزاق نحو العاصمة هلعا كبيرا بين الحكام وغيرهم، وادخل الذعر في قلب احمد شاه الى درجة مذهلة، بينما لم يثر اي رد فعل غير طبيعي بين الاجانب الموجودين في طهران وذلك على غير عادتهم في مثل تلك الظروف، مما يدل على انهم ربما تلقوا من السفارة البريطانية ماطمأن نفوسهم (!). وراجت شائعات متباينة بين الناس حول سبب زحف القوزاق على العاصمة، منها ان البلاشفة يخططون للاطاحة بالنظام، ومنها ان الجند

---

(٧٣) حسبما يؤكد المؤرخ الايراني حسين مكي فان احمد شاه خدع بالايحاء له بان هناك محاولات تجري للاطاحة به مما يستوجب نقل قوات القوزاق من قزوين الى طهران لحماية عرشه (حسين مكي، المصدر نفسه. الجزء الاول ص ١٠٣ - ١٠٤).

(٧٤) D. N. Wilber, Riza Shah, p. 43

(٧٥) حسب الوثائق البريطانية (DBFP, Vol. XIII, P. 729) حسب مصادر اخرى كانت القوة تتألف من الفي رجل التحق بها ١٠٠ من رجال الجندرمة بعثهم سيد ضياء الدين (انظر مثلا: D.N. Wilber, Riza Shah, P. 43)

(٧٦) حسن اعظام قدسي، كتاب خاطرات من ...، ص ١٣ - ١٥. D.N. Wilber, Riza Shah, P. 43

(٧٧) حسن اعظام قدسي، كتاب خاطرات من... ص١٥.

هاجموا بسبب عدم صرف رواتبهم[٧٨]، وحتما كان هناك من يقف وراء هذه الشائعات كجزء من مخطط الانقلاب نفسه.

ظل مجلس الوزراء في اجتماع متواصل طيلة يومي ١٩ و ٢٠ شباط وقد اتخذ قرارا بالاجماع يقضي بارسال وفد يضم ممثلين عن الشاه والوزراء والسفارة البريطانية[٧٩] للالتقاء بقادة الانقلاب بهدف اقناعهم بعدم دخول المدينة، الا ان رضا خان رفض الاستجابة للطلب واكد للوفد ان القوزاق عازمون على اقامة حكومة قوية قادرة على «وقف الزحف البلشفي المتوقع اثر انسحاب القوات البريطانية»[٨٠].

التقى السفير البريطاني في ٢١ شباط بالشاه ونصحه بقبول شروط الانقلابيين بعد ان طمأنه على حياته (!). وبناء على اقتراح زعيم الانقلاب المدني ضياءالدين طباطبائي جعل الشاه الانقلاب من عمل يده وكأنه اراد منه، كما ادعى في بيان نشره بهذا الخصوص، وضع نهاية للازمات الوزارية المستفحلة[٨١].

وهكذا دخل الانقلابيون طهران وسيطروا على مداخلها ونقاطها الستراتيجية ووضعوا الحراسة على كل المؤسسات الاجنبية بداخلها وأطلقوا سراح جميع المعتقلين، وقد اختفى الوزراء والتجأ رئيسهم سبهدار الى دار السفارة البريطانية التي سرعان ماتركها بعد ان طمأنه الانقلابيون على حياته بتوسط من السفير نورمن. وبما ان الخطة كانت محبوكة بصورة جيدة فانه لم يسجل مايعكر صفو الامن سوى حالة واحدة عندما فتح مركز للجندرمة خطأ النار على الانقلابيين الذين عالجوا الموقف بسرعة، والا فان الحكومة لم تكن لديها امكانات المقاومة حتى فيما لورغبت في ذلك، وبلغت احتياطات الانقلابيين

---

(٧٨) S. L. Agayev, Op. cit., p. 57

(٧٩) ضم الوفد ممثلين عن السفارة البريطانية كان الملحق العسكري واحدا منهما.

(٨٠) (Documents on British Foreign Policy. 1919 - 1939), First Series, Vol. XIII, P. 729; (the Times). London, February 25, 1921.

(٨١) (Documents on BFP), Vol. XIII, pp. 730 - 731

حد انهم ضمنوا عدم توزيع العتاد على جندرمة العاصمة عشية الانقلاب، كما ان رئيس الوزراء، تقديرا منه للموقف، اصدر اوامره بعدم ابداء اي مقاومة للقوات الزاحفة[٨٢].

والان لنترك الحديث للسفير البريطاني هرمن نورمن الذي كان مقتنعا غاية الاقتناع بمثل ماوقع كاسلوب «لانقاذ» ايران من الحركة الثورية، وقد راقب الاحداث عن كثب وسجل وقائعها بدقة وزود اللورد كرزن بكامل تفاصيلها في سلسلة من المذكرات السرية التي لم يكشف النقاب عن جميعها حتى اليوم، ولكن، مع ذلك، بامكان ما في متناول اليد منها ان يلقي الضوء الكافي على اسرار خطيرة وعلى اساليب جديدة للتعامل مع شعوب الشرق.

بعث نورمن يوم الانقلاب، ٢١ شباط ١٩٢١، بمذكرة مفصلة الى اللورد كرزن تضمنت معلومات وافية عن الاحداث التي رافقته[٨٣]. وبعد اربعة ايام بعث بـ «برقية مستعجلة» و «سرية للغاية» للوزير نفسه تعتبر، على مانعتقد، اخطر وثيقة معروفة حتى الان عن انقلاب حوت. ففي ذلك اليوم، ٢٥ شباط، التقى نورمن لاول مرة بالسيد ضياءالدين طباطبائي بعد نجاح الانقلاب وارسل في اليوم نفسه بتفاصيل مادار بينهما الى كرزن. يقول نورمن نصا:

«اخبرني سيد «ضياءالدين طباطبائي ـ ك. م.) سرا بما يلي عن سياسته:
. . . يجب الغاء الاتفاقية الانكلو ـ ايرانية، فمن دون ذلك لايمكن للحكومة الجديدة ان تباشر اعمالها. . . تتخذ الخطوات مباشرة لاستخدام عدد من الضباط والمستشارين البريطانيين في المؤسسات العسكرية والمالية بموجب عقود فردية وبدون اظهار اي نوع من الاتفاق بين الحكومتين، كما يجب عدم جلب الانظار الى نشاط هؤلاء قدر المستطاع، بينما يعلن للملأ ان الحكومة الايرانية تنوي جلب المستشارين من مختلف الدول الاوربية، فيدعى الفرنسيون والامريكان وربما الروس ايضا فيما بعد لاشغال مراكز في وزارات اقل اهمية. وتهدف الفكرة الى ارضاء الدول الاجنبية الاخرى قدر الامكان والى ذر الرماد في عيون البلاشفة والمتذمرين المحليين في وقت تودع فيه

(٨٢) Ibid, p. 735 : او. س. مليكوف. اقامة دكتاتورية رضا شاه في ايران. باللغة الروسية، موسكو، ١٩٦١، ص٢٥. (في الهوامش القادمة O. S. Melikov)

(٨٣) (Documents on British Foreign policy, 1919 - 1939), First Series, Vol. XIII, pp. 729 - 730.

إدارتـان اسـاسيتـان بيـد البـريطـانيين. . . يؤلف جيش ويحـل محل قواتنا في الجبهـة البلشفيـة[٨٤]. . . اصـدرت التعليمـات لرئيس الشـرطـة السـويدي لرفع كفاءة قواته واضافة ٥٠٠ رجل اليها من اجل حماية السفارات شكليا ولكن في الـواقـع لمـراقبـة الممثـل السـوفيتي حال وصـولـه[٨٥] ولمراقبة النشاط البلشفي عموما. . . انه اشار الى ان كل مستقبل ايران ومستقبل بريطانيا العظمى في ايران يعتمد على فرصة عدة اشهر تمنح للحكومة الجديدة لتتخذ الاجراءات الدفاعية الضرورية (لصد الحركات الوطنية ـ ك. م.) والتي كان اهمالها جرما ارتكبه من سبقوه. . . ومن اجل التخلص من معاداة حكومة روسيا السوفيتية من المهم جدا اخفاء ميل الادارة الحالية نحو بريطانيا الى اقصى حد ممكن في الوقت الحاضر. وفي الختام قال اذا كانت بريطانيا العظمى ترغب في انقاذ موقعها هنا فعليها ان تضحي بالظل من اجل الجوهر وتبقى في الخلف تساعد ايران بنشاط ولكن بعيدا عن الانظار. انه متأكد من ان سياسة كهذه ستحقق في النهاية لبريطانيا العظمى فوائد اكبر من تلك التي تتوقعها من اتفاقية يتعذر تطبيقها»[٨٦].

وقبـل ان نتـابـع سيـر الاحـداث التي شهـدتها الساحة الايرانية بعد نجاح انقلاب حوت نورد ايضا بعضا من اقوال رضا خان وما قيل عنه ايام الانقلاب لانها تساعد بدورها على فهم افضل لمجرى الامور في فترة حرجة من تاريخ ايـران المعـاصـر. فحسبمـا تؤكـد «تـايمس» في عددها الصادر يوم ٢٥ شباط ١٩٢١ ان رضا خان اعلن امام الوفد الذي زاره في مهر آباد يوم الانقلاب انه سوف يقوم «باحتلال العاصمة ويعمل من اجل اقامة حكومة عسكرية تكون قادرة على حماية المدينة بعد انسحاب القوات البريطانية» من ايران. وتضيف الجريدة قائلة: «انه اظهر نفسه عدوا للبلشفية ومؤيدا للانكليز». ويؤكد دونالد

---

(٨٤) يقصد الحدود الشمالية لايران المحاذية للحدود السوفيتية. وكان البريطانيون يرغبون في ذلك حتى يتسنى لهم سحب قواتهم للتخلص من اعبائها المالية طبقا لسياستهم المرسومة انذاك.

(٨٥) كان من المقرر ان يصل ايران الممثل السوفيتي في تلك الايام.

(٨٦) (Documents on British Foreign policy, 1919 - 1939), First Series, Vol. XIII, pp. 731 - 732.

من الجدير بالذكر ان السفير بعث بصورة من مذكرته هذه الى الادارة البريطانية في كل من الهند والعراق.

ولبر في كتابه «رضا شاه بهلوي» انه وضع خطة الانقلاب بعلم السفارة البريطانية التي صرفت، كما يؤكد هو، الاموال اللازمة لتمويل قوات القوزاق المتوجهة من قزوين الى طهران بما في ذلك ٤٠ الف تومان لشراء الملابس لافرادها و ٦٠ الف تومان للصرف عليها في الطريق(٨٧). وقد ذكر شاهد عيان هو الضابط البريطاني سمث الذي كان يعمل في صفوف القوزاق ايام الانقلاب، ذكر امام الجمعية الاسيوية المركزية بلندن بمناسبة مرور خمسة اعوام على انقلاب حوت ان الانقلابيين «طلبوا مني الاستشارة العسكرية فابديتها لهم بصفتي خبيرا»(٨٨). ومما له مغزاه ايضا مايذكره ولفرد كناب عن تعهد رضا خان للجنرال آيرونسايد، رجل المخابرات الذي كان على افضل علاقة به والذي اجتمع به قبل الانقلاب بتسعة ايام بان لايعمل في سبيل ان يصبح شاها(٨٩).

ان كل ما جرى بعد الانقلاب كان ترجمة امينة لاقوال قائديه ووعودهما.

تألفت حكومة الانقلاب بالصورة التي اتفق عليها رضا خان وضياءالدين طباطبائي. فقد اصبح الاخير رئيسا للوزراء واشترك معه في الوزارة احد قادة الانقلاب وهو مسعود خان كيهان الذي اصبح وزيرا للحربية، كما عين كاظم خان سياح، هو الاخر من قادة الانقلاب، حاكما عسكريا على طهران. اما رضا خان فقد عين قائدا اعلى للقوازق ومنح لقب «سردار سباه» (قائد الجيش) وقلده الشاه بالمناسبة سيفا ذهبيا مرصعا بنفسه (٩٠).

منذ الليلة التي دخل فيها القوزاق العاصمة باشر الانقلابيون بشن حملة اعتقالات يومية واسعة داخل العاصمة وخارجها. ففي طهران وحدها جرى اعتقال ما لايقل عن ٢٠٠ شخص كانوا يمثلون فئتين متناقضتين - الاحرار وكبار المسؤولين السابقين، بل «ان معظمهم كانوا من المعادين لبريطانيا» كما اكد نورمن لكرزن يوم الانقلاب(٩١).

في اليوم الخامس بعد الانقلاب نشر رئيس الوزراء الجديد بيانا مفصلا

---

(٨٧) D. N. Wilber, Riza Shah, pp. 40, 42

(٨٨) مقتبس من S. L. Agayyev. Op. cit., pp. 56. 207

(٨٩) W. Knapp. op. cit., p. 25

(٩٠) O.S. Melikov. Op. Cit., P. 27; D.N. Wilber. Op. Cit., P. 49.

(٩١) (Documents on British Foreign Policy. 1919 - 1939). First Series. Vol. XIII. p. 730;

حسن اعظام قدسي. كتاب خاطرات من. ص٢٠

للشعب جاء متوافقا في كل شيء مع الاهداف غير المعلنة للنظام الجديد[٩٢].
فقد اتسم البيان، الذي علق فوق جدران العاصمة طهران، باسلوب حماسي مثير للمشاعر الوطنية. فقد اشار في مستهله الى مآل اليه وضع البلاد والمواطنين في «ظل العملاء» والى «خرق الدستور الذي فرضه ابناء الشعب بدمائهم منذ خمسة عشر عاما» مما ادى الى ان يسود البلاد «حكم ملوك الطوائف القروسطي»، فانتشر الفساد وراجت الخيانات، واستأثر بضع مئات من «الاشراف والاعيان» بثروات البلاد الى ان «بزغ فجر الانعتاق وحان يوم الانتقام» في الثالث من حوت.

حدد البيان الخطوط الاساسية لسياسة الانقلابيين على الصعيدين الداخلي والخارجي بالاسلوب نفسه. فبالنسبة للاول منهما اكد على ضرورة اصلاح النظام المالي والقضائي وتطوير التعليم والاهتمام بالتجارة والصناعة والطرق ووسائط النقل. اما بالنسبة للجيش فقد ذكر البيان: «الجيش قبل وفوق كل شيء وكل شيء للجيش اولا ومرة اخرى للجيش... الى ان تبلغ قواتنا المسلحة المرحلة الاعلى من التطوير»[٩٣].

ويتطرق البيان باسلوب ديماغوغي الى وضع الكادحين فيقول «من الضروري الاعتراف بعمل العمال والفلاحين ومعاناتهم، فقد ولى عهد اضطهادهم»، ثم يؤكد نية الحكومة الجديدة توزيع الاراضي الاميرية على الفلاحين وتقنين علاقاتهم بالملاكين و «اعادة تكييفها» مع الاخذ بنظر الاعتبار «تحسين ظروف الفلاحين».

اما على صعيد السياسة الخارجية، وهنا بيت قصيد الانقلاب، فقد اكد البيان «عزم الحكومة» على التخلص من القروض الخارجية و «اعادة النظر في بعض الامتيازات الممنوحة للاجانب» و «البحث عن المساعدة من اي دولة اجنبية بحرّية» والغاء المحاكم القنصلية، ثم اعلن عن قرار «الغاء الاتفاقية الانكلو ـ الايرانية» وتمنى ان يزول «كل سوء تفاهم بين الشعبين» الايراني

---

(٩٢) راجع نص البيان في حسن اعظام قدسي، كتاب خاطرات من. ص ١٦ ـ ٢٠

(٩٣) يؤكد دونالد ولبر ان رضا خان هو الذي صاغ هذا الجزء من البيان (D.N. Wilber. Riza Shah. P. 49)

والانكليزي ليعبر بعد ذلك عن الرغبة في «اقامة علاقة صداقة» مع روسيا السوفيتية. ولتتجسد الصورة اكثر وقعت حكومة ضياءالدين طباطبائي في نفس اليوم معاهدة للصداقة مع الاتحاد السوفيتي(!!).

كان من الطبيعي ان يبعث البيان الارتياح في نفوس الاوربيين، ولاسيما الانكليز منهم كما اكدت «تايمس» في عددها الصادر يوم ٣ اذار ١٩٢١. وبعد يومين فقط من نشر البيان بعث السفير نورمن بتقرير الى كرزن عن محتواه الذي لخصه في ثلاث عشرة نقطة رئيسية[٩٤]. ومن الجدير بالذكر ان نورمن عندما يتطرق في تقريره الى موضوع «الغاء المحاكم القنصلية» يؤكد لكرزن ان ضياءالدين اخبره «بصورة خاصة» بان اتخاذ هذا الاجراء امر ضروري «نظرا لوجود عدد كبير من الاذربيجانيين والارمن والافغان ولاسيما الروس ممن يعيشون فى البلاد ولكن دون ان يخضعوا للتشريعات المحلية».

وقبل ضياء الدين نشر رضا خان بيانا علق هو الاخر فوق جدران العاصمة ورد فيه تأكيده على ضرورة «تأسيس حكومة لا تكون العوبة بيد الاجانب، حكومة يكون تأسيس الجيش الهدف الاساس لبرنامجها»[٩٥].

لم يتخذ النظام الجديد اي اجراء جدي لتطبيق مايتعلق بوعوده السخية على صعيد السياسة الداخلية، فان كل مافعله في هذا المجال لم يتعد بعض الاجراءات الفوقية قصد منها الهاء الناس من قبيل حصر كتابة القطع فوق واجهات المحلات والمخازن على اللغة الفارسية وفرض الحجاب على المرأة وحظر استخدام المسلمات في دور الاوربيين ومنع بيع المشروبات الروحية التي راجت نتيجة لذلك في السوق السوداء واجراءات صورية اخرى[٩٦]، بينما نراه، بالمقابل، يستعجل الخطى في تطبيق سياسته الخارجية حسب الخطة المرسومة المعلنة منها وغير المعلنة. فكما اسلفنا وقعت حكومة الانقلاب معاهدة للصداقة مع الاتحاد السوفيتي في نفس اليوم الذي نشر فيه رئيسها ضياءالدين طباطبائي بيانه العتيد للشعب والعالم وتماما في وقت اوقف فيه السفير السوفيتي الجديد لمدة عدة اسابيع على الحدود الفاصلة بين البلدين.

---

(٩٤) (Documents on BFP). First Series. Vol. XIII. p. 734

(٩٥) S. L. Agayev. op. cit., pp. 58 - 59

(٩٦) O. S. Melikov. op. cit., p. 31

وحسب الخطة اعلن رئيس وزراء الانقلاب بعد فترة وجيزة (في اواسط نيسان) عن الغاء معاهدة ١٩١٩ مع بريطانيا بصورة رسمية ونشر بيانا للشعب بالمناسبة عبر فيه عن «غبطته العظمى» لان ذلك جرى في عهده[٩٧]

وبنفس السرعة تقريبا باشر سيد ضياءالدين في سكوت تام باستخدام المستشارين البريطانيين في اكثر اجهزة الدولة حساسية. فبعد مرور اقل من ثلاثة اسابيع على نجاح الانقلاب طلبت حكومته من لندن ٢٠ مستشارا عسكريا و ١٠ خبراء ماليين. و (لذر الرماد في العيون) طلبت في الوقت نفسه عددا من الخبراء القانونيين الفرنسيين والزراعيين الامريكان مع ١٥ ضابطا سويديا لا للعمل في الجيش بل لاستخدامهم في «صفوف الجندرمة في الشمال»[٩٨]. وفي الوقت نفسه استمر ضياءالدين في استغلال كل فرصة جديدة للتأكيد، طبعا سرا، على اخلاصه للبريطانيين وحرصه على انقاذ مصالحهم في ايران وفاء منه «للصداقة التي بين البلدين منذ قرون ثلاثة» كما اكد لنورمن والاخير لكرزن[٩٩].

لم يكن بوسع سيد ضياءالدين طباطبائي، مهما تفنن، اخفاء نواياه الحقيقية، فانكشفت اوراقه بسرعة، وعجز نظامه عن حل العديد من المشاكل التي جابهها، بله عن اداء اهم المهمات التي اقتضت ظهوره. فقد اشتدت الحركة الوطنية الايرانية في عهده وتوحدت جهود فصائلها في الشمال كما انها بدأت تنتشر في المناطق الاخرى ايضا، منها العاصمة طهران التي شهدت توزيع النشرات والصور الكاريكاتيرية المعادية لطباطبائي[١٠٠].

وتعقدت في الوقت نفسه الظروف المالية لحكومة الانقلاب، خاصة جراء صرفها بسخاء على القوزاق ولعدم الانتهاء من البت في موضوع عقد قرض جديد مع بريطانيا. وقد حاول طباطبائي معالجة الازمة المالية باساليب «زادت الطين بلة»، ففرض ضرائب جديدة، واصدر عملة ورقية ذات فئة الف تومان رصيدها قروض اجبارية على حساب واردات الاراضي الاميرية[١٠١]. كما انه حاول ابتزاز

---

(٩٧) حسين مكى، تاريخ بيست ساله ايران، جلد اول. ص٨١٤ ـ ٨١٥

(٩٨) (Documents on BFP). First Senries. Vol. XIII, p. 739

(٩٩) Ibid, pp. 742 - 744

(١٠٠) O.S. Melikov. Op. Cit., P. 33.

(١٠١) D.N. Wilber. Riza Shah. P. 25.

المعتقلين السياسيين بان طالبهم بمبالغ طائلة لقاء الافراج عنهم بلغ مجموعها حوالي ٦٠ مليون تومان[١٠٢]. ولتمرير خطته هذه اشاع بين الناس انه ينوي تقديم قسم من المعتقلين الى المحاكم العسكرية وتنفيذ حكم الموت بحقهم دون تأجيل[١٠٣]، الامر الذي لم يسفر سوى عن اثارة الارستقراطيين اكثر.

وهكذا بقي سيد ضياءالدين وحيدا في الميدان. فقد اصيب المخدوعون بخيبة اعادتهم الى صوابهم بسرعة، ومنذ البداية رأى فيه معظم الديمقراطيين عميلا لبريطانيا، واكتشف اليمينيون عجزه في قمع الحركة الوطنية ـ احدى اهم مهماته، وكان رجال البلاط والارستقراطيون ينظرون اليه بتعال، والشاه يشك في اخلاصه، اما العوام فانهم لم يحصلوا منه على خبز ارخص ووضع افضل. ومن هنا فهم الانكليز جيدا ان «بوسع سيد ضياءالدين ان يفعل القليل نسبيا لجذب الرأي العام وكسبه» حسب تعبير دونالدولبر[١٠٤].

إذن كان لابد من شخص اقوى من ضياءالدين طباطبائي يستطيع فعلا القضاء على المعارضة، ولا يكون موضع شك مثله، ولابأس، طبعا، في ان تكون لديه ميول قومية. هذا بالتحديد هو الذي مهد الطريق لتأسيس الاسرة البهلوية عبر درب معقد ناور فيه الجميع ولم يحقق احد منه كل ما اراد سوى رضا خان حسبما نعتقد وكان ابعاد ضياءالدين عن الحكم بواسطة ما يمكن تسميته بالانقلاب الثاني هو الخطوة المهمة الاولى على ذلك الدرب.

الانقلاب الثاني:

كان رضا خان يعرف «من اين تؤكل الكتف»، فترك «زميله» ضياءالدين طباطبائي يتورط في مشاكله لينعزل عن الجميع بينما انهمك هو في تعزيز مواقعه داخل الجيش الذي حقق له مكاسب كثيرة في الاشهر التي اتبعت الانقلاب، فكسب عددا اكبر من الضباط، وعين بعضهم في مراكز حكومية حساسة. ومن جانب اخر كان يحاول فرض نفسه كصاحب شرعي وحيد

---

(١٠٢) ايران المعاصرة. . مجموعة مؤلفين باشراف البروفسور ب. ن. زاخودير. باللغة الروسية. موسكو ١٩٥٧. ص ٣٠٧ (في الهوامش القادمة. (Contemporary Iran)

(١٠٣) (Documents on BFP. 1919 - 1939). First Series. Vol. XIII. P. 732. O.S. Melikov. Op. Cit., PP. 33 - 34.

(١٠٤) D. N. Wilber. Riza Shah, p. 52

لانقــلاب حوت، فمنــذ اليــوم الاول لتأسيس وزارة طبــاطبــائي كان يحضــر اجتماعاتها بانتظام ويبدي رايه في كل صغيرة وكبيرة مع انه لم يكن عضوا في الوزارة[١٠٥]. وغالبا ماكان رضا خان يتجاهل ضياءالدين ولايستشيره حتى في الاعمال التي كانت تدخل في صلب صلاحيات شخص رئيس الوزراء. وعادة كان يتقرر مصير الامور التي يظهر الخلاف حولها بين رضا خان وضياءالدين حسب مشيئة الاول منهما، كما حصل، مثلا، بالنسبة للجندرمة التي تقرر ربطها بوزارة الحربية لا بوزارة الداخلية كما اراد رئيس الوزراء والح عليه.

وعنـدمـا لم تفـد محـاولاتـه عن طريق البـريطانيين لاقناع رضا خان بعدم تخطي حدوده فكـر ضيـاءالـدين في اسلوب اخـر يمكنـه من ابعـاده عن قيـادة القوزاق لعلمه بانه لايستطيع اتخاذ اي اجراء فعلي ضده وهو في منصبه ذلك، فعينه وزيرا للحربية. الا ان حساباته لم تكن دقيقة، فانه قدم بنفسـه «طبخة غداء دسمـة» لغـريمـه دونمـا ان يحتـاج الاخيـر للتفكيـر بالعشـاء الـذي اعـد ضياءالدين العدة لاقامته، فقد رحب رضا خان بمنصب وزير الحربية دون ان يتنازل قيد شعره عن قيادته للقوزاق، فتأزمت العلاقات بينهما اكثر من السابق، بحيث اصبح واضحا في آيار انه لابد لاحدهما ان يمى وحيدا في الميدان. وبمــا ان كفـة الميـزان كانت راجحـة لصـالـح وزيـر الحـربيـة حسب جميـع الحسابات والتوقعات. فقد اصدر الشاه يوم ٢٥ ايار بناء على طلب رضا خان فرمانا يقضي باقالة ضياءالدين طباطبائي بعد ان دام حكمه مدة ٩٣ يوما فقط، فجاء ذلك عمليا بمثابة انقلاب ثان ولكن تحت قيادة واحدة لا مزدوجة هذه المرة.

عرض سفيرا الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية حق اللجوء السياسي على ضياءالدين طباطبائي الذي رفض الطلب وقرر ترك البلاد الى جهـة اخـرى. وتبين فيمـا بعـد ان رضـا خان كان ينـوي اعتقال غريمه الا ان تدخل البـريطـانيين حال دون ذلك. وعلى مايبدو ان السفير السوفيتي نصح بدوره رضا خان بان لا يعتقل حليفه السابق «النبيل المعادي للشيوعية الذي رفض اللجوء الى السفارة السوفيتية»[١٠٦].

---

(١٠٥) Ibid. p. 60

(١٠٦) Ibid. P. 64.

كل الدلائل تشير بوضوح تام الى ان ضياءالدين طباطبائي إنْ لم يكن الرجل الاول للانكليز في ايران ما بعد الحرب الاولى فانه كان، حتما، في مقدمة اشد الموالين لهم هناك. مع ذلك فان التاريخ اللاحق لهذا الرجل حتى مماته في اب ١٩٦٩ يستحق التأمل، وخلاصته انه بعد ان خرج من طهران انتقل عن طريق بغداد الى اوربا حيث عاش في سويسرا والمانيا لعدة سنوات ثم استقر في فلسطين. وفي مطلع العام ١٩٢٦ رشح نفسه غيابيا لعضوية المجلس بعد ان بلغ رضا خان العرش، فكان من بين النواب الذين نالوا اعلى الاصوات. في هذا الوقت عرضت عليه الحكومة الافغانية منصب مستشار في البلاط، لكنها سحبت عرضها في اللحظة الاخيرة تحت ضغط رضا شاه وربما الانكليز ايضا. في كانون الاول عام ١٩٣١ اشترك طباطبائي في المؤتمر الاسلامي الذي عقد في القدس واختير سكرتيرا للمكتب المركزي الذي اسسه المؤتمر.

استمر ضياءالدين طباطبائي في معارضته لرضا شاه، فقد اعتبر حكمه «نقيضا لافكاره هو»[١٠٧]، لذا لم يرجع الى وطنه لغاية العام ١٩٤٣، اي بعد سقوط رضا شاه بحوالي سنتين. وبعد عودته وقف من جديد ضد المد الديمقراطي الذي عاشته البلاد يومذاك، مع ذلك فقد انتخب عضوا للدورة الرابعة عشرة للمجلس الذي بدا اعماله في شباط ١٩٤٤. وفي اواخر ذلك العقد ترك طباطبائي الاشتراك الفعال في الحياة السياسية وطرأ تغيير جذري في موقفه، فقد دعا في السنوات الاخيرة من عمره الى حياد ايران وادان التكتلات العسكرية في المنطقة وطالب بتطوير علاقات بلاده مع المعسكر الاشتراكي[١٠٨].

كان سقوط سيد ضياءالدين طباطبائي يعني ظهور امكانات اضافية امام رضا خان لتثبيت مواقعه وتوسيع نفوذه، الامر الذي قربه من العرش اكثر ولكن بعد ان استمرت الدوامة السياسية في البلاد لفترة اخرى من الزمن.

---

(١٠٧) W. Knapp, Op. Cit., P. 24

(١٠٨) S.L. Agaev, Op. Cit., PP. 73 - 74

استمرار الدوامة:

بعد ان نجح رضا خان في ابعاد ضياءالدين طباطبائي عن الحكم حاول الجميع، حسب العادة، القاء تبعة كل السلبيات والمشاكل التي حدثت على عاتق الرجل المهزوم واظهاره للملأ كعميل للبريطانيين وعدو للايرانيين واظهار رضا خان، بالمقابل، في ثوب الوطني المخلص الذي لا شائبة عليه.

وكان البريطانيون، على مايبدو، يميلون الى تكليف رضا خان بتأليف الوزارة الجديدة، الا ان احمد شاه اعترض على ذلك[109]، كما رفض مشير الدولة ومن بعده مستوفي الممالك المهمة من جانبهما. واخيرا وقع الاختيار على شقيق وثوق الدولة احمد قوام (قوام السلطنة) الذي يفسر المؤرخ الايراني ابو الفضل قاسمي مجيئه الى رئاسة الوزارة في كتابه «تاريخ سياه» (التاريخ الاسود) على النحو التالي:

«ان خدمات قوام السلطنة للانكليز ومساعداته للقنصل البريطاني العام في مشهد لتوسيع شبكة التجسس ضد روسيا وايصاله لرجال المخابرات الانكليز الى تركستان - كل ذلك ساعده على ان يصبح رئيسا للوزراء»[110].

الف قوام السلطنة الذي خرج لتوه من السجن وزارته يوم ٤ حزيران ١٩٢١، والتي لم يختلف منهاجها في شيء عن منهاج سلفه ضياءالدين طباطبائي سواء فيما يخص سياسة ايران الخارجية او سياستها الداخلية. والى ان اصبح رضا خان رئيسا للوزراء فيما بعد اصبحت حقيبة وزارة الحربية حكرا عليه في جميع الوزارات التي تعاقبت على حكم البلاد كما نلاحظ ذلك فيما بعد. اما بقية الحقائب الوزارية فقد جرى توزيع معظمها على العناصر الليبرالية التي تعاونت، على النقيض من الرئيس نفسه، مع الالمان في سنوات الحرب العالمية الاولى. فقد اصبح محتشم السلطنة وزيرا للمعارف العامة ومشاورالسلطنة وزيرا للبرق والبريد وعميد السلطنة وزيرا للعدل واديب السلطنة وزيرا للفوائد العامة والتجارة والفلاحة وحكيم الدولة وزيرا للصحة ومستشار الدولة وزيرا مشاوراً[111].

---

(١٠٩) حسين مكي، تاريخ بيست ساله. ايران. جلد اول. ص٢٣٣.

(١١٠) مقتبس من: O.S. Melikov, Op. Cit., PP. 33 - 34.

(١١١) ـ العراق ـ (جريدة). بغداد ١٤ حزيران ١٩٢١

دشن قوام السلطنة عهده بتركيز اهتمامه على القضاء على الحركة الوطنية الايرانية، ولاسيما على انتفاضتي كيلان وخراسان. ولكن بالرغم من ذلك ازداد الشعور المعادي للبريطانيين ومصالحهم، بل لكل الاجانب الذين عانت الجماهير الايرانية منهم الامرين على مدى عقود طوال. ولم يكن عبثا ان اعترف اللورد كرزن صراحة في خطاب مفصل له القاه امام مجلس اللوردات بفشل سياسة بلاده تجاه ايران[١١٢]. وكتعبير عن ذلك جرى تغيير السفير هرمن نورمن بآخر جديد هو بيرسي لورين.

ومع ان الهدف الاساس لسياسة بريطانيا نحو ايران بقي يتوخى، كما في السابق، تأسيس حكومة قوية تقضي على الحركة الوطنية في الداخل وتحمي الهند والعراق وغيرهما من «الخطر البلشفي» وتضمن المصالح النفطية لبريطانيا في الجنوب، الا ان لندن اجرت تعديلات معينة على ممارساتها بعد فشل تجربة ضياءالدين طباطبائي. فمن اجل ترويض بعض الساسة الايرانيين بدات منذ اواخر عام ١٩٢١ تمارس قدرا من الضغط وتعود الى جوانب من سياستها التقليدية، فطلبت بجدولة جميع الديون البريطانية المترتبة على ايران كما باشرت من جديد بتقوية النزعة الانفصالية لدى الزعماء العشائريين في الجنوب. وقد ركزت في ذلك على البختياريين الذين بدأوا يتحركون بصورة منظمة بقيادة ماعرف بحزب «النجمة البختيارية» كما نشطت القنصلية البريطانية في شيراز باتجاه تحريض عشيرة قشقائي المعروفة. وجرت محاولات مشابهة لتحريك عشائر لورستان وغيرها. بل هناك مايؤشر الى ان بريطانيا بدات تفكر حتى بالعودة الى روح اتفاقية ١٩٠٧ بترك الشمال والتركيز على الجنوب[١١٣]. فالسفير البريطاني الجديد لورين اشار اكثر من مرة الى السفير السوفيتي حول ضرورة احياء الاتفاقية المذكورة، الا ان الاخير تجاهل الامر حسبما يؤكد المؤرخ البريطاني ل. فيشر في كتابه «السوفيت في القضايا الدولية»[١١٤].

---

(١١٢) S. L. Agayev. Op. Cit., p. 83

(١١٣) Ibid, pp. 84 - 85; M. E. Yapp. Op. cit., p. 22

(١١٤) L. Fischer. The Soviets in World Affairs. A History of the Relations Between the Soviet Union and the Rest of the World. 1917 - 1929. Vol. 1. Princeton. 1951. P. 429. (S.L. Agayev. Op. Cit., P. 84).

في خضم هذه الاحداث الحاسمة استمر نجم رضا خان في الصعود، ولاسيما انه ظل يعمل بذكاء من اجل تعزيز مواقعه ولكسب اكثر مايمكن من الاوساط الاجتماعية المؤثرة. فقد استغل ظروف الاحكام العرفية لفرض اعوانه في المقاطعات. اذ غير حاكم اذربيجان مصدق السلطنة (الدكتور مصدق) وحاكم مازندران اقتدار الدولة وعين مكانهما اثنين من اعوانه العسكريين. ومن اجل كسب الجيش اكثر استمر في العمل على تطويره وضمان المكاسب لضباطه. ويكفي القول هنا انه بتأثير منه جرى تخصيص ٤٩٪ من ميزانية الدولة للعام ١٩٢٢ للصرف على القوات المسلحة. وبالرغم مما يعنيه هذا الرقم لوحده الا ان حقيقته تتجسد اكثر اذا علمنا اولا ان عجز الميزانية في تلك السنة بلغ ثلاثة ملايين ونصف مليون تومان (كان الدخل ١٩,٣ مليون تومان والصرف ٢٢,٨ مليون)، وثانيا ان الحكومة عجزت عن صرف رواتب موظفي معظم دوائر الدولة لمدة تتراوح بين ستة وثمانية اشهر، واخيرا ان مخصصات التعليم في الميزانية المذكورة لم تتجاوز ١٪، اي اقل بمقدار ٤٩ مرة من مخصصات الجيش، فأصبح طلاب مدارس طهران ومدرسوها على حق حينما قاموا بمظاهرة احتجاج رفعوا خلالها شعارا معبرا يقول: «لقد دفن التعليم!»(١١٥). ولم يستطع الدكتور مصدق الذي عينه قوام السلطنة وزيرا للمالية خصيصا، معالجة الازمة الاقتصادية المستفحلة(١١٦).

وقد تحول كل ذلك الى عوامل لتنشيط المعارضة لحكومة قوام السلطنة. ففي مطلع عام ١٩٢٢ ظهر ما عرف بـ «الكتلة الوطنية» التي نشطت داخل المجلس وخارجه، وقد ضمت عددا من التنظيمات السياسية الجديدة التي اعتبرت نفسها احزابا اشتراكية مثل «الحزب الاشتراكي الديمقراطي» بزعامة سليمان مرزا اسكندري وحزب «الاشتراكيين المستقلين» وغيرهما. وقفت الكتلة ضد قوام السلطنة وطالبت بحماية استقلال البلاد مما ساعد على عزل الوزارة القائمة.

---

(١١٥) للتفصيل حول هذه الحقائق راجع:

O.S. Melikov. Op. Cit., PP. 46 - 47، D.N. Wilber. Riza Shah. P. 59.

(١١٦) D. N. Wilber. Riza Shah. p. 57

ومن جهة اخرى كان من الطبيعي ان يتفجر الخلاف بين رضا خان وقوام السلطنة بسرعة، فلم يكن من الصعب على الاخير ادراك المرامي البعيدة لوزير حربيته الذي استمر، كالسابق، لايعير رئيس الوزراء اهتماما يذكر. وقد اشتد الخلاف بينهما بسبب السياسة المالية للحكومة في مطلع عام ١٩٢٢ وانتهى باستقالة قوام في ٢٠ كانون الثاني.

بعد يومين الف منير الدولة الوزارة الجديدة على اساس الائتلاف بين الاتجاهات المختلفة داخل المجلس. وفضلا عن رضا خان دخل وزارته اثنان اخران من اعضاء وزارة ضياء الدين طباطبائي كان مشير الدولة يأمل نيل المساعدة المالية البريطانية بواسطتهما.

في هذه الفترة ازداد الدور الامريكي في السياسة الايرانية. فقد اتخذت الحكومة السابقة خطوات جدية للتقرب من الولايات المتحدة حينما بعث رئيسها قوام السلطنة في تموز ١٩٢١ حسين خان علاء، وكان من الدبلوماسيين النشطين، سفيراً لبلاده لدى واشنطن. وبموجب تعليمات قوام كان على علاء ان يحاول الاتفاق مع شركات نفط امريكية لاستغلال نفط الشمال ونيل قرض من الولايات المتحدة. وقبل سقوط وزارته توصل قوام السلطنة الى اتفاق يقضي بمنح شركة ستاندرد اويل الامريكية المعروفة امتياز استغلال نفط الشمال لمدة خمسين عاما، وتصدت الشركة من جانبها بالعمل من أجل منح الولايات المتحدة ايران قرضا بمبلغ خمسة ملايين دولار. وعندما عرض رئيس الوزراء الاتفاق على المجلس في اواسط تشرين الثاني ١٩٢٢ وافق عليه بالاجماع(١١٧).

سارت حكومة مشير الدولة على نفس النهج الذي سرعان ما انعكس صداه في الدوائر السياسية والمالية الامريكية. فلم تمض على تأليف وزارة مشير الدولة ايام معدودات حتى بعثت الحكومة الامريكية بمذكرة الى الحكومة الايرانية تؤكد فيها ان «الولايات المتحدة الامريكية مهتمة جدا بمبدأ «الباب المفتوح»(١١٨)... وتولي موضوع ضمان امكانات للمصالح الامريكية

---

(١١٧) Ibid, p. 60. S. L. Agayev. Op. cit., pp. 88 - 89

(١١٨) «الباب المفتوح» مصطلح سياسي استخدمه المسؤولون الامريكان لاول مرة في العام ١٨٩٩ عندما حاولوا إجبار الدول الكبرى الاخرى على فتح ابواب الصين امام مصالح الولايات المتحدة ايضا. ازداد ترديد «مبدأ الباب المفتوح» على لسان المسؤولين الامريكان بعد الحرب العالمية الاولى في مجال سياسة النفط الدولية. وقد اصبحوا يقصدون به هذه المرة فتح ابواب المناطق النفطية الخاضعة للدول الاخرى امام الشركات الامريكية.

في ايران مشابهة لتلك المصالح التي يتمتع بها اي آمة اخرى، بالغ اهتمامها». وقد ورد في رد الرئيس الايراني بتاريخ ٢٦ كانون الثاني ١٩٢٢ انه «سوف يبذل كل ما في وسعه من اجل ضمان هذا المبدأ»[(١١٩)].

اثار موضوع التقارب الايراني - الامريكي قلقا جديا بين الاوساط الحاكمة البريطانية التي لجأت الى سلاحها القديم - اثارة العشائر ومحاولة عزل العاصمة عن جنوب البلاد وغربها. فتحول هذا الى عامل جديد لزعزعة موقع مشير الدولة الذي اشتد في الوقت نفسه الخلاف بينه وبين وزير حربيته رضا خان لاستمراره على سياسة استغلال كل فرصة لتعزيز مواقعه. فتقديرا منه لسمعة «الكتلة الوطنية» بدأ في تلك الفترة بالتقرب منه. كما واتت رضا خان فرصة مناسبة لضرب الصحافة المعارضة له. ففي ١٦ شباط ١٩٢٢ نشرت جريدة «ستاره، ايران» (نجمة ايران) مقالة لمناسبة قرب الذكرى الاولى لانقلاب حوت حاولت فيها جعل نصرت الدولة، وهو من كبار الساسة الموالين للبريطانيين، العقل المدبر للانقلاب. فقد كتبت ان نصرت الدولة هو الذي خطط للانقلاب مع المسؤولين البريطانيين في بغداد؛ الا ان ضياء الدين طباطبائي عرف كيف يستغل الظرف لصالحه.

وبعد خمسة ايام، اي بالتحديد يوم ذكرى الانقلاب، جاء رد رضا خان المفصل على مانشرته الجريدة فدبج بيانا مسهبا اراد منه، كما ادعى، «وضع نهاية حاسمة لكل المضاربات حول الحدث»، وتهجم فيه بعنف على الصحافة «لتحويرها الحقائق». ثم عرض نفسه في الثوب الذي كان مرغوبا يومذاك:

ان الذين صنعوا الانقلاب «هم وحدهم الرجال الذين ادركوا مدى ضغط الاجنبي ومدى ضعف دولتنا. ارجال الذين قضوا حياتهم في صفوف الجيش. الرجال الذين احسوا بالنوايا الشريرة للخبراء الاجانب ممن ارادوا تخريب البلاد. الرجال الذين غامروا بحياتهم في الصحارى والجبال خدمة لوطنهم».

---

(١١٩) A. C. Miltspaugh (Pn. D). The Amencan Task in Persia. New York - London. 1925. pp. 316 - 317

(١٢٠) مقتبس من D.N. Wilber. Riza Shah. PP. 62 - 63.

واختتم بيانه بالقول: « لاتخطئوا ولا تضيعوا انفسكم كالعميان بحثا عن مدبر الانقلاب، انني اعتبر من الشرف ان اعلن بانني انا المدبر الحقيقي للانقلاب، فانني انا الذي اخترت هذا الطريق وكذلك انني انا الذي لست نادما على مافعلت»[١٢٠].

وفي الوقت نفسه اتخذ رضا خان اجراءات صارمة ضد الصحفيين المعارضين واغلق العديد من جرائد العاصمة منها «ستاره، ايران» و «ستاره، شرق» (نجمة الشرق) «ونجاة ايران» (خلاص ايران). وخوفا من الاعتقال اضطر بعض الصحفيين الى اللجوء الى مسجد الشاه عبدالعظيم جنوبي طهران، بينما لجأ فروغي، محرر جريدة «طوفان»، الى دار السفارة السوفيتية. بعد فترة اكمل رضا خان المسرحية عندما استغل احتجاج جريدة «حقيقت» (الحقيقة) على تصرفات بعض الضباط المخزية فطلب من مشير الدولة غلق الجريدة، وعندما رفض رئيس الوزراء الاستجابة لطلبه هدده بالاعتقال شخصيا مما دفعه الى تقديم استقالته في ايار ١٩٢٢[١٢١].

استغرق تأليف الوزارة الجديدة هذه المرة حوالي شهر كامل، وهو ماكان يرغب فيه رضا خان. واخيرا عهد الى قوام السلطنة ثانية تأليف الوزارة في حزيران وقد نشر بيانا بالمناسبة اعلن فيه عن استمراره على نهج وزارته الاولى مؤكدا على ضرورة حل مشاكل البلاد المالية والبت في مسألة النفط.

بالنسبة للموضوع الاخير طرأ بعض التغيير في الموقف البريطاني منه. فقد ادرك الانكليز انهم لايستطيعون في ظروفهم المحددة مقاومة التغلغل الامريكي في ايران حتى النهاية، لذا اختاروا طريق المساومة مع واشنطن لاستغلال ثروات ايران معا بدل اتخاذ موقف متشنج يكون من شأنه تعميق ازمتهم داخل ايران. ان الوثائق المتبادلة بين لندن وواشنطن حول هذا الموضوع تبين بوضوح[١٢٢] ابعاد السياسة الجديدة التي دفعت بالانكليز للرضوخ لسياسة «الباب المفتوح» الامريكية بالنسبة لايران كما فعلوا الشيء نفسه بالنسبة للعراق في حينه. وجراء ذلك تم التوصل الى اتفاق للتعاون بين شركة ستاندرد

---

(١٢١) Ibid. p. 63: O. S. Melikov. Op cit. p. 47

S. L. Agayev. Op. cit., pp. 102 - 103

اويل الامريكية وشركة النفط الانكلو - ايرانية البريطانيه.

الا ان الامر اثار هذه المرة السوفيت بشدة، خاصة لان اجراءات ايران ومناورات لندن وواشطن كانت تجري على حساب نفط الشمال الذي تعهدت الحكومة الايرانية بموجب البندين الثاني عشر والثالث عشر من معاهدتها التي وقعتها مع الحكومة السوفيتية في ٢٦ شباط ١٩٢١ بان لاتمنح امتيازه لطرف ثالث(١٢٣). وقد شنت الصحافة السوفيتية حملة واسعة ضد قوام السلطنة الذي نشرت جريدة الـ «برافدا» يوم ١٦ كانون الثاني ١٩٢٣ نبأ يفيد بان الامريكان تعهدوا بتقديم رشوة له ولمساعديه مقدارها ١٥٠ الف دولار حال التوقيع على الامتياز، كما توالت مذكرات الاحتجاج السوفيتية على الحكومة الايرانية في نفس الفترة(١٢٤).

اثار الموضوع نفسه المعارضة الايرانية بشدة، فاتهمت حكومة قوام السلطنة بالعمالة لبريطانيا وبخيانة المصالح الوطنية العليا خاصة بعد ان فسحت المجال «للشركتين الجشعتين» ستاندرد اويل والانكلو - ايرانية بتصيد «ثروة ايران وتقسيم الغنائم بينهما مناصفة» حسب تعبير جريدة «نهضت شرق» (نهضة الشرق)(١٢٥).

توسعت الحملة الصحفية ضد قوام السلطنة بحيث انه لم يتحمل الامر فاصدر في نهاية اب عام ١٩٢٢ امرا يقضي بغلق جميع جرائد العاصمة. وردا على ذلك اعلن عمال المطابع في طهران الاضراب عن العمل في ٨ ايلول، تساندهم في ذلك المعارضة، فيما وقف كبار رجال الدين الى جانب الحكومة ضد المضربين وطالبوا بعدم السماح باعادة فتح المطابع والجرائد الا بعد ان توضع الصحافة تحت رقابتهم بموجب قانون خاص يشرعه المجلس لهذا الغرض. وتمادى الرجعيون في موقفهم المعادي حينما دبروا هجمات منظمة

---

(١٢٣) وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي. باللغة الروسية، المجلد الثالث (١ تموز ١٩٢٠ - ١٨ اذار ١٩١٢). موسكو ١٩٥٩. ص٥٣٦ - ٥٤٤

(١٢٤) نفس المصدر. المجلد الخامس (١ كانون الثاني - ١٩ تشرين الثاني ١٩٢٢). موسكو. ١٩٦١. ص ١٤٤ - ١٤٥، ٧٢٥ - ٧٢٦ وغيرها.

(١٢٥) مقتبس من مجلة «الشرق الجديد». باللغة الروسية. موسكو. الكتاب الاول. ١٩٢٩. ص ٣٤٨

لمجموعات متخلفة على المطابع وادارات صحف المعارضة.

لم تقتصر الحركة الاضرابية على عمال المطابع، بل انها شملت ايضا معلمي مدارس العاصمة وموظفي العديد من المدن. وارتفعت في كل مكان شعارات تطالب بالاصلاح. وقد بلغت الحركة الاحتجاجية اوجها في اواسط كانون الثاني ١٩٢٣. ففي الثامن عشر منه نظمت «الكتلة الوطنية» اجتماعا جماهيريا حاشدا ضد قوام السلطنة. كما بدأت في اليوم نفسه حملة واسعة ضده داخل المجلس تمخضت عن ارتفاع رصيد «الكتلة الوطنية» من ١٢ الى ٤٨ صوتا، بينما لم يقف الى جانب رئيس الوزراء سوى كتلة المدرس المتخلفة(١٢٦).

وهكذا اضطر قوام السلطنة الى تقديم استقالة وزارته يوم ٢٥ كانون الثاني ١٩٢٣، مما كان يعكس بوضوح عجز الاوساط التقليدية عن الاستمرار في تحمل اعباء المسؤولية في الظرف الذي ساد البلاد يومذاك، فجاء دور العناصر الليبرالية، وفي مقدمتها الملاكون المتبرجزون، ثانية، وظهرت ايضا امكانات جديدة امام رضا خان قربته من العرش اكثر فأكثر. ولكن، مع ذلك، لم تحن الفرصة بعد للقفز الى كرسي رئيس الوزراء بسبب معارضة اقصى اليمين واقصى اليسار له فتريث لفترة اخرى وترك المجال لمستوفي المالك، احد ابرز قادة الكتلة الوطنية، ليؤلف الوزارة الجديدة في ١٤ شباط.

بعد ان وزع مستوفي الممالك حقائب وزارته، فيما عدا الحربية منها التي بقيت بحوزة «صاحبها» رضا خان، على الساسة المعروفين بميولهم القومية من اعضاء «الكتلة الوطنية»، باشر ببعض الاصلاحات من قبيل اطلاق معظم الصحف التي بقيت محظورة وتخفيف الرقابة عليها، واصدار قوانين لتطوير التجارة ولفرض الخدمة الالزامية ولتعزيز السلطة المركزية في المناطق العشيرية. اما على صعيد السياسة الخارجية فان الوزارة الجديدة حسنت من علاقاتها مع موسكو ودخلت في مفاوضات تجارية معها وحلت خلافاتها مع شركات النفط الامريكية.

اثار كل ذلك استياء البريطانيين والرجعيين المحليين الذين بدأوا بالتحرك

---

(١٢٦) O. S. Melikov. Op. cit., pp. 51 - 56. S. L. Agayev. Op cit. pp. 109 - 110

المضاد من جانبهم. ففي ٢٠ اذار ١٩٢٣ انزل البريطانيون ٨٠٠ من جندهم في الموانيء الجنوبية. كما دبر عملاؤهم اغتيال عدد من قادة «الكتلة الوطنية»، مما اثار موجة عارمة من المظاهرات والاجتماعات للاحتجاج ضد الانكليز والرجعية المحلية الامر الذي خشي مستوفي الممالك وانصاره من تطوره، فاستغلت الرجعية ذلك واثارت معارضة قوية داخل المجلس بقيادة المدرس ضد الحكومة الى ان اجبرتها على تقديم استقالتها في اواسط حزيران ١٩٢٣. ولم يلعب الخلاف بين مستوفي الممالك ورضا خان الدور الاخير في اسقاط الوزارة، وكان الاخير قد اكتسب الى جانبه زعيم الكتلة الوطنية سليمان مرزا ووزير الخارجية في وزارة مستوفي الممالك ذكاء الملك (فروغي) الذي كان معروفا بميوله القومية.

ان رضا خان الذي لم يعر الضوابط الدستورية ادنى اهتمام لم يقدم استقالته، فبقي في مركزه الوزاري بصورة الية ضمن الوزارة الجديدة التي الفها مشير الدولة يوم ١٦ حزيران ١٩٢٣، وادخل فيها اثنين من الزعماء المعروفين بميولهما القومية هما الدكتور مصدق الذي عهد اليه وزارة الخارجية، وذكاء الملك (فروغي) الذي عهد اليه وزارة المالية. وقد اكدت الوزارة الجديدة في برنامجها على انها ستتبع «سياسة محايدة»[١٢٧]، بينما تبنت، في الواقع، سياسة اكثر يمينية من سابقتها.

لم تستكن الحركة المعادية للوجود البريطاني في ظل الوزارة الثانية لمشير الدولة، بل انها تطورت اكثر تحت تأثير زخم الحركة الوطنية العراقية التي تفجرت اثر محاولة الانكليز فرض معاهدة جديدة على الشعب العراقي ونفيهم لعدد من زعمائه الى ايران التي شهدت سلسلة من المظاهرات والاجتماعات الجماهيرية بلغ عدد المشركين في بعضها ٢٥ الف شخص طالبوا بمقاطعة البضائع البريطانية، وقد اضطر السفير لورين الى ترك مقر عمله في العاصمة طهران[١٢٨]. وهكذا فان بريطانيا «فقدت كل سمعتها في ايران» حسب اعتراف «تايمس» اللندنية في ٢١ اب ١٩٢٣.

---

(127) S.L. Agayev. Op. Cit., P. 117.

(128) Ibid PP. 119 - 123.

أحرجت الموجة الجديدة المعادية للبريطانيين موقف مشير الدولة فقدم استقالة وزارته يوم ٢٢ تشرين الاول ١٩٢٣ ورفض طلب الشاه ان يبقى في منصبه الى ان يتم جمع المجلس في دورته الخامسة، كما رفض عدد من كبار الساسة تأليف الوزارة الجديدة اذ لم يجرؤ احد منهم على المجازفة باستلام السلطة في مثل تلك الظروف الحرجة التي سادت البلاد. فلم يبق امام احمد شاه اختيار اخر سوى تكليف رضا خان بتأليف الوزارة الجديدة مع انه كان يدبر في الخفاء المؤامرات لابعاده عن الحكم حتى وقت قريب، لكنه، مع ذلك، اقتنع بانه هو الشخص الوحيد الذي بوسعه وضع نهاية للمد الثوري العارم الجديد[١٢٩]. وهكذا اثمرت جهود رضا خان وخططه وحان وقت انفراده بالسلطة في وقت كان اليمين في تراجع اثر ضرباته الجديدة له بحجة تدبيره لمؤامرة ضده[١٣٠]، كما كان المجلس معطلا فلم يكن بوسع المدرس وانصاره اثارة ضجة سياسية، اما الديمقراطيون فكانوا منقسمين على انفسهم وأضعف من ان يستطيعوا الحيلولة دون تفرده بالسلطة.

الحاكم المطلق:

في ٢٩ تشرين الاول ١٩٢٣ الف رضا خان اول وزارة له في تاريخ ايران فاصبح في افضل موقع يستطيع من خلاله تكريس كل شيء لتحقيق اهدافه. ومرة اخرى عرف كيف يعمل، كيف يفتت القوى، وكيف يكسب من يريد ويلفظ من يرغب.

ضم رضا خان الى وزارته الاولى مجموعة من القوميين الليبراليين من امثال سليمان مرزا والدكتور مصدق والصحفي المعروف صور اسرافيل[١٣١] وذكاء الملك وغيرهم واحتفظ بوزارة الحربية لنفسه واعطى حقيبتي وزارة الداخلية والبرق والبريد لاثنين من كبار القادة العسكريين القريبين منه. ودعا في اول برنامج لوزارته الى «ضمان حقوق الدولة» و «تنفيذ القوانين». وفي ١٢ تشرين الثاني اصدر بيانا مطولا حذر فيه من الاتصال بالاجانب[١٣٢].

---

(١٢٩) Ibid, p. 123

(١٣٠) كان السياسي الماكر قوام السلطنة من بين الذين اعتقلهم بهذه الحجة وقد اجبره على ترك البلاد.

(١٣١) اصدر جريدة بنفس الاسم منذ ايام الثورة الدستورية.

(١٣٢) حسين مكي، تاريخ بيست ساله ايران. جلد دوم. ص٢٩٧ ـ ٢٩٩.

منذ اليوم الاول لتسلمه منصب رئيس الوزراء خطا رضا خان الخطوات الاخيرة الضرورية لضمان تفرده المطلق بالحكم ولتكريس كل الطاقات لخدمة اسمه واهدافه. فقد اجبر الشاه على السفر الى اوربا واخذ تعهدا من ولي عهده بعدم التدخل في شؤون الدولة. كما ابعد اليمينيين عن المسرح، وحارب الديمقراطيين بنفس العزيمة وضمن الاكثرية لنفسه داخل المجلس. فقد بوشر بانتخابات الدورة الخامسة للمجلس في ٢ نيسان ١٩٢٣ في عهد رضا خان.

زاول اعوان رضا خان مختلف انواع اساليب الضغط والتزوير منذ اليوم الاول من الانتخابات حتى ان العديد من اللجان الرسمية التي عينتها السلطة نفسها للاشراف على سير الانتخابات قد استقالت احتجاجا. ففي كيلان، مثلا، ابعد مرشحو الجناح اليساري للقوميين ووزعت الاموال على الناخبين، وفي أردبيل دفع البسطاء للتصويت لمرشحي رضا خان تحت تهديد فرض الغرامة عليهم، وفي كرمنشاه منعت السلطات العسكرية العشائر الكردية غير الموالية من العودة الى مشاتيها لتحول دون اشتراكها في التصويت. وبهذا الاسلوب اصبح معظم اعضاء المجلس فى دورته الخامسة من انصار رضا خان فيما عدا نواب الجنوب والجنوب الغربي من البلاد. وكان اكثر من عشري اعضاء المجلس الجديد من المجتهدين وغيرهم من رجال الدين[١٣٣].

اذن فان الدورة الجديدة للمجلس كانت «اسوأ من جميع الدورات السابقة قاطبة» ذلك لان «روح الخلاف والتناقض والكذب والجبن والخنوع امام الاجنبي والانانية والاهتمام بالحساب الخاص والطمع وفقدان الايمان والادعاء الكاذب بالدين» كان «يسود الدورة الخامسة من المجلس اكثر بكثير من الدورات السابقة»، كما اكدت جريدة «شفق سرخ» (الشفق الاحمر) في تعليق لها نشرته يوم ٢١ نيسان ١٩٢٤ بمناسبة انتهاء الانتخابات.

ولكن سرعان ما غيرت «شفق سرخ»، مثل غيرها من الجرائد الليبرالية، لهجتها بعد ان انتقل جميعها الى خندق رئيس الوزراء الجديد رهبة او رغبة او

(١٣٣) O. S. Melikov. Op. cit., pp. 85 - 59

شراء. فقد بدأ رضا خان بالصرف على صحافة العاصمة بسخاء، وهي «لم تقصر» من جانبها فبدأت يوميا تدبج المقالات وتنشر القصائد في مديح «البطل المنقذ» و «القائد الفذ» و «رجل الساعة» و «أمل الشعب وملجئه» وأوصاف اخرى[١٣٤] بدأت ولم تنته الا بانتهاء رضا خان نفسه، فقد «نضجت الحماقة لديه» حقا!

بذل رضا خان عشية تسلمه رئاسة الوزراء جهودا اخرى لتحشيد القوى سياسيا حول شخصه. فقد وقع انشقاق داخل «الكتلة الوطنية» فالف الجناح اليميني منها الذي كان يضم الاوساط المرتبطة بالاقطاع والملاكين المتوسطين والصغار ممن وزعت عليهم الاراضي بعد انقلاب حوت، حزبا اسموه «تجدد» (التجدد) بزعامة سيد محمد تدين وقد تحول الى حزب رضا خان. اما الجناح اليساري للكتلة فقد الف قسم منه تنظيما جديدا بزعامة سليمان مرزا عرف باسم «حزب الاشتراكيين» فيما انضم الاخرون الى اليمينيين. ولكن لم يتجاهل رضا خان، كما لاحظنا، حقيقة ما كان يتمتع به الجناح اليساري للكتلة الوطنية من سمعة بين الناس فلم يقطع الاتصال بزعمائه في «مرحلة الحاجة» الى مساندتهم، ولاسيما لانم كانوا من اشد المعارضين للحكم القاجاري. وعلى هذا الاساس عهد حقيبة وزارة المعارف الى زعيم «الاشتراكيين» سليمان مرزا كما مر بنا. وكرئيس للوزراء احكم رضا خان كامل سيطرته على اهم المراكز الحكومية وفي المقاطعات.

بعد كل ذلك حان الوقت المناسب لابعاد القاجاريين عن الحكم، مع العلم ان احمد شاه ادرك حقيقة نوايا رضا خان قبل سفره الاخير الى اوربا بفترة طويلة، فعبر عن شكوكه للدبلوماسيين الاجانب في طهران مرارا[١٣٥] ومن اجل اضفاء صبغة طبيعية على خطته ولكسب الرأي العام على الصعيدين الداخلي والخارجي كان على رضا خان ان يحول موضوع اسقاط الحكم القاجاري الى مطلب شعبي عام، فجند اعوانه لشن حملة واسعة لفضح

---

(١٣٤) D. N. Wilber. Riza. Shah. pp. 75 - 76

(١٣٥) Ibid. p. 70

مثالب القاجاريين على مختلف الاصعدة، الامر الذي تمخضت عنه حملة اخرى واسعة بدورها ركزت على اقامة نظام جمهوري في ايران على غرار جمهورية مصطفى كمال اتاتورك في تركيا.

تعود بدايات الحملة من اجل الجمهورية الى اواخر العام ١٩٢٣، وقد اتسعت بصورة خاصة عندما انتشر نبأ اتصالات أحمد شاه السرية بـ «اتحاد العشائر الجنوبية» بزعامة الشيخ خزعل[١٣٦]. وفي بداية الحملة بدأت الصحافة تعير احمد شاه بصورة غير مباشرة وذلك بنشر المقالات عن «السلاطين والملوك غير الجديرين» وعن «واجب الحكام في حب الوطن والوفاء له» وما شابه تلك من مواضيع[١٣٧].

ومنذ شباط ١٩٢٤ بدات اسماء احمد شاه وولي عهده وملوك القاجار السابقين وصورهم تظهر على صفحات الجرائد بصورة مكشوفة. فنشرت مقالات عديدة تدين احمد شاه وولي عهده باهمال شؤون البلاد والعباد وباهتمامهما بحياتهما الخاصة التي «تتميزبالعربدة وقضاء الوقت في اللهو وفي النوادي الليلية» كما اكدت اكثر من جريدة واحدة ذكرت الايرانيين، في الوقت نفسه، كيف ان الحكم القاجاري لم يجلب لايران على مدى ١٣٠ عاما غير التخلف والعذاب.

وفي المرحلة التالية من الحملة بدأت صحافة طهران تضرب على الوتر الحساس لعواطف البسطاء. ففي عددها الصادر يوم ٩ اذار ١٩٢٤ نشرت جريدة «ستاره ايران» صورة لاحمد شاه محاطا بالاوربيات وفوق رأسه قبعة حديثة، ونشرت الجريدة تحت الصورة عبارة تقول:

«هل يستحق هذا الشاه الركوع امامه والدفاع عنه؟»

وفي ٣١ اذار كتبت الجريدة نفسها تقول «ان السلطان الشاب الذي فضل القبعة على تاج الكيانيين وحول قبلة المسلمين الى بؤرة للدعارة والفجور لم يكن ولن يكون جديرا بالسلطنة».

حاول اعوان رضا خان اضفاء طابع ديني على حملتهم من اجل

---

(١٣٦) M. S. Ivanov. Ochirk.... p. 308

(١٣٧) للتفصيل عن الموضوع راجع

O. S. Melikov. Op. cit., pp. 63 - 70. D. N. Wilber. Riza Shah, pp. 76 - 87

الجمهورية. فقد اكدت «ستاره ايران» في افتتاحيتها ليوم ٢٧ اذار ١٩٢٤ ان «النظام الجمهوري لا يتناقض في شيء مع روح الاسلام» وانه «لا فرق بينه وبين النظام الملكي الدستوري» الا في ان الذي ينتخب لرئاسة الجمهورية «لا يشترط ان يكون ابن محمد علي شاه او مظفر الدين شاه[١٣٨]» بل يكفي ان يكون وطنيا او عاملا نزيها». ونشرت غيرها من الصحف مثل «ايران ازاد» (ايـران الحـرة) مقـالات تحمـل عنـاوين من قبيـل «الاسـلام والجمـهوريـة» و«الجمهورية والمرأة» و «الجمهورية وقانون الانتخاب» وما شابه من مواضيع كانت تهم المواطن الايراني.

لم تقتصر الحملة من اجل الجمهورية على الصحافة وحدها، فقد شهدت العـاصمـة ومعظم المـدن الايـرانيـة مظاهرات صاخبة واجتماعات حاشدة تدعو بصوت واحد الى اعلان النظام الجمهوري. وانهالت على طهران برقيات من مختلف المنـاطق تطـالب بانهـاء الحكم القـاجـاري تلقفتهـا الصحافة ونشرتها تحت عنـاوين مثيـرة مع ان البـرقيـات نفسهـا كانت متشـابهـة في صيـاغتهـا ومحتواها، مما كان يدل بدوره على ان جهة واحدة تقف وراء الحملة كلها.

وفي الوقت نفسه ظهرت في الميدان مجموعة من الاحزاب «الجمهورية» تأسست لتوها من قبيل «الحزب الجمهوري» و«حزب الجمهوريين» و«الحزب الديمقراطي المستقل» وغيرها من التنظيمات التي وحدت جهودها مع «حزب التجدد» في الدعوة لاسقاط لقاجاريين وتأسيس الجمهورية.

وكان من الطبيعي ان تنتقل اثار الحملة بقوة الى داخل المجلس، وقد اتخذ الموضوع فيه طابعا اكثر جدية، الامر الذي كان يقلق بال رضا خان الى حد كبير ذلك لان مصير القاجاريين وكل النظام القائم كان يعتمد على القرار الـذي يتخـذه المجلس. وكـان ميـزان القـوى في الاخيـر يومـذاك على النحـو التالي: «حزب التجدد» - ٤٣ عضوا، اي الاكثرية، وكان يؤيده الاشتراكيون بزعامة سليمان مرزا ولهم ١٤ صوتا. اما جبهة المعارضة التي كانت تتألف من

---

(١٣٨) محمد علي شاه هو والد احمد شاه كان مكروها من الشعب جدا. وقد خلع عن العرش ابان الثورة الدستورية اما مظفر الدين شاه، خامس ملوك القاجار وجد احمد شاه، فقد كان من اضعف من تبوأ واعرش ايران. فتدهورت اوضاع البلاد في عهده الى حد كبير.

اقصى اليمين بزعامة المدرس فقد كان ينتمي اليها عشرون من اعضاء المجلس. واتخذ الاخرون موقفا «مستقلا» متذبذبا.

بدأت مناقشات حادة داخل المجلس مما كانت تنتهي في احيان كثيرة بالشتم والضرب، حتى ان زعيم «الجمهوريين» رئيس «حزب التجدد» ونائب رئيس المجلس محمد تدين قد اعتدى عى زعيم الملكيين المدرس بالضرب في احدى جلسات المجلس(١٣٩). ومن الجدير بالذكر ان هذا «التقليد البرلماني» لم يختف بسرعة. فقد وصف مراسل جريدة «ديلي تلغراف» اللندنية احد اجتماعات المجلس في اب ١٩٢٥ على النحو التالي:

«... وكان رئيس المجلس يدق الجرس باستمرار، ولكن ارتفع صوت الضجيج اكثر فأكثر... ثم قفز النواب من مقاعدهم واخذوا يجرون بعضهم، وفي هذه الاثناء جرّ احد المستخدمين الساخطين نائبا مشتبكا من عنقه وشده فوق المنصة لينتهي الاجتماع بذلك».

مع ذلك لم يكن من الهين على المجلس ان يتخذ قرارا نهائيا بالنسبة لموضوع الساعة الحساس، لاسيما لان اعضاءه كانوا يحسبون الف حساب لرجال الدين الذين ابدوا معارضتهم الصريحة للنظام الجمهوري على اساس انه يتنافى مع روح الشريعة، وشدد رجال الدين من موقفهم المعارض بعد القرار الذي اتخذه مصطفى كمال بصدد الغاء الخلافة في تركيا. وعندما علم هؤلاء بنية رضا خان اعلان الجمهورية عشية عيد نوروز، ٢١ ادار ١٩٢٤، وبما كا يجري داخل المجلس انزلوا مؤيديهم بدورهم الى الشوارع، فعقدوا اجتماعا حاشدا في ساحة بهارستان ضم حوالي عشرين الف شخص هتفوا ضد رضا خان والقوا عليه الحجارة عندما كان في طريقه الى بناية المجلس، فحاول رجال الشرطة تفريقهم بعد ان جرحوا واعتقلوا المئات منهم. واحتدم النقاش داخل المجلس بحضوره ولم ينته الا في العاشرة ليلا بعد مساومة جمعت الطرفين على صعيد واحد. فعندما هدد رضا خان بالاستقالة اقنعه قادة

---

(١٣٩) حسين مكي. تاريخ بيست ساله ايران. جلد دوم. ص٣١٨ - ٣١٩

المعارضة بالعدول عن قراره ووعدوه بمنحه كامل تأييدهم ضد احمد شاه في حالة تنازله عن شعار الجمهورية[١٤٠]، الامر الذي بدأ يميل اليه بدوره خاصة بعد ان اثارت الحملة من اجل الجمهورية مدا ثوريا جديدا في البلاد كاد ان يسلك مجرى يختلف كليا عن مراميه هو.

وبدأ الواعون يدركون فعلا ابعاد المسرحية على حقيقتها. فان الشاعرين ميرزادة عشقي وملك الشعراء بهار واخرين ممن وقفوا بحماس الى جانب رضا خان في البداية اصبحوا يحسون بما يجري خلف الكواليس، ولاسيما بعد ان بدا رضا خان بتوجيه ضربات ماحقة للحركة الديمقراطية ولزعماء وطنيين من امثال الشيخ محمد خياباني الذي ابنه ملك الشعراء بهار بمناسبة مقتله قائلا: ان الذين يدعون الدفاع عن ايران «يحاولون تخريبها. . . فلو فار دم خياباني لارتدت ايران عن بكرة ابيها كفنا احمر. . . ايها اليتيم المتأوه لاتبكِ فان الغد ات»[١٤١]

اما ميرزادة عشقي فقد ادرك ابعاد «الثورة المصطنعة» التي بدأ يكشف بعض جوانبها على صفحات جريدة «قرن بيستم» (القرن العشرون)، فاطلق «مجهولون» النار عليه واردوه قتيلا في الحال، وقد اشترك في تشييعه ما لايقل عن ثلاثين الف من مواطني العاصمة طهران التي شهدت، فضلا عن ذلك، مظاهرات جماهيرية تندد بالمجلس الخامس وبالوزراء الرجعيين، بل وبشخص رضا خان، ففتحت الشرطة النار على المشتركين فيها واعتقلت العديد منهم[١٤٢].

ولكن لم يثن شيء رضا خان الذي بدأ يخطو خطواته الاخيرة لفرض حكمه المطلق، ولكن بصولجان الشاه هذه المرة.

نحو العرش:

تأكد رضا خان انه لابد من مساومة كبار رجال الدين، ولو مرحليا، ان اراد تحقيق كل ما يريد، لا سيما بعد ان تردد المجلس في اتخاذ قرار بصدد مصير

---

(١٤٠) D. N. Wilber. Riza Shah. pp. 77 - 79

(١٤١) مقتبس من Sh. M. Badi. Op. cit., p. 145

(١٤٢) O. S. Melikov. Op. cit., pp. 77 - 78; D8 N. Wilber. Riza Shah, p. 87.

الحكم وترك الامر لمجلس تأسيسي يعقد بصورة خاصة لهذا الغرض، وبعد ان اخذ رصيد «حزب التجدد» داخل المجلس ينخفض بصورة ملحوظة.

بدأت بوادر المساومة الجديدة تظهر وتتطور بسرعة. فقد عاقب رضا خان جريدة «طوفان»، مثلا، لتهجمها على احد رجال الدين، وعاقب اخرى بسبب دعوتها للمرأة الايرانية الى القاء الحجاب «اسوة باختها التركية». وبعد مساومة المجلس بمباشرة افرج في الليلة نفسها عن جميع المتظاهرين المحتجزين الذين تعرضوا لشخصه(١٤٣)، ثم رأى فجأة «حلما سعيدا» «دعاه فيه الامام على الى الجنة»(١٤٤)، فتلقف «السماسرة» الخبر بسرعة ونشروه في كل مكان. وبعد كل ذلك شد رضا خان الرجال الى قم، على بعد ١٥٠ كم جنوبي طهران، حيث عقد اجتماعا مطولا مع كبار رجال الدين وتم وضع الاطار النهائي لصورة المساومة التي فرضتها طبيعة الاحداث والنيات. فما ان رجع من قم حتى نشر في الاول من نيسان عام ١٩٢٤ بيانا «الى جميع الايرانيين» ورد فيه ما يلي:

«ايها المواطنون: اثبتت التجربة ان على رجال الحكم ان لا يعترضوا على الرأي العام ابدا. وان الحكومة الحالية لم تبد اي اعتراض حتى اليوم على مشاعر الشعب في اي جزء من البلاد. كان هدفي منذ اليوم الاول، ولم يزل، هو صون عز الاسلام وخيره وحماية استقلال ايران ومصالح البلاد والامة. وكل من يخالف هدفي هذا يعتبر عدوا للوطن ويعاقب بشدة... انني شخصيا، والقوات المسلحة باسرها، على استعداد لحماية مجد الاسلام وصيانته... انني ارغب دائما في ان ارى تقدم الاسلام وعزه واكن اعمق احترام نحو رجال الدين. وعندما تشرفت بزيارة الضريح الطاهر لفاطمة في قم تبادلت الرأي مع رجال الدين فتوصلنا الى الاستنتاج ان من الافضل لخير البلاد

---

(١٤٣) D. N. Wilber. Riza Shah. pp. 76. 79

(١٤٤) P. Avery. Modern Iran. London. 1965. pp. 264 - 265

ان يوقف كل دعوة لاقامة الجمهورية، وان توجه الطاقات والجهود كلها لازالة العقبات التي تعرقل اصلاح البلاد وتقدمها، فادعو كل الامة للتعاون معي ومساعدتي بنشاط لتحقيق الهدف المقدس المذكور اعلاه، الا وهو تعزيز الدين وحماية استقلال الدولة وتأسيس حكومة وطنية مستقرة. لذا اقترح على جميع الوطنيين الحقيقيين وعلى جميع ابناء وطننا المقدس الكف عن المطالبة بالجمهورية وتوحيد جهودهم معي لتحقيق الاهداف التي ذكرناها والتي لا خلاف بيننا في فهمها»[١٤٥]

وبالمقابل نشر اربعون من كبار الساسة اليمينيين الذين كانوا يؤيدون الحكم القاجاري قبل ذلك بيانا اعلنوا فيه وقوفهم الى جانب رضا خان. ثم بدأت الحملة المضادة للجمهورية، فاجتهدت الاقلام الرخيصة نفسها التي ترقص دائما على انغام الطغاة لتصم بالكفر والزندقة كل من يرى في النظام الجمهوري سوى الشر والهوان، واذا بجميع الصحف والخطباء والمنظمات التي هتفت حتى الامس للنظام الجمهوري بصوت جهوري تحاول بعد مساومة قم ان تثبت وبالحماس نفسه ان ظرف ايران الخاص لا يسمح باقامة مثل ذلك النظام. فان جريدة «ستاره ايران» التي اجهدت نفسها كثيرا لاثبات افضلية النظام الجمهوري كتبت في عددها الصادر يوم الاول من نيسان تقول دون وجل او تردد:

«فلتكن الجمهورية، او ملكية دستورية أو أي شيء آخر، فحسبنا تحقيق هدفنا الذي هو اعلاء شأن ايران.

ولكن لم تنس الجريدة ان تختتم مقالتها بالقول «على اي حال يجب ان يعرف سيادة رئيس الوزراء (رضا خان - ك. م.) وكل وطنيي البلد ان حكم ايران عن طريق مثل هذا الشاه غير الجدير (تقصد احمد شاه - ك. م.) وولي عهده امر غير ممكن».

بعد ذلك باشر رضا خان مناوراته الاخيرة مع الجميع - المجلس ورجال الدين وانصاره ومناوئيه والانكليز والامريكان وغيرهم. ففي بداية ليلة السادس

---

(١٤٥) O. S. Melikov. Op. cit., p. 78: D. N. Wilber. Riza Shah. P. 79

من نيسان ١٩٢٤ اجتمع بمستشار السفارة البريطانية، وفي منتصفها اجتمع بعدد قليل من كبار الضباط المقربين منه ليجمع في صبيحة اليوم التالي الوزراء والنواب وممثلين عن الجيش ويتحدث لهم باسهاب عن خدماته، ثم يفاجأهم «بقراره القاطع» بالتنازل عن الحكم والاستقرار في النجف او كربلاء مادام هناك من يحيك الدسائس ضد اصلاحاته. وبعد «جهد جهيد» اقنعه الحضور بعدم ترك البلاد فقرر، نزولا عند رغبتهم (!)، الانتقال الى قرية قريبة من طهران. وترك العاصمة فعلا في منتصف نهار السابع من نيسان بعد ان بعث برسالة «وداع» وتحريض الى قادة الجيش في الجبهات اختتمها بالقول: «اودعكم الجيش واستودعكم الله»[١٤٦].

عقد المجلس في الحال اجتماعا متواصلا استلم اثناءه برقية من احمد شاه يعلن فيها عن سحب ثقته من رضا خان، فأجابه رئيس المجلس ببرقية تحمل تواقيع ٨٦ من النواب يؤكدون فيها مطلق ثقتهم برئيس الوزراء. وفي اقتراع سري جرى في اليوم نفسه صوت لرضا خان ٩٦ من اصل ١٠٠ عضو حضروا اجتماع المجلس حسب اعلان الصحف الايرانية، فألف المجلس في الحال لجنة وساطة لاقناع رضا خان بالعودة الى مقر عمله، لاسيما بعد ان توترت الاوضاع في البازار والشارع اثر اطلاق عملائه شائعات عن عودة الشاه من الخارج، وبعد ان انهالت برقيات قادة الجيش من الاطراف على العاصمة مؤكدين فيها «ان الثورة واقعة لامحالة اذا لم يرجع رضا خان الى مقره»، بل ان قائد القوات الغربية احمد آغا خان منح المجلس ٦٨ ساعة فقط ليقرر «التعاون مع قائد الجيش او عدمه» والا «فانه ورجاله» على اتم استعداد للزحف على طهران «من اجل ان يضحوا بدمائهم قربانا لمعلمهم وقائدهم»[١٤٧]. وقد رافقت كل ذلك حملة صحفية جد واسعة تطالب بعودة «البطل القومي» و «الابن البار للوطن» و «الانسان القدير الوحيد الذي انجبه

---

(١٤٦) D. N. Wilber. Riza Shah. pp. 81 - 82

(١٤٧) راجع نص البرقية في حسين مكي. تاريخ بيست ساله ايران. جلد دوم. ص٣٤٨ - ٣٤٩.

عصر الثورة والحركة الدستورية في ايران».

ذهبت اللجنة التي ضمت ١٢ عضوا، منهم مستوفي الممالك ومشير الدولة والدكتور مصدق الى رضا خان، وقد سبقهم اليه نبأ يقول: «ان المدافع والتهديدات قد اعطت مفعولها»(١٤٨)، فاستغل الامر كما يجب وناقش الموضوع مع الوفد من منطلق القوة والثقة، فأكد في النقاش انه شخصيا «يقدر خدماته التي قدمها لايران افضل من الجميع» وانه متأكد من «ان البلاد بحاجة الى خدماته لفترة اخرى». وبعد ساعات من النقاش المسهب وصل بيت القصيد حينما اكد للوفد «مالم يمنحني الشعب الايراني التأكيد التام بالتعاون معي من اعماق قلبه يكون من الصعب عليّ الاستمرار في تحمل المسؤولية... يجب ان اتأكد من مثل هذا التعاون قبل ان استعد لتجديد جهودي ومجابهة كل الصعاب»(١٤٩).

والترجمة الفعلية لاقوال رضا خان هذه كانت تعني رضوخ الجميع المطلق لارادته.

بعد عودته بايام الف رضا خان وزارة جديدة ادخل فيها مجموعة من الارستقراطيين المعروفين من امثال مشاور الدولة ومستشار الدولة ومحمد علي فروغي ومعتضد السلطنة،بينما ابعد منها الوزيرين الليبراليين سليمان مرزا والدكتور مصدق. وفي اب ضم الى وزارته الجديدة الزعيم البختياري المعروف سردار اسد.

اكد رضا خان في منهج وزارته الجديدة على ضرورة «تطوير العلاقات الطيبة مع الحكومات الصديقة» وعلى قضايا تتعلق بتطوير الجيش وتوحيد المقاييس والموازين ووضع سجلات للوثائق الرسمية وتأسيس شركة للطيران والاهتمام بالتعليم والصحة وما شابه. ودون تأخير باشر «بتنظيف» اجهزة الدولة من العناصر غير الموالية له، ولاسيما في جهازي الشرطة والقضاء.

استمرت المناورات وبدأت رائحة النفط تفوح في الاجواء من جديد.

---

(١٤٨) نفس المصدر، ص٣٥٣.

(١٤٩) D. N. Wilber, Riza Shah, pp. 83 - 84

فقبل «اعتصام» رضا خان بفترة وجيزة وقعت حكومته اتفاقية مع شركة سنكلر الامريكية منحتها بموجبها امتيازا لاستغلال نفط الشمال. وبمناسبة التوقيع على الاتفاقية عبر رضا خان عن امله في ان يفضي التعاون مع الشركة الامريكية الى ان تتخلص ايران من «السيطرة الاقتصادية لبريطانيا وروسيا»، واضاف يقول ان حكومته ستبذل من جانبها «كل ما هو ممكن لادامة الروابط الجيدة الحالية» مع الولايات المتحدة الامريكية و «يراودها الامل بان شعب الولايات المتحدة المخلص لتقاليده القومية في مساعدة الشعوب الاخرى سوف يستغل هذه الفرصة السعيدة ويمد لنا يد العون لبناء ايران مرفهة ومزدهرة»[١٥٠].

وقفت لندن، وكذلك شركة «ستاندرد اويل» الامريكية المتنفذة ضد الاتفاقية الجديدة باعتبارها غير قانونية لانه سبقت لايران ان منحت امتيازا مشابها لستاندرد اويل ثم الغته بدعوى مخالفة الشركة لنص الامتياز عندما اشركت معها شركة النفط الانكلو ـ أيرانية كما مرّ بنا. وقد تمكنت «ستاندريد اويل» التي تعزز موقعها بفوز الجمهوريين في انتخابات ١٩٢٠، من اثارة ضجة صحفية ضد ايران التي تصدت صحافتها للرد على الصحف الامريكية. ويهمنا هنا التصريح الذي ادلى به رضا خان لجريدة «ايران» بتاريخ ٢٤ شباط ١٩٢٤ والذي ذكر فيه ان الحملة الصحفية المتبادلة بين طهران وواشنطن لاتخدم سوى مصلحة البريطانيين الذين، يحاولون كما قال، «اصابة عصفورين بحجارة واحدة: التشهير بإدارتي وتشويه سمعة الامريكان في البلاد». ومن جانبه اوعز رضا خان بوقف الحملة، واغلق بعد يومين صحيفتين لاستمرارهما في التهجم على الولايات المتحدة[١٥١]. وفي ١٩ نيسان، اي بعد عودته مباشرة، عرض امتياز سنكلر على المجلس، وبعد يومين فقط استلمت حكومته مذكرة الاحتجاج البريطانية التاسعة عشرة[١٥٢].

لم يكتف رضا خان بذلك، بل انه منح الشركات الامريكية سلسلة امتيازات اخرى لبناء السكك الحديدية وطرق السيارات وغيرها داخل

---

(١٥٠) مقتبس من N.S. Fatemi, Oil Diplomacy. Powderkeg in Iran, New York, 1954, PP. 123 - 124.

(١٥١) Ibid, pp. 126 - 127

(١٥٢) Ibid, p. 129

ايران[١٥٣]. وفي خضم هذه الاحداث ثار الجنوب وثار الغرب ومن ثم قتل وكيل القنصل الامريكي روبرت ايمبري في احدى ضواحي طهران يوم ١٨ حزيران ١٩١٤[١٥٤]، وقد اختلفت المصادر في تحديد الجهة التي كانت تقف وراء حادث الاغتيال، ففيما تميل المصادر الايرانية الى اتهام القاجاريين، تورد مصادر اخرى ادلة مقنعة تثبت ان الانكليز كانوا وراءه، الامر الذي اكدته صحافة طهران ايضا في حينه. ومن المفيد ان نشير الى ان السفارة البريطانية رفضت اقتراحا لرضا خان يقضي بتأليف لجنة من جميع الاطراف للتحقيق بالموضوع[١٥٥].

ومن جانب اخر فتح رضا خان ابواب ايران من جديد امام المصالح الالمانية التي تمكنت بسرعة من استعادة مواقعها القوية التي كانت تحتلها في البلاد قبل الحرب العالمية الاولى[١٥٦].

وهكذا استمرت «لعبة جرّ الحبل الايرانية» الى ان التقت الاطراف الاساسية فيها عند النقطة الحاسمة. وقد جاءت الاشارة الاولى من وزير الخارجية البريطاني اللورد كرزن عندما اعترف في ايار ١٩٢٤ امام البرلمان بان سمعة بلاده في ايران قد تدنت كليا. لكنه اضاف قائلا: علينا ان نهادن «روح التمرد القومي» التي تفجرت هناك[١٥٧]. وبدأت المهادنة فعلا على صورة تراجع واضح امام طموحات رضا خان. فقد ترك البريطانيون الشيخ خزعل وغيره من حلفائهم وشأنهم، وسحبوا قواتهم الموجودة في دوزداب لحراسة خط السكة الحديدية هناك لتحل محلها قوات ايرانية، وفي اواسط ١٩٢٥ سلموا جميع دوائر البريد الموجودة في الموانيء الجنوبية الى وزارة البرق والبريد الايرانية، كما سحبوا حرسهم الخاص الذي كان مكلفا بحماية مؤسساتهم

---

(١٥٣) S.L. Agayev, Op. Cit., PP. 141 - 143.

(١٥٤) للتفصيل عن حادث الاغتيال راجع: D.N. Wilber, Op. Cit., PP. 87 - 89.

(١٥٥) ز. ز. عبدالله يف، بداية تغلغل الولايات المتحدة الامريكية في ايران. باللغة الروسية، موسكو. ١٩٦٣ ص٧٥ - ٧٧ S. L. Agayev, Op. cit., pp. 134 - 144; D. N. Wilber, Riza Shah, pp. 88 - 89.

(١٥٦) للتفصيل حول الموضوع راجع: س. ل. آكايف، الاستعمار الالماني في ايران، باللغة الروسية. موسكو. ١٩٦٩. ص١٤ - ٢٧.

(١٥٧) D. N. Wilber, Contemporay Iran, New York, 1961, p. 71

الدبلوماسية في مختلف انحاء البلاد(١٥٨).

جاءت خطوات الطرف المقابل بمستوى المساومة و «الحدث الكبير» الذي كان يعد له. ففي اب ١٩٢٥ اجرى رضا خان تعديلا وزاريا ادخل بموجبه نصرت الدولة وقوام الدولة في وزارته، وكلاهما كانا من اكثر ساسة ايران ارتباطا بالبريطانيين، لاسيما الاول منهما الذي لعب دورا كبيرا في عقد معاهدة ١٩١٩ بصفته وزيرا للخارجية في عهد وثوق الدولة واحد مفاوضي الجانب الايراني، وقد بقي مخلصا للمعاهدة وللانكليز حتى النهاية، الامر الذي اشارت اليه الوثائق البريطانية الخاصة مرارا(١٥٩). وقد أوكل اليه رضا خان حقيبة وزارة العدلية وعهد الى زميله قوام الدولة وزارة الداخلية. كما خفف رضا من حماسه لشركات النفط الامريكية الى حد كبير ووافق على توسيع اعمال شركة النفط الانكلو - ايرانية في الجنوب، ثم منح شركة طيران الامبراطورية البريطانية شبه الحكومية حق استخدام الاجواء الايرانية في رحلة جديدة ومهمة تبدأ من لندن وتمر بالقاهرة وتنتهي بكراتشي، هذا الخط الذي كان يؤلف حلقة وصل مهمة بين مستعمرات انكلترا والبلدان التي إنتُدِبَتْ هي لادارتها مع انتهاء الحرب العالمية الاولى، وكان بالامكان تحويله للخدمات العسكرية عند الضرورة. وبما ان اهداف هذا الخط كانت واضحة فان رضا خان اجرى المفاوضات بصدده بسرية تامة خشية ان يؤثر الامر على سمعته(١٦٠).

ومن المهم ان نشير الى ان رضا خان في لقاءاته الخاصة بالمسؤولين البريطانيين في تلك الفترة كان يتحدث بصراحة عن اعتماده على بلادهم. ففي تقرير سري بهذا الخصوص رفع في ٦ تشرين الثاني ١٩٢٥ الى وزير

---

(١٥٨) S. L. Agayev. Op. cit., pp 151 - 152

(١٥٩) (Documents on British Foreign Policy, 1919 - 1939), First Series, Vol. XII, pp. - 466 - 468, 698, 693 - 694, 727 - 728 etc.

(١٦٠) S. L. Agayev, Op. cit, pp - 186 - 187; M. S. Ivanov, Contemporary Iran. p. 64

الخارجية الجديد اوستن تشمبرلن اكد السفير لورين ذلك واضاف ان لديه «عوامل عديدة» تجعله متأكدا من ان رضا خان «مخلص فيما يذكر بهذا الصدد»[١٦١].

وضمن المخطط نفسه حاول رضا خان في الفترة نفسها اضفاء برود واضح على علاقات حكومته بالاتحاد السوفيتي[١٦٢]. وباسلوب ما تلقفت الصحافة الغربية ذلك وبدأت تتهم موسكو بموالاة احمد شاه القاجاري لدرجة ان وكالة تاس اضطرت الى ان تنشر بيانا بتاريخ ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٥ تؤكد فيه ان «الحكومة السوفيتية تتبع سياسة عدم التدخل المطلق في شؤون ايران وتحتفظ بعلاقات صداقة كاملة مع الحكومة الوطنية الايرانية التي يقف على رأسها رئيس الوزراء سيادة رضا خان»[١٦٣].

وكل ذلك كان يعني، في الواقع، ان الطريق اصبح مفتوحا امام رضا خان ليخطو خطواته الاخيرة نحو العرش، فبعد ان قضى على حركتي خزعل في عربستان وسمكو في كردستان، وبعد ان صفى العديد من خصومه، واثر زيارته للنجف وكربلاء اعلن رضا خان امام المجلس في الثامن من شباط ١٩٢٥ رغبته ثانية في ترك مهمته لعدم امكان استمرار التعاون مع القاجاريين حسب تأكيده، اما اذا اريد له الاستمرار في العمل حينئذ «يجب اعادة تنظيم موقعه»، وكان يقصد بذلك جعله القائد الاعلى لجميع القوات المسلحة، بما فيها جهاز الشرطة، المنصب الذي كفلته المادة ٥٠ من الدستور لشخص الشاه وحده. وقد منح رضا خان المجلس مهلة اربعة ايام فقط، فاذا لم يتخذ في الوقت المحدد الاجراء المطلوب حينذاك يضطر الى ان «يشكو امره» للشعب الايراني![١٦٤].

---

(١٦١) Documents on British Foreign Policy 1919 - 1939» Series IA Vol I London, 1966, P 806.

(١٦٢) S L Agayev, op cit, pp 187 - 188

(١٦٣) «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي»، باللغة الروسية، المجلد الثامن، ص٦٣٤ - ٦٣٥

(١٦٤) D N Wilber, Riza Shah, pp 91 - 99; O S Melikov, Op cit, pp 87 - 95; M S Ivanov, Contemporary Iran, p 64

وفي اليوم المحدد، ١٢ شباط،اصدر المجلس قانونا يتألف من مادة واحدة ينص على مايلي:

«يقر المجلس حصر كل القيادة العليا لجميع قوى الدفاع والامن بيد رضا خان سردارسبه الذي يمنح كامل الصلاحيات لانجاز واجباته في حدود الدستور وقوانين الدولة المرعية ولا يجوز تجريده من هذه الصلاحية دون موافقة المجلس».

يعتبر المؤرخ الايراني عبدالله رازي الاجراء الاخير لرضا خان «كأول خطوة عملية على درب خلع الاسرة القاجارية»[١٦٥]. وكان الامر هكذا فعلا ففي ١٧ شباط زار رضا خان المجلس وشكر اعضاءه على «قرارهم» وبعد ان اكد للمرة الالف ماقدمه من خدمات «لصالح الوطن والامة» برر خطوته الاخيرة هكذا. «بالرغم من جميع ما جرى بصدد عودة صاحب الجلالة... الا انه لم يعد لحد الان، لذا اتخذت في الاونة الاخيرة بعض الاجراءات الاضافية حتى يعود جلالته من سفرته الطويلة باسرع مايمكن». وبالطبع لم يكن رضا خان يقصد من اقواله هذه ومن غيرها التي كانت تتلقفها صحافة العاصمة في الحال، سوى إظهار احمد شاه امام الملأ كإنسان لايهمه مصير الوطن والشعب. ومن اجل ان «يثبت» صدق ما يقول اقترح رضا خان في اليوم نفسه تأليف لجنة تضم ١٢ من اعضاء المجلس لمعاونته في الحكم بينما عمم في الثالث من ايار امرا على جميع دوائر الدولة يقضي بان يخاطب في المراسلات الرسمية بلقبه الجديد - بهلوي. ومند ذلك الوقت بدات بعض الصحف تذكر اسمه مع لقب «صاحب الجلالة»، ولم يكن ذلك سوى تجسيد لامر واقع ظهرت بوادره من قبل عندما بدأ كبار المسؤولين والاعيان يتجاهلون احمد شاه وولي عهده في الاحتفالات الرسمية ويحيطون رضا خان بالتبجيل والتقدير علنا[١٦٦] وفي ٨ حزيران سافر صاحب الجلالة غير

---

(١٦٥) عبدالله رازي، تاريخ ايران از زمان باستان تاسال ١٣١٤ شمسي - هجري، تهران، ١٣١٨، ص٧٧٠.

(١٦٦) Percy Sykes. A history of Persia, vol. II, London, 1963 pp.545 - 546.

المتوج الى اذربيجان وزار العديد من مدنها واتصل طوال حوالي شهرين بالمتنفذين فيها كجزء من خطته لتحشيد القوى حوله من اجل جولته النهائية.

وبعد كل هذا التمهيد بدأت حملة جديدة وواسعة ضد الاسرة القاجارية وضد شخص احمد شاه وولي عهده وغيرهما حتى لايبقى شخص واحد من العائلة المالكة يكون جديرا بعرش ايران. وظهرت هذه المرة اعلانات وملصقات جدارية ليلية كانت تحمل اسماء جمعيات ومنظمات مختلفة من قبيل «جمعية قوميي ايران»، حاولت جميعها ان تثبت، كما كان يرد في عناوينها البارزة، ان «الاسرة القاجارية ممقوتة» وان احمد شاه «يتسكع في فنادق اوربا وملاهيها» وان ما قدمه الحكم القاجاري لايران على مدى قرن ونيف لايعادل «ماقدمه رضا بهلوي لها خلال اربع سنوات فقط».

لم تفقد القوى التقليدية مع ذلك مواقعها وتأثيرها نهائيا. فقد تمكنت ان تثبت وجودها حتى في تلك الايام العصيبة بالنسبة لها، اذ استغلت نبأ عودة الشاه وازمة الخبز لاثارة قلاقل خطيرة في البلاد. ففي ١٦ ايلول ١٩٢٥ تلقى رئيس الوزراء برقية من احمد شاه يخبره فيها عن عودته قريبا الى «ايران العزيزة» وعن «غاية امتنانه» لانه سيكون «قادرا في القريب» على ان «يناقش الامور مع فخامته» شخصيا.

بعد ثلاثة ايام رد رضا خان باسلوب لم يخل من استهزاء: «حملت البرقية المباركة انباء طيبة من جلالتكم. قوبل نبأ عودتكم الميمونة، وبخاصة قرار تنفيذها العاجل، بالغبطة. التماسي هو ان نعلم امركم السامي عن الميناء الحدودي الذي يتشرف بمقدمكم. رضا»[١٦٧]. انتشر النبأ بسرعة بين الناس. وقد صادف ذلك ازمة خبز حادة في العاصمة جراء الجدب الذي حصل في الموسم الزراعي الاخير والذي ادى إلى ان «يموت الناس افواجا في الطرقات» حسب تعبير جريدة «شفق سرخ» في عددها الصادر يوم ٢٨ كانون الثاني ١٩٢٦. وكان سعر الخبز قد ارتفع لشحته بمعدل ٢٠٪ على اقل تقدير[١٦٨]، الامر الذي استغله اعداء رضا خان من اليمين المتطرف، فقاموا بتنظيم مظاهرات عنيفة يومي ٢٣ و ٢٤ أيلول رفع المشتركون فيها شعار «الشاه

---

(١٦٧) D. N. Wilber, Riza Shah, pp. 104 - 105

(١٦٨) O. S. Melikov, op. cit., p.97

والخبز»، واحتلوا حديقة المجلس، وهاجموا الدوائر الحكومية، ثم اقام حوالي ١٧٠ منهم «بستاً»[١٦٩] في باحة السفارة السوفيتية اضطروا الى تركها بعد ثلاثة أيام تحت ضغط مسؤولي السفارة[١٧٠].

استغل رضا خان هذه الاحداث لوضع اللمسات الاخيرة على خطة خلع الاسرة القاجارية. فقد اعتقل ما بين ٨٠٠ و ٩٠٠ من الساسة الذين كان معظمهم من اشد المتحمسين للحكم القاجاري. واعاد منصب الحاكم العسكري الذي اضطر لالغائه قبل ذلك بفترة وجيزة،كما بدأ بتحريض انصاره في مختلف انحاء البلاد التي شهدت سلسلة من المظاهرات المعاكسة.ففي تبريز مثلا نظمت مسيرات واجتماعات واسعة بعث المشتركون فيها ببرقيات الى المجلس واعضائه والى رئيس الوزراء والزعماء السياسيين في ٤٤ مدينة يعربون فيها عن تاييدهم المطلق لرضا بهلوي وعن احتجاجهم الشديد على قرار عودة الشاه ويؤكدون قطع صلاتهم بالعاصمة وقرارهم لجمع المتطوعين للزحف عليها. وفي اصفهان اغلقت الحوانيت والدوائر الحكومية ابوابها. وفي طهران عقد التجار «بستا» امام دار رئيس الوزراء وفي المدرسة العسكرية ودعوا الايرانيين الى قلب الحكم الايراني وتاسيس حكم «ملكي» منتخب مكانه. وانضمت الى البست جماعات كثيرة منها «المجموعة الزرادشتية» و«المجموعة الارمنية» و«المجموعة اليهودية» و«التجار الشباب» والاصناف المختلفة. وظهرت النشرات الليلية من جديد وقد بدأت تطالب هذه المرة صراحة بخلع احمد شاه واختيار رضا بهلوي مكانه. وكل هذه النشاطات سواء في العاصمة او في المدن الاخرى كانت تجري تحت اشراف ما عرف

---

(١٦٩) «بست» كلمة فارسية تعني العقد او الانعقاد، وقد تحول الى مصطلح يدل على الاعتصام فبموجبه كان الخارجون على القانون والمحتجون وغيرهم يعتصمون في الاماكن المقدسة والمؤسسات التابعة للسفارات الاجنبية وغيرها دونما ان يطاولهم القانون، وقد تحول الـ «بست» الى احد المظاهر الاساسية للنضال ضد الشاه ايام الثورة الدستورية.

(١٧٠) «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي»، المجلد الثامن. ص٨٠٦

بـ «لجان الحركة الوطنية»(١٧١). وفي هذه الفترة نشر حزب التجدد منهاجه(١٧٢) الـذي وردت فيـه شعـارات واهـداف كثـيرة كانت ايـران بامـس الحاجـة اليهـا يومـذاك، من قبيـل اصـلاح الجهـاز الاداري والقضـائي وتطـوير التعليم ومنح حريـة الكـلام والصحـافـة والاضـراب. ووضـع قانـون جديـد يعتمد الإقتراع السـري والتصـويت العـام اسـاسـا لانتخـابـات المجلس. والاهتمام بالتجارة والصناعة والزراعة. ومنع التلاعب بقوت الشعب. وتوزيع الاراضي الاميرية على الفلاحين واصدار القوانين لتنظيم علاقاتهم مع الملاكين على «اساس عادل» وتحديد ساعات العمل بالنسبة للعمال بثمان فقط. وقد جاء كل هذا «السخاء» من جانب حزب رضابهلوي على اوراق صفحات الجرائد من اجل نقطـة اساسية وردت في منهـاجـه والتي كانت تطـالب بـ «اعادة النظـر في الدستور من قبل مجلس تاسيسي»، مما كان يعني تغيير نظام الحكم صراحة.

وبعد ان هيأ رضا بهلوي الجو على الصعيدين الداخلي والخارجي بذكاء يشهد له الجميع اراد ان يتاكد نهائيا من موقف الانكليز قبل ان يضع التاج فوق راسه. ففي اواسط تشرين الاول ١٩٢٥ اجرى وزير خارجيته مرزا حسن مشاور لقائين مع السفير البريطاني في طهران حاول خلالهما ان يتاكد مما اذا كانت الخارجية البريطانية هي التي حرضت الشاه على العودة الى البلاد ام لا وليرى ما هو الحل المقبول «للازمة السياسية» الايرانية في نظر البريطانيين(١٧٣).

وجـاء الـرد البـريطـاني ذكيـا بدوره. ففي ٢٨ تشـرين الاول تسلم وزيـر الخـارجيـة الايـراني رسـالـة شفهيـة خاصة من تشمبرلن بواسطة السفير لورين يكذب الوزير البريطاني فيها الشائعات التي تشير الى مساندة بلاده لاحمد شاه (!!). وفي اللقاء نفسه اكد السفير للوزير الايراني ما ذكره تشمبرلن من

---

(١٧١) D. N. Wilber, Riza Shah, pp. 105 - 106, O. S. Melikov, op. cit., pp.99 - 100, S. L. Agayev, Op. cit., p. 108; (Contemporay Iran), p. 315.

(١٧٢) عن منهاج «حزب التجدد» راجع

O. S. Melikov, op. cit., pp. 97 - 98, M. S. Ivanov, Contemporary Iran, p. 65.

(١٧٣) (Documents On British Forreign policy, 1919 - 1939), Series IA, vol. I, pp. 763 - 764.

«ان حكومة صاحب الجلالة لاترغب في التدخل في الشؤون الداخلية لدولة اخرى صديقة» [١٧٤].

كان رد لندن واضحا بعث الاطمئنان التام في نفس رضا بهلوي. ولندع الكلام للسفير لورين ثانية. فقد اخبر تشمبرلن برقيا انه سلم رده الى وزير الخارجية مرزا حسن خان مشاور في ٢٨ تشرين الاول والتقى برضا بهلوي صبيحة اليوم التالي «فاطلع بدوره على الرد» فجاء تاثيره «ممتازا تماما وكان اختيار الوقت مناسبا» كما ورد نصا في برقيته. ثم يضيف الى ذلك قوله:

«وقد اكد رضا خان بانه عند موقفه من بياناته السابقة فيما يخص علاقات ايران بانكلترا . . . والتي ستعطي مفعولها حال تحرره من المشاكل الحالية»[١٧٥].

فلم يبق اذن سوى الاجراءات الشكلية الاخيرة لخلع القاجاريين. وهنا جاء دور رئيس «حزب التجدد» نائب رئيس المجلس محمد تدين الذي اثار الموضوع امام المجلس يوم ٢٩ تشرين الاول، اي بعد نقاء السفير البريطاني برضا بهلوي مباشرة. ففي ذلك اليوم قدم محمد تدين «نداء» وقعه ٧٦ نائبا يقولون فيه:

«بالنظر للاستياء من الاسرة القاجارية والذي بلغ حدا يهدد البلاد، وبما ان الهدف الاسمى للمجلس هو العمل لوضع نهاية للازمة (السياسية ـ ك.م.) باسرع ما يمكن نحن الموقعون ادناه . . . نقدم الاقتراح التالي ونطلب من المجلس اقراره:

«يعلن المجلس باسم الشعب [١٧٦] خلع الاسرة القاجارية ويعهد ادارة البلاد لسيادة رضا خان بهلوي وقتيا في اطار الدستور والقوانين المرعية».

---

(١٧٤) Ibid, pp. 764 - 765.

(١٧٥) Ibid, p. 765

(١٧٦) في النص: «باسم سعادة الشعب...»

وعندما جرى التصويت على مشروع القرار بعد يومين [١٧٧] لم يحدث داخل القاعة ما يتناسب مع خطورة القرار في شيء سوى ان المدرس ترك القاعة تفاديا للاشتراك في التصويت وان تقي زاده طالب بتاليف لجنة لدراسة مشروع القانون. ولكن ارتفع صوت رجل واحد مثالي مؤمن بما تعلمه في السوربون عن قدسية القانون وجلال الدستور فاعترض على القرار صراحة هو الدكتور مصدق الذي قدر له من بين الجميع ان يلعب دورا مشهودا في تاريخ ايران السياسي فيما بعد وبالتحديد في عهد ثاني واخر ملوك الاسرة البهلوية محمد رضا شاه.

صوت الى جانب مشروع القرار ٨٠ عضوا مقابل ٥ اعضاء فقط صوتوا ضده، فانتهى بذلك حكم القاجاريين لايران من الناحية الرسمية في ٣١ تشرين الاول عام ١٩٢٥. وقرر المجلس في الجلسة ذاتها اجراء انتخابات لمجلس تأسيسي يأخذ على عاتقه تحديد نوع الحكم في البلاد. وبعد ساعتين من اتخاذ القرار قام العسكريون بوضع الشمع الاحمر على ابواب مصر كلستان، مقر الشاه الشتوي الذي تركه ولي العهد مرتديا السواد، وقد جرى تسفيره بصحبة عدد من افراد اسرته في الليلة نفسها الى الحدود العراقية ووصل بغداد في ٣ تشرين الثاني، وبعد ان ادى مع والدته الزيارة للعتبات المقدسة ولقبور ملوك قاجار غادر العراق الى أوربا[١٧٨].

ما ان انتشر نبأ خلع احمد شاه في طهران حتى امتلأت شوارعها بالناس وبدأ اطلاق المدافع احتفاء بسقوطه. وفي اليوم نفسه زار اعضاء المجلس رضا بهلوي وهنأوه على «ثقة الشعب به»، وطلب منه محمد تدين باسم النواب الامان للقاجاريين واطلاق سراح المسجونين. وفي اليوم التالي اصدر رضا بهلوي اوامر تقضي باعلان عطلة رسمية لمدة ثلاثة ايام وبتخفيض سعر الخبز وبمنع بيع المشروبات الروحية، كما نشر بيانا بالمناسبة ذكر فيه:

---

(١٧٧) عن هذه المواضيع راجع:

D.N. Wilber. Riza Shah, PP. 106 - 107; O.S. Melikov, Op. Cit., PP. 102 - 105; M.S. Ivanov, Contemporary Iran, PP. 65 - 66.

(١٧٨) «العالم العربي» (جريدة)، بغداد، ٤ تشرين الثاني ١٩٢٥.

« لايخفى انـه قد مضى وقت منـذ ظهرت بين الشعب الايراني الحركة التي دلت على نفوره وسخطه على حكم العائلة القاجارية وكانت رغبة الشعب في اسقاط هذه العائلة وخلعها تشتد من يوم الى اخر. وقد اشتد هذا السخط وذلك النفور الى درجة حصل معها عدة حوادث اضطراب في عاصمة البلاد وصار الموقف حرجا يخشى معه اذا اهملت هذه الحركـات حدوث ثورة هائلة لها نتـائجهـا الفظيعـة » . وبعد ان وضع بعض النقاط على الاحرف بصورة غير مباشرة بهذا الاسلوب ادعى الشاه الجديد انه التـزم «جـانب الحيـاد التـام اثناء هذه الحركات احتراما للرأي العام ورغائب الاهالي وشعـورهم ولكي يكـون للجمهـور وللمجلس الـوطني مطلق الحـريـة في التـدبر في مصـالـح الامـة وتكييفها» . واختتم بيانه قائلا : «اني واثق من ان جميع الصادقين في وطنيتهم يؤيدونني في حماية مصالح الجمهور»(١٧٩) .

وفي ٣ تشـرين الثـاني ١٩٢٥ نشـر في طهـران قانـون انتخـاب اعضاء المجلس التأسيسي الـذي لم يختلف عن قانـون انتخـاب البـرلمـان ، وبعـد يومين عين رضـا بهلوي بصفته رئيس الدولة المؤقت وزير ماليته رئيسا للحكومة الجديدة التي اشرفت على انتخابات المجلس المذكور. وبالرغم من محاولات رضا بهلوي اضفاء صبغة ديمقـراطيـة على الانتخـابـات الا انهـا جرت باسلوب يضمن له الاكثـريـة المطلقـة وبسـرعـة جلبت انظـار الصحـافـة الاجنبية . ذلك لان الانتخابات السابقة ، بما فيها الانتخـابـات الاخيـرة لمجلس النواب التي جرت باشرافه ، كانت تستغرق في العادة مدة سنة واحدة ، بينما لم تستغرق انتخابات المجلس التأسيسي الجديد سوى اربعة اسابيع مع ان «الامة الايرانية انتخبته برمتها» كما ادعى رضا بهلوي شخصيا(١٨٠) .

إفتتـح رضـا بهلوي المجلس التأسيسي يوم ٦ كانـون الاول «بابهة ملكية» حسب وصف جريـدة «العـالـم العـربي» في عددهـا الصادر يوم ٩ كانون الاول ١٩٢٥ . وقد استمرت مداولات المجلس لمدة ستة ايام ناقش الاعضاء خلالها قضايا صورية من قبيـل تحـديد لقب رضا بهلوي بان يكون مجرد شاه ام شاهنشاها «ملك الملوك»(1) . ثم اصـدر المجلس في ١٢ كانـون الاول قانـونا يقضي بانهاء حكم الاسرة القاجارية

---

(١٧٩) «العالم العربي» ، ٧ تشرين الثاني ١٩٢٥ .

(١٨٠) حسين مكي ، تاريخ بيست سالـه ايـران ، جلد سوم ، تهـران ، ١٣٢٥ ، ص٤٨٤ ، «العالم العربي» ، ٩ كانون الاول ١٩٢٥ .

وحرمان جميع افرادها من حق الادعاء بالعرش الايراني في المستقبل و«بانتخاب» رضا خان بهلوي شاها جديدا على ايران باغلبية ٢٥٧ صوتا وامتناع ثلاثة فقط عن التصويت هم سليمان مرزا واثنان اخران من زملائه «الاشتراكيين»، وقد اعلنوا انهم مع اختيار رضا بهلوي لكنهم يعترضون على اقامة نظام ملكي وراثي لانه «لايتفق مع المباديء الاشتراكية»[١٨١].

ادى رضا شاه بهلوي اليمين الدستورية يوم ١٥ كانون الاول عام ١٩٢٥ بحضور الوزراء والنواب واعضاء المجلس التأسيسي وكبار العسكريين والوزراء ورؤساء الوزراء السابقين. وفي اليوم التالي دخل قصر كلستان كأول ملك بهلوي، وفي ١٩ كانون الاول كلف فروغي بتأليف اول وزارة في العهد الجديد. وبعد ان امضى رضا شاه في التمعن في ملابس ملوك أوربا اثناء تتويجهم وقع اختياره على زي نابليون بونابارت الذي اجرى بعض التعديل عليه[١٨٢] ثم لبس التاج الشاهنشاهي يوم ٢٥ نيسان ١٩٢٦ في حفل مهيب حضره، فضلا عن كبار المسؤولين الايرانيين، جمع غفير من الدبلوماسيين والصحفيين، والقى خلاله خطابا لم يختلف في محتواه عن خطبه السابقة.

صدى الحدث عالميا:

تلقفت الاوساط الدبلوماسية والصحافة العالمية انباء التغييرات التي شهدتها ايران منذ اواخر تشرين الاول ١٩٢٥ وعلقت عليها من منطلقات مختلفة، ولكن ما يهمنا اكثر من غيره هنا هو الموقف البريطاني الرسمي المعلن وغير المعلن من «الحدث الكبير» بعد وقوعه. ففي الفترة الواقعة بين يومي ٢٩ تشرين الاول و٢ تشرين الثاني ١٩٢٥ بعث السفير لورين عددا من البرقيات المستعجلة الى شخص وزير الخارجية تشمبرلن يخبره فيها بتفاصيل الاحداث الايرانية حال وقوعها. وقد اخبر تشمبرلن في احداها عن «الرغبة الملحة (للنظام الجديد ـ ك. م.) في ان تكون حكومة صاحب الجلالة اول حكومة اجنبية... تعترف به»[١٨٣]. وقد رد الاخير على ذلك بالقول:

«من المعلومات التي وصلت يبدو ان الثورة كانت منظمة كليا ولم تسبب اي ضرر للمصالح البريطانية. والى هذا الحد فان الاحداث لا تجري في اي اتجاه مخالف

---

(١٨١) D. N. Wiiber, Riza Shah, p. 107

(١٨٢) الدكتور عبدالسلام عبدالعزيز فهمي، تاريخ ايران السياسي في القرن العشرين، القاهرة. ١٩٧٣، ص ٦٠ ـ ٦١.

(١٨٣) (Documents on British Foreign policy, 1919 - 1939), Series IA, Vol. I, p. 775.

لوجهـات نظـر حكـومـة صاحب الجـلالة» . ثم يطلب الوزير من السفير ان يخبر رضا بهلوي عن استعـداد حكـومتـه «لـلاعتـراف بالنظام الجديد» حال «اعترافه من جانبه بجميع المعاهدات والاتفاقيات المعقودة بين البلدين مع ما يترتب عليها من التزامات»[١٨٤] .

وهكـذا اعتـرفت لنـدن رسميا بالنظام الجديد يوم ٣ تشرين الثاني . وفي تعليق له حول ذلـك ذكـر لورين لتشمبـرلن في برقيـة بعثهـا له في اليوم نفسه : «ان موقف رضا خان تجـاهي كان وديـا للغـاية ، وان اجراءكم (يقصدالاعتراف بالنظام الجديد ـ ك . م .) ترك اثرا عميقا عليه»[١٨٥] . وفي نفس اليوم ايضا ابلغت السفارة البريطانية وزارة الخـارجيـة الايـرانيـة عن «قـرار الحكـومـة العراقية» بعدم اخذ الرسوم من الحبوب المصدرة الى ايران عبر اراضيها[١٨٦] ، الامر الذي كان في غاية الاهمية بالنسبة لايران التي عانى انتـاجهـا من الحبـوب من نقص كبيـر في المـوسم الـزراعي ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ ، ممـا اجبـرهـا حتى على شراء كميـات كبيـرة من الحبـوب من الاتحـاد السوفيتي فضلا عن الكميات التي تبرع بها الاخير[١٨٧] .

بدأت الصحـافـة البـريطانية من جانبها بنشر العديد من المقالات في مديح رضا شاه الـذي وصفـه احـد المحـاضرين امام «الجمعية الاسيوية المركزية الملكية» في لندن بـ «الـرجـل القـوي الذي تحتاجه ايران» ، الرجل الذي «قدم لبلاده قبل تسنمه للعرش اكثر مما قدمه لها غيره على مدى ثلاثة اجيال مضت»[١٨٨] .

اعترف الاتحاد السـوفيتي في الرابع من تشرين الثاني بالنظام الجديد في ايران ، فيكـون بذلـك ثاني دولـة بعـد انكلترا تعترف بالعهد البهلوي . وفي الوقت نفسه ابلغ الـوزيـر المفـوض السوفيتي لدى طهران ك . ك . يورنييف رضا شاه قرار حكومته برفع تمثيلها الدبلوماسي لدى ايران الى درجة سفارة[١٨٩] .

بعد ذلك توالت اعترافات الدول الاخرى على طهران . ففي خلال الايام الثلاثة

---

(١٨٤) Ibid

(١٨٥) Ibid, pp. 776 - 777

(١٨٦) S. L. Agayev, Op. Cit., p. 190

(١٨٧) مقتبس من S.L. Agayev, Op. Cit., PP. 191 - 192 «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي» ، المجلد الثامن ، ص ٥٤٨ , ٩٣٤ ؛ «الاستقلال» (جريدة) ، بغداد ، ٨ تشرين الاول ١٩٢٥ .

(١٨٨) مقتبس من S. L. Agayev, op. cit., pp. 191 - 192

(١٨٩) «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي» ، المجلد الثامن ، ص٧٠١ .

التـاليـة، من ٥ لغـايـة ٧ تشـرين الثـاني، اعتـرفت كل من المانيا وايطاليا وبلجيكيا والـولايـات المتحدة الامريكية على التوالي بالنظام الجديد. ومن بين الدول الكبرى تأخر فقط اعتراف فرنسا نسبيا وذلك بسبب خلاف سبق ان وقع بينها وبين ايران حول موضـوع امتيـاز شركـة الطيـران الفـرنسيـة، مع ذلـك فان الخارجية الايرانية تسلمت أعتراف باريس بتغيير الحكم في طهران يوم ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٥[١٩٠].

صدى احداث ايران في العراق:

لم تجد احداث ايران خلال السنوات الأولى التي اتبعت الحرب العالمية الاولى صدى ملمـوسـا لهـا في العـراق وذلـك بحكم مجمـوعـة عوامـل معروفة منها انعدام صحافة رأي في البلاد يومذاك. فعندما وقع «انقلاب حوت» في ايران كان يصدر في العـراق عدد جد قليـل من الجرائد والمجلات تأتي في مقدمتها «العراق» - الجريدة الـوحيـدة التي كانت تصدر بصورة منتظمة[١٩١]. ولكن حتى «العراق» ظلت لفترة غير قصيـرة من الـزمن متخلفـة عن الـركب. فبـالنسبـة لانقـلاب حوت والاحـداث التي سبقتـه، مثـلا، كانت تنشر اخبارا متأخرة ومبتسرة للغاية ما كان بوسعها تقديم الحد الادنى من المعلومات الواضحة للقاريء العراقي عن الاحداث الايرانية، حتى تلك التي كانت لهـا علاقـة ما بالعـراق من قبيل انسحاب الخبراء والعسكريين البريطانيين من ايـران الى هنـاك او انتقـال ضياء الدين طباطبائي بعد سقوطه الى بغداد وما شاكل من مواضيع. وكانت تنشر، في الغالب، اخبار وزارة ايرانية ما او منهاجها بعد سقوطها بفترة غير مقبولة في عالم الصحافة[١٩٢]. لذا ليس بغريب ان اكدت جريدة «العراق» بكـل بسـاطة ان «موقف بريطانيا هو عدم التدخل في الامور الداخلية لايران» مع انها اقرت، في الـوقت نفسـه، ان «الحكومة البريطانية تراقب الاحوال الايرانية بانتباه لا مزيـد عليـه»[١٩٣]. وقـد تطـرقت جريـدة «الاستقـلال» البغدادية الى الوقائع الايرانية بصـورة افضـل[١٩٤]، الا انهـا اغلقت في التـاسـع من شباط عام ١٩٢١، اي عشية «انقلاب حوت» وما اعقبته من احداث خطيرة.

---

(١٩٠) S. L. Agayev, op. cit., pp. 190 - 191

(١٩١) فيما عدا الجرائد الانكليزية التي كانت تصدرها سلطات الاحتلال.

(١٩٢) راجع مانشرته جريدة «العراق» عن تأليف وزارة سبهدار اعظم بعد سقوطها بايام في عددها الصادر يوم ٢٨ شباط ١٩٢١ او عن منهاج وزارة ضياء الدين طباطبائي بعد نشره باكثر من اسبوعين في عددها الصادر يوم ١٩ اذار ١٩٢١ وعن تأليف وزارة قوام السلطنة في عددها الصادر يوم ١٠ حزيران ١٩٢١ وغير ذلك من الاخبار.

(١٩٣) «العراق»، ١١ و ١٥ حزيران ١٩٢٠.

(١٩٤) راجع على سبيل المثال: «الاستقلال»، ٣٠ كانون الثاني و٢ شباط ١٩٢١.

قطعت الصحافة العراقية في السنوات اللاحقة شوطا ما الى امام، فظهرت جرائد جديدة لها رأيها دونما ان تخضع كليا لارادة سلطات الاحتلال، لذا اولت الصحافة العراقية احداث ايران في اواسط العقد الثالث اهتماما اكبر بكثير من السابق، حتى ان بعضا منها نشرت تقارير صحفية عن الاحداث الايرانية اعدها الصحفيون العراقيون بانفسهم، منها تقرير كتبه الاستاذ عبدالرزاق الحسني عن زيارة رضا بهلوي للعراق قبيل توليه العرش نشره في جريدة «المفيد»[195]. وقد جلبت الاحداث التي رافقت اعتلاء رضا بهلوي للعرش الايراني انتباه الصحافة العراقية اكثر من غيرها. فان جريدة «العالم العربي»، مثلا، نشرت بصورة واضحة تفاصيل تلك الاحداث وعلقت عليها في بعض الاحيان. فقد تحدثت عن «خلع الاسرة الايرانية المالكة» وعن «احتجاج جلالة الشاه» وعوامل سقوط القاجاريين ومواضيع اخرى كثيرة تتعلق باحداث ايران في تلك الفترة[196].

اولت الصحافة العراقية شخصية رضا شاه اهتماما خاصا. فقد كرست جريدة «العالم العربي» افتتاحية عددها الصادر يوم ١٧ كانون الاول عام ١٩٢٥ لموضوع مفصل نسبيا تحت هذا العنوان: «الامة تنهض وتتقدم برجالها. رجل ايران العظيم». فأن «البطل البهلوي» حسب تعبير الجريدة «قد تمكن بحكمته وصولته وقوته من الجلوس على العرش الشاهي، وكان هذا المجد، بل هذا الملك ثمرة جهوده العجيبة وقد اكتسبه بعمله واستحقاقه» وعليه «سيقال ان جلالة البهلوي ليس من جملة بعض الملوك الذين يدعوهم التاريخ بالكسالى والبطالين» ذلك لان «جلالة البهلوي فريد عصره اليوم في ايران ونسيج وحده وقد خط لامته بقلم من حديد وعلى صحيفة من فولاذ خطة النهوض والسير فى سبيل التجدد والتقدم». ثم تختتم «العالم العربي» مقالها الافتتاحي بالقول «فالهنأ وكل الهنأ لجارتنا العزيزة امة ايران بنهضتها ورقيها وحصولها على ملك عامل وثابت في العمل»[197].

وقد بلغ اهتمام الصحافة العراقية بشخصية رضا شاه حد ان جريدة اسبوعية مثل «العالم المصور» التي قلما كانت تعير الاخبار السياسية اهتماما يذكر، كرست مقالة افتتاحية لـ «رجل ايران الحديدي» الذي «دحرج لسرة آل قاجار ورماها من شاهق، فاعاد الى الذاكرة حوادث التأريخ الماضية وذكر شباب طهران بابى الراعى نادر شاه

---

(١٩٥) مقابلة مع الاستاذ عبدالرزاق الحسني بتاريخ ٢/١٠/١٩٨٢.

(١٩٦) «العالم العربي»، تشرين الثاني وكانون الاول ١٩٢٥.

(١٩٧) «العالم العربي»، ١٧ كانون الاول ١٩٢٥.

وكيف انهى حكم الاسرة الصفوية . . ». ونشرت الجريدة صورة كبيرة لمؤسس الاسرة البهلوية في صدر صفحتها الاولى[١٩٨] . وبالاسلوب نفسه تحدث بعض المثقفين العراقيين عن رضا شاه في مؤلفاتهم. فمثلا انه كان واحدا من ابطال ثلاثة ظهروا في الشرق حسب راي الشاعر والصحفي، صاحب مجلة «اليقين» محمد الهاشمي[١٩٩] .

كان اهتمام الاوساط السياسية العراقية بالاحداث الايرانية التي اسفرت عن تأسيس الاسرة البهلوية بالمستوى نفسه، حتى ان ازدياد اهتمام الصحافة العراقية بالاحداث الايرانية في اواسط العقد الثالث كان بتشجيع من ياسين الهاشمي، احد رؤساء الوزراء العراقيين انذاك[٢٠٠] . ولم يكن مجرد صدفة ان بكر صدقي، زعيم اول انقلاب عسكري في العراق، كان متأثرا الى حد كبير بشخصية رضا شاه حسب اجماع المؤرخين.

التقييم:

مع ان حروف المعلومات التي وردت ضمن هذا البحث في غنى عن ان توضع فوقها النقاط الا ان هنالك بعض الحقائق التي يجب ان نأخذها بنظر الاعتبار عند التقييم النهائي لتأسيس الاسرة البهلوية في ايران، اولها ان الاحداث التي رافقته لم تكن عفوية، بل انها كانت تعبر عن مصالح محددة اكثريتها داخلية عكست تطورات وقعت في عمق المجتمع الايراني. فان تأسيس الاسرة البهلوية كان يعني، في الواقع، انتهاء حكم الارستقراطية التقليدية وظهور عهد جديد يعتمد اساسا على الملاكين شبه الاقطاعيين والبورجوازيين الجدد، التجار منهم اولا، الذين كانوا يؤلفون فئات اجتماعية جديدة ومؤثرة موقعها ايضا في اعلى الهرم الاجتماعي. ففي الظروف الاجتماعية والسياسية التي سادت ايران في الربع الاول من القرن العشرين كان الملاكون شبه الاقطاعيين والتجار يؤلفون القوة الاجتماعية الوحيدة التي بامكانها تسنم السلطة والقضاء على النظام القاجاري الاقطاعي. وان الاعمال التي حققها رضا خان

---

(١٩٨) «العالم المصور»، بغداد، ١٨ كانون الاول ١٩٢٥ .

(١٩٩) محمد الهاشمي، الابطال الثلاثة، بغداد. ١٩٣٧ . يقصد المؤلف بالابطال الثلاثة رضا شاه ومصطفى كمال اتاتورك والملك فيصل الاول.

(٢٠٠) مقابلة مع الاستاذ عبدالرزاق الحسني بتاريخ ٢/١٠/١٩٨٢ .

بهلوي بعد «انقلاب حوت»، في الفترة ١٩٢١ ـ ١٩٢٥، لاسيما قضاؤه على التسيب الاقطاعي وتقوية السلطة المركزية وحماية الاستقلال السياسي للبلد، دفعت بالاوساط المذكورة الى الالتفاف حوله اكثر فاكثر ذلك لانها، بحكم مصالحها، كانت مهتمة يومذاك اكثر من غيرها بتلك الاجراءات.

مع ذلك فان دور القوى الخارجية في تحديد مسار الاحداث الايرانية خلال العقد الثالث من القرن العشرين لم يكن قليلا. وهنا يستحق رأي المؤلف الايراني رضا اراسته بعض التأمل. انه يقول:

«من السهل ان ترى عن كثب ان المصالح البريطانية قد روعيت بصورة افضل (من السابق ـ ك. م.) عن طريق تعزيز القوى المحافظة المتطرفة، اي بواسطة احياء الدكتاتورية المبنية على التقاليد الايرانية مع الاستفادة نوعا ما من مؤسسات ادارية وقضائية غربية غير متماسكة ـ الحاجة التي لبيت بواسطة دكتاتورية رضا شاه»[٢٠١].

ولولا «فقدان» بعض حلقات الوثائق البريطانية الخاصة لكان بالامكان القاء ضوء اكثر على هذا الجانب من الموضوع. فكما ذكرنا في حينه ان العديد من البرقيات السرية المهمة للسفير هرمن نورمن لم تطبع سوى مقتطفات خاطفة منها في المجلد الثالث عشر من التسلسل الاول لوثائق السياسة الخارجية البريطانية[٢٠٢]. ويصح القول نفسه على تقارير خلفه السفير الجديد لورين. فهناك، مثلا، اربع برقيات غير مطبوعة بعثها لورين الى لندن في عز ايام الصراع الذي ادى الى سقوط القاجاريين[٢٠٣]، فضلا عن تقرير اخر مهم، على ما يبدو، ارسله الى تشمبرلن بتاريخ ٦ تشرين الثاني ١٩٢٥ والذي تحدث فيه السفير عن مداولاته الخاصة مع رضا شاه وتأكيد الاخير له اخلاصه التام للبريطانيين وثقته المطلقة بكلامه وما الى ذلك من مواضيع حساسة وردت في التقرير دون ان تنشر منه سوى نتف وردت في الهامش كتعليق على وثيقة اخرى اقل اهمية[٢٠٤].

---

(٢٠١) A. Riza Arasteh, in Collaboration with Josephine Arasteh, Man and Society in Iran, Leiden, 1964, P. 103.

(٢٠٢) راجع على سبيل المثال:

"Documents on British Foreign policy, 1919 - 1939", First Series, vol. XIII, pp. 539, 548.

(٢٠٣) Ibid, Series IA, Vol, I, p. 775

(٢٠٤) Ibid, pp. 805 - 806

وينطبق الشيء نفسه على الوثائق السوفيتية الخاصة. ففي الوقت الذي تعطي الوثائق المذكورة رايها صراحة في شخص ضياء الدين طباطبائي باعتباره رجل الانكليز في ايران[٢٠٥] نراها تتحفظ في ذكر شيء عن رضا شاه ضمن ما هو متوفر للتداول من الوثائق المذكورة. بينما بدأ السوفيت يهتمون بشخصية رضاه شاه بصورة خاصة بعد ان اصبح رئيسا للوزراء عام ١٩٢٣، الامر الذي لاحظه العديد من المتابعين[٢٠٦]. ويسود الاستشراق السوفيتي منذ البداية وحتى الان تقييمان متناقضان لشخصية رضا شاه احدهما ايجابي والاخر منهما سلبي[٢٠٧]

ومهما يكن من امر فان دور رضا المازندراني وشخصيته وذاته وطموحاته ومركزه كان كبيرا في تحريك الاحداث التي ادت الى سقوط الاسرة القاجارية وتأسيس الاسرة البهلوية الحاكمة في ايران.

وفي الاخير يجب ان نقر ايضا بأن الحدث بحد ذاته لم يؤلف تغييرا جذريا وشاملا في واقع اجتماعي وسياسي سائد مع ان رضا شاه لم يقدم القليل لايران، الا ان جانبا مما قدمه لها فرضته سنة التطور وقوانينه وحاجة الذين ساعدوه على تبوؤ العرش، كما ان اجراءاته الاولى اتسمت بطابع فوقي توخى منها الدعاية للعهد الجديد. فان قرار تخفيض سعر الخبز، مثلا، كان تقليدا قديما اتبعه العديد من ملوك ايران في ظروف مشابهة، ثم ان مفعوله لم يسر على جميع المناطق ولم يستمر طويلا في اي مكان. اما قرار منع تداول المشروبات الروحية فانه لم يؤد سوى الى رواجها في السوق السوداء، بينما لم يتخذ الشاه البهلوي اي اجراء ضد الافيون لان مئات التجار والملاكين الجدد من اعوانه كانوا يجنون اموالا طائلة من ورائه على حساب حياة الإيرانيين وغيرهم. ولم يجر رضا شاه تغييرا كبيرا في الجهاز الاداري السابق، حتى ان معظم القاجاريين بقوا داخل ايران واستمروا في خدمة العهد الجديد واحتفظوا، كالسابق، بجانب غير قليل من امتيازاتهم، بل ان عددا منهم اصبحوا يتمتعون في العهد البهلوي بنفوذ اكبر من العهد القاجاري حسبما يؤكد ليونارد بندر[٢٠٨].

---

(٢٠٥) «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي»، باللغة الروسية، المجلد الرابع، موسكو، ١٩٦٠، ص٧٨٦

(٢٠٦) G. Lenczwski, Op. Cit., p. 87

(٢٠٧) للتفصيل حول الموضوع راجع:

S. L. Agayev, Op. Cit., pp. 3 - 5; G. Lenczowski, op. cit.,

(٢٠٨) P. L. Bander, Iran. Political development in a Changing Society, California, 1962, pp, 67 - 88.

مع كل ذلـك فقـد بدأ عهـد جديد في تاريخ ايران بتأسيس الاسرة البهلوية ، عهد مليء بالاحداث ، جدير بالدراسة من جميع الاوجه .

الموضوع الخامس

حقائق عن «المؤسسة الدينية» في ايـران

«المؤسسة الدينية» في ايران (*)، من المواضيع الحساسة، والمهمة جدا، والتي تستحق اهتماما خاصا من لدن المختصين، فدون فهمها على حقيقتها يتعذر، دون شك، فهم الجوانب الاساسية من احداث ايران المعاصرة، ومحركاتها غير المرئية كما يجب.

قبل كل شيء، ومن اجل فهم واقع «المؤسسة الدينية» الايرانية، ولالقاء بعض الضوء على اداة التنفيذ بيد قمة هذه المؤسسة في ظروف ايران الخاصة نستعرض فيما يلي عددا من الارقام الاحصائية الضرورية:

حسب الاحصاءات الرسمية الايرانية كانت اللوحة او الخارطة الدينية لايران في اواخر العهد البهلوي على النحو التالي:

- بلغ عدد المسلمين حوالي ٣٤ مليون شخص (اي ٩٨٪ من مجموع السكان).
- بلغ عدد المسيحيين حوالي ٣٥٠ الف شخص كان اغلبهم من الارمن (حوالي ٢٨٠ الف) ومن الاثوريين النسطوريين (حوالي ٣٢ الف) وغيرهم.
- ٨٥ الف يهودي.
- وحوالي ٢٠٠ الف ينتمون الى طوائف وديانات اخرى.

وتؤلف الشيعة حوالي ٩٠٪ من مجموع مسلمي ايران، اما ١٠٪ الباقية فتتألف من المنتمين الى المذهب السني السائد بين قسم كبير من الاكراد والتركمان والبلوش

وحسب الاحصاء الرسمي العام الثاني بلغ عدد رجال الدين المحترفين في ايران عام ١٩٦٦ اكثر من ١٢ ألف شخص، ١٧٤ منهم كانوا من العنصر النسائي، وبعد سبع سنوات ارتفع الرقم الاول الى ١٥ ألف شخص. وفي العام ١٩٦٣ بلغ عدد المدارس الدينية في ايران ٢٢٩ مدرسة، تضم حوالي ١٤٠ ألف طالبا، كان اكثر من

(*) القي البحث في ندوة «ايران الحاضر والمستقبل» التي عقدها المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية بجامعة المستنصرية في نيسان عام ١٩٨١، وكان تعقيبا على بحث اخر قدمه السيد عميد المعهد الدكتور نزار عبداللطيف الحديثي.

٦ آلاف منهم في مدينـة قم وحـدهـا . يبلغ عدد المساجد في المدن الايرانية وحدها حوالي ٤٠٠ر٥ مسجدا يقع حوالي الف منها في العاصمة طهران و١٥٥ مسجدا في مدينة قم و٩٧ مسجدا في مدينة كاشان، واكثر من ١٥٠٠ مسجدا في المدن الواقعة وسـط البـلاد، هذا اضـافة الى عدد كبير جدا من المساجد الموجودة في ارياف ايران وقـراهـا (**) . ومن المهم ان نشيـر الى ان هذه المسـاجد والعاملين بين جدرانها كانوا مرتبطين مباشرة، ومن جميع الاوجه، ماديا ومعنويا، بقمة المؤسسة الدينية.

في السنوات الاخيـرة من عهد الشاه ارتفع عدد الحجاج والزوار الايرانيين بصورة ملموسة للغاية، الامر الذي لم يخل عن بعض التوجهات السياسية للقمة الدينية التي زاولت نشاطا واسعا بينهم بهدف ربط اكبر عدد منهم بنفسها. ففي العام ١٩٦٣ بلغ عدد الحجـاج الايـرانيين ١١ ألف شخص فقـط، ارتفـع عددهم خلال حوالي عقـد واحـد الى اكثـر من ٥٢ ألف شخص، وبعـد سنتين اخـرتين بلغ حوالي ٧٠ ألف شخص. وفي العـام ١٩٦٧ بلغ عدد زوار ضريـح الامـام رضـا في مشهد ٣٣٢ ألف شخص، وخلال خمس سنوات فقط ارتفع الرقم الى حوالي مليوني شخص ومن ثم الى ثلاثـة ملايين في العـام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ اي بنسبـة ١٠٠٠٪ . وقـد كرس لخدمة هؤلاء في مشهد عشرون فندقا واكثر من ٢٠٠ دار ومكتبة دينية ومستشفى ومتحف خاص.

تتمتع «المؤسسة الدينية» في ايران بامكانات اقتصادية هائلة تأتيها منذ زمن بعيد من الـوقف الخـاص والعـام الـذي لم يقتصـر على الارض الـزراعية وحدها بل امتد ليشمـل قنـوات الري والخانات والدور والدكاكين والحمامات وغيرها من الاموال غير المنقولة. ولتوضيح هذه النقطة نقتصر على ذكر مثلين نعتبرهما معبرين بهذا الصدد. فقد بلغ عدد قرى الوقف التابعة بصورة مباشرة الى كبار رجال الدين حوالي ستة آلاف قريـة قبـل قيـام محمـد رضا شاه باصلاحه الزراعي الاخير. وفي اواخر الستينات بلغ المورد السنوي لكبار رجال الدين في مدينة مشهد وحدها حوالي ٤٥٠ مليون ريال، وهو مبلغ ضخم للغاية حسب جميع المقاييس وكل الاعتبارات.

مَنَحتْ هذه القـوة الاقتصـاديـة الكبيـرة رجـال الدين امكانية ان يؤلفوا على طول تاريـخ ايـران (منـذ اواخـر العصـر الوسيط وفي كل العصرين الحديث والمعاصر) فئة

(**) تخص الارقام اواخر العهد البهلوي في ايران.

مستقلة عن الشاه والسلطة الى حد كبير، فانهم، كما ذكرنا، ماكانوا يأخذون الرواتب من خزينة الدولة، وكبار آيات الله ماكانوا على اتصال مباشر بالشاه، انهم عند الضرورة كانوا يدعون اليهم من يريدون من كبار المسؤولين ويسلمونه مايريدون ليقوم بايصاله الى الشاه، وكان يستثنى من ذلك في العقود الاخيرة امام الجمعة في مسجد الشاه بطهران الذي كان يعين من قبل الشاه ويأخذ راتبا منظما من خزينة الدولة كأي موظف اخر.

ومما زاد من نفوذ «المؤسسة الدينية» بين الايرانيين انها ظلت تسيطر لغاية العقود الاولى من القرن العشرين على الجانب الاساس من السلطة القضائية، فأن النظر في كل ماكان يتعلق بحياة الناس، فيما عدا قضايا السرقة والقتل والتمرد، كان من اختصاص كبار رجال الدين الذين كانت احكامهم قطعية لايحق لاحد التدخل فيها سوى مرجع ديني اعلى. وينطبق القول نفسه على مسألة التعليم ذات المردود الفكري الكبير. فلغاية العقد الثالث من القرن العشرين كان رجال الدين يسيطرون تقريبا على كل شؤون التعليم في البلاد. وحتى حينما قام رضا شاه باصلاحاته المعروفة في مجال التعليم فان رجال الدين ظلوا يحتفظون ولمدة طويلة نسبيا بحق تدريس مادة الدين في المدارس الرسمية.

ومما كان يقوي من نفوذ كبار رجال الدين بين الايرانيين على مدى قرون طوال هو ظهور الظاهرة الغريبة المعروفة بالـ « به ست » التي كانت تمنح حق الحماية الكاملة لكل خارج على القانون ولكل مناهض للسلطة يلجأ الى بعض المساجد المعروفة، او الى دور كبار رجال الدين دون ان تتمكن السلطة من اتخاذ اي اجراء بحقه.

كل هذه الامتيازات وكل هذا النفوذ دفع كبار المتنفذين في المجتمع الايراني الى الانخراط في المؤسسة الدينية فاصبحوا يؤلفون اساس قمتها وقيادتها. فعلى طول القرون الاخيرة كان كبار رجال الدين الايرانيين ينتمون بالاساس الى الارستقراطية الاقطاعية وكبار ملاكي الارض وكان معظمهم على اتصال وثيق بالسوق وبالرأسماليين الفرس منذ ظهورهم. وحتى صغار رجال الدين فانهم كانوا في اغلبيتهم الساحقة ينتمون الى الفئات الاجتماعية الوسطى كصغار التجار والحرفيين، وفي حالات قليلة فقط، ولاسيما في الريف، كانوا ينتمون الى الوسط الفلاحي

من كل ماسبق نستطيع القول اننا نجد في «المؤسسة الدينية» الايرانية صورة مطابقة الى حد كبير للبابوية الكاثوليكية في اوربا، ويستطيع المرء ان يلمس في صراع القمة الدينية من اجل السلطة الدنيوية بعض ظواهر هذا الصراع في أوربا القرون الماضية. وفي كل الاحوال فأن استقلالية المؤسسة الدينية في امور كثيرة، وكذلك اهتماماتها، ولاسيما الاقتصادية، تشبه البابوية الى حد غير قليل. وعلى غرارها لم تستطع «المؤسسة الدينية» الايرانية ان تبقى بعيدة عن الاحداث السياسية، بل انها تحولت الى محركة اساسية لكل حدث مهم شهدته الساحة الايرانية. والى جانب العوامل الاساسية العامة كانت هنالك ايضا عوامل اساسية خاصة تحرك الفئات المختلفة من كبار رجال الدين بحيث لم يكن هناك تطابق كلي في مواقفها واجتهاداتها التي اتخذت طابعا غريبا في حالات غير قليلة. فعلى سبيل المثال لم يكن بأمر غير متوقع ان تظهر البابية والبهائية في ايران بالذات وان تدعو الحركتان الى امور غريبة تصل حد المطالبة بالغاء الحدود الدولية واللغات القومية والدفاع من بين الجميع عن اليهود المسيطرين على مفاتيح مهمة من التجارة الايرانية. فان زعماء الحركتين بدءاً « بالمهدي المنتظر» علي محمد الشيرازي ومرورا بالشاعرة المعروفة الخارقة الجمال قرة العين ووصولا الى العديد من زعماء البابية والبهائية المتحمسين كانوا ينتمون في ان واحد الى اسر دينية وتجارية معروفة كانت مصالحها مرتبطة بالسوق الرأسمالية العالمية بصورة مباشرة في احيان كثيرة وغير مباشرة في احيان قليلة.

ولئن وقف بعض كبار رجال الدين ضد التسيب الاقطاعي وارادوا الدستور فان ذلك كان نابعا الى حد كبير من حرصهم على مصالحهم الدنيوية الخاصة. فان رجل الدين المعروف الشيخ محمد الخياباني الذي كان من قادة الثورة الدستورية ومن زعماء الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الاولى مباشرة كان بدوره تاجرا كبيرا، ولكن تجارة اسرته كانت تعتمد على الداخل بالاساس، فلم يكن من مصلحتها ولا من مصلحة امثالها ان تدفع قوافلها التجارية ضرائب باهظة الى رؤساء العشائر ١٤ مرة خلال مسيرتها من شمال البلاد الى جنوبها.

وهكذا فان كبار رجال الدين الايرانيين كانوا يتوخون من كل موقف سياسي يتخذونه خدمة مصالحهم الخاصة وحمايتها، وتوسيع نفوذهم السياسي والاجتماعي الى حد كبير. وقد حققوا من مواقفهم السياسية مكاسب كبيرة ونادرة في التأريخ. ومن

الشـواهـد المعبـرة المجلس الخـاص الذي أُسِسَ قانونا عام ١٩٠٧، اي في عز ايام انتصـار الثـورة الـدستورية، والذي تقرر ان يضم خمسة من كبار المجتهدين يقومون بتنفيـذ مهمـة خطيـرة للغاية هي النظر في جميع قرارات البرلمان واقرار موافقتها لروح الاسلام ليتم بعد ذلك فقط عرضها على الشاه الذي لم يحق له اقرار اي قانون جديد مهما كان طابعه دون موافقة المجلس الخماسي المذكور. اذن حققت قمة المؤسسة الـدينيـة جانبـا كبيرا مما ارادت من اشتراكها في الثورة الدستورية من منطلق صراعها من اجل السلطة الدنيوية وتحويل الشاه الى اداة طيعة بيدها. ولم يكن مجرد صدفه ان انتقـل بعـد ذلـك معظم الزعماء الدينيين الى الخندق المقابل عندما بدأت الثورة تتخذ لها مجرى اعمق وبدات تقترب من قضايا تخص الاستغلال الاقطاعي ومسألة الارض وما شابه من امور كان من شأنها مس مصالح قمة «المؤسسة الدينية».

والسؤال المهم الـذي يفـرض نفسـه هنـا هولمـاذا استفحـل الصـراع بين قمـة «المؤسسـة الـدينيـة» والسلطـة الـدنيـويـة الايـرانيـة في ظل حكم الاسـرة البهلوية بالذات؟. قبل الخوض في الموضوع لابد من التأكيد اولا على انه كان من الطبيعي ان يحـاول النظـام الشـاهنشـاهي استخدام «المؤسسة الدينية» لتثبيت مواقع اقدامه ولتحـويلهـا الى اداة لقمـع الحـركـة الـوطنيـة، وقـد حقق نجـاحـا غير قليل في هذا المضمـار، ولاسيمـا بعـد الحـرب العالمية الثانية مباشرة حينما اعاد محمد رضا شاه امتيـازات مهمـة لكبـار رجـال الـدين. بل ان هذا العـامـل ذاته، اي محاولة تحويل «المؤسـة الـدينيـة» الى مجـرد اداة تنفيـذ بيـد الشـاه هو الـذي أَجَجَ نار الصراع بين الطـرفين، ذلـك لان الامـر كان يقتضي تجـريـد كبـار رجـال الـدين من امكـانـاتهم الاقتصادية الهائلة لاضعاف نفوذهم ولربطهم بعجلة النظام اكثر فاكثر. ثم ان السـلطة كانت تنظـر دائمـا بعين الحسـد والغيـرة الى نفـوذ كبـار رجـال الـدين، لاسيمـا الى امكاناتهم الاقتصادية في وقت كانت خزينتها تعاني من عجز مستمر وتحتاج الى كل ريـال من اجـل تثبيت دعـائمها، خاصة قبل ظهور الموارد النفطية الضخمة. اذن ان تطور الدولة المركزية الحديثة المتوافقة مع روح العصر كان يتطلب في ظروف ايران تجـريـد «المؤسسـة الدينية» من استقلاليتها، وكان من الطبيعي جدا ان يتحول كبار رجـال الـدين الى اعـداء ألـداء لكـائن من كان يحـاول حرمانهم لاي سبب كان من ثرواتهم الطـائلة ونفـوذهـم اللامحدود. وقد حاول رضا شاه ان يقوم بذلك فعلا. فقام باجـراءات من شأنهـا تقليص نفـوذ القمـة الـدينية في مجالي التعليم والقضاء. ففي

العام ١٩٣١، مثلاً، منع المحاكم الدينية من النظر سوى في قضايا بسيطة ونادرة من قبيل زواج رجل غير مسلم من امرأة مسلمة. وقلص عدد المدارس الدينية الى حد كبير بحيث لم يتجاوز عدد طلابها في اواخر عهده ٧٨٤ شخصا. والاخطر من ذلك ان رضا شاه فرض سيطرة الدولة على اراضي الوقف المسجلة بأسم ضريح الامام الرضا في مشهد. وجاء رد فعل كبار رجال الدين على اجراءات رضا شاه قويا، فقد وقفوا بحماس ضده وضد اصلاحاته ورفعوا شعار «ضرورة الجهاد المقدس لحماية الاسلام من تدخلات السلطة الدنيوية» الا ان رضا شاه الذي قدر الامور بصورة صحيحة عرف كيف يضع حدا لمعارضة الزعامة الدينية التي ضربها بشدة، ولكنه بعمله هذا دق ايضا اسفينا بين «المؤسسة الدينية» والاسرة البهلوية!

ولعوامل معلومة انتهج محمد رضا شاه في المرحلة الاخيرة من حكمه نفس نهج والده في امور عديدة تتعلق بالمؤسسة الدينية. فانه مثلا حاول ايام اصلاحاته ان يفرض سيطرة اقوى للدولة على اراضي الوقف وموارد «المؤسسة الدينية»، فاقام لهذا الغرض مؤسسة خاصة للاوقاف مرتبطة بشخص رئيس الوزراء مباشرة اصبح رئيسها احد نواب رئيس الوزراء المتنفذين.

والسؤال، الذي يفرض نفسه بالحاح هو:

لماذا جاء حسم الصراع لصالح «المؤسسة الدينية»؟. يمكن تلخيص عوامل ذلك، على ما نعتقد، في النقاط الرئيسة التالية:

١ـ تحلل نظام الشاه وضعفه رغم جميع مظاهر القوة البادية عليه.

٢ـ وجود فراغ سياسي كبير بسبب ضعف البورجوازية الوطنية ممثلة بجماعة مصدق، وبسبب ضعف اليسار الكبير لاسباب معلومة، وكذلك لعجز اليسار المتطرف في ظروف ايران من احداث تغيير جذري.

٣ـ تحييد الجيش.

٤ـ اساليب عمل «المؤسسة الدينية».

ومن اجل توضيح هذه الامور نشير الى الملاحظات التالية التي من شأنها القاء اضواء على النقاط المذكورة اعلاه.

* من الطبيعي جدا ان تتحول «المؤسسة الدينية» الايرانية بامكاناتها وتأثيراتها الواسعة الى محط انظار القوى الخارجية المهتمة بأيران، وهذا عامل مهم اثر دائما على تصرفات «المؤسسة الدينية» الايرانية. ومن المفيد ان نشير هنا الى ان مكان

اول اعتصام قام به الدستوريون بزعامة رجال الدين في المرحلة الاولى من الثورة كان باحة السفارة البريطانية في طهران لاغيرها.

* تلقت الزعامة الدينية «اصلاحات» الشاه التي توخى منها تقوية اركان نظامه بتحفظ كبير وعارضتها منذ البداية، وخاصة ماكان يتعلق منها بالمسألة الزراعية، حتى ان الاصلاح الجزئي والسطحي الذي دشنت به الحكومة توجهاتها الجديدة في عهد اقبال لم ترض الزعامة الدينية فوقف ضدها حتى اولئك الزعماء الذين كانوا يأثرون قبل ذلك البقاء بعيدين عن الحياة السياسية فبدأوا يدّعون، مع غيرهم، ان اي تغيير للواقع السائد يتنافى مع روح الشريعة ومضامين الدستور. وقد تمكن هؤلاء فعلا من تنظيم اضراب عام في سوق طهران في كانون الاول عام ١٩٦٢.

* عرفت الزعامة الدينية كيف تستغل كل ثغرة اجتماعية واقتصادية وسياسية للنفوذ من خلالها الى صفوف الجماهير. فأستغلت بنجاح الفقر المدقع الذي كانت تعاني منه الاوساط الاجتماعية المدنية الدنيا، لاسيما تفشي البطالة بينها، واستغلت كذلك الظروف الصعبة للحرفيين وصغار التجار الذين كانوا يعانون بشدة من ضغط كبار الرأسماليين المحليين والبضاعة الاجنبية. انها ادانت سياسة الشاه الخارجية فكسبت بذلك قطاعا واسعا من المثقفين. والتاريخ مليء بالشواهد التي تدل على حالات مشابهة حينما تمكن قائد ما من كسب قطاعات مختلفة وشرائح متناقضة في المجتمع، وربما كان هتلر خير مثال على ذلك.

* كان رجال الدين يعرفون كيف يعملون وكيف يحركون العواطف. فعلى سبيل المثال لا الحصر انهم كانوا يشبهون الشاه بيزيد، الامر الذي كان يكفي لهز عواطف بسطاء الناس في ايران من الاعماق. وقد لجأوا ايضا الى اساليب لا تخلو من الجرأة وروح المغامرة. فقد استولى انصار خميني، مثلا، على اذاعة قم خلال الفترة الواقعة بين يومي ٣ و ٥ حزيران عام ١٩٦٣ حيث اذاعوا النشرات، والخطب الحماسية التي كان من شأنها اثارة الجميع ضد الشاه. كما قاموا بتوزيع عشرات الالوف من النشرات المطبوعة المدونة باسلوب عاطفي مؤثر مع التأكيد على مثالب نظام الشاه، واصدروا

مجلة «نهضت روحانيات» السرية منذ خريف ١٩٧١ والتي كانت توزع على نطاق واسع.

* وبالمقابل لم يلجأ الشاه الا الى اساليب فوقية بهدف فت عضد «المؤسسة الدينية»، فقبل كل شيء انه لم يكن مستعدا لمنح الحريات الديمقراطية واجراء تغييرات جوهرية تكون في صالح القوى المؤثرة في المجتمع الايراني ليتمكن بذلك من ابعادها عن «المؤسسة الدينية» حتى وان لم يكسبها الى جانبه. لذا اقتصر الشاه واعوانه على اتخاذ اجراءات فوقية مثل السماح لعدد من رجال الدين بالقاء احاديث يومية من اذاعة طهران والتي لم تلق اذنا صاغية من احد لانها كانت تؤكد اساسا على كيل المديح للشاه ولاجراءاته والتأكيد على اخلاصه للاسلام، وكان دليلهم على ذلك تشجيعه لطبع المصحف الشريف طبعاً أنيقا وباعداد كبيرة، وكان رد المؤسسة الدينية انه (اي الشاه) يعطي النفط للكيان الصهيوني ويؤيدها ضد العرب المسلمين، حتى ان دعاتها وزعت نشرة خاصة بهذا المفهوم على الحجاج الايرانيين في مكة عام ١٩٧٣.

ومن اجراءات الشاه الشكلية ايضا انه قرر عام ١٩٧١ تأسيس ما أسماه بالفرقة الاسلامية بهدف «تقوية الاسلام» كما جاء في قرار اقامة الفرقة التي ضمت خريجي فروع الفقه من الجامعات الايرانية الذين عينوا في الجيش للقيام بالدعاية للشاه في صفوفه. ومن اجراءاته كذلك انه رصد الاموال اكثر من مرة لترميم الاضرحة المقدسة، وتبرع بمليون ونصف مليون ريال لشيعة لبنان، ومليون باون استرليني لترميم المساجد في عمان، كما انه اهدى المسجد الحرام سجادة نادرة تبلغ مساحتها ٨ آلاف متر مربع.

في الختام اؤكد ثانية على الاهمية العلمية والعملية لدراسة «المؤسسة الدينية» في ايران، الموضوع الذي تكمن في ثناياه مفاتيح العديد من «اسرار» ايران في تأريخها الحديث والمعاصر.

الموضوع السادس

حقائق عن النضال التحرري الاذربيجاني في ايران

تقـع اذربيجـان في القسم الجنـوبي الشرقي من المنطقة المعروفة بها وراء القفقاس، تحدها من الشمال داغستان، ومن الشمال الغربي جورجيا، ومن الجنوب الغربي ارمينيا وتـركيـا، ومن الجنـوب كردستـان. كما تشغـل قسـما اسـاسيـا من السواحل الجنوبية، والغربية من قزوين الذي يعتبر اكبر بحر مغلق في العالم(١).

تقـدر مسـاحـة اذربيجـان بحـوالي ١٨٦ الف كم٢، يقع حوالي ٨٧ الف كم٢ منها داخل الاتحاد السوفيتي(٢)، وتقع البقية داخل ايران، وتشغل اقسامها الشمالية الغربية. يتجـاوز عدد الاذربيجـانيـين في الاتحاد السوفيتي ٤ ملايين نسمة في الوقت الحاضر(٣)، وفي ايران يتجاوز عددهم ٦ ملايين نسمة.

يعتبر الاذربيجانيون من السكان الاصليين في المنطقة التي كانت تعرف قديما باتروباتينا(٤) والبانيا القفقاسية(٥)، وقد اختلطوا في غضون فترة تأريخية طويلة، تمتد بين الالف الاول قبـل الميـلاد والالف الاول بعـد الميـلاد، بمجمـوعـات ايـرانيـة وتـركية الاصل. وفي الفترة الواقعة بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر تكونت اللغة الاذرية الموحـدة نتيجـة انتقـال موجـات من العشائر الناطقة بالتركية الى اذربيجان(٦)، والتي كانت لغاتها اسهل نطقا، وتركيبا من اللغات التي كانت سائدة هناك، فحدث نوع من التفاعل الطبيعي بينها.

وعلى هذا الاسـاس اصبـح لاذربيجـان موقـع متميز في الشرق العريق. فتوجد في سهـولهـا ووديانها اثار حضارية تعود الى عصور ماقبل الميلاد. وفي بداية القرن الخامس كان الاذربيجانيون يستخدمون (الفباء) خاصا بهم يتألف من ٥٢ حرفا(٧). وفي الفترة نفسهـا عاشت اذربيجـان، ذات الامكـانـات الـواسعـة، ازدهـارا اقتصاديا ملموسا، فظهـرت فيهـا مدن لها وزنهـا الحضاري والاقتصادي حسب مقاييس ذلك الزمن، منها

---

(١) يبلغ طول سواحـل بحـر قزوين حوالي ٧ الاف كم، يقـع اكثـر من ٦ الاف كيلومـتر منهـا داخل الاتحاد السوفيتي، وأقل من الف منها داخل ايران.

(٢) يؤلف ذلك القسم من اذربيجان احدى جمهوريات الاتحاد السـوفيتي.

(٣) بلغ تعدادهم ٣ ملايين و ٦٠٠ ألف نسمة في العام ١٩٦٥.

(٤) اتـروبـاتـين - اتـروباتينا (Atropatene) اسم اغريقي قديم، اطلق على جنوب اذربيجان، ويعني بالاصل بلاد الاخمينيين.

(٥) البانيا القفقاسية احدى الدول القديمة التي تأسست في شرق ماوراء القفقاس.

(٦) خصوصا الموجات السلجوقية.

(٧) لاعـداد القسم الاول من هذا البحث استفـاد المؤلف كثيرا من المجلدات الاربعة التي اصدرتها اكـاديميـة العلوم الاذربيجانية بعنوان «تاريخ اذربيجان» باللغة الروسية في ١٩٥٨ - ١٩٦٣، ولاسيما المجلدان الاول والثاني (Istoria Azerbaijana, Baku)

شابران وشماخا وكبالا وشمخور وشكي وبرده وكنجه (Ganja) وتبريز، وغيرها من المدن التي تحول بعضها الى مراكز اسلامية مهمة بعد ان انتشر الدين الجديد في اذربيجان في القرن السابع الميلادي. وفي النصف الثاني من القرن التاسع، والنصف الاول من القرن العاشر ظهرت امارات شبه مستقلة في اذربيجان، منها الامارتان المعروفتان السالارية والشدادية[8]، وغيرهما من الامارات التي شهدت المدن الاذربيجانية في ظلها تطورا لاحقا، بحيث بلغ تعداد سكان بعضها (تبريز واردبيل وباكو مثلا) عشرات الالوف.

ومنذ العصور القديمة توجهت انظار الطامعين من مختلف الملل والنحل صوب اذربيجان الغنية. ففي بداية القرن الثالث استولى الساسانيون عليها، وتحول أديمها الى أحد ميادين الصراع الساساني الروماني في القرن الرابع. ومنذ ذلك الوقت لم يقف الاذربيجانيون مكتوفي الايدي امام مضطهديهم، فقد انتفضوا ضد الساسانيين مرارا، في السنوات ٤٥٠ - ٤٥١ و٤٥٧ و ٤٨١ - ٤٨٤ و ٥٧١ - ٥٧٢.

وفي اواسط القرن الحادي عشر تعرضت اذربيجان للغزو السلجوقي، ومن ثم للغزو المغولي في العقد الرابع من القرن الثالث عشر، وبقيت تؤلف جزءا من دولة المغول لغاية العقد السابع من القرن الرابع عشر، ومن ثم تحولت الى جزء من دولتي قره قوينلو وآق قوينلو المعروفتين.

لعب تأسيس الدولة الصفوية فوق ارض اذربيجان مطلع القرن السادس عشر، دورا مهما في تأريخ تلك البلاد. فقد استولى مؤسس الدولة الصفوية الشاه اسماعيل (١٥٠٢ - ١٥٢٤) على القسم الاعظم من اذربيجان التي تحولت الى مركز حكمه. وفي غضون عقود قليلة استطاع الصفويون ضم كل ماتبقى من اذربيجان الى دولتهم التي اتخذت من مدينة تبريز عاصمة لها، ومن الاذربيجانية لغة رسمية لبلاطها وجيشها ومؤسساتها الادارية، وحتى لمراسلاتها الرسمية مع الدول الاجنبية. وسيطر الاذربيجانيون على معظم مرافق الدولة الصفوية ومؤسساتها، ففي اواسط القرن السادس عشر كان ٦٩ من امراء الدولة البالغ مجموعهم ٧٤ اميرا فقط، من الاذربيجانيين الذين كانوا يؤلفون ايضا نسبة عالية داخل الجيش الصفوي قيادة وافرادا. لذا فان رأي بعض المؤرخين بخصوص الانتماء القومي للدولة الصفوية في المرحلة الاولى من وجودها يستحق التأمل. يقول المتخصص المعروف في الدراسات الايرانية البروفيسور م. س. ايفانوف بهذا الصدد مانصه:

---

(٨) عنهما راجع:

C.E. Bosworth, The Islamic Dynasties-A. Chronological and Genealogical Handbook, Edinburgh, 1967, NN. 36, 37.

«رغم ان العهد الصفوي في تاريخ ايران لم يدرس الا في حدود ضيقة للغاية، الا انه يمكن القول ان الدولة الصفوية في ظل الصفويين الاوائل لم تكن قطعا دولة ايرانية من حيث المفهوم القومي»[٩].

ولكن لم يدم هذا الواقع طويلا. ففي عهد الشاه عباس الاول، الذي حكم ايران مدة ٤٢ عاما (من ١٥٨٧ حتى ١٦٢٩)، فقد الاذربيجانيون وزنهم السابق في الدولة الصفوية، فقد ابعد الشاه الطموح القادة الاذربيجانيين من الجيش، وزعماءهم من البلاط، وفي العام ١٥٩٨ نقل عاصمة ملكه من قزوين الى اصفهان[١٠]. وبسرعة حلت الفارسية محل الاذربيجانية منذ ذلك التأريخ. وهكذا تحولت اذربيجان الى مجرد مقاطعة داخل ايران. وقد رافق ذلك ترد في الاوضاع الاقتصادية، التي تفاقمت صعوباتها اكثر فاكثر بسبب الصراع الصفوي ـ العثماني الدموي من أجل السيطرة على المنطقة، وفي مقدمتها اذربيجان، كما باشر الصفويون اتباع سياسة التهجير الممقوتة تجاه العناصر غير الفارسية في عهد الشاه عباس الاول.

ظهرت بحكم هذه العوامل امام الشعب الاذربيجاني مهمة النضال ضد مضطهديه من الحكام الصفويين، ويمكن تأشير بداية ذلك النضال في عهد الشاه اسماعيل الصفوي الذي ارسل في العام ١٥٠٩ حملة قوية ضد سكان شابران وشيروان ودربند الذين قاوموها رغم امكاناتهم المتواضعة، خصوصا اهل دربند، اذ لم تستطع قوات الشاه فرض سيطرتها على مدينتهم الا بعد ان حفرت ١٢ منفذا من تحت جدران قلعتها[١١]. وفي عهد الشاه طهماسب الاول (١٥٢٤ ـ ١٥٧٦)، الذي تصفه المصادر كأنسان بخيل ومكروه[١٢]، انفجرت انتفاضة واسعة في مدينة تبريز، والمناطق المجاورة لها، لعب المصارعون فيها دورا قياديا بارزا. ففي ربيع سنة ١٥٧١ لجأ اهل تبريز الى السلاح، واجبروا حاكمها، وعددا من المتنفذين فيها، على الهرب منها. وفي غضون حوالي العامين ظل الثوار يسيطرون على تبريز وماحولها، اذ لم تتمكن قوات الشاه من استعادتها لغاية العام ١٥٧٣. وبعد ان أعاد الشاه سيطرته على تبريز وضواحيها، امر بشنق اكثر من ١٦٠ من مواطنيها الذين علقت جثثهم في شوارع المدينة، وامام ابواب جوامعها. ولكن الشاه اضطر، مع ذلك، الى ان يعفي اهل تبريز من دفع «ضريبة الديوان» تهدأة لهم[١٣]

---

(9) M. S. Ivanov, Ochirk..., PP. 61 - 62

(10) «Vsemirnaya Istoria», Vol. IV, Moscow, 1958, P. 561.

(11) «Istoria Azerbaijana», T.I., Baku, 1958, P. 26.

(12) M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 62.

(13) «Vsemirnaya Istoria», Vol. IV, P. 560; «Istoria Azerbaijana», T.I., P. 250.

اتبعت انتفاضة تبريز انتفاضات مشابهة انفجرت في العقدين الثامن والتاسع من القرن السادس عشر في كل من شيروان وطالش، وتمكن ثوار طالش من السيطرة على المنطقة الممتدة الى مدينة اردبيل، حيث هزموا هناك من قبل قوات الشاه المتفوقة عليهم عددا وعدة. ومنذ ذلك التاريخ، وطيلة النصف الاول من القرن السابع عشر، تحولت منطقتا شيروان وطالش، الى مركزين اساسيين لمقاومة الحكم الصفوي. فقد شهدتا، مع المناطق المجاورة لهما، سلسلة من الانتفاضات في السنوات ١٦١٤ و١٦١٥ و ١٦٢٩ وغيرها. حتى ان الشاه عباس الاول اضطر الى ان يذهب بنفسه على رأس قوة كبيرة الى اذربيجان من أجل قمع حركاتها المعادية المتكررة. وفي كل مرة كانت القوات الايرانية تلجأ الى اشد اساليب القمع ضد سكان المنطقة. فعندما ثار مالايقل عن ثلاثين الف من فلاحي طالش ضد الاقطاعيين الفرس عام ١٦٢٩، قامت قوة حكومية كبيرة بقتل اكثر من سبعة الاف من الطوالش في سبيل القضاء على انتفاضتهم[١٤]. وفي العام ١٦٧١، وعلى مدى عدة سنوات، شهدت قره باغ المجاورة نضالا مسلحا ضد الشاه، واعوانه من الخونة المحليين. وباعتراف المتخصصين ان الانتفاضات الاذربيجانية المتوالية لعبت دورا ملموسا في اضعاف الدولة الصفوية، وسقوطها فريسة سهلة بيد الغزاة الافغان.

ولم يطرأ تغيير ماعلى وضع الاذربيجانيين سواء في سنوات التسيب الافغاني، أو في عهد نادر شاه الافشاري القوي (١٧٣٦ ـ ١٧٤٧). بل بالعكس، فقد تردت الامور في اذربيجان الى حد واضح ايام حكم الافشاريين لايران. فحسب اقوال شهود عيان غدت متاجر مدنها خاوية من البضائع، فيما جمع رضا قولي، نجل نادر شاه، من اهلها مبلغا ضخما للغاية بلغ مليونا ونصف مليون قران فضي[١٥]، مما اثار اعجاب والده ودهشته. وازداد الضغط الضريبي على السكان بسبب حروب الشاه الافشاري المتكررة، الامر الذي ادى الى حدوث ازمة اقتصادية حادة في المنطقة. وحسبما ورد في وثيقة تعود الى تلك الفترة فان اسعار المواد الحياتية الضرورية قد ارتفعت في اذربيجان بصورة خيالية. وقد ادى الجوع الى انتشار الطاعون في معظم اصقاع اذربيجان سنة ١٧٣٧. وفضلا عن كل ذلك مارس الافشاريون سياسة التهجير بحق الاذربيجانيين، فنقلوا عشرات الالوف منهم الى مناطق ايرانية مختلفة. لذا فان المؤرخين يعتبرون العقد الرابع من القرن الثالث عشر من اصعب فترات التأريخ الاذربيجاني[١٦].

---

(14) «Istoria Azerbaijana», T.I., PP. 250, 275 - 276.

(١٥) عملة فضية، كان وزنها يتراوح مابين ٤٫٥ و ٥ غرامات.

(16) «Istoria Azerbaijana», T.I., PP. 321 - 324.

وبحكم كل ذلك كان من الطبيعي جدا ان يتخذ نضال الاذربيجانيين بعد سقوط الصفويين طابعا اوسع حتى من السابق، وذلك بغض النظر عن سطوة نادر شاه، وقسوته التي لم تقف عند حد[١٧]. وربما يكفي ان نشير بهذا الصدد الى ان نادر شاه، رغم انشغاله بحروبه، وغزواته التي اوصلته الى اعماق الهند، الا انه اضطر الى ان يقود بنفسه اربع حملات على اذربيجان بهدف قمع انتفاضات اهلها، دون ان يحصل على نتيجة حاسمة[١٨]. وقد اشار محمد كاظم، مؤرخ نادر شاه الخاص، الى زخم الحركة الثورية الاذربيجانية في العهد الافشاري، الامر الذي اكدته ايضا بعض التقارير الدبلوماسية الخاصة[١٩].

وأهم الانتفاضات التي انفجرت في اذربيجان ايام حكم نادر شاه كانت انتفاضة آستر في حزيران ١٧٣٤، التي اتبعتها انتفاضة اقوى في السنة التالية في مناطق مجاورة لها، فشلت حملتان كبيرتان، قادهما نادر شاه بنفسه، في القضاء عليها. وفي العام ١٧٣٨ انتفض سكان قره باغ وشكي وشيروان وغيرها، فارسل نادر شاه قوة كبيرة ضدهم بقيادة شقيقه ابراهيم خان الذي لقي مصرعه في معركة كبيرة وقعت بين الطرفين يوم ٢٦ تشرين الاول من العام نفسه. وبما ان نادر شاه كان منشغلا في ذلك الوقت بحملته على الهند، لم يتمكن من تكريس قوات اخرى لقمع الثوار الاذربيجانيين لغاية شباط عام ١٧٤١، عندما وجه جيشا جرارا قوامه ١٠٠ الف رجل بهدف القضاء على جميع بؤر المقاومة في اذربيجان وداغستان. ولكن رغم ذلك لم يمر سوى عامين حتى اعلن أهل شيروان، وأردبيل، ومناطق اخرى، العصيان ضد نادر شاه، الذي هزم الثوار قواته، وقتلوا قائدها حيدر خان. واثر ذلك انتقلت المنطقة الممتدة من آق صو حتى دربند الى ايدي الثوار الذين ارسل الشاه جيشا اكبر للقضاء على حركتهم. وبامر منه لجأ جنده الى أساليب في غاية الوحشية ضد الاذربيجانيين. ففي دربند وحدها بلغ وزن العيون التي سملت ١٤ منا (حوالي ٤٠ كيلوغراما)، كما قتل ما لايقل عن ١٥ الف شخص في شيروان. مع ذلك فان مقاومة اذربيجان استمرت، واضطر نادر شاه لان يقود بنفسه حملته الرابعة، والاخيرة ضد اهلها دون ان يحقق اهدافه النهائية قبل ان يغتال[٢٠].

بعد مقتل نادر شاه، اثر مؤامرة دبرت ضده ليلة ٩ شباط عام ١٧٤٧، دب الوهن

---

(١٧) عانت معظم شعوب المنطقة الممتدة بين القفقاس ودجلة والسند من قسوة نادر شاه وتعسفه.

(18) «Istoria Azerbaijana», T.I., P. 332.

(١٩) راجع:

«Vsemirnaya Istoria», Vol. IV, PP. 245 - 246.

(20) Ibid, Vol. V, PP. 246 - 247; «Istoria Azerbaijana», T.I., PP. 324 - 329, 332.

من جديد في اركان الدولة الايرانية التي اقتربت السلطة المركزية فيها من العدم. فظهر في اذربيجان عدد كبير من الامارات (الخانيات) شبه المستقلة، هي قره باغ وشكي وشيروان وكنجة وباكو وكوبا ودربند وتبريز واردبيل ومراغه وقرهداغ، وغيرها من الامارات التي لم تخضع للشاه الايراني عمليا الا في عهد كريم خان زند (توفي عام ١٧٧٩). ولكن تغير الوضع بالنسبة لها في العهد القاجاري، الذي تمكن مؤسسه اغا محمد خان من فرض سيطرته على عدد من خانيات اذربيجان الجنوبية اثر حملة شنها على المنطقة في العام ١٧٨١. وفي غضون عامين آخرين احتل كلا من استراباد ومازندران وكيلان[٢١].

وبعد ان تمكن اغا محمد خان القاجاري من فرض سيطرته على جنوب اذربيجان، جاء دور مناطقها الشمالية التي استولى عليها تباعا، الامر الذي كلف الطرفين غاليا. فعندما رفض ابراهيم خان، امير قره باغ، ان يبعث ابنه رهينة الى طهران، ارسل اغا محمد خان قوة مؤلفة من ٨ الاف رجل للقضاء على امارته. وقد دحر القره باغيون، بالتعاون مع جيرانهم الجورجيين، القوة الايرانية في معركة وقعت قرب قلعة عسكران. فتوجه جيش كبير[٢٢] الى قره باغ في صيف عام ١٧٨٥، وفرض الحصار على قلعة شوش التي بلغ عدد المدافعين عنها ١٥ الف شخص. وبعد قصف مدفعي دام لمدة ثلاثة ايام، فشل حصار شوش الذي استمر لمدة ٣٣ يوما. وقد مارس االغزاة شتى انواع السلب، والنهب، والقسوة مع سكان المنطقة الامنين[٢٣].

ومنذ تأسيس الدولة القاجارية ارتبط مصير اذربيجان باحداث الحروب الايرانية ـ الروسية، ونتائجها بصورة مباشرة[٢٤]. ويومذاك عبر الاستياء الاذربيجاني عن نفسه في صور مختلفة، اهمها قاطبة كان تعاون العديد من ابناء اذربيجان مع الروس ضد الايرانيين في مواقف ومواقع حاسمة، اسهبنا في استعراض ظواهره ضمن موضوع سابق. ونضيف على ماورد هناك الحقائق التالية التي لها مغزاها بالنسبة لما نحن بصدد توضيح ابعاده هنا. ففي الفترة الواقعة بين عامي ١٧٩٧ و ١٧٩٩ ذهبت بعثات عدة من امارتي قره باغ وكوبا الى روسيا طلبا للحماية. وفي بداية حرب ١٨٠٤ ـ ١٨١٣ طلب ابراهيم خليل خان، امير قره باغ، مساعدة الروس لردع الايرانيين.

---

(٢١) تمكن اغا محمد خان القاجاري حتى نهاية عام ١٧٩٤ من فرض سيطرته على معظم المقاطعات الايرانية.

(٢٢) كان جيش اغا محمد خان يتألف، حسب ماورد في بعض المصادر، من ٨٥ ألف رجل.

(23) «Istoria Azerbaijana», T.I., PP. 334 - 343, 372 - 376

(٢٤) للتفصيل عنها راجع الموضوع المعنون «من تاريخ الحروب الايرانية الروسية. صفحة من العلاقات الدولية في الشرق الاوسط قبل ظهور الامبريالية» في هذا الكتاب.

وعندما اقترب الخطر الايراني من امارته اكثر، وقع في ١٤ ايار ١٨٠٥ اتفاقية مع قائد القوات الروسية العاملة في ماوراء القفقاس، وضع امارته، بموجب بنودها، تحت حماية روسيا. وفي الوقت نفسه تقريبا اتخذت خانية شكي المجاورة خطوة مشابهة لتلك[٢٥].

ولم يقتصر الامر على ماحدث من تقارب ملموس بين اوساط اذربيجانية مسلمة مع روسيا المسيحية، بل تعداه، وبلغ حد حمل الاذربيجانيين السلاح من جديد ضد مضطهديهم الايرانيين. ومن المهم ان نشير بهذا الخصوص الى ان مؤرخ البلاط القاجاري مرزا فيض الله يعترف بالمقاومة الثابتة التي أبداها أهل اذربيجان للقوات الايرانية في سنوات حرب ١٨٠٤ - ١٨١٣، الحقيقة التي اشارت اليها كذلك الوثائق الروسية الخاصة. واثناء حرب ١٨٢٦ - ١٨٢٨ الف الاذربيجانيون كتائب خاصة لضرب الجيش الايراني. وعندما اضطرت قوات ولي العهد عباس مرزا لان تنسحب من العاصمة الثانية تبريز، قام أهل المدينة بتجريد من تبقى من الجنود من اسلحتهم، ومن ثم استقبلوا الجيش الروسي الذي دخل تبريز في الايام الاخيرة من الحرب المذكورة[٢٦].

أدت حربا ١٨٠٤ - ١٨١٣ و١٨٢٦ - ١٨٢٨ الى تقسيم اذربيجان الى جزئين متساويين تقريبا، بقي احدهما داخل ايران ليعرف منذ ذلك الوقت باذربيجان الايرانية، التي ظلت تعاني الامرين من السياسة الشوفينية لحكام ايران. وقد تحول هذا الواقع الى محرك اساس للنضال التحرري الاذربيجاني الذي غدا يحتل موقعا متميزا في تأريخ ايران الحديث والمعاصر. فلم تشهد تلك البلاد حدثا سياسيا كبيرا دون ان يكون للاذربيجانيين دور كبير فيه[٢٧].

ان مجموعة من العوامل المتفاعلة فيما بينها هي التي جعلت من الاذربيجانيين راس رمح الحركة الوطنية داخل ايران منذ العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر. فقد تعمقت سياسة حكام ايران الشوفينية تجاههم من جميع الاوجه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما تفاقم استغلالهم، وازداد وضعهم الاقتصادي سوءا، مما أجبر عشرات الالوف منهم على عبور حدود روسيا الدولية بحثا عن العمل في حقول نفط باكو، وفي غيرها من الاماكن. ففي اواخر القرن التاسع عشر، واوائل القرن العشرين كان يعبر تلك الحدود سنويا مالايقل عن ٢٠٠ الف ايراني، كان معظمهم من

(25) «Istoria Azerbaijana», T.I., P. 381; T. II, Baku, 1960, PP. 6 - 7.

(26) Ibid, T. II, PP. 8 - 9, 37, 42.

(٢٧) يلاحظ نوع من الركود في النضال المسلح للاذربيجانيين، وغيرهم من ابناء شعوب ايران، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

الاذربيجانيين بالتحديد. فقد بلغ عدد الذين انتقلوا من مدينة تبريز وحدها الى روسيا، وبصورة رسمية[٢٨]، ٢٦٨٥٥ شخصا في العام ١٨٩١، فيما ارتفع الرقم الى ٣٢٨٦٦ في العام ١٩٠٣. وفي العام ١٩٠٤ وصل روسيا من تبريز واورميه وحدهما ٦٢٢٦٧ شخصا بصورة رسمية. وخلال الفترة نفسها كان ينتقل سنويا حوالي ٣٠ الف شخص من ولاية اردبيل وحدها الى روسيا[٢٩]. وكان هؤلاء يلاحظون عن كثب كيف ان ابناء الجزء الشمالي من وطنهم، الذي اصبح تحت سيطرة دولة اوروبية، بدأ يشق طريقا جيدا من التقدم، لايمكن مقارنته بما كان يسود اذربيجان الجنوبية من تخلف قروسطي. فقد بدأت مظاهر اقتصادية وحضارية وثقافية وفكرية مختلفة جديدة تظهر في اذربيجان الشمالية، وخصوصا داخل مدينة باكو[٣٠] التي وجدت المؤسسات الرأسمالية طريقها اليها بفضل ثروتها النفطية التي باشر الروس باستخراجها. ففي بداية القرن العشرين بلغ عدد العمال في ذلك الجزء من اذربيجان حوالي ٦٠ الف شخص. وقبل ان ينتهي القرن التاسع عشر بفترة ظهرت في اذربيجان الشمالية فئة مثقفة متنورة احتكت بالفكر الاوربي بصورة مباشرة، ولها ادبياتها، وصحافتها الخاصة بها. وارتفعت الابنية الحديثة، والمصارف، ودار للاوبرا، وغيرها، في شوارع باكو.

كان من الطبيعي ان تترك هذه الظواهر بصماتها على الوعي الفكري والسياسي للاذربيجانيين الجنوبيين الذين انتقلوا الى مدن اذربيجان الشمالية بدوافع مختلفة، لاسيما وانهم لم يفقدوا صلتهم باهلهم ومواطنيهم في الجنوب، فان معظمهم انتقلوا الى الشمال دون ان يأخذوا اسرهم معهم. ثم ان الواعين منهم اصبحوا على اتصال بالتنظيمات الثورية السرية في روسيا، بما فيها التنظيمات الاشتراكية. وللاستدلال على التأثير الفكري لهؤلاء على الايرانيين عموما، وعلى الاذربيجانيين خصوصا، نقول ان بعضا منهم قاموا بتأسيس اول تنظيم شبه عمالي للكادحين في ايران اطلقوا عليه اسم

---

(٢٨) كانت اعداد كبيرة من الاذربيجانيين يعبرون الحدود بصورة غير رسمية.

(٢٩) للتفصيل راجع:

S. Sh. Aslan, Obrozovanie Iranskay Partii «Ejtimaion - Amion» (Mujahid), Baku, 1975, PP. 6 - 7.

س. ش. اسلان، تأسيس الحزب الايراني «اجتماعيون - عاميون» (مجاهد)، ملخص رسالة دكتوراه، باللغة الروسية، باكو، ١٩٧٥، ص ٦ - ١٧

A.R. Arasteh in Collaboration with Josephine Arasteh, Man and Society in Iran, Lieden, 1964, P. 113.

(٣٠) باكو الان عاصمة جمهورية اذربيجان داخل الاتحاد السوفيتي.

«حزب اجتماعيون عاميون»، الذي كان تنظيما اشتراكيا ـ ديمقراطيا، وضع برنامجه ونظامه الداخلي بتأثير من الاشتراكيين الروس. وكان الحزب يطبع منشوراته في باكو بصورة غير علنية، ومن هناك كان ينقله سرا الى داخل ايران، لتقوم فروعه بتوزيعها في المدن الاذربيجانية وغيرها[٣١]. كما وجد النتاج الفكري المتطور للمثقفين الاذربيجانيين الشماليين، من امثال الاديب والمفكر البارز مرزا فتح علي آخندوف (١٨١٢ ـ ١٨٧٨)[٣٢]، وكذلك صحافتهم، اقبالا واسعا بين المثقفين الاذربيجانيين في ايران. فعلى نطاق واسع تداولوا، مثلا، المجلة الانتقادية «ملا نصر الدين» التي كانت تصدر في تبليس باللغة الاذربيجانية، وكانت تتصدى للقضايا الايرانية باسلوب ساخر ترك اثرا كبيرا على الصحافة الايرانية فيما بعد.

تجسدت انعكاسات هذه الامور، وكذلك الدور المتميز للاذربيجانيين في الحركة الديمقراطية الايرانية قبل الثورة الدستورية، وفي سنواتها. فعندما انفجرت حركة اضرابية عامة في اواسط عام ١٨٩١ ضد امتياز التبغ الذي منحه ناصر الدين شاه لشركة تالبوت البريطانية، كان الاذربيجانيون في مقدمة من استجابوا لشعاراته. ففي ١٩ آب نظم التبريزيون مظاهرات واسعة طافت شوارع المدينة، ومرت امام قصر ولي العهد، حاكم الولاية، واقسموا ان يحطموا القنصلية البريطانية في تبريز اذا لم يلغ الشاه الامتياز، كما مزقوا اعلانات شركة تالبوت. وايام الاضراب حمل ٢٠ الف تبريزي السلاح. وكانت تبريز المدينة الوحيدة التي لم يستطع ممثلو تالبوت الدخول اليها.

وردا على ذلك ارسل ناصر الدين شاه قواته للقضاء على المقاومة في تبريز التي اراد ان يجعل منها درسا لكل من يتجرأ على التصدي لامتيازه. ولكنه اضطر أخيرا الى ان يتراجع، ويلغي الامتياز الممنوح للشركة البريطانية[٣٣].

تجسدت انعكاسات الظاهرة الجديدة للحياة السياسية في اذربيجان في سنوات الثورة الدستورية (١٩٠٥ ـ ١٩١١) التي كانت تمثل انطلاقة رائعة بوجه الاستعمار،

---

(31) A. Sh. Aslan, Op. Cit., PP. 12 - 15; «Sovrimenay Iran,» Moscow, 1975, P. 142.

(٣٢) عن تأثيره الكبير على الفكر الثوري الايراني راجع:

A.M. Agahi, O vlianii M.F. Akhundova na Razvitie Progressivenay Obshestvenay Misl V Irane, «Izvestia Academii Nauk Azerbaijana USSR», N. 10, 1962, PP. 75 - 84.

الدكتور أ. م. اغاهي، حول تأثير اخندوف على تطور الفكر الاجتماعي التقدمي في ايران، مجلة «اخبار اكاديمية علوم اذربيجان السوفيتية»، العدد العاشر، ١٩٦٢، ص ٧٥ ـ ٨٤. راجع خلاصة تاريخ حياة اخندوف في كراس «اخندوف»، تعريب عزالدين مصطفى رسول، باكو، ١٩٦٢.

واستبداد الشاه، وكبار الاقطاعيين، رفعت شعار وضع دستور ديمقراطي للبلاد، المطلب الذي التفت حوله اوساط وفئات اجتماعية مختلفة.

لعب الاذربيجانيون دورا اساسيا في جميع مراحل الثورة الدستورية. ففي مرحلة الاعداد والتفجير برزت في الميدان مجموعة من «الانجمنات» الجمعيات السرية التي ظهرت نواتها في اذربيجان والمقاطعات الشمالية الاخرى منذ العام ١٩٠٥، وكان يطلق على اعضائها اسم (المجاهد). ويمكن حصر اهم اهداف هذه الجمعيات الثورية السرية بما يلي:

١- ضمان حق انتخاب عام، واقتراع سري لجميع ابناء الشعب.

٢- منح الشعب ماسمته بالحريات السبع، التي كان يقصد بها حرية الكلام والطباعة والخطابة والاجتماع، وحق تأسيس الجمعيات، والاضراب، والحريات الشخصية.

٣- الاستيلاء على اراضي الشاه، وشراء اراضي كبار الاقطاعيين لتوزيعها على الفلاحين.

٤- تحديد يوم العمل بثمان ساعات.

٥- اصلاح النظام الضريبي على اساس نسبي - تصاعدي يتفق مع ثروة الفرد وامكاناته.

٦- نشر التعليم المجاني العام[٣٤].

آمنت هذه الجمعيات بالارهاب الفردي وسيلة للقضاء على النظام القاجاري ومؤسساته. وفعلا دبر المجاهدون من اعضائها امر اغتيال عدد من كبار المسؤولين الرجعيين، منهم رئيس الوزراء اتابك اعظم الذي قتله فدائي اذربيجاني يوم ٣١ آب

---

(٣٣) للتفصيل حول الموضوع راجع:

N.R. Keddie, Religon and Rebellion in Iran. The Tabacco Protest of 1891 - 1892, London, 1966, PP. 38 - 40, 45 - 47, 55 - 59; 66 - 68 etc.; L.M. Kulagina, Ekspansia Inostranovo Imperializma V Iran..., «Ochirk Novay Istorii Irana», Moscow, 1978, PP. 161 - 165.

ل. م. كولاكينا، تغلغل الامبريالية في ايران وتحويلها الى شبه مستعمرة (العقد الثامن من القرن التاسع عشر - بداية القرن العشرين)، باللغة الروسية، في كتاب «موجز تاريخ ايران الحديث»، موسكو، ١٩٧٨، ص ١٦١ - ١٦٥؛ ب. و. ليباريتوفيتش، النضال المعادي للكولونيالية والاقطاع في ايران في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ملخص رسالة دكتوراه باللغة الروسية، يريفان، ١٩٧٤، ص ٢٥ - ٢٦.

(٣٤) للتفصيل عن هذه الجمعيات، ونشاطها راجع:

M.S. Ivanov, Ochirk..., PP. 209 - 210.

عام ١٩٠٧ امام بناية المجلس وسط العاصمة طهران[٣٥]، كما انهم حاولوا اغتيال محمد علي شاه في شباط من العام التالي عندما القوا قنبلة على موكبه في أحد شوارع العاصمة، وقد نجا من الموت المحقق صدفة، إذ لم يكن في العربة المخصصة له وقت انفجار القنبلة.

وفي بداية الثورة ظهرت جمعيات «انجمنات» علنية كان ينتخب اعضاؤها للاشراف على عملية انتخابات اعضاء المجلس، وذلك بعد ان اضطر مظفر الدين شاه للموافقة على وضع اول دستور للبلاد في ايلول ١٩٠٦. ولكن هذه (الانجمنات) تحولت بسرعة الى مؤسسات سياسية ثابتة لها وزنها الجماهيري الكبير. وقد ظهر اول انجمن من هذا القبيل باسم «انجمن ملى» (المجلس الشعبي او الجمعية الشعبية) في تبريز التي اشترك اهلها على نطاق واسع في اختيار اعضائها. وقد بلغت سمعة انجمن تبريز، وشعبيته حد ان حاكم اذربيجان، ولي العهد محمد علي مرزا[٣٦]، الغارق حتى اذنيه في افكاره الرجعية، اضطر، على مضض منه، الى ان يحسب له، ولمقترحاته حسابا خاصا. وكان اعضاء الانجمن يفضحون نواقص النظام دون تردد في نشاطهم اليومي، بل انهم اتخذوا بعض الاجراءات المهمة لصالح الجماهير دون ان يعيروا مؤسسات الشاه الحكومية ادنى اهتمام. فقد سعرت هيئات الانجمن الحاجيات الحياتية الضرورية من لحم وخبز، ونظمت الموازين والمقاييس، وحاربت السوق السوداء، واستولت على الحبوب المخزونة لدى بعض المضاربين، ثم وزعتها على المعوزين من سكان تبريز وضواحيها. وبعث انجمن تبريز مندوبين عنه الى المدن والقرى الاذربيجانية بهدف توعية السكان، ونشر الفكر الثوري الدستوري بينهم. وكان للانجمن صحيفته الناطقة باسمه، والتي كانت تسمى ايضا «انجمن»، وتطبع منها في كل مرة خمسة الاف نسخة، الرقم الذي له مغزاه حسب مقاييس زمانه[٣٧]. وكان الانجمن يزود اعضاءه بهوية تحمل شعار «العدالة. الحرية. المساواة. الاتحاد»، وهو بذلك كان يشبه نوادي الثورة الفرنسية الى حد كبير[٣٨].

---

(٣٥) وجدت بحوزة قاتل اتابك اعظم بطاقة شخصية دون فيها مايلي:
«عباس آغا. صير في اذري. عضو الانجمن. فدائي شعبي. الرقم ٤١». راجع:
P. Sykes, A History of Persia. Vol. II. PP. 408 - 409

(٣٦) تبوأ العرش في العام ١٩٠٧ بعد موت والده مظفر الدين شاه، فاصبح يعرف بمحمد علي شاه.

(٣٧) شهدت الصحافة الايرانية في سنوات الثورة الدستورية مدا لم يسبق له مثيل لا في تاريخ ايران حسب، بل ايضا في تاريخ معظم الاقطار الشرقية الاخرى. ففي المرحلة الاولى من الثورة فقط صدرت اكثر من ١٥٠ جريدة ومجلة، كان بعضها باللغة الاذربيجانية.

(٣٨) احمد كسروي، تاريخ مشروطه ايران، جاب هفتم، تهران، ١٣٤٦، ص ٧٢٢؛
P. Sykes. Op. Cit., Vol. II, P. 408.

وفي آب سنة ١٩٠٧ رفض «انجمن تبريز» قبول قرار الشاه الجديد محمد علي، الذي كان يقضي بتعيين الامير فرمان فرما حاكما على اذربيجان، بعد ان شغر المنصب اثر انتقال العرش اليه. ولعب الانجمن نفسه دورا قياديا داخل المجلس ايضا، وذلك من خلال اعضائه الاذريين الذين كانوا يضغطون باستمرار من أجل فرض اجراءات ديمقراطية على الحكومة، ولابعاد كبار المسؤولين المعروفين باتجاهاتهم الرجعية، من وظائفهم.

تحول «انجمن تبريز» بفضل نشاطه، وانجازاته الى قدوة اهتدى بافكاره الثوريون في المدن الايرانية الاخرى، كما ان دوره الكبير جلب انظار المراقبين الاجانب. فقد ورد بحقه في تقرير دبلوماسي روسي، يحمل تأريخ ٢٤ آب ١٩٠٨، مانصه:

> «في الواقع ان كل السلطة في تبريز انتقلت منذ زمن بعيد الى الانجمن المحلي الذي يعتبر من اكثر الانجمنات الايرانية نفوذا، وله فرع في العاصمة طهران يصغي الى صوته جميع اعضاء المجلس»[٣٩]

وعندما تمكن محمد علي شاه من توجيه ضربة قوية للقوى الديمقراطية في العاصمة، انتقل ثقل النضال الثوري الى اذربيجان. ففي ٢٣ حزيران ١٩٠٨ اعلن الشاه الاحكام العرفية في طهران، ويامر منه قصف القوزاق[٤٠] بناية المجلس بالمدفعية لمدة عدة ساعات، واعتقل اعضاؤه الراديكاليون، مع غيرهم من العناصر الديمقراطية الذين تعرضوا لصنوف الاهانة والتعذيب، كما نفذ حكم الموت بحق عدد من ابرزهم، منهم الصحفي والكاتب المعروف ملك المتكلمين. وقد تجاوز عدد ضحايا القصف والارهاب عدة مئات من الوطنيين بين قتيل وجريح وسجين[٤١].

كان رد فعل اذربيجان على احداث العاصمة سريعا، وقويا للغاية. فقد ظهر في صفوف الجماهير المعذبة هناك قائدان ثوريان ذاع صيتهما في طول البلاد وعرضها، هما ستار خان وباقر خان[٤٢]، اللذان بعثا في اليوم الاول لانقلاب الشاه برقية الى المجلس يؤكدان فيها باسم انجمن تبريز ان اكثرية المدن الايرانية تعتبر محمد علي شاه خائنا

---

(٣٩) مقتبس من:

M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 212.

(٤٠) قوة عسكرية اسست على نمط القوزاق الروس، وكان يقود افرادها، ويدربهم ضباط من الروس.

(٤١) تسمى المصادر هذه الاحداث «انقلاب محمد علي شاه».

(٤٢) جاءهما لقب الخان من بسطاء الناس تعبيرا عما كانوا يكنونه نحوهما من تقدير واحترام.

للوطن[43].

كان ستـارخان مزارعـا صغـيرا، قوي التأثـير على اقرانه، شجاعا مقداما، ثابت العـزم والارادة، صادقـا صدوقا، وقف باستمرار الى جانب فقراء اذربيجان في نضالهم من اجـل الارض والخبز[44]. وكـان من الطبيعي ان يشترك بحماس في احداث الثورة الدستورية منذ لحظة انفجارها، بحيث استحق عن جدارة شرف انتخابه عضوا فخريا في «انجمن تبريـز». جمع ستـارخان عددا كبـيرا من اصلب الفـدائيـين حولـه، وذاد بحـماس عن مكتسبـات الثـورة، مما أثار ضده حنق الرجعيين، حتى ان الشاه خصص مبلغا ضخما مكافئة لمن يأتيه برأسه. ومن الجدير بالذكر ان اسم ستارخان قد برز حتى في الصحف الاوربيـة التي كانت تسميـه «غـاريبا لدي ايران»، اما الجماهير فقد منحته لقب «سـردار ملى» الـرفيـع، أي القائد الوطني. كما خلده الشعر الاذربيجاني الحديث باعتباره بطلا قوميا[45].

امـا رفيقـه في الفكـر والسـلاح باقـرخان، فقد كان عاملا بسيطا، يشتغل في مقلع للحجر، تميز ايضا بالشجاعة والاخلاص، فمنحه ثوار اذربيجان لقب «سالار ملى»، أي الزعيم الوطني.

التف الوطنيون الاذربيجانيون حول هذين الزعيمين، لتتبلور بذلك ابعاد انتفاضة رائعـة في تبريـز، تعتـبر ذروة العمل الثوري في خضمّ احداث الثورة الدستورية[46]، والتي عبرت شعـاراتهـا بصـدق عن عمق محتـواهـا، وتقـديـر قادتهـا لمهـمات مرحلتهم التأريخيـة. فقـد تركـزت مطـاليب الثـوار على اعادة الدستور، والدعوة لانعقاد مجلس جديـد، وطـرد كل الاجـانب الذين وقفوا الى جانب محمد علي شاه، وبطانته الرجعية ايام انقلاب حزيران ١٩٠٨ في طهران.

وبفضـل التفـاف الجـماهـير حول هذه الشعـارات تمكن قادة الانتفاضة من ضرب اعـداء الثـورة، وتطهـير تبريزمنهم في تشرين الاول عام ١٩٠٨. واستولى الثوار على موجـودات مخزن الاسلحـة التـابـع للحامية الحكومية في تبريز، والتي كانت تتألف من

---

(٤٣) عبدالله رازي، تاريخ مفصل ايران از تأسيس سلسلهء ماد تا عصر حاضر، ص ٥٢١.

(٤٤) عن تاريخ حياة ستارخان وباقرخان، وعن نشاطهما راجع:

محمد رضا عافيت، سردار ملى ستارخان، باللغة الاذربيجانية، باكى (؟)، ١٩٦٨؛ اسماعيل امير خيزي، قيام اذربـايجـان وستارخان، تبريز، ١٣٣٩ هـ، ص ٢ ـ ٧، ٢١ ـ ٢٣؛ احمد كسروي، تاريخ مشـروطـهء ايـران، ص ٦٩١ ـ ٧٠٩؛ كريم طاهـرزاده بهزاد، قيـام اذربـايجـان در انقـلاب مشروطيت ايران، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٧.

(٤٥) راجع: محمد رضاعافيت، سردار ملى ستارخان، ص ١٣٥ ـ ١٤٩.

(46) «Sovrimenay Iran», P. 143.

عشـرين الف بنـدقيـة، مع عدد من المدافع، وكميات من الذخائر[٤٧]. كما نظم الثوار شؤون المـدينـة، وما والاها من مناطق باسلوب استرعى انتباه المراقبين الاجانب. فان المسؤولين الروس الذين كانوا يكنون الحقد تجاه الثوار، ويتآمرون ضدهم، اعترفوا في تقـاريـرهم السـرية التي كانوا يبعثونها الى بطرسبورغ، بان اوضاع المنطقة في ظل ادارة الثوار غدت افضل بكثير مما كان عليه الامر قبل ذلك.

تمكن ثوار تبريـز في غضـون فترة وجيـزة من تأليف هيئـات خاصـة للاشراف على البلديـة، ودوائـر الـبرق والبريد والمالية والمعارف والعدل، ووضعوا حدا للمضاربين، والمتـلاعبـين بقـوت الشعب، وصـادروا ممتلكـات الشـاه واقـربائه في المنطقة. واتخذوا اجراءات معينة ضد المصالح الاجنبية في اذربيجان، فقد استولوا على اراضي عدد من الملاكين الذين كانوا من تبعية روسية، واجبروا الشركة البريطانية للتلغراف على دفع مبالغ محددة لصالح خزينة الثوار. كما اولوا الدفاع عن تبريز جانبا كبيرا من اهتمامهم، فقـد الفـوا لجنـة خاصـة للاشـراف على شؤونها باسم «كمسيون جنك»، اي اللجنة الحـربيـة التي اخذت على عاتقها امور تنظيم كتائب المتطوعين، وتدريب افرادها على استخـدام الاسلحـة، بما فيهـا المـدافع. ولغاية ايلول ١٩٠٨ ارتفع عدد المتطوعين في المنطقـة الى حوالي عشـرة الاف رجل[٤٨]. وتتوفر شهادات مقنعة تبين ان الامور داخل تبريز وضواحيها كانت مستتبة تماما في ظل ادارة الثوار[٤٩].

تلقت الاوسـاط الشعبيـة الاذربيجـانيـة في كل مكـان انبـاء انتفاضة تبريز بارتياح بالـغ، فتقـاطـر المتطوعون على المدينة، ولم يمر سوى وقت قصير حتى انتقلت السلطة الفعليـة في معظم المنـاطق الادريـة الايـرانيـة الى ايـدي ثوار تبريـز الـذين تلقوا ايضا مسـاعـدات قيمـة من اخـوتهم الاذربيجانيين الشماليين، ومن ثوريي ماوراء القفقاس الـذين اسسـوا لجنـة خاصـة اخـذت على عاتقهـا مهمة طبع منشورات الثوار، وابداء صنوف المساعدات الممكنة لهم، بما في ذلك الاسلحة وذخيرتها التي كانوا يخفونها ضمن بضـائـع القـوافـل التجـاريـة المتـوجهة الى ايران. وفضلا عن ذلك جاء متطوعون من

---

(47) M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 228

(٤٨) اسماعيل امير خيزي، قيام اذربايجان وستار خان، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠؛
M.S. Ivanov, Ochirk..., PP 228 - 229; H. Nazem, Russia and Great Britain in Iran (1900 - 1914), Teheran, 1975, P. 42.

(٤٩) راجع:
W.M. Shuster, the Strangling of Persia, Story of the European Diplomacy and Oriental Intrique That Resulted in the Denationalization of Twelve Million Mohammedans. A Personal Narrative, New York, 1912, P. XI.

مختلف مناطق ماوراء القفقاس الى تبريز، حيث اسسوا ورشات صغيرة لانتاج القنابل والرمانات، واقاموا مستشفى لمعالجة المرضى والجرحى من أهل المدينة وضواحيها، افتتح يوم ١٤ ذي القعدة ١٣٢٦ (٩ كانون الاول ١٩٠٨) باسم «مريضخانهء ملى»، اي مستشفى الشعب. واشتركوا ايضا في القتال الفعلي للثوار ضد اعدائهم، فقتل منهم اكثر من عشرين متطوع، تحول تشييعهم الى تظاهرة شعبية. وكان من الطبيعي ان تثير هذه الامور حنق محمد علي شاه، فاتصل بشخص القيصر نيقولا الثاني يطلب منه العمل للحيلولة دونها، وفعلا اصدر القيصر اوامر صارمة بهذا الصدد[٥٠].

وجدت انتفاضة تبريز صدى ابعد لها من مناطق ماوراء القفقاس. فقد نشرت جريدة «مساوات» الاسبوعية في عددها الصادر يوم ١٤ محرم ١٣٢٧ هـ نص الرسالة التي بعثها ٧٥٨ من طلاب دار الفنون بموسكو الى ستارخان يؤيدون فيها بحماس نضاله من أجل «اعلاء راية الحرية». وفي العدد نفسه نشرت الجريدة رسالة اخرى بعثها الى ستارخان «الجمعية الخيرية للايرانيات المقيمات باستانبول»، التي ختمت رسالتها بالدعاء لنصرة «المجاهدين في سبيل الله على عموم خونة الشعب، ومخربي الوطن المقدس». ونشرت جريدة «صباح» الصادرة في استانبول مقالات تؤيد فيها ثوار اذربيجان، وتدعو الناس لجمع التبرعات لهم. وكما يؤكد اسماعيل أمير خيزي، احد اعضاء «انجمن تبريز»، ان نشيدا وطنيا شاع في المغرب ايام الثورة الدستورية كان يتغنى ببطولات ستار خان[٥١].

انتقلت اشعاعات احداث اذربيجان الثورية الى المناطق الايرانية الاخرى بسرعة، ليتحول الجزر الذي سببه انقلاب حزيران ١٩٠٨ الى مد ثوري جديد. ففي كانون الثاني ١٩٠٩ انفجرت انتفاضة في اصفهان ادت الى انتقال السلطة في المدينة، وماحولها الى الدستوريين الذين انضم اليهم ابناء عشيرة بختياري المعروفة، بعد ان فشل الشاه في استخدامهم ضد ثوار تبريز. كما تحرك اهل كيلان، واستولى الدستوريون على السلطة في العديد من المدن والمناطق الجنوبية، بما فيها ميناء بندر عباس وبوشهر.

وهكذا بدأ الخطر يهدد من جديد، ومن كل جانب عرش محمد علي شاه الذي فقد سيطرته على معظم المناطق الايرانية. وفي محاولة منه لردع الثوار لجأ الشاه الى

---

(50) M.S. Ivanov, Ochirk..., PP. 229 - 231

(٥١) اسماعيل امير خيزي، قيام اذربايجان وستارخان، ص ٢٩٧ - ٢٩٨، ٣٠٣، ٣٩٦ - ٣٩٧.

استخدام القوة، وحرك اكثر القوى الاقطاعية تخلفا ضدهم، بل وحتى استعان بقطاع الطرق، والقتلة، وحاول توجيه ضربته الاولى الى ثوار اذربيجان الذين ارسل قوات كبيرة من الجيش، ورجال الاقطاعيين الخونة من أمثال رحيم خان، للقضاء على حركتهم. وقد تمكن الاعداء بالفعل من اعادة فرض سيطرتهم على بعض المناطق، وسيطروا على طريق جلفا ـ تبريز المهم الذي كان يؤلف حلقة وصل اساسية بين الثوار وديمقراطيي ماوراء القفقاس، وقبل حلول شباط ١٩٠٩ اطبقوا حصارا محكما على تبريز نفسها، اشترك فيه بايعاز من الشاه، الشقاة وقطاع الطرق، فعاني سكان تبريز من نقص خطر في المواد الغذائية[٥٢]. ولكن رغم ذلك دافع الثوار عن مكتسباتهم ببسالة، واتخذوا كل ما من شأنه وقف الزحف المعادي، فوجه رجال ستار خان وباقر خان ضرباتهم لقوات الشاه واعوانه، كما ارسل الثوار دعاتهم للاتصال بالجنود.

وعندما لم يحقق الشاه النجاح المطلوب، وظل خطر الثورة جاثما، هب المستعمرون الروس والبريطانيون لمساعدته، خاصة وانهم بدأوا يخشون مضاعفات الثورة الدستورية، واحتمال تأثيرها على شعوب القفقاس والهند المجاورة، الامر الذي تفاقم خطره اكثر بعد انتصار ثورة الاتحاديين في تركيا عام ١٩٠٨. وهكذا القى حكام بطرسبورغ ولندن الاقنعة من وجوههم، فنزلت قواتهم الى الميدان الايراني منذ نيسان ١٩٠٩ للاشتراك الفعلي في ضرب بؤر الثورة. فقد احتلت القوات البريطانية العديد من المدن الايرانية الجنوبية، فيما وجه حكام روسيا قواتهم بقيادة الجنرال سنارسكي (Snarski) الى تبريز في أواخر نيسان، وذلك بحجة انقاذ الاجانب الموجودين هناك، وايصال الحاجيات الضرورية اليهم، كما قامت قوة روسية اخرى باحتلال اردبيل في الوقت نفسه.

ورغم احتلالهم لتبريز، الا ان الروس لم يلقوا القبض على ستار خان وباقر خان[٥٣]، كما لم يقدموا على تجريد رجالهما من اسلحتهم مباشرة، خشية ماكانوا يتوقعونه من عواقب اجراء من هذا القبيل. ولكن ماان استتبت الامور لهم حتى طلبوا منهما مغادرة تبريز، فتوجها مع قسم من رجالهما الى العاصمة طهران، حيث استقبلتهما جماهير المدينة استقبال الابطال. واضطر اخرون من قادة الانتفاضة الى ترك البلاد، والتوجه الى استانبول.

أثار احتلال تبريز من جانب القوات الروسية الدستوريين في المناطق الاخرى،

---

(52) M.E. Yapp, 1900 - 1921, the Last Years of Qajar Oynasty, «Twentieth Century Iran», New York 1977, P. 11; H. Nazem, Op. Cit., PP. 47 - 50.

(٥٣) لجأ ستار خان وباقر خان في البداية الى دار القنصلية العثمانية في تبريز.

فانهـالت على رئيس الـوزراء برقيـات احتجـاج شديـدة اللهجـة من رشت وقـزوين واصفهـان ، فضـلا عن تبـريز نفسها ، طالب اصحابها منه ان تتخذ حكومته اجراءات حاسمة لفرض انسحاب عاجل للقطعات الروسية من المنطقة[٥٤]. وبعد فترة وجيزة لجأ التبريزيون الى السلاح ثانية في محاولة منهم لاجبار المحتلين على الانسحاب ، مع العلم ان زعماء الدستوريين اوصوا المجاهدين في البداية ان لايتحرشوا بالقوات الروسية على اساس ان قادتها اكدوا ان مهمتها تقتصر على فتح الطريق الى المدينة ، وايصال المؤن الى اهلها ، وضمان انسحاب الاجانب منها ، لتنسحب هي بعد ذلك من االمنطقـة دون تأخيـر. ولكن الـروس الـذين كانـوا يطمعـون بمنطقة تبريز ، التي طالبوا بها اثناء مفاوضات عقد «معاهدة تركمانجاي» ، لم تبد عليهم نية الانسحاب ، بل بقـوا هنـاك بالفعـل حتى سنـوات الحـرب العالمية الاولى ، وعززوا مواقعهم كلما وجـدوا الى ذلـك سبيـلا . فعنـدمـا هاجم رجـال رحيم خان اردبيل في ايلول ١٩٠٩ اتخذت بطرسبورغ منه ذريعة لارسال قوات جديدة الى المنطقة ، وتأجيل الانسحاب المـوعـود . وامـام عجـز الحكـومـة المركزية ، وتلكؤها الصريح ، نزل أهل تبريز الى ميـدان التصـدي المسلح للقـوات الروسية رغم امكاناتهم المتواضعة جدا . ففي ٢٧ كانون الاول ١٩٠٩ هاجم الفدائيون القوات الروسية التي اخترقت حرمة المدينة ردا على الهجـوم ، فدخلتهـا على رأس الجنرال فوربانوف (Vorbpanov) ، ونفذت حكم الموت بحق عدد من المجاهدين[٥٥] .

وتجـددت مقـاومـة الاذربيجـانيين للقـوات الـروسية في اواخر عام ١٩١١ ، اثناء الازمـة السيـاسيـة الحادة التي ظهرت بسبب موقف روسيا المعارض من وجود الخبير المـالي الامـريكي شوستـر في ايـران . فارتفعت اصـوات تنـادي بمقـاطعـة البضائع الـروسيـة . وفي اواخـر كانون الاول وقع صدام مباشر بين الجنود الروس واهالي تبريز ورشت ، ادى الى وقـوع خسـائـر بين الطرفين ، تختلف المصادر في تقدير حجمها . ولكن الـذي يستـرعي الانتبـاه ان التبـريـزيين مثلوا بجثث القتلى من الجنـود الروس الذين نشرت جريدة تايمس اللندنية صورهم في عددها الصادر يوم ١٥ كانون الثاني ١٩١٢ . وقد دفع ذلك الروس الى اتخاذ اجراءات مشددة بحق التبريزيين ، فقد القوا القبض على اعـداد كبيـرة منهم ، قدموهم الى محاكم خاصة شكلوها لهذا الغرض ،

---

(54) H. Nazem, Op. Cit., P: 51

(٥٥) بروفيسور و. مينورسكي ، تاريخ تبريز ، ترجمه وتحشيه عبد العلي كارنك ، ص ٧٥ .

كمـا نفـذوا حكـم المـوت بحق ٩ من ابـرز زعمـاء الفـدائيين الاذبيجـانيين، مما اثار استياء كبيرا في النفوس على الصعيدين الداخلي والخارجي(٥٦).

ان انتفاضة تبريز، ونتائجها، مع موقف الشاه من الاحتلال الروسي ومضاعفاته، فجرت الاوضاع في ايران، فتحرك المجاهدون من الشمال والجنوب صوب طهران، حيث اجبـروا محمـد علي شاه على التخلي عن العرش لابنه احمد شاه الذي اصبح اخر ملك قاجاري حكـم ايران لغاية عام ١٩٢٥(٥٧). اما الثورة الدستورية، التي كان الاذربيجـانيـون يؤلفون قوة محركة اساسية فيها، فقد اصبح بالامكان وضع نهاية لها بتـدخـل مبـاشر من المستعمرين البريطانيين، ولاسيما الروس، وتعاونهم مع حكومة الشاه في أواخر سنة ١٩١١.

بعد القضاء على الثورة الدستورية بدأت فترة جزر في النضال التحرري الاذري، شأنه في ذلك شأن مجمل الحركة الوطنية الايرانية. ولكن حتى انذاك ارتفعت اصوات الاحتجـاج مرارا ضد الـوجـود الـروسي في اذربيجـان، الامـر الـذي سجلتـه الوثائق الدبلوماسية السرية الروسية اكثر من مرة(٥٨). كما ان الموضوع نفسه اثار اوساطا اخرى خارج ايران. ففي لقاء جرى بين وزير خارجية تركيا عاصم بيك والسفير الروسي لدى الباب العالي جريكوف (Chrikoff) عبر الوزير عن امله في «حل مشكلة تبريز بسرعة»، خصوصا وانها، كما اكد، «تثير قلقا كبيرا بين مسلمي تركيا»(٥٩).

وكـل الـدلائـل تشير الى ان حكام روسيا كانوا يخططون للاستيلاء على اذربيجان الجنـوبيـة لضمهـا الى بلادهم في اقرب فرصة مواتية، لذا نراهـم يشجعون على نطاق واسـع اقتنـاء الارض الـزراعيـة هنـاك من قبل مواطنيهم، واعوانهم من الاذربيجانيين وغيرهم من الايرانيين. فحسبما اكدت جريدة «تايمس» اللندنية في عددها الصادر يوم ١٨ حزيـران ١٩١٤، وبـالاستنـاد الى مصـادر ايرانية رسمية، ان حوالي ثلث اراضي

---

(٥٦) للتفصيل راجع:

H. Nazem, Op. Cit., PP. 105 - 108.

(٥٧) للتفصيل راجع:

P. Sykes, Op. Cit., PP. 419 - 420.

(٥٨) «وزارة الخارجية - العلاقات الدولية في عصر الامبريالية - وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكـومـة المؤقتـة ١٨٧٨ - ١٩١٧»، التسلسـل الثالث، المجلد الرابع (٢٨ حزيران - ٢٢ تموز ١٩١٤)، موسكو - لينيغراد، ١٩٣١، ص ٣١٥ - ٣١٨، الوثيقة رقم ٢٥٥.

(٥٩) المصـدر نفسـه، المجلد التـاسع عشر، القسم الثاني (١٤ كانون الثاني - ١٣ ايار ١٩١٢)، موسكو - لينيغراد، ١٩٣٨، ص ١ - ٢، الوثيقة رقم ٣٤٦ والهامش رقم ٢.

المنطقــة غدت تحت سيطـرة الـروس. وتشـير مصـادر اخـرى الى ان حوالي ٧٥٪ من ملاكي الارض في اذربيجان كانوا عشية الحرب العالمية الاولى من رعايا روسيا، او ممن كانوا يتمتعون بحمايتها[٦٠].

وهكـذا فان اذربيجـان الايـرانيـة قد تحولت فعليـا الى محميـة روسية قبل الحرب، خاصـة بعـد ان عين عميلهم شجـاع الـدولة واليا عليها، والذي اصبح روسياً اكثر من الـروس، فقـد تمادى في موقفـه الى درجـة انـه عرقـل جمع الضرائب في الولاية لصالح الخـزينـة المـركـزيـة، مع ان ذلك كان يمثل القناة الوحيدة المتبقية التي مارست طهران نفـوذهـا في الـولايـة من خلالها. كما انه منع اشتراك اذربيجان في الانتخابات الجديدة للمجلس التي بدأت في اذار ١٩١٤[٦١]. بل انــه بلغ به الامــر حد ان اعـترض على اقامة الاحتفالات بمناسبة تتويج احمد شاه بعد بلوغه سن الرشد، فاصدر أوامر صريحة بهذا المعنى[٦٢].

عانت اذربيجـان الايـرانيـة صنـوف الـويـلات في سنوات الحرب العالمية الاولى، خصوصا وان اراضيها تحولت الى ميدان للعمليات العسكرية الروسية والتركية، وحتى الالمـانيـة، فضـلا عن مزاولات اتبـاع كبـار الاقطـاعيـين الذين تحولوا الى قطاع طرق فعليـين، يسلبـون وينهبـون كما يشاؤ ون. وقد ادى ذلك الى خلق صعوبات اقتصادية كبيرة، عانت الاوساط الفقيرة منها الامرين. وهنا يكفي ان نشير الى ان سعر القمح في تبريز قد ارتفع بمقدار حوالي عشرين مرة قياسا مع سعره قبل الحرب[٦٣].

ورغم صعوبة الموقف لم يترك الوطنيون الاذربيجانيون ميدان النضال الذي اتخذ في سنوات الحرب صورا متباينة في الشكل، متحدة في الدوافع. فمع اندلاع نيران الحرب عاود «حـزب مجاهـدي اذربيجـان» نشاطه، وهومن التنظيمات السياسية التي اشتركت بنشـاط في الثـورة الـدستـوريـة. وفي سنوات الحرب تعاون اعضاء الحزب مع القوات الـتركيـة التي غزت الاجزاء الغربية من ايران، وزاولوا نشاطا دعائيا مؤثرا ضد السلطة

---

(60) H. Nazem, Op. Cit., P. 128.

(61) Ibid, PP. 157 - 158

(٦٢) «وزارة الخارجية ـ وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة»، التسلسل الثالث، المجلد الـرابـع (٢٨ حزيـران ـ ٢٢ تمـوز ١٩١٤)، موسكو ـ لينيغراد، ١٩٣١، ص ٢٢٣، الوثيقة رقم ١٦٨.

(٦٣) راجع:

جبـرائيـل روئين دز، انقـلاب كبيـر سوسياليستى اكتبر وجنبش خيابانى، «انقلاب اكتبر وايران»، از انتشارات شعبه تبليغات حزب توده ايران. باكو (؟)، ١٣٤٦، ص ٢٩٣.

المـركـزيـة والحلفاء. ولما تحول الاتحاديون من شعارات «الوحدة الاسلامية» الدينية الى شعارات «الوحدة الطورانية» القومية استجاب لهم العديد من الاذربيجانيين الايرانيين الـذين نشـروا في صحفهم مقـالات تؤكـد على انتـمائهم الطـوراني. وحينـما اسـس الاذربيجانيون الشماليون بمساعدة تركيا «جمهورية اذربيجان» قبل انتهاء الحرب، دعوا اذربيجانيي ايران للانضمام اليها، ورفعوا شعار نقل عاصمتهم من باكو الى تبريز. كما بشرت صحفهم بالافكار نفسها، وكانت اعدادها تصل تبريز والمدن الحدودية، حيث لقت رواجـا واسعـا، الامـر الـذي اثـار حكـام ايـران والاوسـاط القومية الفارسية التي تصدت صحافتها لافكار المنشقين الاذربيجانيين[٦٤].

ومع اعلان الحرب عقدت «جمعية نشر المعارف» اجتماعا طارئا في تبريز للمداولة في الموقف الذي على اعضائها تبنيه في الظرف الجديد، فانقسمت اراء المجتمعين بين من يرغب في استغـلال ظروف الحـرب لتفجيـر ثورة في اذربيجان، ومن يؤيد الوقوف الى جانب العثمانيـين والالمان، وفريق ثالث رأى المصلحة في اتخاذ موقف محايد. وقد سافر ثلاثة من ابرز اعضاء الجمعية، هم محمد علي خان ومرزا رضا خان تربيت ومحمود غني زادة، الى برلـين حيث اسسـوا بالتعـاون مع حسن تقي زادة جمعيـة اصـدرت مجلتهـا الخـاصـة بها باسم «كـاوه» التي يحمـل عددهـا الاول تاريـخ ٢٤ كانون الثاني ١٩١٦، وكانت تعالج قضايا ايران السياسية. ومع انتهاء الحرب اختفت الجمعية، فيما انتقلت ادارة «كاوه» الى اخرين من غير اعضائها[٦٥].

برز في سنـوات الحـرب العـالمية الاولى نجم الشخصية السياسية الليبرالية المعروفة الشيخ محمد خياباني، الذي قدر له ان يلعب دورا كبيرا في تأريخ ايران عموما، وتأريخ اذربيجان خصوصا.

ولـد محمـد بن الحـاج عبدالحميد، الذي اصبح يعرف بالشيخ محمد خياباني، سنة ١٨٨٠ في قرية خامنئي القريبة من تبريز في اسرة تجارية صغيرة، وزاول بنفسه التجارة في شبـابـه[٦٦]. حصـل خيـابـاني التعليم منذ صغره، فدرس الفقه والاصول والحكمة

---

(٦٤) للتفصيل راجع:

فوزي خلف شويـل، ايـران في سنـوات الحرب العالمية الاولى، رسالة ماجستير، كلية الاداب - جامعة بغداد، ١٩٨٣، ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٦٥) للتفصيل راجع:

كريم طاهر زاده بهزاد، قيام اذربايجان در انقلاب مشروطيت ايران، ص ٣٦٨ - ٣٧٦.

(٦٦) عن تأريخ حياة خياباني راجع:

شيـخ محمـد خيـاباني، اذربايجان واذربايجانين دموكراتيك قوه لرى، «اذربايجان» روزنامه سينين

والكلام والعلوم الصرفة في تبريز وبيتر وفسك[٦٧]، فاصبح مثقفا بارزا، مولعا بالفلسفة والتأريخ والاقتصاد والرياضيات والفلك. وفضلا عن لغته الاذرية كان يجيد الفارسية والتركية والعربية والفرنسية. تميز خياباني بالذكاء، والصبر والاخلاص، وكان خطيبا لامعا، تنفذ كلماته الى اعماق مستمعيه. وقد وصفت جريدة «تجدد» امكاناته الخطابية هكذا:

«تسري كلماته الجميلة، وعباراته البليغة سريان الماء الرقراق في جدول جار»[٦٨].

كان الشيخ محمد خياباني مؤمنا بعمق بالحياة البرلمانية، وبالقيم الديمقراطية والحرية الفردية، وقف ضد كل انواع التعسف والارهاب، وكان يؤكد في خطبه وكتاباته على انه يضع مصلحة شعبه، ومواطنيه فوق أي مصلحة اخرى[٦٩].

إشترك خياباني بحماس في الثورة الدستورية، ولعب دورا بارزا في انتفاضة تبريز، كما انتخب عن اذربيجان للمجلس في دورته الثانية التي بدأت عام ١٩٠٩. واثناء ازمة عام ١٩١١ وقف خياباني في المجلس بثبات الى جانب رفض الانذار الروسي، ودخل في نقاش طويل مع رئيس المجلس وكبار المسؤولين حول الموضوع. ثم عقد اجتماعا حاشدا في احدى ساحات العاصمة طهران كشف فيه على مدى ساعة ونصف الساعة ابعاد سياسة حكومة الشاه، وحكام روسيا تجاه اذربيجان[٧٠]. وعلى اثر ذلك اضطر الى ان يترك ايران خشية اعتقاله، فانتقل للمرة الثانية الى داغستان، حيث اصبح على اتصال وثيق بالمفكرين الشوريين في مناطق ما وراء القفقاس، منهم التبريزي الاصل مرزا رحيم طالبوف، الذي لعبت كتاباته دورا ملموسا في رفع الوعي السياسي والاجتماعي بين مثقفي اذربيجان الايرانية. ومنذ ذلك الوقت بدأت افكار خياباني تقترب الى حد كبير من اراء الاشتراكيين الديمقراطيين. فقد غدا يؤمن بضرورة

نشريه سى، ١٩٦١، باللغة الاذربيجانية، ص ١ ـ ٩ (المقدمة)؛ بروفيسور و. مينورسكى، تاريخ تبريز، ترجمه وتحشيهء عبد العلي كارنك، ص ٧٨ ـ ٧٩؛

N.S. Fatemi, Diplomatic History of Persia 1917 - 1923. Anglo - Russian Power Politics in Iran, New York. 1952, PP. 246 - 248, 250; M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 275.

(٦٧) عاصمة داغستان، وقد اعيد اليها اسمها السابق محج قلا بعد ثورة اكتوبر.

(٦٨) مقتبس من:

N.S. Fatemi, Op. Cit., P. 247.

(٦٩) راجع خطبه في:

س. علي اذري، قيام شيخ محمد خياباني سر تبريز، جاب اول، تهران، ١٣٢٩.

(٧٠) المصدر نفسه، ص ٢٤ ـ ٣٩.

استيلاء الشعب على السلطة لصالح الفقراء[٧١]. ومن الضروري ان نشير الى ان خياباني فهم طبيعة انكلترا كدولة استعمارية في تلك المرحلة من نضاله[٧٢]، اي في وقت كان لايزال العديد من القادة الليبراليين الايرانيين يعتقدون بامكانية الاعتماد على لندن في نضالهم من أجل الدستور، بحيث انهم اختاروا باحة السفارة البريطانية لاول اعتصام اعتبر بمثابة الشرارة الاولى للثورة الدستورية.

عندما اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى عاد خياباني الى ايران، وزاول نشاطا واسعا ضد سياسة الشاه، والوجود الاجنبي في تبريز، فتعرض الى ملاحقة السلطات المحلية التي خشيت التفاف العناصر الليبرالية حوله. وعندما احتل الاتراك تبريز عام ١٩١٦ القوا القبض عليه، وابعدوه الى قارص. ولكن سرعان ما افرج عنه، فعاد الى تبريز حيث عاود نشاطه السياسي، وبدأ باصدار جريدة «تجدد» اعتبارا من يوم التاسع من نيسان سنة ١٩١٧، والتي التف حولها المثقفون الثوريون الاذربيجانيون. ثم بادر خياباني الى تأسيس الحزب الديمقراطي الاذربيجاني الذي انعقد مؤتمره التأسيسي الاول في أواخر آب ١٩١٧ بحضور ٤٨٠ مندوبا، كانوا يمثلون الملاكين الليبراليين، والمثقفين الثوريين، والعناصر البورجوازية الجديدة، وبعض الواعين من العمال والحرفيين، وصغار رجال الدين[٧٣].

تحولت ثورة اكتوبر الاشتراكية الى نقطة تحول مهمة بالنسبة للنضال التحرري الاذربيجاني في ايران. فان مجرد سحب القطعات الروسية من تبريز واردبيل، وغيرهما من المناطق الاذربيجانية، قد هيأ ظروفا انسب للتحرك السياسي الاذربيجاني في ظروف الانحلال الكبير الذي كانت تعاني منه السلطة المركزية في طهران. ثم ان تحولا فكريا ملموسا قد طرأ على التوجهات السياسية للاوساط الراديكالية الاذرية. فقد رفع الحزب الديمقراطي الاذربيجاني شعار تأسيس نظام اشتراكي، ودعا الى اشتراك الجماهير في تسيير دفة الحكم[٧٤].

---

(71) Sh. M. Badi, Op. Cit., P. 134.

(٧٢) س. علي اذري، قيام شيخ محمد خياباني در تبريز، ص ٤١.

(73) Sh. A. Tagieva, Natsionalno - Osvoboditelnoe Dvijenie V Iranskom Azerbaijane V 1917 - 1920, Baku, 1956, PP. 44 - 48.

ش. أ. تاغييفا، حركة التحرر الوطني في اذربيجان الايرانية في ١٩١٧ - ١٩٢٠، باللغة الروسية، باكو، ١٩٥٦، ص ٤٤ - ٤٨؛ جبرائيل روئين دز، انقلاب كبير سوسياليستي اكتبر وجنبش خياباني، ص ٢٩٧.

(74) N.S. Fatemi, Op. Cit., P. 250.

ولكن بالمقابل ان خروج روسيا من اللعبة ادى الى فتح ابواب ايران على مصراعيها امام القوى الطامعة الاخرى. فاعاد الاتراك احتلال اراضي واسعة من اذربيجان، بما فيها مدينة تبريز، والقوا القبض ثانية على خياباني وعدد من رفاقه الذين نفوهم الى اورميه. كما نشط الالمان والامريكان، وغيرهم في مناطق ايرانية مختلفة. ولكن لم يستفد طرف دولي بقدر ما استفاد الانكليز من الاوضاع التي استجدت على الساحة الايرانية، فقد صفي الجو امامهم كليا ليثبتوا اقدامهم هناك بشكل لم يسبق له مثيل، خصوصا بعد ان اضطر الالمان والاتراك الى الانسحاب من اراضي ايران، مثل غيرها، اثر هزيمتهم في الحرب العالمية الاولى.

فقبل ان تضع الحرب اوزارها بشهرين ونيف الف وثوق الدولة وزارة جديدة لم تتردد عن التعاون مع البريطانيين في الميادين كافة. ولم تمض سوى فترة وجيزة على انتهاء الحرب عندما وقعت حكومته معاهدة جديدة مع لندن منحتها بنودها من الامتيازات ماجعلت من ايران اشبه ماتكون بمحمية بريطانية[٧٥].

أثار عقد المعاهدة الانكلو- ايرانية موجة استياء شديدة بين الايرانيين. الا ان حكومة وثوق الدولة لجأت الى سلسلة من الاجراءات للحد من تأثير المعارضة الوطنية، فقد اعلنت الاحكام العرفية في العاصمة طهران، وجرى مفعول منع التجول بعد التاسعة ليلا لفترة طويلة من الزمن، ومنعت النشاط الحزبي، وفرضت رقابة مشددة على المطبوعات، وعلى تحركات العناصر الليبرالية.

وفي الوقت نفسه تحولت آثار التغلغل البريطاني المتزايد الى عبء جديد اثقل كاهل الاقتصاد الايراني الذي ظل يعاني بشدة من بقايا الخراب الاقتصادي الذي تركته سنوات الحرب. كما ان انقطاع العلاقات التجارية مع روسيا، التي كانت تؤلف ٧٠٪ في الميزان التجاري الخارجي الايراني مقابل ٢٠٪ فقط لانكلترا عشية الحرب[٧٦]، أثر على الوضع العام في السوق. وجراء كل ذلك ساء وضع الفئات الفقيرة في الريف، والمدن التي امتلأت شوارعها بجيش كبير من المتسولين والعاطلين عن العمل، وغدت الهجرة من الريف الى المدينة، او الى الخارج احيانا، من الظواهر الاجتماعية المألوفة.

أدت هذه الاوضاع الى تفجير الوضع السياسي في البلاد بعد انتهاء الحرب مباشرة. فقد شهدت العديد من المدن الايرانية تحركات جماهيرية، واضرابات عمالية

---

(٧٥) للتفصيل عنها راجع موضوع «رضا المازندراني والعرش الايراني».

(76) H. Nazem, Op. Cit., P. 173.

في تلك الفترة. واتخذ الموقف في اذربيجان طابعا اخطر، واكثر جدية من بقية انحاء ايران، فقد انفجرت فيها انتفاضة جديدة في العام ١٩٢٠ دخلت التأريخ باسم «انتفاضة خياباني»، نسبة الى قائدها الشيخ محمد خياباني، الذي اعلن يوم ٩ نيسان(٧٧) في اجتماع جماهيري عن قطع ولاية اذربيجان لعلاقاتها بالسلطة المركزية المعادية للديمقراطية. وبعد أيام اعلن عن خطة اصلاحية تناولت الامور الثقافية والمالية في اذربيجان، واسس مستشفى، وثلاث مدارس جديدة في تبريز هي «المحمدية» و«فيوضات» و«حكمت». واصدر مجلة «ازاديستان» التي اخذت على عاتقها مهمة نشر «نظريات وعقائد النهضة». واعلن عن تخفيض اسعار المواد الحياتية الضرورية، وعن الغاء الالقاب. كما خطط لتأسيس جيش شعبي يضم ١٢ ألف مقاتل(٧٨). وحاول خياباني تحريض المناطق الايرانية الاخرى للقيام بوجه وزارة وثوق الدولة. ففي عددها الصادر يوم ١٥ حزيران ١٩٢٠ كتبت جريدة «تجدد» تقول:

«ان حركة تبريز هي تحذير للطبقة الحاكمة الفاسدة في طهران، وهي نموذج جيد للمقاطعات الاخرى في البلاد»(٧٩).

فقد كان خياباني يصر في كتاباته، وخطبه اليومية(٨٠)، على ضرورة «تغيير نظام الحكم في ايران» بنظام جمهوري يوفر «الحرية، وقيما اخلاقية افضل، وتسهيلات اكبر في مجال التعليم»(٨١).

استقبلت جماهير اذربيجان حركة خياباني بحماس بالغ، فارتفعت اصداء الاناشيد الثورية في كل مكان، وخصوصا في المراكز المدنية(٨٢). وقد استولى الثوار على المراكز الحكومية، وطردوا جميع الموظفين الموالين للشاه، فيما انضم الاخرون الى المؤسسات الثورية الجديدة، منهم رجال الجندرمة الذين كان يوجد بينهم عدد غير قليل من الذين

---

(٧٧) حسب بعض المصادر يوم السابع من نيسان.

(٧٨) س. علي اذري، قيام شيخ محمد خياباني در تبريز، ص ٤٠٧، ٤٩٥ - ٤٩٦؛
Sh. A. Tagieva Op. Cit., PP. 98 - 99.

(٧٩) مقتبس من:
N.S. Fatemi, Op. Cit., PP. 251 - 252

(٨٠) كان خياباني يلقي عصر كل يوم خطابا في جماهير تبريز (و. مينورسكى، تاريخ تبريز، ترجمه وتحشيه عبد العلي كارنك، ص ٧٩).

(81) G. Lenczowski, Russia and the West in Iran (1918 - 1948), New York, 1949, P. 61.

(٨٢) لم يول نظام خياباني موضوع الارض مايستحق من اهتمام، مما ادى الى بقاء الوسط الفلاحي الواسع بعيدا الى حد واضح عن الاحداث الثورية في تبريز.

اشتركوا في الثورة الدستورية. واختار الثوار لنظامهم، وللمناطق المحررة، اسما جديدا هو «ازاديستان»، اي بلاد الحرية التي الفوا لها حكومة خاصة يوم ٢٤ حزيران عام ١٩٢٠، اشترك في عضويتها ممثلون عن المثقفين والتجار ورجال الدين وصغار الملاكين. وقد لخصت حكومة «ازاديستان» اهدافها في النقاط الرئيسة التالية:

١ـ قلب نظام الشاه، واقامة نظام جمهوري ديمقراطي مكانه.
٢ـ وضع نهاية لتبعية ايران للدول الكبرى الاستعمارية.
٣ـ منح اذربيجان الايرانية الحكم الذاتي.
٤ـ منح الحريات الديمقراطية، واجراء اصلاحات اقتصادية وثقافية وغيرها.

أدخلت احداث اذربيجان الثورية الخوف في نفوس الحكام، وكل الرجعيين في ايران، فاسرعوا الى اتخاذ الاجراءات الكفيلة بقمع الحركة الوطنية الاذرية قبل ان تتحول، في مرحلتها الحاسمة الجديدة، الى ثورة عامة مشابهة للثورة الدستورية[٨٣].

وقد لقيت خطة حكومة الشاه ضد «ازاديستان» تشجيعا مباشرا من السفارة البريطانية في طهران، لاسيما وان جانبا كبيرا من اصوات احتجاج ثوار اذربيجان انصب ضد الوجود البريطاني في البلاد، وبالتحديد ضد معاهدة عام ١٩١٩ التي وردت بالاسم مرارا في خطب خياباني، وعلى صفحات جريدة «تجدد»[٨٤]. فكان من الطبيعي ان يعادي البريطانيون انتفاضة خياباني، فبعثوا ادموندس خصيصا الى المنطقة «لمهمة تخريبية» على حد تعبير علي اذري مؤلف كتاب «قيام الشيخ محمد خياباني في تبريز»[٨٥]. وقد اشاع المسؤولون الايرانيون، وبتشجيع من البريطانيين، اشاعات كاذبة عن خياباني، واتهموه بالانفصالية، مع ان مطاليبه ركزت على الحكم الذاتي، وبتوافق تام مع مضمون المادة التاسعة والعشرين من قانون ذيل الدستور الايراني[٨٦].

وضعت طهران خطة مخاتلة للقضاء على انتفاضة خياباني. فقد عينت مخبر السلطنة هدايت، الذي كان يحاول ان يظهر نفسه في ثوب المؤمن بالافكار الليبرالية،

---

(٨٣) في هذه الفترة بدأت مناطق اخرى من ايران بالتحرك الثوري، وكان لاحداث اذربيجان التأثير على بعضها.

(84) M.S. Ivanov, Ochirk..., PP. 275 - 276.

(٨٥) س. علي اذري، قيام شيخ محمد خياباني در تبريز، ص ٤١٣.

(86) sh.m. badi. Op. Cit., PP. 136 - 137.

حاكما عاما جديدا على اذربيجان. وقد رافقته الى هناك قوة من القوزاق، عسكرت قرب تبريز.

دخل الحاكم العام الجديد في مفاوضات «ودية» مع قادة الانتفاضة، فيما كان يجري سرا اتصالات مريبة مع العناصر الرجعية، ويعمل من أجل شراء ذمم اصحاب النفوس الضعيفة الذين اندسوا بين صفوف الثوار، وظل يدرس بامعان تحصيناتهم على مدى عشرة ايام من المفاوضات، اجراها باسلوب ادخل الاطمئنان في نفوس خياباني ورفاقه. واخيرا وجه مخبر السلطنة ضربة مباغتة للثوار صبيحة ١٢ ايلول ١٩٢٠، رافقها الاستيلاء على مراكز الثوار، واحتلال اكثر من ٣٠٠ دار من دور قادة الانتفاضة الذين قتل العديد منهم، واعتقل الاخرون. ولم يستسلم خياباني، بل ظل يقاوم مع نفر من اعوانه على مدى اليومين التاليين، الى ان قتل شر قتلة على أيدي المهاجين يوم ١٤ ايلول[٨٧]، لتبدأ بعد ذلك فترة جزر جديدة في النضال التحرري الاذربيجاني في ايران.

رغم فشلها، الا ان انتفاضة خياباني ساعدت على رفع الوعي الثوري في المناطق الايرانية الاخرى، كما تدخل ضمن العوامل التي أدت الى سقوط وزارة وثوق الدولة الموالية للبريطانيين في اواسط عام ١٩٢٠. وفضلا عن ذلك اسهمت الانتفاضة، مع غيرها، في فضح نواقص الحكم القاجاري الذي فقد بعد الحرب سمعته نهائيا في نظر الايرانيين، مما هيأ ظروفا انسب لازاحته، الامر الذي عرف رضا المازندراني (البهلوي فيما بعد) كيف يستغله للقضاء على حكم احمد شاه لينتهي بذلك العهد القاجاري في تأريخ ايران الحديث يوم ٣١ تشرين الاول ١٩٢٥، وليبدأ عهد جديد في تأريخها المعاصر يعرف بالعهد البهلوي، الذي أصبح مؤسسه رضا شاه اول ملك له اعتبارا من يوم ١٢ كانون الاول ١٩٢٥[٨٨].

قبل ان يتبوأ العرش بسنوات تمكن رضا شاه من قمع الحركات والانتفاضات الثورية للشعوب غير الفارسية في ايران بقسوة. لذا فان سنوات حكمه الدكتاتوري تعتبر فترة هادئة نسبيا، وفي الظاهر على الاقل، في تاريخ ايران المعاصر. ولكن في

---

(٨٧) للتفصيل راجع:

س. علي اذري، قيام شيخ محمد خياباني در تبريز، ص ٦٤٨ - ٦٥٢؛ جبرائيل روئين دز، انقلاب كبير سوسياليستى اكتبر وجنبش خياباني، ص ٣٠٢ - ٣٠٣؛

Sh. A. Tagieva, Op. Cit., PP. 113 - 114.

(٨٨) للتفصيل راجع الموضوع المعنون «رضا المندراني والعرش الايراني».

الـواقـع كانت عمليـة التراكم الكمي للحقد المشروع في نفوس ابناء تلك الشعوب في تزايـد مستمـر، خصوصا بسبب تمادي العهد البهلوي في سياسته الشوفينية المبنية على تفريسهم. يقول البروفيسور م. س. ايفانوف بهذا الصدد:

«كانت ايران في عهد رضا شاه عبارة عن معتقل كئيب للشعوب، تستباح فيه ابسط حقوق الاقليات القومية»[٨٩]

ورغم استبداده، ووسائله القمعية، الا ان الاستياء الاذربيجاني قد عبر عن نفسه بصور مختلفة في عهد رضا شاه الذي كان يكن حقدا في نفسه تجاه اذربيجان على حد قول المؤرخ البريطاني بيتر افرى[٩٠]. ويومذاك ظهرت ممارسات جديدة في النضال التحرري الاذربيجاني، تميزت بنمـو دور الكادحين، من عمال وفلاحين، فيها. ففي حزيران عام ١٩٢٦ انتفض جنود وفلاحو ديلمان التي اصبحت تعرف بشاهبور في العهد البهلوي[٩١]. وقـد استخـدم رضا شاه الجيش لقمعهم بقسوة بالغة. وفي العام ١٩٣٠ اعلن مالايقـل عن الفي فلاح مازنـدراني التمـرد بسبب قطـع المياه عن اراضيهم، وتحـويلهـا الى اراضي الشـاه الـذي لم يتردد عن استخـدام القـوة ضدهم، فالتجأ العشرات منهم الى الغابات المجاورة. وفي العام ١٩٣١ حدث تمرد في معمل الشخاط بتبريز، ووقع اضرابان بين عمال السكك في مازندران المجاورة. وجرت في الوقت نفسه محاولات لتأسيس منظمات للعمال والشباب في العديد من المدن الاذربيجانية[٩٢]. كما شهـدت المنـاطق الاخـرى، وفي اوقـات مختلفـة، حركـات مشـابهـة لما وقـع في تبريـز ومـازنـدران، كانت تعكس الـواقـع المأسـاوي للطبقات الاجتماعية الكادحة في العهد البهلوي. فقد ورد في النداء الذي وجهته «عصبة مكافحة الامبريالية» الى عمال العالم بتأريخ ٢٠ تموز ١٩٣١ مانصه:

«وان اكثـر من الفي معتقـل سيـاسي يعـانـون من التعـذيب في السجـون الفـارسيـة. ان حكـومـة بهلوي لاتعترف لهم بحق المثول امام المحاكم. ان المنظمات العمالية الثورية تتعرض لارهاب وحشي»[٩٣].

---

(89) M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 325.

(90) P. Avery, Modern Iran, P. 387.

(٩١) غيرت السلطات اسماء العديد من المدن والمناطق الاذربيجانية في العهد البهلوي.

(92) A.E. Diomin, V.V. Trubetskay, Iran V Godi Economicheskovo Crisisa, «Iran. Ochirk Noveyshi Istorii», Moscow, 1976, PP. 106, 109; M.S. Ivanov, Ochirk..., PP. 325, 327.

(٩٣) مقتبس من:

M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 328.

ولكن رضا شاه لم يعر الرأي العام الداخلي والخارجي ادنى اهتمام، فاستمر يزاول سياسة القمع بحق الاذربيجانيين، وغيرهم من الايرانيين، دون هوادة. فباعتراف الصحافة الايرانية نفسها ان المحاكم العسكرية الخاصة ادانت في غضون النصف الثاني من عام ١٩٣٢ فقط ١٥٣ شخصا، نفذ حكم الموت بحق ٣٦ منهم، وحكم على ١٩ منهم بالسجن المؤبد، وصدرت احكام بحق البقية بلغ مجموعها ٣٥٥ عاما[٩٤].

دخل النضال التحرري الاذربيجاني مرحلة جديدة من مراحل تطورها في سنوات الحرب العالمية الثانية، ولاسيما بعد ابعاد رضا شاه عن العرش يوم ١٦ ايلول عام ١٩٤١. ومنذ ذلك التأريخ فقدت طهران عمليا كل نفوذ لها في اذربيجان التي دخلت ضمن المنطقة التي اصبحت في حوزة القوات السوفيتية[٩٥]. وفي الواقع اصبحت اذربيجان الايرانية تعيش في سنوات الحرب مخاضا ثوريا مهما، فقد عم الاستياء الاكثرية الساحقة من سكانها. ولم يكن مجرد صدفة ان اكد محمد رضا شاه بعد تسنمه للعرش مباشرة، على ضرورة اجراء الاصلاحات في اذربيجان بصورة خاصة[٩٦].

تركزت مطاليب الاذربيجانيين في سنوات الحرب العالمية الثانية على تعديل الدستور بصورة تضمن حقوقهم القومية المشروعة، وتطهير اجهزة الدولة، ومنح الحريات الديمقراطية. وبما ان الاوساط الحاكمة كانت تخشى مبادرات الاذربيجانيين بصورة خاصة، لذا لجأت بحقهم الى اجراءات غريبة في بابها. ففي العام ١٩٤٤ رفض المجلس تصديق عضوية الشخصية السياسية الاذربيجانية البارزة جعفر بيشوري الذي حصل على الاكثرية الساحقة من اصوات ناخبي تبريز في انتخابات ١٩٤٣، الامر الذي اثار موجة احتجاج شديدة بين الاذريين، انتقلت اثارها الى طهران، حيث احتج ضد قرار المجلس ٦٠ صحفيا من محرري جرائد العاصمة. وعلى الغرار نفسه رفضت وزارة الداخلية في العام التالي الاعتراف بالاعضاء المنتخبين للمجلس البلدي في تبريز[٩٧].

---

(94) A.E. Diomin and V.V. Trubetskay, Op. Cit., P. 110.

(٩٥) اثر تزايد النفوذ الالماني في ايران، دخلت القوات السوفيتية المناطق الشمالية، والبريطانية المناطق الجنوبية من ايران في ٢٥ آب ١٩٤١، وانسحبت منها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

(٩٦) راجع:

عبد الهادي كريم سلمان، ايران في سنوات الحرب العالمية الثانية، رسالة ماجستير، كلية الاداب - جامعة بغداد، ١٩٨٣، ص ١٣٠.

(97) P. Avery, Op. Cit., P. 388; M.S. Ivanov, Ochirk..., P. 367.

ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية شدد الاذربيجانيون نضالهم في سبيل حقوقهم القومية، وقد اولوا التنظيم في خضمه اهتماما اكبر من السابق. ففي اب ١٩٤٥ اسس الوطنيون الاذربيجانيون «فرقه» ديمقرات اذربايجان» (الحزب الديمقراطي الاذربيجاني)، الذي عقد اول مؤتمر له في تبريز يوم ٢ تشرين الاول من العام نفسه. وقد حضر المؤتمر ٢٣٥ مندوبا ناقشوا على مدى اربعة ايام برنامجه ونظامه الداخلي، وانتخبوا لجنته المركزية. واصدر الحزب جريدته المركزية «اذربايجان» باللغة الاذرية[٩٨].

التفت جماهير واسعة حول الحزب الديمقراطي الاذربيجاني. فحسب المعلومات التي نشرتها جريدة «اذربايجان» في عددها الصادر يوم ٢٣ كانون الثاني ١٩٤٦ بلغ عدد اعضاء الحزب في اواخر العام ١٩٤٥ حوالي ٧٠ الف عضو، كان ٥٦ الفا منهم من الفلاحين، و ٦ الاف من العمال، و٣ الاف من الحرفيين، والفان من المثقفين، والفان من صغار التجار، و ٥٠٠ من صغار الملاكين، و ١٠٠ من رجال الدين.

وقبل ان ينتهي عام ١٩٤٥ خطا الاذربيجانيون خطوة اخرى. فاثر اجتماعات جماهيرية في كل انحاء اذربيجان الايرانية، تقرر تأسيس مجلس شعبي، افتتح يوم ٢٠ تشرين الثاني بحضور ٧٤٤ مندوبا كانوا يمثلون كل الفئات الاجتماعية، وجميع المناطق الاذربيجانية. وقد رفع المجلس شعار «الحكم الذاتي»، وانتخب لجنة خاصة مؤلفة من ٣٩ عضوا، عهد اليها ادارة اذربيجان، واجراء الانتخاب لاعضاء مجلس اذربيجاني خاص، مع حق المفاوضة مع السلطات المركزية لحل المشكلة الاذربيجانية حلا سلميا.

جرت انتخابات المجلس الوطني الاذربيجاني التي اشتركت المرأة فيها لاول مرة في تاريخ ايران، وفي ١٢ كانون الاول ١٩٤٥ افتتح المجلس الذي بلغ عدد اعضائه ١٠١. وعهد المجلس الى جعفر بيشوري رئاسة حكومة اذربيجان ذات الحكم الذاتي، التي حددت برنامجها في النقاط التالية:

١ـ تعزيز الحكم الذاتي في اذربيجان.
٢ـ انتخاب المجالس الادارية للمدن والمقاطعات.
٣ـ تحويل كتائب الفدائيين الى جيش شعبي.

---

(٩٨) في سنوات الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد سقوط رضا شاه، ارتفع عدد الصحف الصادرة في ايران بصورة ملموسة. ففي العاصمة طهران وحدها كانت تصدر ١٠٣ جرائد، و ٢٩ مجلة. اما في تبريز فقد كانت تصدر اربع جرائد.

٤ـ جعل الاذربيجانية لغة رسمية .
٥ـ نشر التعليم الالزامي المجاني، وتأسيس جامعة خاصة .
٦ـ تطوير الصناعة والتجارة .
٧ـ وضع قانون للعمل، وتنظيم العلاقات بين الملاكين والفلاحين .
٨ـ توزيع اراضي الدولة، واراضي الاقطاعيين الاذربيجانيين الذين انتقلوا الى الخندق المعادي، بين الفلاحين .
٩ـ ضمان حرية الرأي والاعتقاد لجميع مواطني اذربيجان .

وفي الوقت نفسه اعلنت حكومة بيشوري انها تعترف بالحكومة المركزية، وتنفذ كل مايصدر عنها في حالة عدم تعارضه مع اسس الحكم الذاتي المعلن لاذربيجان[٩٩] . كما اتخذت سلسلة اجراءات بصدد تنظيم العلاقات بين الفلاحين والملاكين فيما يخص تقسيم الحاصل، ووزعت حوالي ٢٦٠ الف هكتار من الارض الزراعية على حوالي ٢١٠ الاف فلاح، ونظمت الشؤون الاقتصادية للمنطقة، واسست ورشة لصناعة السجاد، وحددت ساعات العمل اليومي للعمال بثمان فقط . واولت حكومة بيشوري الثقافة والفن اهتماما خاصا، فاعلنت عن تأسيس «جامعة اذربيجان الحكومية»، وافتتحت عددا كبيرا من المدارس الجديدة، والفت فرقا خاصة لمكافحة الامية في الريف، واسست مدرسة للفنون، ومسرحا، وفرقة موسيقية . وبفضل الاجراءات الجديدة اصبحت كلفة الحياة في تبريز، ثاني كبرى مدن ايران، تؤلف، في المعدل، نصف كلفتها في طهران .

وفي ظروف ايران يومذاك، ونتيجة لفشل جميع محاولات الاوساط الحاكمة ، وكبار الاقطاعيين الاذربيجانيين لخلق مشاكل جدية في اذربيجان[١٠٠]، اضطرت حكومة قوام السلطنة للدخول في مفاوضات مع حكومة بيشوري، التي انتهت يوم ١٣ حزيران ١٩٤٦ بالتوقيع على اتفاقية بين الطرفين نصت موادها على تلبية جانب كبير من مطاليب الاذربيجانيين .

ولكن الاوساط الحاكمة الايرانية استطاعت ان تعيد ترتيب اوضاعها بفضل سلسلة من المناورات السياسية، ونتيجة المساندة المباشرة التي ابدتها لها لندن وواشنطن . فمنذ

---

(٩٩) للتفصيل راجع :

M.S. Ivanov, Ochirk..., PP. 369 - 370; P. Avery, Op. Cit., PP. 390 - 391.

(١٠٠) فقط خلال شهر تشرين الاول سنة ١٩٤٥ دبر الرجعيون اغتيال حوالي مئة شخص من مؤيدي الحزب الديمقراطي الاذربيجاني .

لواسط عام ١٩٤٦ توالت ضرباتها الموجهة للمكتسبات الديمقراطية القليلة التي حققها الايرانيون في ظروف الحرب، واندحار الفاشية. بعد ذلك جاء دو اذربيجان وكردستان[١٠١]. ففي ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٦ اعلن قوام السلطنة عن عزم طهران ارسال قواتها الى جميع مقاطعات ايران دون استثناء بهدف «ضمان حرية الانتخابات» للمجلس في دورته الخامس عشرة، كما ادعى، وفعلا توجهت القوات الايرانية صوب اذربيجان بعد اقل من ثلاثة اسابيع من نشر التصريح، وبدأت حملة ارهاب واسعة النطاق ادت الى مقتل واعتقال الالوف من الاذربيجانيين، والى هرب عشرات الالوف منهم الى داخل اراضي اذربيجان السوفيتية، بمن فيهم جعفر بيشوري[١٠٢]. وحسب المعلومات التي نشرتها جريدة «مردم» في عددها الصادر يوم ٧ تموز ١٩٤٧ تم تنفيذ احكام الاعدام بحق ٧٦٠ من الديمقراطيين الاذربيجانيين بعد القضاء على حكومة بيشوري.

تحولت الاحداث الاخيرة الى ضربة قوية وجهت للنضال التحرري الاذربيجاني في ايران، فقد احتاج الى سنوات عديدة قبل ان يستعيد انفاسه من جديد، ويتحول مرة اخرى الى قوة ضاربة، وحاسمة في الساحة السياسية الايرانية. ان النضال التحرري الاذربيجاني ظل يؤلف شوكة سامة بجنب النظام البهلوي حتى النهاية...

---

(١٠١) بالنسبة لاحداث كردستان راجع الموضوع المعنون «حقائق عن النضال التحرري الكردي في ايران».

(١٠٢) توفي جعفر بيشوري بحادث سيارة قرب مدينة باكو. تحوم الشبهات في تدبير الحادث حول باقروف، الزعيم الستاليني الاذربيجاني المتطرف، السكرتير الاول السابق للحزب الشيوعي الاذربيجاني السوفيتي الذي اعدم مع بيريا، ونفذ فيه حكم الموت...

الموضوع السابع

حقائق عن النضال التحرري الكردي في ايران

تشغل كردستان الايرانية الاقسام الشمالية الغربية من ايران، وهي تتصل من الشمال والشرق باراضي اذربيجان الجنوبية، وتمتد شرقا حتى همدان، وجنوبا حتى مرتفعات برووشاهو ودالـه هو وامتداداتها، وغربا حتى الحدود الشرقية العراقية. وتختلف المصادر في تقدير مساحتها بين ربع، وهو رقم مبالغ فيه[1]، واقل من عشر مساحة ايران التي يتجاوز مجموعها مليونا و ٦٠٠ ألف كم٢ (يقدر الدكتور عبدالرحمن قاسملو مساحة كردستان الايرانية بحوالي ١٢٥ ألف كم٢). ويؤلف الاكراد ثالث اكثرية في ايران بعد الفرس والاذربيجانيين. وتختلف المصادر في تقدير عددهم مابين ثلاثة وسبعة ملايين نسمة[2]. ولكن اغلب الظن ان عدد الاكراد في ايران لايقل في الوقت الحاضر عن خمسة ملايين نسمة، بمن فيهم الاكراد القاطنون خارج كردستان (في العاصمة طهران، واذربيجان، وشمال خراسان، وكرمان وكَيلان وفارس، وغيرها[3])، مما يؤلف حوالي سدس العدد الكلي لسكان ايران[4]. ولكن المصادر الرسمية الايرانية لم تعترف في اواخر العهد البهلوي الا بوجود مليوني كردي في ايران[5].

ينقسم الشعب الكردي في ايران على حوالي ٣٠ عشيرة، اكثريتها الساحقة مستقرة، وقسم منها نصف متنقل بين مشاتي ومصائف ثابتة. وتعتبر موكري وديبوكري وشكاك وكلهور وسنجاوي وكَوران (Goran) ويلباس وجلالي وجوانرو من اهم العشائر الكردية في ايران. اما اهم المراكز المدنية في كردستان الايرانية فهي كرمنشاه وسنندج ومهاباد وماكو وبانه وسقز ونغده وغيرها. ومن اجل تصور التطور السكاني للمدن

---

(١) ورد الرقم المذكور في مجلة «ام درمان»، العدد الخامس والعشرون، السنة الثانية، اول يونيو ١٩٤٦، ص ٥.

(٢) للتفصيل راجع:

سرتيب علي رزم آرا، جغرافياى نظامى ايران. كردستان، تهران، ١٣٢٠، ص ٤ - ٥؛ الدكتور عبدالرحمن قاسملو، كردستان والاكراد. دراسة سياسية واقتصادية، ترجمة ثابت منصور، بيروت (؟)، ١٩٦٨، ص ٤ - ٦، ١١ - ١٧؛ فؤاد حمه خورشيد، الاكراد. دراسة علمية موجزة، بغداد، ١٩٧١، ص ١٠، ٢٠ - ٢١؛

A.R. Ghassemlou, Iranian Kurdistan, PP. 1 - 2.

(٣) تقدر بعض المصادر عدد ذلك الجزء من الشعب الكردي بربع مليون نسمة.

(٤) في آذار عام ١٩٧٤ بلغ عدد سكان ايران ٣١٫٨ مليون نسمة. راجع:

«Sovrimenay Iran», P. 16.

(5) Ibid, P. 34.

الكـرديـة في ايـران نشـير الى ان عدد سكـان كرمنشـاه بلغ حوالي ١٢٦ الفـا في العـام ١٩٥٦ ، و١٨٨ ألفا في العام ١٩٦٦ ، وحوالي ٢٢١ ألفا في العام ١٩٧٠[٦].

منـذ القـديم توجهت انظـار الحكـومـات الايـرانيـة الاخمينيـة والارشاكية ـ الفرثية والسـاسـانيـة المتعاقبة[٧] صوب كردستان التي عانى شعبها ، مثل بقية شعوب المنطقة ، الكثـير من ويـلات حروبهـا المستمـرة مع اليـونـان والرومان . فان من شأن اللوحة التي يرسمهـا شارمـوا في مقدمته للاثر التأريخي «شرفنامه» عن الواقع السياسي لكردستان في تلك المرحلة ان يعطينـا تصـورا واضحا حول الموضوع . فكما يشير كان الاخمينيون هم الـذين يسيطـرون في البداية على كردستان التي حكموها بواسطة اسرة هيكان الارمنية التابعة لهم ، لتنتقل بعد ذلك الى اسكندر المقدوني ، لترجع بعد موته المفاجىء في بابل الى الاخمينيـين الـذين حكمـوهـا هذه المرة بواسطة الاسرة الارشاكية الارمنية ، ليسيطر عليهـا بعـد ذلـك اسكنـدر ابن مارك انطونيو ، ولترجع بعد فترة الى الارشاكيين الذين حكمـوهـا باسم الفـرث تارة ، وبـاسم الـرومـان تارة اخـرى ، ليأتي بعـد ذلـك دور السـاسـانيـين الـذين فرضـوا سيطرتهم عليها في عهد الملكين اردشير وشاهبور ، ليرجع اليهـا الـرومان ، ثم الساسانيون الذين تناوبوا السيطرة عليها مع البيزنطيين لغاية بزوغ فجر الاسلام .

ومنذ ذلك الوقت ثار اجداد الكرد مرارا ضد الملوك الاخمينيين والفرث والسـاسـانيـين[٨] واليـونـان والـرومان والبيزنطيين . ولشهادة الفيلسوف والقائد اليوناني زينفـون قبـل حوالي ٢٤٠٠ سنة مضت اهمية تاريخية خاصة بهذا الخصوص . فقد اشار زينفون في كتابه «أناباسيس» الى ما كان يتمتع به الكرد من استقلالية ، وكيف انهم «ما كانوا يخضعون للملك» ، كما اسهب في وصف ماعاناه جيشه على ايديهم اثناء انسحابه عبر اراضيهم . وفي حالات غير قليلة اضطر ملوك ايران الى ارسال جيوش جرارة الى

---

(٦) لم يكن هذا التطور النسبي السريع ناجما عن النمو الطبيعي الداخلي وحده ، فقد لعبت الهجرة من الريف ايضا دورها فيه .

(٧) حكم الاخمينيـون ايـران في الفـترة الـواقعـة بين عامي ٥٥٠ و ٣٣٠ قبـل الميـلاد ، وحكمهـا لارشـاكيـون ـ الفـرث من سنة ٢٥٠ قبل الميلاد حتى سنة ٢٢٤ بعد الميلاد ، ثم جاء دور السـاسانيين الذين حكموها من سنة ٢٢٤ حتى سنة ٦٥١ ميلادية .

(٨) يرجع رشيد ياسمي ، الاستاذ السابق بجامعة طهران ، أصل الساسانيين الى الاكراد ، وذلك في محاولـة غير علميـة منه ، وواضحة المقاصد (انظر : رشيد ياسمي ، كردوبيوستكى نزادى وتاريخى او ، تهران ، ص ١٦٥ ـ ١٧٤) .

كردستان التي وقف اهلها دائما بوجه الغزاة، وكبدوهم افدح الخسائر[٩].

وفي العصر الوسيط ظهرت في ايران امارات كردية مستقلة، منها امارة الراودية التي كان مركـزهـا في تبريز، وعاشت من مطلع القرن العاشر حتى سنة ١٠٧١[١٠]، وامارة شوانكاره في اقليم فارس، والتي عاشت من مطلع العقد الرابع من القرن الحادي عشر حتى اواسط العقد السادس من القرن الرابع عشر الميلادي. كما كانت الاسرة الحاكمة في الامارة الشدادية التي ظهرت في اذربيجان سنة ٩٥١ كردية الاصل ايضا[١١].

دشن العهد الصفوي (١٥٠٢ ـ ١٧٣٦) بداية جديدة للتأريخ الكردي في ايران، تشغل الفواجع والاحداث الدموية معظم صفحاته. فان مؤسس الدولة الصفوية الشاه اسماعيل الصفوي (١٤٨٧ ـ ١٥٢٤) كان يرفض كل ما هو كردي، بحيث انه لم يتحمل حتى اولئك الامراء من الكرد الذين اتوه الى بلدة خوي لتقديم الولاء له، فامر بالقاء القبض عليهم جميعا، وعين مكانهم ولاة من اتباعه القزلباش[١٢]. وفي تعليق له على تلك الحقبة يقول المؤرخ الكردي المعروف محمد أمين زكي مانصه:

«وكـان عهـد الشاه اسماعيل وسيره في الكرد... عهد ظلم وعدوان شديـدين، لان الكـرد كانوا من أهل السنة، فكان لايأمن جانبهم،

---

(٩) للتفصيل عن هذه المواضيع راجع:

Xenophon, Anabasis, Russian trans. by M. Maksimovich, Mosow - Leningrad, 1951, book III and IV; Xenophon, The Persian Expedition, trans. by R. Warner, Baltimore, 1961, PP. 97 - 146; B. Nikitine, Les Kurdes, Russian trans. by I.O. Farizov, Moscow, 1964, PP. 238 - 243;

محمد أمين زكي، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التأريخية حتى الان، ترجمة محمد علي عوني، الطبعـة الاولى، القـاهـرة، ١٩٣٩، ص ٨٦ ـ ١٢٩؛ سرتيب علي رزم آرا، جغـرافيـاى نظامي ايران. كردستان، ص ١.

(١٠) حسب المعلومـات التي يوردهـا محمـد أمين زكي تأسست الامـارة الـراوديـة عام ٤٢٠ هـ ـ ١٠٢٩م، ودام حكمها حتى عام ٤٢٦ هـ ـ ١٠٣٥م، فيما يؤكد كليفورد أدموند بوسورث انها ظهرت في بداية القرن الرابع الهجري ـ بداية القرن العاشر الميلادي، وعاشت لغاية عام ٤٦٣ هـ ـ ١٠٧١م.

(١١) للتفصيل راجع:

محمد أمين زكي، المصدر السابق، ص ١٤٦ ـ ١٤٧؛

C.E. Bosworth, Op. Cit., NN. 36, 37, 39; Sharifli, O gosudarstve Ravadidov, - «Trudi Instituta istorii Academii Nauk Azerbaijanskay USSR», Baku, 1957, N XI.

شريفلي، حول الدولة الراودية، ـ «أعمال معهد التأريخ التابع لاكاديمية علوم اذربيجان السوفيتية»، باللغة الروسية، باكو، ١٩٥٧، العدد الحادي عشر.

(١٢) رشيد ياسمي، كردوبيوستكى نزادي وتاريخي أو، ص ٢٠٣.

ولايثق بهم. . . ولهـذا لم يكن يدع فرصـة تمر من غير ان ينتهـزها ويلحق فيها بالأكراد أذى كبيرا»[13].

وعـرف العثمانيـون كيف يستغلون ذلـك لكسب الامـراء الكـرد الى جانبهم في صراعهم المصيري مع الايـرانيين. فسرعان ماثارت كردستان ضد الحكم الصفوي في كل مكان، حيث ابعد الثوار الحكام الموالين للشاه، وطردوا قواته حيثما وجدت. وعندما حاول الشـاه اسماعيل استعادة مافقده من المناطق الكردية، جوبه بمقاومة شديدة اينما حل، مما كلف الاكـراد ضحـايـا جسيمة. فان حصار قوات الشاه لمدينة ديار بكر الذي دام اكثر من عام واحـد، أودى بحـوالي ١٥ ألفـا من سكـانها. وطيلة العهد الصفوي تكـررت هذه الصـورة الدموية مرارا. فعندما زحف الشاه طهماسب الاول سنة ١٥٥٤ على كردستـان فانـه «لم يترك في الطـريق الـذي سلكه عامرا الا دمره». واعادت قوات طهماسب الكـرة بعـد أقـل من سنـة لتـدمـر من المدن الكردية بدليس وأرجيش وموش وغـيرهـا «تـدمـيرا كامـلا، وتقتل من اهاليها مقتلة عظيمة»، ليكمل رئيس حرسه من بعـده عمله «على افظـع وجـه، وأشنـع صورة»، فقـد ارتكبت القـوات الايرانية «من الاعمال الوحشية وضروب القسوة والفظاعة، ماأنسى الناس هول الاعمال البربرية التي اجـترحهـا في هذه البـلاد كل من هولاكـو وتيمـور لنـك». وفي يوم واحـد قتـل رجـال طهماسب ٤٠٠ من ابنـاء عشـيرة دنبـلي، ونفذوا حكم الموت بكل دنبلي كان يعمل في بلاط الشـاه، مما أجـبر من تبقى على قيـد الحياة من الدنبليين على اللجوء الى داخل الاراضي العثمانية[14].

ولم تكن ممارسـات الشـاه عبـاس الاول (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) أقـل قسوة من ممارسات أسلافه، بل انه في بعض الاحوال تجاوزهم الى حد كبير. فانه توجه بنفسه على رأس جيش كبير الى خوي، ومن هناك زحف على منازل عشيرة محمودي الكردية التي دافع رئيسها مصطفى بيك عن قلعة ماكو ببسالة، ولكن الجيش الايراني «عاث في ارض تلك البـلاد فسـادا، وغـالى في النهب والسـلب والتدمير، وقتل من الاهالي مقتلة عظيمة»، ونقـل منهم بضعـة الاف من النسـاء والاطفـال الذين عوملوا معاملة الاسرى، كما يقر

---

(١٣) محمد أمين زكي، المصدر السابق، ص ١٧٤.

(١٤) للتفصيل عن احداث كردستان ايران في العهد الصفوي راجع:

شرف خان البدليسي، شرفنامه، الطبعتان الروسية (ترجمة ي. فاسيليفا، موسكو، ١٩٦٧) والكردية (تـرجمة هزار، بغداد، ١٩٧٣)؛ محمـد أمـين زكي، المصـدر السـابق، ص ١٧٤ ـ ٢١٦؛ رشيـد ياسمي، كردويبويستكى نزادي وتاريخي أو، ص ٢٠٧.

مؤرخ الشاه الشهير اسكندر منشي[١٥]. ومنذ كانون الاول عام ١٦٠٨ ضرب جيش الشاه حصارا محكما على الاكراد البرادوستيين في قلعة دمدم الشهيرة قرب اورمية، والذي دام عدة شهور «أصيب خلالها الجيش الايراني بضحايا كبيرة، وخسائر فادحة، بسبب مهاجمة الكرد لهم، ومباغتتهم ليلا في معسكراتهم المنبثة حوالي القلعة». ودافع الاكراد عن قلعتهم بقيادة أمير خان حتى ابيدوا عن آخرهم، إذ «لم يترك الاعجام من المقاتلة احدا، ولا من غير المحاربين، الا وقتلوه شر قتلة»، لتتحول المأساة فيما بعد الى ملحمة اشاد بها المستشرقون، وتغنى بها الادباء[١٦]. ومما له مغزاه ان المناطق الخاضعة للنفوذ الايراني شهدت في الفترة ذاتها سلسلة من الانتفاضات الشعبية المشابهة لتلك التي وقعت في كردستان من حيث الدوافع والوقائع، منها انتفاضة طالش عام ١٥٩٣، وانتفاضة عربستان عام ١٥٩٦، وفي جورجيا الشرقية عام ١٦٢٣ - ١٦٢٤، وفي اذربيجان بقيادة كور اوغلو عام ١٦١٠ - ١٦٣٠.

لم تمر على مأساة دمدم سوى فترة وجيزة عندما زحف الشاه عباس بنفسه على رأس قواته ضد عشيرة مكري، فارتكب رجاله مذابح عامة في أفرادها، وغيرهم، إذ «لم يستثنوا أحدا من القتل العام»، كما اسروا الافا من نساء المنطقة وأطفالها. وفي عهد الشاه عباس الاول ايضا تم تهجير ١٥ ألف اسرة كردية الى منطقة خراسان[١٧].

---

(١٥) أسكندر بيك تركمان منشي (١٥٦٠ أو ١٥٦١ - ١٦٣٤)، مؤرخ الشاه عباس الأول، ومؤلف الكتاب الشهير «تاريخ عالم آراى عباسي» باللغة الفارسية. للكتاب أهمية تأريخية كبيرة لان صاحبه كان شاهد عيان لمعظم الوقائع التي دونها، فقد رافق الشاه في غزواته وترحاله. سجل معظم أحداث كردستان في عهد الشاه عباس الاول باسلوب غير ودي، كما فعل الشيء نفسه مع أحداث شيروان وجورجيا. وأولى أحداث وطنه اذربيجان جانبا كبيرا من اهتمامه.

(١٦) سجل القاصان الكرديان عرب شميلوف ومصطفى صالح كريم أحداث ملحمة دمدم في قصتين لهما مكانتهما المتميزة في الادب الكردي المعاصر. فقد ترجمت قصة شميلوف الى عدد من اللغات، بما فيها الروسية في العام ١٩٦٩. تقع الترجمة الروسية لدمدم في ٢٠٦ صفحات، وطبعت منها ٣٠ ألف نسخة. وصدرت من قصة «شهداء قلعة دمدم» للقاص مصطفى صالح كريم طبعتان حتى الان. كما نشر الدكتور اورديخان جليلوف دراسة مفصلة باللغة الروسية حول الموضوع نفسه. راجع:

O.J. Jalilov, Kurdski giroechiski epos «Zlotoruki Khan», Moscow, 1967, 206 PP.

راجع ايضا «بطولة الكرد في ملحمة قلعة دمدم»، اعداد جاسم جليل، ترجمة شكور مصطفى، تقديم ومراجعة الدكتور عز الدين مصطفى رسول، بغداد، ١٩٨٣.

(١٧) رغم كل فظائعه وقسوته تمكن الشاه عباس الاول من كسب عدد غير قليل من الزعماء الكرد بأساليب مختلفة، فكرس إمكاناتهم الكبيرة لخدمة اغراضه التوسعية.

ورغم كل هذا الارهاب لم يستطع الملوك الصفويون فرض ارادتهم على كردستان التي ظلت مناطق واسعة منها تقاوم نفوذهم، فيما تمتعت اجزاء اساسية منها باستقلال فعلي عن الشاه الايراني. ففي أواخر القرن السادس عشر، مثلا، بلغت سلطات هه لو خان، زعيم اردلان، واستقلاليته الكبيرة عن الشاه درجة «يصعب وصفها» على حد تعبير شرف خان البدليسي. كما تحدث مؤرخ الشاه عباس الاول المذكور عن القاب خان أحمد خان، الذي خلف والده هه لوخان في إمارة اردلان. فقد كان لديه جيشه الذي استعان به الشاه في حملاته، وكان في قصره الأميري يحيط به الشعراء الذين كانو يتغنون بمآثره. وبعد موت الشاه عباس بدأ خان أحمد خان يسك النقود باسمه، ويعين حكام منطقة واسعة تمتد من كرمنشاه حتى اورميه. ولكن لم يرق ذلك للشاه الايراني صفي الذي شن حملة ضده في العام ١٦٣٨ - ١٦٣٩. ورغم المساعدات التي تلقاها من السلطان العثماني الا ان قوات خان أحمد خان اندحرت امام الجيش الايراني في معركة وقعت بين الطرفين على ضفاف بحيرة مريوان، فلجأ هوالى الموصل وبقي هناك الى ان وافاه الأجل[١٨].

وفي كل الاحوال لم يلعب النضال الكردي، شأنه في ذلك شأن نضال الشعوب الايرانية الاخرى، الدور الاخير في اضعاف الدولة الصفوية، ومن ثم في سقوطها.

إن ماعاناه الاكراد من مظالم نادرشاه الافشاري[١٩] (١٧٣٦ - ١٧٤٧) لايختلف كثيرا عما عاناه الاذربيجانيون في عهده[٢٠]. فقد اقترفت قواته جرائم بشعة بحق اكراد موكريان وبوتان واربيل والموصل، وكذلك بحق ابناء عشيرة دنبلي الذين امتشقوا السلاح بوجهه، واثاروا انتفاضة كبيرة ضد نظامه في اواسط العقد الخامس من القرن الثامن عشر، والتي امتد لهيبها الى خوي وسلماس وغيرهما من المناطق الكردية في ايران[٢١]. وفي بعض المناطق لم ينج حتى النساء والاطفال من مذابح تلك القوات. وفي تعليق له على مظالم نادرشاه بحق الشعب الكردي، يقول المؤرخ محمد أمين زكي:

---

(١٨) راجع:
«تاريخ خسرو بن محمد بني اردلان»، باللغة الفارسية، تحقيق وترجمة وتقديم ى. فاسيليفا، موسكو، ١٩٨٤، ص ٧٨ - ٧٩ من المقدمة الروسية، ٥٧ (٢٧ أ)، ٦٥ (٣١ أ) من نص المخطوط المنشور مع الترجمة الروسية.

(١٩) مع انه حمل لقب الشاه اعتبارا من ٨ آذار عام ١٧٣٦، الا ان السلطة الفعلية لنادر شاه بدأت قبل ذلك التأريخ بما لايقل عن ستة أعوام.

(٢٠) للتفصيل راجع موضوع «حقائق عن النضال التحرري الاذربيجاني في ايران».

(21) «Vsemirnaya Istoria», Vol. V, P. 246.

«ولا يخفى ان معـاملة نادر شاه للكـرد لم تكن طيبـة قط ، فلهـذا كان الكـرد يكـرهـونـه أشـد الكـراهية ، حتى انهم الفوا قصائد باللهجة الكَورانية الكردية في هجو نادر شاه ، ونعتوه بالقسوة والغدر»[22] .

ومن الجـديـر بالـذكر ان نادر شاه قد اغتيل يوم ٢٠ تموز عام ١٧٤٧ أثناء حملته ضد كراد خراسان الذين ظلوا شبه مستقلين مثل اخوتهم اكراد اردلان وشدلو وظفرانلو[23] .

رغم اساليب البطش والحرمان ظل الاكراد يؤلفون ، مثل الاذربيجانيين ، قوة فاعلة ومؤثرة في حياة ايران السياسية ، الامر الذي تجسد بصورة خاصة في استيلاء محمد كريم خان[24] زعيم عشيرة زند الكردية[25] على السلطة في ايران في اواسط العقد السادس من القرن الثامن عشر . وهنا يسترعي الانتباه واقع ربما كان نابعا من وضع نفسي كامن خلفه الاضطهـاد المستمـر في اعـماق الكردي الايراني . فرغم ان كريم خان كان اعدل حاكم ظهـر في تاريـخ ايـران الحديث ، والذي يسميه الاوربيون «الملك الصالح»[26] ، ورغم انه اصبح الحاكم الفعلي الوحيد لكل ايران منذ عام ١٧٦٠[27] ، الا انه لم يحمل لقب الشـاه ، بل سمى نفسـه الـوكيل[28] ، في وقت اودع الزعيم الصفوي ، الذي كان يطالب بالعرش ، السجن بعد ان أيده مع علي مردان خان قبل ذلك التأريخ .

لم يدم حكم الـزنـديـين لايـران طويلا . فبعد ان وافى الأجل مؤسسه كريم خان في سنـة ١٧٧٩ خلفـه في الحكم من الـزنـديـين من كانوا دون مستواه في كل شيء ، الامر الذي استغله الـزعيم القـاجـاري آغا محمد خان ، فتمكن من القضاء على الزنديين ، ليبدأ منذ عام ١٧٩٦ عهد جديد في تأريخ ايران الحديث يعرف بالعهد القاجاري .

عانى الجميـع ، دون استثنـاء ، من قسـوة القـاجاريين ، وتخلفهم ، ومن واقع تحول ايران الى شبه مستعمرة تابعة للدول الكبرى في عهدهم . فان اغا محمد خان ، الذي تحدثنا عن قسوته اللامتناهية في مكان آخر من هذا الكتاب[29] ، دشن عهده باراقة دماء الزنـديـين دون هوادة ، مع ان كريم خان زنـد كان قد اكـرم وفـادتـه باعـتراف جميـع

---

(٢٢) محمد أمين زكي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .

(23) P. Sykes, Op. Cit., P. 291.

(٢٤) ولد عام ١٧٠٤ أو ١٧٠٥ ، وتوفي عام ١٧٧٩ .

(٢٥) تقطن عشيرة زند في غرب وجنوب غربي ايران .

(26) «The Good King»

(٢٧) تستثنى من ذلك فقط منطقة خراسان التي كان يحكمها حفيد نادر شاه الضرير شاه رخ .

(٢٨) كان يقصد به الوصي على العرش .

(٢٩) راجع موضوع «من تاريخ الحروب الايرانية الروسية» .

المؤرخين، من ايرانيين وغربيين على حد سواء[٣٠]. فانه تزوج من شقيقته، وكان يستشيره في الامور السياسية المهمة طيلة ستة عشر عاما قضاها «بين الصيد والتفكير» في شيراز عاصمة الزنديين.

ولكن اغا محمد خان الذي يصفه المؤرخ الايراني سعيد نفيسي كأنسان نحيف، قاس في تقاطيع وجهه، ، حاقد في اعماقه، انسان لم يعرف العفو عمن حقد عليهم، ولم يتردد في قتل أقرب أقربائه، واحب اصدقائه من أجل كرسي الحكم[٣١]، قد تعدى الحدود في قسوته مع الزنديين، وكل من تعاون معهم. فبعد انتصاره في آخر موقعة له مع لطف علي خان، اخر حاكم زندي، أمر باحضار عشرين الف زوج من عيون اعدائه امامه. وعندما اتوه بخبر أسر لطف علي خان نفسه، أمر بقطع رؤوس ستة الاف من الاسرى الزنديين احتفاء بالمناسبة!![٣٢]. وقد بلغ المرض به درجة انه قلم بنفسه بتقطيع سجادة نفيسة تركها كريم خان لانها، كما ذكر، كانت تذكره بمثوله امامه[٣٣]. كما نقل رفاته، مع رفات نادر شاه الافشاري، ودفنهما امام عتبة قصره حتى يظهر بذلك عظمته! ولكن هل كان بالامكان ان يتوقع من اغا محمد خان القاجاري أقل من ذلك، وهو الذي لم ينس ان ينتقم من بائع سمن شيرازي غشه في يوم من الأيام قبل ان يتبوأ العرش، والذي قتل شقيقه جعفر قلي خان لمجرد انه تجرأ وطالب بتوليته ولاية اصفهان بعد ان وقف باخلاص مشهود الى جانبه ايام صراعه من أجل السلطة، وقد خدع والدته، إذ بعد توسلاتها، عندما شكت في الامر، تعهد لها بانه لن يبقي شقيقه في طهران اكثر من ليلة واحدة لمهمة ضرورية، وفعلا نفذ ماوعدها، إذ لم يبق جعفر قلي خان اكثر من ليلة واحدة في عاصمة ملكه![٣٤].

وهنا يجب ان نشير ايضا الى ان اغا محمد خان تصرف بمثل تلك القسوة مع الزنديين مع ان عددا من المتنفذين الكرد في ايران وقفوا الى جانبه، منهم صادق خان زعيم عشيرة شكاك القوية، الذي كان يتبعه اكثر من ١٥ ألف مسلح، ومنهم ايضا خسروخان، أمير اردلان، الذي «كان مستقلا في منطقة واسعة»، وتحول الى «سند

---

(٣٠) راجع على سبيل المثال:

سعيد نفيسي، تاريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره، معاصر، ص ٤٦، ٥٥، ٥٧؛

J R. Perry, Karim Khan Zand A history of Iran 1747 - 1779, Chicago - London, 1979, PP. 146 - 147

P Sykes, Op Cit., P 298

(٣١) سعيد نفيسي، تاريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره، معاصر، ص ٥٢ - ٥٤.

(٣٢) دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص ٣٥.

(٣٣) سعيد نفيسي، تاريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره، معاصر، ص ٥٥ - ٥٦؛

P Sykes, Op Cit P 298

(34) J R Perry, Op Cit, P 147; P. Sykes, Op. Cit, PP. 295 - 296.

قوي لاغا محمد خان» على حد تعبير بيرسي سايكس[٣٥]. وعندما قتل اغا محمد خان داخل خيمته بشوش، وهو في طريقه للاغارة على جورجيا عام ١٧٩٧، حامت الشبهة حول صادق خان الشكاك في تدبير اغتيال الشاه لعدة أسباب، اهمها مطالبته بالعرش، وحمايته للحراس الذين قاموا بتنفيذ عملية الاغتيال، وانسحابه الى اذربيجان حيث فرض حكمه على عدد من مدنها[٣٦]. كما ان صادق خان كان على اتصال وثيق بالاذربيجانيين، وكذلك بالجورجيين الذين الفوا مجلسا سريا منذ ايام الحملة الاولى للشاه القاجاري على بلادهم اتخذ قرارا يقضي بالتوسل بجميع الوسائل التي تحول دون عودة الايرانيين الى بلادهم، والعمل من أجل القضاء على اغا محمد خان، لاعتقادهم ان مجرد اغتياله يكفي لابعاد شبح الاحتلال الايراني[٣٧]. وبعد صدام مسلح قرب قزوين اندحر فيه الشكاك امام قوات فتح علي شاه الذي خلف اغا محمد خان في العرش، جرى نوع من المساومة السياسية بين القاجاريين والشكاك لحل الازمة التي ظهرت بين الطرفين، وذلك بان اعاد صادق خان مجوهرات الشاه المقتول الى خلفه مقابل توليه حكم كَرمرود وسراب[٣٨].

وفي الوقت نفسه ظلت مناطق اخرى من كردستان ايران غير خاضعة لسلطات الشاه. فان الرحالة الاوروبيين الذين زاروا المنطقة في النصف الاول من القرن التاسع عشر، ومنهم مالكولم الشهير، والمقيم البريطاني في بغداد كلوديوس جيمس ريج صاحب الرحلة الشهيرة الى كردستان، وغيرهما، تحدثوا باسهاب عن نفوذ امير اردلان أمان الله خان، الذي كان وضعه يشبه وضع الملوك، حسب وصفهم له. فباعتراف اكثر من شاهد عيان اجنبي لم يضاه في كل ايران قصر آخر قصر امان الله خان في سنندج «الصبورة»، على حد تعبيره، لذا لم يخضع للشاه الا بالاسم فقط. ولم يكن مجرد صدفة ان توجه الثوار الهنود الى الشاه وامان الله خان على حد سواء طلبا للعون في نضالهم ضد البريطانيين.

ومن المفيد ان نشير الى ان خسرو خان، نجل امان الله خان، تزوج من وليه خانم، ابنة فتح علي شاه التي طغى نفوذها بعد انتقال الامارة الى زوجها. ومنذ ذلك

---

(35) P. Sykes, Op. Cit., P. 291.

(٣٦) راجع ايضا موضوع «من تاريخ الحروب الايرانية الروسية».

(37) Z.M. Sharashenidze, Iran vo ftoroi polovine XVIII veka Tiflis, 1971, pp. 34 - 35.

ز. م. شاراشينيدزي، ايران في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ملخص رسالة دكتوراه. باللغة الروسية، تبليس، ١٩٧١، ص ٣٤ - ٣٥.

(٣٨) دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد أول، ص ٥٣.

الوقت بدأ يحكم في كردستان «الغرباء الذين يتكلمون الفارسية» كما ورد نصا في مخطوط «تاريخ خسرو بن محمد بني اردلان» الذي يعود تأريخ تأليفه الى ذلك العصر[٣٩]. ولئن مهد ذلك الطريق لناصر الدين شاه (١٨٤٨ - ١٨٩٦) ان يفرض عمه النشط، الابن الخامس عشر لعباس مرزا نائب السلطنة الشهير، الحاج فرهاد مرزا معتمد الدولة حاكما على اردلان بعد وفاة امان الله خان الثاني بن خسرو خان سنة ١٢٨٤ هجرية (١٨٦٧ - ١٨٦٨ ميلادية)، الا ان منطقة هورامان رفضت الرضوخ لطهران «لتعارض ذلك مع طبع اهلها» حسب تعبير باسيل نيكيتين. وبصعوبة كبيرة تمكن معتمد الدولة من فرض سيطرته على تلك المنطقة التي ظل زعماؤها يتمتعون بوضع شبه مستقل لفترة اخرى من الزمن[٤٠].

تعكس انتفاضة الشيخ عبيدالله بن السيد طه الشمزيني[٤١] عام ١٨٨٠ ذروة الاستياء الكردي من الحكم المتخلف لملوك آل قاجار في ايران. فقد كان الشيخ يتمتع بنفوذ ديني ودنيوي كبير بين الاكراد في منطقة واسعة تمتد من بحيرة وان الى منطقة اورمية وخوي ومهاباد واردلان، وغيرها من المناطق التي كانت ٢٠٠ من قراها ملكا خاصا له[٤٢]. وحسب وصف كرزن ان الشيخ عبيدالله كان «يتصرف على طريقة الملوك»، فكان معدل من يزورونه في ديوانه يوميا يتراوح مابين خمسمائة والف شخص. ويقول ايضا انه كان يحلم بالانعتاق «حجرا اساسا للهجوم على حكومة... ايران

---

(٣٩) «تأريخ خسرو بن محمد بني اردلان»، ص ٩٣.

(40) B. Nikitine, Op. Cit., PP. 257 - 258.

(٤١) جاءه اللقب من اسم قرية شمدينان بمنطقة حكاري التي كان الشيخ يسكنها.

(٤٢) للتفصيل عن الشيخ عبيدالله، وانتفاضته راجع:

اسكندر قوريانس، قيام شيخ عبيدالله شمزيني درعهد ناصر الدين شاه، به اهتمام عبدالله مردوخ كردستاني، تهران، ١٣٣٦ وردت في الكتاب، رغم عدم موضوعية مؤلفه، معلومات مهمة يمكن الوقوف من خلالها على جوانب مهمة من انتفاضة الشيخ عبيدالله ونتائجها؛

Jalile Jalil, Vosstanie Kurdov 1880 goda, Moscow, 1966.

جليلى جليل، انتفاضة الاكراد عام ١٨٨٠، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٦٦؛

N.A. Khalphin, Borba za Kurdistan, Moscow, 1963, PP. 108 - 132, 134 - 144.

ن. أ. خالفين، الصراع على كردستان، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٦٣، ص ١٠٨ - ١٣٢، ١٣٤ - ١٤٤. نشر الدكتور احمد عثمان ابوبكر الترجمة العربية للكتاب في العام ١٩٦٩، وجلال أحمد تقي ترجمة كردية له في العام ١٩٧٠.

المقوتة»[٤٣] .

ولم يدفع الاضطهاد وحده ابناء الشعب الكردي في ايران الى الالتفاف حول الشيخ عبيدالله ، بل انه ، فضلا عن ذلك ، كان في تعامله نموذجا يختلف تماما عن المسؤولين الايرانيين الذين تحولوا ، بشهادة الجميع ، الى عبء ثقيل على كاهل الناس . فقد تبين من المعلومات التي كانت تصل القنصل البريطاني في تبريز ان الشيخ جعل الموت جزاءا لكل مرتش . وكما يقول القنصل في تقرير له عما اسماه «بالغزوة الكردية لايران» ، ان الشيخ عبيدالله كان «رجلا مثقفا ، حاول قدر المستطاع ان يتعلم أفكار واسلوب حياة المجتمعات المتحضرة» . وكما تؤكد المصادر الارمنية ، وغيرها ، ان الشيخ لم يكن متعصبا من الناحية الدينية ، الامر الذي جلب اليه عطف الارمن والاثوريين بقدر المسلمين[٤٤] . وقد جاء وصفه على لسان أرمني بهذا الاسلوب :

«انه كان انسانا رائعا ، محبا للعمل ، جذابا ، مؤثرا ، رقيقا وذكيا . انه دائما كان يبدي عطفا ابويا تجاه اليتامى والارامل . ومن كل صوب كان الكرد يتقاطرون على شمدينان حتى يتحدثوا له عن مآسيهم ، وماتعرضون له من ضغط ، ويستشيروه ، ويستفتوه في قضايا الدين والدنيا . انهم كانوا يحترمونه ، ويعتبرونه زعيما انسانيا ، وعادلا» .

سجل الشيخ عبيدالله بنفسه وقائع معينة من المظالم الايرانية التي دفعت الكرد الى الانتفاض بوجه طهران ، وذلك في رسالتين مهمتين بعثهما لى المبشر الامريكي في اورميه الدكتور كوهران الذي كان على افضل علاقة به[٤٥] . فقد ذكر الشيخ في اولى رسالتيه التي تحمل تأريخ ٢٥ أيلول ١٨٨٠[٤٦] ان شجاع السلطنة نفذ حكم الموت بحق خمسين من اتباعه عام ١٨٧٩ ، والحق به من الاضرار مايربو قيمتها على ١٠٠ ألف تومان[٤٧] ، كما عذب رجال الحكم الشخصية المعروفة في المنطقة فرج الله خان حتى الموت ، وفرضوا غرامة قدرها ٢٠ ألف تومان على عبدالله خان وابراهيم خان من اشنو ، واهانوا النساء . وردا على ذلك اعلن الشيخ انه ارسل «ابناءه على رأس قواته الى

---

(43) G.N. Curzon, Persia and the Persian question, Vol. I, P. 553.

(٤٤) للتفصيل حول الموضوع راجع :

J. Jalil, Op. Cit., PP. 52 - 72

(45) G.N. Curzon, Op. Cit., P. 554

(٤٦) للتفصيل عنهما راجع :

J. Jalil, Op. Cit., PP. 75 - 76, 105 - 107.

(٤٧) مبلغ ضخم للغاية حسب القوة الشرائية السائدة انذاك .

ايران» للثأر عما لحق باخوانه من أضرار[٤٨].

لعب الوضع الاقتصادي المزري دورا غير قليل في إثارة الاكراد. فقد تحدثت التقارير الدبلوماسية الروسية عشية انتفاضة الشيخ عبيدالله عن «الوضع المرعب» و «البؤس الكبير» الذي دفع الناس في كردستان الى ان «يقتاتوا على البلوط واوراق الشجر» بل وحتى «على لحم الحمير»، مما جعل الدبلوماسيين يتوقعون «اضطرابات شعبية جدية» في المنطقة يكون الجوع أقوى دافع لها[٤٩].

وبحكم هذه العوامل، وغيرها، ارتفع عدد المتذمرين الذين التفوا حول الشيخ عبيدالله بسرعة. وقد جاء في تقرير خاص رفعه القنصل العام الروسي في تبريز الى وزارة الخارجية ببطرسبورغ ان اكراد ايران «المعذبين والمسحوقين من قبل الادارة الفارسية. . . يستقبلون الشيخ باذرع ممدودة لمعانقته باعتباره محررا، وينتقلون الى جانبه افواجا»[٥٠]. لذا لم يكن غريبا ان ارتفع عدد انصار الشيخ عبيدالله في فترة وجيزة من حوالي ٣ ـ ٥ الاف شخص في البداية الى اضعاف مضاعفة[٥١]. وكما يشير الدكتور ن. أ. خالفين، مستندا في ذلك الى التقارير الدبلوماسية الخاصة التي تعود الى مطلع العقد التاسع من القرن التاسع عشر، ان بعض الاوساط العربية، بما في ذلك شريف مكة وخديوي مصر، أيدوا، كما اشيع، الشيخ عبيدالله الذي قيل عنه انه يمثل دور وهابي في المنطقة[٥٢]. وتشير تقارير اخرى الى تأييد بعض رؤساء العشائر العربية للشيخ عبيدالله[٥٣].

تمكن الثوار من تحرير لاهيجان وسردشت في النصف الاول من ايلول عام ١٨٨٠. وبعد ذلك توجهوا نحو مهاباد[٥٤]، التي حرروها ايضا. وفي ٢٣ أيلول دخلوا اوشنو، ثم دخلوا عشتارزخ بعد اربعة ايام فقط. وبعد ان حرروا مناطق اخرى بضمنها اورمية، اصبح الثوار على ابواب تبريز، مقر ولي العهد، فدب الذعر بين أهلها الذين

---

(48) N.A.Khalphin, Op. Cit., P. 124.

(49) Ibid, PP. 108 - 111.

(50) Ibid. P. 125.

(51) Ibid, P. 127; J. Jalil, Op. Cit., P. 77; M.S. Lazarev, Kurdski vopros 1891 - 1917, Moscow, 1972, P 34.

م. س. لازاريف، المسألة الكردية ١٨٩١ ـ ١٩١٧، موسكو، ١٩٧٢، ص ٣٤.

(52) N.A. Khalphin, Op. Cit., P. 116.

(53) Ibid, P. 126; J. Jalil, Op. Cit., P. 91.

(٥٤) كانت مدينة مهاباد تسمى يومذاك صاوجبولاق.

عانـوا من الجـوع بسبب انقطـاعهـا عن المناطق المجاورة، ونتيجة لجوء اعداد كبيرة من الناس اليها[٥٥].

ان ناصر الدين شاه الذي كان يخشى توجه الثوار صوب العاصمة طهران، استعان بالـروس والـبر يطـانيـين والعثمانيين لنجدته. . وكان القيصر الروسي سباقا للاستجابة لطلبـه، فامـر بتـوجيـه قطعـات من جيشه الى منطقة نخجوان على الحدود مع ايران. ويطلب من الروس والبريطانيين ركز الباب العالي ايضا بعض القطعات على الحدود الايـرانيـة[٥٦]. ورغم كل ذلـك كانت صحـافة لندن تؤكد ان انتفاضة الشيخ عبيدالله هي من عمل يد الروس، فيما كانت صحافة بطرسبورغ تؤكد عكس ذلك تماما، وتمد أصابع الاتهام الى البريطانيين. فان جريدة «ديلي تلغراف» اللندنية المعروفة اكدت في مقـالـة لها بعنوان «لماذا انتفض الكرد» ان «سبب الانتفاضة هو روسيا بالتحديد». بينما كتبت جريدة «قفقاس» الروسية ان الشيخ عبيد الله «نجح في دفع اكراد ايران للوقوف على اقدامهم بفضل تحريض الانكليز له». اما الصحافة الارمنية فانها كانت تؤكد ان الاتراك هم الذين يقفون وراء الانتفاضة الكردية[٥٧].

كرست طهـران جيشـا كبـيرا قوامـه ٢٠ ألف رجل، ومزود بالمدافع، للقضاء على انتفـاضـة الشيـخ عبيـد الله[٥٨]. وفي الاخـير حقق الايـرانيون مبتغاهم بفضل تعاون الاجانب، وعدد كبير من الخونة المحليين معهم، فضلا عن ضعف التنظيم والتماسك في صفـوف الثـوار انفسهم. وقـد لجأت قوات الشـاه الى ابشع اساليب الارهاب بحق الاكـراد اينما حلت. وهنا نكتفي بترجمة ماورد في تقرير دبلوماسي سري بهذا الصدد، اكـد على ان قمـع الانتفـاضــة رافقتـه مذابـح دموية في كردستان ايران، مما ادى الى «مقتـل الاف من الاكـراد دون اعتبـار للعمر والجنس، والى نهب وحرق اكثر من ٢٠٠ قرية كردية»[٥٩].

بعـد فشـل الانتفـاضـة انسحب الشيـخ عبيد الله الى داخل الاراضي العثمانية، و

---

(٥٥) بروفيسور و. مينورسكي، تاريخ تبريز، ترحمة وتحشيه عبدالعلي كارنك، ص ٧١؛

N.A. Khalphin, Op. Cit., P. 127

(56) J. Jalil, Op. Cit., P. 84.

(57) Ibid, PP. 99 - 100.

(58) G.N. Curzon, Op. Cit., Vol. I, P. 554.

(٥٩) مقتبس من:

N.A. Khalphin, Op. Cit., P. 133.

«تحت ضغط اوروبي على الباب العالي» نقل الى استانبول في تموز عام ١٨٨١[٦٠]. ولكن رغم ذلك انه استقبل بحفاوة في العاصمة العثمانية، فقد خرج المسؤولون للقائه، وامتلأت الشوارع بالناس، واطلقت المدافع بالمناسبة. الا ان الشيخ سرعان مافهم انه ليس ضيفا على السلطان، بل اسير لديه حسب تعبير س. ولسن[٦١].

وعلى هذا الأساس استمر الشيخ عبيد الله في اتصالاته السرية، خصوصا وانه كان يعلم ان الظروف ماتزال مواتية لمواصلة نضاله. فان عوامل الاستياء والتذمر بين الشعب الكردي في ايران ازدادت بعد القضاء على حركته، وذلك بسبب قصر النظر السياسي لاوساطها الحاكمة. وربما يكفي ان نورد هنا ماورد في البرقية التي بعثها السفير الروسي في استانبول الى خارجية بلاده بصدد ذلك، فقد ذكر مانصه:

> ان الحكومة الايرانية «ليست فقط لم تتخذ اي اجراء من شأنه التخفيف عن كاهل السكان الاكراد الذين ساء وضعهم بسبب الانتفاضة الاخيرة، بل انها تنوي فرض ضرائب جديدة عليهم»[٦٢]

دبر الشيخ عبيد الله امر هربه من استانبول بذكاء. فقد تحين فرصة حلول عيد الفطر، واعلن انه ينوي الاعتكاف للتعبد في غرفته طيلة فترة العيد، لذا لايرغب في ان يتصل احد به، فيما انتقل سرا في اواسط آب ١٨٨٢[٦٣] بواسطة سفينة فرنسية، وجواز سفر مزور، وبملابس تاجر تركي، الى ميناء بوتي الجورجي في طريق عودته الى كردستان. ولكن الشيخ لم يحالفه النجاح هذه المرة ايضا، فقد اسر ثانية بعد مرور أشهر على هربه. واستجابة لطلب ناصر الدين شاه قرر السلطان عبد الحميد نفيه، مع افراد اسرته، الى مكة حيث وافاه الأجل في تشرين الاول عام ١٨٨٣[٦٤].

---

(60) G.N. Curzon, Op. Cit., Vol. I, P. 554.

(٦١) للتفصيل راجع:

J. Jalil, Op. Cit., P. 93.

(62) N.A. Khalphin, Op. Cit., P. 134.

(٦٣) يشير كرزن الى ان الشيخ عبيدالله هرب من استانبول في آب عام ١٨٨٢، فيما يؤكد الدكتور جليلي جليل، مستندا الى مايذكره س. ولسن، ان الشيخ قد هرب في اواخر تموز من ذلك العام. وبما ان اليوم الاول لعيد الفطر عام ١٢٩٩ يصادف يوم السادس عشر من آب عام ١٨٨٢، لذا يكون التأريخ الاول هو الصحيح.

(64) G.N. Curzon, Op. Cit., Vol. I, P. 554.

حسب مصادر اخرى ان الشيخ توفي في المدينة المنورة (راجع: الدكتور بله ج شيركوه، القضية الكردية. ماضي الكرد وحاضرهم، القاهرة، ١٩٣٠، ص ٤٨). وقد وقع باسيل نيكيتين في خطأ كبير عندما كتب ان الشيخ ظل على قيد الحياة، وعاد للعيش مع نجله الشيخ عبدالقادر بعد انتصار ثورة الاتحاديين عام ١٩٠٨

(B. Nikitine, Op. Cit., P. 289)

لم يضع اختفاء الشيخ عبيد الله عن المسرح نهاية للنضال التحرري الكردي، الذي اشتد اواره ثانية بعد مرور سنوات قليلة فقط، وذلك «ردا على محاولات طهران للضغط على استقلالية الوطنيين الاكراد، والتشديد في استغلالهم الاقتصادي»[٦٥]. فقد ثار أبناء عشيرة دشت ضد تصرفات حاكم اورميه الامير جهانسوز مرزا، وكان يقودهم حسو بيك وبدر بيك ولدي حسن بيك الذي لقي حتفه في السجن. وامتد لهيب انتفاضة دشت بسرعة الى مناطق واسعة في مهاباد وسردشت التي اضطر حاكمها الفارسي عزت الله خان الى ترك المدينة. كما هدد الثوار مدينة اورمية. وفشلت محاولات السلطات الايرانية في وضع حد لمقاومة الثوار الذين استمر نشاطهم لغاية أواخر عام ١٨٨٧. فاضطرت حكومة ناصر الدين شاه الى الاستجابة لمطاليبهم، فابعدت عزت الله خان، حاكم سردشت، وعينت مكانه أحمد بيك المكري، كما نقلت الامير جهانسوز مرزا من اورميه وعينت مكانه حاكما من اهل المنطقة نفسها[٦٦].

وكان للكرد ايضا دورهم في أحداث الثورة الدستورية الايرانية ١٩٠٥ - ١٩١١، الامر الذي انعكس في واقعين متناقضين التقيا، مع ذلك، في نقاط اساسية من حيث دوافعهما الكامنة. فان الجماهير الكردية وقفت في اكثريتها الساحقة الى جانب الثورة، فيما وقفت اوساط كردية اخرى، لها وزنها وتأثيرها، في خندق آخر، نحاول فيما يلي تقديم فكرة مركزة عنهما.

لم يكن بالامكان ان تبقى القوى الوطنية الكردية المتذمرة دون حدود، بعيدة عن آثار حركة ثورية استهدفت النظام القاجاري المتخلف. فتشير احدى وثائق «ارشيف سياسة روسيا الخارجية» التي تعود الى العام ١٩٠٧، الى اشتراك حوالي ٣٠ ألف مقاتل كردي في منطقتي خوي وماكو ضد العصابات التي شكلها اعداء الثورة هناك بقصد ضربها. وتشير وثيقة اخرى من المجموعة نفسها الى «المساعدات الكبيرة» التي «قدمها الاكراد للثوار العاملين في مناطق اورميه وساوجبولاق (مهاباد) وسلماس»[٦٧]، وهي جميعها مناطق كردية. واسس الدستوريون عددا من الانجمنات في المدن الكردية كرمنشاه ومهاباد وسنندج وسقز وبوكان وغيرها. وكان انجمن سقز من انشطها في ميدان المطالبة بالحقوق القومية للاكراد في ايران.

---

(65) N.A. Khalphin, Op. Cit., P. 145.

(66) Ibid, PP. 145 - 146.

(67) M.S. Lazarev, Kurdistan i Kyrdskaya problema (90 - e godi XIX veka - 1917), Moscow, 1964, P. 118.

م. س. لازاريف، كردستان والمشكلة الكردية (من تسعينات القرن التاسع عشر حتى العام ١٩١٧)، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٦٤، ص ١١٨. حول الموضوع راجع ايضا:
عبدالله رازي، تاريخ مفصل ايران از تاسيس سلسله ماد . . .، ص ٥١٨ - ٥١٩.

ولكن في الوقت نفسه تمكن اعداء الثورة من كسب قطاع كردي مهم الى جانبهم. ففي صراعه المستمر من اجل العرش استغل سالار الدولة، شقيق محمد علي شاه المخلوع، علاقاته التي كونها في فترة ولايته لسنندج ايام حكم والده مظفر الدين شاه، مع عدد من رؤساء عشائر كلهر وسنجاوي والجاف والزنكنه والمكري وغيرها.

طالب سالار الدولة بالعرش مرتين، الاولى عندما وافى الاجل والده عام ١٩٠٧، والثانية بعد الاضطرابات الواسعة التي أثارتها عودة شقيقه المخلوع من المنفى في المرحلة الاخيرة من عمر الثورة الدستورية. وفي المرة الثانية كان جل اعتماد سالار الدولة على عدة الاف من المسلحين الكرد من اتباع داود خان كلهر وعلي خان اللرستاني وغيرهما[٦٨]. فاستقر في البداية في همدان، واتخذ لنفسه لقب ابو الفتح شاه قاجار، وأخبر السلطان العثماني بذلك[٦٩]، وأصدر أوامره للجميع بقطع علاقاتهم مع طهران التي هدد بالزحف عليها. وعندما اندحر امام البختياريين، المؤيدين للثورة، توجه مع أنصاره الى كردستان، حيث احتل مدينة سنندج التي اضطر حاكمها عبد الحسين مرزا فرمان فرما ورجاله الى الانسحاب منها الى كرمنشاه. وفي ٣ أيلول ١٩١٢ أجبر سالار الدولة المسؤولين الايرانيين من انصار أحمد شاه، فضلا عن الدستوريين، على ترك كرمنشاه ايضا، او اللجوء الى بناية القنصلية التركية في المدينة[٧٠]. وعندما يأس فرمان فرما من وضع حد لتحركات سالار الدولة واتباعه استقال من منصبه برقيا[٧١].

أثارت نشاطات سالار الدولة في كردستان الروس والبريطانيين الذين طلبوا منه ان

---

(٦٨) للتفصيل راجع:

دكتر نورالله دانشور علوي (مجاهد السلطان) تاريخ مشروطهء ايران. جنبش وطن برستان اصفهان وبختياري، تهران، ١٣٣٥، ص ٨٦ - ١١٣.

(٦٩) بعث سالار الدولة برقية الى السلطان العثماني يخبره بانه اعلن نفسه شاها على ايران، الا ان السلطان لم يرد على برقيته: راجع:

«وزارة الخارجية. العلاقات الدولية في عصر الامبريالية. وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة ١٨٧٨ - ١٩١٧»، باللغة الروسية، التسلسل الثاني، المجلد العشرون، الجزء الاول (١٤ ايار - ١٣ آب ١٩١٢)، موسكو - لينينغراد، ١٩٣٩، ص ٢٢.

(٧٠) استمرت تحركات سالار الدولة في كردستان لفترة اخرى بعد القضاء على الثورة الدستورية.

(٧١) «وزارة الخارجية. وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة ١٨٧٨ - ١٩١٧»، التسلسل الثاني، المجلد العشرون، الجزء الثاني (١٤ آب - ١٧ تشرين الاول ١٩١٢)، موسكو - لينينغراد، ١٩٤٠، الوثيقة رقم ٨٢١.

يلقي السلاح، الا انه رفض الاستجابة لطلبهم[٧٢]، واستمر في نشاطه لفترة اخرى من الزمن، الى ان اجبرته القوات الايرانية على ترك كرمنشاه، ثم سنندج وبقية المناطق الكردية، واضطر في الاخير الى ان يلقي السلاح، ويهرب الى داخل الاراضي الروسية[٧٣].

ولكن يجب ان نشير هنا الى ان التفاف عدد كبير من رجال العشائر الكردية حول سالار الدولة لم يكن نتيجة علاقاته السابقة برؤسائها حسب، بل ان الامر كان يعكس بقدر اكبر من ذلك واقع الاستياء الكردي من النظام القاجاري. فان العديد انضموا الى جانب سالار الدولة لمجرد انه دعا الى الامتناع عن دفع الضرائب الحكومية، وخصوصا ضريبة الملح الممقوتة التي فرضتها طهران في العام ١٩١٠ بصورة غبية بمعنى الكلمة. فقد بلغ مقدار الضريبة الجديدة المفروضة على الانتاج المحلي من الملح حوالي ست مرات اكثر مما كان مفروضا على الملح المستورد. وحسب تعليق الخبير المالي الامريكي مورغان شوستر الذي استعانت به طهران لاصلاح وضع البلاد الاقتصادي المزري، لم يجن الفوائد من ضريبة الملح سوى «الجباة الذين سمنوا على حسابها»، ذلك لان ماجمعه هؤلاء كان اكثر بمقدار خمس مرات من الحد المقرر قانونا[٧٤].

يورد لنا فرامرز بزركَر اسماعيل رائين، الذي كان مفتشا ماليا في كردستان ايران قبل الحرب العالمية الاولى، معلومات لها مغزاها لما نحن بصدد توضيحه هنا. فهويقول ان الناس غدوا يفضلون عدم استخدام الملح «على الرضوخ لهذا القانون المجحف»، بحيث ان مقدار مابيع من الملح قد تقلص في بعض المناطق الى حد كبير جدا. ويؤكد المسؤول الايراني ان الاستياء من ضريبة الملح كان واحدا من العوامل الاساسية التي دفعت الناس في كردستان الى مناهضة الحكومة، والاشتراك في حركة سالار الدولة «دون خوف أو إجبار». واخيرا يؤكد فرامرز بزركَر ان الاكراد لم يعتبروا قرار طهران بصدد الغاء ضريبة الملح بناء على اقتراح شوستر، مكسبا للمشروطية، بل «تصوروها نتيجة لسيرهم وراء سالار الدولة الذي أعفى الرعية من دفع الضرائب المالية الجديدة

---

(٧٢) المصدر نفسه، التسلسل الثاني، المجلد التاسع عشر، الجزء الثاني (١٤ كانون الثاني - ١٣ ايار ١٩١٢)، موسكو - لينينغراد، ١٩٣٨، ص ٤٥٣ - ٤٥٤، الوثيقة رقم ٥٠٨.

(٧٣) دكتر نورالله دانشور علوي، تاريخ مشروطه ايران، ص ١٢٥.

(74) W.M. Shuster, The Strangling of Persia, PP. 33 - 34.

للمصالح . . . وكانوا يبدون ارتياحهم من نفوذه كانسان معتد بذاته»[٧٥] .

ومما يؤسف له حقا ان يبريم خان ، الزعيم الارمني البارز[٧٦] ، وأحد أجرأ قادة الثورة الدستورية الذي لعب دورا اكبر من الجميع في خلع محمد علي شاه ، لقي حتفه على يد رجال العشائر الكردية من انصار سالار الدولة ، وذلك في معركة وقعت بين الطرفين يوم ١٩ أيار عام ١٩١٢ ، الامر الذي ترك صدى كبيرا داخل ايران ، بل وحتى في الخارج ايضا[٧٧] .

ورغم القضاء على الثورة الدستورية ، وانتهاء حركات سالار الدولة ، الا ان الاستقرار لم يعد الى المناطق الكردية الايرانية عشية الحرب العالمية الاولى . وربما يكفي ان نشير هنا الى ان الحاكم الجديد الذي عينته طهران في اورميه بعد القضاء على المشروطية ، لم يستطع ان يلتحق بمقر وظيفته من تبريز على مدى ثلاثة اشهر بسبب الفوضى التي كانت تسود المنطقة يومذاك[٧٨] .

وفي تلك الفترة ايضا ظهر فوق المسرح السياسي والثقافي لكردستان ايران الشخصية البارزة عبدالرزاق بدرخان الذي تحول ديوانه العامر الى منتدى أدبي ، ومركز التقاء الوطنيين[٧٩] . ففي اوائل العام ١٩١٣ اسس جمعية ثقافية في مدينة خوي ، قامت بفتح اول مدرسة كردية في ايران من المبالغ التي تبرع بها اهالي المنطقة انفسهم . وقد

---

(٧٥) راجع :

موركان شوستر، اختناق ايران ، ترجمه ابو الحسن موسوى شوشترى ، با تصحيح ومقدمه وحواشي واسناد محرمانه منتشر نشده در ايران توسط : فرامرز بزركر اسماعيل رائين ، جاب دوم ، تهران ، ١٣٥١ ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(٧٦) يبريم (اويفريم) خان كان من ارمن تركيا ، لجأ الى رشت في ايران حيث امتهن التجارة انضم الى صفوف الثوار ايام المشروطية بحماس . كان قوي التأثير، متواضعا، كثير الاطلاع . وجريئا للغاية .

(٧٧) «وزارة الخارجية . وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة ١٨٧٨ ـ ١٩١٧» ، المجلد العشرون ، الجزء الاول ، ص ٢٢ ، ٨٩ ـ ٩١ ، الوثيقة رقم ١٠٢ ؛

W.M. Shuster, Op. Cit., PP. 81, 86 - 87

(٧٨) راجع :

Academic V.A. Gardlevski, Izbranie sochinenia, T.I, Moscow, 1960, PP. 174 - 175.

الاكاديمي ف . أ . كَردليفسكي ، الاعمال المختارة ، باللغة الروسية ، المجلد الاول ، موسكو ، ١٩٦٠ ، ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

(٧٩) للتفصيل عنه ، وعن نشاطه راجع كتابنا المعنون «كردستان في سنوات الحرب العالمية الاولى» ، ترجمة محمد الملا عبدالكريم ، الطبعة الثانية ، بغداد ، ١٩٨٤ ، ص ٥٠ ، ٦٤ ، ١٠٢ ـ ١٠٤

حاول عبد الرزاق بدرخان مرارا ان يحصل على مساندة الروس في صراعه ضد القاجاريين والعثمانيين الذين اضطر تحت ضغطهم ان يلجأ الى تبليس بجورجيا، ومن ثم الى باريس.

في سنوات الحرب العالمية الاولى حاول الجميع، وكل باسلوبه الخاص، استغلال الاستياء الكردي لصالحه. فان رجال المخابرات الالمان شيونهان ونيدرماير وزوغماير زاولوا نشاطا واسعا بين اكراد ايران، وحققوا نجاحا ملموسا بينهم «لكونهم اكثر مسيمي تلك البلاد تحمسا للدولة العثمانية بدافع مذهبي» على حد تعبير جورج لنشوفسكي[٨٠]. ومن جملة اجراءات الالمان لكسب الاكراد انهم بدأوا يسعون أثناء الحرب لنشر بيانات دعاة الجامعة الاسلامية، وسائر مطبوعاتهم في جميع ارجاء كردستان الايرانية[٨١]. ومن الجدير بالذكر ان الروس كانوا يتابعون نشاط شيونهان بصورة خاصة، وحاولوا الضغط عليه بواسطة اعوانهم من المسؤولين الايرانيين ورؤساء العشائر قبل ان تندلع نيران الحرب[٨٢]. وفي سنوات الحرب ضاعفوا من متابعتهم لنشاطات شيمونهان في منطقة كرمنشاه، وقد شاطرهم في ذلك حلفاؤهم الانكليز ايضا، اذ قدم السفيران الروسي والبريطاني طلبا مشتركا للسلطات الايرانية للقبض عليه[٨٣]. وكان عملاء المانيا، المزودين بعملات مختلفة من نقد ايراني واجنبي، يجرون الاتصال بكبار الشخصيات، ورؤساء العشائر، ويصرفون هم بسخاء، فتمكنوا من كسب العديد من الساسة من امثال مستوفي الممالك الذي وعد بالعمل من أجل وضع جيش ايراني تحت اشراف المارشال الالماني فون دير غولتز (Von der Goltz) الذي عين قائدا عاما للقوات التركية العاملة في العراق في أواخر عام ١٩١٥. وقد زار غولتز بنفسه المنطقة الكردية الايرانية في كانون الثاني عام ١٩١٦، وذلك لما كان يعلقه من آمال على الجيش الايراني الموعود[٨٤]. وفي الوقت نفسه بلغت الدعاية التركية بين عشائر كاشان

---

(80) G. Lenczowski, Russia and the West in Iran 1918 1948, New York, 1949, P. 150.

(٨١) كان عملاء المانيا المنبثون في كل انحاء ايران يؤكدون في حملتهم الدعائية التضليلية على تمسك الشعب الالماني وامبراطورهم «الحاج وليم!» بتعاليم الاسلام. راجع:
P. Sykes, Op. Cit., PP. 442 - 443.

(٨٢) «وزارة الخارجية. وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة ١٨٧٨ - ١٩١٧»، المجلد التاسع عشر، الجزء الاول، ص ٣٠٩، الوثيقة رقم ٣٣٤.

(٨٣) المصدر نفسه، التسلسل الثالث (١٩١٤ - ١٩١٧)، المجلد السابع، الجزء الاول (١٤ كانون الثاني - ٢٣ ايار ١٩١٥)، موسكو - لينينغراد، ١٩٣٥، ص ٥٢١ - ٥٢٢، الوثيقة رقم ٣٩٥

(84) P. Sykes, Op. Cit., PP. 543 - 544.

وكردستان حدا اثارت قلق المسؤ ولين الايرانيين[٨٥] .

ولكن لم يكن الاستياء الكردي المشروع بحاجة الى مثل هذه الانشطة حتى يعبر عن ذاته في الفرصة الجديدة التي واتت مع اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى . ففي تلك السنوات خاض اكراد ايران حومة النضال بحماس ، ورفعوا السلاح ضد السلطات الايرانية والمحتلين الاجانب في العديد من المناطق . وقد برز في ميدان النشاط الوطني انذاك بعض المثقفين الكرد الايرانيين ، منهم افراد اسرة قاضي المعروفة في مهاباد ، والشاعر الشيخ بابا الغوث ابادي الذي اسس جمعية صغيرة وحاول الاتصال بالروس ، ولكن نشاط جمعيته ظل محصورا في نطاق ضيق لم يتعد الشاعر ، والبعض من أصدقائه المقربين .

ومن جهة اخرى خلقت مظالم المحتلين[٨٦] ، بمختلف فصائلهم ، ردود فعل كبيرة بين اوساط كَردية ايرانية مختلفة ، اضطرت للجوء الى السلاح دفاعا عن كرامتها . فقد قاوم سكان منطقة مهاباد الجيش العثماني ، ثم الجيش الروسي بنشاط ، تقودهم الشخصية المعروفة القاضي فتاح (١٨٣٢ - ١٩١٦) ، الاخ الاصغر لجد القاضي محمد المعروف .

وفي سنوات الحرب ، وبعدها مباشرة ، لعب الوطنيون الكرد دورا بارزا في الحركة الثورية التي انفجرت في منطقة كَيلان ، الواقعة في شمالي ايران ، بقيادة مرزا كوجك خان ، والتي دخلت التأريخ باسم «حركة الجنكَليين» ، اي الغابيين ، فقد اتخذ الثوار من غابات كَيلان الكثيفة مركزا لنشاطهم .

كانت قيادة الحركة الجنكَلية ، وقاعدتها تتألف من انتماءات قومية مختلفة . ففضلا

---

(٨٥) «وزارة الخارجية . وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة ١٨٧٨ - ١٩١٧» التسلسل الثالث ، المجلد السابع ، الجزء الاول ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، الوثيقة رقم ١٥٨ .

(٨٦) رغم اعلان ايران الحياد ، الا ان اراضيها تحولت طيلة سنوات الحرب العالمية الاولى الى ساحة قتال بين جيوش الجبهتين المتحاربتين ، بما في ذلك اراضي كردستان ايران التي إنطلقت منها الشرارة الاولى للحرب في ميدان الشرق الاوسط ، وقبل البحر الاسود ، حسب رأي المستشرق الدكتور م . س . لازاريف (M.S. Lazarev. Kurdistan..., P. 299)

عن الكَيلانيين[٨٧]، اشترك في صفوفها عدد كبير من المتطوعين الذين اتوا من المدن والمناطق الاخرى، بما فيها العاصمة طهران، ومدينة تبريز الاذربيجانية، وبعض المناطق الكردية، وغيرها. وقد جمعت هؤلاء أهداف مشتركة تركزت خلال سنوات الحرب العالمية الاولى في النضال ضد المستعمرين والمحتلين، وفي مقدمتهم الروس والانكَليز، ومن أجل ضمان الاستقلال السياسي الناجز لايران. فاقسم المشتركون في الحركة ان لايحلقوا لحاهم حتى يتحقق مبتغاهم، مما تحول الى تقليد غالبا ماالتجأ اليه الثوريون الايرانيون فيم بعد[٨٨].

ومما كان يدفع الناس، وبشكل خاص الفلاحين، للالتفاف حول الحركة تأكيد قادتها على ضرورة العودة الى القيم الاسلامية الاصيلة، وتحويلها الى سلاح ماض للنضال ضد المحتلين الاجانب، والى حد أقل ضد المستغلين في الداخل. وقد الف الجنكَليون منذ أواخر العام ١٩١٧ لجنة خاصة للاشراف على حركتهم باسم «اتحاد اسلام». ومن الجدير بالذكر ان الالمان والعثمانيين عملوا بنشاط في سنوات الحرب من أجل اذكاء الدعاية للجامعة الاسلامية في منطقة كَيلان، لانهم كانوا يدركون امكانية توجيه ضربات الى اعدائهم الروس والانكَليز بواسطة الجنكَليين، فبعثوا عددا من الضباط الى منطقتهم كان من بينهم الضابط العثماني المقدم حسين افندي التبريزي الذي كان مطلعا على المناطق والشؤون الكردية، خاصة لاشتراكه في المعارك الحربية التي وقعت بين القوات الروسية والعثمانية في كردستان[٨٩]. وقد تمكن الاتحاديون

---

(٨٧) يحتل اقليم كَيلان المناطق المشرفة على السواحل الجنوبية الغربية لبحر قزوين. تبلغ مساحته حوالي ١٥ ألف كم². يبلغ عدد سكان الاقليم اكثر من مليوني نسمة (حسب احصاء عام ١٩٦٦ بلغ تعدادهم مليونا و ٧٥٤ ألفا). تعتبر رشت ولاهيجان من أهم مدن كَيلان، التي تشغل غاباتها مساحة تربو على مليون ونصف مليون هكتار. تنتمي الكَيلانية الى مجموعة اللغات الهندو-اوروبية. في الفترة من عام ١٣٧٠ حتى القرن السادس عشر كانت الاقسام الشرقية من كَيلان تؤلف دولة مستقلة. في العام ١٥٩٢ تمكن الصفويون من فرض سيطرتهم الفعلية على الاقليم. انتفض اهل كَيلان ضد الحكم الصفوي مرارا (في السنوات ١٥٧٠ - ١٥٧١ و١٥٩٢ و ١٦٢٩). اشترك الكَيلانيون بحماس في الثورة الدستورية. في ٥ حزيران عام ١٩٢٠ اعلن عن تأسيس جمهورية كَيلان في مدينة رشت، والتي قضت عليها القوات الايرانية في ٢٩ أيلول ١٩٢١.

(٨٨) للتفصيل عن الحركة الجنكَلية راجع:

ابراهيم فخرائي، ميرزا كوجك خان سردار جنكَل، تهران، ١٣٤٤ شمسي؛

M.S. Ivanov, Ochirk..., PP. 259 - 269, 279 - 285, 293 - 299.

(89) M.N. Ivanova, Natsionalno - osvoboditelnaya dvijenie v Irane, Moscow, 1961, P. 18.

م. ن. إيفانوفا، حركة التحرر الوطني في ايران، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٦١، ص ١٨.

والالمان فعلا من الاستفادة الى حد ما من الحركة الجنكَلية، حتى ان مرزا كوجك خان ارسل مجموعات من المجاهدين لمعاونة القوات التركية والالمانية في المناطق الاخرى، بما فيها منطقة كرمنشاه الكردية.

اشترك عدد غير قليل من الفلاحين الكرد بحماس في الحركة الجنكَلية، وتقاطرت مجموعات منهم على مركز الحركة مع اندلاع نيران الحرب مباشرة، وتحول خالو قوربان الى واحد من ابرز قادة الحركة المقربين من مرزا كوجك خان، كما برز عدد اخر من الاكراد في صفوف الجنكليين، منهم كريم خان وقنبر خان وخالو حشمت وبابا خان الذي كان ينتمي الى خالو قوربان بصلة القرابة. وقد علا شأن خالو قوربان نفسه في صفوف الجنكَليين، حتى انه بلغ منصب قوميسير، أوما يوازي درجة وزير الحربية، ولكنه انفصل في النهاية عن الحركة، ودخل سوق المساومات الرائجة آنذاك، وقتل اثناء اشتراكه في العمليات العسكرية التي جرت ضد سمكو، وهو شخصية بارزة اخرى لعبت دورا كبيرا في النضال التحرري الكردي الايراني بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى، الموضوع الذي نعود الى تفاصيله فيما بعد.

دخلت الحركة الجنكَلية مرحلة جديدة بعد انتصار ثورة اكتوبر، وانتهاء الحرب العالمية الاولى. فتم في الخامس من حزيران عام ١٩٢٠ تأليف جمهورية كَيلان. وبعد تنظيم صفوفهم تقدم الثوار الجنكَليون باتجاه قزوين. فاصدرت طهران الاوامر للقوزاق بمهاجمة الجنكَليين، الا انهم اندحروا أمامهم، واضطروا الى التراجع والتفرق في قرى قزوين. واقترب الخطر من العاصمة، حتى ان السفارة البريطانية إتخذت الاجراءات اللازمة لنقل مقراتها الى اصفهان، واغلق المصرف الشاهنشاهي فروعه في رشت وتبريز. ولكن القوات البريطانية المتمركزة في قزوين هي التي حالت دون تقدم الجنكَليين نحو العاصمة طهران[٩٠]. وفضلا عن ذلك فان ضعف التحالف بين القوى الوطنية لمختلف القوميات الايرانية، أحدث ثغرة كبيرة في جبهة الجنكَليين، مما مكن من القضاء على حركتهم وجمهوريتهم في تشرين الاول عام ١٩٢١. ولقي مرزا كوجك خان مصرعه في جبال طالش، وذلك اثناء مطاردته من قبل القوات الحكومية في أواخر تشرين الثاني من عام ١٩٢١، وقد قطع رأسه وجلب الى العاصمة طهران[٩١].

لم يقتصر اشتراك الاكراد الايرانيين في حياة البلاد السياسية اثناء الحرب على

---

(٩٠) للتفصيل راجع:

حسن اعظام قدسي (اعظام الوزارة)، كتاب خاطرات من يا روشن شدن تاريخ صد ساله، جلد دوم، تهران، ص ١٠ - ١٣.

(٩١) المصدر نفسه، ص ٧.

الحركة الجنكلية، بل انهم اسهموا كذلك، وباشكال مختلفة في نضالات الايرانيين. فعندما احتدم صراع القوى الوطنية ضد حكومة وثوق الدولة التي الفت في آب ١٩١٦، وعرفت بموالاتها للانكليز. ومن أجل اجبار تلك الحكومة على اجراء انتخابات جديدة، ودعوة المجلس للانعقاد، عقدت اجتماعات جماهيرية في مدينة كرمنشاه، رفعت فيها شعارات بهذا المعنى، وقد لعب الشاعر المعروف، الكردي القومية، ابو القاسم لاهوتي دورا بارزا في تلك الاجتماعات[٩٢].

إثر انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية، وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى، دخل النضال التحرري لشعوب ايران مرحلة جديدة أنضج من السابق[٩٣]، بما في ذلك النضال التحرري الكردي الذي تجسد يومذاك في سلسلة من الحركات والانتفاضات الجديدة انصبت، كالسابق، في مجريين متناقضين في الاهداف، ومتحدين من حيث العوامل المحركة الكامنة. فبعد الحرب ظهر سالار الدولة فوق المسرح من جديد، ولكن لم يقابل هذه المرة بنفس الحماس السابق من قبل حلفائه رؤساء العشائر الكردية، فأندحر امام القوات الايرانية، وهرب الى داخل الاراضي العراقية حيث اعتقل وابعد الى حيفا بناء على طلب الحكومة الايرانية التي وافقت على تزويده بامواله[٩٤].

وقبل ان تضع الحرب اوزارها تحرك سردار رشيد، أحد احفاد امان الله خان الشهير، في منطقة اردلان. فاجتمع حوله عدد كبير من رؤساء عشائر موكريان وهورامان، والمناطق الكردية الاخرى، كما اقام الصلات مع الروس وسالار الدولة[٩٥]. وبسرعة امتد نفوذ سردار رشيد واعوانه الى كرمنشاه وسنندج، وأصقاع اخرى من كردستان ايران. ولكن الايرانيين تمكنوا من اعتقاله في شباط عام ١٩٢٠ بفضل مكيدة دبرها له شريف الدولة، حاكم سنندج انذاك. وفيما بعد ظهرت فرص جديدة امام سردار رشيد، لكنه لم يستطع ان يلعب دورا ملموسا في النضال التحرري الكردي في ايران الذي تجسد بعد الحرب بصورة خاصة في الانتفاضة الكبيرة التي قادها سمكو.

يرجع تأريخ بروز اسماعيل اغا شكاك، المعروف بسمكو، الى سنوات ماقبل الحرب العالمية الاولى، ولاسيما بعد ان قتلت السلطات الايرانية شقيقه الاكبر جعفر

---

(٩٢) راجع.

M.N. Ivanova, Op. Cit., PP. 22 - 23

(٩٣) راجع موضوع «حقائق عن النضال التحرري الاذربيجاني، في ايران».

(94) P. Sykes, Op. Cit., PP. 430 - 431, 554.

(٩٥) للتفصيل حول الموضوع راجع: علاء الدين سجادي، شورشه كانى كورد وه كوردو كومارى عيراق (الثورات الكردية والكرد والجمهورية العراقية)، بغداد، ١٩٥٩، ص ٧١ ـ ٧٧.

اغا غيلة في العام ١٩٠٥ لاتصاله بالثوريين الايرانيين. فمنذ ذلك الوقت أصبح سمكو على اتصال وثيق بعبد الرزاق بدرخان، وبالروس الذين أشاروا الى اسمه، ونشاطاته في وثائقهم الدبلوماسية مرارا[٩٦]. وقد ورد عنه مانصه في تقرير روسي خاص:

«تقريبا منذ العام ١٩١٤ أصبح اسم سمكو معروفا على نطاق واسع في االدوائر الدبلوماسية الروسية والبريطانية والايرانية والتركية. ففي سفارة كل واحدة من هذه الاقطار، وكذلك في وزاراتها الخارجية، يوجد ملف كبير عن سمكو»[٩٧].

ومن اجل «ان تبقى الابواب جميعها مفتوحة امامه»، حسب تعبير مارتن فان برونسن، تبنى سمكو في سنوات الحرب العالمية الاولى سياسة تميزت بهدوء نسبي[٩٨]. ولكن بعد انتهاء الحرب تحول سمكو الى ابرز عنصر في النضال التحرري الكردي الايراني الذي تعمق مضمونه، وتحددت أهدافه اكثر، ليتحول الى ظاهرة بارزة في تأريخ ايران السياسي، خصوصا بعد ظهور رضا خان (الشاه فيما بعد) فوق المسرح، والذي تبنى سياسة لاديمقراطية تجاه المسألة القومية الملتهبة دائما بحكم واقع ايران.

رغم الاخطاء التي ارتكبها سمكو بحق الاثوريين والاذربيجانيين[٩٩]، الا انه كان واضحا في موقفه من الحقوق المشروعة لابناء جلدته، الأمر الذي جعله في خندق معاد لطهران بصورة ثابتة. وان الاسم الذي اختاره لجريدته التي كان يصدرها في اورميه يغنينا عن الخوض في تفاصيل هذا الجانب من الموضوع، فقد سماها نصا «روز كرد شه و عه جه م»، اي «نهار الكرد ليل العجم»[١٠٠].

---

(٩٦) راجع على سبيل المثال:
«وزارة الخارجية. وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة»، التسلسل الثاني. المجلد العشرون، الجزء الاول، ص ٥٥، ٧٧، الوثيقتان ٦٢ و ٨٠.

(97) «Ismail Aga Simko i plemia Shkak», P. 1

«اسماعيل اغا سمكو وعشيرة شكاك»، تقرير خاص باللغة الروسية، ص ١. في العام ١٩٦٨ زودني الاخ الدكتور علي كَلاويز، القابع الان في السجون الايرانية، بنسخة من هذا التقرير.

(98) M. Van Bruinessen, Kurdish Tribes and the State of Iran. The case of Simko's Revolt, P. 18.

(٩٩) قتل البطريرك الاثوري مار بنيامين شمعون مع عدد كبير من رجاله بعد اللقاء به يوم ٣ آذار عام ١٩١٨، كما تصرف بقسوة مع الاذربيجانيين في بعض المناطق.

(١٠٠) غير سمكو اسم الجريدة فيما بعد الى «روز كرد» (نهار او شمس الكرد)، ثم الى «كرد» وحده. وقد كتب فوق اسم الجريدة «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا». للتفصيل عن الموضوع راجع:
محمد تمدن، اوضاع ايران در جنكَ أول. تاريخ رضائية، تهران، ص ٣٧١ - ٣٧٢.

باشر سمكو حركاته الفعلية منذ اواسط العام ١٩٢١ ، وقد شملت منطقة واسعة في غربي بحيرة اورميه . وفي البداية تمكن سمكو من فرض سيطرته على مدينه اورميه التي تحولت عمليا الى مقر له . بعد ذلك توجهت قوات سمكو الى مدينة مهاباد التي دخلتها يوم السابع من تشرين الاول بعد ان تمكنت من دحر قوة كبيرة من الجندرمة كان يقودها ملك زاده . وفي غضون فترة وجيزة حرر الثوار مدن سلماس وخوي وسلدز وسقز وبانه ، وغيرها من المناطق[١٠١] .

وبما ان طهران لم يكن بوسعها القضاء على انتفاضة سمكو بواسطة قواتها الخاصة ، لذا استعانت ببعض المتنفذين لتحقيق ذلك ، منهم خالو قوربان الذي تمكن رضا خان من شراء ذمته ، ومنهم ايضا الامير الكردي الموالي لطهران أمير أرشد الذي منحه رضا خان لقب سردار ، اي العميد او الزعيم . وقد توجه الاخير على رأس عدة الاف من المرتزقة المسلحين نحو مهاباد ، وانتصر في عدد من المعارك التي خاضها ضد الثوار في تشرين الثاني ١٩٢١ . وفي ١٥ كانون الاول تمكنت قوة مشتركة من اتباع امير ارشد والجندرمة والقوزاق من اعادة احتلال مهاباد . وبعد مرور عشرة ايام فقط شن الثوار هجوما مضادا واسعا ، فاستعادوا كل المناطق التي فقدوها ، واوقعوا خسائر جسيمة بالقوات المعادية ، كما لقي أمير ارشد جزاءه في المعارك الاخيرة[١٠٢] . وفيما بعد قتل خالو قوربان ايضا على يد انصار سمكو[١٠٣] .

وعلى هذا المنوال استمر الصدام بين الطرفين حتى اواسط تموز من العام التالي ، عندما تمكنت القوات الحكومية من الحاق الهزيمة بالثوار ، واحتلال مقرهم الرئيس في جهريق ، فلجأ سمكو الى داخل الاراضي التركية ، ومن ثم الى داخل الاراضي العراقية ، حيث أجرى اتصالا مباشرا بالبريطانيين الذين يستحق موقفهم من سمكو

---

(١٠١) أحمد شريفي ، عشاير شكاك وشرح زندكى انها به رهبرى اسماعيل اغا سمكو ، تهران ، ١٣٤٨ ، ص ٤٢ - ٤٣ ؛

D.N. Wilber, Riza Shah Pahlavi, Ressurrection and reconstruction of Iran, New York, 1975, P. 59.

(102) D.N. Wilber, Op. Cit., P. 59; «The Near East and India». London, Vol. xxI, No. 556, January 5, 1922, PP. 2 - 3; No.557, January 12, 1922, PP. 38 - 39.

(١٠٣) ابراهيم فخرائي ، مرزا كوجك خان سردار جنكل ، ص ٣٤٧ ؛ عه لى سه نجه رى ، له بياوه ناوداره كانى كورد ميرزا كوجك خان ، - جريدة «زين» ، السليمانية ، العدد ٣٢ ، تموز ١٩٧١ .

بعض التمعن. فقبل كل شيء ان الصحافة البريطانية التي كانت تعتبر سمكو روبن هود الشرق، ولصا[١٠٤]، رحبت بانتصار القوات الايرانية عليه[١٠٥]. ولكن التعبير عن موقف الانكليز المناور جاء بصورة ادق على لسان أدموندس، الذي كان يومذاك حاكم كركوك السياسي، وجرى الاتصال بسمكو عن طريقه. فقد كتب أدموندس فيما بعد يقول:

«. . . انه اندهش لمدى اهتمامنا بالفرس، رغم انهم كانوا يتعاونون على طول الحدود مع الاتراك الذين طردونا من راوندوز ورانيه، والذين كانوا لايزالون يحاربوننا علنا. وفي حالة عكس ذلك انه ماكان يرغب في طلب اللجوء، بل كان يرجع الى عشائره ليعمل بوحده»[١٠٦].

وهذا ماحصل فعلا. فان سمكو الذي اصيب بخيبة كبيرة من سياسة البريطانيين[١٠٧]، عاد الى كردستان ايران في العام ١٩٢٤، ليوالي صراعه من جديد، وعلى مدى أشهر، اضطر بعدها الى ترك المنطقة ثانية تحت ضغط القوات الايرانية، لتنتهي بذلك المرحلة الاولى من حركات سمكو التي كلفت طهران ثمنا غاليا جدا[١٠٨]. ولم يكن عبثا ان رضا شاه لم يستطع ان ينسى طيلة حياته «الاكراد العنودين. . . وقائدهم سمكو الذي قدر له ان يكافح ضده في مجرى صراعه من اجل السلطة» على حد تعبير بيتر افرى[١٠٩].

---

(١٠٤) راجع: «The Near East and India», Vol. xxx III, No. 868, January 5, 1928, P. 2.

(١٠٥) راجع:

«The Near East and India», Vol. xxl, No. 557, January 12, 1922, P. 39.

(106) C.J. Edonds, Kurds, Turks and Arabs. Politics travel and research in North - Eastern Iraq, London, 1957, P. 307.

(١٠٧) راجع عن رأي سمكو الشخصي في الانكليز، وعدم ثقته بهم في مذكرات أحمد تقي الذي رافقه لفترة من الزمن «خه باتى گه لى كورد له يا دداشته كانى ئه حمه ته قى دا. لابه ره يه ك له شورشه كانى شيخ محمود وسمكو وهه ستانه كه ى ره واندز»، رێكخستن و ئاماده كردنى بوجاب جه لال ته قى، به غدا، ١٩٧٠، ص ٧٠).

(108) «THE Near East and India», Vol. xxll, No. 588, August 17 1922, P. 202, No. 591, September 7, 1922, P. 307; O.S. Melikov, Ustonovlenie dictaturi Riza Shaha v Irane, Moscow, 1961, PP. 88, 90.
أ. س. ميليكوف، اقامة دكتاتورية رضا شاه في ايران، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٦١، ص ٨٨، ٩٠.

(109) P. A very, Modern Iran, P. 387.

استمرت حركات سمكو بين مد وجزر لمدة ست سنوات اخرى، رافقتها تحركات موضعية اخرى كانت تعكس بدورها التذمر الشديد من اجراءات طهران اللاديمقراطية. ففي أواخر آذار ١٩٢٩ وقعت اضطرابات قرب مهاباد احتجاجا ضد محاولة حكومة ايران ارغام الكرد على ارتداء الملابس الافرنجية، ولبس القبعة البهلوية» حسبما أفادت الصحف الاجنبية. وقد اضطر رضا شاه الى ارسال قوة قوامها اربعة الاف رجل للقضاء على معارضة المهاباديين الذين تمكنوا من اصابة قائد الحامية الايرانية في اذربيجان. وقد تمكنت القوات الايرانية من قمع الحركة التي اضطر عدد من قادتها الى اللجوء للاراضي العراقية[١١٠]. وتمادت سلطات الشاه في سياستها الارهابية في كل مكان، وتمكنت في الاخير من تدبير مؤامرة بمدينة اشنو في اواسط تموز سنة ١٩٣٠ أودت بحياة سمكو مع عشرة من اعوانه[١١١]. وفيما بعد نقلت رفاته الى قرية جهريق التي اندلعت منها الشرارة الاولى لانتفاضته[١١٢].

بعد القضاء على انتفاضة سمكو اعلن احد مقربي رضا شاه، المدعو علي دشتي، امام البرلمان الايراني انه «لاتوجد في ايران مشكلة باسم المشكلة الكردية، فان الاكراد هنا لايعاملون كأقلية قومية»[١١٣]. ومنذ ذلك الوقت بدأت فترة جزر في النضال التحرري الكردي. فان كردستان ايران لم تشهد على مدى العقد التالي سوى بعض الحركات المسلحة الصغيرة، منها، مثلا، الحركة التي قادها جعفر سلطان الذي اضطر

---

(110) «Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain and Northern Ireland to the Council of the League of Nations on the administration of Iraq for the year 1929» London, 1930, PP. 39 - 40;

«العالم العربي» (جريدة)، بغداد، ٣ نيسان ١٩٢٩.

(١١١) «العالم العربي»، ٢٣ تموز ١٩٣٠.

(١١٢) يتمتع سمكو بحب كبير بين الاكراد. ومن الجدير بالذكر ان احد فصائل الانصار في كردستان الايرانية حاليا تحمل اسم سمكو، ويقودها نجله طاهر خان الذي يبلغ من العمر حوالي ٧٠ عاما.

(١١٣) «محضر المجلس الايراني في ٢٢ تشرين الاول ١٩٣٠» (مقتبس من:

R.Qazi, Kurdistan democrat partiaci Iran Kurdistaninda Kurd Khalginin milli azadlig haraketinin rahbari va tashkilatici 1945 - 1946, Baku, 1954, P. 107.

رحيم قاضي، الحزب الديمقراطي الكردستاني منظم وقائد حركة التحرر الوطني للشعب الكردي في كردستان ايران، باللغة الاذربيجانية مع ملخص باللغة الروسية، رسالة دكتوراه، باكو، ١٩٥٤، ص ١٠١.

الى اللجوء الى داخل الاراضي العراقية في اواسط كانون الثاني عام ١٩٣٢[١١٤].

في العقد الرابع، عندما تمكن رضاه شاه من تثبيت دعائم نظامه الدكتاتوري، تفاقمت شوفينية طهران تجاه الشعوب غير الفارسية، بضمنها الشعب الكردي، فامتلأت سجون البلاد بالوطنيين، بمن فيهم عدد من رؤساء العشائر ممن وقفوا، بصورة او باخرى، ضد الحكم البهلوي الجديد الذي كان إمتدادا للحكم القاجاري في العديد من النقاط والامور[١١٥]. ولاينكر ان اهم عامل دفع رؤساء العشائر الى الجبهة المعادية للسلطة كان يكمن في استيائهم الشديد من السياسة المركزية الجديدة للسلطة، الا ان الشعور القومي لعب ايضا دوره بالنسبة لقسم منهم، والا فان النظام البهلوي احتفظ بجوانب اساسية من العلاقات الاقطاعية السابقة. فان قانون الارض الذي صدر عام ١٩٢٨ رغم ماتركه من آثار مباشرة على كيان النظام العشيري، الا انه ثبت في الوقت نفسه سيطرة الملاكين على الارض، ولم يؤثر الا في حدود ضيقة على علاقات الملكية، واساليب استغلال الارض التي كانت قائمة قبل ذلك التأريخ. ثم ان سياسة رضا شاه هذه، التي عرفت بـ «تخته قابو»، استهدفت القضاء على حياة التنقل بين العشائر الايرانية، فافقدت الرعاة جانبا كبيرا من قطعانهم، بل ان قسما منهم فقدوا الحياة بسبب الصعوبات التي جابهتهم، لذا نراهم يتحولون الى وقود لكل حركة تعادي عرش الشاه. وفعلا شهدت الارياف التابعة لسنندج وهوراماں ومريوان سلسلة من الانتفاضات الفلاحية الموضعية في الفترة الممتدة بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩، والتي كان ينقصها التنظيم والترابط فيما بينها، مما سهل امر القضاء عليها من جانب القوات الايرانية بقيادة الجنرال أمير أحمدي، الذي لم يتوان في اراقة دماء الابرياء دون هوادة[١١٦].

وكما تشير بعض المصادر[١١٧] قامت السلطات الايرانية بشنق مالايقل عن ١٢٠ كرديا داخل السجون في الفترة الممتدة بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٤٠. وقد انعكست اثار هذه السياسة الشوفينية على الوضع الثقافي والصحي والاجتماعي للشعب الكردي في ايران. فلغاية الحرب العالمية الثانية لم توجد في جميع الاقسام الشمالية

---

(١١٤) راجع: «العراق» (جريدة)، بغداد، ٢٩ كانون الثاني ١٩٣٢.

(١١٥) للتفصيل راجع موضوع «رضا المازندراني والعرش الايراني».

(116) R. Qazi, Op. Cit., P. 111.

(١١٧) في ذكر الحقائق المتعلقة بالاضطهاد القومي الذي عاناه الشعب الكردي في ايران قبل تأسيس «جمهورية مهاباد ذات الحكم الذاتي» استندنا بالاساس الى اطروحة الدكتور رحيم قاضي التي ورد ذكر تفاصيلها في الهامش رقم ١١٣.

من اقليم كردستان، التي تتألف من مدن سردشت وسقز وبانه ومهاباد واشنو ولاهيجان ونغدة وبوكان وغيرها، اكثر من مدرسة ثانوية واحدة، مع ان عدد سكان هذه المنطقة الواسعة كان يربو آنذاك على حوالي مليون شخص. اما في منطقة مهاباد وقراها الستمائة والخمسين فكانت توجد خمس مدارس ابتدائية فقط.

ولم تكن الحالة الصحية في كردستان ايران أحسن من وضعها الثقافي. فقد خصص لجميع سكان منطقة مهاباد، البالغ تعدادهم انذاك حوالي ٢٠٠ ألف نسمة، مستشفى واحد، بلغ عدد اسرته ٢٠ سريرا فقط. وباعتراف صحيفة «كيهان» شبه الرسمية في كانون الثاني عام ١٩٥١ بلغ عدد اسرة مستشفيات منطقة كرمنشاه، اكثر مناطق كردستان الايرانية تطورا، حوالي عشر الحاجة الفعلية للمنطقة على اكثر تقدير. ولم يكن ذلك سوى نتيجة طبيعية لسياسة التمييز المتبعة تجاه الانسان الكردي الذي بلغ نصيبه من المخصصات الصحية، باعتراف الصحيفة نفسها، ١٪ فقط من نصيب الفرد في بعض المناطق المتطورة من ايران. لذا لم يكن اعتباطا ان اعترفت صحيفة «سنندج» في عددها الصادر يوم ٢٢ خرداد ١٣٣١ انه «لم يطرأ اي تغيير على وضع كردستان قياسا مع ماكانت عليه قبل ٦٠ عاما». وهذا لايعني، بالطبع، ان الوضع كان افضل بالنسبة للاذربيجانيين، أو العرب والبلوج وغيرهم. ومن المفيد ان نشير بهذا الخصوص الى انه لغاية عام ١٩٤١ لم توجد في ايران وزارة للصحة، بل ان مديرية تابعة لوزارة الداخلية هي التي كانت تشرف على كل مايتعلق بالامور الصحية لايران التي قدرت إمكاناتها الطبية بأقل من ١٪ من الحاجة الفعلية للسكان[118].

وفي عهد رضا شاه مارست السلطات الايرانية سياسة التهجير بالنسبة لاقسام مهمة من ابناء عشائر كَلباغي وجلالي وبيران، وغيرهم، الذين نقلوا الى سلطان آباد وكرمان وشيراز في العام ١٩٣٥. وكان يجري نقل هؤلاء في أسوأ الظروف. فباعتراف الضابط الذي أشرف على نقل أفراد عشيرة كَلباغي القاطنة في المنطقة الواقعة بين سنندج وسقز، لقي جميع الاطفال والنساء، وعدد كبير من الرجال حتفهم في الطريق[119].

وفي السنوات الاخيرة من حكم رضا شاه اشتد الاضطهاد القومي بالنسبة لسائر شعوب ايران غير الفارسية. ففي كردستان، مثلا، حاولت السلطات منع استخدام اللغة الكردية، خاصة داخل المدارس، وفي الدوائر الحكومية، كما جرت محاولات

---

(118) Sovrimenay Iran», P. 519.

(١١٩) «كردستان» (جريدة)، مهاباد، ١٩ ايار ١٩٤٦.

تسرية لمنع ارتداء الملابس القومية، فكان رجال الشرطة يداهمون حتى المساجد لاجبار القرويين على ترك ملابسهم القومية. كما غيرت اسماء عدد كبير من المدن والقرى الكردية الى اسماء فارسية، فغير اسم مدينة اورميه المعروفة الى رضائية. وسلماس الى شاهبور، وسايه نقه لا الى شاهيندير، وجومى جه غه توالى زرينه رود.

امتدت اثار هذه السياسة المتعصبة الى الناحية الاقتصادية ايضا. فقد اتبعت طهران سياسة تمييز واضحة المعالم في الحقل الاقتصادي بالنسبة للمناطق غير الفارسية من ايران. ففي السنوات العشر الاخيرة من حكم رضا شاه جرى تأسيس ٤٠ معملا للغزل والنسيج، و٨ معامل لصناعة السكر، وعدد كبير من المحالج ومعامل تنظيف الحبوب، وصناعة السكائر، وغير ذلك لم يكن نصيب اذربيجان وكردستان منها سوى معملين صغيرين لصناعة السكر، اسس احدهما في مياندواو، والاخر في شاهاباد، هذا مع ان هذين الجزئين من البلاد كانا، ولايزالان يحتلان مكان الصدارة من حيث الانتاج الزراعي، كما تأتي كردستان على رأس المناطق المنتجة للتبوغ في ايران. ومن الجدير بالذكر ان رضا شاه نفسه كان يمتلك اراضي زراعية واسعة في مياندواو وشاهاباد والمناطق المجاورة لهما.

أثارت سياسة الاوساط االحاكمة جميع الطبقات والفئات الاجتماعية في كردستان ايران، وتحول ذلك الى العامل الاهم لتحديد ابعاد النضال التحرري الكردي في تلك المرحلة التأريخية من تطوره. وقد عبر قاضي محمد فيما بعد عن ذلك بجلاء في العديد من خطبه ومقالاته[١٢٠].

وهكذا كانت جميع عوامل التحرك، والانفجار الداخلية متوفرة في كردستان ايران عشية اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية، ولكن الحكم الدكتاتوري البهلوي حدد من امكانية بروز نتائجها فوق السطح الى أقصى حد. ولم يقتصر ذلك على اقليم كردستان، بل تحول الى ظاهرة عامة امتدت اثارها الى ايران باسرها، إذ لم يبق في أي جزء منها أدنى مجال للنضال السياسي العلني، وحتى السري، بحيث اضطرت القوى الوطنية للاختفاء عن المسرح السياسي خلال هذه الفترة. ففي كردستان ايران لم تظهر خلال عقدين من الزمن سوى منظمة صغيرة باسم «حيزبى ئازاديخواى كوردستان» (حزب التحرر الكردستانى) التي تزعمها عزيز زندي الذي كان من ابرز مثقفي كردستان ايران يومذاك. إتصل زندي بعدد من رؤساء العشائر الليبراليين، ومثقفي منطقة مهاباد، وحاول الاتفاق مع ارامنة تبريز للاستفادة من تجاربهم الغنية.

---

(١٢٠) راجع مثلا: «كردستان»، ٢٩ ايار ١٩٤٦.

ولكن بحكم طبيعة تكونها، وفي ظروف الارهاب السائد، لم تستطع هذه المنظمة التغلغل في صفوف الجماهير الكردية، فأقتصر نشاطها المحدود على مدينة مهاباد، وهي لم تستطع، بحكم ذلك، التأثير على سير الأحداث في كردستان ايران، فاختفت عن المسرح بعد نشاط لم يستمر اكثر من عامين فقط (من ١٩٣٩ حتى ١٩٤١).

ولكن ظهرت في هذه الفترة بالذات عوامل خارجية معينة رافقت السنوات الحاسمة في تاريخ الحرب العالمية الثانية، وتفاعلت نتائجها بصورة مباشرة مع الواقع الداخلي، فتمخض عن احداث سياسية كبرى تعدت اثارها ايران لتمتد الى مناطق حساسة من الشرق الاوسط. ففي الخامس والعشرين من آب عام ١٩٤١ دخلت القوات السوفيتية من الشمال، والقوات البريطانية من الغرب والجنوب الى داخل الاراضي الايرانية، فاستقالت وزارة علي منصور الموالية لالمانيا الهتلرية بعد يومين، واضطر رضا شاه للتنازل عن العرش لصالح نجله محمد في ١٦ أيلول من العام نفسه، لتنتهي بذلك دكتاتوريته التي استمرت دون انقطاع لمدة عقدين كاملين. وقد هيأت هذه الاحداث ظروفا مناسبة لنشاط المعارضة، ولنضال القوميات المضطهدة في ايران، فتحركت القوى الوطنية في طهران وكبرى المدن الايرانية، وتحرك الاذربيجانيون والاكراد بصورة خاصة.

خلقت هذه الاحداث ظروفا خاصة، ومتناقضة الى حد مافي كردستان ايران. فقد أصبح القسم الجنوبي منها (منطقة كرمنشاه ولغاية سنندج) خاضعا للنفوذ البريطاني، والقسم الشمالي منها (المنطقة الممتدة الى الشمال من مهاباد) اصبح خاضعا للنفوذ السوفيتي، فيما بقيت المنطقة الممتدة بينهما، بما فيها مدينة مهاباد، محايدة تتبع اسميا للسلطة المركزية في طهران، بينما اضطر كبار المسؤولين الايرانيين الى ترك مراكزهم في معظم المناطق الكردية التي توالت الاحداث فيها بسرعة. ففي ١٦ أيلول عام ١٩٤٢ تأسست «كومه له ى زيانه وه ى كورد»[١٢١] (جمعية بعث أو إحياء الكرد)[١٢٢] التي باشرت في أيار عام ١٩٤٣ باصدار لسان حالها مجلة «نيشتمان» (الوطن).

---

(١٢١) تعرف عادة باسم «ز. ك.» او مجرد «كومه له».

(١٢٢) يشير الدكتور رحيم قاضي في الصفحة ١٥٠ - ١٥١ من رسالته التي قدمها لنيل شهادة الدكتوراه (راجع الهامش رقم ١١٣) الى ان جمعية «ز. ك.» قد تأسست في حزيران عام ١٩٣٨، عادت الى النشاط في سنوات الحرب. اغلب الظن ان المؤلف اعتبر تأسيس حزب «تازاديخواى كوردستان» بداية لظهور الجمعية

اسس جمعية «ز. ك.» ممثلو الفئة المثقفة الكردية، وحملة افكارها، وانحصرت قيادتها في البداية بأيدي هؤلاء، فيما ضمت قاعدتها فضلا عن المثقفين ممثلين عن الفلاحين الذين اولتهم الجمعية اهتماما نوعيا جديدا. وحسبما ورد في العدد الخامس من مجلة «نيشتمان» ان الجمعية تمكنت لغاية صيف عام ١٩٤٣ من تأسيس تنظيماتها في معظم انحاء كردستان ايران، خصوصا بعد ان كسبت عددا من الملاكين ورؤساء العشائر الليبراليين. واستطاعت قيادة الجمعية اقناع الشخصية الكردية المعروفة قاضي محمد بالانضمام اليها في أواخر عام ١٩٤٤.

ينتمي قاضي محمد الى اسرة معروفة في منطقة موكريان. ولد في ربيع عام ١٩٠٠ بمدينة مهاباد، ودرس علوم الدين على يد والده مرزا علي الذي أصبح قاضي لمنطقة موكريان. كان قاضي محمد مولعا بالادب منذ صغره، وتأثر بقصائد الشاعر المجدد الحاج قادر كويي. وبعد ان تعلم الفارسية والعربية اولى اداب الشرق جانب كبيرا من اهتمامه. وفيما بعد تعلم اللغات التركية والانكليزية والروسية، وتابع العلوم التاريخية والجغرافية والرياضية. وتأثر قاضي محمد بافكار ونضال الشاعر قاضي فتاح، الشقيق الاصغر لجده، والذي ناهض الحكم القاجاري، وقاوم الاحتلال العثماني والروسي لكردستان ايران، فاستشهد اثناء مقاومته للقوات القيصرية، كما المحنا الى ذلك من قبل. كانت اولى تجربة سياسية في حياة قاضي محمد انضمامه الى صفوف المقاومين من مهاباد ضد القوات العثمانية الغازية عام ١٩١٥، وهو لم يبلغ انذاك الخامسة عشرة من عمره. كما تأثر ايضا بالافكار الديمقراطية التي اصبحت رائجة بفضل الثورة الدستورية. وحسبما تؤكد «دائرة المعارف السوفيتية الكبرى» فقد كان قاضي محمد على اتصال بالخلايا البلشفية التي كانت تعمل بين صفوف القوات القيصرية العاملة في ايران خلال سنوات الحرب العالمية الاولى[١٢٣]. زاول قاضي محمد منذ عام ١٩٢٢ التدريس الى ان عين في عام ١٩٢٦ مديرا للمعارف في مهاباد، حيث بذل جهودا كبيرة لفتح عدد من المدارس. بما فيها اول مدرسة للبنات في المنطقة. وفي العام ١٩٣١ نقل قاضي محمد الى منصب قاضي موكريان، وبقي في منصبه الأخير حتى نهاية الحرب.

أدى كسب قاضي محمد الى توسيع قاعدة جمعية «ز. ك.» بصورة ملحوظة. خصوصا انه بعد سقوط رضا شاه مباشرة بدأ بالتجوال بين عشائر موكريان، وجمع في اواخر كانون الاول عام ١٩٤١ عددا كبيرا من رؤسائها في مهاباد في اشبه مايكون

(١٢٣) «الموسوعة السوفيتية الكبرى»، باللغة الروسية، الطبعة الثانية، المجلد الثامن والعشرون. ص ٤٦٠.

بمؤتمر استمر لمدة عدة ايام بذل خلالها جهودا كبيرة لجمع شملهم، وتوحيد كلمتهم. وللغرض نفسه عقد مؤتمرا أوسع في تشرين الثاني عام ١٩٤٢ جمع فيه هذه المرة بين رؤساء العشائر الليبراليين والمثقفين الثوريين. ومن الجدير بالذكر ان قاضي محمد الف في تلك الايام قصة بعنوان «صلاح الدين»، حولها عدد من مثقفي مهاباد الى مسرحية لقي عرضها نجاحا كبيرا[١٢٤].

كان إنتقال زعامة جمعية «ز. ك.» الى قاضي محمد، الذي اصبح اسمه الحزبي «بيناي»، استجابة طبيعية لواقع تناسب القوى داخل النضال التحرري الكردي في ايران يومذاك. ومن هذا التاريخ انتقلت الجمعية عمليا الى النشاط العلني، وزار قاضي محمد العاصمة طهران مرتين، عرض خلالهما مطاليب الشعب الكردي على الشاه، وكما افاد بنفسه فيما بعد انه طلب منه «الاهتمام بشؤون الكرد الثقافية والصحية بدل ارسال المدافع والدبابات ضدهم»[١٢٥].

استمرت جمعية «ز. ك.» في اواخر الحرب تعمل بنشاط من اجل توسيع قاعدتها، وتثبيتها، ولرفع الوعي في صفوف الجماهير، ففتحت بذلك افاقا جديدة امام النضال التحرري الكردي في ايران الذي انعكس عليه ايضا المد الديمقراطي الجديد في ايران، وكل الشرق الاوسط الذي رافق القضاء على النازية وانتهاء الحرب العالمية الثانية، وتأثر بوجه خاص بالتغييرات الجذرية السريعة التي شهدتها اذربيجان المجاورة[١٢٦]. كما لعب موقف طهران دورا كبيرا في تسريع احداث اذربيجان وكردستان. فبعد فشل زيارات قاضي محمد الى العاصمة، اتخذت الامور مجرى جديدا. ففي ١٦ آب عام ١٩٤٥ نشر في مهاباد بيان يحمل تواقيع ٧٠١ شخصية، معظمهم كانوا من اعضاء «ز. ك.»، ويمثلون فئات اجتماعية مختلفة، اعلنوا فيه عن تأسيس «الحزب الديمقراطي الكردستاني» في ايران، والذي كان إمتدادا شرعيا لجمعية «ز. ك.».

عقد الحزب الجديد اول مؤتمر له في مهاباد في الفترة من ٢٥ الى ٢٨ تشرين الاول ١٩٤٥، حضره ممثلون عن جميع فروعه ومنظماته. وضع المؤتمر المنهاج

---

(١٢٤) راجع:

O.L Vilchevski, Mukrianski Kurdi (Ethnographicheski ochirk), «Piredneasiatski Ethnographicheski sbornik», T.I, Moscow, 1958, P. 220.

و. ل. فليجيفسكي، اكراد موكريان. ملخص اثنوغرافي، للغة الروسية، في كتاب «دراسات اثنوغرافية لبلدان اسيا الادنى»، الجزء الاول، موسكو، ١٩٥٨، ص ٢٢٠.

(١٢٥) «كردستان»، العدد الثاني، السبت، ١٣ كانون الثاني ١٩٤٦.

(١٢٦) راجع موضوع «حقائق عن النضال التحرري الاذربيجاني في ايران».

والنظام الداخلي للحزب، وانتخب قاضي محمد رئيسا له بالاجماع. وكان المنهاج يتألف من اربعة فصول مقسمة على ٢٢ مادة[١٢٧] حددت طبيعة الحزب الديمقراطية المستندة الى «الحق والعدل والتمدن» (المادة الثانية). واكد الحزب في منهاجه ان هدفه الاساس هو «ضمان الحقوق القومية لكردستان داخل الحدود الايرانية» (المادة الرابعة)، وبان الحزب «لايكن اي عداء تجاه الحكومة المركزية، إنما ينشد السلم، فالشعب الكردي الذي قاسى الى اليوم من ويلات الاستعمار البغيض... يطالب بحقه في الحكم الذاتي» (المادة السادسة). واكدت المادة الخامسة من المنهاج على ضرورة النضال من اجل الديمقراطية والسلم. واعار الحزب في منهاجه، ولاول مرة في كردستان ايران، الاهتمام ببعض القضايا الاجتماعية. فنصت المادة العاشرة من المنهاج على بذل الجهد من أجل توسيع استخدام الوسائل الحديثة في الانتاج، وضمان صرف منتوج الفلاح، وتطوير الريف، ووضع حد لهجرة الفلاحين. ونصت المادة الثانية عشرة من المنهاج على ان الحزب يدافع «عن حياة الكادحين، ومصالحهم السياسية والاقتصادية والصحية، بغض النظر عن انتمائهم العنصري والقومي والديني». واكد المنهاج في بقية مواده على ضرورة توسيع القاعدة الصناعية، وضرب المصالح الاستعمارية، ومنح المرأة حقوقها، وحماية حقوق الاذربيجانيين والارمن والاثوريين.

ان تأسيس «الحزب الديمقراطي الكردستاني» كان نقلة نوعية في النضال التحرري الكردي في ايران، الذي بدأ ينصب في إطار منظم ومحدد. وقد اصدر الحزب جريدته المركزية «كردستان» في ١١ كانون الثاني عام ١٩٤٦، والتي كانت تصدر بين يوم واخر. وقبل ذلك بشهر اصدر مجلة نظرية بالاسم نفسه. كما اصدر فرع الحزب في بوكان مجلة «هه لاله» (الزنبقة)، واصدر اتحاد الشبيبة الديمقراطي الكردستاني مجلة «هاوارى نيشتمان» (نداء الوطن). ومن شأن عناوين المواضيع التي عالجتها صحافة الحزب اعطاء فكرة واضحة عن المنطلقات الجديدة للنضال التحرري الكردي في ايران بعد الحرب العالمية الثانية. فقد نشرت «كردستان»، ومجلات «هلاله» و«هاوارى نيشتمان»، وغيرها مقالات تحمل مثل هذه العناوين: «ماهي الديمقراطية»، «ماهي الاشتراكية»، «الاشتراكية العلمية»، «من أجل

---

(١٢٧) راجع:
«مه رامنامه ى حزبي ديموكراتي كوردوستان» (منهاج الحزب الديمقراطي الكردستاني)، مهاباد، جابخانه ى كوردوستان، سه رماوه ز ١٣٢٤ شمسي

«الخبز»، «الاتحاد»، «قبس الحرية»، «لماذا انتفض الكرد»، «اللغة والادب الكردي»، «ابن خلكان»، «في ذكرى تولستوي» وغيرها من المواضيع.

ومنذ اواخر عام ١٩٤٥ دخل النضال التحرري الاذربيجاني والكردي مرحلة دقيقة. ففي ١٢ كانون الاول عام ١٩٤٥ اعلن جعفر بيشوري في تبريز عن تأسيس «جمهورية اذربيجان الديمقراطية ذات الحكم الذاتي». وفي ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٦ اعلن قاضي محمد في اجتماع جماهيري عقد بمهاباد عن تأسيس «جمهورية كردستان الديمقراطية ذات الحكم الذاتي» التي دخلت التأريخ باسم «جمهورية مهاباد»[١٢٨]. وقد اكد قاضي محمد مرارا على ان حركته لاتستهدف الانفصال، بل تهدف الى وضع نهاية لمظالم طهران، وسياستها الشوفينية تجاه الشعب الكردي، وضمان الحكم الذاتي له.

لجأت حكومة الشاه الى اجراءات مختلفة من أجل القضاء على الحركة الكردية في مرحلتها الجديدة. فقبل كل شيء ان رئيس الوزراء قوام السلطنة حاول بث بذور الشقاق بين الاذريين والاكراد باسلوب مراوغ، كما نشط رجاله باتجاه شراء ذمم عدد من المتنفذين المعروفين في المنطقة.

وعندما علم قاضي محمد بنية طهران لارسال قواتها الى اذربيجان وكردستان بحجة الاشراف على الانتخابات المقبلة عقد اجتماعا لزعماء الحركة في بداية كانون الاول ١٩٤٦ تقرر فيه منع تلك القوات من الدخول الى المنطقة الكردية، واتخاذ الاجراءات السريعة لتعزيز مواقع الثوار في سقز وبانه وسرده شت[١٢٩]. وقد اخبر قاضي محمد تبريز بالقرار، وذلك تنفيذا لبنود الاتفاقية التي وقعت بين الطرفين في ٢٣ نيسان عام ١٩٤٦. ولكن خيانة بعض القادة الاذربيجانيين من أمثال جاويد وشبوستري ومحمد بى ريا (Be Ria) الذين اصبحوا على اتصال بطهران، أفشلت الخطة، إذ اخبر هؤلاء حكومة قوام السلطنة بتفاصيل نوايا مهاباد، كما اذاعوا من طرف واحد بيانا من راديو تبريز اعلنوا فيه باسم حكومة اذربيجان قرار السماح للقوات الايرانية بالتقدم الى حيثما ترغب في المنطقة، الامر الذي احتج ضده قاضي محمد

---

(١٢٨) كتب عنها الكثيرون. للتفصيل عنها راجع.
W. Eagleton, The Kurdish Republic of 1946, London, New York, Toronto, 1963, 142 PP.

(١٢٩) يسود المؤلفات التي تطرقت الى الحركة الكردية في ايران رأي غير صحيح مفاده ان قاضي محمد لم يكن يرغب منذ البداية في ابداء المقاومة للقوات الايرانية.

برقيا في ١١ كانون الاول، اي بعد يوم واحد فقط من اذاعة البيان[١٣٠]

وبتأييد مطلق من واشنطن ولندن تقدمت القوات الايرانية صوب اذربيجان وكردستان من اربع جهات. فقد تقدمت قوة مؤلفة من خمسة الاف رجل باتجاه قزوين وزنجان، وباتجاه تيكان ته به هوشار تقدمت قوة ثانية قوامها ايضا خمسة الاف رجل، وتقدمت قوة ثالثة قوامها الفا رجل باتجاه رشت وبهلوي، اما القوة الاخيرة فانها كانت تتألف من حوالي ١٤ ألف رجل، وقد تقدمت باتجاه سقز وبانه. وان اكثر من نصف هذه القوات توجهت نحو المناطق الكردية، تساندها ١٠٤ مدافع و ٥٥ دبابة وعدد من الطائرات[١٣١].

اقترفت القوات الايرانية جرائم بشعة بحق الاذربيجانيين والاكراد[١٣٢]. فكما تؤكد بعض المصادر المطلعة ان عدد الديمقراطيين الذين لقوا حتفهم في تلك الايام العصيبة قد تجاوز ١٥ ألف شخص[١٣٣]. واعتقل عدد اكبر من ذلك. وبعد محاكمة سرية صورية نفذ حكم الموت صبيحة ٣٠ آذار ١٩٤٧ في قاضي محمد، وشقيقه صدر قاضي، عضو البرلمان الايراني، وابن عمه سيف قاضي. وحسب ماأفادت المعلومات التي اوردتها مجلة «الازمنة الحديثة»[١٣٤] ان عملاء واشنطن ولندن حاولوا عبثا كسب قاضي محمد، الامر الذي اخر تنفيذ حكم الموت فيه، وفي اخوته لمدة تزيد عن ثلاثة اشهر[١٣٥].

جابه قاضي محمد الموت بجرأة. فبعد سنوات كتب العقيد أمير برويز، الذي كان شاهد عيان لتنفيذ حكم الاعدام، كتب يقول ان قاضي محمد رفض ان تعصب عيناه، وفي كلماته الاخيرة اكد على ضرورة الاستمرار في النضال، ودعا اخوته «الى ان لايثقوا بالحكومة الايرانية»[١٣٦].

بعد القضاء على مهاباد بدأت فترة جزر في النضال التحرري الكردي في ايران، شأنه في ذلك شأن النضال التحرري الاذربيجاني. وفي الوقت نفسه لم يطرأ اي تغيير في سياسة الدولة تجاه الشعوب غير الفارسية في عهد محمد رضا شاه، ثاني

---

(١٣٠) الدكتور رحيم قاضي، قاضي محمد، مخطوط، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٧.

(١٣١) المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

(١٣٢) راجع ايضا موضوع «حقائق عن النضال التحرري الاذربيجاني في ايران».

(١٣٣) الدكتور عبدالرحمن قاسملو، كردستان والاكراد، ص ٧٢.

(134) «Novaya Vremia», Moscow, April 15, 1947.

(١٣٥) دخلت القوات االايرانية مدينة مهاباد يوم ١٧ كانون الاول عام ١٩٤٦.

(١٣٦) «ئازادى»، ٨ نيسان ١٩٦٠.

وآخر ملك بهلوي . فرغم زيادة واردات النفط ظلت المنطقة الكردية تعاني من فقر مدقع، ومن وضع ثقافي وصحي واجتماعي مزرٍ. ففي العام ١٩٦٦ بلغت نسبة الامية بين سكان الريف في كرمنشاه ٢ر٨٨٪، وفي سنندج ٩ر٩٢٪، وفي سقز ١ر٩٣٪ وفي مهاباد ٩٤٪. وفي السنة نفسها كانت توجد مناطق كردية في ايران يزيد عدد سكانها عن عشرين الف نسمة دون ان يكون فيها طبيب واحد، في وقت كان يصيب كل ٤٨٠٠ شخص من سكان ايران طبيب واحد في المعدل. وحسب الاحصاء الرسمي للعام ١٩٦٦ كانت اكثر من ٥٠٪ من الاسر الكردية الايرانية، التي يتراوح عدد افراد الواحدة منها بين ٥ و٦ أشخاص، تعيش في غرفة واحدة، وفي وضع لم يختلف كثيرا عن وضع الاسرة الكردية الايرانية الذي وصفه لنا الرحالة الفرنسي هنري بندر في العام ١٨٨٧ . ان دراسة بسيطة للمعلومات الاحصائية الرسمية في اواخر العهد البهلوي تبين بوضوح انه قلما توجد في ايران منطقة تضاهي كردستان في التخلف(١٣٧) .

ان هذا الواقع لوحده كان يكفي لدفع الشعب الكردي في ايران الى خندق معاداة طهران، ولضمان ديمومة نضاله الذي عبر عن نفسه بعد سقوط مهاباد في صور مختلفة، بعضها جديدة. فسرعان ماعاود الديمقراطيون نشاطهم، بعد ان اعادوا تنظيم صفوفهم في بعض المناطق. الا ان الاوساط الحاكمة استغلت محاولة اغتيال الشاه يوم ٤ شباط ١٩٤٩ في جامعة طهران لتوجيه ضربة قوية لمجمل الحركة الوطنية في ايران. ففي كردستان جرى اعتقال اعداد كبيرة من الديمقراطيين الذين فرضت عليهم احكام جائرة بالسجن لمدد مختلفة. وسرعان ماجاء الرد المنطقي على ذلك. ففي انتخابات عام ١٩٥٢ حصل مرشح الحزب الديمقراطي الكردستاني في مهاباد، والمناطق التابعة لها، على نسبة تتراوح بين ٨٠٪ و٩٩٪ من أصوات الناخبين، ولكن طهران الغت الانتخابات، وعينت شخصا اخر مكانه. وفي السنة نفسها انتفض فلاحو منطقة واسعة تمتد بين بوكان ومهاباد، استخدمت القوات الايرانية ضدهم ابشع اساليب القمع والبطش. وعندما بدأت حركة مصدق ساندها الاكراد الايرانيون بحماس. ففي الاستفتاء الذي جرى يوم ٣ آب ١٩٥٣ حول الاقتراح المتعلق بتحديد صلاحيات الشاه، وقفت الاكثرية المطلقة من المصوتين في كردستان الى جانب الاقتراح. ففي مدينة مهاباد، مثلا، صوت اثنان فقط لصالح الشاه من أصل خمسة الاف شخص

---

(١٣٧) للتفصيل راجع:

A.R. Ghassemlou, Iranian Kurdistan, PP. 9 - 11; «Sovrimenay Iran». PP. 378 - 403.

اشتركوا في الاستفتاء(١٣٨).

تفاقم الاتجاه اللاديمقراطي لحكومة الشاه بعد عقد حلف بغداد، الامر الذي ولد رد فعل قويا بين الاوساط الوطنية الايرانية. وقد شهدت كردستان ايران اول انتفاضة مسلحة ضد الحلف المذكور. فان عشيرة جوانرو التي تقطن في المنطقة الممتدة الى الشمال من كرمنشاه، والتي طالبت في العام ١٩٥٠ بالحكم الذاتي للشعب الكردي في ايران(١٣٩)، انتفضت في مطلع العام ١٩٥٦ ضد طهران، ورفعت شعارات معادية لحلف بغداد. وقد تمتعت الانتفاضة بتأييد بعض العشائر المجاورة. ومنذ الرابع من شباط باشرت القوات الايرانية هجوما كاسحا على المنطقة، فدمرت عددا كبيرا من قراها، وقتلت وجرحت واسرت المئات من الجوانرويين، وشردت الالوف من أطفالهم ونسائهم وشيوخهم(١٤٠)، الامر الذي جلب انظار الصحافة العالمية. ففي عددها الصادر يوم ٢٧ شباط ١٩٥٦ تحدثت «لوموند» الفرنسية عن إنتفاضة جوانرو المعادية لحلف بغداد، وعن لجوء القوات الايرانية الى استخدام المدافع لقمعها.

وفي هذه الفترة بالذات ظهر اتجاه جديد في سياسة ايران تجاه القضية الكردية، انصب على محاولة احتوائها للتقليل من انعكاساتها الداخلية. ويؤشر الدكتور عبدالرحمن قاسملو رد الفعل القوي الذي أثاره تأسيس اذاعة كردية في القاهرة عشية ثورة الرابع عشر تموز عام ١٩٥٨ العراقية بداية لمثل ذلك التوجه. وبصدد ذلك يقول الزعيم الكردي الايراني مانصه:

«وقد بلغ الرعب لدى الحكومة الايرانية مبلغا جعلها تتخذ اجراءات لم يسبق لها مثيل، فقامت الحكومة برحلة دعائية في سائر انحاء كردستان، اعقبتها بتخصيص سبعة ملايين دولار لتعمير المنطقة. واشتدت فعاليات الدعاية الرسمية، وخصصت سبع موجات

---

(١٣٨) للتفصيل راجع:

A R Ghassemlou, Iranian Kurdistan, PP 24 - 25

(١٣٩) راجع:

«Moyen - Orient», Paris, October - November 1950

(١٤٠) للتفصيل عن الانتفاضة، وقمعها، وموقف حكومة نوري السعيد منها راجع:
«انتفاضة العراق الاخيرة»، بلا، ص ٢٧؛

A R. Ghassemlou, Iranian Kurdistan, PP 25 - 26, P. Vanly, Aspects de la Question Nationale Kurde en Iran, Paris, 1859, PP 21 - 22

للاذاعة باللغة الكردية . . .»[141] .

لم يكن بوسـع السيـاسـة الجـديـدة التأثير على واقع النضال التحرري الكردي في ايران، الذي ظلت عوامله الاصلية الكامنة قائمة، وتفعل فعلها كالسـابق، الامر الذي انعكس في انتفـاضـة نوعيـة جديـدة انفجـرت في شتـاء عام ١٩٦٧، والتي لم تـستطـع سلطـات طهـران القضـاء عليها الا بعد مرور ١٨ شهرا على اندلاعها. وبعد القضاء على الانتفاضة ظلت كردستان ايران تعيش ارهاصا ثوريا فعليا كالسـابق. وهكذا فان النضـال التحـرري الكـردي لم يلعب دورا قليلا في زعزعة اسـس النظام البهلوي، فقد ظل، ولم يزل، يؤلف رافدا اساسيا في مجرى الحركة الوطنية للشعوب غير الفارسية في ايران .

---

(١٤١) الدكتور عبدالرحمن قاسملو، كردستان والاكراد، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

الموضوع الثامن

صفحات من تاريخ العلاقات الايرانية ـ السوفيتية

لاشك في ضرورة دراسة كل مايتعلق بتاريخ دول المنطقة وشعوبها(*) وذلك لما للامر من اهمية علمية وعملية كبيرة تفرض نفسها بالحاح مع مرور كل يوم جديد على عالمنا المليء بالاحداث والمتغيرات. وتأتي العلاقات التي تربط تلك الدول بالقوتين العظميين ـ الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية ـ على رأس قائمة المواضيع لتي تستحق اهتماما كبيرا من لدن المختصين، ولاسيما ماهو شائع عنها لايتعدى، في اغلب الاحيان، بعض التصورات النابعة من تقييم عام لايخلو من الغموض احيانا، فهي بحاجة قبل كل شيء الى تحديد واضح يستند الى شواهد تاريخية وحقائق مادية ملموسة.

عند تقييم العلاقات الايرانية ـ السوفيتية من الضروري جدا ان نضع نصب أعيننا دائما حقيقة ثابتة تفرض نوعا خاصا من التعامل نابع اساسا من الصراع القائم بين القطبين المناقضين الرئيسيين على صعيد العلاقات الدولية بشكل عام. وترتبط الحقيقة المذكورة بواقع جغرافي تمخضت عنه حدود مشتركة تعتبر من اطول الحدود الدولية لا على صعيد المنطقة نفسها حسب، بل وعلى الصعيد العالي كذلك. فان الحدود الفاصلة بين ايران والاتحاد السوفيتي تبلغ ٢٥٠٠ كم. وتتجسد معاني هذا الرقم اكثر من خلال تحليله. فهو يؤلف حوالي ثلث الحدود الدولية لايران واطول خط يفصل بين الاخيرة وخمس دول تشترك معها في الحدود، وأطول خط يرتبط الاتحاد السوفيتي من خلاله بصورة مباشرة بالشرق الاوسط قلب العالم الحساس.

وأمام هذا الواقع وفي ظل الصراع المصيري القائم بين نظامين متناقضين يكون من الطبيعي جدا ان يحلم الغربيون بنقل سور الصين بايديهم الى تلك الحدود الطويلة لا من اجل صد شعاع مميت بالنسبة لمصالحهم الحيوية فقط، بل وكذلك ليحولوه ـ ان امكن ـ الى نقطة انطلاق للقضاء نهائيا على

(*) القي البحث امام ندوة «ايران الحاضر والمستقبل».

مصـدره الاصلي. والعكس صحيح بالبـداهـة. وهـذا ما يضفي على علاقات القطبين بايران طابعا حساسا ودقيقا من نوع خاص ولد في مدى اكثر من ستة عقود ظواهر تبدو غريبة في حالات غير قليلة.

تعود بدايات اولى الصلات المعروفة بين دولة موسكو القديمة وايران الى العصر الوسيط. واثر تطور هذه الصلات التي كانت في الاول اقتصادية صرفة كالعادة، ظهرت الحاجة الى تنظيم امورها، ولا سيما بعد ان بدأت تكتسب طابعا سياسيا جديدا مع ظهور الصراع الصفوي العثماني فوق المسرح. ففي وقت مبكر جدا من هذا الصراع بعث الشاه محمد سلطان خودابند (١٥٧٨ ـ ١٥٨٧) بممثل عنه الى القيصر الروسي طالبا منه العون ضد الاتراك مقابل منحه منطقتي باكـو ودربنـد. وفي السنـة الاخيـرة من عهـد الشاه نفسه بدأت العلاقات الدبلوماسية المنظمة بين الطرفين.

ومع ظهور روسيا القيصرية الحديثة بطموحاتها اللامحدودة دخلت العلاقات بين الـدولتين طورا جديـدا له خصـائصـه ومميـزاتـه التي نجمت اسـاسـا عن توجهات الدب الابيض الحثيثة نحو ما يسمى بالمياه الدافئة في الجنوب، ولا سيما بعد ان حققت روسيا اقصى ماكان بمستطاعها من توسع باتجاه الغرب في ظل واقـع تناسب القـوى على صعيـد القـارة الاوربيـة يومـذاك. وبحكم التـوسـع الـروسي على حسـاب الاراضي التي كانت تدخـل ضمن الحـدود الرسمية لايران من جهة وجراء اطماع الدول الكبرى الاخرى (فرنسا ولاسيما انكلترا وفيما بعد المانيا والولايات المتحدة الامريكية) في هذا الجناح الشرقي المهم للشرق الاوسط اتسمت العلاقات الايرانية ـ الروسية بطابع المد والجزر الكبيـرين، فانهـا كانت تتـوتـر احيـانـا الى درجـة تبلغ حد اغتيال جميع اركان السفـارة الـروسيـة في طهـران، بمـا في ذلـك شخص السفيـر كمـا وقـع عام ١٨٢٩، وهي على العكس من ذلك كانت تبلغ احيانا درجة من الصفاء بحيث ان الشـاه القـاجـاري مظفـرالـدين كان يسمـح لنفسـه بالتجوال في اوربا على حساب القروض الروسية لاغيرها.

كان من الطبيعي ان تدخل العلاقات بين ايران وروسيا مرحلة خطيرة بعد

تصار ثورة اكتوبر الاشتراكية واقامة السلطة السوفيتية في الاخيرة. فمنذ الايام الاولى لانتصار ثورة اكتوبر اتخذت الاوساط الحاكمة في ايران موقفا معاديا منها، الامر الذي نجم اولا عن عوامل مختلفة متفاعلة فيما بينها وانعكس ثانيا في ظواهر واجراءات طفت الى السطح بسرعة كبيرة. فقبل كل شيء ارادت الدول الرأسمالية تحويل ايران الى قاعدة ثابتة للتدخل المباشر من اجل القضاء على الوليد البعبع الذي ظهر على حدودها (حدود ايران) الشمالية مباشرة. فلم تمر سوى اشهر قليلة على انتقال السلطة الى ايدي البلاشفة حينما توجهت قوة بريطانية بقيادة الجنرال دنسترفيل (مطلع العام ١٩١٨) الى باكو عاصمة اذربيجان الشمالية وتبليس عاصمة جورجيا عن طريق همدان ـ قزوين ـ رشت وسرعان ما توجهت قوة بريطانية اخرى الى شمال ـ شرقي ايران بقصد احتلال مناطق معينة تشرف على بحر قزوين. وبعد صعوبات غير قليلة وبفضل التعزيزات الجديدة والمساعدة المباشرة للحكومة الايرانية تمكنت القوات الانكليزية اخيرا من دخول مدينة باكو في آب ١٩١٨ حيث نفذت حكم الموت في الحال بحق ٢٦ من ابرز البلاشفة في منطقة القفقاس.

ومما كان يثير فزع حكام ايران اكثر ويدفعهم الى الاشتراك الفعال في الاعمال المعادية للسلطة السوفيتية هو الاتجاه السياسي الجديد الذي بدأ يتبلور ويتحرك في ايران بسرعة اثر انتصار ثورة اكتوبر، الامر الذي انعكس في البداية في الحركة الجنكلية المسلحة في منطقة كيلان وفي اعمال قطاع من المثقفين الثوريين الايرانيين الذين قاموا بنشاط من نوع جديد بلغ حد تأسيس مجالس للسوفيتات اطلقوا عليها اسم «انجمن»، كما حدث في رشت وأنزلي وكرمنشاه وعدد اخر من المدن الايرانية. وقد اثارت انتفاضة الشيخ محمد الخياباني في اذربيجان حفيظة حكام ايران اكثر. فان الخياباني الذي كان واحدا من قادة الثورة الدستورية (١٩٠٥ ـ ١٩١١) والذي مثل تبريز في اول برلمان اسس في البلاد وعاش في سنوات المد الرجعي بعد الثورة في روسيا واصبح على اتصال بالاشتراكيين في القفقاس ظهر نجمه من جديد بعد ثورة اكتوبر، حتى انه تمكن من تنظيم انتفاضة مسلحة في اذربيجان واحتل انصاره

تبريز في مطلع نيسان ١٩٢٠ طاردين منها المسؤولين الايرانيين. وبعد حوالي شهرين فقط جرى عقد مؤتمر بميناء انزلي قرر اعضاؤه تبديل المنظمة الاشتراكية الديمقراطية الايرانية «عدالت» الى حزب شيوعي ايراني.

ومرة اخرى لم يمر سوى شهرين ونيف عندما عقد في الاول من ايلول عام ١٩٢٠ مؤتمر شعوب الشرق في باكو بمبادرة من الكومينتيرن وشخص لينين. وهنا لم يكمن الخطر فقط في ارتفاع صوت اليسار الشرقي على الضفاف المقابلة للسواحل الايرانية المشرفة على بحر قزوين، بل انه تجسد كذلك في الوجود الفارسي في المؤتمر نفسه. فقد بلغ عدد الفرس الذين حضروا مؤتمر شعوب الشرق ٢٠٤ اشخاص ليحتلوا بذلك المرتبة الرابعة عدديا بين القوميات والطوائف الخمس والاربعين الممثلة في المؤتمر. ولم يكن مجرد صدفة ان قامت الطائرات بقصف السفينة التي كانت تقل الوفد الايراني في عرض بحر قزوين مما ادى الى مقتل اثنين من اعضائه وجرح عدد اخر منهم.

اذن فان الخطر كان جديا وكان من النوع الذي ظل يترك بصماته باستمرار وبصورة غير مرئية على العلاقات الايرانية ـ السوفيتية من منطلقات متباينة. وفي خضم الصراع الدولي عرف الغربيون كيف يستغلون هذا الواقع لصالحهم، الامر الذي بدأ يعطي انعكاساته منذ وقت مبكر جدا. وربما يكفي ان نورد هنا مثلا معبرا واحدا من شأنه توضيح ما نحن بصدده. ففي تموز عام ١٩١٨ توجه اول ممثل دبلوماسي سوفيتي اسمه كليمتسيف الى طهران، ولكن رفض رئيس الوزراء وثوق الدولة ـ رجل الانكليز الاول في ايران، الاعتراف بالبعثة السوفيتية رسميا. ولم يكتف الانكليز بذلك، بل انهم حرضوا الروس البيض الموجودين في العاصمة الايرانية لتدبير هجوم على بناية السفارة السوفيتية انتهى بالقاء القبض على جميع العاملين فيها (فيما عدا شخص كليمتسيف) وتسليمهم الى السلطات الانكليزية التي نفتهم الى الهند في الحال، اما كليمتسيف فقد تمكن من الاختفاء بين رجال العشائر الكردية الذين ساعدوه على العودة الى بلاده. وبعد مرور عام واحد حينما ارسل

كليمتسيف مرة اخرى الى طهران اغتيل في الطريق على يد احد الروس البيض وبتحريض مباشر من الانكليز.

وفي السنوات الاولى التي اعقبت انتصار ثورة اكتوبر ظهر عامل آخر له شأنه في تحديد العلاقات بين البلدين الجارين يومذاك. فقد بدأ يراود الاوساط الحاكمة في ايران حلم استعادة المناطق التي فقدتها بلادهم جراء توسعات روسيا القيصرية وحروبها الجنوبية، فاذا بالوفد الايراني يقدم الى مؤتمر الصلح بباريس عام ١٩١٩ مذكرة يطالب فيها بضم كل اذربيجان الشمالية مع مدينة باكو وارمينيا الغربية مع مدينة يريفان وقره باغ وقسم من داغستان الى ايران، ومن الجدير بالذكر ان ايران طالبت في المذكرة نفسها بضم مناطق واسعة اخرى اليها تمتد الى حد نهر الفرات وتضم، فيما تضم، مدينتي ديار بكر والموصل وغيرهما من الاصقاع التي كانت تدخل ضمن الامبراطورية العثمانية الى وقت قريب.

وبحكم عوامل مختلفة لم تتحول هذه الظواهر، ومحاولات استغلالها من قبل الاخرين، الى العامل الحاسم والنهائي لتحديد العلاقات بين ايران والاتحاد السوفيتي، فان عاملا آخر لعب دورا اساسيا في صياغة العلاقات تلك وفي التخفيف بشكل ملموس عن تأثيرات العوامل الاخرى. ونقصد بهذا العامل الاساسي الاهم السياسة الخارجية التي كان على الدولة السوفيتية الفتية اتباعها في ظل ظروفها الصعبة، وفي ضوء واقع تناسب القوى على الصعيد الدولي، وازاء عجز الارهاصات الثورية في تغيير شيء في المناطق الشرقية المجاورة، وعلى رأسها ايران بالذات.

لذا كان من الطبيعي ان لايتجاهل الاتحاد السوفيتي الواقع السياسي والاجتماعي لبلدان الشرق وان يحاول اقامة علاقات طبيعية معها عبر قنوات دبلوماسية صرفة رافقتها تنازلات صريحة غير قليلة بدافع مبدئي او سياسي بحت. ففي ٢٦ حزيران ١٩١٩ وجهت الحكومة السوفيتية مذكرة الى «الشعب الايراني والحكومة الايرانية» اعلنت فيها تنازلها عن جميع الحقوق والامتيازات التي ورثتها عن روسيا القيصرية في ايران، بما في ذلك القروض والسكك والموانيء ودوائر البرق والبريد وغيرها من المؤسسات الاقتصادية والستراتيجية. وقد تبعت المذكرة محاولات اخرى مشابهة للتقرب من الحكومة الايرانية،

الامـر الـذي تمخض عنـه التـوقيـع في موسكـو على أول معـاهدة بين البلدين بتاريخ ٢٦ شباط ١٩٢١.

نصت بنـود المعـاهـدة على عدم تدخـل اي من الجـانبين في الشؤون الـداخليـة للجـانب الاخـر، وعلى الغـاء روسيـا السـوفيتية لجميع المعاهدات والاتفـاقيـات المفـروضـة من جانب القيـاصـرة على ايـران مع مايرتبط بها من امتيازات مختلفة وقروض وفوائد وممتلكات الدولة القيصرية في ايران، بما في ذلك مصرف الائتمان الروسي. ومن المفيد ان نشير الى ان اثمان الممتلكات والمؤسسات التي تنازل عنها الجانب السوفيتي بدون مقابل تقدر باكثر من ١٠٠ مليون روبل ذهب. واعادت بنود المعاهدة الى الجانب الايراني حق الملاحة في بحر قزوين بعد ان حرم منها على مدى سنوات طوال بموجب بند ورد في احدى المعاهدات الروسية - الايرانية قبل الحرب العالمية الاولى. وقد تعهدت ايران بالمقابل عدم منح هذه الامتيازات والمؤسـسات لدولة ثالثة ممثلة بمصالحها الرسمية او شخصيتها المعنوية ومواطنيها. واكثر من ذلك التزمت ايـران بمـوجب البنـد السـادس من المعـاهـدة بأن لاتسمح لطرف ثالث باقامة قواعد ومؤسسات فوق اراضيها يكون من شأنها تهديد أمن الاتحاد السوفيتي، اما اذا عجزت ايران عن ابعاد خطر كهذا حينذاك «يحق للحكومة الروسية نقل قواتها الى الاراضي الايرانية» واتخاذ «الاجراءات العسكرية الضرورية» للحفاظ على أمنها وسلامتها، كما ورد نصا في البند المذكور.

دشنت هذه المعاهدة بداية مهمة في العلاقات السوفيتية - الايرانية اتسمت بنوع من المـساومة السياسية التي لم تكن ثابتة في جميع الاحوال. فلم تمر سوى اشهر قليلة على ابرام المعاهدة عندما منحت الحكومة الايرانية شركة ستـانـدرد اويـل الامـريكيـة حق استغـلال حقـول النفط الموجودة في المناطق الشمالية، بما فيها اذربيجان وكيلان ومازندران وغيرها، متجاهلة بذلك روح البنـد الثـالث عشـر من المعـاهـدة الايـرانيـة - السوفيتية التي اعطت السـوفيت الحجـة الـرسميـة للاحتجـاج بشـدة على القـرار الايـراني، مما اجبر الحكومة الايرانية على التراجع عن موقفها وسحب الامتياز من الشركة الامريكية.

لم يؤثر سقوط الاسرة القاجارية ومجيء رضا شاه البهلوي الى العرش كثيرا على العلاقات بين ايران والاتحاد السوفيتي خلال السنوات الاولى من حكم الشاه الجديد. ففي العام ١٩٢٧ وقعت ايران معاهدة ثنائية جديدة مع الاتحاد السوفيتي ايدت بنودها فحوى معاهدة العام ١٩٢١. ولكن لم يدم هذا التقارب المشوب بالحذر طويلا، اذ ما ان ثبت رضا شاه اقدامه في الحكم حتى بدأ يكشف القناع عن واقع مشاعره تجاه الاتحاد السوفيتي، الامر الذي انعكس بسرعة على العلاقات الاقتصادية بين البلدين. فمن اجل اضعاف الصلات التجارية القوية بين بلاده والاتحاد السوفيتي، باشر رضا شاه في العام ١٩٢٨ بتشييد سكة حديد تربط بين مينائي بندر شاه على بحر قزوين وبندر شاهبور على الخليج العربي، ولم يعر صعوبة انجاز المشروع لمروره بمناطق جبلية وعرة، ولحاجته بسبب ذلك الى مئات الجسور والانفاق على مدى ١٤٠٠ كيلومترا، اهتماما يذكر، بل على العكس من ذلك انه فرض ضرائب اضافية لانجاز المشروع الذي استغرق عقدا كاملا من الزمن. ولتحقيق الهدف نفسه استغل رضا شاه «قانون احتكار التجارة الخارجية» الذي اصدره في شباط عام ١٩٣١.

وعشية الحرب العالمية الثانية بدأت العلاقات السوفيتية ـ الايرانية تعاني من ازمة جدية انعكست في امور مختلفة منها، على سبيل المثال لا الحصر، رفض الشاه عام ١٩٣٨ التوقيع على معاهدة تجارية جديدة مع الاتحاد السوفيتي، مما اثر بصورة جدية على التبادل التجاري بين البلدين بعد ان كان يحتل المرتبة الاولى في قائمة تجارة ايران الخارجية. ففي العام ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ الف التبادل التجاري بينهما ٣٨٪ من كل التجارة الخارجية الايرانية، وفي آذار عام ١٩٣٩ منحت الحكومة الايرانية احدى مؤسسات شركة شيل الهولندية ـ الانكليزية المعروفة امتيازا لاستغلال النفط في المناطق الشمالية، متجاهلة بذلك بنود معاهدة العام ١٩٢١. ومما له مغزاه بهذا الصدد ان ديتيردينغ، الذي عرف بكراهيته الشديدة للاتحاد السوفيتي وبخططه للتدخل في شؤونه بعد انتصار ثورة اكتوبر، كان يقف يومذاك على رأس كونسيرن

شيل، وان الامتياز منح الشركة حق اقامة المطارات وتشييد السكك والطرق ومد خطوط التلفون والتلغراف، بل تأسيس اذاعة مستقلة بالقرب من الحدود السوفيتية.

ويأتي التقرب السريع بين رضا شاه والمانيا الهتلرية على رأس العوامل التي اثارت قلقا كبيرا في موسكو عشية الحرب العالمية الثانية. فان الالمان تمكنوا بفضل الشاه من الضغط حتى على مواقع الانكليز في ايران. وربما يكفي القول ان المانيا بدأت تحتل المرتبة الثانية بعد الاتحاد السوفيتي في قائمة التبادل التجاري لايران في العام ١٩٣٧ - ١٩٣٨، مما جاء على حساب الضغط على التبادل التجاري مع انكلترا والذي هبط في العام المذكور الى درجة لم يؤلف سوى ٧٪ من كل التجارة الخارجية الايرانية مقابل ٢٧٪ لالمانيا. وبعد رفض الشاه التوقيع على معاهدة تجارية جديدة مع الاتحاد السوفيتي ارتفعت حصة المانيا في التجارة الخارجية الايرانية اكثر بحيث اصبحت تحتل المرتبة الاولى في قائمة التبادل الخارجي الايراني وتؤلف ٤١٫٥٪ منه في العام ١٩٣٨ - ١٩٣٩ و ٤٥٫٥٪ في ١٩٤٠ - ١٩٤١. والى جانب ذلك انتشر الخبراء الالمان في طول البلاد وعرضها. واعتمد الايرانيون على الالمان في بناء المطارات وتشييد السكك وشق الطرق وحتى الاشراف على الانتاج الزراعي في بلادهم. ويقدر المختصون عدد الذين كانوا يقومون باعمال تجسسية للهتلريين في ايران، وبشكل خاص في مناطقها الشمالية، بعدة الاف شخص. وقد تمكن الهتلريون باساليب شتى، منها التركيز على الاصل الاري الواحد للالمان، والفرس، من كسب عدد غير قليل من النواب وكبار الضباط والموظفين والصحفيين وغيرهم من الذين كان لهم تأثير كبير على مؤسسات الدولة والرأي العام.

ومع اندلاع نيران الحرب ازداد نشاط الالمان وعملائهم في ايران بصورة ملموسة. وقد تركز جانب كبير من ذلك النشاط على العمل من أجل دفع ايران للانضمام الى المانيا في حربها المنتظرة ضد الاتحاد السوفيتي. وقد بلغ الامر حد التحضير للقيام بانقلاب عسكري في حالة رفض رضا شاه لسبب ما تلبية هذا المطلب الحيوي جدا بالنسبة لمخططات هتلر الستراتيجية. ولهذا الغرض

الحلفات بعث برلين في مطلع آب ١٩٤١ الادميرال كاناريس الى طهران مزودا بكميات كبيرة من النقود المزورة. وفعلا حدد يوم ٢٢ آب موعدا لتنفيذ الانقلاب الذي اجل الى ٢٨ آب. ووضع الالمان في الوقت نفسه الخطط التفصيلية لنسف كل ما يمكن ان يستفاد منه السوفيت في المناطق الشمالية.

اثار سير الاحداث على الساحة الايرانية قلقا كبيرا لدى الكرملين الذي قدم ثلاث مذكرات احتجاج شديدة اللهجة الى طهران خلال فترة وجيزة (من ٢٦ حزيران حتى ١٦ آب ١٩٤١)، ولكن لم تعر حكومة الشاه هذه المذكرات اي اهتمام، حينذاك دخلت القوات السوفيتية باتفاق مع الحلفاء الاراضي الايرانية مستندة في عملها الى البند السادس من معاهدة العام ١٩٢١. وفي الوقت نفسه دخلت القوات الانكليزية ايران من الغرب والجنوب.

وهكذا تغير الميزان في ايران. ففي الثامن من ايلول اضطرت الحكومة الايرانية الى التوقيع على معاهدة ثلاثية مع الاتحاد السوفيتي وانكلترا نصت بنودها على انسحاب القوات الايرانية من مناطق معينة في الشمال لتدخلها القوات السوفيتية، واخرى في الجنوب الغربي لتدخلها القوات البريطانية. كما الزمت المعاهدة ايران بطرد جميع الالمان الموجودين في البلاد، وبقطع العلاقات الدبلوماسية مع المانيا وايطاليا وكل دولة موالية لهتلر. وحينما حاول الشاه الالتفاف على نصوص المعاهدة اجبر على التنازل عن العرش في ١٠ ايلول ١٩٤١ ليبدأ عهد محمد رضا شاه في ايران.

وبموجب معاهدة جديدة وقعت بين الاطراف الثلاثة في كانون الثاني ١٩٤٢ تعهدت انكلترا والاتحاد السوفيتي بـ «احترام وحدة اراضي ايران وسيادتها واستقلالها السياسي» وبسحب قواتهما من ايران خلال ستة اشهر بعد انتهاء الحرب. وبالمقابل حصل الحلفاء على حق استخدام كل المنشآت الايرانية لاغراضهم العسكرية مع ضمان وصول الامدادات الحربية الى الاتحاد السوفيتي عبر الاراضي الايرانية. ولكن بالرغم من كل ذلك لم تعلن ايران الحرب شكليا ضد المانيا الا في ٩ ايلول ١٩٤٣.

لم يكن بوسع التغييرات التي طرأت على الساحة السياسية الايرانية بقوة

السلاح القضاء على الحساسية التي كانت تسود النظرة الرسمية الايرانية الى الجارة الشمالية. ومما له مغزاه الكبير بهذا الصدد هو رفض طهران لطلب حول الاستغلال المشترك لحقول النفط الشمالية تقدم به وفد رسمي سوفيتي وصل العاصمة الايرانية في ايلول ١٩٤٤. ويتجسد الموقف الايراني اكثر من خلال القانون الذي اصدره البرلمان بعد عودة الوفد بفترة وجيزة والذي نص على منع الحكومة حتى من مجرد التفاوض مع جهة اجنبية بهدف منحها امتيازات لاستخراج النفط الايراني. وفي الوقت نفسه تقريبا ضربت الشرطة الايرانية احتفالا اقيم في طهران بمناسبة ذكرى ثورة اكتوبر. وفي سنوات الحرب جرت مضايقات متنوعة بحق المواطنين السوفيت في ايران، بمن فيهم اعضاء السلك الدبلوماسي الذين أهين بعضهم، وتعرض للضرب اخرون منهم. ومن الجدير بالذكر ان هذه الاعمال كانت تجري لابتحريض الالمان وانصارهم من الايرانيين وحدهم، بل ايضا بتحريض حلفاء السوفيت من انكليز وامريكان.

بلغت الحركة الديمقراطية في ايران، ولاسيما حركة التحرر للشعوب غير الفارسية، وبالذات النضال القومي في اذربيجان وكردستان الداخلتين في نطاق وجود القوات السوفيتية، مرحلة جديدة في سنوات الحرب العالمية الثانية، وحد الحسم بعدها مباشرة، مما وجد له انعكاسات واضحة على العلاقات الايرانية - السوفيتية. ولكن الذي برز فوق المسرح هنا ليرسم بريشته الصورة الغريبة للعلاقات الجديدة القصيرة العمر البعيدة المدى هو الداهية باسلوبه الخاص، رجل المكر والمناورة احمد قوام المعروف بلقبه الرفيع قوام السلطنة الذي اصبح في نظر الجميع من اقصى يمين اليمين الى اقصى يسار اليسار - ولكل يعقوب غايته في نفسه - افضل من يتبوأ كرسي رئاسة الوزارة الايرانية في كانون الثاني عام ١٩٤٦. واذا بالحدث يتلو الحدث بسرعة فوق المسرح السياسي لايران في ظل صولجان هذا «الملاك الكيلاني، صاحب حقول الشاي الواسعة قرب مدينة لاهيجان، المعروف بارائه الرجعية وصلاته الحميمة القديمة مع الاستعماريين» حسب الوصف الدقيق لابرز متخصص سوفيتي في تاريخ ايران ماضيا وحاضرا البروفيسور ميخائيل سيرغييفيتش ايفانوف.

فقد تحول قوام بقدرة قادر معروف الى شخص «يعمل في سبيل اجراء تغيير

جذري في سياسة ايران على الصعيدين الخارجي - اجل الخارجي قبلا - والداخلي - بعدا - ». كما ورد نصا على لسان المستشرق نفسه.

وان قوام هذا الذي تقول عنه «الانسكلوبيديا السوفيتية الكبرى» في طبعتها الثالثة نصا: «انه اشترك في القضاء على الثورة الايرانية عام ١٩٠٥ - ١٩١١» (وتقصد بها الثورة الدستورية التي قيمها لينين مرارا كواحد من أهم مؤشرات استيقاظ آسيا قبل الحرب العالمية الاولى)، والذي اشترك ايضا - كما يقول المصدر نفسه - في القضاء «على حركة التحرر الوطني في كَيلان وخراسان في العشرينات»، وهي الحركة التي يعتبرها جميع مؤرخي السوفيت دون استثناء دليلا ساطعا على تحرك الجماهير الشرقية بتأثير من ثورة اكتوبر الاشتراكية، ان قوام السلطنة هذا لم يكتف برفع كل انواع الضغط الواقع على «حزب توده» وسحب الجندرمة من نواديه ومراكزه الثقافية اينما كانت، بل اصر ايضا على اشتراك ثلاثة من ابرز زعماء توده في وزارته.

واخيرا فان قوام هذا الذي تقول عنه طبعة اخرى هي الثانية من الانسكلوبيديا نفسها مانصه: «شخصية سياسية رجعية ايرانية. في ١٩٢١ - ١٩٢٢ و ١٩٢٢ - ١٩٢٣ عندما كان رئيسا للوزراء قاد الحملة التي قضت على الحركات الثورية... وبدعوة منه وصلت ايران عام ١٩٢٢ بعثة مالية امريكية برئاسة مليسبو والتي وضعت نصب عينيها تحويل ايران الى شبه مستعمرة تابعة للولايات المتحدة الامريكية. وفي ١٩٤٢ - ١٩٤٣ و ١٩٤٦ - ١٩٤٧ شغل من جديد منصب رئيس الوزراء بفضل تأييد الولايات المتحدة. وفي العام ١٩٤٢ دعا قوام مرة اخرى البعثة المالية الامريكية برئاسة مليسبو. وفي العام ١٩٤٣ وبمساعدة من قوام تم التوقيع على معاهدة تجارية جائرة بالنسبة لايران مع الولايات المتحدة»، ان قوام هذا تحول في عشية دون ضحاها الى داعية فريدة للتقارب بين بلاده الحبيبة وجارتها الشمالية العزيزة. وهو لم يقبل لغيره ان يحمل شرف هذه المهمة، فلم يمر على تسنمه لكرسي الرئاسة اكثر من شهر واحد عندما شد الرحال الى موسكو وباشر المفاوضات معها دون تأخير او تأجيل، ومن أجل أن تظهر المسرحية الرومانسية في ثوب واقعي احتاج قوام الى بعض الوقت للتفكير، فدعا وفدا رسميا من البلد الصديق الى طهران لاستئناف

المفاوضات التي اسفرت هذه المرة عن التوقيع على اتفاقية ثنائية في ٤ نيسان ١٩٤٦، نصت بنودها على تكوين شركة سوفيتية - ايرانية مشتركة تقوم باستغلال حقول النفط في المناطق الشمالية من ايران لمدة نصف قرن بالتمام والكمال، مع شرط بسيط هو ان تؤلف حصة السوفيت على مدى ٢٥ سنة الاولى ٥١٪ وحصة ايران ٤٩٪ لتتساوى الحصتان في النصف الثاني من مدة العقد.

تتابعت الاحداث مرة اخرى ولكن بحسم اكيد وسرعة اكبر من قبل:

اولا - انسحب آخر جندي سوفيتي من الاراضي الايرانية بتاريخ ٩ أيلر ١٩٤٦.

ثانيا - قبل ان يجف حبر الاتفاقية الوليدة عاودت العصابات المسلحة هجماتها على المنظمات الديمقراطية، وذلك بعد أن اختفت عن المسرح في الفصول الاولى من المسرحية. وأطرف مايستحق الذكر بهذا الصدد هو ان اعمال الشغب الجديدة انفجرت لاول مرة في لاهيجان والمناطق الأخرى من كيلان مركز ممتلكات قوام السلطنة ونفوذه لاغيره.

ثالثا - في تشرين الاول ١٩٤٦ أبعد قوام وزراء توده عن الحكم.

رابعا - في كانون الاول ١٩٤٦ دخلت القوات الايرانية اذربيجان وكردستان من جديد وقضت على جميع المنظمات والمؤسسات والقوى المسلحة فيهما، وشنقت، او في افضل الاحوال اعتقلت كل عنصر يشتبه به في كل شبر من مليون و ٦٤٨ الف كم[٢] هي كل ماتمتلك ايران من أرض الله الوسيعة.

خامسا - جرى في النصف الاول من عام ١٩٤٧ انتخاب اعضاء الدورة الخامسة عشرة للمجلس النيابي في ايران. وفي اليوم السابع عشر من تموز افتتح المجلس الذي رفض بالاجماع التصديق على الاتفاقية الايرانية - السوفيتية، فاعتبرت ملغية بجرة قلم بسيطة وانيقة تفضل بها كاتب محاضر المجلس.

واخيرا تفتقت عبقرية رسام ليصور لنا خاتمة المسرحية على صفحات احدى الجرائد المعروفة في كاريكاتير لقوام السلطنة يقدم فيه للسوفيت حصته من نفط ايران في برميل واحد دون زيادة او نقصان!.

وسرعان ماحددت جريدة «اطلاعات» شبه الرسمية في عددها الصادر يوم

١٤ آب ١٩٤٧ الاطار الواقعي لسياسة ايران تجاه الاتحاد السوفيتي بعد الحرب العالمية الثانية حينها كتبت تقول بصراحة مابعدها صراحة:

«ومع ان ايران لم تنضم مثل تركيا الى الجبهة المعادية للسوفيت، الا انها تقع في صف واحد مع تركيا والعراق بحكم قربها من الحدود السوفيتية...»

وهكذا قبل ان يضع العقد الخامس وزره الثقيل بعامين وجد الخبراء العسكريون الامريكان طريقهم الى المناطق الشمالية المتاخمة للحدود السوفيتية، مما استدعى مذكرة احتجاج شديدة اللهجة بعثتها موسكو الى طهران على جناح السرعة في ٣١ كانون الثاني عام ١٩٤٨. ولكن كما هو معلوم ان حق الجار على الجار كبير، وفعلا راعى الطرفان، كل من منطلقه، بروتوكول هذا المبدأ بدقة، مما انعكس بصورة خاصة في الزيارات الودية التي قام بها محمد رضا بهلوي بصحبة الشاهبانو الى موسكو واجمل البقاع الموجودة في سدس مساحة العالم الذي يرفرف فوقه العلم الاحمر المزين بمنجل الفلاح ومطرقة العامل. ولايغيض الاستعمار الجديد فيما لو تعدى الامر حدود البروتوكول، ويبلغ حد بيع الغاز الايراني للسوفيت، وقيامهم ببناء معمل للصلب في اصفهان، وببيع بعض الاسلحة الى ايران، وباحتلال الاتحاد السوفيتي المرتبة الخامسة في التجارة الخارجية الايرانية، مادام ان ادق الاجهزة الالكترونية الامريكية اصبحت تراقب كل شيء، حتى القوافل التجارية التي تعبر نهر آراس والحنة المهربة المرغوبة جدا لدى الاذربيجانيات في باكو وغيرها.

وعلينا في الختام ان نتذكر مرة اخرى ولاننسى ابدا ان ٢٥٠٠ كم من الحدود، التي هي من اطول الحدود العالمية، تربط بين احدى القوتين العظميين والجناح الشرقي للشرق الاوسط، وبوسع من يرغب ان يضيف الى هذا الرقم الكبير ٨٥٠ كم اخرى هي طول الحد الفاصل بين ايران غربا وافغانستان شرقا.

الموضوع التاسع

تاريخ ايران الحديث والمعاصر في الوثائق الروسية

اضفى الموقع الجغرافي مع التفاوت في التطور الاقتصادي طابعا متميزا على العلاقات بين روسيا وايران في العصر الحديث. فعندما بدأت ايران تعيش فترة اضمحلال وتدهور منذ اواخر العهد الصفوى، دخلت روسيا، البلد الاوروبي الاقرب منها، مرحلة تاريخية جديدة في مجال التطور الاقتصادي والتحول السياسي. وبعد ان بلغ تقدم روسيا غربا مداه تحولت الى الجنوب حيث الامكانات الطائلة والاراضي الشاسعة والمنافذ المهمة في ظل انظمة بدأت تتخلف عن الركب الحضاري بسرعة كبيرة، الامر الذي تحول الى العنصر الاساس في تحديد طبيعة العلاقات الروسية - الايرانية الجديدة. فان معظم المناطق الجنوبية التي جلبت انظار القياصرة الروس كانت تخضع لايران، البلاد التي كانت ايضا تؤلف بذاتها ممرا مهما الى المياه الدافئة والهند الغنية ومناطق الشرق الاقصى الواسعة، فقطع أراضيها (اراضي ايران) اول الرحالة الروس المتوجهين الى هناك قبل ان يشرف القرن الخامس عشر على نهايته[1]. وفي اواسط القرن السادس عشر، في عهد ايفان الرهيب، وهو اول قيصر روسي[2]، سيطرت روسيا على مدينة استراخان الواقعة على نهر الفولغا قرب مصبه في بحر قزوين، الامر الذي ادى الى سيطرة الروس على وادي فولغا الاسفل وساعدهم على الوصول الى بحر قزوين وتجارته. وتحول ذلك في مجمله الى بداية طريق روسيا نحو ايران والمناطق التي بحوزتها.

وفضلا عن ذلك كان من مصلحة ايران التي عاشت فترة ازدهار نسبي في

---

(١) للتفصيل راجع: ب. م. دانتسيك، الشرق الادنى في العلم والادب الروسي، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٧٣، ص ٢٠ - ٢١؛ ب. م. دانتسيك، الرحالة الروس في الشرق الادنى، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٦٥، ص ٢٣ - ٢٤. (راجع كذلك ص ٤٠ - ٤١ من تعريب الكتاب الاخير بعنوان «الرحالة الروس في الشرق الاوسط»، بيروت، ١٩٨١ للدكتور معروف خزنه دار).

(٢) في العام ١٥٤٧ اصبح اول قيصر لروسيا، وفي العام ١٥٥٦ استولت بلاده على مدينة استراخان.

عهد العباسيين الاول والثاني (اواخر القرن السادس عشر - اواسط القرن السابع عشر) ان تقيم علاقات اقتصادية لها مع جارتها الشمالية روسيا التي كانت تؤلف، في الوقت نفسه، افضل حلقة وصل تربطها مع اوروبا عبر نهر الفولغا وبحر قزوين. وكان من شأن هذا الطريق الجديد ان يساعد ايران على منافسة تركيا التي ظلت تتمتع بفوائد تجارتها مع أوربا عبر الخليج والبحر المتوسط. وعند هذه النقطة التقت مصالح ايران مع روسيا التي كانت ترغب بدورها في اضعاف تركيا يومذاك وتحويل قوافل الشرق التجارية الى اراضيها. وقد تحول هذا الواقع الى اساس مبكر لظهور العلاقات السياسية والتجارية بين روسيا وايران[٣]. فلم ينته القرن السابع عشر حتى اصبح لدى روسيا عدد من السفن في مياه قزوين، وفي العقد الاخير من القرن السابع عشر وصل اصفهان سفير روسي كان هدفه «تحريض الايرانيين على اعلان الحرب ضد تركيا»[٤].

ازداد اهتمام روسيا بايران منذ عهد بطرس الكبير (١٦٨٢ - ١٧٢٥) الذي دفع بلاده الى مصاف الدول الكبرى المعروفة يومذاك. ومع ان اهتمام العاهل الروسي انصب على بحري البلطيق غربا والاسود جنوبا، الا انه لم يتجاهل قزوين، البحر الدافىء الثاني في الجنوب الذي فكر في ربطه باواسط بلاده بواسطة عدد من الانهر والقنوات، واراد تحويله الى منفذ تجاري نشط مع ايران والخليج وما وراء القفقاس واواسط اسيا، بل وحتى مع الهند. لذا لاغرو في ان يضع بعض المؤرخين بحر قزوين على قدم المساواة مع بحر البلطيق والبحر الاسود كمحرك اساس لحروب بطرس الكبير المهمة[٥].

---

(٣) ن. ك. كوكانوفا، موجز تاريخ العلاقات التجارية الروسية الايرانية في القرن السابع عشر - النصف الاول من القرن التاسع عشر، باللغة الروسية، سارانسك، ١٩٧٧، ص ٢٧ - ٦٠، ٢٦٢ - ٢٦٣.

(4) L.Lokhart, The fall of the Safavi Dynasty and the Afghan Occupation of Persia, Cambridge 1958, PP. 61 - 62.

(5) Ibid, P. 59

بلغ اهتمام بطرس الكبير بكل ما يتعلق بايران حد انه ارسل بعثة خاصة من الشباب الروس الى هناك لتعلم اللغة الفارسية [٦]. وفي العام ١٧٠٨ وصل العاصمة الايرانية اصفهان سفيره اسرائيل اوري (I. Ori) الذي اثار مجيئه حفيظة ممثلي جميع الدول الدول الاوربية الاخرى هناك. وبعد تسع سنوات [٧] بعث بطرس بسفير انشط الى البلاط الايراني هو ارتيم فولينسكي (A. P. Volenski) الذي كان يبلغ من العمر ٢٨ عاما فقط، وحدد له شخصيا مهمته بالعمل من اجل عقد معاهدة تجارية بين البلدين، واقناع المسؤولين الايرانيين بتحويل طريق تجارتهم مع اوربا من سوريا وتركيا الى الاراضي الروسية، وجمع معلومات تفصيلية عن كل ما يتعلق ببلاد فارس، خاصة عن قوتها العسكرية والطرق التي تربطها بالهند التي كانت تغري الجميع يومذاك لا بامكاناتها حسب، بل ايضا بثقلها الكبير في ميزان الصراع الدولي. ولم يقصر فولينسكي في اداء مهمته على الوجه الاكمل، فتحولت تقاريره ومعلوماته الدقيقة الى اساس مهم لسياسة بطرس اللاحقة تجاه ايران، فاستحق ان يصبح حاكما على استراخان اعتبارا من العام ١٧٢٠ ليراقب احداث ايران من هناك عن كثب، وليبذل، مع غيره، كل ما في وسعه لكسب عطف رعايا ايران، وفي مقدمتهم الجورجيون والارمن المسيحيون الذين لم يكونوا في وضع يحسدون عليه [٨].

وعندما انتهى اقوى قياصرة الروس قاطبة من حربه الطويلة مع السويد في الغرب سنة ١٧٢١ [٩] تفرغ للجنوب فتوجه في تموز من العام التالي من استراخان بحرا الى داغستان التي كانت تخضع لايران. تالفت حملة بطرس

---

(٦) ب. م. دانتسيك، الشرق الادنى في العلم والادب الروسي، ص ٥٧.

(٧) تشير بعض المصادر الغربية الى ان بطرس الكبير ارسل فولينسكي الى اصفهان عام ١٧١٥، فيما تؤكد المصادر الروسية على ان الامر جرى بعد ذلك التاريخ بسنتين، أي عام ١٧١٧ (عن الاول راجع:

L.Lockhart, Op. Cit., P. 103

وعن الثاني راجع: م. س. ايفانوف موجز تاريخ ايران، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٥٢، ص ٨٥ - ٨٦).

(٨) للتفصيل راجع: م. س. ايفانوف، المصدر السابق، ص ٨٥ - ٨٧، ٩٦؛

L.Lockhart, Op. Cit., PP. 63 - 64 103 - 106, 108, 176.

(٩) وتعرف بـ «الحرب الشمالية» التي بدأت عام ١٧٠٠ وانتهت عام ١٧٢١.

التي تعرف بـ«المسيرة الفارسية ١٧٢٢ ـ ١٧٢٣» من عشرين الف من رجال المشاة نقلتهم ٢٧٤ سفينة الى البر الداغستاني. ولم يتوقف القيصر الروسي في داغستان، بل توغل اكثر باتجاه الجنوب وبلغ دربند في ايلول ١٧٢٢ ومن ثم بعث بكتيبتين من قواته الى كل من انزلي ـ اهم موانىء قزوين، ورشت ـ اهم مدن جيلان التي دخلتها القوات الروسية في كانون الاول. وفي صيف ١٧٢٣ دخل الروس باكو ـ ثاني مدن اذربيجان بعد تبريز وثاني موانىء قزوين بعد انزلي، والميناء الوحيد الصالح للملاحة على طول سواحله الغربية، ومركز المنطقة المعروفة بثروتها النفطية التي جلبت انظار بطرس الكبير بصورة خاصة.

وتحت زخم التقدم الروسي اضطرت الحكومة الايرانية للتوقيع على «معاهدة بطرسبورغ» يوم ١٢ ايلول عام ١٧٢٣ والتي تنازلت بموجب بنودها عن كل من دربند وباكو ومنطقة شيروان وجيلان ومازندران واستراباد لروسيا. وقد ثبتت الاخيرة مكاسبها تلك في معاهدة جديدة ابرمتها مع تركيا في العام التالي والتي تنازل الباب العالي بموجب بنودها عن اطماعها في ايران ومناطق قزوين، الامر الذي يعتبره بعض المؤرخين اول تخطيط لتقسيم ايران [١٠].

دشنت «المسيرة الفارسية» او «حملة بطرس على ايران» بداية مرحلة جديدة للعلاقات بين البلدين المتجاورين اتسمت بتقدم الروس وتراجع الايرانيين في جو متوتر بلغ مداه في ثلاث حروب اشغلت الجزء الاكبر من سنوات العقد الاخير من القرن الثامن عشر والعقود الثلاثة الاولى من القرن التاسع عشر. ففي سنة ١٧٩٥ حاول اغا محمد خان، مؤسس الاسرة القاجارية، استعادة ما فقدته بلاده من اراض في اذربيجان وجورجيا، فتوغل على راس قواته الى حد مدينة تبليس عاصمة جورجيا التي دخلها يوم ١٢ ايلول من العام نفسه واستباح اهلها على مدى ثمانية ايام ونقل منهم ١٦ الفا الى داخل الاراضي الايرانية، الامر الذي دفع جورجيا بقوة الى احضان روسيا، فاعاد الشاه القاجاري حملة ثانية عليها في بداية صيف عام ١٧٩٧، الا انه اغتيل في الطريق على ايدي اثنين من اتباعه وفشلت الحملة بذلك.

---

(١٠) م. س. ايفانوف، المصدر السابق، ص ٨٦ ـ ٨٨؛

G.N. Curzon, Persia and the Persian Question, Vol. I, London, Second Impression, 1966, PP. 734-735 ; L. Lockhart, Op. Cit., PP. 176 - 189, 233 - 235.

ورغم فشل اغا محمد خان في نهاية المطاف الا ان الحملتين هيأتا ظروفا انسب للتغلغل الروسي المتزايد في مناطق ما وراء القفقاس. ففي نيسان عام ١٧٩٦ بدات «المسيرة الفارسية» الثانية للقوات الروسية الى مناطق قزوين عبر داغستان، وفي العاشر من ايار استعادت دربند، وفي الخامس عشر من حزيران سيطرت على باكو ومن ثم استعدت للدخول في الاراضي الايرانية نفسها. وفي العام ١٨٠١ دخلت جورجيا في نطاق الامبراطورية الروسية، وبعد سنتين فقط تحركت القوات الروسية باتجاه المناطق الشرقية لما وراء القفقاس، وفي كانون الثاني ١٨٠٤ فرضت سيطرتها على خانية كنجة.

ادت الاحداث الاخيرة، مع مناورات الدول الكبرى الاخرى وطموحات البلاط الايراني، الى اندلاع حرب كبرى بين روسيا وايران بدات في العام ١٨٠٤ وانتهت بعد تسع سنوات في العام ١٨١٣ بالتوقيع على «معاهدة كلستان» التي ثبتت بنودها اقدام روسيا القيصرية في اجزاء واسعة من ما وراء القفقاس مع بعض المناطق المشرفة على بحر قزوين الى حد كبير، كما ضمنت جانبا اساسيا من مصالحها داخل الاراضي الايرانية نفسها.

ولكن لم يمر سوى اقل من ثلاثة عشر عاما على عقد «معاهدة كلستان» حتى اندلعت بحكم العوامل ذاتها نيران حرب جديدة بين البلدين سنة ١٨٢٦ لتنتهي هذه المرة في غضون اقل من عامين باندحار اكبر من السابق لايران التي اضطرت للتوقيع في العاشر من شباط عام ١٨٢٨ على «معاهدة تركمانجاي»، مقدمة بنودها تنازلات جديدة لروسيا، منها حق احتكار الملاحة وصيد الاسماك في بحر قزوين[11].

وبعد ابرام «معاهدة تركمانجاي» تمكنت روسيا القيصرية من فرض نفوذها الى حد كبير على البلاط الايراني وعلى الاجنحة السياسية التقليدية في طهران فضلا عن مختلف المرافق الاقتصادية الحيوية في كل البلاد. وقد بلغت المصالح الروسية في ايران حد ان اجبرت لندن على اقرارها في ظروف دولية متشابكة عشية الحرب العالمية الاولى، فجاءت اتفاقية عام

---

(١١) تطرقنا الى تفاصيل هذه القضايا باسهاب ضمن الموضوع الاول من هذا الكتاب.

١٩٠٧ المعروفة التي قسمت ايران الى منطقتي نفوذ شمالية روسية وجنوبية بريطانية مع منطقة ثالثة محايدة تفصل بينهما وتخضع لهما في ان واحد.

وازداد تدخل روسيا في ايران وتشعبت مصالحها هناك في ظل الظروف التي استجدت مع اندلاع الحرب العالمية الاولى عندما اصبحت ايران تفصل جزءا حساسا من الحدود الدولية الفاصلة بين الخندقين المتقابلين في بقعة ملتهبة من ميادين القتال الشرقية. واخيرا حدث تغيير نوعي في النظرة الى موقع ايران واهميتها من منطلقات متناقضة بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧.

وقد رافق كل ذلك، وبخط متواز، تطور ملموس في العلاقات الاقتصادية بين ايران وروسيا في العصر الحديث. فقد ارتفعت قيمة مجمل التبادل التجاري بين ايران وروسيا خلال السنوات الخمس الاخيرة فقط من العقد الثاني من القرن التاسع عشر بمقدار مرتين ونصف المرة (من مليون و ٨٠٠ الف روبل الى اربعة ملايين و ٢٥٠ الف روبل). وخلال الفترة الواقعة بين عامي ١٨٠٢ و ١٨٢٧ ارتفعت صادرات روسيا الى ايران بمقدار تسع مرات[١٢]. واحتلت روسيا بعد ذلك، وفي فترات مختلفة، المكانة الاولى في لوحة تجارة ايران الخارجية.

وجدت هذه الامور، وكل مايتعلق بها، مع غيرها من القضايا الايرانية المهمة، انعكاسات واضحة لها في سيل التقارير الدبلوماسية والمكاتبات السرية والدراسات الروسية الخاصة، وهي في مجملها تتضمن اندر الوثائق التي تؤلف مجلدات ضخمة تضم دفتا كل واحد منها ادق المعلومات المفيدة التي بوسعها القاء الضوء على شتى جوانب تاريخ ايران الحديث والمعاصر. وباجماع الاراء تؤلف الوثائق الدبلوماسية مصادر اصيلة لا غنى عنها لكل بحث علمي رصين يتصدى لمعالجة موضوع تاريخي حديث. ويضفي طابعها الموضوعي بحكم سريتها والغرض الذي استوجب وضعها قبل عشرات السنين اهمية استثنائية على الوثائق تلك.

---

(١٢) ن.ك. كوكونوفا، المصدر السابق، ص ٢٦٧.

اولى الروس حفظ الوثائق جانبا كبيرا من اهتمامهم منذ عهد بطرس الكبير الذي اسس قبل وفاته بفترة وجيزة اول ارشيف تاريخي في بطرسبورغ باسم «الارشيف الرئيس لشؤون الدولة القديمة». وبعد وفاته بثلاثة اعوام اسس في العاصمة الروسية اول ارشيف اكاديمي تحول فيما بعد الى نواة «ارشيف اكاديمية العلوم السوفييتية». وبعد ذلك التاريخ ظهر تباعا عدد كبير من مراكز حفظ الوثائق في مختلف مدن روسيا. وفي الوقت الحاضر يوجد في الاتحاد السوفيتي ما لا يقل عن عشرة مراكز رئيسة لحفظ الوثائق التي يخص قسم كبير منها مختلف قضايا الشرق . ويتميز «ارشيف سياسة روسيا الخارجية» بثروته الوثائقية الغنية والنادرة في هذا الميدان. وينطبق القول نفسه على الوثائق المحفوظة في «الارشيف الحربي - التاريخي المركزي الحكومي»، وعلى محتويات عدد من المراكز الفرعية لحفظ الوثائق، ياتي في مقدمتها «الارشيف التاريخي الحكومي المركزي» في مدينة تبليس عاصمة جورجيا السوفيتية، و «الارشيف الحكومي المركزي». بمدينة لينينغراد.

ومن المفيد ان نشير الى ان التقارير والوثائق المحفوظة في هذه المراكز تحتوي على معلومات مهمة ومتنوعة تخص سياسة روسيا والدول الكبرى الاخرى تجاه ايران، ونصوص المعاهدات والاتفاقيات المختلفة التي عقدتها ايران مع الدول الاجنبية، ونشاطات العملاء الاجانب والبعثات التبشيرية والمؤسسات الاقتصادية والقوى السياسية هناك، وعلى تفاصيل دقيقة عن العشائر الايرانية ورؤسائها وتحركاتها وامكاناتها الحربي، وعن الزعماء السياسيين والدينيين وغير ذلك من الامور التي تدخل في اعداد المصادر الاصيلة المهمة بالنسبة للمؤرخ. ومن المهم ن نشير ايضا الى ان عددا من اصحاب تلك التقارير تحولوا فيما بعد الى علماء لهم باع طويل في عالم الاستشراق، منهم البروفيسور المعروف مينورسكي وباسيل نيكيتين وغيرهما.

في ٨ تشرين الثاني عام ١٩١٧، اي بعد مرور يوم واحد على انتصار ثورة اكتوبر في روسيا، تعهد النظام السوفيتي الجديد بنشر جميع المعاهدات والاتفاقات السرية التي عقدتها الحكومة القيصرية السابقة مع الدول الكبرى وغيرها، مما دشن بداية للكشف عن جانب مهم من محتويات الارشيفات

الروسية الخاصة. وعلى هذا الاساس تألفت لجنة خاصة لدراسة المعاهدات والمراسلات السرية لروسيا القيصرية تمهيدا لنشرها. وبعد حل رموزها الذي استغرق حوالي ستة اسابيع من العمل المتواصل تم نشر حوالي مائة معاهدة وعدد كبير من الوثائق والمراسلات الدبلوماسية السرية في الصحف المحلية كان يتعلق قسم غير قليل منها بايران منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويومذاك ايضا كشف لاول مرة عن مضمون اتفاقية عام ١٩٠٧ حول تقسيم ايران بين روسيا والمملكة المتحدة مع كل مايتعلق بها. كما كشف النقاب لاول مرة عن اتفاقية اخرى وقعتها الدولتان في سنوات الحرب العالمية الاولى وافقت روسيا بموجب بنودها على ان يمتد النفوذ البريطاني في ايران ليشمل المنطقة التي اعتبرتها اتفاقية ١٩٠٧ محايدة، وبالمقابل تعهدت المملكة المتحدة بضمان طموحات روسيا في مضائق البسفور والدردنيل. وبعد ذلك نشرت سبعة مجلدات بمضامين المعاهدات والوثائق نفسها تحت عنوان «مجموعة الوثائق السرية في ارشيف وزارة الخارجية السابقة» وردت في بعضها وثائق ومعلومات مهمة تخص ايران [١٣].

تتابع بعد ذلك نشر مجموعات اخرى من وثائق الارشيفات الروسية التي يضم جميعها معلومات نادرة، بعضها في غاية الاهمية، عن تاريخ ايران الحديث. ففي الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣١ و ١٩٤٠ نشرت باشراف لجنة من المتخصصين مجموعة كبيرة جدا من وثائق الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة[١٤] في مجلدات تحمل عنوان «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية. وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة ١٨٧٨ - ١٩١٧». تتضمن السلسلتان الثانية والثالثة من المجموعة المذكورة مراسلات القيصر والخارجية والجهات العليا الروسية الاخرى مع سفراء روسيا في مختلف اقطار العالم فضلا عن عدد كبير جدا من التقارير القنصلية والوثائق

---

(١٣) «تاريخ الدبلوماسية»، باللغة الروسية، الجزء الثاني، موسكو - لينينغراد، ١٩٤٥، ص ٣٨٤ - ٣٨٥.

(١٤) يقصد بها الحكومة التي تألفت اثر انتصار ثورة شباط ١٩١٧ وسقوط النظام القيصري في روسيا، وقد استمرت في الوجود لغاية انتصار ثورة اكتوبر في العام نفسه.

الدبلوماسية والمعلومات الصحفية وغيرها من المواد الارشيفية التي تعود الى الفترة الواقعة بين ايار ١٩١١ حتى تشرين الاول ١٩١٢ وكانون الثاني ١٩١٤ حتى نيسان ١٩١٦، وهي فترة تمثل احدى ذروات الصراع الدولي عشية الحرب العالمية الاولى وفي سنواتها [١٥]. وتحتوي هذه المجموعة على عدد كبير من الوثائق المدونة بلغات اخرى نشرت بنصوصها الاصلية مع ترجمتها الروسية. والمجلدات العشرة من «العلاقات الدولية» التي احتوت الفترة الواقعة بين كانون الثاني ١٩١٤ ونيسان ١٩١٦ تضمنت اخطر الوثائق السرية التي نشرت لاول مرة في التاريخ، وقد اعترف العلماء باهميتها القصوى، كما ترجم جزء منها الى اللغة الالمانية. لذا فان وثائق «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية» تؤلف معينا مهما للمؤرخين الغربيين والشرقيين على حد سواء[١٦].

تحتوي جميع أجزاء «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية» على وثائق ومعلومات مختلفة تخص ايران وتؤلف مصدرا اصيلا ومهما لدراسة تاريخها الحديث. فعلى سبيل المثال ان المعلومات التفصيلية التي وردت في عدد من أجزائها بصدد اعمال الخبير الامريكي مورغان شوستر الذي استخدمته الحكومة الايرانية عشية الحرب العالمية الاولى، والازمة السياسية الحادة التي نجمت عن ذلك وكل مارافقتها من صراع دولي وسياسي داخلي وغير ذلك

---

(١٥) كان من المقرر أن تتألف سلسلة «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية» من عدد اكبر من المجلدات تعود وثائقها الى العقد الثامن من القرن التاسع عشر، الا ان ظروف الحرب العالمية الثانية حالت دون اكمال نشرها، وبعد الحرب استعيض عنها بمنشورات وثائقية اخرى.

(١٦) لايقتصر ذلك على المؤرخين السوفيت، فان وثائق «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية» تحولت الى مصدر مهم بالنسبة لغيرهم ايضا، بمن فيهم بعض المؤرخين الايرانيين الذين قدموا دراسات رصينة في مجال بحثهم (راجع على سبيل المثال:

Hossein Nazem, Russia and Great Britain in Iran, 1900 - 1914. Based on British, French, German, Iranian, Russian and United States Diplomatic Documents, Teheran, 1975).

من مواضيع مهمة[١٧]، تفوق في نقاط عديدة ما ورد في مذكرات شوستر نفسه التي نشرها تحت عنوان «اختناق ايران»[١٨]. ولتوضيح هذه الحقيقة اكثر نشير الى ان ٨٩ وثيقة من اصل ٣٤٤ وثيقة وردت في الجزء الاول من المجلد التاسع عشر من «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية» (اكثر من ٢٥٠ صفحة) تخص فقط موضوع الانذار الذي وجهته الحكومة القيصرية الى الحكومة الايرانية بصدد طرد شوستر من منصبه وابعاده من ايران، فيما تخص الوثائق المتبقية، ومجموعها ٢٥٥ وثيقة فقط، علاقات روسيا القيصرية ببقية اجزاء العالم [١٩].

وعلى الغرار نفسه تتوفر معلومات دقيقة جدا في مجلدات «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية» عن مؤامرات الدول الاستعمارية في ايران عشية الحرب العالمية الاولى وفي سنواتها، وعن النشاطات المتشعبة لعملاء تلك الدول، ووقائع الحرب نفسها على الساحة الايرانية، وعن كل مايتعلق بنشاطات الشاه المخلوع محمد علي مرزا الذي يشغل عهده [٢٠] ومن ثم

---

(١٧) راجع على سبيل المثال: «وزارة الخارجية. العلاقات الدولية في عصر الامبريالية. وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة ١٨٧٨ - ١٩١٧»، التسلسل الثاني (١٩٠٠ - ١٩١٣)، المجلد الثامن عشر، الجزء الاول (١٤ أيار ١٩١١ - ١٣ أيلول ١٩١١)، لينينغراد، ١٩٣٨، الوثائق ١٨٠ و١٩١ و٣٠٨ و٣١٦ و٤١١ و٤١٩ و٤٢٦ وغيرها؛ المجلد الثامن عشر، الجزء الثاني (١٤ أيلول ١٩١١ - ١٣ تشرين الثاني ١٩١١)، موسكو - لينينغراد، ١٩٣٨، الوثائق ٦٠٣ و٦٧٤ و٨٥٢ و ٨٣٠ وغيرها؛ المجلد التاسع عشر، الجزء الاول (١٤ تشرين الثاني ١٩١١ - ١٣ كانون الثاني ١٩١٢)، موسكو - لينينغراد، ١٩٣٨، الوثائق ١٥ و٢٦ و٥٧ و١٧٥ و١٩٩ و ٢٣٨ و٢٥٨ و ٢٧٤ و ٣٣٤ وغيرها.

(18) W.M. Shuster, The Strangling of Persia. Story of the European diplomacy and oriental intrigue that resulted in the denationalization of twelve million Mohammedans. A Personal narrative, New York, 1912.

(١٩) «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية...»، المجلد التاسع عشر، الجزء الاول (١٤ تشرين الثاني ١٩١١ - ١٣ كانون الثاني ١٩١٢)، موسكو - لينينغراد، ١٩٣٨. يقع المجلد في اكثر من ٢٥٠ صفحة.

(٢٠) جاء الى العرش بعد وفاة والده مظفرالدين شاه في كانون الثاني عام ١٩٠٧.

مؤامراته بعد خلعه في تموز عام ١٩٠٩ حيزا مهما من تاريخ ايران الحديث رافق ذروة ايام الثورة الدستورية (١٩٠٥ - ١٩١١). وفي الواقع قلما يوجد مصدر اصيل آخر، بما في ذلك المصادر الفارسية نفسها، يضاهي الوثائق التي وردت في عدد من مجلدات «العلاقات الدولية» بصدد الموضوع الاخير(٢١).

ومن المهم بالنسبة لنا ان نشير الى ان بعض مجلدات «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية» تتضمن مجموعة من اندر الوثائق تخص العلاقات الايرانية - العراقية في سنوات الحرب العالمية الاولى عندما حاولت بعض الاطراف الدولية تحويل العراق الى احدى ادوات مساوماتها السياسية في تلك المرحلة التأريخية الحرجة التي شهدت تقرير مصير العديد من شعوب المنطقة حسب اهواء الدول الكبرى، الموضوع الذي كرسنا له موضوعا اخر من مواضيع هذا الكتاب(٢٢). فحسبما يبدو من وثائق المجلدات السابع والثامن والتاسع من التسلسل الثالث لـ «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية» ان سازانوف وزير خارجية روسيا القيصرية دخل اثناء الحرب في مفاوضات سرية مع نظيره البريطاني السر ادوارد غراي بصدد «منح مدينتي النجف وكربلاء» الى ايران لابعادها، مقابل ذلك، عن المانيا والدولة العثمانية وتدفعها الى جبهة الحلفاء(٢٣).

باشرت وزارة الخارجية السوفيتية منذ عام ١٩٦٠ نشر مجموعات جديدة من وثائق روسيا القيصرية تحت عنوان « السياسة الخارجية لروسيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وثائق وزارة الخارجية الروسية»، وهي

---

(٢١) راجع على سبيل المثال: «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية...»، المجلد الثامن عشر، الجزء الاول، الوثائق ١٣٣ و ١٥١ و ٢٠٠ و ٣٥٧ و ٤١٨ و ٤٣٦ وغيرها.

(٢٢) راجع موضوع «العراق وايران بين سازانوف وغراي. وثائق جديدة».

(٢٣) راجع: «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية...»، التسلسل الثالث (١٩١٤ - ١٩١٧)، المجلد السابع، الجزء الاول (١٤ كانون الثاني - ٢٣ آذار ١٩١٥)، الوثائق ٥٥ و ١٣٤ و ٣٥٢ و ٣٦٧ و ٤٠٠ وغيرها؛ المجلد الثامن، الجزء الثاني (٢٤ أيار - ١٦ تشرين الاول ١٩١٥)، الوثائق ٦٣٧ و ٦٣٨ و ٦٣٩ و ٦٨٨ و ٧٣٩ وغيرها؛ المجلد التاسع (١٧ تشرين الاول ١٩١٥ - ١٣ كانون الثاني ١٩١٦)، الوثائق ١٦٥ ٢٤١ و ٣٨١ وغيرها.

تتضمن المراسلات والتقارير ونصوص المعاهدات والاتفاقيات وغيرها من الوثائق الدبلوماسية منذ ان تأسست اول وزارة للخارجية الروسية في العام ١٨٠٢، وتتألف من ست مجموعات طبعت منها حتى الان المجموعتان الاولى والثانية ضمن «التسلسل الاول» ويحتوي وثائق الفترة الواقعة بين عامي ١٨٠١ و ١٨١٥ و «التسلسل الثاني» ويحتوي وثائق الفترة الواقعة بين عامي ١٨١٥ و ١٨٣٠. اما المجموعات الاربع المتبقية فمن المقرر ان تتضمن وثائق الفترة الممتدة بين عامي ١٨٣٠ و ١٩١٧.

تحتوي المجلدات المنشورة من «السياسة الخارجية لروسيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين» على مئات الوثائق السرية بخصوص ايران، مما يؤلف ثروة هائلة بالنسبة لكل من يتصدى لاهم مواضيع تاريخها منذ اوائل القرن الماضي. فمن الصفحات الاولى من المجلد الاول يبدأ اسم ايران بالظهور عندما تتحدث اولى الوثائق الروسية عن هجوم آغا محمد خان، مؤسس الاسرة القاجارية، على جورجيا[٢٤].

تتضمن مجلدات «التسلسل الاول» من «السياسة الخارجية لروسيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين» معلومات مفصلة ودقيقة عن اوضاع الارمن والجورجيين والاذربيجانيين في ظل الحكم القاجاري، وعن الصراع الدولي على ايران اثناء حروب نابليون بونابارت وخططه الطموحة لغزو الهند، وعن سياسة القياصرة الروس تجاه المنطقة، وعن الاوضاع الداخلية في ايران ومواضيع اخرى مشابهة. ولا يوجد مصدر اصيل اخر يضاهي مجلدات «التسلسل الاول» لتوضيح وقائع الحرب الايرانية ـ الروسية في ١٨٠٤ ـ ١٨١٣ وكل ما رافقها من احداث وماتبعها من نتائج كرست لها عشرات الوثائق ومقدار اكبر من صفحات المجلدات التسعة الاخيرة من «التسلسل الاول»[٢٥]. وعلى الغرار نفسه تؤلف مجلدات «التسلسل الثاني» افضل

---

(٢٤) راجع: «وزارة الخارجية. السياسة الخارجية لروسيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وثائق وزارة الخارجية الروسية»، التسلسل الاول (١٨٠١ ـ ١٨١٥)، المجلد الاول (آذار ١٨٠١ ـ نيسان ١٨٠٤)، موسكو، ١٩٦٠، الوثيقتان ٧ و١٧، ص ٢٤ ـ ٢٦، ٧٢ ـ ٧٧.

(٢٥) نشر المجلد العاشر والاخير من «التسلسل الاول» في العام ١٩٧٦.

مصدر لدراسة كل مايتعلق بالحرب الروسية - الايرانية في ١٨٢٦ - ١٨٢٨، كما انها تأتي في مقدمة المصادر المهمة لتوضيح شتى جوانب الحياة السياسية والاقتصادية لايران خلال العقدين الثاني والثالث من القرن التاسع عشر[٢٦].

ومنذ العام ١٩٥٧ باشرت وزارة الخارجية السوفيتية نشر «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي» في مجلدات حسب التسلسل الزمني. وتتضمن المجلدات الاولى من المجموعة الوثائقية الروسية الجديدة اعدادا كبيرة جدا من الوثائق عن العلاقات الايراينة - السوفيتية ايام ثورة اكتوبر وما بعدها وفي فترة الازمة السياسية في ايران (١٩٢١ - ١٩٢٥) التي اسفرت اخيرا عن سقوط الاسرة القاجارية وتأسيس الاسرة البهلوية اواسط العقد الثالث[٢٧]. ولاتكمن اهمية معظم الوثائق المذكورة في محتوياتها حسب، بل تكمن ايضا في كونها تنشر لاول مرة وبوسعها ان تلقي الضوء على جوانب مختلفة من تاريخ ايران الحديث والمعاصر. فقد وردت في المجلدات الاولى من «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي» حقائق مذهلة عن محاولات الدول الكبرى لتحويل ايران الى احدى قواعد التدخل للقضاء على السلطة السوفيتية الجديدة في روسيا، وعن نشاط رجال الحرس الابيض والداشناقيين الارمن وغيرهم في ايرن. فان اراضي اذربيجان الايرانية قد تحولت، مثلا، الى مقر فعلي للحكومة التي اسسها الداشناق في المنفى، الامر الذي اثار الاتحاد السوفيتي الى حد كبير[٢٨].

وكما يبدو واضحا من عشرات المذكرات والنداءات التي وجهتها الخارجيه السوفيتية الى الحكومة الايرانية ان قادة النظام الجديد في روسيا كانوا مهتمين

---

(٢٦) تسنى لي الاطلاع على المجلدات الاربعة الاولى من «التسلسل الثاني» من «السياسة الخارجية لروسيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين». يتضمن المجلد الرابع من التسلسل المذكور الوثائق التي تعود الى الفترة الواقعة بين آذار ١٨٢١ وكانون الاول ١٨٢٢، وقد طبع عام ١٩٨٠.

(٢٧) في موضوع «رضا المازندراني والعرش الايراني - من تاريخ تأسيس الاسرة البهلوية والخيوط الاولى لسياسة الاستعمار الجديد في الشرق الاوسط» اشرت الى عدد من تلك الوثائق.

(٢٨) «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي»، المجلد الخامس (كانون الثاني ١٩٢٢ - ١٩ تشرين الثاني ١٩٢٢)، موسكو، ١٩٦١، الوثيقتان ١٠٥ و٢٨٧ والملاحظة رقم ٥٣، ص ١٨٦ - ١٨٨، ٦٢٨ - ٦٢٩، ٧٢٨ - ٧٢٩ وغيرها.

جدا باقامة علاقات حسن جوار طيبة مع ايران منذ الايام الاولى لانتصار ثورة اكتوبر جريا على منطلقاتهم الجديدة، وليضمنوا بذلك ايضا أمن جزء حساس من حدود بلادهم الجنوبية، وليحافظوا على العلاقات الاقتصادية التقليدية التي كانت تسود البلدين قبل الثورة، وليجعلوا من صلاتهم مع ايران انموذجا يدفع بدول المنطقة الاخرى الى ان تحذو حذوها. ولتحقيق كل ذلك قدمت روسيا السوفيتية تنازلات كثيرة لايران وردت تفاصيلها موثقة في المجلدات الاولى من «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي»[٢٩]. ولكن رغم ذلك ساد التوتر علاقات الدولتين على مدى سنوات طويلة، وهي غالبا ماتسمت بالمد المصطنع والجزر المدبر الى ان اتخذت طابعا جديدا الى حد ما في عهد رضا شاه بهلوي، الامور التي يجد المؤرخ تفاصيل دقيقة بصددها وبصدد غيرها من المواضيع التي تخص تاريخ ايران المعاصر في المجلدات المنشورة من «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي».

وفي الواقع قلما توجد مجموعة وثائقية سوفيتية عامة تخلو من امور تخص تاريخ ايران الحديث بصورة مباشرة أو غير مباشرة. فعلى سبيل المثال اعيد نشر النص الكامل لاتفاقية تقسيم ايران للعام ١٩٠٧ في «العلاقات الدولية والسياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي. مجموعة وثائق ١٨٧١ - ١٩٥٧»[٣٠]. كما تتضمن مؤلفات المؤرخين السوفيت الكثيرة عن تاريخ ايران الحديث معلومات وثائقية مختلفة استقاها اصحابها من مظا نها الاصلية. وفضلا عن كل ذلك لاتزال الارشيفات السوفيتية نفسها تحتوي على اعداد هائلة من الوثائق المهمة التي تخص شتى اوجه تاريخ ايران الحديث، ونحن من احوج الناس الى الاطلاع على مضامينها، الامر الذي يدعو الى اهتمام خاص من لدن المؤسسات التي تعني بالدراسات التاريخية في بلادنا.

---

(٢٩) راجع على سبيل المثال:
«وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي»، المجلد الاول (٧ تشرين الثاني ١٩١٧ - ٣١ كانون الاول ١٩١٨) موسكو، ١٩٥٧، الوثائق ١٨ و٢٧ و ٤٠ و٥٤ وغيرها؛ المجلد الثاني (١ كانون الثاني ١٩١٩ - ٣٠ حزيران ١٩٢٠)، موسكو، ١٩٥٨، الوثائق ١٢٩ و ٣٥٤ و ٣٧٣ وغيرها.

(٣٠) «العلاقات الدولية والسياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي. مجموعة وثائق ١٨٧١ - ١٩٥٧»، موسكو، ١٩٥٧، ص ٣٩ - ٤٢.

فهرست الأعلام

اعلام الاشخاص[1]

---

(١) نحيط القارىء الكريم علما بأننا دأبنا في هذا الكشف العام عن الاعلام الواردة في الكتاب على تقسيمه الى قسمين، قسم يشمل أعلام الاشخاص من حقيقية وحكمية مع بعض الاحداث. اما القسم الثاني فيشمل أعلام الاماكن من قرى ومدن وبلدان ومناطق وقارات، وكل ما يدخل ضمن الاطار الجغرافي .

ونظرا لكثرة تكرر بعض الاعلام الرئيسة في الكتاب، فاننا لم نشر اليها . ونذكر ان حرف (م) يرمز الى المتن، وحرف (هـ) الى الهامش، وحرف (ع) الى العشيرة .

ـ ب ـ

- ت -

- ث -

- ج -

(*) يقصد به وليم الثاني، امبراطور المانيا يومذاك

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

- ش -

- ص -

- ق -

- ك -

- و -

- هـ -

- ي -

اعلام الأماكن

- ت -

- ج -

- ز -

- س -

جـدول الخطـأ والصـواب

بالرغم من الجهود التي بذلناه ليأتي الكتاب دونما أخطاء، ماأمكن، فقد حدثت بعض الاخطاء نذكر فيما يلي أهمها مع تصحيحها:

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٤	٢٠	وعداً	واعداً
٥٢	٣	القياة	القيادة
٥٧	٢	دربندو	دربند
٨١	٩	ارفيتين	أرمنيتين
٨٩	٣	ال	الى
١٠٣	٢٠	شائعة	شاسعة
١٠٦	٢٤	توزيع	توزيع المقاعد الستين المخصصة
١٢٢	١٣	خلق	خلقت
١٣٠	٩	شاهابا	شاهاباد
١٣٥	٩	ليساسة	لسياسة
١٤٥	٩	منه	منها
١٥٠	٧	الخلفاء	الخفاء
١٥٥	٥	عى	على
١٥٦	٢٧	D8	D.
١٦٤	٧	بيتاريخ	بتأريخ
٢٠٨	٢٩	Oynasty	Dynasty

٢٣٥ تضاف العبارة التالية الى مابعد السطر ١٩ : غير قصر الشاه. وبما انه كان يمتلك وعدداً كبيراً من الرجال الشجعان والخيول

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٤٧	٧	فيم	فيما
٢٥٨	١٧	من	عن
٢٦١	٢	نولستوى	تولستوى
٢٦٩	١١	المناقضين	المتناقضين
٢٦٩	١٤	العالي	العالمي
٢٩١	١٩	الحربي	الحربية

٢٩١	٢٠	اعداد	عداد
٢٩٣	الأخير	Oiplomatic Oocuments	Diplomatic Documents
٢٩٦	٧	المتدة	الممتدة
٢٩٨	١٦	والسياسية	والسياسة
٢٩٨	١٩	الوفيتية	السوفيتية

الفهرست

-٣٣٣-

شكر وتقدير

أقدم جزيل شكري لكل من أسهم في تسهيل أمر صدور هذا الكتاب، وأخص منهم بالذكر السادة الامين العام للثقافة والشباب لمنطقة كردستان للحكم الذاتي محمد أمين محمد أحمد، ومحمد الملا عبدالكريم المدرس وسردار ميران وجعفر قادر البرزنجي وياسين حميد السامرائي صاحب «مطبعة اركان» والاخوين وليد وقصي السامرائيين، والاخ جورج اسطيفان، والاخت بتول ملكزدوق يوسف .

وأود أن اسجل إمتناني بصورة خاصة للاخ الفنان جمال حسن علي الذي صمم غلاف هذا الكتاب، وأنقذ بصبره وإخلاصه وتأنيه جهدي هذا من محنة حقيقية لا يتصورها الا من عاش مآسيها!

المؤلف

رقم الايداع ١١٢٥ في المكتبة الوطنية ـ بغداد ـ لسنة ١٩٨٥

سعر الكتاب : ثلاثة دنانير

مطبعة اركان ـ بغداد ـ هاتف ٨٨٨٩٤٣٧

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والفنون

أضواء على قضايا دوليّة في الشرق الأوسط

الدكتور كمال مظهر أحمد

منشــورات وزارة الثقافة والفنون ـ الجمهـورية العـراقيـة

سلسلة دراسات
(١٦٠)

١٩٧٨

اضواء على قضايا دولية

في الشرق الاوسط

الدكتور كمال مظهر احمد

المقدمة

من الطبيعي ان تحتل احداث بقعة تربط بين جميع قارات «العالم القديم» وتحتوي ارضها على ثروات طائلة مكانة بارزة في تاريخ الانسان ماضيا وحاضرا • ولكن ليس من الطبيعي ان يولي الآخرون تلك الاحداث اهتماما اكبر مما يوليه اياها اصحابها الشرعيون • فمن بين مئات ومئات الدراسات « الغثة والسمينة » قلما نصادف بحوثا شرقية اصيلة تحاول الوقوف على ما يختفي من امور ومحركات لا تعد ولا تحصى وراء قضايا الشرق الاوسط الدولية التي غدت ، منذ اكثر من قرن ، واحدة من اهم العوامل المحركة لمجمل السياسة الدولية • من هنا فان كل ما يتعلق بها يستحق الدرس بعمق كي يصبح بالامكان عرض تاريخ المنطقة ، الحديث منه والمعاصر ، في اطار واقعي شامل •

يحتوي هذا الكتاب على مواضيع تخص فترة حساسة من تأريخ الشرق الاوسط ، مواضيع تربط بينها خيوط كثيرة تجمعها على صعيد واحد في تجسيد خطط الدول الكبرى وصراعاتها المستميته من اجل التغلغل في اقطار هذه المنطقة وتحويلها الى جسر ستراتيجي نحو انطلاقات جديدة والى مصدر اساسي للمواد الخام والطاقة وسوق رائجة للبضائع المصنعة التي بدأت تفيض بسرعة فائقة عن الحاجات الداخلية والقريبة ، واخيرا الى مركز مربح للرأسمال المصدر بعد ان اصبحت الامكانات الداخلية عاجزة عن استيعاب المتراكم منه وضمان كل ما يصبو اليه اصحابه الاحتكاريون •

حاولت التطرق ، قدر المستطاع ، الى مواضيع معينة لدينا في الغالب تصورات ناقصة أو مشوهة عن حقائقها • فلا توجد ، على سبيل المثال ، دراسة مستقلة عن « مؤتمر شعوب الشرق في باكو » أو عن البنود الاربعة عشر المعروفة للرئيس ودرو ولسن التي احدثت ضجة كبيرة على الصعيد الدولي في وقت ما • وليس بامكان الشيء المقتضب الذي ورد عن البنود في دراسات

كرست بالاساس لمواضيع اخرى اعطاء فكرة واضحة عن ظروف اصدار تلــك الوثيقة ومراميها الحقيقية • من هنا فانها وجدت انعكاسات غير واقعية في معظم دراساتنا ، ولا سيما ما يبحث منها في حركات التحرر ــ الوطني لشـــعوب الشرق الاوسط المختلفة • وبالنسبة لمعاهدة « سايكس ــ پيكو » السرية لم تجر حتى الان ، كما نعلم ، دراسة وثائقية بامكانها تقديم صورة اصيلة عــن ظروف ابرامها وكيفية الكشف عنها • كما ان الآراء المتناقضة جدا عن شخصية فيصل الاول وسياساته تفرض البحث عن المطومات من مضانها الاصلية لالقاء اضواء كاشفة جديدة على اعمال واهداف شخصية سياسية بارزة لعبت دورا خطيرا على مدى حوالي العقدين في الاحداث التي شهدتها مناطق حساسة من الشرق الاوسط • وفي كتاب المستشرق السوفيتي الدكتور ل•ن• كاتلوف « نشـــوء حركة التحرر ــ الوطني في المشـــرق العربي » اراء وتقييمات جديدة تستحق التأمل والامعان •

استندت في بحوثي التي اقدمها هنا الى مصادر متنوعة انكليزية وروسية وعربية وكردية وغيرها يدخل قسم غير قليل منها ضمن المصادر الاصيلة ، كما ان جانبا كبيرا منها يستخدم لاول مرة في دراساتنا العلمية • وقــد اتاح لــي ذلك امكانية التوصل الى استنتاجات جديدة قابلة للنقاش العلمي بهـــدف الاقتراب من تقييم نهائي حولها •

نشر معظم المواضيع الواردة في هذا الكتاب على صفحات مجلة « آفاق عربية» واعيد نشرها هنا مع اضافات كثيرة وتنقيح غير قليل • وقد روعــي في تصنيف عرضها التسلسل الزمني للاحداث في حدود الامكان • وارتأيــت نشر تقييمي لكتاب الدكتور ل•ن• كاتلوف كموضوع أخير في الكتاب جريا على العادة المتبعة في مثل هذه الحالات •

كل ما ارجوه ان يسد هذا الكتاب فراغا فيمكتبتنا التأريخية وان يكون عند حسن ظن القراء والباحثين •

ختاما اقدم جزيل شكري الىاخي وزميلي الاستاذ محمدالملاعبدالكريم لما بذله من جهود وما ابداه من مساعدات قيمة لاخراج الكتاب بشكله الحالي •

الموضوع الأول

"الشرق الأوسط" - مدلوله واهميته

تكونت مصطلحات « الشرق » و « الغرب » و « الشـــرق الادنـى والاوسط والاقصى » كمفاهيم سياسية ــ حضارية نتيجة عوامل مختلفة على مر التاريخ . وهي في الواقع مصطلحات ذات مدلولات مجازية اكثر من كونها واقعية . فان الاغريق والرومان الاقدمين هم الذين ابتدعوا « الشـــرق » و « الغرب » كمفهومين حضاريين متميزين . فقد اعتبر الاغريق انفسهم غربيين واعتبروا الايرانيين شرقيين . ثم بدأوا يعدون كل ما يقع الى الشرق مـــن بلادهم « شرقا » ويعتبرون موطنهم مع ما يقع الى غربه « غربا » . وعندمـا توسعت سلطات الاغريق لتشمل في القرون الاخيرة لما قبل الميلاد اصقاعـــا آسيوية وافريقية فقد هذا المصطلح معناه المجازي لديهم . الا ان الرومان هم الذين بدأوا يستخدمونه للاستدلال به على المناطق الممتدة الى الشرق مـــن ايطاليا ، بما في ذلك البلاد الاغريقية الاوروبية . وعلى هذا الاساس عندمـا انقسمت الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع فان ذلك القسم الذي كان يضم شبه جزيرة البلقان واسيا الصغرى وسوريا ومصر اصبح يعرف بالامبراطورية الرومانية الشرقية وعرف الاخر الذي كان يضم ايطاليا وامتداداتها الغربيـة بالامبراطورية الرومانية الغربية . وفي العصر الوسيط كان الشرق في مفهوم الاوروبيين يعني آســـيا وشمال افريقيا ، بل وحتى ذلك الجزء من جنوب ــ غربي القارة الاوروبية حيث قام صرح حضارة الاندلس ، واقطار البلقان لانها اصبحت تحت السيادة العثمانية . وكانت شعوب اوروبا الغربية تصنف اقطار اوروبا الشرقية وشعوبها التي لم تدخل في اطار الامبراطورية الرومانية المقدسة ضمن « الشرق » حسب مفهومهم .

هكذا وبالتدريج تبلور مفهوم الشرق كمصطلح مجازي من صنـــع اوروبي وهو لا يخلو ، في الواقع ، من اعتبارات عنصرية . على اي حال غدت سوريا ــ مثلاــ التي تشكل امتدادا غربيا للعراق ضمن مفهوم الشرق مثلـه ومثل الصين ، واصبحت المانيا التي تمثل امتدادا شرقيا لفرنسا ضمن مفهـوم الغرب مثلها ومثل ايطاليا .

اما تصنيف الشرق الى (ادنى) و (اوسط) و (أقصى) فانه يعود الى عهد قريب نسبيا • وهي بدورها مصطلحات مجازية من صنع اوروبي[1] • فان ما يعتبر شرقا قريبا او (ادنى) من اوروبا هو في الواقع غرب بعيد بالنسبة للصين التي تشكل شرقا اقصى حسب المفهوم الاوروبي •

تختلف الآراء في تحديد الاطار الجغرافي للشرقين الادنى والاوسط[2] • فالى ما قبل الحرب العالمية الاولى كان يقصد بـ « الشرق الادنى » كل الامبراطورية العثمانية ، بما فيها ممتلكاتها الاوروبية • اما في الوقت الحاضر فغالبا ما يقصد بالشرق الادنى اقطار القسم الغربي من آسيا والقسم الشمالي الشرقي من افريقيا ، وبالتحديد مصر والسودان والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين والاردن وشبه الجزيرة العربية مع اقطار وجزر الخليج العربي وتركيا وقبرص • اما « الشرق الاوسط » فيقصد به عادة جميع الاقطار التي تدخل ضمن « الشرق الادنى » مع ايران وافغانستان •

وعلى اساس هذا التحديد يكون « الشرق الاوسط » واحدا من اهم المناطق الحضارية والاقتصادية والستراتيجية والسياسية في العالم منذ اقدم العصور[3] • فلم تظهر دولة او عصبة قوية في الشرق كما في الغرب لم تتوجه بانظارها وفي الغالب بجحافل جيوشها نحو هذه البقعة المغرية • ولم تظهر

---

(١) فعلى سبيل المثال لا يوجد شمال أو جنوب ادنى او اوسط او اقصى .

(٢) نظرا لاختلاف الاراء في تحديد الاطار الجغرافي لما يسمى بالشرق الادنى والشرق الاوسط فان المؤلفين غالبا يجمعون بين المنطقتين في مصطلح واحد هو : « الشرقان الادنى والاوسط » . والانكليز هم اكثر استخداما من غيرهم لمصطلح « الشرق الاوسط » الذي شاع كذلك في الاقطار التي حكموها او كان لهم نفوذ فيها .

(٣) يسمي جورج لينجوفسكي الشرق الاوسط بـ « مدار دولاب النصف الشرقي من الكرة الارضية »

George Lenczowski, The Middle East in World Affairs, Second edition, second printing, New York, 1957, P. XVII

(في الترجمة العربية لجعفر خياط ص١٣) .

حضارة في العالم لم تكن مدينة في مكتسباتها لرواد الحضارة البشرية الذين ظهروا وابدعوا في اصقاع شتى من الشرق الاوسط . والاديان السماوية جميعها ظهرت هنا ــ في قلب الشرق الاوسط وانتشرت منه .

اراد الاسكندر واراد نابليون واراد هتلر كل باسلوبه ان يجعل من موقع الشرق الاوسط ومن ثرواته اساسا لمجد تليد ظلوا يحلمون به ويخططون له حتى اللحظة الاخيرة من حياتهم الزاخرة بالاحداث والمفاجآت والمغامرات . والشرق الاوسط كان يتصدر العوامل غير المرئية التي ادت الى اندلاع نيران حربين عالميتين أودتا بحياةما لا يقل عن ٧٠ مليون نفس بريئة . والشرق الاوسط لا يزال يشكل عاملا غير مرئي من بين اهم عوامل الصراع الدولي المعاصر . فاذا كانت الدول الاستعمارية لا تعير في عصر الفضاء والصواريخ القواعد العسكرية في هذه الرقعة الحساسة من العالم اهتمامها السابق ، فانها تستميت الان اكثر من قبل في سبيل تشديد قبضتها على تلك الثروة الهائلة من الطاقة الكامنة في ارضها والتي تدير اليوم الجزء الاكبر من عجلة الانتاج في كل العالم الرأسمالي ، فقد بلغت واردات الولايات المتحدة من نفط هذه المنطقة في العام ١٩٧٣ ما لا يقل عن ٢٥٪ من مجموع وارداتها من هذه المادة، وكما تتوقع « نيويورك تايمس » (٢٩ تموز ١٩٧٣) فان هذه النسبة ترتفع في العام ١٩٨٠ الى ٣٥٪[٤] . وتعتمد اوروبا الغربية واليابان والقسم الاكبر من اقطار ما يسمى بالعالم الثالث على نفط الشرق الاوسط بالدرجة الاساسية . والمهم في هذا المجال هو ان احتياطي النفط في باطن ارض هذه المنطقة يقدر بخمسين مليار طن ، اي ما يعادل حوالي ٧٠٪ من احتياطي كل العالم الرأسمالي[٥] . وهذا الرقم قابل للارتفاع على المدى القريب او البعيد .

---

(٤) في العام ١٩٧٦ شكل النفط المستورد من الخارج ما لا يقل عن ٤٠٪ من كل النفط المستهلك في الولايات المتحدة .

(٥) حسب تقديرات العام ١٩٧٣ ، وحسب السعر السائد لبترول المنطقة في الولايات المتحدة خلال العام ١٩٧٥ (١٢ دولارا للبرميل الواحد)تصبح قيمة احتياطي النفط في الشرق الاوسط حوالي ٥ر٤ تريليون (٤ر٥٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠) دولار .

تبدو الاهمية الاستثنائية للشرق الاوسط المعاصر كذلك من خــــلال الجهود المكثفة التي تبذلها الدول الغربية على اصعدة مختلفة من أجل ربط اقتصاديات اقطاره بعجلتها • وفي هذا المجال حققت الولايات المتحدة الامريكية كأكبر دولة رأسمالية نجاحات مشهودة • فخلال سنة واحدة فقط (١٩٧٥) ارتفع رأس المال الامريكى المستثمر في اقطار الشرق الاوسط من ٢ر٢ مليار الى ٥ر٤ مليار دولار • وقد ارتفعت الصادرات الامريكية الى البحرين من ١٢ مليون دولار في العام ١٩٦٨ الى ٩٠ مليون في العام ١٩٧٥ ، والى الكويت من ١٠٩ الى ٣٦٦ مليون ، والى العربية السعودية من ١٨٧ الـى ١٥٠٢ مليون ، والى ايران من ٢٨٠ الى ٣٢٤٢ مليون دولار• امامجموع صادرات الولايات المتحدة الى كل اقطار الشرق الاوسط فقد ارتفــع من ٦٥٤ مليـــون دولار في العام ١٩٦٨ الى ٦٠٠٧ مليون في العام ١٩٧٥ ، اي بمقدار حــــوالي عشــرة اضعاف خلال اقل من عقد واحد فقط • وبالمستوى نفسه ارتفعت واردات الولايات المتحدة[٦] من اقطار الشرق الاوسط ، فقد بلغت في العــام ١٩٧٥ حوالي ٥٠٥٠ مليون دولار بينما لم تبلغ قبل ذلك بسبع سنوات اكثر مـــــن ٢٢٣ مليــــون •

وهذه الارقام على ضخامتها ترتفع من سنة الى اخرى • ففي العــــام ١٩٧٤ عقدت الولايات المتحدة صفقة مع العربية السعودية لمدة عشر سنوات بمقدار ١٧ مليار دولار وفي السنة التالية عقدت صفقة مشابهة مع ايران بمقدار ١٥ مليار دولار •

ومن جانب آخر تشهد العلاقات الاقتصادية بين اقطار الشرق الاوسط وبلدان المنظومة الاشتراكية نموا مطردا •فخلال ثلاث سنوات فقط (مـــن

---

(٦) معظم واردات الولايات المتحدة من اقطار الشرق الاوسط هو النفط .

العام ١٩٧٢ حتى العام ١٩٧٥) ارتفع التبادل التجاري بين اقطار الطرفين بمقدار اكثر من ثلاث مرات (من ١٢٢٠ مليون الى ٣٨٩٠ مليون دولار)[٧] •

تبين هذه الحقائق مع غيرها الاهمية القصوى للشرق الاوسط كجزء حساس من عالمنا المعاصر • وهو اليوم يعتبر نموذجا للصراعات الداخلية والخارجية • وحدوث الانفجارات والهزات السياسية في اقطاره اصبح امرا مألوفا ومتوقعا ، ولا سيما بعد ان اصبحت لكل بقعة منه مكانة خاصة ومتميزة في دهاليز الاستخبارات الاجنبية ومخططاتها الخطيرة • وليس كل ذلك وليد يومه ، بل ترجع اصوله الى ذلك الماضي الذي شهد وصول اول بذرة كولونيالية الى ارض الشرق الاوسط • وقد تنامت تلك البذرة وتشعبت جذورها بسرعة خارقة تستحق الدرس والتمحيص العميقين • وتحمل المواضيع التالية من هذا الكتاب بعض النماذج والصور عن ذلك الواقع في احدى مراحل تاريخ المنطقة الحساسة ــ مرحلة ما قبل الحرب العالمية الاولى مع سنواتها وما بعدها مباشرة •

---

(٧) ان الارقام المذكورة تشمل التبادل التجاري مع جميع اقطار « الاوبك » ، الا ان القسم الاعظم منها يخص اقطار الشرق الاوسط ، ولا سيما العراق وايران (للتفصيل راجع مجلة «آسيا وافريقيا اليوم» ، باللغة الروسية ، موسكو ، العدد الثالث ، ١٩٧٧ ، ص ٢٣) •

الموضوع الثاني

حول تغلغل النفوذ الامريكي في الشرق الأوسط
وبنود الرئيس ولسن

لا يمر يوم ، وربما ساعة واحدة ، دون أن نسمع خبرا أو تصريحا أو نعلم باجراء يشير الى مواقف الاستعماريين الامريكان تجاه قضايا الشعوب الملتهبة ، وبشكل خاص في منطقة الشرق الاوسط الحساسة ؛ لكن مع ذلك نلاحظ عزوفا غير مبرر من لدن مؤرخينا عن درس جذور وخلفيات ، ان لم يكن واقع هذه الظاهرة الخطيرة التي تمس حياتنا اليومية بشكل مباشر . ان هذا العزوف بالذات هو ما يبعدنا عن فهم قضايا تاريخية حساسة تتكرر صورها اليوم في اطر جديدة دون أن نستطيع تحديد جميع أبعادها الظاهرة والخفية على ضوء تجارب الماضي . وفي ذلك قصور واضح أمام واجب علمي — سياسي مقدس قد يكون نابعا — وفي ذلك جانب كبير من الحق — من الحذر المشروع من أساليب الاستعمار الجديد التي وجدت لها بكل أسف تربة صالحة في الشرق لم يدرك كنهها الكثيرون بعد . ولكن لنسبر على الاقل غور الجانب العلمي والمنطقي البحت لهذا الموضوع المهم علنا — وذلك أضعف الايمان — نساعد غيرنا بشكل ما في تبني الصحيح من بين التشكيلة المعقدة التي أخذت بخناق الشعوب من كل جانب . ولاريب ان ذلك يدخل ضمن أوليات واجب المؤرخ على الاقل لان التاريخ بحد ذاته علم عميق متصل بحياة الانسان وهو بالبداهة لا يقتصر على درس الماضي ، بل انه حتى في درسه له يجب أن يهدف اطلاقا خدمة الحاضر والمستقبل قبل أي شيء آخر . ومما يفرح أن الاصوات المخلصة بدأت ترتفع للاهتمام بالتأريخ كعلم له وزنه الكبير في حياة المجتمع ، وأود أن أشير بهذا الصدد الى بعض الآراء القيمة التي طرحها المؤرخ المعروف الدكتور نيقولا زيادة على صفحات مجلة « آفاق عربية »[1] .

ولا بد هنا ايضا من تسجيل حقيقة مهمة لا تخلو من معان عميقة بالنسبة لموضوعنا وهي ان الجيل السابق من المؤرخين تصدى ، بالرغم من ظروفه

---

(١) « آفاق عربية » ، بغداد ، العدد العاشر ، حزيران ١٩٧٦ ، ص ١٠٤ — ١٠٨ .

القاسية ، بجرأة كبيرة الى سياسة ومناورات المستعمرين الانكليز والفرنسيين في المنطقة وحاول ، بغض النظر عن ضعف امكاناته ، الخوض باسلوب مفيد في الجانب التاريخي من تلك السياسة[٢] • وهذه مسألة تحتاج الى تمحيص خاص والى عناية غير قليلة من جانب الجهات المسؤولة • فمن دواعي الاسف حقا ان بلدا كالعراق لا يوجد فيه حتى اليوم معهد خاص يعنى باسلوب علمي مبرمج بالبحث التاريخي علما بأن بلدانا كثيرة قطعت بامكانات أقل أشواطا بعيدة في هذا المجال الحيوي • ويكمن فيهذا النقص بعض التفسير لانعدام دراسات جدية في حقول تاريخية مهمة وفي عدم توفر تراجم لمذكرات ووثائق في غاية الاهمية يمكن بناء دراسات جدية وضرورية على اساسها • ومن المفيد ان نشير هنا الى وجود فائض بين اساتذة التاريخ يمكن الاستغناء عنهم في مجال التدريس الجامعي بينهم عدد غير قليل ممن لهم مكانتهم العلمية المرموقة في الداخل والخارج وهم مؤهلون للاضطلاع بمهمة البحث العلمي بكل جدارة • وتوجد في الوقت نفسه فروع واسعة لتدريس اللغات الانكليزية والفرنسية والروسية والالمانية والاسبانية والعبرية والفارسية والتركية بلغ مجموع طلبتها في السنة الدراسية ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ في كلية الاداب ببغداد وحدها اكثر من ١٥٥٠ طالبا وطالبة ، ويشكل هؤلاء ، في حالة اعدادهم ، واولئك ، في حالة تفرغهم ، العنصر الاساس لبناء معهد بحث تاريخي ناجح يمكنه ملء فراغ كبير نحس به في اصعدة مختلفة بضمنها التدريس الجامعي •

يرمي هذا البحث الى القاء بعض الضوء على تغلغل النفوذ الامريكي في الشرق الاوسط مع التأكيد على البنود الاربعة عشر المعروفة للرئيس الامريكي ولسن لانها لم تأخذ ــ حسب معلوماتي ــ مكانها في دراساتنا التاريخية اولا ولكونها ــ وهذا هو الاهم ــ الصياغة الرسمية الرفيعة الاولى للتغلغل الامريكي في المنطقة ثانيا ، ولانها ــ ثالثا واخيرا ــ خدعت ، ولم تزل تخدع ،

(٢) نشير على سبيل المثال لا الحصر الى مؤلفات الاساتذة عبدالرزاق الحسني ورفيق حلمي وامين سعيد ومحمد طاهر العمري وغيرهم .

العديد من المؤرخين ورجال السياسة هنا و « هناك » . فان مؤرخا مثل محمد طاهر العمري الذي ادرك بقاء « النظريات الخلابة » في بنود ولسن « حبرا على ورق » فشبهها بـ « صرير الباب وطنين الذباب امام دوي احتراصات الدول الكبرى »[٣] ، يرى معذلك ان الرئيس الامريكي انما كان يستهدف من « مبادئه الاربعة عشر » جعل الدول الحليفة تسير في سياستها « على منهاج واضح ونية خالصة » وان تعمل في مجال المستعمرات « بروح المساهلة والحق » حتى يمكن تحقيق « تسوية مجردة عن الاغراض تراعى فيها مصالح الشعوب المستعمرة » . ومن هنا ايضا استهدفت « المبادىء » ـ كما يرى ـ « تأمين الشعوب المنسلخة عن تركيا تأمينا اكيدا يريحها في المستقبل ويضمن لها التدرج في الاستقلال الذاتي » مع « الاعتراف بسيادة الاتراك على الاراضي التركية البحتة » و « الجلاء عن بلاد روسية ومساعدة اهلها »[٤] . ويرى الدكتور عبدالعزيز رفاعي انه مع نمو «مراحل الاختمار الثوري » في مصر بعد الحرب العالمية الاولى « كان الرجاء في حل القضية يزيده اشتعالا عندما أعلن ولسن شروطه الاربعة عشر في أواخر عام ١٩١٧ (والصحيح أوائل عام ١٩١٨) ومنها انصاف الشعوب الضعيفة »[٥] .

وفي رأي الاستاذ اكرم زعيتر انه يوجد في « شروط ولسن الاربعة عشر » ما « يفيد تأمين حصول الشعوب المنسلخة عن تركيا على استقلالها » وفيها « ما يضمن للحكومات الصغيرة والكبيرة استقلالها » وهي بذلك « احيت ... آمال الشعوب الضعيفة »[٦] . اما الدكتور حسن صبحي فأنه يجعل من « مبادىء الرئيس الامريكي ولسن الاربعة عشر وفي مقدمتها حق تقرير الامم

---

(٣) محمد طاهر العمري الموصلي ، تاريخ مقدرات العراق السياسية ، المجلد الثاني ، بغداد ، ١٩٢٤ ، ص ١٦٤ .

(٤) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص ١٦٤ ـ ١٦٦ .

(٥) الدكتور عبدالعزيز رفاعي ، ثورة مصر ١٩١٩ . دراسة تاريخية تحليلية ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، بلا ، ص ٨٧ .

(٦) اكرم زعيتر ، القضية الفلسطينية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٥ ، ص١٤١ .

لمصيرها « سببا خارجيا أساسيا لانفجار انتفاضة عام ١٩١٩ في مصر ويعطيها نفس مقام تأثير « ثورة روسيا التحررية الكبرى ضد القيصرية »[٧] .

وبالفعل وجدت بنودالرئيس ولسن صدى واسعا بين رجال السياسة في بلدان الشرقين الادنى والاوسط بحيث عمم بعض المؤرخين « تأثيرها البالغ » ليشمل « نفوس الناس اجمعين »[٨] .

تتوفر شواهد كثيرة ومختلفة تبين مدى عمق الاثار التي تركها المظهر الخارجي لبنود الرئيس الامريكي في نفس عدد كبير من زعماء المنطقة وغيرهم مما « زادهم تمسكا باستقلالهم ثقة منهمبوعوده وعهوده »[٩] . فباقتراح من الزعيم المعروف سعد زغلول بعث الوطنيون المصريون في ١٣ كانون الثاني من عام ١٩١٩ ببرقية تحية واعجاب الى الرئيس ولسن عارضين عليه قضية الشعب المصري ، وكما نرى فقد اعادوا الكرة معه ومع الكونكريس الامريكي اكثر من مرة . وفي شباط من عام ١٩١٩ بعث عدد من كبار رجال الدين العراقيين ، منهم الشيرازي ، كتابا الى الرئيس ولسن معتبرين اياه « ... صاحب المبدأ في ...مشروع السعادة والسلام العام» وبالتالي «الملجأ في رفع الموانع عنه»[٩أ]. اما الزعيم الكردي الشيخ محمود فأنه حارب الانكليز في نفس الفترة تقريبا رابطا فوق زنده الترجمة الكردية للبند الثاني عشر من بنود الرئيس الامريكي مدونة مع تصريحات اخرى للحلفاء على اوراق من المصحف الشريف جابه بها الحكام الانكليز اثناء محاكمته في بغداد قائلا لهم انه « انما يحاربهم باسم هذه

---

(٧) الدكتور حسن صبحي ، اليقظة القومية الكبرى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ ، ص ٦٩ ، ٧٢ .

(٨) راجع مثلا : السيد عبدالرزاق الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، الطبعة الثالثة ، صيدا ، ١٩٧٢ ، ص ١٧ .

(٩) امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى . تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن ، المجلد الاول ، القاهرة ، بلا ، ص ٣١٧ .

(٩ أ) للتفصيل راجع : الدكتور علي الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، الجزء الخامس ، القسم الاول ، بغداد ، ١٩٧٧ ، ص ١٠٤ ــ ١٠٥ .

بنود »[١٠] وانه قبل ذلك بعث بالضابط العثماني السابق السيد توفيق فكرت مندوبا عنه للاتصال بالسفير الامريكي في طهران بقصد شرح المسألة الكردية له وعرض وجهة نظره بواسطته على الرئيس ولسن الا ان السفير رفض مقابلته التي اقتصرت على احد موظفي السفارة فقط .

وبالرغم من ان مصطفى كمال اتاتورك كان واحدا من زعماء الشرق القلائل جدا الذين ادركوا مباشرة الاهداف الحقيقية للبنود الاربعة عشر الا انه ظهر من بين انصاره الذين كانوا يحاربون باخلاص في سبيل تحرير بلادهم من السيطرة الاجنبية عدد غير قليل من الذين خدعتهم تلك البنود فتبنوا على اساسها موقفا خاطئا تجاه الاستعمار الامريكي ، وكان عصمت اينونو واحدا من هؤلاء[١١] .

توجد عشرات الامثلة المشابهة في مؤلفات الغربيين الذين احاطوا بنود الرئيس الامريكي بهالة عجيبة من الثناء والاطراء وحملوها اكثر مما تتحمل بكثير ، حتى انها ، حسب رأي جورج لينجوفسكي ، « اثارت في نفوس الناس اماني اكثر تفاؤلا من الراديكالية الاجتماعية التي انطلقت آنذاك من روسيا الثورية »[١٢] .

يبدو من هذا العرض السريع ان هناك تقييما خاطئا لبنود الرئيس ولسن من جانب اوساط مختلفة في بلدان الشرق الاوسط نجم عن اسباب متباينة

---

(١٠) رفيق حلمي ، « يادداشت » (المذكرات) ، الجزء الثاني ، بغداد ، ١٩٥٦ ، ص ١٧٠ ؛ ي . ليفين ، العراق ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩٣٧ ، ص ١١٦ .

A.T. Wilson, Mesopotamia 1917—1920. A clach of loyalities, London, 1930, p. 139.

(١١) راجع : مصطفى كمال ، طريق تركيا الحديثة ١٩١٩ — ١٩٢٧ ، الترجمة الروسية ، الجزء الاول ، موسكو ، ١٩٢٩ ، ص ٩٣ — ٩٨ .

(١٢) George Lenczowski, The Middle East in World Affairs, second ed. (second printing), New York, 1957, p. 529.

تظهر ابعادها بجلاء فقط من خلال ربط مضمون البنود بواقع دوافعها الحقيقية الخافية وبعد الكشف عن جميع الظروف والملابسات التي فرضت اصدارها في فترة معينة من تاريخ الحرب العالمية الاولى • ومن اجل تقديم صورة واضحة عن الموضوع يجب قبل كل شيء اعطاء فكرة عامة عن تاريـــخ التطـــور الاقتصادي ـ الاجتماعي للولايات المتحدة لكونه يشكل ، دون ريب ، الخلفية الحقيقية لجميع تصرفات وآراء ولسن كرئيس لتلك الدولة في مرحلة محددة مـن تاريخهـــا •

مدخـل عـام :

تم اكتشاف امريكا (١٤٩٢) الغنية جدا والواسعة الى حد كبير في عهد شهد غروب مرحلة تاريخية متخلفة وبزوغ فجر اخرى متقدمة ـ نهاية الاقطاع وبداية الرأسمالية •ونتيجة ظروف خاصة في القارة الاوروبية توجه الى العالم الجديد[١٣] الباحثون عن الذهب والسعادة وحملة الافكار الحديثة الهاربون من القسر الاقطاعي الكنسي من امثال الهيكونوت الفرنســيين والبيوريتــان الانكليز[١٤] وغيرهم ، كما تم نقل مائة مليون زنجي افريقي اليها لقيت ثلاثة ارباع منهم حتفها في الطريق[١٥] او قتلوا خلال الحروب القبلية الدامية التي أثارتها تجارة العبيد المربحة وشكل الربـــع الباقـي ايدي عاملة رخيصـة تحولت الى العنصر الاولي المهم في عملية تراكم رأس المال السريع فيهـا • وان الانكليز الذين كونوا اكبر الموجات الاوروبية المهاجرة الى المقاطعات التـي

---

(١٣) ظهر مصطلحا « العالم الجديد » و « العالم القديم » بعد اكتشاف امريكا ، فقد اقترح العالم الفلكي الايطالي اميركو في العام ١٥٠١ تســمية القارة الامريكية المكتشفة حديثا بالعالم الجديد على اساس انها لم تكن معروفة لدى الاقدمين مطلقا .

(١٤) عرف هؤلاء بخبراتهم الحرفية الواسعة فنقلوا معهم تجاربهم الغنية الى موطنهم الجديد مما كان له تأثيره على تســريع ظهور ونمو العـلائق الراســمالية فيه .

(١٥) راجع : « تاريخ العصور الوسطى » ، باللغة الروسية ، الجزء الثاني ، موسكو ١٩٦٦ ، ص٥٤ .

شكلت فيما بعد الولايات المتحدة نقلوا معهم بذور اولى تجارب المجتمع الرأسمالي الى اخصب تربة صالحة لها • فلم ينته القرن السادس عشر الا وكان الانتاج المانيفاكتوري الرأسمالي قد ظهر في مناطق مختلفة من امريكا الشمالية ، وبالتدريج تبلورت وتقوت الطبقة الرأسمالية الامريكية بحيث أصبحت تنافس الرأسمالية « الام » ، فتحول هذا التناقض الى المحرك الاساس لتطور الحياة السياسية والاقتصادية ـ الاجتماعية في اهم جزء من العالم الجديد خاصة وان انكلترا لجأت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الى شتى السبل لوقف عجلة ذلك التطور العارم مما استدعى مقاومة مشروعة من القوى الامريكية النامية التي ظهر بين صفوفها قادة كبار من امثال فرانكلين وجيفرسون وجورج واشنطن • وقد استطاعت الحركة الوطنية التحررية بفضل اخلاص هؤلاء وتضحيات الجماهير تحقيق استقلال البلاد وتشكيل الولايات المتحدة خلال الفترة الممتدة من عام ١٧٧٥ حتى عام ١٧٨٣ مما شكل خطوة نوعية كبيرة الى الامام هيأت جميع المستلزمات الضرورية لاحداث تطور طبيعي اسرع في المجالات الاقتصادية كافة ، وقد ادى الاخير بدوره وقبل ان ينتهي القرن الثامن عشر الى ظهور القاعدة التكنيكية للانقلاب الصناعي في البلاد ، فظهرت فيها الاختراعات الصناعية تباعا واستوعبت بسرعة اختراعات الاخرين مما ادى الى نمو اقتصادي سريع فيها • ففي العام ١٨٠٧ اخترع العالم الامريكي روبرت فولتون اول سفينة بخارية في العالم تركت اثارا بعيدة المدى في انطلاق الولايات المتحدة السريع نحو العالم القديم • وفي عام ١٨٥٥ كانت ثلاثون الف كيلومتر من السكك الحديدية تربط بين مختلف اجزاء البلاد فساعدت على تكامل شروط السوق الرأسمالية الموحدة في الداخل والتي بلغ نصيب الانتاج الصناعي فيها في عام ١٨٦٠ ، أي قبيل الحروب الاهلية ، أكثر من مليار دولار بقليل استوعب حوالي مليون ونصف مليون عامل[١٦] •

(١٦) W.Z. Foster, Outline political history of the Americas, New York, 1951 (the Russian ed., M. 1943). p. 309.

حدثت الطفرة الجديدة في تطور الانتاج الرأسمالي الامريكي اثر انتهاء الحرب الاهلية (١٨٦١ — ١٨٦٥) التي ادت الى تحرير العبيد بعد ان تحول اسلوب استغلالهم الى معرقل جدي امام نمو العلاقات الرأسمالية في اجزاء مهمة من البلاد ، ولا سيما في الجنوب الذي ادت اعادة بنائه حسب اسس حديثة الى انفجار طاقات رأسمالية اخرى اثرت الى حد بعيد على مصير الولايات المتحدة خاصة بعد ربطه المتين بالاجزاء الاخرى من البلاد . فقد تم خلال ست سنوات فقط (١٨٦٧ — ١٨٧٣) بناء حوالي ٥٤ ألف كيلو متر جديد من الخطوط الحديدية ، مما ساعد بدوره على ظهور وتائر جديدة في مجال التطور الصناعي الامريكي الذي بدأ ينافس بنجاح الصناعة الاوروبية . فخلال عقدين فقط (من عام ١٨٧٧ حتى عام ١٨٩٩) ارتفع انتاج عصب الصناعة الرئيس — الصلب والفحم — بوتائر خيالية بلغت تسع عشرة مرة بالنسبة للاول وخمس مرات بالنسبة للثاني ، كما ازداد انتاج العنصر المحرك الجديد — النفط — بمقدار ست مرات. وتمت خلال الفترة نفسها إضافة ١٤٠ الف كيلو متر آخر الى شبكة الخطوط الحديدية العاملة[١٧] ، وارتفع عدد العمال خلال ثلاثين عاما (١٨٦٩ — ١٨٩٩) بمقدار الضعف ، اذ وصل عددهم قبل نهاية القرن الى ٥ر٥ مليون وارتفع رأس المال المستغل في المجال الصناعي الى ١٢ مليار دولار[١٨] . هكذا لم يحل عام ١٨٩٤ الا وأصبحت الولايات المتحدة الامريكية تحتل المرتبة الاولى في العالم من حيث الانتاج الصناعي فسبقت في ذلك الاقطار الاوروبية قاطبة اذ بلغت قيمة انتاجها الصناعي السنوي حوالي ٥٠٠ر٩ مليون دولار ، اي ضعف قيمة الانتاج في بريطانيا وحوالي ثلاثة اضعافها في المانيا واكثر من ذلك في فرنسا[١٩] .

---

(١٧) مجموعة مؤلفين ، الولايات المتحدة الامريكية ، « الانسكلوبيديا التاريخية السوفيتية » ، الطبعة الاولى ، الجزء الثالث عشر ، ص ٢٥١ .

(١٨) W.Z. Foster, Op. Cit., p. 309

(١٩) Ibid. pp. 309—310.

وفي الوقت نفسه بدأ الانتاج الصناعي الامريكي ، بما في ذلك رأس المال المستغل ذاته ، يتسم بطابع التمركز والاحتكار ، فقبل ان ينتهي القرن التاسع عشر بدأ منتوج المؤسسات الكبيرة والشركات المساهمة يشكل اكثر من ٦٦٪ من مجموع الانتاج الصناعي في البلاد ، ومع بداية القرن العشرين اصبحت ثلاثة ارباع كل الانتاج الصناعي خاضعة لاقل من خمسمائة تريست[٢٠] بلغ مجموع رأسمالها المستغل أكثر من عشرين ألف مليون دولار .

هكذا ظهرت في الولايات المتحدة الامريكية قاعدة رأسمالية واسعة للغاية مع طغمة متحكمة كليا في حياتها الاقتصادية بدأت تفرض سيطرتها السياسية عن طريق حزبين رئيسين هما «الحزب الجمهوري»[٢١] و « الحزب

---

(٢٠) في اعلى مراحل الراسمالية يزداد تمركز راس المال والانتاج ويبدا الاحتكار الذي يقضي على التنافس الحر في المجال الاقتصادي والتبادل التجاري ويظهر نوع جديد من الراسمال يعرف بالراسمال المالي . تنقسم الاحتكارات الراسمالية الى :
١ ـ « كارتيلات » وهي اتفاق بين مؤسسات كبيرة متفرقة يجمع بينها نوع الانتاج . مهمتها تقسيم السوق وتحديد الانتاج وتعيين الاسعار ، ٢ ـ « سنديكات » وهي تنظيمات اقتصادية تستهدف البيع المشترك للبضائع واحيانا الشراء المشترك للمواد الخام بغرض فرض اسعار احتكارية ، ٣ ـ « التريستات » وهي احتكار يجمع بين ملكية جميع المؤسسات المشتركة التي يبدأ اصحابها مثل المساهمين بتسلم ارباح يتناسب مقدارها مع مقدار راسمالهم المستغل في التريست ، واحيانا يجمع تنظيم اقتصادي اوسع عددا من التريستات يعرف بالكونسيرن . تعتبر الولايات المتحدة الامريكية النموذج الامثل للاحتكارات ، ولا سيما للتريستات .

(٢١) تأسس الحزب الجمهوري في عام ١٨٥٤ . ضم في صفوفه في البداية بالاضافة الى راسماليي الولايات الشمالية الشرقية ايضا عددا من ممثلي العمال . وقف ضد استغلال العبيد في البلاد فقام في البداية بدور تقدمي مهم في تاريخ الولايات المتحدة ، ولاسيما خلال سنوات الحرب الاهلية (١٨٦١ـ ١٨٦٥) ، لكنه تحول بعد ذلك بسرعة الى مدافع امين عن الراسمالية الامريكية . بعد انتهاء الحرب الاهلية تسلم الحزب الجمهوري السلطة خلال الاعوام ١٨٦٥ ـ ١٨٨٥ و ١٨٨٩ ـ ١٨٩٣ و ١٨٩٧ ـ ١٩١٣ و ١٩٢١ ـ ١٩٣٣ ، وبعد ذلك انتقلت السلطة اليه تقريبا بالتناوب مع الحزب الديمقراطي .

الديمقراطي »[٢٢] اللذين اصبحا يمثلان منذ اواخر القرن الماضي ، كل باسلوبه ، الرأسمال الاحتكاري الامريكي ومصالحه سواء في الداخل او في الخارج . فبالنسبة للداخل بدأ النظام يتبنى بسرعة سياسة العنف والقمع بحق جميع القوى والحركات التي كان من شأنها اضعاف مواقع الاحتكارات . وتوجد امثلة كثيرة عن ضرب الاضرابات والمظاهرات العمالية في العقود الاخيرة من القرن الماضي نقتصر على ذكر واحد منها لاهميته التاريخية ولاعطاء فكرة عامة عن الموضوع . ففي عام ١٨٨٩ اشترك حوالي ٣٤٠ ألف عامل امريكي في حركة شاملة من اجل تحديد ساعات العمل بثمان فقط . وفي شيكاغو اتخذت الحركة طابع اضرابات عامة امتدت في أيار من نفس العام الى مجالات مختلفة انتهت بشنق عدد من العمال مما ترك صدى عميقا في نفوس العمال بمختلف المناطق فجعلوامن اول ايار رمزا لكفاح الطبقة العاملة في كل انحاء العالم .

وبالنسبة للخارج اتخذ الامر طابعا خاصا به ارتبط تغييره بواقع التطورات الداخلية في البلاد . فمنذ بداية القرن التاسع عشر توجهت انظار الدولة النامية

---

(٢٢) تأسس الحزب الديمقراطي في عام ١٨٢٨ . قبل الحرب الاهلية كان يمثل بالاساس اصحاب الحقول في الجنوب الذين كانوا يعتمدون على العبيد أساسا في الانتاج . انحصرت السلطة بأيدي الديمقراطيين حتى عام ١٨٦١ تقريبا . اثر فشل الديمقراطيين في الحرب الاهلية على سمعة الحزب الى حد كبير فلم يأتوا الى الحكم منذ عام ١٨٦١ وحتى عام ١٩١٣ سوى مرة واحدة وكان ودرو ولسن ثاني ديمقراطي يأتي الى الحكم بعد ذلك التاريخ . تحول الحزب الديمقراطي منذ اواخر القرن الماضي الى احد الممثلين الرئيسين للاحتكارات الراسمالية ولم يبق فرق كبير بينه وبين الحزب الجمهوري لذا برز نجمه من جديد بحيث انتخب مرشحه فرانكلين روزفلت في ثلاث دورات انتخابية متتالية واصبح رئيسا خلال الفترة الممتدة بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٤٥ . بعد الحرب العالمية الثانية احتفظ الحزب بالحكم لفترة طويلة . لا توجد عضوية في الحزب الديمقراطي بل يعتبر جميع المصوتين لمرشحيه اعضاء فيه . من الطريف ان نذكر ان صورة حمار تتوسط الشعار الرسمي للحزب الديمقراطي ويعود تاريخ ذلك الى الحملة الانتخابية لعام ١٨٧٤ عندما كان الرسام الكاريكاتيري توماس ناست يصور الحزب الجمهوري على شكل فيل بينما كان يصور منافسه الديمقراطي على شكل حمار .

ذات الامكانات الاقتصادية الواسعة نحو الخارج • وكان مـــن الطبيعي الا تتعدى الخطوة الاولى حدود المجاور لها من العالم الجديد الذي كان يكفي او يزيد على حاجاتها آنذاك ، فنزلت في سبيلها الميدان باندفاع حتى انها خاضت الحرب ضد قوى أوروبيـــة كبيرة حاولت عرقـلة اندفاعها ، كما لجأت الى استخدام القوة لمد نفوذها الى المناطق القريبة منها ولم تتردد في صرف مبالـــغ طائلة لشراء مقاطعات كانت تخضع للدول الاوروبية مثل لويزيانا والاســـكا واقسام من فلوريدا وغيرها اصبحت تشكل جزءا من كيان الولايات المتحدة الســـــياسي •

ومع تنامي الامكانات الاقتصادية في الداخل بدأ الرأسمال الامريكـــي بالبحث منذ اواسط القرن الماضي عن مجالات جديدة في الخارج ، وقد ازدادت سرعة هذه العملية بشكل متواز مع تراكم رأس المال الامريكي الفائض الذي كان من المحتم ان تتوجه انظاره في مثل تلك المرحلة المبكرة الى جزر البحر الكاريبي والمحيط الهندي ولا سيما الى اقطارامريكا اللاتينية الغنية والقريبة اكثر من غيرها • فبدأ تغلغل التريستات الامريكية اليها يتخذ منذ اوائل العقد الثامن من القرن التاسع عشر طابعا منظما ، وقد ابتدع القيمون عليها في سبيل ضمان ذلك التغلغل وابعاد الدول الرأسمالية الاخرى مـــن المنطقة « مبــدأ مونرو » المعروف[٢٣] وفكرة «الوحدةالامريكية» (Pan-Americanism) [٢٤]

---

(٢٣) « مبدأ مونرو » اعلان عن سياسة الولايات المتحدة الخارجية قدمهالرئيس جيمس مونرو الى الكونكريس في كانون الاول ١٨٢٣ . استهدف في البداية منع الدول الاوروبية من التدخل في شؤون القارتين الامريكيتين حســـب شعار « امريكا للامريكيين » الذي تحول منذ اواخر القرن التاسع عشـــر عمليا الى شعار « امريكا للولايات المتحدة » . استغلت الاوساط الحاكمة الامريكية هذا المبدأ بمفهومه الجديد في سياستهم التوسعية بالنســـبة لامريكا اللاتينية .

(٢٤) مبدأ سياسي استعماري استغله المسؤولون الامريكان في سياستهم تجاه مناطق الجانب الغربي من الكرة الارضية على اساس بدعة وحدة التاريخ والثقافة والقيم الروحية والجغرافية والمصالح الاقتصاديـــة بـــين جميع اقطار الامريكيتين . استغلت الاوساط الحاكمـــة في الولايات المتحدة هذا « المبدأ » اكثر من مرة للتدخل في شؤون اقطار امريكا اللاتينية .

ولم تتردد الولايات المتحدة عن استخدام القوة حيثما تطلب الامر ذلك • ففي عام ١٨٩٣ قامت باحتلال جزر هاواي وبعده بخمس سنوات خاضت الحرب ضد اسبانيا من اجل اعادة تقسيم المستعمرات وهي تعتبر اول حرب استعمارية في التاريخ • ومن الطريف ان نشير هنا الى ان الولايات المتحدة اعلنت هذه الحرب بحجة الدفاع عن استقلال كوبا وجزر الفليبين الخاضعتين للنفوذ الاسباني • الا ان حرب « الاستقلال » هذه انتهت بفرض السيطرة الامريكية على البلدين فأصبحت كوبا تحت حمايتها كما قامت قواتها باحتلال جزر الفليبين بعد ان التزمت بدفع تعويض مالي لاسبانيا مقداره عشرون مليون دولار ، وهو مبلغ ضخم حسب مقاييس زمانه ومع ذلك لم تتردد الولايات المتحدة في الالتزام بدفعه لانها كانت ترى في جزر الفلبين مفتاحا مهما لاسواق شرقي آسيا • واستغل الامريكان الحرب نفسها لفرض سيطرتهم على بورتوريكو ايضا •

من جانب اخر بدأت الاحتكارات الامريكية تفكر في اقرب جزء يمكن التغلغل اليه من العالم القديم ،اي الشرق الاقصى الذي احتل بدوره مكانا بارزا في خطط التوسع الامريكي المبكر • ففي عام ١٨٧١ حاولت الولايات المتحدة اخضاع كوريا عسكريا ، وبعد احدى عشرة سنة من ذلك التاريخ تمكنت من فرض معاهدة جائرة عليها • وقبل انتهاء القرن توجهت انظارها الى اكبر واهم اقطار الشرق الاقصى ، اي الصين ، فابتدعت من اجل اختراق اسواره « مبدأ الباب المفتوح » في عام ١٨٩٩[٢٥] وقد احتوى ــ وهذا مهم في

(٢٥) « الباب المفتوح » مصطلح سياسي أطلقه المسؤلون الامريكان في عام ١٨٩٩ على « مبدأ » جديد جعلوه اساسا للتغلغل الى الصين بما في ذلك مناطق نفوذ الدول الاخرى فيه . فقد طلبت الولايات المتحدة رسميا

اطار بحثنا ــ اعترافا ضمنيا باستعمار الصين وتقسيمه الى مناطق نفوذ مــن جانب الدول الرأسمالية الاخرى •

هكذا دخلت الولايات المتحدة الامريكية منذ اواخر القرن التاسع عشر مرحلة الاحتكار والاستعمار بكامل اسسها وابعادها سواء بالنسبة للداخل او الخارج ، وهي وان تأخرت في ذلك عن عدد قليل من دول اوروبا الغربيـــة (خاصة انكلترا) الا ان امكاناتها اعطتها قوة اكبر منها في هـــذا الميدان فلحقت بها ثـــم سبقتها بسرعة خارقة •

وقد تقوت وتركزت قاعدة النظام الامريكي الجديد مـــع بزوغ القرن العشرين اكثر من السابق • ففي العقود الاولى من هذا القــرن انتقل مركــز الثقل الاقتصادي للعالم الرأسمالي من أوروبا الى الولايات المتحدة التي سبقت وبوتائر سريعة جميع الدول الرأسمالية الاخرى من حيث الانتاج والاستهلاك وتراكم رأس المال الفائض ، والاهم من كل ذلك في تصدير هـــذا الاخير الى الخارج • وهنا نقتصر على ذكر بعض الامثلة القليلة كمؤشرات للحقائــق المذكورة •فقبل الحرب العالمية الاولى مثلا بلغ انتاج الحديد في الــولايات المتحدة ضعف انتاجه في اكبر دولة صناعية اوروبية ، اي بريطانيا[٢٦] • وفي عام ١٩٠٠ بلغ رأس المال الامريكي المستغل في الخارج حوالي ٥٠٠ مليون

من انكلترا و روسيا و المانيا و اليابان و ايطاليا و فرنســا الســماح للمؤســسات الاقتصادية الامريكية بالعمل في مناطق نفوذها الصينية . توسع بالتدريج مفهوم هذا « المبدأ » السياسي فغالبا ما اســتخدمه الامريكان في غاياتهم التوسعية بالنسـبة لمناطق اخرى كثيرة . وقد ازداد ترديد « مبدأ الباب المفتوح » على لسـان المسؤولين الامريكيين بعد الحرب العالمية الاولى في مجال سياسة النفط الدولية ، وتمسك به الرئيس ولسن الى حـــد كبير .

(٢٦) W.Z. Foster, Op. Cit., p. 406

دولار كان نصيب كندا واميركا اللاتينية منها يبلغ حوالي تسعة اعشـــارها بينما ارتفع هذا الرقم خلال فترة وجيزة لـــم تتجاوز اثنتي عشرة ســـنة فقط الى مليار دولار[٢٧] وهو مبلغ ضخم للغاية خاصة اذا اخذنا القوة الشرائية للعملة في بداية القرن العشرين بنظر الاعتبار •

يظهر من الحقائق السابقة ان الولايات المتحدة كانت تشكل قبل اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى اكبر دولة صناعية رأسمالية ذات طاقات هائلـة مع فائض كبير في النقد والانتاج وامكانات واسعة في رفع الاخير الى جانب طموحات غير محددة لايجاد منافذ للاول • وهي من اجل ذلك بالذات نزلت الى ميدان التوسع الخارجي مبتدعة له مبررات مختلفة في صياغات فكريـة شتى • وجميع هذه الامور المتشابكة والمتفاعلة فيما بينها تشكل وحدة متكامدة لا بد من جعلها منطلقا لجميع تحليلاتنا التاريخية وتقييماتنا للحوادث التي مهم تفرقت وبأي ثوب ظهرت تبقى وليدة نظام معين تتحكم فيها وفيه ، سلبا او ايجابا ، قوانين معينة بشكل مطلق ولا مكان لاي شاذ في هذه القاعدة الثابتة • ويشكل التغلغل الامريكي في الشرق الاوسط وجها آخر لهـذه العملة •

بداية التغلغل في الشرق الاوسط :

من اجل اعطاء الموضوع حقه ، وفي سبيل توضيح امور مهمة لها علاقة وثيقة بالجانب المتعلق بالشرق الاوسط في بنود الرئيس ولسن ، بل بمجمل السياسة الامريكية تجاهالمنطقة ، لا بد من تقديم صورة واضحة عـن مـدى واسلوب وسبل وآفاق التغلغل الامريكي فيها • وهو ضروري ايضا لان مـن شأنه القاء اضواء كاشفة على احداث لاحقة جديرة بالاهتمام والتمعن •

يرجع اول توجه امريكي مبكر نحو الشرق الاوسط الى اواخر القرن الثامن عشر عندما بدأت الولايات المتحدة بالتدخل في شؤون اقطار المغـرب العربي بحجة حماية مصالحها التجارية من هجمات القراصنة في حوض البحر

---

(٢٧) Ibid, pp. 311—312

الابيض المتوسط الذي بلغت اهميته بالنسبة للامريكان حدا انهم بدأوا منذ ذلك الوقت يحتفظون باسطول خاص في مياهه[٢٨] .

وقد تعرضت تونس تحت هذه الواجهة الى اعتداءات مباشرة من جانب الولايات المتحدة في العقد الاخير من ذلك القرن ، الا ان مقاومة الشعب التونسي اجبرتها على التراجع بعد توقيع معاهدة خاصة بين الطرفين في آذار من عام ١٧٩٩ تعهدت تونس بموجبها بعدم الاعتداء على السفن الامريكية ولكن مقابل ضريبة تدفع لها . وعندما بدأت الحرب الانكلو ـ امريكية في عام ١٨١٢ عاودت تونس وبدأت الجزائر التصدي للسفن الامريكية ، وحال انتهاء الحرب قامت الولايات المتحدة بارسال سفنهاالحربية الى سواحل افريقيا الشمالية حيث تمكنت بعد انتصارها على السفن الجزائرية من فرض ارادتها على هذه البلاد التي تعهدت بالامتناع عن اخذ الضرائب من سفنها التجارية . وفي هذه المرحلة بالذات توجهت فرنسا القريبة والقوية الى اقطار المغرب العربي فلم يبق مجال امام تغلغل الولايات المتحدة البعيدة والتي لم تكن بعد بحاجة ماسة الى مثل هذه المناطق .

اما بداية التغلغل الحقيقي في الشرق الاوسط نفسه فترتبط بعلاقة الولايات المتحدة بالامبراطورية العثمانية . ويجب عند تقييم المرحلة الاولى من هذا التغلغل اخذ بعض العوامل المهمة بنظر الاعتبار منها عدم الحاجة الملحة للرأسمالية الامريكية بعد الى اسواق الامبراطورية ومنها ايضا قوة تغلغل واطماع الدول الاوروبية الكبرى فيها واخيرا البعد الجغرافي وعدم تطور وسائط النقل بدرجة تقلل من تأثير هذا البعد . لكن مع ذلك ترجع اولى محاولات التغلغل الامريكي في الشرق الاوسط الى بداية القرن الماضي إذ بدأت الولايات المتحدة تفكر منذ ذلك الوقت بحماية مصالحها في المنطقة فأقامت في عام ١٨٢٤ العلاقات الدبلوماسية مع الامبراطورية العثمانية . ولم

---

(٢٨) راجع : ا.ن. خالفين ، بداية التغلغل الامريكي في بلدان بحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي ، باللغة الروسية ، موسكو ١٩٥٧ ، ص٥٠ـ٥٢.

تمر على ذلك سوى ست سنوات عندما عقدت الولايات المتحدة في السابع من مايس عام ١٨٣٠ معاهدة للصداقة والتبادل التجاري مع الامبراطورية العثمانية أصبحت تتمتع بموجب بنودها بنظام الامتيازات في المناطق العثمانية التي اقتصرت حتى هذا التاريخ على الدول الاوروبية الكبرى فقط • لكن لم تسمح الظروف انذاك لكي تتعدى المصالح الامريكية في المنطقة حدود العمل على تطوير العلاقات التجارية والتغلغل الثقافي وحماية المؤسسات الخيرية والتبشيرية فيها • وقد قطعت بالنسبة للاخيرة شوطا بعيد المدى فسبقت في ميدانها جميع الدول الاوروبية تقريبا •

تعود بداية نشاطات المؤسسات التبشيرية والخيرية الامريكية في الامبراطورية العثمانية الى عام ١٨٢٠ • وبسبب المعارضة القوية التي لقيتها من الدول الاوروبية (خاصة من فرنسا وروسيا) غير الراغبة في ظهور منافس جديد لها ، تطورت هذه المؤسسات في البداية ببطء ، ولكن دون انقطاع خاصة وانها اصبحت تمون منذ بداية ظهورها من جانب خزينة الدولة الامريكية[٢٩] كما انها تمتعت بجميع الامتيازات الواردة في معاهدة عام ١٨٣٠ وكانت منظمة بشكل جيد • فقد اشرفت على جميع اعمال التبشير في الشرق جمعية خاصة هي "American Board of Commissioners for foreign mission" التي كان مركزها في بوسطن • كان لدى هذه الجمعية صحافتها ومطبعتها الخاصة وجهاز اداري كفوء • ومنذ أواخر القرن الماضي بدأت مؤسسات التبشير الامريكية بتوسيع نشاطاتها الى حد كبير جدا بحيث انها وصلت جميع اجزاء الامبراطورية العثمانية مع انها ركزت نشاطاتها بشكل خاص بين ابناء الاقليات الدينية • ففي مدينة صغيرة واحدة مثل سيواس في وسط الاناضول افتتح الامريكان ٢٥ مدرسة بلغ عدد تلاميذ واحدة منها فقط حوالي ١٥٠٠ شخص كان معظمهم من الارمن • وتشير الارقام

---

(٢٩) راجع N. Morten, Middle East, New York, 1943, pp. 213—214.

الاحصائية الرسمية لعام ١٩١٤ الى وجود ٦٧٥ مدرسة امريكية في تركيا بلغ عدد طلابها حوالي ٣٥ الف شخص كان يوجد بينهم عدد غير قليل من الاطفال المسلمين الاتراك خاصة والاكراد الى حد اقل[٣٠] . كما كانت تعمل في العاصمة استانبول كلية روبرت الامريكية والكلية الامريكية للبنات . ويمكن قياس مدى نجاح المبشرين الامريكان من خلال سرعة انتشار المذهب البروتستانتي بين الارمن والاثوريين . فلم تمض على وجودهم سوى سنوات قليلة حتى بلغ اتباع المذهب الجديد بين الارمن وحدهم اكثر من مائة الف شخص تتبع لهم ١٩٨ كنيسة خاصة مع ٣٥٦ مدرسة[٣١] . وحقق المبشرون الامريكان بعض النجاح بين الاثوريين ايضا ، حيث اعتنق قسم منهم البروتستانتية نتيجة جهودهم[٣٢] .

حقق المبشرون الامريكيون نجاحات مشهودة في عدد من الاقطار العربية ايضا . فسرعان ما تحولت اول مدرسة بروتستانتية افتتحها المبشر تومسون عام ١٨٣٥ في بيروت الى مركز ثقافي بارز تحول اسمها بعد افتتاح قسم خاص لتدريس الطب فيها (عام ١٨٦٦) الى « الكلية السورية البروتستانتية » التي اصبحت تعرف فيما بعد باسم الجامعة الامريكية في بيروت . وقبل نهاية القرن التاسع عشر بلغ عدد مؤسسات التبشير الامريكية ، بما فيها المدارس ، في سوريا وفلسطين وحدهما اكثر من ٢٠٠ مؤسسة متصلة مباشرة بالهيئات الدبلوماسية الامريكية المنتشرة في المنطقة . وتم ايضا فتح الجامعة الامريكية

---

(٣٠) راجع : مصطفى كمال ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ٩٠ ، ٤٠٥ (قسم الملاحظات) .

(٣١) راجع : الكسندر اداموف ، العراق العربي . ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، باللغة الروسية ، بطرسبورغ ، ١٩١٢ ، ص٢١٩ .

(٣٢) Sir Percy Sykes, A summary of the history of the Assyrians in Iraq 1918-1933, "JRCAS", Vol. XXI, April 1934, p. 258.

للتفصيل اكثر راجع بحثنا باللغة الروسية : « حول المشكلة الاثورية في العراق ١٩١٨ — ١٩٣٣ » ، مجلة اكاديمية علوم اذربيجان السوفيتية « الاخبار » ، العدد ٢ ، ١٩٦٩ ، ص ٣٠ — ٤٠ .

في القاهرة مع مدرسة ثانوية في بغداد كان يطلق عليها بدورها اسم الكلية[٣٣] وتم في عام ١٨٨٩ تأسيس جمعية تبشيرية خاصة في ولاية نيوجرسي باسم « البعثة العربية » (Arabian Mission) التي اثارت حملة دعاية واسعة لخططها الرامية ــ كما ادعت ــ الى نشر تعاليم المسيح « بين سكان شبه الجزيرة العربية المتوحشين »(!) • وفي عام ١٨٩٠ قام ممثلان عن الجمعية بزيارة مناطق ساحلية مختلفة من شبه الجزيرة واخيرا قر رأيهما على جعل البصرة مقرا للبعثة ، وتم بالفعل في السنة التالية تأسيس مركز « البعثة العربية » فيها ، كما تمت اقامة فرع لها في البحرين في عام ١٨٩٣ وآخر في العمارة في عام ١٨٩٤ • وقد وضعت البعثة نصب عينيها مهمة ايجاد قاعدة لها بين مسلمي المنطقة لذا التجأ القيمون عليها ، كما يقول عنهم القنصل الروسي في البصرة انذاك الكسندر اداموف ، الى « جميع السبل المجربة من اجل ضمان النجاح لانفسهم بين المسلمين »[٣٤] • وهو نفسه يضع الخدمات الصحية المجانية التي بدأت البعثة بتقديمها في مقدمة وسائل التماس المباشر بالمسلمين • فقد انضم طبيب امريكي الى البعثة منذ عام ١٨٩٢ ، وبعد اربع سنوات من ذلك التاريخ وصلت المدينة طبيبة امريكية اصبحت « الدعاية للبروتستانتية بين النساء المسلمات » واجبها الاول[٣٥] •وعملت البعثة ايضا على نشر أحسن ترجمة عربية للانجيل تمت في عام ١٨٦٥ بين المسلمين في ولاية البصرة وفي مناطق الجزيرة العربية • وحسب احصائيات البعثة نفسها ارتفع طلب المسلمين على الكتاب المقدس من ٦٢٠ نسخة في عام ١٨٩٢ الى ٢٤٦٤ في عام ١٨٩٩ • ومن الجدير بالذكر ان البعثة زاولت نشاطا تبشيريا واسعا امتد

---

(٣٣) راجع : « سياسة الولايات المتحدة الامريكية في المشرق العربي » ، باللغة الروسية ، موسكو ١٩٦٠ ، ص ٦ ؛

G. Lenczowski, Op. Cit., P. 259

افتتح الامريكان في الوقت نفسه مدرسة مشابهة لثانوية بغداد في طهران .

(٣٤) الكسندر اداموف ، المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ٢١٩ .

الى ارياف الولاية والمناطق المجاورة . ومع ان النتائج الدينية لنشاطات البعثة بين الاوساط المسلمة اقتصرت عمليا على كسب عدد قليل جدا من الزنوج ، الا ان نتائجها الاخرى لم تكن قليلة بشكل عام . ومن المفيد ان نشير الى ان س. زويمر (S. Zwemer) الذي كان واحدا من ابرز اعضاء « البعثة العربية » اصدر كتابا باسم « شبه الجزيرة — مهد الاسلام » (Arabia the Cradle of Islam) فيه معلومات طريفة عن نشاطات البعثة واساليب عملها . وقد نجح المبشرون الامريكان في تحويل ٤٪ من ارمن بغداد الى البروتستانتية خلال فترة قصيرة من نشاطهم[٣٦] .

قدرت مؤسسات التبشير الامريكية موقعها في البلاد بشكل واقعي لذا كانت تعمل بدقة وحذر في المجالات ذات الصلة بالتغلغل السياسي وحتى الاقتصادي لبلادها فانها — والحق يقال — لم تبلغ تدخلاتها ، ولم تستطع بعد ان تبلغ ما بلغته مؤسسات التبشير الفرنسية مثلا . وقد ادى هذا الامر الى خلق انطباع طيب بين الاوساط المثقفة في الامبراطورية والتي صاغت من خلاله بشكل غير واقعي نظرتها السياسية الى الولايات المتحدة في سنوات الحرب العالمية الاولى وبعدها بشكل خاص .

لكن ذلك لا يعني ابدا ان السلطات الامريكية لم تحاول استغلال وجود مثل تلك الشبكة الواسعة من مؤسسات تبشير بلادها في صالح تغلغلها بالنسبة لمناطق الشرقين الادنى والاوسط . فأكثر من مرة دخلت السفن الحربية الامريكية سواحل الامبراطورية العثمانية بحجة حماية ارواح المبشرين الامريكان حتى ان واحدة منها وصلت في عام ١٩٠٠ العاصمة استانبول وكانت بقيادة الادميرال كولبي جيستر (Colby M. Chester) الذي جاء للحصول على التعويض عن الخسائر التي سببتها المذابح الارمنية لبعض المبشرين الامريكان ، وقد وفق في مهمته اذ وافقت حكومة السلطان على دفع تعويض للمبشرين الامريكان مقداره ٩٥ الف دولار . وفي الوقت نفسه اعار

---

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ٢١٩ .

المسؤولون الامريكان مسألة تشغيل خريجي مؤسساتهم الثقافية اهتماما غير قليل وصل احيانا حد استخدام الضغط السياسي كما فعلوا في حالة الدورات الاولى من خريجي الفرع الطبي في الجامعة الامريكية ببيروت .

على اي حال فقد حقق الامريكيون تغلغلا ثقافيا مرموقا في مناطق الشرق الاوسط قبل الحرب العالمية الاولى وترك الامر فيما بعد آثارا عميقة على التطور السياسي وحتى الفكري في المنطقة وهو ما نستعرض بعض جوانبه فيما بعد .

شهدت مرحلة ما قبل الحرب الاولى ايضا بداية التغلغل الاقتصادي الامريكي في بلدان الشرق الاوسط التي جاءت بطيئة نتيجة سيطرة عدد من الدول الاوروبية على أسواقها وبسبب بعد تلك الاسواق وضعف القوة الشرائية فيها خاصة وان الدولة العثمانية نفسها كانت تئن تحت وطأة قروض الدول الاجنبية المتراكمة عليها . مع ذلك دشنت بدايات التغلغل الاقتصادي الامريكي في المنطقة منذ اواخر القرن الماضي وقطع (التغلغل) شوطا في بداية القرن الحالي خاصة لانه تمتع بموجب معاهدة عام ١٨٣٠ بجميع الحقوق التي منحها نظام الامتيازات من اعفاءات كمركية وتجارة حرة . فقد بلغت قيمة الصادرات الامريكية الى تركيا في عام ١٩١٠ – ١٩١١ حوالي ٥٧٠ ألف ليرة تركية ارتفعت في السنة التالية الى حوالي ٨٨٧ الف ليرة . اما صادرات تركيا الى الولايات المتحدة خلال الفترة نفسها فانها بلغت بالتوالي حوالي مليون و مائة الف ليرة وحوالي مليون وثلاثمائة وخمسين ألف ليرة ، اي ان الميزان التجاري كان في صالح تركيا . وحسب النسبة المئوية كانت واردات تركيا من الولايات المتحدة تشكل ٥ر١٪ من مجموع وارداتها ، أما صادراتها فكانت تشكل نسبة لا بأس بها بلغت ٦ر٤٪ من مجموع صادراتها الى الخارج[٣٧] .

وقبل الحرب العالمية الاولى وجدت بعض المؤسسات الرأسمالية الامريكية مواقع اقدام لها في الحياة الاقتصادية للامبراطورية العثمانية منها

(٣٧) راجع : مصطفى كمال اتاتورك ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ٣٦٦ – ٣٦٧ .

شركة « ستاندرد اويل » التي كان لها مركز ادارة ومخازن لحفظ النفط في العاصمة استانبول وكانت تقدم خدماتها في الاناضول واليونان وبلغاريا ، كما كان لفرعها شركة « فاكوم اويل » مركز في القاهرة مع فرع في سوريا . وكانت شركة التبغ الامريكية تمتلك لها فروعا في سالونيك وسامسون وازمير وغيرها ، وقدبلغ تغلغلها حد انها اسست حقولا خاصة بها في مناطق مختلفة ودخلت ميدان شراء التبوغ من فلاحي تركيا فاصبحت تنافس في ذلك « شركة ريجي » الفرنسية المعروفة . واستطاعت شركة ماك اندروس لتصدير عرق السوس تحقيق نجاحات كبيرة وصلت حد احتكار تصدير هذا المنتوج كليا واصبحت لها فروع عاملة في كل من بغداد وحلب ودمشق وازمير وانطاكيا كما كانت تمتلك معامل ومعاصر خاصة بها في مناطق مختلفة . وقبل الحرب ايضا كانت تقوم شركة امريكية للملاحة بتنظيم النقل بين سواحل تركيا والعالم الجديد واخرى بين الاولى واليونان ، وفتح احد البنوك الامريكية فرعا له في استانبول . لكن مع ذلك لم تبلغ العلاقاتالاقتصادية بين الطرفين مرحلة تصدير رؤوس الاموال الامريكية الى اي جزء من الامبراطورية العثمانية الواسعة ، ويقدر مجموع اقيام مؤسساتها الاقتصادية فيها قبل نهاية الحرب الاولى بحوالي عشرة ملايين دولار فقط[٣٨] .

جرت في بداية القرن العشرين محاولات امريكية مهمة اخرى للتغلغل في اقتصاديات الامبراطورية العثمانية ارتبطت بتوجه انظار الشركات الامريكية ، شأنها شأن الشركات الغربية الاخرى ، الى ينابيع النفط ، ولا سيما في ولاية الموصل التي تمكن الجيولوجيون تحديد مكامنها قبل الحرب العالمية الاولى بفترة قصيرة . فعندما اثير عام ١٩٠٨ في البرلمان العثماني موضوع مد خط حديدي يمر عبر الاناضول ويصل كركوك مارا بالموصل حاولت شركة وايت الامريكية "J.G. White and Company" اخذ مهمة تنفيذ المشروع على

---

(٣٨) راجع : الدكتور محمود حسن صالح منسي ، تصريح بالفور ، دار الفكر العربي ، بلا ، ص ٢٠٦ – ٢٠٧ .

عاتقها[٣٩] • وسرعان ما وصل الادميرال جيستر استانبول وقد كان يتمتع ، كما يقول المؤلف الامريكي شارل هاملتن ، بمساندة غرفة تجارة نيويورك ولجنة تجارة الدولة في نيويورك وشخص الرئيس تيودور روزفلت وسكرتير الدولة روت (E. Root) [٤٠] • وبعد مرور حوالي عام واحد على المفاوضـــات والاتصالات على مختلف الاصعدة توصل المندوب الامريكي الى عقد اتفاق مع تركيا منح الامريكان امتيازا يقضي ببناء ميناء وثلاثة خطوط حديدية مـع حق التنقيب عن المعادن لمسافة عشرين كيلو مترا على جانبي الخطوط الثلاثة • وقد وقع الاتفاق عن الجانب التركي وزير الاشـغال العامـة في ٩ مارت من عام ١٩١٠ • وفي سبيل نقل مضمون الامتياز الى حيز التنفيذ الف جيستر « شركة الانماء العثمانية ــ الامريكية» (Ottoman American Development Company) [٤١] • الا ان الحرب التركية الايطالية وحرب البلقان واخيرا الحرب العالمية الاولى الى جانب مقاومة الالمان والفرنسيين حالت دون تنفيذ المشروع الذي دشن على اي حال بداية اهتمام الامريكان المباشر بنفط المنطقة وقد تحول فيما بعد ــ كما سنرى ــ الى سابقة حاول المسؤولون الامريكيون استغلالها في سياستهم النفطية تجاه الشرق الاوسط •

ولكن بالرغم من كل ذلك يبدو واضحا ان الرأسمال الامريكي كان بشكل عام اقل اهتماما من الرأسمال الاوروبي بالامبراطورية العثمانية قبل الحـرب العالمية الاولى • وبحكم هذا الواقع مع حقيقة قوة موقع الدول الاوروبيـة الكبرى في الامبراطورية والبعد الجغرافي الذي كانت لها اهميته الخاصة بالنسبة لظروف وسائط النقل انذاك لم تصبح الولايات المتحدة الامريكية طـرفا في

---

(٣٩) راجـــع :
L.J. Gordon, American relations with Turkey 1830—1930. An economic interpretation, Philadelphia, 1932, p. 258.

(٤٠) Ch. W. Hamilton, Americans and Oil in the Middle East, Houston, 1962., pp. 81—82.

(٤١) Idid, p. 82

الصراع الاوروبي المحتدم حول تركة « الرجل المريض » الذي تحول الى واحد من أهم عوامل اندلاع الحرب وأفضى الى مساومات دولية « انتهت » بعقد معاهدات واتفاقات سرية من قبيل « سايكس ـ بيكو » وغيرها اقتصرت على الاطراف الاوروبية المتنازعة .

مع ذلك يمكن القول بانه تم قبل الحرب وضع حجر اساس صلد للتغلغل الامريكي المقبل واصبح صاحب البنود الاربعة عشر الرئيس ولسن واحدا من رواد تطويره .

الرئيس ولسن :

من اجل فهم اعمق لجميع الجوانب المتعلقة بالبنود الاربعة عشر الذائعة الصيت لابد من اعطاء فكرة عامة عن حياة وعهد واتجاهات صاحبها الفكرية .

ينتمي توماس ودرو ولسن (Thomas Woodrow Wilson) (١٨٥٦ ــ ١٩٢٤) الى عائلة متمكنة من ولاية فيرجينيا . انهى جامعة برينستون في عام ١٨٧٩ وبعد سبع سنوات من ذلك التاريخ حصل على درجة الدكتوراه ودخل الحياة العلمية من خلال دراسته القانون والتاريخ والفلسفة التي اهلته ، مع تدريسه الجامعي ، للحصول على لقب البروفسور ، ثم أصبح منذ عام ١٩٠٢ وعلى مدى ثمان سنوات رئيسا لجامعة برينستون . انه صاحب مؤلفات عديدة في التاريخ والسياسة منها « حكومة الكونكريس . دراسة في السياسة الامريكية » (١٨٨٥) "Congressional government. A study in American Politics"

و « الدولة . عناصر السياسة التاريخية والعلمية » (١٨٨٩) "The state. Elements of historical and practical political"

و « تاريخ الشعب الامريكي » في عشرة مجلدات (١٩١٨) "A history of the American People" وموءلفات اخرى ترجم معظمها الى عدد من اللغات العالمية .

ظهرت الاتجاهات التي كانت تتوافق كليا مع مصالـــح الاحتكارات الامريكية في أفكار ولسن قبل تسنمه كرسي الرئاسة بفترة طويلة . ففي عام ١٩٠٢ ، اي عندما كان ولسن لا يزال يمتهن التدريس الجامعي وقبل ان يبرز فوق المسرح السياسي بما لا يقل عن عقد كامل طالب بكل صراحة بان تأخذ بلاده على عاتقها قيادة وحكم العالم باسره . فذكر انذاك بالحرف الواحد : « ان الولايات المتحدة بلغت مرحلة النضوج المتكامل وقد ولت ايام عزلتنا من غير رجعة ... امامنا يفتتح عهد جديد وعلى ما يبدو فان علينا وحدنا من الان قيادة العالم »[٤٢] . وقد وردت آراء مشابهة في مؤلفاته التي لا تخلو حتى من بعض الاتجاهات العنصرية[٤٣] .

ان ولسن الى جانب انتمائه الطبقي وثقافته العالية ونظرته المتوافقة مع مصالح الاحتكارات الامريكية كان في الوقت نفسه نشيطا الى حـد كبير ، خطيبا لامعا ، سلس الكلام ، ذا شخصية جالبة للنظر ، كما عرف بطيبة القلب كانسان وبالاباء الى حد التطرف[٤٤] . لكنه كان في الوقت نفسه طموحـا ، حديا في تصرفاته ،قاسيا في التعبير تجاه منافسيه ،ثابتا على رأيه الى حد التعنت المتزمت ، حتى انه أبعد في اواخر حكمهاقرب واقدر مستشـــاريه وصديقـه الشخصي الكولونيل ادوارد هاوس (House) لمجرد اقتراحه اتباع سياسة اللين مع الجمهوريين في الكونكريس[٤٥] . انه « كان رجلا يستطيع ان يهشم

---

(٤٢) مقتبس من : ن . ن . ياكوفليف ، التاريخ المعاصر للـــولايات المتحـدة الامريكية ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩٦١ ، ص ٢٨ .

(٤٣) خاصة في مؤلفه الضخم « تاريخ الشعب الامريكي » .

(٤٤) حتى ان لويد جورج يدخل ذلك ضمن الاسباب الرئيسة لفشل سياسته.

(٤٥) لم يعط ولسن مستشاريه مجال البروز الذاتي ، فكانوا بمثابـــة مجرد موظفين صغار لديه ويستثنى من ذلك الى حد ما الكولونيل هاوس الذي فهم بعمق نفســـية رئيسه فظل يتصرف تماما حسبما يهوى ويرغب .

ويحطم » و « لا يستطيع ان ينحني او ينثني »[٤٦] وهو امر مرفوض في عالم السياسة المليء بالمناورات والمساومات والتراجعات التي تكون احيانا حتمية في سبيل انقاذ شيء اعظم واهم • ومما يلاحظ عنه انه كان في مجال السياسة الخارجية يقول اكثر بكثير مما كان يفعل او ما كان في مستطاعه ان يفعل في الواقع • واحيانا كان يفعل ما لا يقول ويقول ما لا يفعل • وقد عبر عن ذلك رئيس الوزارة البريطانية لويد جورج باسلوبه الخاص قائلا عنه « انه آمن الى اقصى حد بقوة الكلمة ، ولكن ليس بمستطاع الالماس وحده قطع الزجاج ، اذ لا بد بعد التأشير الضغط بما فيه الكفاية لقطعه »[٤٧] •

استطاع ولسن جلب الانظار الى شخصيته في الداخل بسرعة وبعد ان تسنم الحكم اصبح واحدا من ابرز شخصيات عصره وواحدا من ابرز رؤساء الولايات المتحدة ، ولا تزال اوساط مختلفة تتداول على نطاق واسع اسمه مع افكاره واعماله • وكما يقول عنه نفس لويد جورج الذي لم يكن مرتاحا من سياسته « ان الشخص الذي اثار مثل هذه العاصفة من الاهتمام سواء في حياته او بعد مماته كان حتما شخصية كبيرة وقوية »[٤٨] •

ومن الضروري ان نشير هنا الى ان الكثيرين يخلطون الاتجاه السياسي العام لولسن كرئيس لاكبر دولة رأسمالية مع بعض صفاته الشخصية التي ربما ادت دورا ما في تقرير بعض الامور ، لكن دون ان تؤثر مطلقا على حقيقة كونه ممثلا لمصالح اكبر الاحتكارات والتريستات العالمية التي تسنم بفضلها كرسي الرئاسة في نظام اجتماعي محدد لم يشكل ولم يستطع ان يشكل هو او غيره هيكل كيانه وان ظل يجلس فوق قمته لفترة زمنية معينة •

---

(٤٦) ا • ج • جرانت وهارولد تمبرلي ، اوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين (١٧٨٩ — ١٩٥٠) ، الجزء الثاني ،ترجمة محمد علي ابي درة ولويس اسكندر ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٦٠ •

(٤٧) David Lloyd George, The truth about Peace Treaties, Vol I, London, 1938, p. 228.

(٤٨) Ibid, Vol. I, p. 227.

ثم ان هؤلاء عندما يحيطون صفات ولسن الشخصية بمثل تلك الهالة في تقييمهم لسياسته العامة انما يتجاهلون الى حد واضح طموحه الكبير الذي لم يعرف حدودا وجعله يتجاهل احيانا ابسط قواعد العلائق الاجتماعية والدبلوماسية وبلغ به الامر درجة انه في اواخر ايام حياته ظل يصارع الجمهوريين والموت في آن واحد وبنفس القوة مما استدعى انتقاد العديد من ساسة عهده(٤٩) .

على اي حال فقد تفاعلت هذه الحقيقة الاخيرة مع صفات ولسن العامة فجعلته أحسن شخص في نظر الحزب الديمقراطي لتبوىء منصب رئاسة الولايات المتحدة كممثل له . وكانت الخطوة الاولى في هذا السبيل هي انتخابه في عام ١٩١٠ لاشغال منصب حاكم ولاية نيوجرسي . وبعد ذلك بسنتين فاز في انتخاب الرئاسة ، وقد اعتبر ذلك نصرا سياسيا كبيرا للحزب الديمقراطي الذي لم يفز في انتخابات الرئاسة منذ عام ١٨٦٠ سوى مرة واحدة . وفي الواقع لم يوجد اختلاف كبير في مضمون البرنامج الانتخابي للحزبين المتنافسين الديمقراطي والجمهوري وان كان ولسن اطلق على برنامجه اسم « الحرية الجديدة » (The New Freedom) بينما اطلق عليه منافسه اسم « القومية الجديدة » (The New Nationalism)(٥٠) . وجاء الانشقاق في الحزب الجمهوري مع الوعود الكثيرة حول الاصلاحات ضمن العوامل التي مهدت لانتصار ولسن .

---

(٤٩) انتقده في ذلك رئيس الوزارة الفرنسية كليمنصو ولويد جورج وآخرون. في آخر لقاء للويد جورج به تهجم بشكل قاس للغاية على خلفه الرئيس الامريكي الجديد علما انه كان طريح الفراش ، بحالة خطرة استوجبت تحذيرات كثيرة من جانب الاطباء بعدم الانفعال .
(Lloyd George, The truth... , Vol. I, pp. 231—232, 241).

(٥٠) H.G. Nicholas, The American Union. A short popular history of the U.S.A., Pelican Books (G. Britain), 1950. p. 238.

بعد تسنم منصب الرئاسة اجرى ولسن بعض الاصلاحات العامة التي اصبحت الحاجة اليها ملحة منذ عهد غير قريب . فأصدر في بداية حكمه مجموعة من التشريعات الجديدة التي كان من شأن بعضها التخفيف الى حد ما عن كاهل الفئات الكادحة مثل تثبيت ثمان ساعات عمل في مؤسسات السكك ورفع ضريبة الدخل بنسبة تصاعدية . ولكن لم يتوان ، من جانب آخر ، عن ضرب اي تحرك جماهيري يستهدف اضعاف مواقع الاحتكار في الداخل ، فقمعت حكومته الحركة والتنظيمات العمالية بقسوة ، وضربت قيادة « الحزب الاشتراكي » الذي اصبح مؤسسه ومرشحه لانتخابات الرئاسة ديبس (Debs) من ضحايا عهد ولسن الذي حكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات .

اما في الحقل الخارجي فقد اثبت الرئيس ولسن انه يمثل مصالح الاحتكارات الامريكية بكل جدارة واخلاص وذلك بتمسكه في هذا المجال باكثر تقاليد اسلافه فاعلية مضيفا اليها تجارب غنية جديدة اهمها اطلاقا كانت بنوده الاربعة عشر صياغة ودعاية وتطبيقا .

بالطبع ظهرت آثار سياسة ولسن الخارجية وفي ثوبها الحقيقي على مناطق امريكا اللاتينية القريبة قبل غيرها ، فلم يتحمل الرئيس الجديد ادنى موقف منها تشم منه رائحة الاستقلال والتحرك الذاتي . فبمجرد ان اتخذ رئيس الدولة المكسيكية الجديد اويرتا ، الذي جاء الى السلطة في عام ١٩١٣ بفضل مساندة السفير الامريكي ، سياسة التقرب من شركات البترول البريطانية اصبح في قائمة المغضوب عليهم في البيت الابيض واعلن الرئيس ولسن بكل غرور وبروح بعيدة عن كل مجاملة دبلوماسية « انني سوف اعلم الجمهوريات الواقعة الى جنوبي امريكا كيف عليهم ان ينتخبوا اناسا جديرين » . ولم يكتف بذلك بل طلب بكل صراحة من الرئيس المكسيكي ان يستقيل « والا تضطر الولايات المتحدة الى ابعاده بالالتجاء الى وسائل اقل سلمية »[٥١] . وبالفعل « بر » الرئيس « بوعده » فقامت القوات الامريكية بخرق فظيع لسيادة الجارة

(٥١) مقتبس من W. Foster, Op. Cit., p. 433.

الجنوبية باحتلالها مدينة وميناء فيراكروس في نيسان من عام ١٩١٤ . وفي تموز من السنة نفسها اضطر الرئيس المكسيكي الى ترك منصبه . وبعد ذلك تكرر في عهد ولسن تدخل القوات الامريكية في المكسيك وظهر حتى التلميح والايحاء بضمها الى الولايات المتحدة[٥٢] ، الا ان مقاومة الشعب المكسيكي عرقلت تنفيذ مثل هذه السياسة ووضعت نهاية للتدخل العسكري الامريكي في عهد الرئيس ولسن نفسه .

وفي عهده ايضا قامت القوات الامريكية (صيف عام ١٩١٥) بغزو جزيرة هايتي ، وقد استمر الاحتلال الامريكي لها حوالي خمس عشرة سنة بعد انتهاء حكمه . وقامت ايضا باحتلال جمهورية الدومنيكان خلال الفترة الممتدة بين عامي ١٩١٦ و ١٩٢٤ وذلك بذريعة انفجار إنتفاضة شعبية معادية للنفوذ الامريكي فيها . واجبرت حكومة ولسن الدانمارك بالتنازل لها في عام ١٩١٦ عن ما كان يسمى بالهند الغربية الدانماركية . ولا نرى داعيا لايراد امثلة تثبت حقيقة ان الولايات المتحدة اتبعت في هذه الاقطار وغيرها سياسة استعمارية واضحة لم تختلف في شيء عن سياسة بريطانيا في مستعمراتها مما ادى الى حدوث حركات وانتفاضات واضرابات ومظاهرات مختلفة كانت جميعها موجهة ضد السيطرة السياسية والاقتصادية الامريكية .

ومن جانب آخر تابعت حكومة الولايات المتحدة في عهد ودرو ولسن نفس سياسة اسلافه تجاه مناطق الشرق الاقصى ، وبشكل خاص نحو الصين التي حاولت فرض سيادتها المطلقة عليها ولا سيما عن طريق زحزحة النفوذ الياباني هناك والالتجاء في سبيل ذلك الى ما عرف بـ « دبلوماسية الدولار » التي اصبحت جزءا مهما من السياسة الخارجية الامريكية منذ العشرينات ، وهي ، كما جاء وصفها على لسان المسؤولين الامريكان « سياسة تبديل الرصاص بالدولار ... انها محاولة صريحة لتوسيع التجارة الامريكية ، وهي بلا ريب تعني ان على حكومة الولايات المتحدة الامريكية ابداء جميع

---

(٥٢) Ibid, pp. 433—434.

المساعدات الممكنة لكل المؤسسات الشرعية والمفيدة التابعة للامريكيين في الخارج »[٥٣] .

لم تكن سياسة الولايات المتحدة التوسعية في عهد الرئيس ولسن قليلة النتائج وهي بالذات جعلت اعوانه يعتقدون كليا بارائه حول حتمية « انتقال مصير العالم » الى ايديهم[٥٤] . الا ان تلك السياسة اثارت في الوقت نفسه حفيظة الدول الاوروبية الكبرى ، وعلى رأسها انكلترا الى اقصى حد بحيث ان علاقات الطرفين قد توترت ـ لا سيما بعد الحرب العالمية الاولى ـ الى حد شبهه الكولونيل هاوس بالعلاقات التي كانت تسود بين المانيا وانكلترا قبيل الحرب[٥٥] . وقد ساهمت سياسة ولسن الاوروبية ، التي شكلت بنوده الاربعة عشر ايضا ذروتها ، في تعميق شقة الخلاف بين بلاده والاقطار الاوروبية الى حد كبيـر .

ان سياسة ولسن الاوروبية كانت مكرسة بالاساس للعمل من اجل التغلغل الى اقتصاديات ومستعمرات الدول الاوروبية الكبرى التي لم يبق لها الحق ـ من وجهة نظر حكام الولايات المتحدة ـ الا ان تتبوأ المركز الثاني بل التابع في السياسة الدولية . وقد بذل الرئيس ولسن جهودا كبيرة في سبيل تحقيق ذلك ، وجاءت بنوده ـ كما سنرى ـ اصدق تعبير عن تلك السياسة التي اخذت بنظر الاعتبار طاقات الدول الاوروبية وبشكل خاص ابعاد سياستها ودبلوماسيتها التي كان « ميزان القوى » يشكل ركيزتها الاساسية ، وقد اطلق عليها ولسن اسما معبرا هو « اللعبة الكبرى »[٥٦] التي ظهـرت

---

(٥٣) مقتبس من : ن.ن. ياكوفليف ، المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٥٤) راجـع :

R. Palme Dutt, Britains crisis of Empire, London, 1950, pp. 40—42

(٥٥) ن.ن. ياكوفليف ، المصدر السابق ، ص ٧٨-٧٩ .

(٥٦) أ.ج. جرانت وهارولد تمبرلي ، المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٢٦٣ .

آثارها واضحة على سياسته وتصريحاته ايضا ، وهي ما عبرت عن نفسها بجلاء كبير في سنوات الحرب العالمية الاولى •

كانت الحرب الاولى ـ كما هو معروف ـ اول حرب استعمارية عالمية من اجل اعادة تقسيم مناطق النفوذ ، وقد حاولت الدول الكبرى قاطبة استغلال ظروف الحرب ، كل حسب اسلوبها وقناعاتها ، لضمان اكبر المكاسب لنفسها على حساب الاخرين • حتى ان ايطاليا اعتبرت الحرب الدائرة ـ وكما كانت في الواقع ـ سوقا يمكن الدخول اليها من اوسع ابواب التعامل التجاري الحربي وتحديد الموقف على ضوء الربح النهائي المتوقع • فانها قامت لهذا الغرض بالذات بالاتصال في وقت واحد بالجبهتين المتحاربتين وتفاوضت على مدى اشهر طويلة معهما لتحديد مسألة مكتسباتها من اشتراكها الى جانب اي منهما • وكما يعترف لويد جورج « كان لدى الحلفاء امكانات عرض شروط افضل فقررت الحكومة الايطالية ربط مصيرها بهم »(٥٧) • ولم يختلف موقف الدول الاخرى عن ذلك بكثير واقتصر الخلاف ، ان وجد ، على الشكل دون المضمون كما كان عليه الامر بالنسبة للولايات المتحدة •

كان من الطبيعي جدا الا تبقى الولايات المتحدة الامريكية بعيدة عن مسرح احداث الحرب العالمية الاولى ، فاتخذت حيالها سياسة في غاية الذكاء بحيث اصبحت في نهاية الامر هي الوحيدة التي حققت اكبر المكاسب باقل الخسائر • ففي بداية الحرب اتخذت موقف الحياد لاسباب متشابكة منها عدم استعدادها التام عسكريا للخوض في غمار حرب واسعة لم يشهد لها التاريخ مثيلا • ثم ان الاوساط الحاكمة فيها اعتقدت ـ وقد اصابت في ذلك ـ امكانية تطوير صناعة البلاد وتجارتها على حساب الاطراف المتحاربة بوتائر تمهد لها السبيل للسيطرة على اقتصاديات العالم • كما انها كانت ترى من مصلحتها ـ واصابت في ذلك ايضا ـ ان يدب الوهن عسكريا واقتصاديا في كيانات الانظمة الاوروبية التي كان بامكانها الوقوف امام التوسع الامريكي السياسي والاقتصادي •

---

(٥٧) Lloyd George, The truth... , Vol. I, p. 27.

جعلت هذه العوامل مجتمعة من حكومة الرئيس ولسن « نصيرة » للسلم بالاسلوب الذي كان من شأنه تحقيق الاغراض الحقيقية للعوامل المذكورة . وقد وصل الامر بالرئيس انه اعلن في خطابه الذي القاه يوم ١٠ مايس عام ١٩١٦ باسلوب مرفوض في عالم السياسة ان الولايات المتحدة « ارفع بكثير من ان تشترك في الحرب »[٥٨] .

انطلاقا من الدوافع السياسية نفسها كانت حكومة ولسن ضد الانتصار الكامل لاي من الجانبين المتحاربين ، وظلت تعمل في هذا الاتجاه حتى اشهر قليلة قبل دخولها الحرب[٥٩] . وفي مرحلة معينة ــ خاصة بعد ان حققت المانيا بعض الانتصارات الكبيرة ــ حاول الرئيس ولسن ان يقوم بدور الوسيط لاقرار السلم بين الطرفين والذي اطلق عليه الاسم المعبر عن واقعه : « سلم بدون انتصار » (Peace without victory) ، وهو ما اختاره ايضا عنوانا لخطابه الشهير الذي ألقاه أمام الكونكريس في كانون الثاني من عام ١٩١٧ . اما الترجمة الواقعية لهذا الشعار فكانت خروج اقوى دول اوروبا من الحرب منهوكة ، ضعيفة ، مستسلمة عمليا للدولة الرأسمالية الاقوى التي حققت ــ كما سنرى ــ مكاسب ضخمة للغاية جراء موقفها « المحايد ». وبالطبع لم يكن من الصعب على ساسة مجربين من امثال كليمنصو ولويد جورج ادراك كنه هذه السياسة بسهولة فجاء ردهم على لسان الاخير بان بلدانهم سوف تستمر في الحرب بجميع طاقاتها «الى ان تحقق سلما حقيقيا»[٦٠]

---

(٥٨) كما يذكر لويد جورج ان اسلوب ولسن في ذلك الخطاب جرح شعور الانكليز الى درجة اثرت على استقبالهم له اثناء زيارته الى لندن بعد انتهاء الحرب
(Lloyd Geogre, The truth.. , Vol. I, pp. 179—180).

(٥٩) راجع :
G.F. Kennan, American Diplomacy 1900—1950, seventh printing, New York, 1959, pp. 59—60.

(٦٠) "War memories of David Lloyd George", Vol. II, London, 1933, PP. 851-852, 891, Vol. III, London, 1934, pp. 1104, 1111-1116.

مما اثاررد فعل قوي للغاية لدى الرئيس الامريكي • وهنا يجدر بنا ان نشير الى ان معظم الافكارالتي وردت في خطب وكلمات ولسن حول « السلم بدون انتصار » وجدت طريقها بشكل واضح الى العديد من بنوده الاربعة عشر[٦١] •

ومن جانب آخر ارتبط تاكيد الرئيس ولسن المستمر على قضية السلم بمسألة انتخابات الرئاسة الجديدة في تشرين الثاني من عام ١٩١٦ • فبالرغم من ان قطاعا واسعا ومؤثرا من الاحتكارات الامريكية كان يشجع بحماس تأييد الولايات المتحدة للحلفاء في الحرب ، ومع ان الرأي العام الامريكي كان يتعاطف مع الحلفاء اكثر من المانيا العسكرية المتغطرسة ، الا ان الشعب الامريكي ككل كان يميل الى سيادة سلم حقيقي مما أعاره الرئيس ولسن وأعوانه أهمية كبيرة في نشاطهم الانتخابي بحيث أصبح شعار « انه (أي ولسن) يجعلنا بعيدين عن الحرب » واحدا من أبرز الشعارات الانتخابية للحزب الديمقراطي[٦٢] الذي فاز مرشحه على مرشح الجمهوريين باغلبية ضئيلة جدا اتته من كاليفورنيا •

لكن الاهم من كل ذلك هو ان الاحتكارات الامريكية حققت مكاسب كبيرة للغاية من سياسة « الحياد » التي اتبعتها الولايات المتحدة في السنوات الاولى من الحرب • فحاولت استغلال ظروف الحرب ، خاصة حاجة الدول المتحاربة الملحة الى السلاح والسلع ، الى الحد الاقصى الممكن ، فلم تمانع الاتجار على نطاق واسع باحدث الاسلحة الفتاكة مع الخندقين المتقابلين • واذا جاءت لوحة تجارتها الخارجية في صالح الحلفاء اكثر من دول الوسط فان ذلك يعود بالاساس الى سيطرة الاسطول البريطاني المحكمة على البحار التي كانت تشكل حلقة وصل التبادل الوحيدة مع امريكاآنذاك • وهكذا فتحت اسواق دول اوروبا الغربية بالدرجة الاولى والاسواق العالمية بالدرجة الثانية واسواق دول الوسط الى حد ما ابوابها امام المنتوجات الامريكية المتباينة

---

(٦١) Ibid, Vol. III, pp. 1116, 1655—1656.

(٦٢) H.G. Nicholas, Op. Cit., p. 239

على مصراعيها بعد ان حولت جميع الدول الرأسمالية الاخرى تقريبا مصانعها الى الانتاج الحربي مما ادى الى تضاعف الانتاج الصناعي الامريكي بوتائر مذهلة وبدأت المصانع الامريكية تنتج بطاقتها القصوى بعد ان كانت تنتج حتى بداية الحرب في حدود نصف طاقتها الاجمالية تقريبا . وتحولت الولايات المتحدة في الوقت نفسه الى المصدر الرئيس لتمويل عدد كبير من الدول المتحاربة بالقروض بعد ان كانت هي نفسها تلتجيء قبل الحرب الى الديون الاجنبية . وكان من الطبيعي جدا ان تحقق الاحتكارات الامريكية في ظل هذه الظروف ارباحا وصلت حد الخيال تتطرق الى تفاصيلها فيما بعد .

الا ان حكومة ولسن غيرت بالرغم من كل ذلك وبشكل مفاجيء موقفها من الحرب واصبحت طرفا مباشرا فيها اثر اعلانها الحرب ضد المانيا في ٦ نيسان ١٩١٧ ثم ضد النمسا في كانون الاول من العام نفسه . وبالطبع تضافرت مجموعة عوامل حاسمة وراء مثل هذا التغيير الخطير في الموقف . فقبل كل شيء ربط الاتجار الواسع خلال حوالي ثلاث سنوات من « الحياد » مع القروض الضخمة للغاية مصالح الاحتكارات الامريكية اكثر فاكثر بجبهة الحلفاء الى درجة اصبح انهيارها يهدد مجمل الحياة الاقتصادية للولايات المتحدة في الصميم . لذا اصبح لزاما عليها التمسك بالاتجاه الذي يحول دون انتصار دول الوسط ، وبالفعل ظهرت في الافق بعض المؤشرات لمثل ذلك الانتصار بعد بعض النجاحات الكبيرة التي حققتها القوات الالمانية في جبهات القتال الغربية التي ادخلت الرعب في نفوس الحلفاء الى درجة ان القوات الانكليزية بدأت تفكر بالانسحاب من تلك الجبهة، وباشر المسؤولون الفرنسيون باتخاذ اجراءات لنقل العاصمة من باريس . وقد ادت الانتصارات نفسها الى تزايد غرور المانيا الى درجة انها ارتكبت اخطاء سياسية كبيرة تجاه الولايات المتحدة التي اصبحت تتوقع في وقت ما اعلان المانيا الحرب عليها ايضا . وفعلا دفع بها ذلك الغرور مع استيائها الشديد من التعاون الاقتصادي بين الحلفاء والولايات المتحدة الى اعلان حرب غواصات مدمرة امتدت اثارها الى المصالح الامريكية بشكل مباشر ففي ٢٤ مارت من عام ١٩١٦ اغرقت الغواصات الالمانية سفينة

ركاب امريكية في عرض المحيط [٦٢أ] مما دفع بالرئيس الامريكي الى ارسال مذكرة احتجاج الى المانيا هددها فيها بقطع العلاقات الدبلوماسية في حالة استمرار حرب الغواصات « باسلوب غير شرعي » (!) . ومع ان المانيا تعهدت بان تقتصر هجماتها على الدول المعادية وبالتمسك بالتعهدات الدولية « اثناء ضرب السفن التجارية » (!) الا انها لم تعر التهديد الامريكي اهتماما يذكر واستمرت على اعمالها العدوانية دون ادنى تمسك بالمواثيق الدولية . من هنا اصبح اندحار الحلفاء امرا واردا واقترب الخطر من القارة الامريكية مما كان له وقع كبير على موقف الولايات المتحدة . وقد لخص مستشار الرئيس ولسن الكولونيل هاوس تأثيرات هذه الامور بكل صراحة عندما ذكر ان « الولايات المتحدة لا تستطيع تبني موقف من شأنه ان يؤدي الى اندحار الحلفاء ويفسح المجال لالمانيا ان تقيم هيمنتها العسكرية على العالم . وبالطبع سنصبح نحن (في هذه الحالة) الهدف التالي للاعتداء ويتحول « مبدأ مونرو » انذاك الى اقل من قصاصة ورق »[٦٣] .

اثارت مواقف المانيا الرأي العام الامريكي ضدها ودفعت بالاحتكارات الامريكية الى الاصرار على اتخاذ اجراءات رادعة بحقها لانها احست بأن الخطر المباشر بدأ يهدد مليارات الدولارات التي اقرضتها لدول الحلفاء . اذ لم تقتصر الديون الامريكية لها على الدولة ، بل انها شملت ايضا البيوت المالية

(٦٢ أ) قبل ذلك قامت الغواصات الالمانية في ٧ آيار ١٩١٥ باغراق سفينة « لويزيانا » بالقرب من السواحل البريطانية وكان على متنها حوالي ١٢٠٠ مسافر منهم ١٢٣ مواطنا امريكيا . وفي ١٩ آب من العام نفسه اغرق الالمان سفينة تجارية انكليزية اخرى « ارابيك » كان على متنها كذلك عدد من المسافرين الامريكان .

(٦٣) مقتبس من : « تاريخ الدبلوماسية » ، باللغة الروسية ، الجزء الثاني ، موسكو ، ١٩٤٥ ، ص ٢٩٧ .

ضخمةوعلى رأسها مجموعة مورغان المعروفة[٦٤] . فاستغلت الصحافة ، ولاسيما بتحريك منها ، حرب الغواصات الالمانية لشن حملة دعاية واسعة النطاق ضد دول الوسط . وبالطبع لم يكن في وسع الرئيس ولسن ، حتى وان اراد جدلاً ، العمل باتجاه معاكس للتيار العارم الجديد الذي حركه الحزب الجمهوري المعارض وشخص رئيسه روزفلت الميال منذ البداية الى الحلفاء[٦٥] .

وهنا تجدر الاشارة الى ان الولايات المتحدة الامريكية لم تعلن الحرب حتى النهاية ضد الدولة العثمانية ولم تقطع معها حتى العلاقات الدبلوماسية

---

(٦٤) من اكبر واوسع المؤسسات الاحتكارية الامريكية ، ظهرت في النصف الاول من القرن التاسع عشر واستغلت ظروف الحرب الاهلية لتوسيع نشاطاتها الصناعية والتجارية . تحولت قبل الحرب العالمية الاولى الى احد اكبر التريستات العالمية وذلك بسيطرتها على مرافق حيوية من الاقتصاد الامريكي . ففي عام ١٩٠٢ مثلا كانت تسيطر على ما لا يقل عن ٩٠ الف كيلو متر من الخطوط الحديدية في الولايات المتحدة وبلغ مجموع راسمالها المتداول في عام ١٩١٢ اكثر من عشرة مليارات دولار . ساهمت الحرب في مضاعفة امكاناتها المالية الخارقة خاصة وانها تحولت خلال سنواتها الاربع الى اهم مصدر لتزويد انكلترا وفرنسا بالسلاح والمال ، لذا وقفت بحماس الى جانب الحلفاء ضد المانيا وقامت بدور كبير في الحملة الدعائية ضد الاخيرة ولا سيما بفضل سيطرتها على جانب كبير من وسائل الدعاية الامريكية (الاذاعات والصحف ودور السينما وغيرها) . وهي تسيطر في الوقت الحاضر على مجموعة مهمةمن التريستات منها «جنرال موتورس» الذي يعتبر اكبر تريست في مجال صناعة السيارات وفي شركات الطاقة والصناعات الحربية والسكك والبنوك وغيرها ، وتعدت نشاطاتها حدود الولايات المتحدة منذ زمن بعيد . اعطت هذه الامكانات المالية مجموعة مورغان موقعا ممتازا في الميدان السياسي الامريكي بحيث انها شكلت قوة محركة اساسية لعدد من المشاريع الاستعمارية الامريكية من قبيل « مشروع مارشال » و « الامن المتبادل » ، وهي الوحيدة التي تستطيع منافسة جماعة روكفلر في الميدانين السياسي والاقتصادي بنجاح .

(٦٥) راجع :
"War memories of D. Lloyd George" Vol. II, pp. 619-629.

ولم تمس هي من جانبها أيا من المصالح والمؤسسات الامريكية[٦٥أ] القائمة في البلاد . فقد كانت حكومة ولسن تقدر جيدا معنى انتقال المبادرة العسكرية والسياسية في جميع ميادين الشرق الحربية الى الانكليز والفرنسيين وبان قواتها لن تدخل ساحات الشرق الاوسط لذا فانها لم ترغب في ان تجازف بسمعتها الطيبة في اجزاء الامبراطورية العثمانية في سبيل لا شيء . وهي حققت من وراء موقفها هذا مكاسب سياسية ظهرت آثارها بعد انتهاء الحرب وبشكل خاص في نظرة الاوساط السياسية الشرقية نحو الولايات المتحدة .

حققت الولايات المتحدة الامريكية خلال الفترة ١٩١٤ ــ ١٩١٨ ارباحا على حساب الحرب الدائرة لم يعرفها التاريخ من قبل . ففي الوقت الذي قدرت اضرار الحرب بالنسبة لجميع البلدان بحوالي ٣٣٨ مليار دولار[٦٦] بلغت صافي ارباح الاحتكارات الامريكية خلال الفترة نفسها اكثر من ٢٧ مليار دولار بالاضافة الى ١٤ مليار دولار اخرى هي مجموع المبالغ التي استقرضتها منها الدول الاوروبية بلغت فوائدها السنوية فقط حوالي ٥٠٠ مليون دولار . وتظهر المعاني الكبيرة للرقم الاخير بوضوح اذا علمنا ان الولايات المتحدة كانت هي التي تدفع قبل الحرب ٢٠٠ مليون دولار سنويا كفوائد عن المبالغ التي استقرضتها من الدول الاوروبية . وقبل ان نأتي على ذكر النتائج الاقتصادية الاخرى التي ترتبت عن هذه الارباح الهائلة من المفيد ان نشير هنا الى حقيقة ان حكومة الرئيس ولسن حققت بسياستها هذه الارباح لقاء خسائر بشرية تشكل نسبة ضئيلة للغاية بالمقارنة مع الاهوال التي جلبتها مآسي الحرب

(٦٥ أ) الحكومة العثمانية هي التي قطعت العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة وذلك تحت ضغط الالمان . الا ان الامر لم يتعد حدود الشكليات ، حتى ان واردات تركيا من البضائع الامريكية ارتفعت بمقدار ثلاث مرات ونصف المرة في عام ١٩١٧ وبمقدار سبع مرات في عام ١٩١٨ بالقياس مع عام ١٩١٦ (للتفصيل راجع : ف.ي. شبيلكوفا ، السياسة الاستعمارية للولايات المتحدة الامريكية في تركيا ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩٦٠ ، ص ٣٨ــ٤٤) .

(٦٦) W. Z. Foster, Op. Cit., p. 497

للدول الرأسمالية الاوروبية • والارقام التالية تبين هذا الامر بشكل واضح :
تشير الاحصاءات الرسمية الى ان الحرب العالمية الاولى ادت الى مقتل اكثر من ٨ر٥ مليون شخص شكل الجنود الامريكان منهم نسبة تبلغ حوالي ٢٪ وسببت في جرح اكثر من ٢١ مليون شخص بلغت نسبة الامريكان بينهم اقل من ١٪ ، وهي ارقام لم تستطع التأثير على قوى الانتاج العاملة في الولايات المتحدة كما حدث بالنسبة للدول الاوروبية • فبلغت ضحايا فرنسا مثلا اكثر من مليون وثلاثمائة الف قتيل واكثر من ثلاثة ملايين وسبعمائة الف جريح ، بمعنى ان ٥٠٪ من الشباب الفرنسي الذين كانوا دون الثلاثين من عمرهم لم يرجعوا من ميادين القتال ، اما خسائرها المادية فقد بلغت ٨ مليار دولار • وفي الوقت الذي لم تصل طلقة واحدة الى اقرب قرية امريكية من الساحل نجد ان اكثر من اربعة الاف قرية فرنسية سويت مع الارض • وفي الوقت الذي كانت الاحتكارات الامريكية منهمكة بتوسيع صناعاتها القائمة وبناء اخرى جديدة تم تدمير ٢٠ الف مصنع ومعمل فرنسي • وقد بلغ عدد القتلى من الانكليز حوالي ٩٠٠ الف شخص والجرحى منهم بلغ مليوني شخص[٦٨] •

وبالطبع ادت المكاسب الكبيرة التي حققتها الولايات المتحدة من الحرب العالمية الاولى الى حدوث تطور هائل في حياتها الاقتصادية ، وقبل كل شيء في الحقلين الصناعي والمالي ، اي في المجال الذي كان حكرا على حفنة من كبار الرأسماليين • فكما تشير الاحصاءات الامريكية الرسمية نفسها ازدادت الثروة القومية في الولايات المتحدة من ١٩٢ مليار دولار في العام ١٩١٤ الى ٤٨٩ ملياراً في عام ١٩٢٠ ، أي بمقدار مرتين ونصف المرة • وتضاعف الرأسمال الامريكي المستغل في الخارج خلال نفس الفترة تقريبا بان ارتفع من ٥ر٣ مليار دولار في عام ١٩١٤ الى ٧ مليارات في عام ١٩١٩ • وهكذا زادت الهوة

---

(٦٧) Ibid, p. 497 واذا اخذنا بارقام رئيس الوزارة البريطانية لويد جورج فان نسبة القتلى الامريكان تنخفض بدورها الى ١٪ فقط .
(Lloyd George, The truth... , Vol. I, p. 87)

(٦٨) راجع Lloyd George, The truth... , Vol. I, pp. 86—87

بين الرأسمالية الامريكية ونظيرتها الاوروبية واقتربت سيادة الاولى من حد الاطلاق • ففي عام ٩١٢٠ بلغ عدد سكان الولايات المتحدة ٦٪ فقط من مجموع سكان العالم بينما بلغ انتاج السيارات فيها ٨٥٪ من مجموع الانتاج العالمي والنفط ٦٦٪ والنحاس ٦٠٪ والفحم ٥٢٪ والصلب ٤٠٪ • وبينما ازدادت طاقة الانتاج الامريكي خلال سنوات قليلة بمقدار ٧٠٪ انخفضت طاقة الانتاج في اكبر دولة رأسمالية اوروبية ، اي في انكلترا ، بمقدار ١٪ • وفي عام ١٩٣٨ بلغ انتاج الولايات المتحدة لوحدها أكثر من انتاج جميع الدول الاوروبية مجتمعة(٦٩) •

اذن فقد حدث تغير كبير في تناسب القوى على المسرح العالمي • وفي نظر الاحتكارات الامريكية اصبحت الحاجة ملحة لايجاد منافذ جديدة لهذا الرأسمال الهائل المتراكم في شكل نقد سائل او سلع مصنعة ، وقد بدأت تفكر وتخطط من اجل السيادة العالمية ولم يكن بالامكان ابدا ان ترضى بان تكون لديها من المستعمرات ما مساحتها ٣ر٠ مليون كيلو متر مربع بينما تسيطر الرأسمالية الفرنسية على ٦ر١٠ مليون كم٢ والانكليزية تسيطر على مساحة تزيد عن مستعمراتها هي بحوالي مائة واحدى عشرة مرة (٥ر٣٣ مليون كم٢)(٧٠) ومن خلال هذا الواقع الثابت فقط يجب تقييم كل اجراء سياسي امريكي • وقد حدد الرئيس ولسن بنفسه هذه الحقيقة قبل الاعلان عن بنوده الاربعة عشر بفترة غير قصيرة حينما اكد لمواطنيه الامريكان بأن « عصرنا هو عصر

(٦٩) راجع : ن.ن. ياكوفليف ، المصدر السابق ، ص ٧ـ٨ ؛
W.Z. Foster, Op. Cit., p. 503

(٧٠) كان من الطبيعي ان تكون لدول اوروبا الغربية ، وعلى راسها انكلترا ، التي بلغت مرحلة الاستعمار قبل الولايات المتحدة ، مستعمرات اوسع بكثير منها . ففي عام ١٩١٤ بلغت مساحة المستعمرات البريطانية ـ كما اسلفنا ـ ٥ر٣٣ مليون كم٢ والروسية ٤ر١٧ مليون كم٢ والفرنسية ٦ر١٠ مليون كم٢ والالمانية ٩ر٢ مليون كم٢ والامريكية ٣ر٠ مليون كم٢ فقط (راجع : لينين ، المؤلفات الكاملة ، باللغة الروسية ، الجزء السابع والعشرون ، ص ٣٧٧) .

التحولات الكبيرة ... هل تفهمون انتم معنى حقيقة واحدة فقط : خلال السنة او السنتين الاخيرتين توقفنا عن ان نكون مديونين واصبحنا دائنين ولدينا فائض من الذهب العالمي اكثر من اي وقت مضى ... علينا تمويل العالم بشكل جدي ، وان من يعطي المال عليه ان يفهم العالم ويقوده »[٧١] . ولكن تبقى صيغة ذلك « الفهم » التي لم يشر اليها ، فانها اما ان تكون على شكل تدخل مسلح كما حدث مرارا خلال سنوات حكمه في اقطار امريكا اللاتينية حيث الظروف كانت تسمح باللجوء الى مثل ذلك الاجراء ، او تكون على شكل اربعة عشر بندا تستهدف ضمن قضايا اخرى وبواسطتها ايجاد مواقع اقدام في مناطق كانت لا تزال خاضعة لرأسماليات أخرى ، وكانت الى ذلك « حارة » الى حد الفوران .

البنود الاربعة عشر :

هذه هي الخلفية الحقيقية لبنود الرئيس ولسن الاربعة عشر الذائعة الصيت التي أعلن عنها أمام الكونكريس في ٨ كانون الثاني من عام ١٩١٨[٧٢] واتبعها بأربعة ثم خمسة بنود توضيحية[٧٣] . والى جانب الخلفية الاساسية للبنود والتي أشرنا الى أبعادها تفاعلت جملة عوامل متلازمة اخرى نابعة من ظروف الحرب واحداثها في خلق وصياغة البنود الاربعة عشر بطابعها الذي ظهرت به امام الرأي العام العالمي . نحاول ، قبل ان نأتي على تحليل

---

(٧١) S. Nearing and J. Freeman, Dollar Diplomacy, New York, 1925, p. 273.

(مقتبس من :ن.ن. ياكوفليف ، المصدر السابق ، ص ٥٨) .

(٧٢) نص البنود الاربعة عشر ، راجع :

"A history of the Peace Conference of Paris", Edited by H.W.V. Temperley, Vol. I, Oxford, 1969, pp. 192-194, 433; C.E. Black and E.C. Helmreich, Twentieth Century Europe, New York, 1950, pp. 839—840.

(٧٣) نص البنود الاربعة والخمسة ، راجع :

C.E. Black and E.C. Helmerich, Op. Cit., pp. 840-841

البنود ، تقديم فكرة عامة عنها لانها تساعد بدورها في فهم بعض أبعادها الكامنة •

وضع الرئيس ولسن بطبيعة الحال الرأي العام الامريكي ضمن اعتباراته الاساسية مدفوعا بدافعين متناقضين الى حد ما • فقد اراد اولا بعث الاطمئنان الكلي في نفوس اصحاب النفوذ من الاحتكاريين الامريكان حول خططه ومشاريعه البعيدة المدى بالنسبة لمستقبل مصالحهم على الصعيد العالمي • ثم ان الرئيس ولسن الذي ادعى أن بلاده « أرفع بكثير من ان تشترك في الحرب » والذي حول قضية السلم الى الشعار الانتخابي الاساس لحزبه واعلن مرات عديدة عن عزمه في اقرار السلام بين الاطراف الاوروبية المتحاربة اذا به يعلن فجأة وبالحماس نفسه عن دخول بلاده في الحرب الدائرة • فكان لا بد له من تقديم حجج مقنعة بشأن هذا التبدل المتناقض جدا في الموقف الى الرأي العام الامريكي الذي كان يميل للسلم فعلا ، فتضمنت البنود الاربعة عشر تفسيرا جذابا في ظاهره لاقناع الرأي العام وبالذات في وقت كانت البلاد مقبلة على انتخابات جديدة[٧٤] • وقد جاء التعبير الاول عن هذا الامر من خلال الجمل والتعابير الرنانة التي تضمنها بيانه الاول عن اعلان الحرب الذي ورد فيه « ••• ليست لنا اي نية طامعة ولا نرغب في فتح ما ، ولا في السيطرة على احد ، ولا نطلب اي تعويض مادي عن التضحيات التي سنقدمها مختارين ••• ما نحن الا من ابطال حقوق الانسانية نبذل في سبيلها اموالنا ودماءنا وارواحنا بكل فخار ، وعلى الله اتكالنا ليساعدنا في تأييد مبادىء الحق والعدل والمساواة بين الجميع »[٧٥] • ولم يكن الرئيس الامريكي وحيدا

---

(٧٤) اشار لويد جورج في مذكراته الى ان تمسك الرئيس ولسن بالسلم قبل دخول الولايات المتحدة الحرب كان ايضا بدوافع ذاتية لان البلاد كانت مقبلة في بداية الحرب على انتخابات جديدة
("War memories of D. Lloyd George", Vol. II, p. 851)

(٧٥) مقتبس من : يوسف ابراهيم يزبك ، النفط مستعبد الشعوب ، الجزء الاول ، بيروت ، ١٩٣٤ ، ص ٢ •

في ذلك ، بل ان مسؤولي الدول الحليفة الاخرى احتاجوا كذلك الى تقديم مبررات مشابهة لشعوب بلدانهم حتى تقتنع بما قدمت وما يطلب منها ان تقدم من ضحايا مادية وبشرية مروعة لم ير لها التاريخ شبيها ولا سيما بعد ان وصل التذمر في صفوف الجنود حد اعلان التمرد من جانب بعض القطعات الفرنسية • وان خطاب لويد جورج المعروف في بداية عام ١٩١٨ والذي سنأتي على تفاصيله ، انما كان يستهدف بالاساس هذا الامر وحتى انه القاه امام النقابات العمالية بمناسبة الدعوة الجديدة للتجنيد في الجيش •

ولعبت الاغراض الدعائية ومحاولة التأثير على الوضع النفسي لشعوب بلدان الجبهة المعادية وجذب الشعوب الاخرى دوراً أساسياً في اصدار التصريحات المتكررة وعلى رأسها بيانات الرئيس الامريكي • وتوجد اعترافات مسؤولة صريحة للغاية حول هذا الدافع بالذات • فيقول رئيس الوزارة البريطانية لويد جورج الذي كان واحدا من ابرز من كانوا يقودون دفة الحرب العلنية والخفية ما نصه : « وجد ان بالامكان نسف قدرات العدو عن طريق استغلال تذمر الامم الخاضعة له • فمئات السنين من النير جعلت تعايش العرب تحت حكم الترك مستحيلا » ، فحرك الحلفاء مثل هذه الامم متعهدين بـ « منحها الاستقلال لقاء ذلك »[٧٦] • وقد اوضح لويد جورج الشيء نفسه بشكل اشمل في مذكراته عندما اعترف بأن « دعاية الجانبين في هذه الحرب (يقصد الحرب العالمية الاولى) لعبت دورا أكبر من اي وقتمضى • وعلى سبيل المثال استطيع على الاقل ايراد التصريحات العلنية للحلفاء عن نواياهم حول تحرير الشعوب المضطهدة الرازحة تحت سيطرة الامبراطوريات المعادية تركيا والمانيا والنمسا ومنحها حق تقرير المصير • كانت هذه التصريحات تستهدف اعطاء انطباع معين لا في بلدان الحلفاء فحسب بل وكذلك في البلدان المحايدة وبصورة خاصة في معسكر العدو ••• اننا كنا

---

(٧٦) Lloyd George, The truth... , Vol. II, London, 1938, p. 755

نعلم ان الاعلان عن التحرير كواحد من اهدافنا الحربية يساعد على تصديع وحدة البلدان المعادية ، ونحن لم نخطيء في ذلك »(٢٧) •

وبالفعل فان طبيعة الحرب العالمية الاولى وظروفها الحساسة استدعت الاهتمام بمسألة الدعاية باسلوب جديد وواسع للغاية • وبامكان بعض الامثلة القريبة من واقعنا اعطاء فكرة جلية حول حرب الدعاية التي رافقت حرب الدمار في سنوات ١٩١٤ ــ ١٩١٨ • ففي الوقت الذي كان العثمانيون يغضون الطرف عن كل ما يتعلق بحليفتهم الاوروبية المانيا ، في الوقت نفسه كانوا يثيرون عواطف بسطاء الناس بشتى السبل ضد « كفار » اوروبا بحيث اعتبر الاف الشرقيين التضحية من اجل وقف « الزحف الصليبي الجديد » واجبا مقدسا ، وباسم الجهاد لا غيره توجهت جحافل عرب العراق وكرده نحو الشعيبة لوقف تقدم الجيش البريطاني • وبالمقابل دخل الجنرال مود على رأس قواته الغازية « عاصمة العباسيين » في ١١ آذار ١٩١٧ « محررا لا فاتحا » مما استدعى اقامة نصب تذكاري « لمأثرته الانسانية » على حساب العراقيين في قلب العاصمة التي « حررها » •

لم يكتف المحتلون البريطانيون في العراق بذلك بل بدأوا منذ ان وطأت اقدامهم البصرة باصدار صحف خاصة تقوم بالدعاية للحلفاء وتنشر الحقد بين الناس باسلوب ذكي ضد الالمان وبشكل خاص ضد الاتراك • فان من يتصفح جريدتهم « العرب » التي زينوا صدرها منذ عددها الاول الصادر في ٤ تموز ١٩١٧ بشعار دعائي هو انها « عربية المبدأ والغرض ينشئها في بغداد عرب للعرب » ، او يقرأ جريدتهم الكردية التي اختاروا لها اسما معبرا عما كانوا يبتغون من اصدارها منذ الاول من كانون الثاني عام ١٩١٨ ــ « تيگەيشتنی راستی » أي (فهم الحقيقة) يرى مدى الاهتمام البالغ الذي اولاه الحلفاء لمسألة الدعاية بين الشعوب • ففي العراق مثلا حولوها الى وسيلة فعالة لقطع خط الرجعة على الاتراك والحط من سمعتهم باسلوب يؤدي الى « التخلص من

Ibid, Vol. II, p. 1118

شرهم » بحيث لا يعود العراقيون يسمعون « بأسمهم الشنيع » وذلك في سبيل ان « تحيا حكومة بريطانيا العادلة » و « يهلك الاتراك الظالمون » لانهم « قلبوا النعيم بؤسا ، والسعادة شقاء ، والخصب جدبا ، والعمران خرابا »[٧٨] .

واثارت الصحافة ذاتها ضجة كبيرة حول تصريحات ووعود الحلفاء بما فيها بنود الرئيس ولسن . فقد نشرت جريدة « العرب » نبذة عنها وذكرت من بين ما ذكرت انهاتستهدف « تلبية نداء الشعوب المستعمرة والاذعان لرغباتها ومطاليبها »[٧٩] ، لكنها مع ذلك أخفت الجزء المتعلق بشعوب الامبراطورية العثمانية في البند الثاني عشر ، وحتى بعد طلب القراء لم تنشر سوى الجزء الخاص منه بمضائق البسفور والدردنيل[٨٠] . والى جانب ذلك حاولت تصوير البنود الاربعة عشر بمثابة تقليد لخطاب لويد جورج[٨١] الذي القاه قبل اعلان الرئيس الامريكي عن بنوده بثلاثة ايام . وقد اثارت « العرب » و « تيگه‌يشتنى راستى » حملة دعاية واسعة حول « الخطاب السياسي العظيم » الذي جاء بمثابة « القول الفصل » و « الخطبة الغراء التي أصاب (لويد جورج) بها شاكلة السداد وكشف القناع عن حقائق الامور ، فتجاوبت بذكرها محافل السياسة ، واهتزت لها أرجاء الارض » لذا اقسمت « العرب » بأنها « خير ما قال قائل في هذه الحرب العوان ... »[٨٢] . ومن الطريف ان نذكر هنا ان الجريدتين نشرتا كل ما يتعلق ببلجيكا وبولندا ورومانيا وغيرها

---

(٧٨) راجع : « العرب » ، بغداد ، ١٢ و ١٧ كانون الثاني ١٩١٨ ؛ « تيكه‌يشتنى راستى » (فهم الحقيقة) ، بغداد ، ٥ و ١٢ و ٢٦ كانون الثاني و ٥ و١٩ شباط ١٩١٨ .

(٧٩) « العرب » ، ٣١ كانون الثاني ١٩١٨ .

(٨٠) « العرب » ، ٧ شباط ١٩١٨ .

(٨١) « العرب » ، ١٢ و ١٩ كانون الثاني ١٩١٨ ؛ « تيكه‌يشتنى راستى » ، ١٥ و ١٩ و ٢٢ كانون الثاني ١٩١٨ .

(٨٢) « العرب » ، ١٩ كانون الثاني ١٩١٨ .

من البلدان والشعوب التي وردت اسماؤها في خطاب لويد جورج بينما لم تذكرا كلمة واحدة عما جاء فيه حول سوريا والعراق وبلدان المنطقة الاخرى ٠

لا ينكر ان تصريحات الحلفاء ، وبشكل خاص بنود الرئيس ولسن ؛ حققت الشيء الكثير من اهدافها الدعائية ٠ فقد وجدت صدى غير قليل بين الشعب الالماني[٨٣] الذي سئم بدوره ظروف الحرب القاسية ٠ ولم يستطع مسؤولو دول الوسط تجاهل بنود الرئيس الامريكي فجاء ردهم بعد اسبوعين على لسان مستشار المانيا ووزير خارجية النمسا حيث اعلنا عن امكانية التوصل الى اتفاق بالنسبة لعدد من البنود « دون صعوبات » ولم يعارضا تشكيل عصبة الامم ٠ اما فيما يتعلق بمسألة المستعمرات التي عالجها البند الخامس من بنود ولسن فأنهما اعلنا عن امكانية نقاشها على ضوء اعادة النظر في وضع المستعمرات مما اعتبراه ــ وهذا مهم بحد ذاته ــ ضمن « المطالب المطلقة » لبلديهما ، والطريف انهما طالبا بريطانيا بالموافقة على مقترحات الرئيس ولسن الواردة في ذلك البند ٠ ولم ينس الالمان ان يؤكدوا في تعليقهم بهذا الصدد على مساندتهم الفعالة « للحليفة القوية ، الشجاعة ، المخلصة تركيا »[٨٤]٠

يبقى دافع مهم آخر حرك الحلفاء لاطلاق تصريحاتهم المعروفة في السنة الاخيرة من الحرب وهو ما يتعلق بتأثيرات ثورة اكتوبر الاشتراكية وبيانات ومواقف قادتها العملية حول حق الشعوب في تقرير مصيرها ٠ ان احد المؤشرات المهمة بهذا الصدد هو ان تصريحات الحلفاء تزايدت عددا وتعمقت ــ اذا جاز القول ــ مضمونا بعد انتصار تلك الثورة بالذات ٠ وقد اعترف لويد جورج في مذكراته عن معاهدات السلم بهذه الحقيقة قائلا : « عند النظر الى التصريحات المختلفة المنشورة اثناء الحرب حول مسألة التحرر القومي يكون من الاجحاف السكوت عن الدور الذي لعبته البلشفية في هذا

---

(٨٣) راجع : H.G. Nicholas, Op. Cit., p. 243

(٨٤) F.L. Benns, Europe since 1914, fifth edition, New York, 1945, pp. 100—101.

المجال »[٨٥] ، ويورد دليلا على قوله البنود الستة التي اقترحها الجانب السوفيتي على الجانب الالماني خلال مفاوضات الصلح بينهما في كانون الاول من عام ١٩١٧ والتي نصت على رفض الالحاق الالزامي لاي منطقة تم احتلالها خلال الحرب واعادة السيادة لجميع الشعوب والمقاطعات التي فقدتها جراء الحرب واقرار حق تقرير المصير للشعوب والجماعات التي تتمتع بالاستقلال السياسي وتقرير مصير المستعمرات في ضوء ذلك •

وقد اشار اقرب اعوان الرئيس ولسن الكولونيل هاوس في تعليقه على بنوده الاربعة عشر الى الحقيقة نفسها حين قال : « قام البلاشفة بالتفاوض حول سلم منفصل واصبح من المتعذر عدم نشر بيان مبرر كرد على مطاليبهم وذلك لتوضيح سبب استمرار الحرب •• وكان من المهم كذلك ، ان امكن ، دفع الحكومات الحليفة الى الاعتراف بمبادىء الاتفاقية والذي كان من شأنه تبرير ضحايا الحرب ومساندة حماس الاوساط الليبرالية والعمالية البريطانية والفرنسية»[٨٦] • والاهم من ذلك هو ان الرئيس ولسن قد حدد بنفسه احد اهم الدوافع الكامنة وراء بنوده الاربعة عشر عندما ذكر « ان سم البلشفية وجد امامه مثل هذا المجال الواسع للانتشار فقط لانه يشكل احتجاجا ضد الانظمة المسيرة للعالم • والان جاء دورنا نحن ، فيجب علينا التمسك بنظام جديد في مؤتمر السلم بالحسنى ان امكن والا ــ اذا دعت الحاجة ــ فبالقوة »[٨٧] •

هذه مجتمعة كانت تشكل الدوافع الاساسية لتصريحات مسؤولي الحلفاء المتكررة خلال سنوات الحرب • ومن الضروري ان نشير هنا الى ان التأكيد على « تحرير الشعوب » و « ضمان حق تقرير المصير » و « الدفاع عن

---

(٨٥) Lloyd George, Thetruth..., Vol. II, pp. 759-760.

(٨٦) مقتبس من : « ارشيف الكولونيل هاوس » ، الترجمة الروسية ، الجزء الثالث ، موسكو ، ١٩٣٩ ، ص ٢٢٣ •

(٨٧) مقتبس من : « تاريخ الدبلوماسية » ، الجزء الثاني ، ص ٣٦٧ •

الحق المسلوب » و « حماية القانون والحق الدوليين » وما شابه لم يقتصر على الرئيس ولسن بل سبقه في ذلك مسؤولو الدول الاوروبية المتحاربة الذين عرضوا ايضا بضاعتهم في تعابير ادبية للغاية . ففي اول تصريح عن اهداف الحرب جاء على لسان رئيس الوزارة البريطانية اللورد اسكويث (Asquith) في ٢٥ ايلول ١٩١٤ ، أي بعد اعلان الحرب مباشرة ، وفي ٩ تشرين الثاني من العام نفسه ان « السيف الذي لم نقدم على اشهاره مباشرة لن نرجعه الى غمده الا بعد ان تسترجع بلجيكا كل بل اكثر مما فقدت ... » وان « لبلجيكا وهولندا وسويسرا والبلدان الاسكندنافية واليونان ودول البلقان نفس حق جاراتها الاقوى والاغنى في ان يكون لها مكانها تحت الشمس »[٨٩] . لكن لم يمض على هذا الكلام المنمق الموجه الى جارات العدوتين المانيا والنمسا سوى قليل وقت عندما قامت القوات البريطانية بأمر من اسكويث نفسه بحجب الشمس عن جارة بريطانيا القريبة وذلك بضربها الانتفاضة الشعبية التي انفجرت في ايرلندا في العام ١٩١٦ بقسوة بالغة .

اعطى رئيس وزراء فرنسا ريني فيفياني (Viviani) تصريحات مشابهة لتصريحات اسكويث في خطاب له ألقاه يوم ٢٢ كانون الاول من عام ١٩١٤ . وبعد ذلك بفترة ، بالتحديد قبل ان يعلن الرئيس ولسن عن بنوده باكثر من شهر ، اعلن وزير خارجية فرنسا ستيفان جان ماري بيشون (Pichon) امام البرلمان « في نظرنا ان سياسة الدفاع عن القوميات يجب ان تشمل سكان ارمينيا وسوريا ولبنان كشعوب تتعرض بالرغم من ارادتها لنير المضطهد . ويحق لجميع هذه الشعوب التمتع بعطفنا ومساندتنا ، ويجب منحها جميعا فرصة حق تقرير مصيرها بنفسها »[٩٠] . بينما سكت هو وغيره من المسؤولين

---

(٨٨) كان اللورد اسكويث رئيسا للوزارة البريطانية عند اعلان الحرب وظل في منصبه حتى كانون الاول من عام ١٩١٦ عندما خلفه لويد جورج .

(٨٩) مقتبس من : Lloyd George, The truth... , Vol. I, pp. 23—24

(٩٠) مقتبس من : ف . ب . لوتسكي ، الحرب الوطنية التحررية في سوريا (١٩٢٥ ــ ١٩٢٧) ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩٦٤ ، ص ٦٣ .

الفرنسيين سكوت من في القبور عن مصير بلدان الاف الضحايا التونسيين والجزائريين والمغاربة الذين اريقت دماؤهم في الجبهة الغربية لا لسبب الا لان بلدانهم « كانت في اليد » كما يقال ٠

توجد في الوقت ذاته تصريحات اوروبية مشتركة بنفس المضامين ٠ ففي الرد على مذكرة المانية في أواخر عام ١٩١٦ حول امكانية عقد الصلح وعلى استفسار للرئيس ولسن في نفس الفترة تقريبا عن احتمال توسطه بين الطرفين المتحاربين ، اعلن الحلفاء « ان السلم غير وارد حتى تتحقق اعادة جميع الحقوق المهدورة والحريات المسلوبة والى ان يتم الاعتراف بمبدأ القومية ومبدأ حرية البلدان الصغيرة ٠٠٠ »[٩١] ٠

بلغت شعارات ووعود الدول الاوروبية ذروتها في الخطاب الشهير الذي ألقاه لويد جورج يوم الخامس من كانون الثاني من عام ١٩١٨ في قاعة ويستمنستر امام ممثلي النقابات العمالية[٩٢] والذي ذكر فيه « ان تحطيم او تفكيك عرى المانيا او الشعب الالماني لم يكن قطعا من اهدافنا في الحرب » وان الانكليز انما اجبروا على حرب لم يكونوا مستعدين لها ولكن عليهم « الدفاع عن النفس » ، عن « حق الشعب » و « الشرائع الدولية » التي « نقضها الالمان » الذين ان ارادوا الصلح فلا بد لهم ــ كما ذكر ــ من «اقامة نظام ديمقراطي دستوري حقيقي » يؤدي الى « قتل روح التسلط العسكري » لديها ٠ وهاجم في الخطاب بشدة طلب المانيا اعادة مستعمراتها السابقة فاعتبره مناقضا « لجميع مباديء حق تقرير المصير » التي « تتلاشى بذلك في مهب ريح خفيفة » ٠ وعند الكلام عن المستعمرات الالمانية ــ طبعا الالمانية وحدها ــ اشار

---

(٩١) راجع : « تاريخ الدبلوماسية » ، الجزء الثاني ، ص ٢٩٨ ،
Lloyd George, The truth... , Vol. I, p. 53; F.L. Benns, Op. Cit., pp. 118—119

(٩٢) حول نص الخطاب راجع :
"War memories of D. Lloyd George", Vol. V, London, 1936, pp. 2515—2527.

الـى ضرورة اقامة ادارة « تراعي رغائب شعوبها » وعارض حتى استغلال رأسماليي وحكومات اوروبا لهذه المستعمرات في المستقبل (!!) • وبنفس الدافع تكلم في خطابه عن « الاعتراف بالظروف القومية الخاصة » لكل من « شبه الجزيرة وارمينيا وميسوبوتاميا وسوريا » •

ولكن مهما بلغت فصاحة هذه التصريحات ومهما بالغت في نشر الوعود وفي التمسك بالمباديء فانها لم تكن لتعدو كونها مجرد مناورات سياسية حتمها الى حد ما تناسب القوى في الميدان العسكري والى حد اكبر طبيعة التكتيك السياسي العام للدول الكبرى دون ان تؤثر بأي حال على اهدافها الستراتيجية المحددة بوضوح تام •

ولم تكن بنود الرئيس ولسن سوى صورة اخرى لنفس التصريحات ، حتى ان العديد من المؤرخين شخصوا التشابه الكبير في الاطار العام بين ما ورد في خطاب لويد جورج وبنود ولسن[٩٣] • وقد اكد الاول منهما هذه الحقيقة مرات عديدة عندما أشار في مذكراته الى ان الرئيس ولسن تمسك في بنوده « بنفس الخط » الذي سار هو عليه وبأن الرئيس الامريكي لم يكن صاحب فكرة انشاء عصبة الامم[٩٤] • ولم يكتف بذلك بل انه عرض النص الكامل للبنود الاربعة عشر بأسلوب متقصد لم يخل من دافع التحدي ، ثم يذكر معلقا عليها بالحرف الواحد : « لا يوجد في هذه البنود شيء لا يتفق مع تلك الاهداف من الحرب التي سبق اعلانها من جانب الحكومتين الانكليزية والفرنسية سوى ما يتعلق بمبدأ حرية البحار »[٩٥]•

واذا كان الامر كذلك ، وقد كان كذلك بالفعل ، فمن اين جاء مثل هذا الاهتمام الكبير ببنود الرئيس ولسن الاربعة عشر ، ولم تركت هي ، دون

---

(٩٣) راجع مثلا : F. L. Benns, op. cit., p. 99.

(٩٤) Lloyd George, The truth... , Vol. I, pp. 239, 274—275, 635; Vol. II, p. 757.

(٩٥) Ibid, Vol. I, pp. 70—73

سواها ، مثل ذلك التأثير الكبير ؟ • قبل كل شيء ان الولايات المتحدة التي استوجبت مصالحها التمسك لفترة طويلة بمبدأ مونرو ، أي الابتعاد عن مشاكل الجانب الشرقي من الكرة الارضية ، ولا سيما المشاكل الاوروبية التي كانت تدور بين عمالقة كبار ، اعطاها سمعة احسن بكثير من سمعة دول وسط وغربي اوروبا التي بالاضافة الى ذلك دخلت مرحلة الاستعمار قبل امريكا مما ادى الى تردي سمعة حكوماتها امام شعوبها والشعوب الاخرى الى حد كبير • واقتصر مثل هذا الامر بالنسبة للولايات المتحدة ولفترة طويلة من الزمن على اقطار امريكا اللاتينية وجزر الفليبين والى حد اقل على بلدان الشرق الاقصى •

ثم ان وسائل الدعاية الامريكية كرست كل طاقاتها لاضفاء طابع تحرري حقيقي على بنود الرئيس ولسن ولنشرها بين اوساط مختلفة وفي مناطق واسعة فقامت بترجمتها الى عدد من اللغات الاخرى واستخدمت الطائرات لالقائها خلف جبهات القتال واثبتت بالفعل جدارة كبيرة في اداء مهمتها • وفي البداية ، اي في وقت لم تكن الحرب قد وضعت اوزارها بعد ، رحبت الصحافة البورجوازية الاوروبية ، بما فيها صحافة « الاممية الثانية » ، بالبنود واضفت عليها صفات مثالية للغاية حول ما ادعته لها من طابع تحرري ديمقراطي • وقد امتدت آثار هذه الموجة لتشمل حتى القوى الليبرالية الاوروبية التي كانت تعارض السياسة الكلاسيكية للفئات التقليدية المحافظة في اوروبا • ومن المهم ان نلاحظ هنا أن واحدا من الاسباب المهمة الكامنة وراء تعلق الاوساط البورجوازية الليبرالية في دول الميتروبول وقوى التحرر في المستعمرات ببنود الرئيس ولسن هو ما اشيع عن معارضة حكام الدول الاوروبية الكبرى للبنود ، وهذا بكل تأكيد كان من شأنه التأثير الى حد كبير في رأي الناس • الا ان المسؤولين الانكليز والفرنسيين يعتبرون ذلك محض ادعاء عار عن الصحة ويؤكدون انهم وافقوا مباشرة ودون تردد على البنود الاربعة عشر وحتى ان لويد جورج يصف تلك الشائعات بمجرد « تصور كاذب »[٩٦] •

---

(٩٦) Ibid, Vol. I, p. 86

واخيرا لا ينكر ان شخص الرئيس ولسن نفسه كان يتمتع بسمعة واسعة لم تضاهيها سمعة معظم الرؤساء الذين سبقوه او خلفوه في دست الحكم ٠ فأنه عندما حضر مؤتمر الصلح في باريس استقبل بحفاوة اكبر حتى من تلك التي استقبل بها القائد العام للقوات الحليفة في الحرب المارشال فوش (Foch) ٠ ولم تتوقف الدعاية لافكار ودرو ولسن حتى بعد عدم انتخابه لمنصب الرئاسة للمرة الثالثة ٠ ففي عام ١٩٢٢ مثلا تشكلت هيئة خاصة ضمت المعجبين بالرئيس ولسن بقصد الدعاية لافكاره ٠ وكرست مؤلفات عديدة بعد وفاته لنشر خطبه ووثائقه مع تاريخ حياته ومذكرات المقربين منه ، وهي جميعها تحاول اضفاء صفات مثالية عليه وعلى افكاره واعماله وذلك بجعله مناضلا في سبيل السلم والديمقراطية في كل انحاء العالم ٠ وفي سنوات الحرب العالمية الثانية ظهر الاهتمام به وبآرائه مرة اخرى وعلى نطاق واسع فظهرت عشرات الكتب الجديدة المكرسة لدرس حياته وافكاره السياسية وقد حاول مؤلفوها في ضوئها اثبات ما كان يعتقد به ولسن من «الدور القيادي التأريخي» للولايات المتحدة في السياسة الدولية ٠ ويصح القول نفسه على الاهتمام به من جديد في الخمسينيات ، أي في عهد النشاط الامريكي الواسع للتغلغل في الشرقين الادنى والاوسط ٠

والان نقدم فيما يلي ملخصا للبنود الاربعة عشر[٩٧] لنقوم بعده بتقييم مضمونها الحقيقي على ضوء ما تقدم ٠

نص البند الاول على ضرورة علانية معاهدات السلم ووضع نهاية للمعاهدات الدبلوماسية السرية ؛ طالب البند الثاني « بالحرية المطلقة » للتجارة البحرية « خارج المياه الاقليمية » و « في وقت السلم والحرب » على حد سواء ؛ اكد البند الثالث على ضرورة « الغاء جميع العقبات الاقتصادية » « حسب الامكان » امام التجارة الدولية ؛ اما البند الرابع فقد بحث عن « تقليص تسلح الامم الى الحد الادنى » وذلك بموجب « ضمانات متبادلة » ؛

(٩٧) راجع الهامش رقم (٧٢) ٠

وفي البند الخامس دعا الرئيس ولسن بالنص الى ضرورة «حل حر وصريح ومنصف بشكل مطلق لجميع المنازعات الخاصة بالمستعمرات ، يستند الى التمسك الجدي بمبدأ يقضي بانه في حالة حل جميع القضايا المتعلقة بالسيادة فان مصالح سكان المستعمرات المعنية تتمتع بنفس وزن الطموحات المشروعة للحكومة التي تحدد حقوقها » . بعد ذلك خصص البند السادس لحل « المسألة الروسية » على اساس منح روسيا الامكانات المطلقة « لاتخاذ قرار مستقل حول تطورها السياسي » وحول سياسة دولتها ومد يد العون المخلص لها لحل جميع مشاكلها . اما البنود ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ فانها كرست لمواضيع تتعلق بتحرير واعادة بناء بلجيكا وتحرير الاراضي الفرنسية مع ارجاع الالزاس واللورين الى فرنسا واعادة تخطيط حدود ايطاليا حسب الاسس القومية مع ضمان « الحكم الذاتي » للشعوب الداخلة في الامبراطورية النمساوية المجرية واخيرا انسحاب القوات الالمانية من الصرب ورومانيا والجبل الاسود وضمان منفذ بحري للاول منها .

بعد ذلك يأتي دور الامبراطورية العثمانية التي خصص لها البند الثاني عشر وينص على ما يلي : « يجب ضمان سيادة اكيدة للاجزاء التركية من الامبراطورية العثمانية الحالية ، أما القوميات الاخرى التي هي الان تحت الحكم التركي فيجب ان يضمن لها امن على الحياة لا شك فيه ، وفرصة مطلقة مصونة لتطوير الاستقلال الذاتي(٩٨) ، والدردنيل يجب فتحه بصورة دائمة وبضمانات دولية امام بواخر وتجارة جميع الشعوب » .

ويتعلق البندان الاخيران من البنود الاربعة عشر بمنح بولندا الاستقلال وبتأسيس منظمة دولية هي التي سميت فيما بعد بعصبة الامم .

يعطي التحليل العميق لهذه البنود في اطار الظروف الخاصة (في الداخل) والعامة (على الصعيد العالمي) امكانية تحديد الابعاد والمرامي الحقيقية لكل

---

(٩٨) في النص :
"absolutely unmolested opportunity of autonomous development".

واحد منها ، وهي في مجموعها وفي النهاية استهدفت سحب البساط من تحت اقدام الدول الرأسمالية الاوروبية الكبرى وفرض سيادة الولايات المتحدة الامريكية على العالم • فبالنسبة للبند الاول كان من الطبيعي جدا أن تكون حكومة الرئيس ولسن ضد جميع المعاهدات والاتفاقات السرية من قبيل « سايكس ــ بيكو » التي لم تكن هي طرفا فيها ، بينما استهدفت جميعها ــ كما هو معلوم ــ تقسيم مناطق النفوذ بين الدول الاوروبية دون امريكا • لذا حاول ولسن عن طريق فضحها في مؤتمر باريس توجيه سهم قتال اليها ، فنعتها بنعوت شتى وسمى « سايكس ــ بيكو » بـ « النموذج المثالي للدبلوماسية الخفية »[٩٩] • وادعى انه قبل مؤتمر باريس لم يعرف شيئا عن تلك المعاهدات بينما يؤكد لويد جورج ان الانكليز اخبروه قبل المؤتمر بمضامينها دون ان يتخذ آنذاك اجراء او استنكارا عمليا ضدها[١٠٠] لأن، على ما يبدو ، لم يحن آنذاك وقت اثارة الموضوع بعد •

ان اهتمام الرئيس ولسن بالبند الثاني المتعلق بحرية البحار يفوق كل تصور ذلك لان الامر كان يهم مصالح الاحتكارات الامريكية بصورة مباشرة • فكان من مصلحتها الاكيدة زحزحة انكلترا من مكانتها الفذة في المياه غير الاقليمية ، لذا لم يكن عبثا ان التجأت الولايات المتحدة في هذه الفترة بالذات الى اتخاذ الاجراءات الكفيلة بتطوير اسطولها بشكل يفوق الاسطول الانكليزي وهو من المسائل الحيوية جدا التي دخلت في حسابات الرئيس قبل اصداره لبنوده بفترة غير قصيرة ، ففي شباط عام ١٩١٦ أعلن صراحة انه « لا يوجد اسطول في العالم عليه الدفاع عن مثل هذه المنطقة الشاسعة كما هو الامر

(٩٩) مصطفى كمال ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص XLVI ، من الطريف ان نشير الى ان الفرنسيين رسموا خرائط جديدة للشرق الاوسط على ضوء مقررات « سايكس ــ بيكو » وعلقوها اثناء مؤتمر باريس في غرفة لويد جورج حيث كانت تعقد بعض الاجتماعات الخاصة بين الرئيس ولسن والزعماء الاخرين •

(١٠٠) "War memories of D. Lloyd George", Vol. III, pp. 1686-1887

بالنسبة للاسطول الامريكي مما يستوجب ، حسبما ارى ، ان يفوق في نشاطه جميع الاساطيل الاخرى في العالم »[١٠١] .

ومن هذا المنطلق ، دون سواه ، نرى الرئيس ولسن في مؤتمر باريس يتساهل احيانا ويساوم غالبا ويغض الطرف في بعض الحالات ويتراجع عند الضرورة بالنسبة لما ورد في معظم البنود الاخرى بينما « لم يبد ـ كما يذكر لويد جورج ـ اي تنازل في مسألة حرية البحار مع انه لم يمض وقت طويل على عمل اسطوله » ولم يتردد عن الالتجاء « الى التهديدات التي كررها عبثا لمرات عديدة » . وبالطبع ادرك الانكليز المرامي البعيدة للرئيس من هذا البند فعارضوه بكل ما اوتوا من قوة . يقول لويد جورج بهذا الصدد : « نحن لم نستطع قبول مثل هذا التفسير (يقصد التفسير الامريكي) حول حرية البحار التي كان من شأنها تجريد انكلترا ... من السلاح الوحيدالفعال بحوزته في حالة حرب حتمية » . ولهذا بالذات عندما اعطى الحلفاء موافقتهم على عقد الصلح مع المانيا حسب الشروط الواردة في بنود الرئيس الامريكي ابدوا تحفظات جدية بشأن البند الثاني منها واكدوا حقهم المطلق في نقاشه امام المؤتمر والتصرف حسبما تمليه مصالحهم[١٠٢] .

جاء البند الثالث المتعلق بحرية التجارة الدولية متمما في اهدافه للبند السابق . اما البند الخامس فانه غامض في نصه ، يحتمل كل تأويل وتفسير ويفسح المجال امام جميع انواع المساومات الممكنة . وفي الواقع ليس هنالك اصدق من تعبير رئيس الوزارة البريطانية على هذا البند ، فأنه وضع اليد بذكاء خارق وباسلوبه الخاص على حقيقة مهمة جدا يمكن استنباط الكثير منها عندما يقول بالنص : « ولكن يجب ان تتذكر انه قبل ايام ثلاثة من خطاب الرئيس (ولسن) التاريخي عرضت وجهة النظر الانكليزية

---

(١٠١) مقتبس من « تاريخ الدبلوماسية » الجزء الثالث ، ص ١٩ .
(١٠٢) Lloyd George, The truth... , Vol I, pp. 82—83

كاملة[١٠٣] بشــأن هــذه القضية (يقصــد قضيــة المســتعمرات) وان الرئيس (ولسن) لم يحتــج ولم يبــد أي تحفظ فحســب بل انــه أكثر من ذلك استحسن في مدخل خطابه اعتدال تصريحي »[١٠٤] • وكما ورد في اماكن مختلفة من مذكرات لويد جورج فان الرئيس ولسن كان متفقا تماما مع الانكليز والفرنسيين حول عدم اعادة المستعمرات السابقة الى المانيا كما لــم يعترض ابدا على اسلوب تقسيمها • وكل ذلك من الامور التي تتناقض كليا مع ما ورد في نص البند الخامس من تعابير جميلة عن « الحل الحر والصريح والمنصف » بشأن المنازعات الخاصة بالمستعمرات واحترام مصالح سكانها •

في البند السادس من بنوده عالج الرئيس الامريكي بذكاء الوضع فــي روسيا السوفيتية • فهو لم يكشف فيه عن النوايا الحقيقية تجاه السلطــة الجديدة هناك ذلك لانه راعى الشعور السائد بين الناس في اجزاء مختلفة من العالم • كما انه اراد بموقفه هذا دفع النظام الجديد مرة اخرى الى غمار الحرب ضد الالمان الذين كانوا لا يزالون يحتفظون بمواقع قوية واحيانا متفوقة في بعض الجبهات الا انهم مع ذلك ظلوا يخشون موقف روسيا السوفيتية لذا احتفظوا في الجبهة الشرقية المواجهة لها بقطعات كبيرة جدا كان من شأنها ، في حالة نقلها الى الميادين الاخرى ، التأثير بشكل واضح على ميزان القوى • ولم يكن عبثا ان قامت طائرات الحلفاء بتوزيع اعداد هائلة من البنود بترجمة روسية رصينة في مختلف اجزاء البلاد السوفيتية • كما لم يكن عبثا ان اقترح الامريكان دفع مائة روبل ــ وهي مبلغ كبير ــ عن كل جندي سوفيتي يذهب الى الجبهة • وكما لاحظ المؤرخ ن • ياكوفليف كان من العبث ان يقوم الرئيس الامريكي

---

(١٠٣) بالطبع يوجد في هذا القول شيء كبير من المبالغة لانه لم يعرض وماكان بامكانه ان يعرض وجهة نظر بريطانيا بشأن المستعمرات بصورة كاملة كما يقول ، ولكن ما يهمنا من كلام لويد جورج هو ما ورد في قسمه الثاني . ثم ان وجهة نظر بريطانيا الحقيقية لم تكن في كل الاحوال خافية على الرئيس الامريكي ولســن .

(١٠٤) Lloyd George, The truth... , Vol. I, p. 74

الذي فقدت قواته حتى ذلك التاريخ ١٦٢ قتيلا فقط بتحريض شعب على القتال قدم مليونين وثلاثمائة الف قتيل في الحرب الدائرة[١٠٥] .

كان للرئيس ولسن مقاصد مشابهة لتلك من بنوده الاخرى وهي ما نأتي على تفاصيلها عند البحث في ترجمتها الفعلية من خلال الاحداث الملموسة الى الواقع الذي لا يدحض . ولكن من الضروري ان نشير قبل ذلك الى الاهتمام الكبير الذي اولاه الرئيس ولسن لموضوع تأسيس عصبة الامم الذي عالجه البند الاخير من بنوده . وكان من المتوقع للمنظمة الدولية المزمع تأسيسها ، وكما اعلن ، ان تتحول الى وسيلة فعالة للحيلولة دون وقوع حرب جديدة ، بينما في الواقع ارادتها الولايات المتحدة وسيلة تستغلها في سياستها الدولية ، كما ارادتها الدول الاوروبية الحليفة للغرض نفسه ولتحويلها الى اداة عالمية لضرب طموحات الشعوب الناهضة وهي لذلك رحبت من جانبها بفكرة تأسيسها . وحتى ان اللورد سيسيل البريطاني نادى بها قبل الرئيس الامريكي ، ويؤكد لويد جورج مرارا ان العصبة لم تكن وليدة افكار ولسن . لكن في كل الاحوال يبقى فشل العصبة في الحيلولة دون وقوع حرب عالمية ثانية الى جانب طابع تأسيسها الذي لم يخل من جوانب عنصرية ، دليلا قاطعا على الدوافع الحقيقية للاهتمام الكبير بها ، بحيث ان صياغة ميثاقها تحولت الى عبء كبير على صحة شخص الرئيس ولسن . كما انها تحولت بسرعة الى وسيلة فعالة لتحقيق مسائل كثيرة وردت في مقررات مؤتمرات باريس وبنود الرئيس الذي لم يخف لا هو ولا اعوانه وحلفاؤه حقيقة نيتهم في تكريس العصبة لحماية النظام الجديد المقرر ظهوره مع انتهاء الحرب ، وهو ما نرى ملامحه بكل وضوح عند بحثنا عن الترجمة الواقعية للبنود الاربعة عشر .

---

(١٠٥) ن.ن. ياكوفليف ، المصدر السابق ، ص ١٥ ــ ١٦ .

الترجمة الواقعية للبنود :

التاريخ حافل بالامثلة والشواهد عن التناقض الكبير بين اقـــوال المستعمرين وافعالهم وتبقى الاخيرة دائما الحكم الفصل في تقرير طبيعة الاشياء عند اصدار احكام تتعلق بقضايا كالتي نحن بصددها • وبالامكان هنا الركون الى احداث في غاية الاهمية ومناورات في غاية الخطورة لا تبقي مجالا للشك بأدنى صورة في النوايا الحقيقية التي اولدت وحركت وحددت مصير البنود الاربعة عشر للرئيس ودرو ولسن •

لقد كان ارحب مجال لتحرك الوليد الجديد هو مؤتمر الصلح في باريس الذي توقف على نتائجه الى حد كبير مصير العالم ، فكان الناس يتلقفـــون اخبارها في كل مكان عن طريق خمسمائة صحفي حضروا المؤتمر خصيصا لهذا الغرض • وقد بلغ اهتمام الرئيس ولسن بالامر حدا انه كان رئيس الدولة الاعلى الوحيد من بين الجميع ، حضر بنفسه مع بنوده الى المؤتمر وأصبح بذلك ايضا اول رئيس امريكي تطأ قدماه الارض الاوروبية مما استوجب نقدا لاذعا وتخوفا شديدا من جانب مسؤولي الدول الاوروبية الحليفة خارجيا وتحركا مضادا من جانب الحزب الجمهوري المعارض داخليا • لكن ولسن لم يعر ذلك اهتماما يذكر ، ذلك لانه اعتبر وجوده ضروريا بسبب التناقضات الحادة بـين الدول الكبرى « الحليفة » المشاركة في المؤتمر ولانه رأى في الاخير ــ وكما كان عليه الامر في الواقع ــ الحلبة الاساسية في ظروف ما بعد الحرب للصراع المستميت من اجل الحصول على اكبر المكاسب السياسية والاقتصادية • ويجب من خلال هذه الحقيقة الواضحة تقييم مواقف واقوال ولسن وزملائه فـــي المؤتمر • وهذا يفسر لنا ايضا لماذا دار حول كل موضوع اثير امام المؤتمـر خلال اعماله التي استغرقت ســـنة كاملة (١٨ كانون الثانـي ١٩١٩ ـــ ٢١ كانون الثاني ١٩٢٠) نقاش حاد كان ينتهي احيانا بالتهديد بالانسحاب مـــن المؤتمر كما اشيع عن ولسن نفسه او كان ينتهي بالانسحاب فعلا كما فعله زميله الايطالي فيتوريو اورلاندو (Orlando) ، وفي احيان كثيرة اخرى كانت حـدة

الصراع تصل حد نسف المؤتمر من اساسه . ومن الجدير بالملاحظة هنا ان مسألة تقسيم ممتلكات المانيا والدولة العثمانية (اي مضمون البندين الاول والخامس) كانت واحدة من اهم وادق القضايا التي اثارت منذ الايام الاولى للمؤتمر جدلا حاميا طويلا تحول الرئيس الامريكي الى اللولب الاساس لتحريكه داخل اروقة المؤتمر حسب مقتضيات الاهداف المحددة . وقد جاء « حل » هذه المسألة باسلوب كشف جميع النوايا الحقيقية للمسؤولين الامريكيين . فمناقشات « الاربعة الكبار » (The big Four) [١٠٦] هي التي اوحت بفكرة الانتداب الى السياسي العنصري ممثل جنوبي افريقيا الجنرال سموتس (Smuts) [١٠٧] الذي قسم الشعوب الى قسمين واعتبر ان شعوبا معينة « غير قادرة على حكم نفسها بنفسها » وهي لذلك « بحاجة الى ان تصبح لفترة محددة تحت اشراف شعوب اكثر تقدما » . وكان الرئيس ولسن اول من اعجب بهذه الفكرة[١٠٨] التي رفضتها الشعوب قاطبة ،ولكنها معذلك اصبحت اساسا للمادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الامم الذي صاغ وفرض نظام الانتداب العنصري وقد ساهم رجال قانون امريكان في وضع مضمونه . وهو في واقعه « اختراع » امريكي اكثر من كونه انكليزيا اذ كانت الحكومة الامريكية تتوقع الجمع بين الانتداب وسياسة « الباب المفتوح » المعروفة بقصد ضمان مصالح احتكارات بلادها في المستقبل . واخيرا يجدر بنا ان نشير الى الاعتراف الصريح والواقعي لوزير الخارجية البريطاني اللورد كيرزن.

---

(١٠٦) يقصد بهم رؤساء وفود الولايات المتحدة (ولسن) وبريطانيا (لويد جورج) وفرنسا (كليمنصو) وايطاليا (اورلاندو) .

(١٠٧) ايان سموتس (١٨٧٠ — ١٩٥٠) من الشخصيات السياسية البارزة في اتحاد جنوبي افريقيا ، تسنم مناصب وزارية مختلفة واصبح رئيس وزراء الاتحاد اكثر من مرة . منح في عام ١٩٤١ لقب فيلد مارشال في الجيش البريطاني . من المشتركين البارزين في مؤتمر باريس . ساهم في وضع ميثاق عصبة الامم واقترح فكرة الانتداب . صاحب عدد من المؤلفات يدافع في معظمها عن النظريات العنصرية .

(١٠٨) C.E. Black and E.C. Helmreich, Op. Cit., p. 119

أمام مجلس اللوردات يوم ٢٥ حزيران عام ١٩٢٠ بأن الانتداب لم يكن في واقعه « سوى وسيلة لتقسيم البلدان المفتوحة بين المنتصرين »[١٠٩] ، كما انه كان ، اضافة الى ذلك شكلا جديدا متفقا عليه لحكم المستعمرات •

على العكس من قضية المستعمرات لم تثر الترجمة الفعلية للبند السادس الخاص بـ « المسألة الروسية » أي نقاش وجدل في المؤتمر سوى ما يتعلق منه بالمسائل التفصيلية ، ذلك لان المجتمعين كانوا متفقين حول اتخاذ الاجراءات التي اعتبروها ضرورية وشرعية لوأد اول ثورة اشتراكية في العالم والتي جاءت على طرفي النقيض تماما مع الاسلوب الديمقراطي الرائع الذي صاغ به الرئيس ولسن بنده المذكور • فهو قبل ان يذهب الى باريس ، وحتى قبل ان تنتهي الحرب بعث بمذكرة سرية الى الحلفاء في خريف عام ١٩١٨ نسف فيها كل ما ورد من افكار ظاهرية في ذلك البند بتأكيده القاطع على ضرورة ضرب السلطة السوفيتية وتقسيم روسيا عن طريق مساعدة قوى الثورة المضادة في اوكرانيا وربط مصير القفقاس بقضية تركيا وفرض حماية احدى الدول الكبرى على اواسط آسيا عملا بالنظام الذي عرف فيما بعد بالانتداب • وفي المؤتمر ادلى الكولونيل هاوس ، وبموافقة الرئيس نفسه ، بتصريح مشابه[١١٠] •ولم يتوان الاخير في ابداء المساعدات المادية لاعداء الثورة الاشتراكية الذين قررت بعض البنوك الامريكية في عهده تخصيص المال اللازم لتزويدهم بالسلاح •

لم يقتصر الامر على ذلك ، بل تحولت الولايات المتحدة الى اهم عنصر محرك لحرب التدخل ضد روسيا السوفيتية (١٩١٨ ــ ١٩٢٠) التي اشتركت فيها ايضا قوات مجموعة من الدول الاوروبية واليابان • وقد تم انزال اكثر من عشرة الاف جندي امريكي في اقصى شرق البلاد وما لا يقل عن ستة آلاف

---

(١٠٩) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، الجزء الخامس (الدول الاسلامية بعد الحرب العالمية الاولى) ، ترجمة نبيه امين فارس ومنير بعلبكي ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٩٥ .

(١١٠) راجع : « تاريخ الدبلوماسية » ، الجزء الثالث ، ص ٢١ .

آخرين في شمالها ، كما تم تخصيص ١٢٥ مليون دولار لتمويل اعداء الثورة[١١١] .

اما الاحداث التي وقعت في الشرق الاوسط بعد الحرب العالمية الاولى مباشرة فانها مليئة بالامثلة الحية التي بامكانها اماطة اللثام بشكل مقنع تماما عن واقع بنود الرئيس ولسن الذي لم يقتصر اهتمامه بالمنطقة على ما ورد في البند الثاني عشر من بنوده فقط ، بل تطرق هو وحلفاؤه الاوروبيون الى شعوبها اكثر من مرة . فجاء اول تصريح من الحلفاء عن شعوب الامبراطورية العثمانية ضمن المذكرة التي بعثها وزير خارجية بريطانيا بالفور الى الرئيس الامريكي في ١٨ كانون الاول عام ١٩١٦ والتي جاء فيها ان واحدا من اهداف الحلفاء من الحرب هو ضمان « الحرية للسكان الخاضعين لارهاب الترك الدموي »[١١٢] . اما الرئيس ولسن نفسه فقد اعلن في الرابع من كانون الاول عام ١٩١٧ ، اي قبل اصداره بنوده باكثر من شهر واحد ، إنه يأمل « منح شعوب الامبراطورية التركية حق وامكانية ضمان حياة آمنة وحفظ مصيرها من الاعتداء والظلم ومن ارادة البيوتات المالية والاحزاب الاجنبية »[١١٣] . وهو بذلك افتتح تصريحاته ووعوده الكثيرة التي ادلى بها بعد دخول بلاده الحرب . وفي مؤتمر باريس أثار نفس الموضوع اكثر من مرة فأعلن ان في رأيه « لا يوجد من سبيل صحيح آخر لحل المسألة (يقصد مصير شعوب الشرق الاوسط) سوى توضيح رغبة سكان هذه المناطق » ، وانه « من وجهة نظر الولايات المتحدة الامريكية لا تهم مطلقا أي ادعاءات تدعي بريطانيا وفرنسا بالنسبة لهذا الشعب او ذاك ، لكن شريطة

---

(١١١) للتفصيل راجع : ل . ى . زوبوك ، مدخل في تاريخ الولايات المتحدة الامريكية (١٨٧٧ ـ ١٩١٨) ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩٥٦ ، ص ٥٠٥ ـ ٥١٢ .

(١١٢) راجع :
"A history of the Peace Conference of Paris", Vol. VI, p. 23.

(١١٣) مقتبس من : ف . ب . لوتسكي ، المصدر السابق ، ص ٦٣ .

الا يقوم الشعب المعني ضدهما » ، وان « واحدا من المبادىء الرئيسية الذي تتمسك به الولايات المتحدة الامريكية هو رأي[١١٤] المحكومين » ، وانه من وجهة نظر بلاده « يوجد شيء مهم واحد فقط : هل ان فرنسا مقبولة لـدى السوريين ، ويخص نفس الشيء بريطانيا العظمى : هل انها مقبولة لدى سكان بين النهرين »[١١٥]. هنا يجب ان نأخذ بنظر الاعتبار ان هذا الكلام قيل بالضبط في الوقت الذي كان يلقى الضباط البريطانيون مصرعهم تباعا على ايدي الوطنيين العراقيين في الشمال والجنوب ، وعندما كانت كل البلاد مقبلة على « ثـورة العشرين » ضد الانكليز وعندما كان السوريون يقاومون السيطرة الفرنسية بكل السبل الثورية والسياسـية الممكنة آنذاك .

ولكن مع ذلك توجد للرئيس ولسن اقوال مناقضة تماما لما ذكر ؛ اقـوال متفقة الى حد الوضوح التام مع افعال نظامه ومراميه الحقيقية . فمثلا انه ذكر ان بلاده « لا تريد شيئا من تركيا » ويقصد بها الامبراطورية العثمانية ، الا انه اضاف بانها « ستصبح سعيدة جدا لو اخذت فرنسا وانكلترا جميـع المسؤوليات على عاتقهما » . واثناء نقاش ارسال بعثة دولية الى سوريا وفلسطين والعراق ذهب ولسن ابعد من ذلك عندما ذكر بصريح العبارة : « انه لا يعتقد بامكانية ترك مصير هذه الشعوب كليا بايديها ، فهي تحتاج الى القيادة وبعض الرعاية » . ولا ينفي تأكيده على « ان تحقيق ذلك يجب ان يكون في صالح السكان لا دول الانتداب »[١١٦] الطابع العنصري من كلامه الذي يشـكل مع ما سبقه دليلا اكثر من الواضح لاعترافه الصريح بضرورة استعمار شعوب المنطقـة .

ويبقى ان نورد هنا كلام « شاهد من أهلها » وهو لويد جورج الـذي كتب بالحرف الواحـد :

---

(١١٤) في النص : موافقة .

(١١٥) مقتبس من :
Lloyd George, The truth... , Vol. II, pp. 1065—1066.

(١١٦) Ibid, Vol. II, pp. 1068, 1077-1078

« في باريس تحدثنا مع الرئيس ولسن لمرات عديدة حول تقسيم ممتلكات الامبراطورية التركية . تحدثنا حول هذا الموضوع ايضا مع الكولونيل هاوس قبل وبعد وصول الرئيس . وعندما وافق الحلفاء على فكرة الانتداب اصبح بحث تطبيق هذا المبدأ بحق المستعمرات الالمانية والامبراطورية التركية موضوعا غالباما تبودل حوله الرأي »[١١٧] .

وقبل الخوض في عرض الشواهد التاريخية لواقع الامور يجدر بنا ان نعيد الى الاذهان الغموض الذي اكتنف البند الثاني عشر والتأكيد على حقيقة عدم احتوائه كلمة الاستقلال بالنسبة للشعوب غير التركية بل ان كل ما ورد فيه هو كلمة الاوتونومي "Autonomy" (الاستقلال الداخلي او الحكم الذاتي) . وحتى ان رئيس الوزارة البريطانية اعلن صراحة انه والرئيس ولسن متفقان على « ان اقصى ما يكمن منحه » لمختلف العناصر هو « الاستقلال الذاتي »[١١٨] .

تشكل التصريحات الاخيرة الصياغة الفكرية الامينة لسياسة حكومة ودرو ولسن الفعلية تجاه مختلف اجزاء الامبراطورية العثمانية المنهارة والتي عبرت عن نفسها في سلسلة اجراءات مست آثارها كل بلدان المنطقة بما فيها تركيا . ومما كان يعطي الامريكان مجالا ارحب للتحرك بالنسبة لمركز الامبراطورية العثمانية السابق الموقف الخاطيء الذي تبنته اوساط سياسية تركية معينة تجاه الولايات المتحدة والذي حدد مصطفى كمال زعيم النهضة الحديثة لتركيا ابعاده بشكل صحيح ودقيق . فكما يقول في مذكراته « كانت توجد في استانبول ايضا جماعة ارستقراطية مقتنعة بأن انقاذ البلاد الحقيقي انما يكون فقط عن طريق الحماية الامريكية ، وقد تمسك افراد هذه الجماعة بهذه الفكرة بعناد وحاولوا ان يبرهنوا بكل قواهم على ان رأيهم هو الحقيقة المطلقة »[١١٩] .

---

(١١٧) Ibid. Vol. I, p. 388.

(١١٨) F.L. Benns, Op. Cit., p. 119.

(١١٩) مصطفى كمال ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ١٠ .

وكان يوجد بين انصار مصطفى كمال العاملين في سبيل استقلال البلاد من كان يعتقد بحماس بضرورة منح الولايات المتحدة الامريكية الانتداب على تركيا باعتباره « اهون شر » لا بد من اختياره كما كان يعتقد قسم منهم ، ولانه كان من شأن امريكا وحدها « ضمان اقامة نظام ديمقراطي » في البلاد و «بناء تركيا حديثة خلال عشرين سنة » فقط والتحول الى « سند وضمانة » لها والى وسيلة « لتطوير وعي الامة » كما اكد القسم الاخر الذي لم ير ، بتأثير الامريكان انفسهم ، اي خطر في الانتداب يمس سيادة تركيا[120] . وقد اصبح الامر موضوع نقاش طويل وتبادل رسائل وبرقيات ووثائق ومذكرات مختلفة بين الكماليين في اناضول ورجال السياسة في استانبول ، كما تداول مؤتمر ارضروم وفيما بعد مؤتمر سيواس الذي يعتبر نقطة انطلاق كبرى في نضال الشعب التركي والذي حضره احد الصحفيين الامريكان[121] موضوع الانتداب الامريكي بتفصيل وجرى حوله نقاش حام . وفي الواقع لولا موقف مصطفى كمال اتاتورك الثابت والجريء لاتخذ اعضاء مؤتمر سيواس قرارا يقضي بتوجيه طلب الى الولايات المتحدة لقبول الانتداب على بلادهم . وبموقفه هذا اثبت كمال اتاتورك بعد نظر سياسي عميق وبأنه واحد من زعماء الشرق القلائل جدا الذين ادركوا مباشرة المضمون الحقيقي لبنود الرئيس ولسن فتساءل بشكل منطقي في رده على تصريح حكومة السلطان في استانبول حول تحقيق الصلح بموجب تلك البنود : « الم يختف ولسن مع بنوده عن المسرح السياسي ولعب دور المشاهد العادي اثناء احتلال سوريا وفلسطين والعراق وازمير وادنة وغيرها من اجزاء الامبراطورية العثمانية»[122] . ولكن بالرغم من ذلك فأن قوة التيار الموالي للانتداب الامريكي الذي ضم

---

(120) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ٩٤ ــ ٩٥ ، ١٠٧ ــ ١٠٩ ، ١١١ .

(121) حضر سيواس امريكيون اخرون بينهم رجل الاستخبارات لويس براون الذي اجرى اتصالات مع عدد من اعضاء المؤتمر (راجع : أ . م . شمس الدينوف ، النضال التحرري ــ الوطني في تركيا ١٩١٨ــ١٩٢٣ ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩٦٦ ، ص ٧٦) .

(122) مقتبس من : أ . م شمس الدينوف ، المصدر السابق ، ص ٨١ .

عدد من اقرب انصاره قد اجبرته على التراجع قليلا والموافقة على ان يضم بند السابع من مقررات مؤتمر ارضروم وبعض فقرات مقررات مؤتمر سيواس ترحيبا بالمساعدات الخارجية مهما كان مصدرها شريطة الا تمس استقلال البلاد[١٢٣] . ولكن بالرغم من هذا الشرط الاخير فقد اثار مضمون بند انتقاد الاوساط الوطنية المخلصة المتمسكة بفكرة الاستقلال الناجز .

اثرت على ظهور وتبلور الاتجاه الفكرى للجناح القوي[١٢٤] المؤيد للانتداب الامريكي داخل الحركة القومية التركية عوامل عديدة ومتباينة تأتي في مقدمتها نشاطات الامريكان في تركيا خلال هذه الفترة . فقد وصلت العاصمة استانبول لجنة امريكية خاصة قامت باتصالات واسعة مع اوساط سياسية مختلفة جرى قسم منها بشكل سري . كما اجرى المندوب السامي الامريكي في تركيا اتصالات مشابهة مع انصار الانتداب الامريكي من الساسة الاتراك . وحتى ان بكر سامي بيك ذكر في مذكرة خاصة بعثها الى مصطفى كمال حول الموضوع ان المندوب الامريكي اكد له تأيد « كل الامة الامريكية» لفكرة الانتداب على تركيا واقترح ان يوجه الوطنيون الاتراك مذكرة الى الرئيس ولسن والكونكريس يطالبون فيها بالانتداب الامريكي[١٢٥] . وجرى ايضا بحث موضوع ارسال وفد سري من الوطنيين الاتراك الى واشنطن على متن مدمرة امريكية . وتشير بعض الدلائل الى ان الامريكان كانوا يوحون للاتراك ، بهدف اغرائهم ، وكأن الانتداب الامريكي سيشمل جميع

---

(١٢٣) حول نص البند السابع من مقررات مؤتمر ارضروم ونص مقررات مؤتمر سيواس راجع: مصطفى كمال، المصدر السابق، الجزء الاول ، ص١١٢، ٤١٤ ـ ٤٢٠ .

(١٢٤)ضم هذا الجناح الى جانب عصمت اينونو شخصيات بارزة من امثال رؤوف بيك (زعيم المعارضة فيما بعد) ورفعت بيك وبكر سامي بيك واسماعيل فاضل باشا بالاضافة الىعدد كبير من تجار ومثقفياستانبول، في مقدمتهم الكاتبة والسياسية المعروفة خالدة اديب التي تحمست للانتداب الامريكي بشكل عجيب حتى انها قدمت مذكرة مفصلة حوله الى مصطفى كمال .

(١٢٥) مصطفى كمال ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ٨٨ .

الامبراطورية العثمانية بحدودها القائمة في فترة ما قبل الحرب • وبالطبع كان من شأن ذلك هز عواطف قطاعات واسعة من القـــوميين الاتراك • كما ان الامريكيين كانوا يبحثون المسألة الارمنية مع الاتراك بشـــكل يختلف كليا عما كانوا يبحثونه مع الارمن انفسهم(١٢٦) • ولم ينسوا ايضا استغلال الحقد التركي المشروع تجاه الاستعمار الانكليزي فكانوا يضربون على هذا الوتر الحساس بذكاء من خلال تصوير الولايات المتحدة كالقوة الوحيدة القادرة على وضع حد لطموحات ومخططات بريطانيا المعروفة بالنسبة لبلادهم • وبالامكان ادراك مدى المفعول الكبير للعامل الاخير بالنسبة للاوساط السياسية التركية المعارضة من خلال معرفة ان حكومة السلطان القائمة فياستانبول كانت تميل الى تجربة ورقة الانكليز بعد فشل تجربتها مع الالمان فكانت توجد اتصالات بين الطرفين وصلت حد التحريض العلني مــن جانب السلطان على تدخل القوات الانكليزية بقصد قمع الحركة الكمالية • وقد دفع التقارب الكبير بين الطرفين بالصحافة الفرنسية الى تكهن عقد معاهدة سرية بينهما • والى جانب كل ذلك كان يوجد جناح سياسي بين الاوساط البورجوازية التركية يؤيد التعاون مع الانكليز بحماس ، شكل انصاره تنظيما خاصا اطلقوا عليه اسما معبرا عــن واقعهم هو « جمعية اصدقاء انكلترا » التي ضمت عددا كبيرا من الساســة والموظفين الرجعيين مع عدد غير قليل من المثقفين البارزين •

وجدت هذه العوامل مجتمعة تربة صالحة بين اوساط وطنية تركية قصيرة النظر اعتبرت الولايات المتحدة بمثابة « قارب نجاة » في الامواج المتلاطمــة التي كانت تتقاذف مصير تركيا • وادت الصحافة التركية دورا كبيرا في بــث مثل هذا الرأي وتأييد الانتداب الامريكي الذي ايده في الجانب الاخر شخص الرئيس ولسن مع عدد من المؤسسات المالية التي كانت تتوقــع امكانات اقتصادية كبيرة في المنطقة بالاضافة الى اوساط التبشير الامريكية التي كشفت القناع عن وجهها الحقيقي في المرحلة التأريخية الجديدة والحاسمة بالنســبة لمصالح بلادها •

---

(١٢٦) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ٩٢ .

ولكن لم يكتب النجاح لهذا التحرك الواسع وذلك بفضل وعي وادراك واخلاص جناح قوي داخل الحركة الوطنية التركية كان يقف على رأسه شخص كمال اتاتورك • وقد قوت بعض الاحداث المهمة من موقف هـذا الجناح بكشفها عن النوايا الامريكية الحقيقية في المنطقة التي ظهرت عمليا انها لا تختلف من حيث الجوهر عن اهداف الدول الرأسمالية الاوروبية الكبرى • وارتبطت الصدمة الكبيرة الاولى بالموقف الذي اتخذه الوفد الامريكي في مؤتمر باريس من التدخل العسكري لليونان في الاراضي التركية • فخلال الاسابيع الاولى من اعمال المؤتمر طالب رئيس وزراء اليونان الذي كان يمثل بلاده بضم ازمير الى اليونان حسب « مبدأ القومية » كما ادعى • وقد ناقش « مجلس الاربعة الكبار» باشتراك الرئيس ولسن الموضوع بكل جدية ومنح اليونان « حق » احتلال ازمير لا مكافأة على اشتراكها في الحرب فحسب بل وكذلك لان الحلفاء كانوا يعتبرون اليونان « شعب المستقبل في البحر المتوسط الشرقي » فلا داعي « لان يحسب للاتراك حساب »[١٢٧] • وبالفعل قامت السفن اليونانية في أواسط مايس من عام ١٩١٩ بانزال قواتها الى البر التركي تحت حماية السفن الانكلو ــ امريكية ــ الفرنسية الراسية في المياه الاقليمية لتركيا[١٢٨] مما تحول الى واحد من ابرز العوامل المحركة للتطور السياسي اللاحق في البلاد كما ترتبت عنه احداث مؤسفة اضرت الى حد كبير بالاطراف المعنية في المنطقة نفسها فذهبت مئات الانفس البريئة ضحية لهـا •

اما القضية المصيرية الثانية التي تحولت الى محك لتحديد الطابع الاستعماري لمشاريع الدول الكبرى نحو تركيا فكانت تتعلق بمضائق

---

(١٢٧) دزموند ستيورت ، تاريخ الشرق الاوسط . معبد جانوس ، ترجمة زهدي جارالله ، دار النهار ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٢٢٣ .

(١٢٨) راجـع :

H.C. Armstrong, Grey Wolf Mustafa Kamal-An intimate of a Dictator, third ed., London, 1932, pp. 156-157; F. L. Benns, Op. Cit., p. 184.

البسفور والدردنيل مع الجزء الاوروبي من البلاد ، وبشكل خاص العاصمة استانبول . فقد تبنت الولايات المتحدة الامريكية بشأنها موقفا لم يختلف في شيء عن مواقف الدول الاوروبية التي انتظرت بفارغ الصبر انتهاء « الرجل المريض » واضعة لذلك اليوم خططا مفصلة احتلت الجانب الاكبر من الدبلوماسية السرية التي عارضها ولسن في البند الاول من بنوده وفي تصريحاته الاخرى . ولكن كما يؤكد لويد جورج انه عندما ناقش مع الرئيس ولسن المسائل المتعلقة بمصير استانبول والمضائق وكل تركيا فان الرئيس هو الذي اقترح ، حسب تعبيره ، ابعاد « الشعب التركي نهائيا عن اوروبا » واقتطاع المضائق واستانبول ووضعها تحت انتداب احدى الدول الكبرى[١٢٩] . وهو يعتبر بدون ادنى شك من اخطر المخططات الاستعمارية التي اثيرت بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى وكان يتناقض بالبداهة مع سيادة ومصالح وطموحات الشعب التركي التي اكد الرئيس مرارا على ضرورة مراعاتها قولا بينما ذهب بشأنها اثناء التطبيق العملي الى مدى ابعد حتى من ممثلي بعض الدول الاوروبية . فهو الذي عارض مثلا ابقاء مدينة استانبول بيد الاتراك وقدم بشأنه في ٢٤ آذار ١٩٢٠ مذكرة خاصة الى السفير الفرنسي في واشنطن[١٣٠] .

قام المسؤولون الامريكيون بدور مشابه بالنسبة لاحدى اكبر ضحايا القسوة المتعصبة ، اي الشعب الارمني الصغير الذي حاولت الدول الكبرى استغلال قضيته المأساوية الى اقصى حد ضمن مخططاتها الاستعمارية المعروفة . وبعد الحرب العالمية الاولى بدأت الولايات المتحدة تعير المسألة الارمنية اهتماما لا يقل بأي حال عن اهتمام فرنسا وانكلترا بها ودافع الرئيس ولسن نفسه عن فكرة « ارمينيا الكبرى » واعاد جميع العبارات الانسانية التي طفحت بها الوثائق الرسمية الاوروبية في اواخر القرن الماضي والتي

---

(١٢٩) Lloyd George, The truth... , Vol I, p. 189.

(١٣٠) راجع : مصطفى كمال ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ٤٣٦ (الملاحظات) .

لم تترجم واحدة منها الى الواقع العملي سوى في اطـار خطط التغلغـل في الامبراطورية العثمانية او تقسيمها • ولم يكتف الرئيس بذلك ، بل شكل ، كما فعـل قبلـه الاخـرون ، لجنـة خاصـة برئاسـة جيمس هـاربورد (James Harbord) لدرس المسألة الارمنية قـامت بزيارة آسيا الصغرى واوصت في تشرين الاول ١٩١٩ بأن تكون هناك دولة منتدبة واحـدة بالنسبة لكل تركيا ومناطق ما وراء القفقـاس وذلـك بسـبب « اعتبارات اقتصادية وعرقية معينة » كما ادعت[١٣١] •

وعندما « اعطت معاهدة سيفر (١٩٢٠) ارمينيا الكثير على الورق » حسـب تعبير تمبرلي الموفق[١٣٢] ، رضي الطرفان المعنيـان ــ الأرمـن والمسؤولون الاتراك في استانبول بأن يقوم الرئيس ولسن ، لا غيره ، بوضع حدود الدولة الارمنية التي نصت البنود ٨٨ ــ ٩٣ من المعاهدة على تشكيلها والتي استوجب لاسباب محددة ــ كما سنرى ــ اهتمـام المسـؤولين الامريكيين المتزايد • ولا يخلو من بعض المعنى ان تحديد الرئيس الامريكي لحدود ارمينيا المقترحة جاء مطابقا تماما لخطوط النار بين القوات الروسية والتركية خلال الحرب العالمية الاولى[١٣٣] •

ظهرت ابعاد اللعبة الكبرى في باريس بأجلى ما يمكن من خلال المسألة الارمنية مع قضية تقرير مصير المضائق والعاصمة استانبول • فان انكلتـرا التي كانت تستميت من أجل شـبر أكثر من المسـتعمرات ومنـاطق نفوذ جديدة لم « ترغب » في « تحمل مسؤولية » شعب مسـيحي طالما أثـارت الحكومة البريطانية الضجة حول حقوقه المهدورة • وان انكلترا نفسها التي كانت تنظر بعين الحسود المتربص الى كل خطوة تخطوهاالولايات المتحدة او مشروع تطرحه شجعت الحكومة الامريكية بحماس « المخلص » لقبول

---

(١٣١) راجـع : G. Lenczowski, Op. Cit., p. 98.

(١٣٢) "A history of the Peace Conference of Paris", Vol. VI, p. 83.

(١٣٣) مصطفى كمال ، المصدر السابق ، الجزء الرابع ، ص ١٣٨ •

الانتداب على ارمينيا واستانبول والمضائق والقفقاس معا ، وبدأت تمـــد للرئيس ولسن على لسان رئيس وزرائها مدى الفوائد التي يمكن جنيها مـــن خلال الاقدام على مثل هذه الخطوة[١٣٤] . كما لم تنس ، وأيضا على لسان رئيس وزرائها ، التأكيد على « المناقب » و « والواجبات » الانسانية التي لم تـــر ، ولكن في هذه الحالة فقط ، جهة اجدر بادائها من الولايات المتحدة لانها ــ كما ادعت ــ ليست لها مصالح حيوية في الشرق الاوسط فتكون بذلـــك بعيدة عن مشاكله[١٣٥] . وبلغ اهتمام الانكليز بهذه المسألة حد ان ممثلهـم لويد جورج اقترح في اجتماع « مجلس الاربعة الكبار » يوم ٢١ آيار ١٩١٩ منح الولايات المتحدة الامريكية الانتداب على استانبول والمضائق وارمينيـا والاناضول وكذلك ما اسماه « بالانتداب الموقت » على « ارمينيا الروسية وآذربيجان ومناطق القفقاس الى ان يتم حل المشكلة الروسية » ، جامعا بذلك وبذكاء السياسي المجرب بين « المشكلتين » الروسية والتركية اللتين كانتـا تهددان فعلا مخططات الحلفاء في الشرق الاوسط .

لم يأت « سخاء » الانكليز في هذه القضية عبثا[١٣٦] . فقبل كل شيء لم ترغب هذه الدول في التغلغل المباشر في هذه المنطقة الحساسة التي كانـت الدلائل تشير الى انهـا مقبلة على تغييرات ظهرت بوادرها في الافق بسرعة . ومن جانب آخر رأت المصلحة في دفع الامريكان بالذات الى التجاور المباشر مع «الخطر البلشفي» الذي كان وأده في مهده ،أو على الاقل حصره في أضيق مجال

---

(١٣٤) راجـــع : Lloyd George, The truth... , Vol. I, p. 190

(١٣٥) ادرك لويد جورج جيدا ان لمثل هذا الكلام وقعـا خاصا في نفس الرئيس ولســـن .

(١٣٦) بالاضافة الى انكلترا رفضت ايطاليا ايضا وللاسباب نفســها تحمـل « مسؤوليات » ارمينيا . حتى ان فرنسـا التي كانت ترغـــب في قبول الانتداب على هذه البلاد اصرت على الا يتعدى القسم الجنوبي منها . اي انها لم ترغب في « التورط » المباشر مع البلاشفة . ومن الجدير بالذكـر ان بريطانيا كانت تعارض منح الانتداب لفرنسـا وتصر على منحه للولايات المتحدة فقط .

ممكن يحتاج الى امكانات واسعة للغاية لم تتوفر في ظروف ما بعد الحرب الا لدى الولايات المتحدة . فان « الدفاع عن الامن » وحده كان يحتاج ـ حسب تعبير وتقدير الانكليز انفسهم ـ الى ما لا يقل عن فرقتين عسكريتين[137] . كما ان مجابهة حركة التحرر ـ الوطني في الاناضول والسلطة السوفيتية في البحر الاسود ومناطق القفقاس كانت تحتاج الى امكانات مادية وعسكريــة اكبر ، مما كان من شأنها ايضا توريط الولايات المتحدة للاشتراك في قمــع حركات التحرر الاخرى التي بدأت تنفجر بشدة في بقية أجزاء الشرقين الادنى والاوســـط .

بالطبع لم يكن الرئيس ولسن واعوانه ـ خاصة الكولونيل هاوس ـ بعيدين عن ادراك واقع اللعبة واهدافها القريبة والبعيدة لذا رفضوا جميــع اقتراحات « الحلفاء » « الودية » بهذا الصدد . واذا كان الرئيس ولسن قــد وضع هذا الرفض كعادته في اطار مثالي فأشار الى « اعتزاز بلاده » بأنها « لم تبتغ من الحرب مقاصد » معينة ولذا فانهـــا « لا تريد ان تفقــد ذلــك الاعتزاز »[138] ، فان غيره من المسؤولين قد وضعوا النقاط على الاحرف بكل صراحة . فمثلا اثناء نقاش المؤتمر لهذه المواضيع ذكر السناتور سمث عنها مــا يلي : « يقترح علينا الانتداب على الامبراطورية التركية ... ولكن اغلــب الظن لا بد من عشر سنوات حتى يصبح بالامكان اقامة قانون ونظام ثابــت في تركيا، وهذا يكلف حوالي مليار دولار في السنة »[139] . وأعطت جريدة « تايمس » اللندنية في عددها الصادر يوم ١٢ آب ١٩١٩ تفسيرا اكثر واقعية حتى من تفسير السناتور الامريكي عندما كتبت تقول : « جاء عرض القضية

---

(١٣٧) Lloyd George, The truth... , Vol. I, p. 190.

(١٣٨) Ibid.

(١٣٩) مقتبس من : ف . ك . تروخانوفسكي ، ســـياسة انكلترا الخارجية في المرحلة الاولى من الازمة العامة للرأسمالية ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩٦٢ ، ص ٩٦ .

في امريكا هكذا : لماذا يجب على الولايات المتحدة قبول صدقة تافهة في الوقت الذي استولت فرنسا وانكلترا على جميع المناطق المربحة » •

بالرغم من كل ذلك كان شخص الرئيس ولسن يميل الى قبول الانتداب على المضائق وارمينيا تؤيده في ذلك اوساط مالية امريكية ، الا ان مجلس الشيوخ قابل الاقتراح بحذر وبرود نأتي على تفاصيل اسبابه فيما بعد • على كل حال ارتبط وجها « اهتمام » الدول الكبرى بأرمينيا والشعب الارمني في شكله الجديد بالاحداث الخطيرة التي وقعت في الحلقة الواسعة المحيطة بارمينيا الصغيرة من جميع الجهات والتي سرعان ما انتشرت آثارها المباشرة الى الجزء الغربي منها[١٤٠] • وقد عبر لويد جورج عن هذه الحقيقة والتوقعات المتصلة بها باسلوبه الخاص حينما قال : « ان ارمينيا المدمرة والمفزعة كانت اعجز من ان تقف بنفسها ضد الترك من جهة وضد البلشفيك من جهة اخرى ، لذا غدا من الضروري ايجاد دولة منتدبة تأخذ على عاتقها مهمة حماية المجتمع الارمني النبيلة في جبال ارمينيا »[١٤١] •

تكررت نفس هذه الصور ، ولكن باطار خاص ، في المشرق العربي الذي احتل مكانة جدبارزة في المخططات الخفية والعلنية للدول الاستعمارية وفي محادثات ومقررات مؤتمر باريس وبالتالي في نشاطات الرئيس الامريكي ولسن الذي كان الجانب الاكبر من بنده الثاني عشر يخص بالاساس هذا الجزء الحساس من الشرق الاوسط •

يعطي موقف الرئيس ولسن ونظامه من قضايا المنطقة المصيرية ومن قواها الوطنية اصدق صورة عن واقع بنوده ومجمل سياسته في الشرق الاوسط •

---

(١٤٠) للتفصيل راجع :
M. Arsalan Bohdanowicz, The truth about the Armenian Question during the First World War, "Journal of the Pakistan Historical Society", Vol. I, Part III, Karachi, 1953, pp. 196—197.

(١٤١) Lloyd George, The truth., Vol. II, p. 1255.

فقبل كل شيء ــ وهذا مهم جدا ــ نرى تجاهلا كليا تقريبا من جانب الرئيس ولسن لمصير مصر واقطار المغرب العربي في خطبه وتصريحاته ونقاشاته مع ان نضال شعوبها لم يكن ادنى مستوى من نضالات الشعوب الاخرى في المنطقة • والسبب كان واضحا • فقد اقتطعت هذه المناطق من الامبراطورية العثمانية و « قرر مصيرها » قبل الحرب بفترة طويلة فلم يشبه وضعها ما كان يسود المناطق الاخرى التي كانت حتى تلك اللحظة جزءا من الامبراطورية العثمانية ولم ينته الصراع من اجل اقتسامها • ومن الجدير بالذكر ان القادة السوفيت ادركوا هذه الحقيقة في وقت مبكر فبعث جيجيرين وزير خارجية روسيا السوفيتية برسالة خاصة الى الرئيس الامريكي في ٢٤ تشرين الاول ١٩١٨ نشر نصها في اليوم التالي في جريدة « ازفيستيا » الرسمية يقول فيها « ••• بودنا ان نعرف بتفصيل منكم ، يا سيادة الرئيس ، ماهو تصوركم عن اتحاد الشعوب الذي عليه ، حسب رأيكم ، ان يتوج قضية السلم • انكم تطالبون باستقلال بولندا والصرب وبلجيكا وبالحرية لشعوب (الامبراطورية) النمسوية ــ المجرية • أغلب الظن انكم تودون القول بأنه يجب قبل كل شيءان تأخذ الجماهير الشعبية في كل مكان على عاتقها تقرير مصيرها حتى تتمكن فيما بعد الانضمام الى اتحاد حر للشعوب • ولكن من الغريب اننا لا نلاحظ في مطاليبكم تحرير ايرلندا ومصر والهند ، ولا حتى تحرير الفليبين • ونحن نأسف جدا اذا لم تتمتع هذه الشعوب معنا بامكانية الاشتراك في اقامة اتحاد للشعوب عن طريق ممثليها المنتخبين انتخابا حرا » •

في الواقع لم يقتصر تجاهل الرئيس ولسن على هذه الاقطار فحسب ، بل انه اهمل كليا وباسلوب بعيد جدا عن روح المجاملة واوليات القيم الديمقراطية الممثلين الحقيقيين لجميع شعوب المنطقة • ويمكن ايراد احسن الامثلة الدامغة بهذا الصدد من خلال موقف الرئيس من النضال التحرري الملتهب انذاك في كل من مصر وسوريا بشكل خاص • فكما سبق الذكر في مدخل هذا البحث بعث الوطنيون المصريون باقتراح من الزعيم السياسي المعروف سعد زغلول

برقية تحية واعجاب الى الرئيس ولسن صاحب البنود الاربعة عشر التي بعثت التفاؤل في نفوسهم . وهي نفسها دفعتهم الى الاستنجاد بالرئيس الامريكي في احرج اللحظات . فعندما منعت السلطة البريطانية سفر الوفد المصري الى باريس لعرض مطاليب الشعب على المؤتمر اسرع سعد زغلول ورفاقه الى ارسال نداء برقي الى شخص ولسن طالبين اليه « تحقيق سعي الوفد في السفر الى مؤتمر الصلح »(١٤٢) .

وبالفعل اضطر المسؤولون الانكليز للسماح للوفد بالسفر الى باريس ، ولكن لا بطلب من الرئيس الامريكي الذي تجاهل نداء الوطنيين المصريين وكأنه لم يكن ، بل تحت ضغط الشعب المصري الذي عبر عن نفسه في سلسلة مظاهرات واضرابات واحتجاجات شاملة هددت الوجود البريطاني في وادي النيل وتحولت الى الشرارة الاولى لانتفاضة عام ١٩١٩ المعروفة .

ولكن على ما يبدو ان ثقة الوطنيين المصريين بالبنود الاربعة عشر وصاحبها بلغت حد انهم لم يعتبروا من الموقف الصريح الذي تبناه الرئيس ولسن نحوهم ونحو قضية شعبهم فظلوا يتوسلون بكل السبل لشرح مطاليبهم المشروعة له مع انها كانت في غنى عن الشرح والتوضيح . فما ان وصل الوفد العاصمة الفرنسية حتى كتب الى الرئيس الامريكي يطلب مقابلته لعرض القضية المصرية عليه . ولم يكتف سعد زغلول بذلك بل زار في الوقت نفسه مقرات رؤساء وفود الدول الكبرى ، وفي مقدمتها مقر الرئيس ولسن ، تاركا لكل واحد منهم بطاقته الشخصية . وبعد ذلك طلب الوفد رسميا وباسم الشعب المصري السماح له « طبقا لقواعد الحق والعدالة » عرض مطاليبه على المؤتمر الذي يعتبره « الهيئة الوحيدة المختصة بحل المسألة المصرية » . وعندما لم يلق الحاح ممثلي الشعب المصري اذنا صاغية لجأ الوفد الى اقامة مأدبة فخمة في فندق باريسي فخم حضرها عدد من الصحفيين والضباط الامريكان

---

(١٤٢) راجع : الدكتور عبدالعزيز رفاعي ، المصدر السابق ، ص ١١٣ .

المرافقين للرئيس ولسن لم تتمخض بدورها عن شيء • « فاشتكى » الوفد برقيا لدى مجلس الشيوخ الامريكي في ١٦ مايس ١٩١٩ مبينا له كيف ان « مؤتمر الحلفاء والدول المشتركة فيه » قد أبى « ان يطبق المبادىء التي دخلت الولايات المتحدة الحرب بغية تحقيقها » (!!) •وبالرغم من «انالشعب المصري ــ كما بين له الوفد في برقيته ــ ينظر الى عدالة ممثلي الديمقراطية الامريكية العظمى المكرمين وانصافهم لنيل امانيه الوطنية » (! !) فأن المجلس لم يتحرك هو ايضا • ودفعت نفس الثقة غير المبررة بالوفد الى اعادة الكرة مع الرئيس ولسن نفسه ، فبعث اليه بخطاب آخر يطلب فيه مقابلته ، فاعتذر الرئيس الامريكي عن قبول الوفد « لانه لا يجد فسحة من الوقت » لذلك[١٤٣] •

لكن « سبق السيف العذل » ، فلم يبق شيء ، كما لم يكن في الاصل شيء ،يبحثه الوفد مع الرئيس ولسن لانه سبق له ان اعترف في المؤتمر بالحماية البريطانية على مصر[١٤٤] التي أعلنتها انكلترا بعد اندلاع الحرب العالمية الاولى مباشرة مثيرة بها استياء الشعب المصري الى اقصى حد • وقد نسف الرئيس الامريكي بموقفه هذا كل الادعاءات التي اثيرت حول اهداف بنوده وتحدى به الشعور الوطني المصري • ولكن لم تستطع الاحتجاجات التي قدمها سعد زغلول احداث اي صدى في مؤتمر باريس الذي ضحى المصريون من اجل ايصال ممثليهم اليه • وجاء ابلغ تعليق حول هذا الحدث على لسان اللورد لويد الذي ذكر ان الشعب المصري قد أساء ، شأنه في ذلك شأن شعوب المنطقة الاخرى ، فهم المدى الذي تذهب

---

(١٤٣) للتفصيل راجع : الدكتور عبدالعزيز رفاعي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ ــ ١٦٦ ؛ محمد صبيح ، كفاح شعب مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٦ ، ص٥٣٧ــ٥٣٩ ، ٥٧٥ ، ٦١٦.

(١٤٤) اسرع المسؤولون الانكليز الى نشر نبأ اعتراف الرئيس ولسن بالحماية البريطانية في مصر واوروبا بقصد احراج موقف الوفد ونكاية بالوطنيين المصريين .

اليه الولايات المتحدة في تطبيق ما نشرته عن حق تقرير المصير لذا « لو سمح للزعماء المصريين منذ البداية بالذهاب الى باريس وتضييع وقتهم هناك » لمنوا مباشرة بالاخفاق ، الا ان السلطات البريطانية اختارت خوض المعركة في مصر دون باريس ، وكانت هذه غلطتها لانها كانت « في باريس تقف علـــى ارض صلبة » على العكس من مصر حيث كان الزعماء المصريون ـ حسب تعبيره ـ « سادة الموقف »(١٤٥) ٠

بقي ان نعرف ان الاعتراف الامريكي بالحماية البريطانية في نيسان ١٩١٩ جاء بالضبط متوافقا مع الايام التي شهدت الدم المصري يراق على اديم وطنه من اجل الاستقلال وحياد قناة السويس ٠ ويجب ان نعرف ايضـا ان الرئيس ولسن قد احتفظ في صيغة الاعتراف بحق مناقشة تفصيلاته في المستقبل لاجراء « التعديلات التي قد تنتج عن القرار فيما يمس حقوق الولايات المتحدة » ٠

لم يكن الوطنيون السوريون اقل تعلقا من اخوتهم المصريين بالرئيـس ولسن وبنوده ، فالتجأوا اليه في الشدائد ومثلهم طلبوا عونـه في الملمـات وآمنوا بصدق وقوة بنوده ٠ فعندما قامت الطائرات الفرنسية بضرب حوران بعثت « لجنة الاتحاد السوري » بمصر في ٢٣ ايلول ١٩٢٠ بنداء الى رئيس الولايات المتحدة ومجلس الشيوخ الامريكي استصرخت فيه « الامـم المتمدنة » للوقوف ضد « قتل النساء والاولاد بلا رحمة » جراء « الاعمـال الوحشية التي يقصر عنها الوصف» ٠ ولم يكن مصير النداء ، مثل غيره ، سوى الاهمال(١٤٦) ٠ والاسوأ من ذلك ان الرئيس ولسن هو الذي اقترح قبل ذلك احتلال سوريا من قبل الفرنسيين اثر تأزم الموقف فيها « الى ان تقرر عصبة

---

(١٤٥) Lord Lloyd, Egypt Since Cromer, Vol. I, London, 1933, pp. 293—294.

(١٤٦) راجع : امين سعيد ، المصدر السابق ، المجلد الثالث ، ص٢٤٦ ، ب . ف . لوتسكي ، المصدر السابق ، ص ١٣٣-١٣٤ .

الامم (طبعا لا شعبها) مصيرها »[١٤٧] • وكان يقصد بتقرير المصير هذا تحديد الدولة التي يعهد اليها الانتداب على البلاد السورية •

من القضايا التاريخية المهمة ذات الصلة بموضوعنا والتي ، حسبما نعلم ، لم تعرض دوافعها الحقيقية حتى الان في اطارها المتكامل على الاقل في الدراسات العربية ، والتي من شأنها ، في حالة تقييمها بشكل صحيح ، توضيح امور في غاية الاهمية هي مسألة بعثة كنك ــ كرين[١٤٨] الامريكية الى فلسطين وسوريا والتي كان من المقرر لها ان تزور العراق ايضا • ففي الكتابات الكثيرة والمتباينة حول هذا الموضوع عرض في الغالب جانب واحد منه وهو ما يتعلق بهدف البعثة في التحقيق عن رغائب اهل المنطقة حول مستقبلهم ، ولكن لم يجر حتى عرض هذا الامر في اطاره الشامل • اما في المؤلفات الغربية فقد اعطي تقييم مثالي اكبر بكثير من الحقيقة والواقع لاعمال واهداف البعثة « الليبرالية »[١٤٩] التي اعتبرت مكسبا مهما للبنود الاربعة عشر •

من المهم جدا ان نلاحظ قبل كل شيء حقيقة ان فكرة ارسال بعثة كنك ــ كرين قدولدت في خضم الصراع الخفي بين اعضاء مجلس « الاربعة الكبار » من اجل مناطق النفوذ • فعندما بلغ الخلاف بين لويد جورج وكليمنصو حول مضامين « سايكس ــ بيكو » في اجتماعات المجلس السرية

---

(١٤٧) راجع : Lloyd George, The truth... , Vol. II, p. 1068.

(١٤٨) شكلت البعثة حسب قرار اتخذ في مؤتمر باريس ، وبالرغم من الاتفاق على ان تضم اعضاء انكليزا وفرنسيين ، الا انها اقتصرت على عضوين هما الاستاذ الجامعي الدكتور هنري كنك (Henry King) ورجل المال المهتم بالقضايا الدولية من شيكاغو جارلس كرين (Charles Crane) الاول منهما صاحب عدد من المؤلفات الدينية، وكرين كان مطلعا على الاوضاع في الشرق الاوسط فقد زاره مرارا كما كان عضوا في مجلس ادارة كلية روبرت في استانبول •

(١٤٩) على سبيل المثال راجع :
H.A. Foster, The Making of Modern Iraq, Oklahoma, 1935, p. 90; G. Lenczowski, Op. Cit., pp. 89—90.

حد الانفجار هب ولسن فاقترح ارسال بعثة امريكية ـ انكليزية ـ فرنسية مشتركة الى المنطقة لتحديد رغائب اهلها في اختيار الدولة المنتدبة • ولم يجر الحديث عن الرغائب الاصلية للسكان التي كانت معروفة بشـــكل واضح لدى قادة المؤتمر وعلى رأسهم ولسن الذي تسلم العديد من المذكرات الضافية بشأنها ، كما لم يكن امر التحركات السياسية الواسعة لنيل الاستقلال الفعلي والتي اتخذ جانب كبير منها شكل التعبير الثوري ، بخاف على سياسي واحد في كل العالم • ومن المهم ايضا ان نلاحظ ان اعضاء المجلس وافقوا بالاجماع في اجتماعهم المغلق يوم ٢٠ آذار ١٩١٩ على ارسال البعثة الى المناطق المذكورة ، وحتى ان لويد جورج لم يبد حماسا اقل من ولسن حول « ضرورة دراسـة رغبات سكان ميسوبوتاميا وفلسطين » واعلن امام المؤتمر رسـميا عـن « استعداده الكلي للرضوخ الى قرار السكان بالشـكل الذي تعرضـه البعثـة »(١٥٠) •

من هنا فان احجام بريطانيا وخاصة فرنسا عن الاشـتراك في اعمـال البعثة المقترحة لم يكن بسبب تخوفهما من نوايا الامريكان الصادقة بالنسبة لاعمالها واهدافها ، بل ان الامر كان يتعلق اولا واخيرا بمـوضوع الصراع الاستعماري « السلبي » الثلاثي المحتدم داخل وخارج اروقة المـؤتمر • فالانكليز والفرنسيون كانوا ينظرون بحذر ـ وكان لهم الحق في ذلك ـ الى كل بادرة امريكية يعرفون مسبقا اهدافها الحقيقية • كما كان الفرنسيون غير مرتاحين من الوجود العسكري والسياسي الواسع للانكليز في جميع المناطق التي كان من المقرر ان تزورها البعثة • وكان الانكليز من جانبهم لا يرغبون في تدخل اي طرف كان وبأي شكل كان في العراق الذي لم يكونوا علـى استعداد لدخول المساومات بشأن مستقبله ، ولا سيما في تلك الظروف التي كانت اوضاعه الداخلية تنبيء بانفجار قوي ضد سيطرتهم • ومن المفيد ان نشير بهذا الصدد ايضا الى نشاطات البعثات التبشيرية الامريكية الواسـعة

---

(١٥٠) Lloyd George, The truth .., Vol. II, pp. 1077-1078.

وكذلك الى تحرك بعض الاوساط المالية الامريكية في هذه الفتره بالذات وجميعها كانت مكرسة من اجل تهيئة رأي عام موال للولايات المتحدة في المنطقـــة[١٥١] .

استقبلت بعثة كنك ــ كريين بحماس من قبل السكان الذين اعتبروها رسول خير من صاحب البنود الاربعة عشر . وقد بلغ تأثير عضويها بالموقف انهما بعثا بعد وصولهما فلسطين مباشرة ببرقية الى الرئيس ولســن في ١٢ حزيران ١٩١٩ اطلعاه فيها على ما احدثه عمله من اثارة عامة للمشاعر . وخلال الاتصالات الواسعة التي اجرتها البعثة عبَّر سكان سوريا وفلسطين عــــن رغبتهم الاكيدة في الاستقلال ، وفي حالة « تعذر » تحقيق ذلك فانهم فضلوا الانتداب الامريكي على غيره ، ولا سيما على الانتداب الفرنسي الـــــذي رفضوه بشكل قاطع . اما نسبة المطالبين بالانتداب الامريكي دون الاستقلال فقد بلغت ٥ر٣٪ من مجموع العرائض المقدمة للبعثة[١٥٢] .

من جانب آخر طالب الوفد العراقي الذي اتصل بالبعثة[١٥٣] في حلب

---

(١٥١) بعد الحرب وانهيار الامبراطورية العثمانية ظهرت الارساليات التبشيرية والمؤسسات الثقافية الامريكية في ثوبها الحقيقي ، اذ لم يقـــل الحماس والنشاط السياسي لاعضائها عن نشاطات العديد من الدبلوماسيين . فكما ذكرنا كان عضو البعثة الامريكية كريين عضوا سابقا في مجلس ادارة كليـــة روبرت الامريكية في استانبول ، و « تبرع » رئيس الجامعة الامريكيـــة في بيروت للدفاع عن مطاليب الشعب السوري بحماس بالغ امام المؤتمر الذي حضره خصيصا لهذا الغرض وسمح له بالكلام بينما منع شخص مثـــل سعد زغلول من عرض قضية شعبه على المؤتمرين .

(١٥٢) ف . ب . لوتسكي ، المصدر السابق ، ص ٧١ ــ ٧٢ . بلغ مجمـــوع العرائض المقدمة الى البعثة ١١٥٢ عريضة ، ٦٠٪ منها فضلت الانتداب الامريكي في حالة « تعذر » الاستقلال ، راجع :
Lloyd George, The truth... , Vol. II, pp. 1161—1162.

(١٥٣) تشير المعلومات التي يوردها الاستاذ عبدالمنعم الغلامي ، وهـــو مـــن المشتركين في احداث العشرينات ، الى ان الوطنيين العراقيين مـــن عرب واكراد بعثوا بمذكرات عديدة حول مطاليبهم الى شخص الرئيس ولســن (عبدالمنعم الغلامي ، ثورتنا في شمال العراق ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ ، الجـــزء الاول ، بغداد ، ١٩٦٦ ، ص ١١٢ ، ١٢٨) .

بالاستقلال فقط ولم يتطرق ــ على العكس من السوريين ــ الى موضوع الانتداب الذي رفضه ، واحتج ضد المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الامم المكرسة لموضوعه ؛ طالب الوفد العراقي ايضا بالاستقلال الناجز لسوريا ، كما عارض هجرة اليهود والهنود الى المنطقة ، ولكنه رحب بدوره بالمساعدة الاقتصادية والفنية الامريكية بعد نيل الاستقلال(١٥٤) .

لا ينكر ان جميع هذه المطاليب وجدت لها انعكاسا أمينا الى حد كبير في التقرير الذي اعده الدكتور هنري كنك وجارلس كريين وقدماه الى شخص الرئيس ولسن فتضمن بذلك توصيات مهمة لو اخذ بها لاثر حتما على مصير اكثر مناطق الشرق الاوسط حساسية . ولكن مع ذلك ، او بالاحرى بسبب ذلك ، ظل التقرير مكتوما لمدة حوالي ثلاث سنوات (نشر في عام ١٩٢٢) ولم تستطع توصياته الواضحة التأثير بأي شكل على موقف الرئيس ولسن ، فلا نجد لها اثرا في رسائله وخطبه وكلماته « المثالية » الكثيرة ــ دعك عن اعماله ــ التي يعود تاريخها الى فترة لم « ينس » فيها قضية ارمينيا مثلا لانها ــ وهنا بيت القصيد ــ كانت على صلة وثيقة بـ « الخطر البلشفي » في حدودها الشرقية و « بالخطر الكمالي » في حدودها الغربية .

يميل المؤلفون الغربيون الى ربط اهمال تقرير بعثة كنك ــ كريين بعودة الرئيس الامريكي الى بلاده وبموقف الانكليز والفرنسيين السلبي من التقرير(١٥٥) . في الواقع لا ينكر ان السبب الثاني ، لا الاول ، لعب دورا بارزا في الموضوع . ولكن حتى هذا يبقى دون اهمية السبب الأساس الذي نجم عن معارضة الحركة الصهيونية ومؤيديها ــ وعلى رأسهم الامريكان ــ لمضمون التقرير لاسباب سنأتي على تفاصيلها . كما ان التقرير بمجرد عرضه لموقف ومطاليب سكان المنطقة كان يضع الحلفاء ، وفي مقدمتهم شخص

---

(١٥٤) راجع :
H.A. Foster, Op. Cit., p. 90; G. Lenczowski, Op. Cit., p. 89.

(١٥٥) راجع على سبيل المثال : G. Lenczowski, Op. Cit., p. 90

رئيس ولسن ، امام موقف حرج للغاية بسبب توافقه الواضح مع مضمون بنوده الاربعة عشر وتصريحاته المتكرره ، اي مع اقواله ، وتعارضه الكلي مع فعـــاله .

لم تقتصر الثقة بالرئيس ولسن وبنوده على الاوساط الديمقراطيـــة والثورية في المنطقة بل امتدت اثارها لتشمل حتى الاوساط العربية المعتدلة الموالية للغرب ، وخاصة لانكلترا ، باخلاص ، ولكن لم تؤد مساعيها ايضـــا الى اي نتيجة . فما ان اعلن ودرو ولسن عن نياته وبنوده حتى بعثت وكالة خارجية حكومة الملك حسين في الحجاز بمذكرة الى الحكومة الامريكيـــة استعرضت فيها ما عاناه العرب من اضطهاد الترك وما قدموه من خدمات للحضارة الاوروبية تجعل من « الحكومة العربية في الحجاز » ان لا « تجد من الامة الامريكية العظيمة سوى عطف ومودة » ، لذا فانها تأمل في « ان تعترف بها حكومة الجمهورية الكبرى ولا سيما بعد دخولها الحرب الـــى جانب الحلفاء مملكة مستقلة كما اعترفت بها الدول المتحالفة » . وجاء في المذكرة ايضا : « يعلق جلالة مولاى اهمية كبيرة على هذا الاعتراف الذي سيكون أول تنفيذ فعلي لمبدأ تحرير الشعوب الـــذي أيده جنـــاب الرئيس ولسن وقد دخلت بلادكم الحرب لتحقيقه ... ولهذا فالمملكة الجديدة تعتبر نفسها من كل الوجوه ذات حق بعطف حكـــومة الجمهوريـــة الكبرى ومساعدتها »(١٥٦) . ولم نعثر في اي مصدر على دليل يشير الى رد الحكومة الامريكية على هذه المذكرة الرقيقة ، كما انها لم تعترف بحكومة الملك حسين لانها كانت تعتبرها صنيعة مخلصة للانكليز . كما لم يهتم الرئيس بالمطاليب التي أثارها الامير فيصل في المؤتمر مع انه وجه اليه بعض الاستفســـارات الخاصة برغائب سكان المنطقة .

قبل ان نختتم هذا القسم من البحث لا بأس ان نشير هنا الى ان الكاتب والصحفي الامريكي المعروف جون ريد ادرك ثقة شعوب الشرق غير المبررة

---

(١٥٦) مقتبس من : امين سعيد ، المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ٣١٨ ؛ محمدطاهر العمري ، المصدر السابق ، المجلد الثاني ، ص ١٦٦ ــ ١٦٨ .

بالولايات المتحدة مما دفعه الى ان يتوجه باخلاص الى ممثليها المجتمعين في اول مؤتمر تاريخي لشعوب الشرق عقد في ايلول ١٩٢٠ بمدينة باكـــو الاذربيجانية بمثل هذا الرجاء الحار المشوب بالتحذير حينما قال لهم :

« يا شعوب الشرق ، ويا شعوب اسيا ٠ انكم لم تذوقوا بعد النـير الامريكي ٠ أنتم تعرفون ، وتمقتون عن حق ، الامبرياليين الفرنســيين والانكليز والايطاليين ، ولعل بعضا منكم يظن ان « امريكا الحرة » ســوف تدير المستعمرات على نحو افضل ، وتعتق شعوبها وتعمل على اطعامهــم وحمايتهم ٠ كلا ! ٠ ان العمال والفلاحين في الفليبين وشعوب امريكا الوسطى وجزر البحر الكاريبي يعرفون ما معنى الحياة تحت سيطرة «امريكا الحرة» !» بعد ذلك يأتي جون ريد على ذكر سلسلة من الامثلة استقاها من التاريــخ القريب تبين كيف ان « محرري » الامس « يذبحون السكان المحليين ويخنقون النســـاء والاطفال » من اجل التسلط على اوطانهم(١٥٧) ٠

مع ان الحقائق السالفة ابلغ من ان تكون بحاجة الى تعليق او توضيح او مزيد من الامثلة ، الا انها تبقى ناقصة لاعطاء الصورة المتكاملة دون ربطها بقضية مهمة اخرى تتعلق مباشرة بموقف الرئيس ودرو ولسن من الحركـة الصهيونية ، وهي امر لم يجلب انتباه المؤرخين عند تقييمهم لبنوده الاربعـة عشـــر ٠

ولسن والصهيونية :

من المسلم به ان سياسة بريطانيا ومصالحها هي التي لعبت الـــدور الاساس لتحقيق المخططات الصهيونية بشأن فلسطين في المجال الدولي خلال الفترة الحاسمة الممتدة بين عام ١٩١٧ ونهاية الاربعينيات ٠ لكن لم يقل دور

---

(١٥٧) مقتبس من « المؤتمر الاول لشعوب الشرق » ، ترجمة فواز طرابلسي ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٢ ، ص١٢٤ . نص الخطاب : ص ١٢٤ ــ ١٢٩ . للتفصيل حول اعمال المؤتمر وخطاب جون ريد راجع مقال السيد زهير احمد القيسي المنشور في « آفاق عربية » ، العدد ١٢ ، آب ١٩٧٦ ، ص ٨٠ ــ ٨٥ مع الموضوع الخامس في هذا الكتاب .

الولايات المتحدة الامريكية ، وبالتحديد دور نظام الرئيس ولسن ، اهمية منذ ان بوشر بالتطبيق العملي على الصعيد الدولي لتلك المخططات التي ارتبطت بدايتها الفعالة بتصريح بلفور المعروف . وقد اتخذ الدور الامريكي هنا اشكالا مختلفة . فعندما ناقش مجلس الوزراء البريطاني فكرة اصدار وعد رسمي حول « الوطن القومي لليهود » عارض الوزير اليهودي اودين مونتاكو (O. Montagu) الاقتراح بشدة ووقف الى جانبه آخرون متنفذون داخل المجلس وخارجه منهم اللورد كرزن . وكانت معارضة هؤلاء من القوة بحيث انها اوصلت القضية برمتها الى « الطريق المسدود » حسب تعبير وايزمان[١٥٨] ، فجاءت ما يمكن وصفها بـ « وصفة الانقاذ » من حكومة الرئيس ولسن التي اعتزمت الحكومة البريطانية منذ البداية استشارتها حول موضوع التصريح واعتبرت موقف رئيسها شرطا مهما للاقدام على نشره . فقرر مجلس الوزراء الانكليزي في اجتماعه المنعقد بتاريخ ٣ ايلول ١٩١٧ الاتصال بالرئيس ولسن « واشعاره بأنه يطلب من الحكومة (البريطانية) اصدار تصريح يعبر عن العطف على الحركة الصهيونية والطلب منه ابداء رأيه حول مدى ملائمة مثل هذا التصريح »[١٥٩] . وقد تردد الرئيس قليلا في اتخاذ موقف علني مباشر بهذا الصدد لا لانه وضع في الحسبان الوضع الراهن في فلسطين بل لانه لم يكن يرغب في اثارة الدولة العثمانية التي لم تكن بلاده في حالة حرب معها ، كما انها كانت لا تزال تتمتع بالسيادة القانونية على فلسطين . والا فان ودرو ولسن ذهب الى حد ابعد بكثير من مجرد مساندة الحركة الصهيونية بحيث كان يعتبر نفسه صهيونيا في بعض المحافل[١٦٠] . كما ان واحدا من اقرب اعوانه وهو رئيس المحكمة العليا لويس برانديز (Brandeis) كان من زعماء الحركة الصهيونية المعروفين

---

(١٥٨) راجع : G. Lenczowski, Op. Cit., p. 80

(١٥٩) Lloyd George, The truth... , Vol. II, p. 1135.

(١٦٠) G. Lenczowski, Op. Cit., p. 80

بنشاطاتهم الواسعة . لذا لم يدم تردده الا لفترة قصيرة للغاية . فلم تمض على الاستفسار البريطاني سوى اسابيع قليلة عندما اخبر بلفور مجلس الوزراء بأن « الرئيس ولسن يعطف الى اقصى حد على الحركـة الصهيونية »[١٦١] . واعترف وايزمان في مذكراته بأن هذا الموقف بالذات تحول الى عامل حاسم للاعلان عن تصريح بلفور لانه ادى الى الخروج من المأزق أو « الطريـق المسدود » الذي اوجدته الاوساط اليهودية البريطانيـة المعادية للحركـة الصهيونية[١٦٢] . وفعلا كان تأثير الموقف كبيرا الى درجة ان العديد من امثال اللورد كرزن قد غيروا بدافع منه موقفهم المتشدد السابق مما مهد الطريـق لاصدار التصريح دون تردد .

اعلن الرئيس ولسن بعد ذلك مباشرة موقفه من الموضوع امام الرأي العام الامريكي بهذا الاسلوب : « قررت الامم المتحالفة بمساندة مطلقة من جانب حكومتنا وشعبنا وضع اساس للدولة اليهودية في فلسطين[١٦٣] » . ومن المهم جدا ان نلاحظ هنا ان بلفور لم يتجرأ في تصريحه التعبير عن رأيـه بمثل هذه الجرأة والصراحة التامة ، فهو لم يتكلم عن « الدولة اليهودية » بـل وعـد النظر « بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسـطين » على ان « يفهم بوضوح انه لن يؤتى بعمل مـن شـأنه ان يغير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الان في فلسطين » . من هنا فان الرئيس ولسن يكون اول مسؤول اعطى تصريح بلفور بعده الحقيقي الذي لم يقل مفعوله على المدى البعيد عن تأثير ملايين النسخ من تصريح بلفور التي قامت الطائرات البريطانية بتوزيعها على مناطق شتى من العالم بعدد من اللغات .

---

(١٦١) راجـــع : Lloyd George, The truth... , Vol II, p. 1135

(١٦٢) G. Lenczowski, Op. Cit., p. 80

(١٦٣) مقتبس مـــن : Lloyd George, The truth... , Vol. II, p. 1139

من خلال هذا الواقع ، دون سواه ، يجب تقييم نتائج اعمال بعثة كنك ـ كرين بالنسبة للقضية الفلسطينية . فقد حددت البعثة في تقريرها نقاطا مهمة حول مصير فلسطين اهمها اطلاقا هي الملاحظة التالية : « يوجد اعتبار آخر لا يجوز التغاضي عنه اذا اعتبرنا ان فلسطين ستصبح في نهاية المطاف دولة يهودية ... ويتصل هذا الاعتبار بحقيقة ان فلسطين هي « ارض مقدسة » بالنسبة لليهود والمسيحيين والمسلمين على السواء . فملايين من المسيحيين والمسلمين في كل انحاء العالم قلقون لا اقل بأي حال من اليهود حول الاوضاع في فلسطين ، خاصة تلك التي تمس الشعور الديني والحقوق (القائمة) . ومن هذه الزاوية فان الوضع في فلسطين معقد وحساس الى اقصى حد . وحتى مع احسن النوايا الممكنة يشك في ان يبدو اليهود للمسيحيين والمسلمين حماة حقيقيين للاماكن المقدسة او قيمين على الاراضي المقدسة عموما . والسبب يكمن في ان هذه الاماكن مرتبطة بالمسيح وهي لذلك تعتبر اكثر قداسة للمسيحيين . كما انها مقدسة في نظر المسلمين ايضا . اما بالنسبة لليهود فانها (اي العتبات المقدسة بالنسبة للمسلمين والمسيحيين لا اليهود) ليست غير مقدسة فحسب بل ممقوتة ايضا . لذا منغير المعقول بكل بساطة ان يشعر المسلمون والمسيحيون بالاطمئنان في حالة وضع هذه الاماكن في ايد يهودية او حتى جعلهم قيمين عليها . وبالاضافة الى ذلك توجد مناطق اخرى كثيرة سوف يكن نحوها المسلمون نفس الشعور . لذلك فان المسلمين الذين ينظرون بعين التقديس الى الاماكن المقدسة لجميع الديانات يكونون افضل من اليهود لحمايتها . ويصح التفكير في ان الذين يدافعون عن المنهج الصهيوني المتطرف لم يدرسوا بما فيه الكفاية جميع آثار الاحتلال اليهودي الكامل لفلسطين . ان مثل هذا الاحتلال سيؤدي حتما الى تعاظم الشعور المعادي لليهود سواء في فلسطين او في البلدان الاخرى حيث يعتبرون فلسطين ارضا مقدسة » .

ثم تذكر البعثة في تقريرها : « انطلاقا من كل ما مر ترى البعثة ، بالرغم من شعورها العميق نحو قضية اليهود ، ان من واجبها التوصية بأن

يوافق مؤتمر السلام (في باريس) على المنهج الصهيوني بعد تقليصه الى حد كبير ، شريطة ان ينفذ حتى في هذه الحالة ببطء كبير ، مما يعني ضرورة تحديد معين لهجرة اليهود ورفض مشروع تحويل فلسطين الى دولة يهودية . وفي مثل هذه الحالة لا تظهر اية موانع لضم فلسطين ، مثل بقية اجزاء سوريا ، الى الدولة السورية الموحدة . اما الاماكن المقدسة فيمكن ايداع حمايتها الى لجنة دولية ودينية ... يجب ، بالطبع ، ان يكون اليهود ممثلين فيها »(١٦٤) . بينت البعثة ايضا كيف ان الصهيونيين يأملون في اجلاء السكان غير اليهود عن فلسطين بشراء اراضيهم بوسائل مختلفة ، واشارت الى انه طبقا لما اعلنه الرئيس ولسن في ٤ تموز ١٩١٨ توضيحا لبنوده الاربعة عشر حول ضرورة حل كل مسألة لها مساس « بالارض او السيادة او الاقتصاد او بالعلاقات السياسية » على اساس قبول الناس الذين يعنيهم مباشرة قبولا حرا لا على أساس مصلحة دولة او امة اخرى(١٦٥) فان السكان غير اليهود في فلسطين وهم تسعة اعشار السكان « يرفضون البرنامج الصهيوني رفضا باتا » . وتثبت الاحصاءات ــ كما ذكرت ــ ان سكان فلسطين لم يجمعوا على شيء اجماعهم على هذا الرفض ، مما يجعل تنفيذ البرنامج بدون قوة السلاح في عداد المستحيلات(١٦٦) .

من هنا يتوضح لماذا اهمل ولسن تقرير البعثة وغض الطرف عن التوصيات الصريحة الواردة فيه ولذلك ايضا لم يعرض التقرير على مؤتمر

---

(١٦٤) مقتبس من :
Lloyd George, The truth... , Vol. II, pp. 1159—1161

(١٦٥) حول نصه راجع :
C.E. Black and E.C. Helmreich, Op. Cit., pp. 840—841.

(١٦٦) راجع : الدكتور محمود حسن صالح منسي ، المصدر السابق ، ص ١٦٦ ــ ١٦٧ . ورد في التقرير ما نصه : « نشك في ان يعتقد اي مسؤول بريطاني او امريكي هنا (في فلسطين ــ ك . م .) ان بالامكان تنفيذ البرنامج الصهيوني الا بمساعدة جيش كبير » (دزموند ستيوارت ، المصدر السابق ، ص ٢٧٠) .

السلام في باريس فظل مكتوما في ارشيف الوفد الامريكي الى ان انتهى المؤتمر من اعماله ، خاصة وان الرئيس نفسه قد طمأن ممثلي الحركة الصهيونية عندما ابدوا بعض المخاوف من ارسال بعثة كنك ـ كرين الى فلسطين بانه « استنادا لرغبة الشعب الامريكي ورغبته الشخصية ورغبة الحلفاء ، على الصهيونيين ان يثقوا في ان فلسطين ستكون وطنا قوميا للاسرائيليين »(١٦٧) .

ان هذا الموقف وتأييد تصريح بلفور يتناقضان كليا مع مضمون البند الثاني عشر من بنود الرئيس ولسن . الا ان الاوساط الرسمية المعنية اعتبرت مثل ذلك التفكير « تفسيرا خاطئا » على اساس ان الرئيس الامريكي كان « نصيرا متحمسا » لسياسة بلفور بخصوص الحركة الصهيونية ومستقبل فلسطين(١٦٨) . ثم ان نظام الانتداب الذي تحمس له ولسن تحول الى عامل مساعد فعال لاعطاء مخططات الانكليز بشأن فلسطين ، الصبغة القانونية الدولية . فكما هو معلوم تم في ٢٥ نيسان ١٩٢٠ منح بريطانيا الانتداب على فلسطين وقد تضمنت شروطه « اقامة وطن قومي لليهود » فيها ، وعالجت مادته الرابعة موضوع « الوكالة اليهودية » في فلسطين التي عهدت ادارتها للمنظمة الصهيونية العالمية وكانت مهمتها التعاون مع الدولة المنتدبة في اقامة « الوطن » المذكور(١٦٩) . وقد جرى كل ذلك بعلم وموافقة الحكومة الامريكية التي يبدو واضحا من كل ما سبق ان مسؤولياتها لا تقل عن مسؤولية الحكومة البريطانية في « تقرير مصير » فلسطين بالشكل الذي ارادته الحركة الصهيونية . ومن هنا تشكل سياسة الرئيس ولسن بالذات البداية الثابتة للسياسة الامريكية المتشعبة تجاه الصهيونية .

---

(١٦٧) مقتبس من : الدكتور محمود حسن صالح منسي ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(١٦٨) Lloyd George, The truth... , Vol. II, p. 759

(١٦٩) راجع : G. Lenczowski, Op. Cit., pp. 316—317

الاستنتاج الاخير :

تعطي الحقائق الواردة في اقسام هذا البحث امكانية التوصل الى عدد من الاستنتاجات التأريخية المهمة حول بدايات تغلغل النفوذ الامريكي في الشرق الاوسط وطبيعة بنود الرئيس ولسن الاربعة عشر ، وهما موضوعان مترابطان عضويا فيما بينهما •

ان بدايات التغلغل الاقتصادي الامريكي في المنطقة كانت بطيئة ، الا انها كانت في تطور مستمر هيأ الظروف الملائمة لمرحلة جديدة من التغلغل بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى • وقد ساعدت مجموعة عوامل ــ بعضها جديدة ــ في تثبيت اسس مرحلة ما بعد الحرب منها زوال منافسة المانيا القوية والتراكم الهائل في الرأسمال الامريكي الفائض وازدياد حاجات المنطقة وتطور وسائط النقل السريع بحيث ساعد في تقريب الشرق الاوسط من الولايات المتحدة[١٧٠] وقد ادى كل ذلك الى توثيق العلائق الاقتصادية بين اقطار الشرق الاوسط وامريكا بحيث ان حجم التبادل التجاري مع بعضها قد تضاعف بالنسبة لفترة ما قبل الحرب •

---

(١٧٠) ترك تطور وسائط النقل بوتائر سريعة اكبر الآثار على الحياة الاقتصادية في كل العالم ، وقد تحولت متطلبات الحرب العالمية الاولى الى قوة دفع جديدة لتسريع تقدم هذه الوسائط . فمثلا تم اختراع السيارات في اواخر القرن التاسع عشر ، وفي عام ١٩٠٠ بلغ مجموع السيارات الصغيرة في كل الولايات المتحدة ثمانية الاف سيارة فقط بينما ارتفع العدد في عام ١٩١٥ الى ٨٩٥ الف سيارة وفي عام ١٩٢٩ الى ٥ر٤ مليون سيارة صغيرة ، وبلغ انتاج سيارات الحمل فيها ٧٤ الف سيارة عام ١٩١٥ و٧٧١ الف سيارة عام ١٩٢٩ . تطورت صناعة الطائرات بنفس الوتيرة تقريبا ، فعندما بدأت الحرب بلغ مجموع ما لدى الدول المشتركة فيها من الطائرات ٦٤٤ طائرة فقط بينما انتجت نفس الدول خلال سنواتهاحوالي ١٨٢ الف طائرة جديدة . حدثت في الوقت نفسه طفرة مهمة في صناعة السفن ذات الاهمية القصوى بالنسبة لتجارة امريكا الخارجية . وقد ساعد استخدام البترول كوقود بدل الفحم في تسيير السفن على مضاعفة ذلك التطور ، فقد بلغت طاقة الاسطول التجاري الامريكي عند نهاية الحرب عشرة اضعاف طاقتها قبل الحرب .

اما بداية التغلغل الثقافي الامريكي في المنطقة فقد اتخذت طابعا اسرع ولم يخل من مردودات سياسية قوية ظهرت اثارها بشكل محسوس بعد الحرب العالمية الاولى •

جاءت بنود الرئيس ولسن الاربعة عشر ـ الوليد الشرعي للنظام الرأسمالي الامريكي ـ وسيلة لها طابعها المميز الناجم عن ظروف خاصة لتحقيق اهداف بعيدة المدى كان انجازها يعتمد الى حد كبير على زحزحة التفوق الاوروبي ، لا سيما الانكلو ـ فرنسي ، في النصف الشرقي من الكرة الارضية • ولهذا السبب وقف رئيس الوزارة البريطانية لويد جورج ونظيره جورج كليمنصو بالمرصاد لجميع خطط الرئيس ولسن وتربصوا لاهدافه المعلنة والمخفية ولم يقصروا في الكشف عنها • وقد تبلور موقفهما بشكل خاص اثناء مؤتمر السلام في باريس حيث استطاعا احراج موقف الرئيس الامريكي لمرات عديدة بلغ حد اللعب عليه احيانا ، ولكن بذكاء خارق • ومن شأن بعض تعليقاتهما الساخرة بصدد بنود الرئيس ولسن ومواقفه اعطاء صورة من نوع خاص عما كان يجري سواء وراء الكواليس او فوق المسرح نفسه • فقد ذكر كليمنصو متهكما ما معناه : « ان موسى اتانا بعشر وصايا ، لكن ولسن اتانا منها باربع عشرة »[١٧١] • ذكر لويد جورج باستهزاء نابع من الدوافع نفسها : « اعتقد فعلا ان الرئيس ••• كان يعتبر نفسه مبشرا يقع على عاتقه انقاذ الكفار الاوروبيين المساكين من عبادة اله كاذب وقاس ••• وقد سأل : لماذا لم يستطع المسيح حتى الان اقناع العالم بأسره باتباع تعليماته ؟ ذلك لانه بشر بمثل دون ان يبين الاساليب العملية لتحقيقها • ولهذا السبب اني اعرض عليكم خطة عملية لتحقيق اهدافه » • وعند سماع هذا القول فتح كليمنصو عينيه الغامقتين على مهل حتى النهاية ونظر الى الحاضرين ليرى الى اي حد أثر على المسيحيين

---

(١٧١) جلب انتباهي الى هذا القول المعبر زميلي واستاذي الفاضل الدكتور عبدالقادر احمد اليوسف •

الموجودين فضح الههم العاجز »[١٧٢] • ولا يخلو من معنى عميق ما ذكره لويد جورج متقصدا عن موقف ولسن اثناء مناقشة مصير المستعمرات الالمانية امام المؤتمر التي جعلته يفقد السيطرة على نفسه « لاول مرة » ويخرج « عن طوره الهادىء المليء بالاحترام »[١٧٣] • واخيرا وضع رئيس الوزارة البريطانية النقاط على الاحرف بكل صراحة عندما قال وباسلوب غير خال من الاستهزاء ايضا ، لقد « توضح اكثر ان الامريكان انما يريدون بعث العدالة على حساب دماء واموال[١٧٤] تلك الامم التي عانت اكثر من غيرها في هذه الحرب وانهكها ما تحملت من ضحايا »[١٧٥] •

يمكن اعتبار موقف المانيا المقهورة من بين المؤشرات المهمة لتحديد النوايا الحقيقية لبنود الرئيس ولسن • فانها تحولت في الايام الاخيرة من الحرب الى « نصيرة » لها ، ذلك لانها ادركت جيدا ان تحقيق البنود انما يستهدف اضعاف عدوتيها اللدودتين انكلترا وفرنسا مما كان يعني في الوقت نفسه تعميق التناقضات بين الحلفاء المنتصرين • وهذا الاخير كان يشكل المنفذ الاهم لتستطيع المانيا النفوذ من خلالها الى المسرح من جديد ، وهو ما شهده العالم فعلا قبل مضي فترة طويلة على انتهاء الحرب العالمية الاولى • ومن هنا لم يكن عبثا ان بعث رئيس الوزراء الالماني باكس بيدينسكي في ليلة ٤ على ٥ تشرين الاول من عام ١٩١٨ ببرقية مستعجلة خاصة الى الرئيس ولسن عن طريق السفير السويسري ينبئه فيها عن قبول بلاده انهاء الحرب وعقد الصلح على اسس بنوده المعلنة ، وانضمت النمسا مباشرة الى القرار الالماني • وبعد اتصالات سرية واسعة بين الطرفين رضخت المانيا لجميع مطاليب الرئيس الامريكي بما فيها ازاحة الامبراطور ولهيلم الثاني عن العرش ، الا انها التمست منه عدم تأييد مطاليب من شأنها مس كرامة

---

(١٧٢) Lloyd George, The truth... , Vol. I, pp. 223—225

(١٧٣) Ibid, Vol. I, pp. 541—542

(١٧٤) في النص : كنوز .

(١٧٥) Lloyd George, The truth... , Vol. II, pp. 1294—1295

الشعب الالماني وفرض صلح غير عادل ، اي فسح المجال للانكليز والفرنسيين لتحقيق خططهم الرامية الى تحطيمها نهائيا . ومن المهم ان نلاحظ ان انكلترا وفرنسا لم توافقا على الاقتراح الا بعد ان توترت علاقاتهما مع الولايات المتحدة التي هددت بعقد صلح منفرد مع المانيا . ولكن حتى بعد اضطرارهما للموافقة على عقد الصلح فانهما اعترضتا على ما يتعلق بحرية البحار الواردة في البنود الاربعة عشر واكدتا على ضرورة تحمل المانيا دفع تعويضات الخسائر التي سببتها للحلفاء في البر والبحر والجو[١٧٦] . وهكذا تحولت البنود منذ اللحظة الاولى الى اساس معترف به لعقد الصلح بين الاطراف المتحاربة . وبذلك خطت حكومة ولسن خطوة الى الامام في ميدان الصراع من اجل الزعامة الدولية . وغذى المسؤولون الالمان من جانبهم هذا الاتجاه بشكل يخدم مصالح بلادهم في المدى البعيد . فانهم غالبا ما كانوا يتجاهلون بشكل متقصد الدول الاوروبية المعادية ويتوجهون في كل امر يتعلق بمستقبل الحرب والسلم الى الولايات المتحدة وحدها لاعطائها صفة زعيمة جبهة الحلفاء التي على موقفها ، دون غيرها ، يتوقف اقرار جميع القضايا المصيرية . وبنفس الروحية تصرف ممثلو المانيا في مؤتمر باريس ، ووصل « تمسكهم » ببنود ولسن حدا انهم اعلنوا بكل صراحة رفضهم أي معاهدة للصلح لا تتفق كليا مع روح تلك البنود[١٧٧] .

من جانب آخر تحولت اجتماعات ومقررات مؤتمر باريس نفسه ، مع ما رافقته من احداث الى ورقة كشف عملية لمضمون البنود الاربعة عشر . فلم يقل دور ودرو ولسن عن دور لويد جورج وجورج كليمنصو في صياغة معاهدة الصلح التي لم تكن في حقيقتها سوى الوجه العلني للمعاهدات والاتفاقات الانكلو ـ فرنسية السرية من قبيل « سايكس ـ بيكو »

---

(١٧٦) راجع : « تاريخ الدبلوماسية » ، الجزء الثاني ، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٣ ؛
"War memories of Lloyd George", Vol. VI, London, 1956, p. 3147

(١٧٧) « تاريخ الدبلوماسية » ، الجزء الثالث ، ص ٤٦ .

وغيرها ، ولكن في اطار التناسب الجديد للقوى على الصعيد العالمي • فالمعاهدة الجديدة اعادت تقسيم المستعمرات ومناطق النفوذ وثبتت الانتداب وهي لهذه وغيرها من الاسباب لم تستطع ابعاد شبح حرب عالمية جديدة سرعان ما هددت البشرية من جديد • وقد عبر الدبلوماسي الامريكي جورج كينن عن هذه الحقيقة ببراعة عندما قال : وهكذا عقد الصلح « وكأن مآسي المستقبل كتبت فيه بيد الشيطان »(١٧٨) •

كان من الطبيعي ان يدخل اهتمام الولايات المتحدة الامريكية بالشرق الاوسط مرحلة جديدة في عهد الرئيس ولسن الذي شهد تحولات كبيرة على الصعيدين الداخلي والعالمي ، فقد تبلورت في سنوات الحرب وبعدها مباشرة الاطماع الامريكية بالنسبة لاقطاره الى حد كبير • وكان لتلك الاطماع كل ما يبررها من وجهة نظر متطلبات الرأسمالية التي تبحث دائما عن المجالات الاكثر ربحاً والأبعد افقا ، ويعتبر الشرق الاوسط بدون جدال النموذج الامثل بالنسبة لكليهما ، ولا سيما بعد اكتشاف كميات هائلة من النفط فيمناطق منه ملائمة جدا للاستغلال والتسويق • وهو في كل الاحوال ، خاصة بعد انتصار ثورة اشتراكية على تخومه وبعد اكتشاف النفط فيه كما قلنا ، لم يقل اهمية من الشرق الاقصى الذي جلب انظار الاحتكاريين الامريكان قبل الحرب بفترة غير قصيرة •

انعكست طبيعة الاهتمام الامريكي الجديد بمناطق الشرق الاوسط في البنود الاربعة عشر للرئيس ولسن وفي تصريحاته ومواقفه الكثيرة اثناء مؤتمر باريس ، وكذلك في رغبته الاكيدة لنيل بلاده الانتداب على اجزاء مهمة من المنطقة ، حتى انه بعد عودته من باريس بدأ مباشرة بشرح فكرة و « ضرورة» الانتداب الامريكي للرأي العام في بلاده • وقد ايد قطاع من صحافة الاوساط المالية الامريكية آراء الرئيس ولسن حول الانتداب فبدأت تبحث عن مبررات « نظرية » بوحي من افكاره • فان بعد الولايات المتحدة ـ حسبما جاء في

(١٧٨) G. Kennan, Op. Cit., p. 61

احدى المجلات الامريكية ـ يجعل « وظيفتها في المحافظة على استقلال ارمينيا والبلاد العربية اسهل بالشيء الكثير مما لو عهد ذلك الى انكلترا او فرنسا »[١٧٩] . ولا يعكس فشل خطط ولسن الوقتي بالنسبة للشرق الأوسط ضمن فشل سياسته العامة واقع التوجه الامريكي الجديد نحو المنطقة ، بل ارتبط الامر بجملة عوامل معقدة نأتي على تفاصيلها فيما بعد والتي تفاعلت معها بعض العوامل الخاصة من خلال تأثيراتها على السياسة الامريكية تجاه الشرق الاوسط . فقبل كل شيء يجب ان نأخذ بالحسبان حقيقة ان كل محاولة امريكية للتغلغل في الشرق الاوسط ، تحت اي واجهة ، كانت تصطدم بمقاومة عنيفة من جانب انكلترا وفرنسا اللتين كانتا تتمتعان آنذاك بمواقع اقوى بكثير من الولايات المتحدة في المنطقة ، وكان الاحتفاظ بتلك المواقع مع تطويرها واحدا من العوامل الرئيسة التي دفعت بهما الى غمار الحرب . فاذا كانت اقدام الجيوش الامريكية لم تطأ ارض الامبراطورية العثمانية فان تعداد الجيوش البريطانية والهندية وحدها في اجزاء الامبراطورية مع مناطق القفقاس قد وصل الى حوالي مليون شخص بلغت ضحاياهم حوالي ١٢٥ الف شخص وقدرت مصاريف حملتهم بمئات الملايين من الجنيهات الاسترلينية[١٨٠] . والى جانب ذلك اسفرت النشاطات الواسعة لرجال الاستخبارات الانكليزية والفرنسية قبل الحرب عن تكوين كادر محلي متنفذ ميال لهما في المنطقة التي وقفوا على اسرارها وسيطروا على جوانب مهمة من اقتصادياتها في فترة كان « مبدأ مونرو » لا يزال يحتفظ برواجه التقليدي في الاوساط السياسية الامريكية .

ان هذه العوامل مع حتمية مجابهة مباشرة مع البلاشفة والكماليين مما كان يستدعي استخدام طاقات بشرية ومادية هائلة بالاضافة الى حزر مرامي الانكليز الحقيقية في اللعبة دفعت بالمسؤولين الامريكان لان يكونوا في غاية

---

(١٧٩) مقتبس من : الدكتور كامل محمود خلة ، فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ ـ ١٩٣٩ ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٦٦ .

(١٨٠) Lloyd George, The truth... , Vol. II, p. 1061.

الحذر بالنسبة لموضوع الانتداب . ومن المفيد ان نذكر هنا ان هؤلاء المسؤولين فسروا موقفهم هذا بقلة تجاربهم السابقة والدرس الذي تلقوه من فليبين التي ظلت ، كما اعترف الرئيس ولسن نفسه بذلك ، « تحرق ايدينا حتى الان »[181] .

تضافرت مجموعة عوامل مهمة ، داخلية وخارجية ، ادت الى تعثر[182] سياسة الرئيس ودرو ولسن سواء تجاه اوروبا او الشرق الاوسط . فتلك السياسة كانت تفكر ، كما ذكرنا ، بالسيادة العالمية واستهدفت من هنا زحزحة الدول الاوروبية الكبرى من مكانتها الممتازة في شؤون العالم القديم ، لكن لم يكن تحقيق ذلك بالامر الهين في العقود الاولى من القرن العشرين لان تلك الدول كانت لا تزال تتمتع بامكانات من شأنها منح قوة التصدي لخطط الولايات المتحدة الامريكية . وهذا ما حدث فعلا اثناء مؤتمر باريس الذي حدد رئيس الوزارة البريطانية نتائجه بهذا الشكل المعبر حينما قال بكل ثقة ان مضامين المعاهدات التي تمخضت عن المؤتمر لم تتعد في خطوة واحدة الاسس التي وردت في خطابه المعروف الذي القاه يوم ٥ كانون الثاني من عام ١٩١٨[183] . وبالفعل حقق الانكليز والفرنسيون كل ما أرادوه تقريبا من ثمار الانتصار على المانيا وتمكنوا من تحويل مشروع ولسن

---

(١٨١) Ibid, Vol. I, p. 115; Vol. II, p. 1255

بالفعل مرت الولايات المتحدة في الجزر السبعة الاف الفليبينية بتجربة قاسية . فان احتلالها في عام ١٨٩٩ بعد شرائها من اسبانيا ادى الى نشوب حرب بين الطرفين استمرت بشكل منظم حتى عام ١٩٠١ ثم تحولت الى حرب عصابات شملت مناطق مختلفة واستمرت ، ولا سيما في المناطق الاسلامية الجنوبية ، حتى عام ١٩١٣ . حدثت انتفاضات وحركات وطنية اخرى الى ان حققت البلاد استقلالها السياسي في عام ١٩٤٦ .

(١٨٢) في الواقع ان سياسة الرئيس ولسن تعثرت وقتيا ولم تفشل كليا اذ انها سرعان ما تحولت ــ مع تغييرات قليلة ــ الى روح الاتجاه السياسي الخارجي العام للولايات المتحدة كما سنرى ذلك في البحث نفسه .

(١٨٣) Lloyd George, The truth... , Vol. I, p. 70

لاهم ، اي« عصبة الامم » ، الى وسيلة دولية لتثبيت هيمنة انكلترا وفرنسا عنيا • حتى ان الحياة نفسها عبرت عن هذا الواقع باسلوبها الخاص ، فقد خرج العجوزان لويد جورج وكليمنصو من المؤتمر بكامل الصحة والنشاط بينما خرج منه ولسن بصدمة كبيرة جعلته طريح الفراش الذي لم يغادره حتى الرمق الاخير (توفي في ٣ تشرين الثاني ١٩٢٤) •

وفي الداخل لعب الحزب الجمهوري المعارض دورا غير قليل في افشال سياسة ودرو ولسن • ولم ينجم هذا الموقف عن اختلاف الاجتهاد في تحقيق الغايات العليا للرأسمالية الامريكية وعن الصراع الحزبي من اجل السلطة فحسب ، بل نجم ايضا ، وربما الى حد اكبر ، من السياسة المتشددة التي تبناها زعيم الحزب الديمقراطي ولسن نحو الحزب الجمهوري القوي • فبالنسبة للنقطة الاولى من المهم ان نعرف انه كان يوجد بين زعماء الجمهوريين من كان يؤيد الخطوط العامة لسياسة الرئيس ولسن ومنهم رئيس البلاد السابق تافت وغيره ، وان العديد من اعضاء الحزب الجمهورى صوتوا في الكونكريس الى جانب معاهدة الصلح • وبالنسبة للنقطة الثانية يجب الا تنسى ما ذكرناه سابقا من ان الحزب الديمقراطي تبوأ السلطة بعد ان انحصرت خلال دورات انتخابية كثيرة في يد الجمهوريين مما كان له مفعوله في احتدام الصراع بين الحزبين المتنافسين • ولكن بالرغم من ذلك لعبت سياسة ولسن نفسه دورا بارزا جدا في اذكاء نار الخلاف الحزبي في البلاد • فانه تجاهل الحزب الجمهوري بشكل فضيع ولم يعر كثير اهتمام لنفوذه الواسع الذي لم يستطع حزبه بسببه تحقيق الانتصار في الانتخابات السابقة الا بأغلبية ضئيلة جدا ، بينما أسفرت انتخابات الكونكريس لعام ١٩١٨ عن فوز الجمهوريين • فمثلا ان الوفد الامريكي الى مؤتمر باريس الذي كان يتوقف على نتائجه قضايا عالمية مصيرية عديدة ، لم يضم عضوا جمهوريا واحدا مع ان وجوده كان يعزز حتما من موقفه في الداخل وامام منافسيه في المؤتمر • بينما حصل العكس تماما اذ استغل رئيسا الوفدين الفرنسي

والانكليزي هذه الثغرة بذكاء في سبيل احراج موقف الرئيس الامريكي[١٨٤]. وقد وصل الامر بلويد جورج انه اعتبر انتقادات وتهديدات ولسن في اجتماعات باريس بمثابة « بندقية فارغة »[١٨٥] • ومن الجدير بالذكر ان العديد من مستشاري واصدقاء الرئيس توسلوا به الا ينهج اسلوبا في التعامل يؤدي الى توتير العلائق مع الحزب الجمهوري • ومن اجل ذلك ايضا طلبوا منه ان يأخذ معه الى باريس ممثلين عن الحزب المذكور • الا انه تجاهل كل ذلك وباسلوب اثار حفيظة الجمهوريين الى حد كبير • وباعتراف منافسيه ان ولسن كان بامكانه تحقيق نتائج اكبر في باريس لو اتخذ موقفا مغايرا من الحزب الجمهوري في الداخل[١٨٦] •

كان من الطبيعي ان يدفع موقف الرئيس ولسن بالحزب الجمهوري الى اتخاذ موقف صلب بدوره منه ومن سياسته • وادرك الحزب الجمهوري ان الورقة الرابحة في نظر المواطن الامريكي العادي في ظرف ما بعد الحرب هي التأكيد على جوانب معينة من « مبدأ مونرو » • ومن هذا المنطلق حاول الحزب المعارض تصوير الرئيس ولسن وكانه يحاول الخروج على التقاليد السياسية الامريكية الاصيلة ، وبتحريض مباشر منه شنت قطاعات معينة من الصحافة الامريكية في ايام مؤتمر باريس هجوما واسعا على سياسة الحكومة وعلى البنود الاربعة عشر بالذات التي نالت حظا وافرا من هجمات وانتقادات زعيم الجمهوريين تيودور روزفلت الذي اكد ــ وفي ذلك شيء واضح من المبالغة ــ ان « واحدا من كل الف امريكي لم يسمع بالبنود »[١٨٧] • كما

---

(١٨٤) حول موقف الرئيس ولسن من الحزب الجمهوري وتأثيراته راجع :
H.G. Nicholas, Op. Cit., pp. 243—244, 275

(١٨٥) Lloyd George, The truth... , Vol. I, p. 82

(١٨٦) Ibid, Vol. I, p. 234

(١٨٧) تلقفت جريدة الـ «تايمس» هذا التصريح الذي كان يهمها الى اقصى حد فنشرته في مكان بارز من عددها الصادر يوم الخامس من كانون الاول ١٩١٨ (راجع ايضا :
"A history of the Peace Conference of Paris", Vol. I, p. 198).

ذكر بهذا الصدد ايضا ان « ولسن لا يحق له التكلم باسم الشعب الامريكي حتى رفضه قبل فترة وجيزة كزعيم للبلاد . ان البنود الاربعة عشر الاساسية لولسن ... وكذلك جميع تصريحاته الاخرى لا تعبر عن نوايا الشعب الامريكي »[188] . وقد ذهب الى نتيجة مقاربة ، العديد من المؤرخين من أمثال مؤرخ مؤتمر باريس المطلع هـ. تيمبرلي الذي تشكك في امكانية انتشار بنود الرئيس ولسن بين الشعب الامريكي في ظروف ما بعد الحرب[189] .

الى جانب موقفه من الحزب الجمهوري المعارض ارتكب الرئيس ولسن عددا من الاخطاء السياسية الكبيرة الاخرى التي لم يكن بالامكان الا تؤثر في مصير حكمه ، والاهم من ذلك في مصير العالم اجمع ، وقد توجها بمحاولاته الواضحة في عدم افساح المجال لتحطيم المانيا المقهورة من الناحيتين العسكرية والاقتصادية ، حتى انه كان يميل الى السماح للالمان بالاحتفاظ بقوة عسكرية اكبر من مائة الف ، وهي الرقم الذي اتفق عليه الحلفاء بعد نقاش طويل وحاد . ان سياسة ولسن هذه التي كانت تستهدف ابقاء شوكة حادة بجنب « الحليفتين » الاوروبيتين انكلترا وفرنسا هي التي ساعدت على احياء المانيا العسكرية بسرعة وعودتها الى المسرح من جديد . انها كانت سياسة ناجحة من وجهة نظر الاحتكارات الامريكية . الا انها كانت على النقيض من ذلك تماما بالنسبة للاحتكارات الاوروبية الغربية : وهي كانت على نقيض كلي ايضا ـ ولكن من منطلقات اخرى تماما ـ مع مصالح البشرية .

ساهمت الاخطاء التي ارتكبها ودرو ولسن في فشل الحزب الديمقراطي في انتخابات الرئاسة الجديدة والكونكريس التي جرت في ٥ تشرين الثاني من عام ١٩١٨ وحصل الجمهوريون فيها على أغلبية ٤٣ مقعدا . ولم يعد

---

(١٨٨) مقتبس من : ن.ن. ياكوفليف ، المصدر السابق ، ص ٢٨ .

(١٨٩) "A history of the Peace Confernce of Paris", Vol. I, p. 204

انتخابه ايضا للمرة الثالثة فظل في كرسي الرئاسة حتى انتهاء مدته الدستورية في عام ١٩٢١ ٠ وقد دفعت النتائج الانتخابيـة[١٩٠] بالرئيس ولسن الى ان يذهب بنفسه على رأس وفد بلاده الى باريس حيث كان يتوقع تحقيـق مكتسبات مهمة في مؤتمرها وهو ما كان يؤدي حسب توقعاته الى رفع رصيد حزبه من جديد ٠ لكن حالت مواقف الجمهوريين المتشعبة دون جني ثمـار جهوده الخارقة التي بذلها في باريس ٠ وبعد عودته حاول التأثير على الرأي العام بشتى السبل ، فقام بجولات خطابية ودعائية واسعة اقتفى الجمهوريون من جانبهم خطواته خطوة فخطوة ٠ ومن المفيد ان نعرض هنا مـا ورد في احدى كلماته اثناء حملته الجديدة من اعتراف ضمني بالجانب « المثالي » من افكاره ، ولكن باسلوبه الخاص ايضا ، اذ قال : « كم اود الالتقاء بالفتيان الذين اشتركوا في الحرب كي اقف امامهم لاقول لهم : « ايها الاولاد : لقد اخبرتكم قبل ركوبكم البحار بانها حرب ضد الحروب ٠ وقد بذلت كل جهدي لانجاز عهدي ، الا انني مضطر ان اتوجه اليكم بخيبة وخجل واقول لكم انني عجزت في تحقيق العهد ٠ انكم اصبحتم ضحايا الخيانة ٠٠٠ انكم حاربتم من اجل اشياء لم تجدوها ٠٠٠ » ثم ذكر في الكلمة نفسها انه يأتي يوم يضحي فيه « مئات الالوف من الرجال الامريكان الوسيمين بحياتهم » في سـبيل تحقيق « الحرية الابدية للعالم »[١٩١] ٠

لم تعط الحملة الجديدة النتائج المطلوبة ، فعندما عرضت معاهـدة الصلح على الكونكريس صوتت الاكثرية الجمهورية ضـدها واضطرت الولايات المتحدة عقد معاهدة صلح منفرد مع المانيا في شهر اب ١٩٢١ لم يختلف مضمونها في شيء عن مضمون معاهدة باريس سوى في نقطة واحدة

---

(١٩٠) في تعليق له على نتائج انتخابات الرئاسة يقول المؤرخ ياكوفليف : كان اصحاب امريكا بحاجة الى شخص مطواع ، فقد حان وقت حصاد الذهب الذي زرعوه في سنوات الحرب (ن ٠ ن ٠ ياكوفليف ، المصدر السابق ، ص ٧٥) ٠

(١٩١) مقتبس مـن : H.G. Nicholas, Op. Cit., p. 246

هي انها تجاهلت « عصبة الامم » . اما حجة الجمهوريين فانها كانت تستند عى معارضتهم للعصبة على اساس انها تكون منظمة اوروبية تلعب فيهـــا نكلترا وفرنسا الدور الرئيس ، بينما كانت الاحتكارات الامريكية .. تريد منظمة عالمية تلعب فيها الولايات المتحدة دور القيادة المطلقة . ثم انهم اتهموا حكومة ولسن بانها تهاونت في الدفاع عن المصالح الامريكية في الشـــرق لاقصى . وقد حاولت المعارضة الجمهورية ايضا تغطية نواياهـــا الحقيقيـــة بشعارات ديمقراطية في ظاهرها كعدم الرغبة في التدخل في شؤون الاخرين وضرورة تبني سياسة العزلة وحتى اتهام معاهدة الصلح في باريس بكونهـــا طبخة استعمارية . الا ان رواد المعارضة لم يستطيعوا بالرغم من ذلك حجب الحقيقة . فالسناتور هينري كابوت لوج الذي كان واحدا من ابرزهم سبق نه التصريح بان « الثقة والعزة » غير المحدودة بالوطن توحيان له بأن على لولايات المتحدة الامريكية تبوّء مركز القيادة « على رأس شعوب الارض قاطبة » . ذهب زميله بيفريج الى مدى ابعد و « أدق » عندما اشرك الاله ــ كعادة جميع العنصريين ــ في الامر على اساس انه هو الذي « جعل من الامريكيين شعبه المختار الذي يقود بعث العالم في نهاية المطاف » . وحدد تاريخ تحقيق نبوءته ، اذ ان عقارب الزمن لا تصل منتصف القرن العشرين عندما تصبح امريكا « المدار المرغوب بين جميع الشعوب »(١٩٢) .

لكن زعماء الجمهوريين ، شأنهم في ذلك شأن الرئيس ولسن نفســـه ، سجلوا الحقيقة بجنب الشعارات المثالية . فقد صرح بورا في الكونكريس علانية : « انني ضـــد هـــذه العصـــبة (يقصـــد عصـــبة الامم) وضـــد كل انواع المنظمات والاتحادات الاخرى لانني اعرف انه بدلا عن امركـــة اوروبا ستقوم الاخيرة باوربة امريكا »(١٩٣) . وفي ذلك بالطبع شيء كثير من

---

(١٩٢) A. Weinberg, Manifest Destiny, Baltimore, 1935, p. 459
(مقتبس من : ن . ن . ياكوفليف ، المصدر السابق ، ص ٦٦ـ٦٧) .

(١٩٣) "Congressional Record", Vol. 58, p. 7947.
(مقتبس من المصدر نفسه ، ص ٦٧) .

المبالغة ، ولكن فيه ايضا شيئا كثيرا مـــن الحقيقـــة الخاصـــة بالصـــراع الاوروبي ـ الامريكي من اجل احتكار السيطرة على العالم •

من المؤشرات الطريفة والمهمة في آن واحد لاعطاء صورة واضحة عن ابعاد الصراع الدائر ، مسألة التصويت على معاهدة الصلح • فقد عارضها ٥٥ عضوا في مجلس الشيوخ مقابل ٣٩ عضوا ايدوها في اجتماع ١٩ تشريـــن الثاني ١٩١٩ • ولكن اضطر المجلس تحت الحاح انصار الرئيس ولســـن مناقشة المعاهدة مرة اخرى • وقبل التصويت الجديد عليها توجـــه ولسن ، الذي كان طريح الفراش ، الى اعضاء المجلس بالنداء التالي وهو لا يخلو ، مع نتائج التصويت الجديد ، من مغزى عميق :

« اما ان ندخل في عصبة الامم بدون تخوف ونتحمل المسؤوليـــة ولا نتردد امام دور القيادة التي هي الان في متناولنا ••• او علينا الخروج بكـــل رقة مـــن الاتحاد العظيم للدول ـ منقذ العالم »[١٩٤] •

فجاءت نتائج التصويت الثاني في ١٩ مارت ١٩٢٠ كالاتي : صوت الى جانب قبول المعاهدة ٤٩ عضوا وضد قبولها ٣٥ ، اي بنقص ســـبعة اصوات فقط لنيل اكثرية ثلثي الاصوات المطلوبة لقبولها •

توضح لنا هذه الحقائق المجردة ذاتها « السر » الكامن وراء حقيقة مهمة اخرى تتعلق باستمرار حكومة الجمهوريين التي خلفت الديمقراطيين على اتباع نفس النهج السياسي للرئيس ولسن في ثوب من لون آخر ، ولكن دون ادنى تغيير في ادق تفاصيله ، حتى ان الاكثرية الجمهورية في الكونكريس لم تعترض على سياسة ولسن الخارجية في الايام الاخيرة من عهده والتي كانت تبتغي كما في السابق التحقيق العملي لاهداف بنوده • فبعد مؤتمـــر باريس ، اي بعد رفض معاهدتها وانتقال السلطة الى الجمهوريين ، وخـــلال

---

(١٩٤) T. Bailey, A Diplomatic History of American People, New York, 1944, p. 677

العمل الاوروبي من اجل تقسيم الغنائم برزت الولايات المتحدة فوق المسرح ، كما كانت ، عنصرا فعالا ومؤثرا الى حد كبير • فمع ازدياد اهمية النفط تضاعف اهتمام المسؤولين الامريكان بسياسة « الباب المفتوح » التي كانت تستهدف افساح المجال للرأسمال الامريكي بالعمل على قدم المساواة مع المصالح الانكلو ـ فرنسية في هذا المجال الحيوي وبلغ الاتفاق بين الجمهوريين والديمقراطيين حول ضرورة هذه السياسة حد الاطلاق • واكد الطرفان على تطبيقها بشكل خاص بالنسبة لمناطق النفوذ البريطاني لانها كانت تبشر بمستقبل نفطي مغر • كما ان الامريكان جربوا عمليا ماذا يعني الحلول مكان الانكليز اقتصاديا بعد ان تمكنوا من منافسة التجارة البريطانية في سنوات الحرب جراء ظروفها بنجاح ادى الى ان تحل البضاعة الامريكية واحيانا الرأسمال الامريكي محل البضاعة والرأسمال الانكليزيين في العديد من المناطق مما دفع بالانكليز بعد الحرب الى تبني خطط اقتصادية اصبحت استعادة المواقع المفقودة من بين اهدافها المهمة •

من جانب آخر يبدو ان المسؤولين الانكليز والفرنسيين اساءوا فهم حقيقة ابعاد الصراع الداخلي في الولايات المتحدة او انهم رأوا ان من مصلحتهم تفسيره بالشكل الذي ارادوه • فبعد مؤتمر باريس وفشل الرئيس ولسن في الانتخابات بدأوا يتجاهلون مصالح الولايات المتحدة باسلوب غير متوقع مما اثار حفيظة ممثلي الاحتكارات الامريكية بشكل لم يسبق له مثيل بحيث اضطر الانكليز للجوء في وقت مبكر وقبل تنحي الرئيس ولسن الى اتخاذ خطوات عاجلة[١٩٥] للتخفيف من حدة التوتر الذي اتخذ بسرعة طابعا في غاية الخطورة ، حتى ان العديد من المؤرخين والصحفيين شبهوا العلاقات الانكلو ـ امريكية في بداية العشرينات بما كان يسود من العلائق المتوترة بين الانكليز والالمان قبيل الحرب العالمية الاولى •

---

(١٩٥) راجع : الدكتور راشد البراوي ، حرب البترول في الشرق الاوسط ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، بلا ، ص ٩٨ •

وبالنسبة لمناطق الشرق الاوسط بلغ الخلاف بين الطرفين أشده بعد المساومات الانكلو ـ فرنسية لوضع نهاية لخلافات الجانبين فيها ومنح حصة معينة من نفط ولاية الموصل للشركات الفرنسية مع تجاهل كلي لمصالح الشركات الامريكية التي شكل اهتمامها بذلك النفط بداية توجهها نحو مكامن البترول في الشرق الاوسط . هنا تبين للامريكان ان ابتعادهم الجزئي عن الحياة السياسية للمنطقة يستغل من جانب مسؤولي الدول الاوروبية الكبرى لحرمانهم من منافعها الاقتصادية ايضا ، فهبت حملة واسعة ضد مثل هذا الاتجاه في التفكير يمكن تلخيص فحواها في ما ذكره مدير شركة « ستاندرد اويل » في مؤتمر بترولي من انه « ليس للولايات المتحدة نية للتدخل في العلاقات السياسية بين اي دولة ومستعمراتها او البلاد الواقعة تحت حمايتها وانتدابها ، لكنها عندما ترى ان الدولة المنتدبة تسعى بتأثير تلك العلاقات السياسية الى ايجاد مناطق نفوذ اقتصادي بحت (في البلدان المشمولة بانتدابها) لتحتفظ لنفسها وحدها بحق استغلال ما تحت اراضي تلك المناطق من ينابيع طبيعية (نفطية) ولتوطيد عرى الاتحاد بشتى السبل بين الدولة المسيطرة والشعب الضعيف ، فان من واجبنا ساعتئذ ان نرفع صوتنا ونحتج على ذلك العمل الذي نراه ظالما ومهينا ومخالفا للصواب ... »[١٩٦] .

وقد بلغ « رفع الصوت والاحتجاج » الامريكي بعد مؤتمري « سان ريمو » في نيسان ١٩٢٠ و « لوزان » في ١٩٢٢ ــ ١٩٢٣[١٩٧] حدا لم تشهد

---

(١٩٦) مقتبس من : يوسف ابراهيم يزبك ، المصدر السابق ، ص ٤ـ٥ .

(١٩٧) عقد المؤتمر الاول في مدينة سان ريمو الايطالية خلال ١٩ ــ ٢٦ نيسان ١٩٢٠ ، حضره مندوبو انكلترا وفرنسا وايطاليا واليابان مع مراقب امريكي . عالج ثلاث قضايا اساسية : ١ ــ معاهدة الصلح مع تركيا وتقسيم الانتداب على البلدان العربية ٢ ــ تنفيذ المانيا للبنود المتعلقة بالقضايا العسكرية في معاهدة الصلح و ٣ ــ الموقف من روسيا السوفيتية. مقرراته خدمت بالاساس المصالح الانكليزية ثم الفرنسية . عقد المؤتمر ←

العلاقات الاوروبية ـ الامريكية مثيلا له ، بحيث تعدت اثاره ما تركته حرب الغواصات الالمانية من اثار بمراحل • فاثارت الصحافة والشركات والاوساط الرسمية الامريكية خاصة اثناء عقد مؤتمر لوزان ، اي بعد ابتعـــاد ودرو ولسن عن دست الحكم بحوالي العامين ، ضجة كبيرة ، وبدأ تبادل كتــب رسمية شديدة اللهجة للغاية بين لندن وواشنطن وتوقفت الولايات المتحدة عن الاعتراف بصكوك انتداب الدول الاوروبية على اقطار الشرق الاوسط ، وكان يقف وراء كل ذلك نفط المنطقة • وقد عبرت الصحافة الانكليزيـــة والفرنسية عن الموقف الامريكي بهذا الاسلوب المعبر : « ان الدم اكثر كثافة من الماء ، ولكن على ما يبدو ان النفط اكثر كثافة من الدم »[١٩٨] • وجـاء اكتشاف النفط في منطقة نفطخانة العراقية بكميات تجارية في هذه الفترة ليزيد من اهتمام الشركات الامريكية ببترول الشرق الاوسط •

من الجدير بالذكر ان المسؤولين الامريكان التجأوا اثناء مؤتمر لوزان الى مناورة غريبة عندما اثاروا قضية امتيازات جيستر القديمة من جـديد ، فاعادوا تأسيس شركته « شركة الانماء العثمانية ـ الامريكية » واعلنـوا ان انقرة هي الصاحبة الشرعية لنفط ولاية الموصل لذا ارسلوا وفدا باســم شركة جيستر للتفاوض مع المسؤولين الاتراك الذين حاولوا بدورهم استغلال اللعبة لصالحهم بهدف الضغط على المفاوض الانكليزي في لوزان • وبالفعل منحت تركيا في ٩ نيسان ١٩٢٣ جماعة جيستر امتيازا واســعا للتنقيب عـن النفط ولبناء شبكة من الخطوط الحديدية يبلغ طولها ٢٫٠٠٠ ميـل كان من المقرر لها ان تبدأ من انقرة وتنتهي في الموصل مارة بخربوط وديار بكر • والاغرب من ذلك هو ان جماعة امريكية اخرى ادعت بحقها في نفط ولايــة

الثاني في مدينة لوزان السويسرية خلال الفترة الممتدة بين ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٢ و ٢٤ تموز ١٩٢٣ وذلك لحل المسائل الجديدة التي فرضت نفسها بعد انتصار الحركة القومية في تركيا مما جعل من معاهدة «سيفر» الاستعمارية ورقة ميتة فأصبح لزاما التوصل الى اتفاق جـديد يختلف عنها الـى حـد كبير •

(١٩٨) راجــع : L.J. Gordon, Op. Cit., p. 278

الموصل على اساس شرائها امتياز استغلال ذلك النفط من ورثة السلطان عبدالحميد الذي سبق له تسجيل ملكيته باسمه الخاص[١٩٩] .

هكذا لم يبق للانكليز سوى التراجع امام الالحاح المتزايد من جانب الولايات المتحدة ، فتم منح الشركات الامريكية حصة من نفط ولاية الموصل تبلغ حوالي الربع ، اي ما يعادل حصة فرنسا . وبهذا الاسلوب تم اول تحقيق عملي كبير لسياسة الرئيس ولسن في الشرق الاوسط ولكن في عهد غيره وبأيدي معارضي سياسته .

فتح التراجع الانكليزي المجال امام مساومات مهمة اخرى ، فاعلنت الولايات المتحدة عن اعترافها بالانتداب البريطاني على العراق وفلسطين ، وتم في عام ١٩٢٤ عقد اتفاق ضمن الامريكان بموجبه « تكافؤ الفرص » بالنسبة لمصالحهم في فلسطين . ولم يهمل الامريكيون سوريا ايضا . فمن المفيد ان نذكر انه في حدة الصراع الاوروبي ــ الامريكي حول الشرق الاوسط رجع جارلس كرين مرة اخرى الى سوريا في نيسان ١٩٢٢ للوقوف على ما اذا « حصل شيء من التبدل » في اراء السوريين . فعقد سلسلة من اللقاءات مع رجال السياسة والفكر السوريين ، وزار الوجهاء بنفسه . ولم ينس حتى زيارة عوائل ضحايا الاستعمار الفرنسي في دمشق . ودعا الجميع الى « التمسك بقضيتهم » « لانها عادلة » ولكن « نصحهم » ان يتوسلوا « اليها بالوسائل العصرية لا بالطرق القديمة »[٢٠٠] ، بقي ان نتذكر ان كرين مثل في زيارته الاولى مع كنك شخص الرئيس ولسن وبنوده ، ورجع لتحقيق الاغراض نفسها ، ولكن في عهد اشد معارضي التدخل الامريكي في شؤون المنطقة ! .

---

(١٩٩) للتفصيل راجع : مصطفى كمال ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ٣٦٦ ــ ٣٦٧ ؛ الجزء الرابع ، ص ٣٣٧ ــ ٣٣٨ ؛ « العالم العربي » ، بغداد ، ٧ حزيران ١٩٣٧ ؛

L.J. Gordon, Op. Cit., p. 279

(٢٠٠) راجع : امين سعيد ، المصدر السابق ، المجلد الثالث ، ص ٢٥٠ ــ ٢٥١ .

واخيرا يمكن التأكيد بالاستناد الى الحقائق السالفة على ان تغلغل الولايات المتحدة الامريكية في مناطق الشرق الاوسط اتخذ اشكالا مختلفة توافقت كليا مع مصالحها وامكاناتها الواقعية في مرحلة تدشين ذلك التغلغل الذي تحول بسرعة الى عنصر سياسي فعال يؤثر على قضايا المنطقة المصيرية • وان البنود الاربعة عشر للرئيس ولسن مع جميع تصريحاته ووعوده الاخرى كانت وليدة نظام بلغ اعلى مراحل الرأسمالية فكان من الطبيعي ان تستهدف اولا واخيرا اشراك امريكا في غنائم الحرب الكثيرة وازاحة بريطانيا من مكانتها الممتازة في البحار والمحيطات والسيطرة على التجارة العالمية واقامة منظمة دولية تكون وسيلة بيدها لتطبيق سياستها الخارجية ومن ثم اظهار الولايات المتحدة من خلال بعض المواقف التكتيكية والعبارات الديمقراطية بمظهر يختلف عن المظهر الممقوت للدول الاستعمارية التقليدية • وهي من هذه الزاوية لا تخلو ابدا من بعض اسس ومقومات ما يعرف اليوم بالاستعمار الجديد • فكانت ــ والحالة هذه ــ سياسة واقعية من وجهة نظر مصالح الاحتكارات الامريكية ولم تكن وليدة مثاليات ودرو ولسن كما يحاول العديد من المؤرخين الغربيين والشرقيين ، بتأثيرهم ، تصورها • وربما جاءت مثاليتها الوحيدة في انها استهدفت فرض سيادة امريكا على العالم في وقت لم يسمح التناسب الجديد في القوى بتحقيق مثل ذلك الحلم • والا فان بنود الرئيس ولسن لم تكن سوى استمرار لبنود و « ومبادىء » كثيرة اخرى سبقتها وبداية لبنود و « مبادىء » كثيرة اخرى لحقتها ، وان ما فشل ولسن عن تحقيقه في ظروف معينة نجح خلفاؤه الجمهوريون قبل الديمقراطيين في تحقيق جوانب معينة منه في ظروف اخرى •

ولكن بالرغم من كل ذلك يجب الاعتراف بحقيقة ان الافكار التي وردت في بنود الرئيس ولسن ، بل وحتى في تصريحات الحلفاء الاخرين ، قد ساهمت بشكل او آخر في دفع الزخم الثوري الهائل الذي شمل اجزاء مختلفة من الشرق الاوسط قبل ان تضع الحرب العالمية الاولى اوزارها • وهي

ساهمت ايضا في ذلك الزخم باسلوب معاكس لانها ساعدت بسرعة على كشف النوايا والطبيعة الحقيقية للدول الاستعمارية • يقول المؤلف المصري محمد صبيح بهذا الصدد في معرض تعليقه على الموقف السلبي الذي اتخذه الرئيس ولسن من الوفد المصري برئاسة سعد زغلول الى مؤتمر باريس : « وكان هذا الموقف صدمة شديدة للسياسيين المصريين ، اذ عرفوا ان اتجاههم لحل مشكلة الاستقلال لا يأتي ابدا من الخارج ، وان طرق ابواب العواصم الاوروبية ما هو الا استجداء العاجز الضعيف ••• وان الاسلوب الذي لجأ اليه الشعب وهو استخلاص الحق بالقوة والتضحية ، هو الاسلوب الوحيد الذي يفهمه الغرب بالنسبة لنا وبالنسبة لكل حرية مسلوبة في اي مكان ••• »[٢٠١] • وفعلا هذا ما دفع بسعد زغلول ، كما يذكر عباس محمود العقاد ، الى فهم حقيقة كبيرة وهي « ان العمل في اوروبا لا يجدي وان العمل في مصر اجدى والزم »[٢٠٢] • ادرك زعماء الشعوب الاخرى الحقيقة نفسها فلم يكن من الصعب على قادة الارمن فهم « سر » توقف الولايات المتحدة المفاجيء عن ابداء كل « مساندة » او مجرد « عطف » على الشعب الارمني مما دفعهم الى توجيه تهم خطيرة الى امريكا لبيعها «القضية الارمنية بالمقايضة في مؤتمر لوزان » ولتآمرها على تشريد « ما يقرب من مليون ارمني من اوطان اجدادهم » لقاء « حصة من نفط الموصل » وبدافع خططها « للاستيلاء على مصادر النفط في اوطان الضحايا المشردين »[٢٠٣] • اما الكاتبة التركية خالدة اديب فانها ادركت مدى خطل حماسها للانتداب

---

(٢٠١) محمد صبيح ، المصدر السابق ، ص ٦١٧ •

(٢٠٢) عباس محمود العقاد ، سعد زغلول ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ٢٧٠ •

(٢٠٣) راجع : ميكائيل بروكس ، النفط والسياسة الخارجية ، ترجمة غضبان السعد ، بغداد ، ١٩٥١ ، ص ٩٤ •

الامريكي وتأثير ذلك السلبي على سمعتها السياسية وحتى الادبية ، لــــذا حاولت فيما بعد التبرؤ من ذلك بكل السبل ، بحيث انها انكرت حتى التقرير الخاص الذي بعثته حول الموضوع الى اتاتورك وادعت انها لم تؤيــــد الانتداب الامريكي اصلا(٢٠٤) .

في الختام لا بد من الاعتراف بانه لا عتب كبير على تقييمات رجـــال السياسة وحتى المؤرخين لبنود الرئيس ولسن الاربعة عشر فقد احيطـت ، مع مجمل سياسة ولسن ، بهالة عجيبة من التضخيم وحتى التقديس من لدن عدد غفير من مؤرخي ومؤلفي وصحفيي امريكا وهيئاتها الدعائية الواسعة . ان مثل هذه الحالات تجعل من مهمة مؤرخي العالم الثالث مهمة اعقد تتطلب منهم سبر اغوار الاحداث بعمق وضمن اطارها الشامل كي يمكن التوصل الى الاستنتاجات التاريخية الصائبة ومن خلالها الى دروس وعبر مفيـــدة .

---

(٢٠٤) راجع : ا . ف . ميللر ، دراسة في تاريـخ تركيا المعاصـر ، باللغــة الروسية ، موسكو ، ١٩٤٨ ، ص ٨ .

الموضوع الثالث

حقائق جديدة عن معاهدة «سايكس - بيكو»

في ضوء الوثائق الروسية

كتب العديد من المؤرخين والكتاب العراقيين وغيرهم عن مضمون معاهدة[1] « سايكس ـ بيكو » السرية واسلوب ابرامها ، وعن طابعها الاستعماري البحت . مع ذلك لا يزال العديد من القضايا المهمة ذات الصلة بظروف اصدار هذه الوثيقة وما تمخض عنها من نتائج يحتاج الى درس اكثر لتحديد جميع ابعادها . ان اهمية ذلك تتعدى الناحية العلمية الصرفة لتشمل الجانب السياسي كذلك لكون معاهدة « سايكس ـ بيكو » نموذجا صارخا للدبلوماسية السرية للدول الكبرى جاء الكشف عنها بمثابة اول احتكاك مباشر للعديد من شعوب الشرق الاوسط بطبيعة الدول الاستعمارية على حقيقتها ، مما كان له اثر مباشر على بلورة الوعي السياسي لقوى اجتماعية فعالة باتجاه صحيح . وبما ان روسيا القيصرية كانت واحدة من الاطراف الاربعة[2] التي ابرمت معاهدة « سايكس ـ بيكو » فقد اصبح من الطبيعي ان تكون المصادر الروسية غنية بالمعلومات والتفسيرات الخاصة بهذه المعاهدة والتي من شأن عرضها استكمال ما لدينا من تصور عنها .

من المعروف ان اعادة تقسيم المستعمرات ومسألة الاستحواذ على اصقاع جديدة تأتيان في صدر قائمة العوامل التي ادت الى اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى . ومن المنطلق نفسه تحولت المسألتان الى موضوع نقاش وتفاوض وتساوم من نوع خاص بحكم ضراوة الصراع الدائر طيلة سنوات الحرب العالمية الاولى . وكان كل طرف في الجبهتين المتحاربتين يحاول ضمان اكبر « ربح » من الحرب الدائرة وقطع خط الرجعة على مناورات الاطراف « الحليفة » الاخرى . فلم تمض على اندلاع الحرب

---

(١) يطلق بعض المؤرخين اسم الاتفاقية على « سايكس ـ بيكو » .

(٢) يقصد بها بالاضافة الى انكلترا وفرنسا وروسيا كذلك ايطاليا التي لم يعر موقعها في معاهدة « سايكس ـ بيكو » اهتماما يذكر في معظم دراساتنا.

سوى فترة وجيزة حتى اسفرت المفاوضات بين الدول الحليفة روسيا وانكلترا وفرنسا عن التوقيع على اتفاق سري تعهدت كل دولة بموجبه « ... بعدم وضع شروط الصلح بدون اتفاق مسبق مع كل طرف (في جبهة الحلفاء» وذلك « عندما يحين موعد نقاش » مثل تلك الشروط[٣] .

كان الصراع بين دول الجبهتين على صعيدين متناقضين من اجل الاستحواذ على ممتلكات الامبراطورية العثمانية يمثل الصورة البارزة لمناورات الدول الكبرى في مثل تلك المرحلة الحاسمة من التاريخ فكان كل طرف يجهد في سبيل الحيلولة دون تمكن طرف اخر من ايجاد موقع جديد له في الاراضي العثمانية وان كان ذلك على حساب المصالح الحيوية لجبهة القتال التي ينتمي اليها . فان بريطانيا مثلا كانت تلح على « الحليفة » روسيا حصر نشاطاتها العسكرية في الجبهة العثمانية على العمليات الدفاعية الصرفة بحجة ضرورة التركيز على الجبهة الغربية[٤] . وكان ذلك يعني في الواقع الحيلولة دون توغل القوات الروسية في الاراضي العثمانية والايرانية . ومن منطلق مشابه وقفت روسيا بحماس ضد دخول القوات اليونانية في منطقة مضائق البسفور والدردنيل .

مع احتدام الصراع الدولي الخفي من اجل مناطق النفوذ برز اكثر دور المساومة كعنصر فعال لايجاد بعض التوافق بين المصالح المتناقضة ، ولا سيما بعد ان اصبح مثل هذا التوافق ضرورة ملحة لتحقيق نتائج افضل في ساحات القتال كذلك . وقد جاءت الصياغة الانكليزية بالنسبة للامبراطورية العثمانية على لسان وزير الخارجية السر ادوارد غراي مع انفجار الحرب في الساحة

---

(٣) « تاريخ الدبلوماسية » ، الجزء الثاني (الدبلوماسية في العصر الحديث ، ١٨٧٢ ـ ١٩١٩) ، اعداد البروفيسور ف . م . خفوستوف والبروفيسور ي . ي . مينتس ، باشراف الاكاديمي ف . پ . پتيومكين ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩٤٥ ، ص ٢٧٩ . (في الهوامش القادمة : « تأريخ الدبلوماسية ») .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٨٠ .

الاوروبية مباشرة ، على النحو التالي : اذا انضمت تركيا الى جانب المانيا « حينذاك يجب ان ينتهي وجودها »[٥] . وجاءت الصياغة الروسية مطابقة تماما لهذه . فقد كتب وزير الخارجية س . د . سازانوف في ١٠ آب ١٩١٤ الى سفير بلاده في استانبول رسالة يقول فيها : في حالة وقوف تركيا الى جانب المانيا « نستطيع ان نستغني عن كامل وجودها »[٦] . الا ان روسيا لم تكشف منذ البداية عن جميع اطماعها في الامبراطورية العثمانية ، بل ركزت حتى نهاية ايلول من عام ١٩١٤ على مسألة المضائق الحيوية بالنسبة لمصالحها علما بانها وضعت بعد اندلاع الحرب مباشرة خطة مفصلة لاعادة تنظيم الحدود السياسية الاوروبية وتقسيم المستعمرات الالمانية في حالة اندحار الجبهة المعادية .

يحتاج الموضوع الاخير ، اي موقف روسيا من المضائق ورد فعل حلفائها على ذلك الموقف ، الى وقفة خاصة لانه هو الذي دشن بداية الطريق الذي افضى في النهاية الى عقد معاهدة « سايكس ـ بيكو » . فقد حاول الانكليز من جانبهم الضرب على وتر المضائق الحساس بالنسبة للروس وذلك بقصد دفعهم الى اتخاذ مواقف تتوافق اكثر مع الخطط البريطانية سواء في ميادين القتال او في الخطوط الخلفية . وعلى هذا الاساس بدأ المسؤولون الانكليز منذ أواخر عام ١٩١٤ يؤكدون للمسؤولين الروس ان مصير الامبراطورية العثمانية ككل امر مرتبط بمصير المانيا ، وحالما يتقرر هذا الاخير فان مستقبل استانبول والمضائق سيحدد على ضوء المصالح الروسية .

---

(٥) المصدر نفسه ، ص٢٧٩ . وقد جاء ذلك في رده على رسالة بعثها اليه وزير الخارجية الروسي س . د . سازانوف .

(٦) راجع : « العلاقات الدولية في عصر الاستعمار . وثائق من ارشيف الحكومتين القيصرية والمؤقتة ١٨١٧ ـ ١٩١٧ . التسلسل رقم ـ ٣ ـ ، ١٩١٤ ـ ٩١٧ » ، باللغة الروسية ، المجلد السادس ، القسم الاول ، الوثيقة رقم ٥٠ . (في الهوامش القادمة : « العلاقات الدولية ») .

وقد ذهب الملك جورج الخامس الى حد انه ذكر للسفير الروسي صراحة ان « استانبول يجب ان تكون لكم »[٧] •

لكن البون ظل شاسعا في البداية بين هذه التصريحات الخاصة مع مضامين الوثائق المدونة التي جاءت دائما بصياغة ذكية تتحمل انواع التأويلات • فقد اكدت المذكرة البريطانية الموجهة الى الحكومة الروسية في ١٤ تشرين الثاني ١٩١٤ وما رافقها من تصريحات ، على ضرورة التركيز على الجبهة الالمانية عسكريا مع حصر النشاط في الجبهة العثمانية على الدفاع فحسب • اما فيما يتعلق بالمضائق فلم يرد سوى هذا التصريح المطاطي : فيما يخص استانبول « يجب ان يحل باتفاق مع روسيا »[٨] • وكان للفرنسيين موقف مشابه للموقف الانكليزي بهذا الصدد •

لم يكن من السهل بالنسبة للروس ان يرضوا بمثل هذا الموقف ، فنشطت دبلوماسيتهم للضغط على الدولتين الحليفتين لتحديد موقف رسمي صريح حول مستقبل استانبول والمضائق • وهذا ما جاء صراحة في المذكرة التي قدمها لهما سازانوف في ٤ آذار من عام ١٩١٥ • وهنا استغل وزير الخارجية الروسي ورقة مربحة عندما هدد بالاستقالة من منصبه في حالة استمرار المعارضة الانكلو ــ فرنسية لضم المضائق الى روسيا ، مما يجعل من المتوقع ــ كما ذكر ــ ان يحل محله شخص آخر يكون ميالا لاحياء « نظام عصبة الاباطرة الثلاث القديم »[٩] •

---

(٧) « العلاقات الدولية » ، التسلسل الثالث ، المجلد السادس ، القسم الاول ؛ الوثائق ٤٨٤ و ٥٠٦ •

(٨) المصدر نفسه ، الوثيقة رقم ٥١١ ؛ « تأريخ الدبلوماسية » ، الجزء الثاني ، ص ٢٨٠ •

(٩) « العلاقات الدولية » ؛ التسلسل الثالث ، المجلد السابع ، القسم الاول ، الوثيقة رقم ٣١٢ . كان سازانوف يقصد العصبة التي ضمت بموجب اتفاقيات ١٨٧٣ و ١٨٨١ و ١٨٨٤ كلا من روسيا والمانيا والنمسا . وكان وزير الخارجية الروسي يريد بذلك الايحاء بان موقف حلفاء روسيا قد يدفع بها للانتقال الى الجبهة المعادية .

تمخضت الخطوة الروسية الجديدة عن نتائج سريعة ومهمة على صعيد الدبلوماسية السرية في مرحلة حساسة من مراحل الحرب العالمية الاولى . ففي ١٢آذار تعهدت انكلترا في مذكرة خاصة بالعمل من اجل ضمان حصول روسيا على استانبول وبعض المناطق الداخلية بضمنها الساحل الغربي للبسفور وبحر مرمرة مع اصقاع مهمة اخرى داخل النطاق الستراتيجي نفسه . الا ان المذكرة البريطانية اقترنت تحقيق ذلك بانتهاء الحرب وتحقيق كل من انكلترا وفرنسا لمشاريعهما المتعلقة بتركيا الاسيوية وغيرها من المناطق .

وافقت الحكومة الروسية على ما جاء في المذكرة البريطانية التي تحولت بذلك الى نوع من الاتفاق بين الجانبين . وفي ١٠ نيسان ١٩١٥ انضمت فرنسا بدورها الى الصفقة الانكلو ـ روسية[١٠] التي شكلت الخطوة الاولى لتقسيم الامبراطورية العثمانية فقد هيأت الاجراءات الاخيرة كل الظروف اللازمة لكي تطفو « المسألة الشرقية » برمتها على السطح من جديد ولكن في اطار التناقض والتوافق الذي نجم عن احداث الحرب . وقد لعبت فرنسا دورا انشط من غيرها في هذا المجال ، ولا سيما لان الانكليز كانوا يريدون دخول سوق المساومات الدولية وهم مسنودون بخلفية اقوى من منافسيهم ، لذا لم يستعجلوا الامر قبل ان يضمنوا لانفسهم حليفا مؤثرا في شخص امير الحجاز[١١] وقبل ان يحققوا لقواتهم مواقع ثابتة في مناطق حساسة من

(١٠) للتفصيل راجع : « تقسيم تركيا الاسيوية (حسبما جاء في الوثائق السرية للوزارة الخارجية السابقة) » ، باشراف ي . أ . اداموف ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩٢٤ ، الوثيقة رقم ٢٢ . (في الهوامش القادمة : « تقسيم تركيا الاسيوية ») ؛ « مجموعة نصوص عن تأريخ العلاقات الدولية » ، الجزء الثاني ، باشراف البروفيسور أ . ف . ميللر والدكتور س . ر . سميرنوف ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩٧٢ ، القسم الثاني ، الفصل الاول ، الوثائق ١٧ و ١٩ . (في الهوامش القادمة : « مجموعة نصوص عن تأريخ العلاقات الدولية ») . كانت لفرنسا مصالح اوسع من بقية الدول الاوروبية في تركيا ، وبالذات في استانبول ، لذلك ترددت في الموافقة مباشرة على المخطط الروسي .

(١١) اتفاقية « حسين ـ مكماهون » المعروفة .

الشرق الاوسط[١٢] • الا ان الفرنسيين الذين ادركوا كنه الموقف الانكليزي ارادوا التوصل بسرعة الى عقد اتفاق رسمي بشأن مستقبل الممتلكات العثمانية ، وعلى رأسها اقطار المشرق العربي • ففي وقت مبكر (٢١ تشرين الثاني ١٩١٤) بين السفير الفرنسي موريس پاليولوگ للقيصر الروسي نيكولاى الثاني ما لبلاده من « مصالح روحية ومادية موروثة » في سوريا وفلسطين واستفسر عن موقفه ازاء الاجراءات التي تعتبرها فرنسا ضرورية للحفاظ عليها[١٣] • وبعد فترة وجيزة (في كانون الثاني ١٩١٥) اكد وزير الخارجية الفرنسي ديلكاسييه للسفير الروسي في باريس عزم بلاده على نيل كل من سوريا (بضمنها ميناء الاسكندرونة) وفلسطين اثناء تقسيم الممتلكات العثمانية في المستقبل[١٤] •

لم يكن من السهل لفرنسا ضمان مطاليبها بالنسبة للمشرق العربي بسبب موقف حليفتيها روسيا وبشكل خاص انكلترا • فان الاخيرة كانت تعمل جاهدة وعلى اصعدة مختلفة لحصر النفوذ الفرنسي في اضيق رقعة ممكنة من هذه المنطقة الحساسة • اما روسيا فانها وان لم تكن في موقف يسمح لها بالتفكير مثل حليفتيها بالنسبة للمشرق العربي ، الا انها حاولت من جانبها استغلال الظروف في سبيل ضمان اطماعها في بقية اجزاء الامبراطورية العثمانية ، ولا سيما في ارمينيا وكردستان الى جانب ما مر ذكره بصدد استانبول والمضائق •

---

(١٢) فيما عدا النشاط العسكري الروسي الذي تركز في الجبهة العثمانية على ارمينيا الغربية واذربيجان الجنوبية وكردستان الشمالية مع اجزاء من كردستان الشرقية فان القوات البريطانية (حوالي مليون جندي) هي التي لعبت الدور الاساس في هذه الجبهة ، وبشكل خاص في المشرق العربي •

(١٣) م • پاليولوگ ، روسيا القيصرية خلال الحرب العالمية ، باللغة الروسية ، موسكو ــ بطرسبورغ ، ١٩٢٣ ، ص ١٦٩ ــ ١٧٠ •

(١٤) راجع : م • س • لازاريف ، زوال السيادة التركية على المشرق العربي ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩٦٠ ، ص ١٢٤ •

استغلت فرنسا ظروف انتقال العمليات الحربية الى البحر الاسود واثارة روسيا لمسألة المضائق بالشكل الذي سبق ذكره ، فاثارت من جديد وعلى اعلى مستوى مسألة تقسيم الممتلكات الاسيوية للامبراطورية العثمانية . ففي ايام المفاوضات والاتصالات التي سبقت الاتفاق الانكلو ـ فرنسي ـ الروسي حول المضائق كتب الرئيس الفرنسي پ . پوانكاريه الى سفير بلاده في بطرسبورغ يخبره ان حكومته على استعداد للموافقة على تقسيم الممتلكات الاسيوية العثمانية شريطة الحفاظ على « المصالح الفرنسية في الشرق الأدنى » ومراعاة « المصالح الاقتصادية (الفرنسية) في آسيا الصغرى » مع التقيد بـ « حقوق (فرنسا) في سوريا والاسكندرونة وولاية ادنة » . وسرعان ما طالب الفرنسيون بفلسطين كذلك على اساس كونها جزءا من سوريا . الا ان سازانوف عارض بشدة الطلب الفرنسي الاخير واعلن ان روسيا « لن تسمح بانتقال الاماكن المقدسة في فلسطين الى حوزة دولة واحدة » . اما بالنسبة للمناطق الاخرى التي طالبت بها فرنسا فان روسيا لم تبد من جانبها الاعتراض على اي منها . ولكن كما يذكر الدكتور م . س . لازاريف فان « الحل النهائي لقضية مصير « التركة العثمانية » كان يعتمد على لندن لا بطرسبورغ »[١٥] . وجاء رد لندن الحاسم على لسان وزير الخارجية بان : لا داعي للاستعجال في تقسيم الممتلكات العثمانية ، ولا يحق لفرنسا المطالبة بفلسطين والاسكندرونة ، ويفضل تأسيس « خلافة عربية مستقلة » ، وان تراعى مصالح انكلترا الحيوية في العراق . وقد ابلغ سفيرا روسيا وفرنسا في لندن بفحوى هذا الرد[١٦] . وفي ٢٠ آذار ١٩١٥ سلمت السفارة البريطانية في بطرسبورغ الحكومة الروسية مذكرة خاصة جاء فيها :

---

(١٥) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .

(١٦) راجع : « العلاقات الدولية » ، التسلسل الثالث ، المجلد السابع ، القسم الاول ، الوثيقة رقم ٢٩٢ ؛ « تقسيم تركيا الاسيوية » ، الوثيقة رقم ١٩ .

« تعتبر حكومة صاحب الجلالة تأسيس سلطة اسلامية مستقلة في مكان ما كمركز سياسي للاسلام حال ابعاد الترك من استانبول ، امرا حيويا . وليس من الضروري ان تكون هذه السلطة تركية ، بل ان يكون لها مركز في الاماكن الاسلامية المقدسة . واغلب الظن ان حكومة اسلامية كهذه يجب ان تضم شبه الجزيرة العربية .. وترى الحكومة البريطانية في مناقشة مسألة تقسيم العراق وسوريا وفلسطين او المناطق المجاورة امرا سابقا لاوانه »[١٧] .

الا ان تتابع الاحداث بسرعة كبيرة في ميادين القتال وعلى الصعيد الدولي جعل من التغيير السريع للمواقف الدبلوماسية في سنوات الحرب امرا حتميا . فسرعان ما غير الانكليز من موقفهم المتشدد ، ولا سيما بعد ان تم التوصل الى اتفاق بشأن المضائق وبعد ان تم كسب الشريف حسين بالشكل الذي ارادوه[١٨] . كما استجد عامل مهم آخر في هذا الميدان لم يكن في الامكان تجاهله من قبل الانكليز . فان القوات الروسية تمكنت من تحقيق انتصارات كبيرة على القوات العثمانية في ميادين اسيا الصغرى الحربية وتوغلت بعمق في الاراضي الايرانية بحيث اصبحت على مشارف بلاد ما بين النهرين[١٩] . وكان من شأن ذلك تحريك طموحات روسيا الواسعة

---

(١٧) « العلاقات الدولية » ، التسلسل الثالث ، المجلد السابع ، القسم الاول ، الوثيقة رقم ٣٩٨ .

(١٨) كان الانكليز يبتغون من تعاملهم مع الشريف حسين تحويله الى اداة رئيسة للوقوف بوجه التغلغل الفرنسي في المشرق العربي .

(١٩) توغلت القوات الروسية الى داخل الاراضي العثمانية والايرانية منذ بداية تورط تركيا في الحرب العالمية الاولى، ولا سيما بعد ان حققت تلك القوات انتصارا كبيرا في موقعة « ساري قاميش » (٦ كانون الثاني ١٩١٥) التي انتهت بمقتل حوالي ٧٠ الف شخص من القوات العثمانية العاملة في هذه الجبهة والتي بلغ مجموع تعدادها ٩٠ الف شخص (للتفصيل راجع : الدكتور كمال مظهر احمد ، كردستان في سنوات الحرب العالمية الاولى ، ترجمة محمد الملا عبدالكريم ، بغداد ، ١٩٧٧ ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣) .

باتجاه جديد مليء بالمخاطر بالنسبة للمصالح الانكليزية • من هنا فقد غدا تقرير مصير الممتلكات العثمانية في هذه المرحلة في صالح الانكليز كذلك •

هكذا تحول الاتفاق حول تقسيم الممتلكات العثمانية الاسيوية منذ نهاية عام ١٩١٥ الى مهمة ملحة أمام دبلوماسية الحلفاء • فبدأت المفاوضات بين الجانبين الفرنسي والبريطاني في لندن في ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٢ ، وقد مثل الاول منهما القنصل الفرنسي العام السابق في بيروت فرانسوا جورج پيكو ومثل الجانب الثاني وكيل وزير الخارجية ارثر نيكلسن ثم حل محله الخبير بشؤون الشرق الاوسط السر مارك سايكس •

تركزت المفاوضات بين الطرفين خلال شهر كامل على تحديد مصير سوريا • وفي هذه المرحلة ظهرت خلافات جدية بين وجهات النظر للجانبين • فان الانكليز كانوا يعترفون بالسيادة الفرنسية الكاملة على الاسكندرونة وكيليكيا مع الموصل فقط[٢٠] • اما بالنسبة للبنان فانهم كانوا يريدون ان تصبح مجرد منطقة نفوذ فرنسية • وبالنسبة لسوريا فقد كانوا يصرون على ضرورة انضمام جانب كبير منها الى حكومة الشريف حسين • اما الفرنسيون فانهم كانوا يطالبون بالسيادة المطلقة على كل الجزء الغربي من سوريا وبالحماية على دمشق وحمص وحماه وحلب وبتقسيم فلسطين •

الا ان الانكليز الذين كانوا يرون ان التقرير النهائي لهذه القضايا انما يعتمد على طبيعة انتهاء الحرب لم يرغبوا في ان يزداد توتر الموقف اكثر من الحد الذي بلغه مع حلفائهم الفرنسيين ، لذا نراهم يخفضون من معارضتهم للمطاليب الفرنسية • وقد دفعهم الى ذلك ايضا ما كانوا يتوقعونه من معارضة روسية تدفع بالفرنسيين الى بعض التراجع في المرحلة التالية من المفاوضات •

---

(٢٠) بالنسبة لولاية الموصل اشترط الانكليز عدم معارضة روسيا •

وكان للفرنسيين توقعات مشابهة ، اي انهم كانوا يعتقدون بدورهم ان بامكان الضغط الروسي الحد من المطاليب الانكليزية الواسعة[21] ٠

في بداية اذار ١٩١٦ وصل جورج ــ پيكو ومارك سايكس الى العاصمة الروسية بطرسبورغ لعرض ما توصلا اليه من اتفاق على حكومة القيصر ٠ وفي التاسع منه قدم الطرفان مذكرة تفصيلية مشتركة حول الموضوع الى وزير الخارجية سازانوف جاء في بنودها الاحد عشر اتفاقهما على تقسيم « تركيا الاسيوية » الى خمس مناطق وتوزيعها على النحو التالي :

١ ــ « المنطقة الزرقاء »وتتألف من الاقسام الغربية من سوريا ولبنان مع كل من كيليكيا وعينتاب واورفة وماردين ودياربكر وهكاري ، والتي اتفق الطرفان على ان تكون لفرنسا فيها السيادة المطلقة ؛

٢ ــ « المنطقة الحمراء » وتتألف من القسم الجنوبي من ولاية بغداد مع ولاية البصرة ومينائي حيفا وعكا وتكون تابعة لانكلترا ؛

٣ ــ « المنطقة ذات اللون القهوائي » وتتألف من بقية فلسطين وتكون تحت اشراف دولي تتفق عليه روسيا مع الدول الغربية ؛

٤ ــ « المنطقة A » وتتألف من القسم الشرقي من سوريا مع شمال العراق وتصبح منطقة نفوذ فرنسية ؛

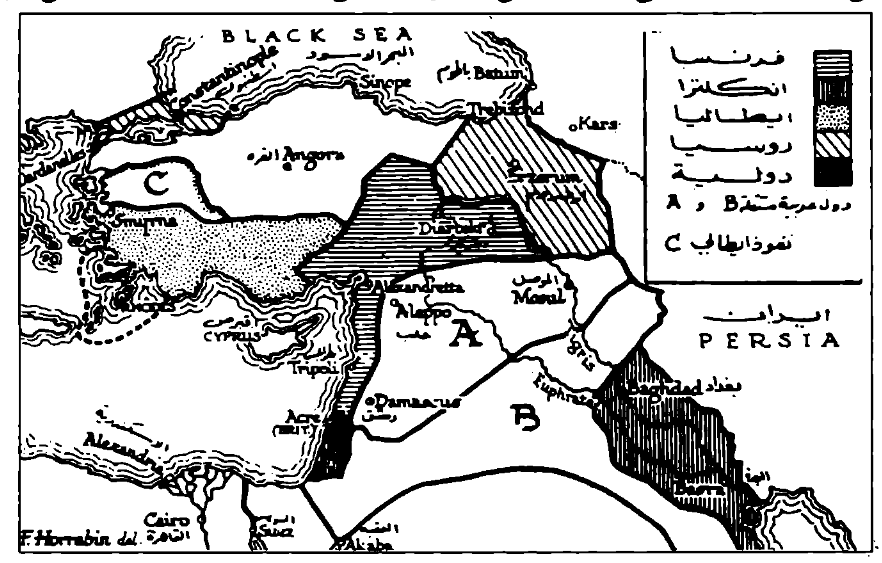
٥ ــ « المنطقة B » وتتألف من الاردن مع العراق الاوسط وتصبح ضمن منطقة النفوذ البريطاني ٠

ورد في المذكرة كذلك استعداد الدولتين للاعتراف بـ « استقلال » والقيام بحماية دولة عربية او اتحاد فيدرالي في منطقتي (A) و (B) ، وتكون لهما الافضلية ــ كل في منطقته ــ في اقامة المشاريع ومنح القروض

---

(٢١) راجع : م . س . لازاريف ، السياسة الاستعمارية للحلفاء في الممتلكات العربية العثمانية في ١٩١٤ ــ ١٩١٨ ، ــ مجلة « التاريخ الحديث والمعاصر » ، موسكو ، العدد السادس ، ١٩٥٨ ، ص ٧٨ .

وتقديم المستشارين بناء على طلب الحكومة العربية • وتعهـــدت انكلترا بالسماح بنقل كميات معينة من مياه نهري دجلة والفرات من المنطقة (A) الــى المنطقة (B) • واتفق الطرفان ــ كما ورد في المذكرة ــ على ان تكون الاسكندرونة وحيفا ميناءين مفتوحين امام تجارة فرنسا وانكلترا • وتقــرر بموجب البندين السادس والسابع ان يقوم الانكليز ببناء خط حديدي مــن حيفا باتجاه بغداد ويقوم الفرنسيون ببناء خط مشابه من حلب بالاتجاه نفسه على ان لا يجري العمل في بناء سكة حديد بغداد الى الجنوب من الموصــل ضمن المنطقة (A) والى الشمال من سامراء ضمن المنطقة (B) • ونص البند



« صورة الخارطة الأصلية لتقسيم الممتلكات العثمانية
بموجب معاهدة سايكس ــ بيكو »

الثامن من المذكرة على ضرورة الحفاظ على التعريفة الكمركية التركية علــى مدى عشرين عاما ، شريطة ان لا يحق لاي من الجانبين القيام برفعهـــا او تبديلها دون موافقة مسبقة من الجانب الاخر • واتفقت الدولتان في البنـــد التاسع على عدم السماح لطرف ثالث بالاستحواذ على اي جزء من شبه الجزيرة العربية او القيام ببناء قواعد في الجزر الواقعة على الجانب الشرقي من البحــر الاحمر • واخيرا نص مشروع الاتفاق الانكلو ــ فرنسي على ان « تجــري

المفاوضات مع العرب بشأن حدود الدولة (العربية) أو اتحاد الدول (العربية) ... باسم الدولتين » (البند العاشر) ، وان « تقوم الدولتان معا بوضع الضوابط على تصدير السلاح للمناطق العربية » (البند الحادي عشر)[٢٢] .

لم تلق المذكرة في مضمونها العام معارضة قوية من جانب الروس الذين ابدوا ، مع ذلك ، تحفظهم بشأن بعض النقاط الواردة فيها كما اقترحوا بعض الاضافات والتعديلات اعتبروها ضرورية بالنسبة لمصالحهم . فان سازانوف لم يكن مرتاحا ، مثلا ، من عدم وجود « دولة حاجزة » بين مناطق النفوذ الروسية والفرنسية والانكليزية في الشرق الاوسط[٢٣] . وطالب باشراف روسي على الكنيسه الارثذوكسية في فلسطين ، كما عارض منح منطقة ورمي الداخلة في الحدود الايرانية والواقعة على مشارف الحدود الروسية ، للفرنسيين[٢٤] . وبالرغم من محاولة الفرنسيين وضع الروس امام الامر الواقع ، الا ان الانكليز ساندوهم في محاولة منهم لكسبهم الى جانبهم بالنسبة لقضايا اخرى اعتبروها حساسة بالنسبة لمصالحهم في الشرق الاوسط . وعلى هذا الاساس قدم مارك سايكس خارطة جديدة تركت فيها منطقة ورمي للروس وعوض الفرنسيون عنها بمنحهم منطقة سيواس ــ خربوط ــ قيصري . وكان الخبير البريطاني يبتغي من مناورته هذه ضمان تأييد الدبلوماسية الروسية لخطط الانكليز بشأن فلسطين والحركة الصهيونية . فقد اقترح مارك سايكس التعاون مع هذه الحركة والسماح لليهود بالهجرة الى فلسطين دونما عائق وتقليص « حقوق » فرنسا هناك . وكان رد سازانوف ان حكومته

---

(٢٢) راجع : « مجموعة نصوص عن تأريخ العلاقات الدولية » ، الجزء الثاني ، القسم الثاني ، الفصل الاول ، الوثيقة رقم ٢٣ ؛ «تقسيم تركيا الاسيوية» الوثيقة رقم ٧٤ .

(٢٣) « تأريخ الدبلوماسية » ، الجزء الثاني ، ص ٢٧٨ .

(٢٤) راجع : « العلاقات الدولية » ، الجزء العاشر ، الوثائق ٣٣٧ و ٣٥٦ و ٣٥٧ و ٣٦٥ وغيرها .

تعطف على الحركة الصهيونية ، الا انها تعتبر « ان الظروف لم تحن بعد لحل القضية الفلسطينية »[٢٥] .

جاء الرد الروسي الرسمي على المقترحات الانكلو ــ فرنسية في مذكرة خاصة بتأريخ ١٧ آذار ١٩١٦ تضمنت موافقة روسيا على المشروع الانكلو ــ فرنسي شريطة تحقيق ما ورد في اتفاقية اذار ــ نيسان ١٩١٥ بصدد استانبول والمضائق ومنح روسيا ارمينيا الغربية مع بعض الاصقاع الكردية العثمانية والايرانية الجديدة ضمن مناطق بدليس وورمي وهكاري بالاضافة الى قسم من الساحل الجنوبي للبحر الاسود وضمان امتيازات الكنيسة الارثدوكسية في فلسطين على الا يحول ذلك دون توطين اليهود فيها . وبالمقابل فقد تعهدت روسيا في مذكرتها الجوابية بان لا تتدخل في المناطق الممتدة الى الجنوب من الخط الوهمي المار بالعمادية ــ جزيرة ابن عمر ــ ديار بكر ــ مرعش ــ ادنة ، اي ما يوازي تقريبا خط العرض ٣٨ درجة[٢٦] .

بالرغم من ان ما جاء في المذكرة الروسية كان يعني ان الدول الحليفة قد اقتربت كليا من الاتفاق النهائي حول تقسيم الممتلكات الاسيوية العثمانية ، الا ان بعض القضايا الجانبية ظلت عالقة بينها واحتاج حلها الى حوالي الشهر ونصف الشهر من المفاوضات والاتصالات والمساومات الاخرى . فقد عارض الفرنسيون ان تصبح العمادية ورواندوز ضمن المنطقة (A)[٢٧] وعارضوا ايضا ان تحدد القوانين الروسية من المصالح والامتيازات الفرنسية في المناطق التي اصبحت من نصيب روسيا . كما ان الروس ابدوا الرغبة في ان تصبح فلسطين ضمن منطقة النفوذ الفرنسية على ان تقوم لجنة دولية بالاشراف

---

(٢٥) للتفصيل راجع : م . س . لازاريف ، زوال السيادة التركية على المشرق العربي ، ص ١٣٢ .

(٢٦) راجع : « تقسيم تركيا الاسيوية » ، الوثائق ٨٠ و ٨١ ؛ م . س . لازاريف ، السياسة الاستعمارية للحلفاء في الممتلكات العربية العثمانية ، ص ٧٩ .

(٢٧) اراد الفرنسيون ان تصبحا ضمن المنطقة الزرقاء .

على الاماكن المقدسة وان تضمن حرية الوصول الى موانىء بحر الابيض المتوسط الواقعة على سواحلها[٢٨] • على اي حال توصل الحلفاء في نهاية المطاف الى حل هذه الخلافات على حساب المصالح الحيوية لشعوب المنطقة • ففي أواخر نيسان من عام ١٩١٦ وافق الجانب الفرنسي على مقترحات سازانوف وفي ٩ ــ ١٦ مايس تم في لندن تبادل المذكرات النهائية بين الفرنسيين والانكليز • كما اعطت الحكومة الروسية موافقتها النهائية على مشروع التقسيم في اليوم الاول من أيلول عام ١٩١٦[٢٩] •

هكذا تم ابرام واحدة من اخطر المعاهدات الدولية لتقسيم جزء كبير ، حساس وغني من الشرق الاوسط بين ثلاث من اكبر الدول الاستعمارية وعلى حساب مستقبل واماني شعوب المنطقة ومن خلف ظهرها •

الكشف عن معاهدة « سايكس ــ پيكو »

كان من الطبيعي ان تجري كل هذه المفاوضات المعقدة والاتصالات المستمرة والمساومات الغريبة التي تمخض عنها عقد معاهدة « سايكس ــ پيكو » بشكل سري للغاية • حتى ان الحليفة الرابعة ايطاليا ابعدت كليا عن كل ما يتعلق بها وذلك بحجة انها اعلنت الحرب ضد النمسا فقط[٣٠] • علما بان اطماعها في الممتلكات العثمانية كانت تشكل واحدا من اهم الاسباب التي دفعت بها للاشتراك في الحرب الى جانب الحلفاء • وهي لم تنل نصيبها من الغنائم المتوقعة بموجب معاهدة « سايكس ــ پيكو » الا بعد

---

(٢٨) راجع : م . س . لازاريف ، زوال السيادة التركية على المشرق العربي ، ص ١٣٤ .

(٢٩) « تاريخ الدبلوماسية » ، الجزء الثاني ، ص ٢٨٧ ؛ أ . ف . ميللر ، دراسة تاريخ تركيا المعاصر ، موسكو ، ١٩٤٨ ، ص ٥٨ .

(٣٠) لم تدخل ايطاليا الحرب الا بعد مساومات ومفاوضات طويلةمع الطرفين المتحاربين . فبعد ان رات ان من مصلحتها الانضمام الى الحلفاء اعلنت الحرب في ٢٣ مايس ١٩١٥ ضد النمسا فقط ، وهي لم تعلن الحرب ضد المانيا لغاية أواخر آب من عام ١٩١٦ .

ان أعلنت الحرب ضد المانيا في آب من عام ١٩١٦ • حينذاك قررت حليفاتها ان تصبح الطرف الرابع في المعاهدة السرية التي نصت بموجب بنود اضافية على تخصيص رقعة واسعة من الاقسام الجنوبية والجنوبية ـ الغربية من الاناضول لها ، بما في ذلك ازمير واداليا وقونية وايدن وسميرنا[٣١] • وبعد انتصار ثورة شباط ١٩١٧ في روسيا وافقت انكلترا وفرنسا على اضافة جزء من اسيا الصغرى الى حصة ايطاليا ، وتمت صياغة التغييرات الجديدة بدون علم روسيا وبموجب اتفاقية ثلاثية وقعت في ١٩ نيسان ١٩١٧ • وقد اصبحت المنطقة الايطالية تحمل على خارطة التقسيم اللون الاخضر[٣٢] •

وبالرغم من السرية التامة التي اكتنفت عقد معاهدة « سايكس ــ بيكو » وملحقاتها فان بعض الاوساط الدولية بدأت تحس بما يجري خلف الكواليس بشكل او بآخر • فان بعض المصادر تشير الى ان الاستخبارات الايطالية كانت على علم باتصالات الحلفاء حول تقسيم الممتلكات العثمانية[٣٣] •وحسبما يبدو من معلومات اخرى فان الكولونيل هاوس ، وهو من اقرب مستشاري الرئيس الامريكي ولسن ، كان على بعض الاطلاع على ما تم الاتفاق عليه بين الحلفاء سرا ، وان ظل الرئيس ولسن يؤكد جهله المطلق بالمعاهدة حتى بعد ان وضعت

---

(٣١) تم ذلك بموجب المذكرة التي قدمتها الحكومة الايطالية الى الحلفاءفياليوم التاسع عشر من تشرين الثاني ١٩١٦ (راجع : « تاريخ الدبلوماسية » ، الجزء الثاني ، ص ٢٨٧ ؛ أ . ف . ميللر ، المصدر السابق ، ص ٥٩) .

(٣٢) للتفصيل راجع : أ . ف . ميللر ، المصدر السابق ، ص ٥٩ ــ ٦٠ .

(٣٣) راجع على سبيل المثال : م . س . لازاريف ، السياسة الاستعمارية للحلفاء في الممتلكات العربية العثمانية ، ص ٨٠ . يستند الدكتور لازاريف في ذلك الى ما اورده المؤرخ الانكليزي المعروف آرنولد توينبي بهذا الصدد (راجع : ــ
A.J. Toynbee, The Western Question in Greece and Turkey. A study in the contact of civilization, London, 1922, p. 51).

الحرب العالمية الاولى اوزارها[٣٤] . كما ان بعض الاوساط السياسية التركية بدأت تحس بما يطبخ من مؤامرات في الخفاء ضد مصالح بلادها الحيوية[٣٥] .

مع ذلك ظلت تفاصيل بنود معاهدة « سايكس ـ پيكو » وملحقاتها غير معروفة الا لدى الاوساط الحاكمة الانكليزية والفرنسية والروسية والايطالية . ولقد تم الكشف عنها وعن غيرها من العهود والمواثيق الدولية السرية بعد انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا . ففي ٨ تشرين الثاني ١٩١٧ ، اي بعد يوم واحد من الثورة ، أعلن النظام الجديد رفضه للدبلوماسية السرية وتعهد بنشر جميع المعاهدات والاتفاقات التي عقدتها الحكومة القيصرية السابقة مع الدول الكبرى وغيرها . وعلى هذا الاساس تشكلت لجنة خاصة برئاسة ن . گ . ماركين[٣٦] لدراسة المعاهدات والمراسلات السرية لروسيا القيصرية تمهيدا لنشرها . وبعد حل رموزها الذي استغرق حوالي ستة اسابيع من العمل المتواصل تم نشر حوالي مائة معاهدة وعدد كبير من الوثائق والرسائل الدبلوماسية في الصحف المحلية يعود بعضها الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر . بعد ذلك نشرت سبعة مجلدات بمضامين المعاهدات والوثائق نفسها تحت عنوان « مجموعة الوثائق السرية في ارشيف وزارة الخارجية السابقة » . وقد ضم احد هذه المجلدات الاتفاقات السرية التي عقدت بين الحلفاء خلال سنوات الحرب العالمية الاولى ، بما فيها معاهدة « سايكس ـ پيكو »[٣٧] .

---

(٣٤) راجع : م . س . لازاريف ، السياسة الاستعمارية للحلفاء في الممتلكات العربية العثمانية ، ص ٨١ .
"War Memories of David Lloyd George", Vol. III, London, 1934, pp. 1686—1687.

(٣٥) راجع : ا . ف . ميللر ، المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٣٦) نيكولاى گريگور وڤيچ ماركين (١٨٩٣ ـ ١٩١٨) شغل منصب سكرتير في وزارة الخارجية بعد انتصار ثورة اكتوبر .

(٣٧) للتفصيل راجع : « تاريخ الدبلوماسية » ، الجزء الثاني ، ص٣٠٤ـ٣٠٥ .

ترك الكشف عن المواثيق الدبلوماسية السرية للدول الكبرى اثارا عميقة على اوساط سياسية مختلفة سواء في الشرق او في الغرب . فقد اعادت العديد من الصحف العالمية ، ولا سيما المحايدة منها ، نشر الوثائق السرية هـــذه . واضطر وزير الخارجية الفرنسي الى تقديم ايضاح حول الموضوع للبرلمان الفرنسي[٣٨] . كما حاولت اوساط دبلوماسية غربية انكار حقيقة المعاهدات المنشورة لانها احدثت ضجة كبيرة في صفوف الاوساط الوطنية ، ولا سيما في اقطـار الشرق الاوسط .

---

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ٣٠٦ .

الموضوع الرابع

« الباحث عن العرش »
في مذكرات لويد جورج

- « لا يحلو لفيصل في الحيـاة .. غير اعتـلاء العروش »

  ـ الامير عبدالله ـ

- « لن اشترك ابدا مرة اخرى في خلق الملوك ، ان في ذلك اجهادا كبيرا » .

  ـ گيرترودبيل ـ

فيصل الاول : كابن لشريف مكة وكـ « سفير متجول » لوالده الملك ، وقائد للقوات العربية في حربها ضد الحكم التركي ، وكصديق حميم للورانس الذي اصبح اسمه على لسان كل انكليزي بل وكل اوروبي ، واخيرا كملك على سوريا ومن ثم على العراق ، اثار وما زال يثير ، اهتماما كبيرا في الاوساط السياسية . فقد شغلت مآثره مع تقلباته ، نجاحاته الى جانب اخفاقاته ، حياته الخاصة والعامة فكر وقلم العديد من الباحثين ابتداء بالصحفيين وانتهاء بكتاب المذكرات والمؤرخين . لكن تبقى ، مع ذلك ، امور كثيرة عن حياة ونشاطات فيصل الاول تحتاج الى اضواء اخرى كاشفة هي ضرورية اذا ما اردنا اعطاء الرجل ما له ، وهو ما كتب عنه الكثير[1] ، وما عليه ، وهو ما يحتاج الى تقص اكثر ظهرت علائمه في العديد من البحوث[2]

---

(١) طغى الانحياز غير الموضوعي على قسم كبير من البحوث التي تطرقت الى هذا الجانب من اعمال فيصل الاول لانها نظرت اليه من زاوية انكليزية بحتة ، او من منطلقات متخلفة تشكل نواة الفكر السياسي الرجعي في البلاد ، او بدافع التزلف للعرش ، او لانها اعطت بعض صفات الامير الشخصية ونياته طابع الشمول ، او لان اصحاب بعضها هم انفسهم من الذين تحملوا مسؤولية الاحداث معه فيحاولون اضفاء طابع مثالي بحت على الدوافع والمحركات لايجاد مبررات للعديد من النتائج المؤلمة .

٢ ـ حاول السيد علي التلعفري في مقاله « تأسيس عرش العراق في خضم التفاعلات السياسية » الخروج من الطوق التقليدي الجاعل من النسب والذكاء والشهامة وغيرها من الصفات الشخصية التي لم تجعلها الحياة حكرا على احد ، اساسا لاختيار فيصل ملكا على العراق ووضع الامر في اطاره الشامل وان كان قد اعطى الصهيونية فيه مقاما اكثر مما تتحمل (راجع : «الثقافة»، بغداد ، العدد الثالث ، آذار ١٩٧٦ ، ص٤٩ـ٧٢) . ويجدران نشير هنا الى ان الاستاذين الدكتور فاضل حسين ومحمد توفيق حسين كانا في مقدمة المؤرخين العراقيين الذين فضحوا اتصالات فيصل الاول بزعماء الحركة الصهيونية وعلى راسهم حاييم وايزمن (الدكتور فاضل حسين ، فيصل الاول والصهيونية ، ـ « المعلم الجديد » ، ←

فيصل الاول : كابن لشريف مكة وكـ « سفير متجول » لوالده الملك ، وقائد للقوات العربية في حربهـا ضد الحكم التركي ، وكصـديق حميـم للورانس الذي اصبح اسمه على لسان كل انكليزي بل وكل اوروبي ، واخيرا كملك على سوريا ومن ثم على العراق ، اثار وما زال يثير ، اهتماما كبيرا في الاوساط السياسية • فقد شغلت مآثره مع تقلباته ، نجاحاته الى جانـب اخفاقاته ، حياته الخاصة والعامة فكر وقلم العديد من الباحثـين ابتـداء بالصحفيين وانتهاء بكتاب المذكرات والمؤرخين • لكن تبقى ، مع ذلك ، امور كثيرة عن حياة ونشاطات فيصل الاول تحتاج الى اضواء اخرى كاشفة هي ضرورية اذا ما اردنا اعطاء الرجل ما له ، وهو ما كتب عنه الكثير[1] ، ومـا عليه ، وهو ما يحتاج الى تقص اكثر ظهرت علائمه في العديد من البحوث[2]

---

(١) طغى الانحياز غير الموضوعي على قسم كبير من البحوث التي تطرقتالى هذا الجانب من اعمال فيصل الاول لانها نظرت اليه من زاوية انكليزيـة بحتة ،او من منطلقات متخلفة تشكل نواة الفكر السياسي الرجعي في البلاد ، او بدافع التزلف للعرش ، او لانها اعطت بعض صفـات الامـير الشخصية ونياته طابع الشمول ، او لان اصحاب بعضها هم انفسهم مـن الذين تحملوا مسؤولية الاحداث معه فيحاولون اضفاء طابع مثالـي بحت على الدوافع والمحركات لايجاد مبررات للعديد من النتائج المؤلمة .

٢ ـ حاول السيد علي التلعفري في مقاله « تأسيس عرش العـراق في خضم التفاعلات السياسية » الخروج من الطوق التقليدي الجاعل من النسب والذكاء والشهامة وغيرها من الصفات الشخصية التي لم تجعلها الحيـاة حكرا على احد ، اساسا لاختيار فيصل ملكا على العراق ووضع الامر في اطاره الشامل وان كان قد اعطى الصهيونية فيه مقاما اكثر مماتتحمل (راجع : «الثقافة» بغداد ، العدد الثالث ، آذار ١٩٧٦ ، ص٤٩-٧٢) . ويجدران نشير هنا الى ان الاستاذين الدكتور فاضل حسين ومحمد توفيق حسين كانا في مقدمة المؤرخين العراقيين الذين فضحوا اتصالات فيصل الاول بزعماء الحركة الصهيونية وعلى راسهم حاييم وايزمن (الدكتـور فاضل حسين ، فيصل الاول والصهيونية ، ـ « المعلم الجديد » ،

التي تفرض اعادة النظر في بعض التقييمات السابقة لقضايا تتعلق بتأريخ العراق-المعاصر • وتكتسب الحقيقة الاخيرة اهمية اكبر اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار ان الملك فيصل هو من الساسة الذين ظهرت عنهم آراء في غاية التناقض • فهو في رأي بعض المؤرخين « بطل عربي » ، و « داهية في السياسة » صاحب مدرسة « حكيمة » فيها ، قائمة « على قاعدة : خذ وطالب »[٣] • بينما ليس في نظر آخرين ، سوى بيدق بيد الانكليز ، ورجل مخابراتهم المعروف لورانس الذي كان اهتمامه به «اهتمام المالك» ، بل وصل الامر ببعضهم حد وصفه بالبلادة التي جعلته في نظر البريطانيين افضل من غيره للعرش العراقي[٤] •

هذا التناقض البين في الرأي والتقييم يعني ان المجال لم يزل مفتوحا امام المعنيين للبحث عن فيصل اميرا وملكا بقصد الكشف عن كوامن كثيرة من

بغداد، المجلد الحادي والعشرين ، تشرين الثاني – كانون الاول ١٩٥٨ ، ص ١٠–١٩ ، محمد توفيق حسين ، عندما يثور العراق ، بيروت ١٩٥٩ ، ص ٢٨ ، ٣٣ – ٣٨) . وقدم الاستاذ سليمان موسى معلومات طريفة حول الموضوع نفسه متوصلا بصدده الى استنتاجات جديرة بالاهتمام وان كانت محاولته لتبرير موقف الامير فيصل في اتفاقاته مع زعماء الحركة الصهيونية من زاوية عدم المامه واعوانه بالانكليزية امرا مرفوضا بدلائل كثيرة ورد قسم كبير منها بين دفتي كتابه نفسه (سليمان موسى ، الحركة العربية . سيرة المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨ – ١٩٢٤ ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٤٢٨ – ٤٤٩ وغيرها) . وقد لجأ المؤلف الى الاسلوب نفسه في كتاب آخر له عن (لورنس والعرب ، عمان ، ١٩٦٢) لم يبلغ من المستوى ما بلغه كتابه الاول .

(٣) راجع : الدكتور زكي صالح ، مقدمة في دراسة العراق المعاصر ، بغداد ، ١٩٥٣ ، ص ٦٢ ، ٨٢ . ذهب الدكتور مجيد خدوري في كتابه :

"Independent Iraq, 1932—1958", London, 1960

الى نفس الراي تقريبا ، الا انه تجاهله في كتابه الاخير (عرب معاصرون ، بيروت ١٩٧٣ . راجع ايضا تقريظ الدكتور فاروق صالح العمر في : « الخليج العربي » ، العدد الخامس ، ١٩٧٦ ، ص ٢٣٨) .

(٤) دزموند ستيوارت ، تاريخ الشرق الاوسط الحديث ، ترجمة زهدي جارالله ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٢٦١ – ٢٦٢ .

حياته الخاصة والعامة ، التي كانت ، على ما يبدو ، زاخرة بالمفاجآت والطرائف والاساليب المكيافيلية نعرف عنها اقل حتى من « النزر اليسير »[٥] ونعرف اقل من ذلك عن نشاطاته عندما كان عضـــوا في « مجلس المبعـــوثان » العثماني [٦] .

وديفيـد لويد جورج (١٨٦٤ ـ ١٩٤٥) من الذين لكلامهـــم قيمة سياسية وتاريخية غير اعتيادية باعتباره واحدا من ابرز ساسة بريطانيا وقـــد لعب دورا مهما في الاحداث الخطيرة التي اشغلت العقود الاخيرة مـــن التاريخ البشري الحديث والعقد الاول من تاريخه المعاصر ، وبصفته رئيسا لحـزب الاحرار وكرئيس للوزارة البريطانية في احرج ايام الحرب العالمية الاولـــى (١٩١٦ ـ ١٩١٨) وخلال مؤتمر السلـــم في باريس (١٩١٩ ـ ١٩٢٠) وكشخص لعب الدور الابرز في صياغة بنود « معاهدة ڤيرساي » التي تركت آثارا بليغة على مصير العالم بأسره . وقد عرف بالحذاقة في ميدان المساومات السياسية ، لكنه كان يعطي دائما القليل جدا من اجل الحصول على الكثـير

---

(٥) اشار الدكتور علي الوردي الى بعض جوانبها، التي من شأنها اعطاء صورة اصدق عن ملك العراق الاول (الدكتور علي الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، الجزء السادس ، بغداد ١٩٧٦) .

(٦) ارى المقام مناسبا للاشارة الى جهد علمي مثابر بذله الاستاذ نجدة فتحي صفوة مخلصا في سبيل جمع نوادر الوثائق البريطانية عن العراق والمنطقة في ارشيفاتها الخاصة مما يسهم حتما في حل عقد تاريخية كثيرة وكشف غوامض كان صعبا الوقوف على بواطنها دون دلائل مادية تزخر بها تلك الوثائق دون غيرها . فمن من المؤرخين كان يعلم ـ وهذا ما اورده على سبيل المثال فقط ـ ان بكر صدقي قائد انقلاب ١٩٣٦ كان في وقت مابين سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ يعمل وكيلا للاستخبارات البريطانية في المنطقـــة المحايدة التي كانت قائمـــة في ذلـــك الـوقت بين العـراق وتركيـــا (Public Record Office—P.R.O.—, Foreign Office—F.O—20015, 31. XII. 1936; E—7790, 19.1.1973)
واي مفتاح ذلك الذي تقدمه مثل هذه الوثائق الى المؤرخ ؟ .
الوثائق البريطانية الواردة في هذا البحث مقتبسة من مجموعة الاستاذ نجـدة .

التي تفرض اعادة النظر في بعض التقييمات السابقة لقضايا تتعلق بتأريخ العراق المعاصر . وتكتسب الحقيقة الاخيرة اهمية اكبر اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار ان الملك فيصل هو من الساسة الذين ظهرت عنهم آراء في غاية التناقض . فهو في رأي بعض المؤرخين « بطل عربي » ، و « داهية في السياسة » صاحب مدرسة « حكيمة » فيها ، قائمة « على قاعدة : خذ وطالب »[٣] . بينما ليس في نظر آخرين ، سوى بيدق بيد الانكليز ، ورجل مخابراتهم المعروف لورانس الذي كان اهتمامه به «اهتمام المالك» ، بل وصل الامر ببعضهم حد وصفه بالبلادة التي جعلته في نظر البريطانيين افضل من غيره للعرش العراقي[٤] .

هذا التناقض البين في الرأي والتقييم يعني ان المجال لم يزل مفتوحا امام المعنيين للبحث عن فيصل اميرا وملكا بقصد الكشف عن كوامن كثيرة من

بغداد، المجلد الحادي والعشرين ، تشرين الثاني ـ كانون الاول ١٩٥٨ ، ص ١٠ـ١٩ ، محمد توفيق حسين ، عندما يثور العراق ، بيروت ١٩٥٩ ، ص ٢٨ ، ٣٣ ـ ٣٨) . وقدم الاستاذ سليمان موسى معلومات طريفة حول الموضوع نفسه متوصلا بصدده الى استنتاجات جديرة بالاهتمام وان كانت محاولته لتبرير موقف الامير فيصل في اتفاقاته مع زعماء الحركة الصهيونية من زاوية عدم المامه واعوانه بالانكليزية امرا مرفوضا بدلائل كثيرة ورد قسم كبير منها بين دفتي كتابه نفسه (سليمان موسى ، الحركة العربية . سيرة المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨ ـ ١٩٢٤ ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٤٢٨ ـ ٤٤٩ وغيرها) . وقد لجأ المؤلف الى الاسلوب نفسه في كتاب آخر له عن (لورنس والعرب ، عمان ، ١٩٦٢) لم يبلغ من المستوى ما بلغه كتابه الاول .

(٣) راجع : الدكتور زكي صالح ، مقدمة في دراسة العراق المعاصر ، بغداد ، ١٩٥٣ ، ص ٦٢ ، ٨٢ . ذهب الدكتور مجيد خدوري في كتابه :

"Independent Iraq, 1932—1958", London, 1960

الى نفس الراي تقريبا ، الا انه تجاهله في كتابه الاخير (عرب معاصرون ، بيروت ١٩٧٣ . راجع ايضا تقريظ الدكتور فاروق صالح العمر في : « الخليج العربي » ، العدد الخامس ، ١٩٧٦ ، ص ٢٣٨) .

(٤) دزموند ستيوارت ، تاريخ الشرق الاوسط الحديث ، ترجمة زهدي جارالله ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

حياته الخاصة والعامة ، التي كانت ، على ما يبدو ، زاخرة بالمفاجآت والطرائف والاساليب المكيافيلية نعرف عنها اقل حتى من « النزر اليسير »(٥) ونعرف اقل من ذلك عن نشاطاته عندما كان عضــوا في « مجلس المبعــوثان » العثماني (٦) .

وديڤيد لويد جورج (١٨٦٤ ـ ١٩٤٥) من الذين لكلامهـم قيمة سياسية وتاريخية غير اعتيادية باعتباره واحدا من ابرز ساسة بريطانيا وقـد لعب دورا مهما في الاحداث الخطيرة التي اشغلت العقود الاخيرة مـن التاريخ البشري الحديث والعقد الاول من تاريخه المعاصر ، وبصفته رئيسا لحـزب الاحرار وكرئيس للوزارة البريطانية في احرج ايام الحرب العالمية الاولـى (١٩١٦ ـ ١٩١٨) وخلال مؤتمر السلـم في باريس (١٩١٩ ـ ١٩٢٠) وكشخص لعب الدور الابرز في صياغة بنود « معاهدة ڤيرساي » التي تركت آثارا بليغة على مصير العالم بأسره . وقد عرف بالحذاقة في ميدان المساومات السياسية ، لكنه كان يعطي دائما القليل جدا من اجل الحصول على الكثير

---

(٥) اشار الدكتور علي الوردي الى بعض جوانبها، التي من شأنها اعطاء صورة اصدق عن ملك العراق الاول (الدكتور علي الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، الجزء السادس ، بغداد ١٩٧٦) .

(٦) ارى المقام مناسبا للاشارة الى جهد علمي مثابر بذله الاستاذ نجدة فتحي صفوة مخلصا في سبيل جمع نوادر الوثائق البريطانية عن العراق والمنطقة في ارشيفاتها الخاصة مما يسهم حتما في حل عقد تاريخية كثيرة وكشف غوامض كان صعبا الوقوف على بواطنها دون دلائل مادية تزخر بها تلك الوثائق دون غيرها . فمن من المؤرخين كان يعلم ـ وهذا ما اورده على سبيل المثال فقط ـ ان بكر صدقي قائد انقلاب ١٩٣٦ كان في وقت ما بين سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ يعمل وكيلا للاستخبارات البريطانية في المنطقـة المحايدة التي كانت قائمـة في ذلـك الوقت بين العـراق وتركيـا
(Public Record Office—P.R.O.—, Foreign Office—F.O—20015,

31. XII. 1936; E—7790, 19.1.1973)

واي مفتاح ذلك الذي تقدمه مثل هذه الوثائق الى المؤرخ ؟ .

الوثائق البريطانية الواردة في هذا البحث مقتبسة من مجموعة الاستاذ نجـدة .

جـدا ، ولم يثوان في ان يلعب في سبيل ذلك ادوارا تتأرجح بـين اقصى « اليسار » احيانا الى اقصى اليمين غالبا من اجل هدفه الاسمى الذي لـم يتعد في جميع الاحوال خدمة مصالح الرأسمالية الانكليزية بكل تفـان واخلاص ، لدرجة انه لم يتردد في التعاون مع حزب المحافظين المعارض ضـد اجنحة معينة داخل حزبه ولم يتوان في التساهل مع المانيا المهزومة كي تبقى شوكة بجنب فرنسا التي بدأت تشكل منذ نهاية الحـرب العالمية الاولى اقوى منافسة اوروبية لاطماع بريطانيا غير المحدودة • وقد انعكست ابعاد هـذه السياسة وكل ما ارتبط بها في ما دونه خلال المرحلة الاخيرة من حياته • فانـه بعد فشل حزبه في الانتخابات وابتعاده عن الحكم في عام ١٩٢٢ بدأ بنشـر مقالات سياسية مهمة في كبريات الصحف البريطانية كما الف عددا من الكتب الوثائقية التي تشكل مصادر في غاية الاهمية عن تاريخ انكلترا الحـديث والمعاصر وعن الحرب العالمية الاولى والسنوات الحاسمة التي تلتهـا بمـا رافقها من صراع دولي محتدم وتوسع استعماري جارف • وتأتي مذكراته عن الحرب العالمية الاولى وعن مؤتمر السلم في باريس[٧] ضمن اهم ما كتب عـن هذين الموضوعين الحساسين • يقع الاول منهما في ستة اجزاء[٨] مجمـوع صفحاتها ٣٥٣١ صفحة نشرها تباعا بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٦ ويقع الثاني في جزأين مجموع صفحاتهما ١٤٧١ صفحة نشرهما في عام ١٩٣٨ •

قلنا في مستهل الفقرة السابقة ان « لويد جورج من الذين لكلامهم قيمة سياسية وتاريخية غير اعتيادية » ، ونضيف : ولا سيما اذا خص به ادق مرحلة من نشاطات رجل مثل فيصل سـاهم أذكى أعوانه في صوغ فـكرة وتبيان طريقه وبناء عرشه • ثم انه اولى في سني حكمه اهتماما خاصا بمناطق الشرقين

---

(٧) "War Memories of David Lloyd George", I-VI, London, 1933-1936; "The truth about the Peace Treaties", by David Lloyd George, I—II, London, 1938.

(٨) اعيد طبع الجزء الاول من الكتاب سبع مرات خلال ثلاث سنوات واعيـد طبع الجزء الثاني منه خمس مرات خلال سنة واحدة فقط .

الادنى والاوسط التي كان يرى فيها اهم مجال حيوي لتحرك بلاده السياسي والاقتصادي . ومن هذا المنطلق حاول لويد جورج خنق الحركة القومية التركية في مهدها بكل السبل ووقف مباشرة وراء حملة التدخل اليونانية ضد تركيا (١٩١٩ ــ ١٩٢٠) ، كما حول العراق الى قاعدة لتوجيه حملة دنسترفيل الى مناطق ما وراء القفقاس بقصد ضرب الحركة الوطنية هناك ومن اجل السيطرة على منابع النفط الغنية في آذربيجان ، ولعب دورا اساسيا في توجيه ضربات قوية ضد حركات التحرر ــ الوطني في المنطقة بما فيها « ثورة العشرين » العراقية . وبالطبع فان هذه العوامل ذاتها حددت ابعاد علاقات لويد جورج كرئيس للوزارة البريطانية بفيصل الاول كقائد بارز للقوات العربية في حربها ضد الاتراك وكممثل لوالده في مؤتمر باريس وكأبرز مرشح للعرشين السوري والعراقي .

عمل لويد جورج بجد من اجل توسيع مناطق نفوذ بلاده في الشرق الاوسط على حساب الفرنسيين ، مستندا في ذلك الى التناسب الجديد الذي ظهر في العلاقات الدولية نتيجة احداث الحرب العالمية الاولى والذي اصبح في صالح انكلترا بشكل واضح . فهي التي تحملت لوحدها ، دون سائر الحلفاء ، عبء الحرب في الممتلكات العثمانية اذ بلغ تعداد قواتها في ساحاتها حوالي مليون جندي بلغت ضحاياهم زهاء ١٢٥ الف شخص[٩] . فيما بلغ تعداد القوات الفرنسية نسبة جد ضئيلة . فلم يتعد اشتراك الفرنسيين في المجهود الحربي للشريف حسين ، بعد ان خططوا لمنافسة النفوذ البريطاني في شبه الجزيرة ، فرقة واحدة مع ستة مدافع فقط[١٠] . هكذا فان القوات البريطانية هي التي دخلت في سنوات الحرب سوريا وفلسطين والعراق ، كما انها كانت تحتفظ قبلها بقواعد ثابتة في مصر وعدن والكويت ، واصبح

---

(٩) Lloyd George, The truth... , Vol. II, pp. 1031, 1061

(١٠) Ibid, p. 1030 حول المجهود الحربي الفرنسي في الحجاز راجع ايضا : سليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ٤١٩ .

للانكليز « رتل خامس » متنفذ في بلدان الشرق الاوسط دون استثناء ، فلم يعودوا والحالة هذه يرضون بخطط وتقسيمات ما قبل الحرب ، بل بدأوا يخططون من اجل فرض سيطرتهم المباشرة وغير المباشرة على الشرق الاوسط بأكمله ، بحيث لم تعمد مضامين معاهدة « سايكس ـ بيكو » تشبع اطماعهم لانهم لم يروا فيها تناسبا « عادلا » مع واقع امكاناتهم الجديدة حتى جاء وصفها على لسان لويد جورج بعد الحرب بانها « وثيقة سخيفة »[١١] . وادان اللورد كرزن بنفس العنف وفي مناسبات مختلفة نصوص معاهدة « سايكس ـ بيكو» ، لا سيما ما يتعلق منها بمسألة تخطيط الحدود بين مناطق نفوذ الدول المختلفة التي اعتبرها خيالية غير قابلة للتنفيذ ، واصبح مؤلفها البريطاني مارك سايكس مغضوبا عليه بسبب تقديراته التي جاءت نتائجها غير متوافقة مع موقع بريطانيا الجديد في الشرق الاوسط اثر اختفاء الدولتين الالمانية والعثمانية عن مسرحه وبسبب زوال روسيا القيصرية من الوجود وقوة مركز الجيوش الانكليزية في اجزاء حساسة منه ـ اي من الشرق الاوسط ـ مع الضعف النسبي للتغلغل الفرنسي[١٢] بالمقارنة مع التغلغل البريطاني في المنطقة .

هذه العوامل هي التي مكنت حكومة لويد جورج من تحقيق مكاسب سريعة بعد الحرب مباشرة على حساب الفرنسيين الذين تنازلوا لبريطانيا عن ولاية الموصل وغضوا الطرف عن احتلالها لمناطق من سوريا الكبرى لم تدخل مباشرة بموجب معاهدة « سايكس بيكو » ضمن حصة بريطانيا . يقول لويد جورج بهذا الصدد : « عندما جاء كليمنصو بعد الحرب الى لندن رافقته عبر كل المدينة الى السفارة الفرنسية . استقبلت جماهير لندن كليمنصو بحماس وعندما بلغنا السفارة سألني عما اود الحصول عليه من فرنسا بشكل خاص

---

(١١) Lloyd George, The truth... , Vol. II, p. 1025

(١٢) تستثنى من ذلك مناطق لبنان المسيحية التي كانت اوساطها المتنفذة ، وبشكل خاص فئة الكومبرادور ، تميل الى الفرنسيين اكثر من غيرهم .

فأجبته على الفور انني اريد ضم الموصل الى العراق وان تصبح فلسطين من دان حتى بئر السبع تحت الحماية البريطانية . وافق كليمنصو على ذلك بدون اي نقاش ، ونحن وان لم نسجل اتفاقنا في اي مكان ، فان كليمنصو تمسك به خلال المحادثات المقبلة باخلاص »(١٣) . يعكس هذا الكلام ، بدون شك ، حقيقة تناسب القوى بين الدولتين المنتصرتين في الشرق الاوسط . وهو ما دفع بالمسؤلين البريطانيين الى التفكير ، ولو لفترة ما ، في كل سوريا التي ارادوا ان تكون لهم فيها على الاقل قوة نفوذ كافية تضمن حماية وتطوير مصالحهم في العراق وفلسطين . كما فكر المتفائلون في لندن ، وكانوا يشكلون الاكثرية ، في ضرورة استغلال الفرص الجديدة بشكل يؤدي الى حصر نفوذ الفرنسيين في لبنان فقط مما يبدو جليا من التحذير الذي وجهه وزير المستعمرات اللورد ميلنر الى رئيس الوزراء البريطاني ضمن رسالة خاصة طلب فيها عدم اللجوء الى « محاولات الخداع لطرد الفرنسيين من سوريا » ، واقر ـ وهو ما يجب ملاحظته بشكل خاص ـ ان « جميع الاوساط الحربية والدبلوماسية (البريطانية) تقريبا » لا تتفق معه في رأيه هذا(١٤) . ومن الجدير بالذكر ان المسؤولين الانكليز ـ وبضمنهم شخص ميلنر ـ حاولوا استغلال بنود معينة في معاهدة « سايكس ـ بيكو » بهذا الصدد ، هي تلك التي جعلت من مناطق سوريا الداخلية (دمشق ، حلب ، حمص وغيرها) ضمن« المنطقة العربية » حيث تقوم فرنسا بتجهيزها « بالمستشارين او الموظفين الاجانب » ولكن « بطلب من الحكومة العربية » . وقد جاء نفس الشيء في الاتفاقية الثنائية الخاصة المبرمة بين انكلترا وفرنسا في ٣٠ ايلول ١٩١٨ ، اي قبل نهاية الحرب بشهر واحد ، حول حكم سوريا وفلسطين خلال الفترة التي تسبق عقد معاهدة الصلح بين الاطراف المعنية وقد نصت على حكم الفرنسيين المباشر في المناطق الواقعة الى الغرب من مدن دمشق ـ

(١٣) Lloyd George, The truth... , Vol. II, p. 1038.

(١٤) Ibid, p. 1094

حلب ــ حماه ــ حمص وعلى اقامة نظام حكم مدني عربي في الاقسام الداخلية ــ الشرقية من سوريا على ان يقوم المستشارون السياسيون الفرنسيون بمساعدة حكامها • واخيرا نصت الاتفاقية على ان تصبح فلسطين كلها خلال الفترة نفسها تحت الاشراف البريطاني المباشر(١٥) • في كل الاحوال ، وعلى اقل تقدير ، استهدفت مناورات الانكليز في سوريا بعد الحرب الضغط على الفرنسيين لضمان تنازلهم النهائي عن ولاية الموصل •

كان الامير فيصل الوجه البارز الذي بامكانه ، في نظر الانكليز وكما كان في الواقع ، التأثير على مجرى الاحداث السورية • فحاولت الدبلوماسية البريطانية استغلاله الى اقصى حد بتحويله الى اداة فعالة لزحزحة النفوذ الفرنسي من المنطقة ، وهو امر كان يلتقي في نقاط معينة مع الطموحات المشروعة لسكانها وقواها السياسية • لذا حاول ساسة بريطانيا المعنيون ورجال استخباراتها وعلى رأسهم لورانس تغذية روح معاداة فرنسا في نفس فيصل واعوانه واستغلال النظام الذي اقامه في المناطق الداخلية لسوريا(١٦) للضغط على الفرنسيين حتى تتحول البلاد بالتدريج الى منطقة نفوذ بريطانية لاتمام احكام طوق الحلقة الستراتيجية ــ الاقتصادية المهمة التي اقاموها في الشرق الاوسط بنجاح • وقد اعتقد الامير فيصل ان بامكانه الاعتماد على الانكليز كسند امين حتى نهاية المطاف لضمان عرش سوريا لنفسه واقامة كيان سياسي شبه مستقل كان يشكل انذاك خطوة مهمة الى امام ، لاسيما وان القوى القومية والوطنية التقليدية التفت حوله بهدف تحقيق اهدافها التي تبلورت في اطار معين منذ اواخر القرن التاسع عشر •

---

(١٥) للتفصيل راجع : ف . ب . لوتسكي ، القضية العربية والدول المنتصرة فترة مؤتمر باريس للصلح (١٩١٨ ــ ١٩١٩) ، في كتاب « البلدان العربية . تاريخ واقتصاد » ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩٦٦. ص ١٥ ــ ١٦ •

(١٦) اقام الامير فيصل هذا النظام بموافقة الجنرال اللينبي وكان يحكم في الظاهر باسم والده شريف مكة .

حددت هذه العوامل العلاقات بين الامير فيصل ولويد جورج كاكبر مسؤول بريطاني • وعلى مايبدو فان لورانس لعب دورا مباشرا اكبر من الاخرين في ادخال فيصل ، دون غيره من زعماء المنطقة ، في قلب وفكر رئيس الوزارة البريطانية الذي اولى لورانس ثقة مطلقة بينما بلغ اعجاب الاخير منذ لقائه الاول بفيصل حد ان اعتبره منذ ذلك اللقاء الشخص الذي جاء « الى شبه الجزيرة بحثا عنه » والذي ما ان رآه حتى ايقن ــ كما يقول ــ انه « هو الزعيم الذي سيقود الثورة العربية نحو النصر المؤزر »(١٧) •

بلغ الصراع الانكلو ــ فرنسي حول مناطق النفوذ ذروته ايام مؤتمر السلم في باريس ، وقد تحولت « القضية السورية » الى واحد من ابرز مظاهر ذلك الصراع الذي اتخذ اشكالا متباينة سواء داخل اروقة المؤتمر او في ميادينه الاصلية • وقد حاول البريطانيون في المؤتمر ، بشكل خاص ، كشف الرصيد الحقيقي للفرنسيين في الشرق الاوسط واستغلال الامر لايجاد مسوغ شرعي في سبيل تحقيق مخططاتهم الجديدة فأعطوا « اصحاب المسألة » الاصليين في سوريا ، دون مصر وفلسطين والعراق ، حق الدفاع عن مطالبهم وبذلوا جهودا دبلوماسية خارقة لتثبيت ذلك الحق الذي ابرزوا جوانبه المنطقية بشكل بارع • فدعا لويد جورج عن طريق لورانس الامير فيصل للحضور الى مؤتمر باريس ، وقد جاء تفويض والده الشريف حسين له بهذا الاسلوب :

« حليفتنا الوفية بريطانيا العظمى ترغب حضورك نائبا عن مصالح العرب ، وكل ما يكون اساسا لحياتهم سواء ما يتعلق بالحدود او الادارة مما هو معلوم لديك • فانفاذا لرأي عظمتها تتوجه بكل سرعة ممكنة لباريس • وحيث ان رابطتنا الوحيدة هي العظمة البريطانية ولا علاقة لنا ولا مناسبة مع سواها في اساساتنا السياسية ، فكل ملاحظاتك وما تراه في الموضوع تبديه لعظمائها ونوابها الاماجد ان كانوا زملاءك في المجتمع او معتمديها

---

(١٧) T.E. Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, London, 1950, p. 92

السياسيين ، وما يكلفونك به من قول او عمل ان كان في المجتمع او سواه تعمل به ، وتجنب كل ما سوى ذلك ... »[١٨] .

في الواقع تعدت نشاطات الامير فيصل في باريس وغيرها هذا الاطار التبعي الضيق والجامد كما سنرى .

وصل الامير فيصل فرنسا في أواخر تشرين الثاني من عام ١٩١٨ يرافقه وفد يتألف من اربعة اشخاص هم نوري السعيد ورستم حيدر وفائز الغصين والدكتور احمد قدوري . الا انه جوبه بمعارضة من جانب الفرنسيين الذين رفضوا ان يحضر المؤتمر ممثلا عن سوريا لانهم كانوا يعتبرونه ، حسب تعبير كليمنصو ، « جنديا بريطانيا »[١٩] . لكنهم اولوا مقدمه ، مع ذلك ، اهتماما رسميا خاصا ، فاستقبله شخص رئيس الجمهورية الفرنسية بمكتبه .

قام الامير فيصل خلال رحلته هذه التي لم تقتصر على فرنسا وحدها ، بنشاطات واتصالات واسعة انعكست بشكل خاص في الجزء الثاني من مذكرات لويد جورج عن اعمال ونتائج المؤتمر « الحقيقة حول معاهدة الصلح »[٢٠] . وقد بذل المسؤولون البريطانيون جهودا كبيرة لاقناع

---

(١٨) مقتبس بنصه من : سليمان موسى ، الحركة العربية ... ، ص ٤١٦ـ ٤١٧ .

(١٩) ذكر كليمنصو ذلك للويد جورج واعتبره « حقيقة معروفة لدى الجميع »:
(Lloyd George, The Truth... , Vol. II, p. 1073)

(٢٠) ورد اسم الامير فيصل في المؤلف الضخم الآخر للويد جورج عن الحرب العالمية الاولى مرة واحدة وذلك عندما تطرق المؤلف في الجزء الرابع منه الى موضوع « مساندة العرب لبريطانيا » التي اعتبرها عاملا حاسما في الصراع مع الاتراك فيقول عنها « ... ان عرب شبه الجزيرة لم يكونوا على ود مع الاتراك وكانوا يميلون للصداقة البريطانية اكثر . وعندما بدا الصدام بين تركيا والحلفاء واعلن الخليفة العثماني الجهاد ضدنا فان قادة العرب رفضوا قبول ذلك ونشر دعوة بصدده ، بل على العكس فانهم راقبوا الفرصة ليلقوا عن كاهلهم النير التركي . ان عملاءنا بينهم ، وكان يوجد ضمنهم رجال جربوا طويلا فنون الدبلوماسية الشرقية ، شجعوا مثل هذا الموقف ووعدوهم بمدهم بالسلاح والذخيرة ». وبعد كشف الاتراك للامر ←

الفرنسيين بالموافقة على حضوره جلسات المؤتمر فرضخوا اخيرا للضغط الانكليزي شريطة ان يكون مجرد ممثل لوالده شريف مكة ، اي انهم اصروا حتى النهاية على رفض قبوله باسم سوريا .

حاول لويد جورج والمسؤولون البريطانيون الاخرون ابراز فيصل داخل المؤتمر وخارجه في اطار خاص كان يهمهم آنذاك وكانوا يهدفون من ورائه الى ايجاد ثغرة كبيرة ينفذون من خلالها الى سوريا بعد ان بدأوا بتثبيت اقدامهم في مناطق حساسة منها وبذلوا جهودا كبيرة لدعم اركان حكم فيصل الذي تشير بعض الوثائق البريطانية الخاصة الى انه كان يتلقى منهم المعونات المالية ايضا(٢١) .

بهذا الاتجاه تعاون لويد جورج واعوانه مع فيصل في باريس ولندن مما تجسد بشكل خاص في المؤتمر عندما حضره الامير في اليوم السادس من شباط عام ١٩١٩ حيث القى خطابا بالعربية قام بترجمته لورانس الذي حضر الاجتماع مرتديا مثله الملابس العربية . وكما يبدو فان فيصلا جلب انتباه رئيس الوزارة البريطانية في هذا الاجتماع بشكل خاص فسجل عنه فيما بعد يقول : « كان من شأن عيني فيصل البراقتين ووجهه الملهم التأثير في اي اجتماع كان ، وقد برزت ملامحه النبيلة اكثر من خلال ملابسه الشرقية البهية .

« قرروا قمعه بالاسلوب التركي المعهود ـ بالمجازر والقسوة . لقد حالف النجاح سياستهم في الشمال ، في سوريا لفترة ما ، اما في شبه الجزيرة فقد قرر شريف مكة الذي كان يحكم الحجاز ـ وهو جزء من شبه الجزيرة العربية يضم الاماكن المقدسة في مكة والمدينة ـ وكان من قريش ، اي من قبيلة النبي ، قرر المبادرة بتوجيه الضربة قبل وصول التعزيزات المرسلة للحامية التركية في شبه الجزيرة ، فثار ضد الاتراك في حزيران ١٩١٦ وقام احد ابنائه وهو الامير فيصل بالهجوم على المدينة التي كانت تشكل نهاية سكة حديد الحجاز » .

"War Memories of David Lloyd George", Vol. IV, London, 1936, p. 1810.

(٢١) P.R.O., F.O., 371/4143

انه عرض القضية بوضوح ودقة وبشعور مليء بعزة النفس . تكلم دوما باسلوب هادىء رصين ، وخرج عن طوره مرة واحدة عندما بدرت من احد الاعضاء بدون قصد ملاحظة غير لائقة جاعلا العرب ضمن الشعوب غير المثقفة وغير المتطورة حضاريا ، فرد فيصل في الحال بصوت جهوري حاد : « انني انتمي الى شعب تمتع بالحضارة عندما كان جميع البلدان الاخرى الممثلة في هذه القاعة مسكونة بالبرابرة » . وقد حاول اورلاندو[٢٢] ، كممثل لروما القديمة ، الرد على ذلك الا ان فيصل قاطعه بشدة قائلا : « اجل هكذا كان الأمر حتى قبل تأسيس روما »[٢٣] .

طالب الامير فيصل في خطابه بالاستقلال للشعوب العربية الاسيوية كافة واستند في ذلك الى الخلفية الحضارية ووحدة اللغة والانتماء العرقي وتكامل الاقتصاد ووضوح الحدود الطبيعية والاستعداد « لاداء الدور السابق في تأريخ العالم » والانضمام الى الحلفاء « في احرج الاوقات » والتضحيات التي بلغت « ٢٠ الف قتيل » . وبعد ان طالب بالتعويض عن الدماء المراقة والمذابح المرتكبة ضد السكان الامنين وعوضا عن الخراب الاقتصادي الذي لحق بالبلاد[٢٤] عرج على المسألة السورية التي كرس لها جانبا كبيرا من خطابه معتبرا اياها قضية « تكتنفها اكبر الصعاب » ، فقد ذكر بصددها ما يلي :

« اعلن السكان المدنيون في دمشق وبيروت وطرابلس وحلب واللاذقية والمناطق السورية الاخرى عن استقلالهم ورفعوا العلم العربي قبل وصول الجيوش الحليفة . وقد طالب القائد العام للقوات الحليفة فيما بعد بانزال ذلك العلم وعين حكاما عسكريين وقتيين . وكما بين للعرب ان مثل ذلك الاجراء كان لابد منه الى ان يقرر مؤتمر الصلح مستقبل البلاد . ولو علم العرب ان اجراءاته ناجمة عن معاهدة سرية لما سمحوا بذلك ابدا » . بعد ذلك

---

(٢٢) رئيس الوزارة الايطالية ورئيس وفد بلاده الى المؤتمر .

(٢٣) Lloyd George, The truth... , Vol. II, p. 1039

(٢٤) Ibid, pp. 1039—1041

ذكر فيصل « ان الحلفاء اعترفوا بالسوريين المنضمين الى الجيش الشمالي طرفا محاربا ، وقد اوصى السوريون ممثليهم بطلب الاسقلال لهم »[٢٥] •

بعد ان تطرق الامير الى دور والده ضد السيطرة التركية وتجرده عن الاطماع الذاتية وثقته بالحلفاء وبعد ان شكر بريطانيا وفرنسا على «مساعداتهما من اجل تحرير » البلاد العربية ــ كما ذكر ــ ، عالج مشكلة سوريا مرة اخرى وطالب لها بالاستقلال كي « تتمكن من احتلال موقعها الجديد في الاتحاد الكونفيدرالي المقبل للحكومات العربية الاسيوية المتحررة » واعلن عن استعداده للاعتراف باستقلال لبنان التي « تطالب بعض الجماعات من سكانها بالحماية والضمانة الفرنسية ولا تريد بعضها الاخر قطع الصلات مع سوريا »• لكنه رأى من الضروري الحفاظ في كل الاحوال على « شكل من الوحدة الاقتصادية » بين البلدين وعبر عن الامل بالا يعرقل في المستقبل انضمام لبنان ايضا الى الاتحاد الكونفيدرالي « فيما لو ارادت هي ذلك » ، اما « في الوقت الراهن فان بقية سكان سوريا تأمل في ان شعب لبنان يقرر بمحض ارادته الانضمام الى اتحاد فيدرالي مع سوريا » •

كان فيصل على علم بنوايا الحلفاء حول الانتداب وصيغهم المختلفة لفرض وصاية الدول المنتصرة على شعوب البلدان الاخرى ، لذا تطرق في خطابه الى هذا الموضوع الحساس باسلوب دبلوماسي موفق في اطار قناعاته السياسية فذكر بشأنه :

« يدرك العرب مدى تأخر بلدانهم ، وهم يريدون ان يصبحوا حلقة وصل بين الشرق والغرب وينقلوا حضارة الاخير الى آسيا • انهم لا يريدون غلق الابواب بوجه الشعوب المتحضرة ، بل على العكس من ذلك اذا اخذوا ناصية حكم بلادهم بأيديهم فانهم يحاولون رفع مستواها ويكونون على استعداد للبحث عن العون لدى كل من يريد لهم الخير • الا انهم لا يستطيعون

---

(٢٥) Ibid, p, 1041

التنازل لقاء هذا العون عن شيء من ذلك الاستقلال الذي ناضلوا من اجلـه ويعتبرونه اساسا ضروريا من اجل سعادتهم في المستقبل • وعليهم ان يحافظوا ايضا على مصالحهم الاقتصادية فذلك جزء اساسي لمهامهم في حكم البلاد » • ثم عبر الامير عن « ثقته في انه لا توجد دولة تعطي نفسها حق تحديد استقلال اي شعب كان بحجة وجود مصالح مادية لها في بلاد ذلك الشعب »[٢٦] •

الا ان فيصلا تطرق في الوقت نفسه الى قضية فلسطين باسلوب يثبـت بدوره المساومات التي اجراها حولها مع المسؤولين البريطانيين وزعماء الحركة الصهيونية في باريس • فقد اقر دون تردد ان وضع فلسطين يختلف عن « وضع البلدان العربية التقليدية » ذاكرا عنها في خطابه « بحكم الاهمية العالمية العامة لقضية فلسطين فانه يترك النظر فيها الى جميع الاطراف المعنية » • لكنه طالب لقاء ذلك « الاعتراف باستقلال جميع المناطق العربية الاخرى »[٢٦ أ] • وقـد ادلى بتصريح خطير حول الموضوع نفسه في وقت سابق عندما اعلن بأنه على استعداد تام لاستخدام كل نفوذه في صالح الانتداب البريطاني على فلسطين وفي سبيل ذلك « يوافق حتى على ان يبدي المساعدة لليهود »[٢٧] •

اقترح الامير فيصل في القسم الاخير من خطابه اجراء استفتاء عام من قبل لجنة دولية لتقرير رغائب الناس حول الاستقلال والانتداب والدولـة المنتدبة لان ذلك يعتبر في نظره « طريقا سريعا وسهلا ومضمونا وعـادلا في سبيل توضيح رغبات السكان » • وكان في اقتراحه هذا متأثرا بشكل واضح بآراء الرئيس ولسن وموقفه •

وفي الرد على استفسار للرئيس الامريكي ولسن حول رأيه في منـح الانتداب على البلاد العربية الى دولة واحدة او الى عدد من الدول قال الامير فيصل انه « لا يود ان يأخذ على عاتقه المسؤولية امام شعبه باعطاء رأي حول

---

(٢٦) Ibid, p. 1042

(٢٦أ) Ibid

(٢٧) Ibid, Vol. I., p. 121

هذه المسألة ، اذ يجب ان يعبر الشعب العربي عن رأيه بهذا الخصوص ، فلا هو ولا والده ولا أي شخص يرزق يستطيع تحمل مسؤولية تقرير هذه القضية باسم الشعب العربي » . ثم ذكر انه حضر الى هنا « من اجل الدفاع عن استقلال شعبه وعن حقه في اختيار الدولة التي يعهد اليها بالانتداب »[٢٨]. رد الرئيس ولسن عليه قائلا : « انه يفهم ذلك جيدا ، لكنه يود معرفة رأي الامير نفسه » ، فكان جواب فيصل :

« انه يخشى كل تقسيم وان مبدأه الرئيس هو وحدة العرب ، وهي ما ناضل العرب من اجله . لذا فان كل حل آخر يقيم من قبل العرب كتقسيم للغنائم بعد المعركة . ناضل العرب بثبات من اجل التوحيد وهو يأمل في ان ينظر المؤتمر اليهم كامة مضطهدة انتفضت ضد مستعبديها . يطالب العرب بالحرية فقط وهم لا يرضون عنها بديلا . من المتوقع ان يقر المؤتمر بأن ثورة العرب لم تكن اقل تنظيما من اي ثورة اخرى معروفة للشعوب المضطهدة . يشكل العرب شعبا عريقا عرف التنظيم والحضارة في وقت لم تتبلور فيه بعد جميع البلدان الممثلة في هذه القاعة ، وهم تحملوا ، مع ذلك ، قرونا من العبودية وقد آن لهم ان يتحرروا » . وفي الاخير عبر الامير عن امله في « ان المؤتمر لن يقيد العرب من جديد بأصفاد تحرروا منها توا ، فهم جربوا ماذا تعني العبودية وهي امر لا تعرفه الشعوب الممثلة في هذه القاعة . عانى العرب على مدى قرون اربعة نير اضطهاد عسكري ثقيل وما دامت الحياة تجري في عروقهم فانهم يرفضون العودة الى ما كان »[٢٩] .

---

(٢٨) التاكيد من قبلنا .

(٢٩) Lloyd George, The truth... , Vol. II, p. 1044

كان الامير فيصل يبعث باستمرار برسائل خاصة الى والده ينبؤه فيها بنشاطاته وما كان يجري في المؤتمر ، وقد اخبره ايضا عن استفسارات الرئيس ولسن وعن رده عليها (راجع : سليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ٤٧٠ — ٤٧١) .

وجه لويد جورج في الاجتماع نفسه سؤالا الى فيصل كان يعرف دقائق جوابه قبل ان يجري التفكيربعقد مؤتمر باريس بفترة غير قصيرة ، وكان يدور حول دور قواته في دحر الاتراك . فرد الامير امام المؤتمرين قائلا : « عندما قام والدي ضد الاتراك كان حاكما ووراثيا على مكة[٣٠] ، وهو لقب تمتعت به اسرتنا على مدى ثمانمائة عام . لم تكن لدى والدي البنادق والرشاشات والمدافع والذخيرة او مصادر للحصول عليها فاحتل مكة بصعوبة ، ولم يستطع احتلال المدينة . وقد بعث الاتراك بخمسة وثلاثين الف شخص لاستعادة مكة . لكن ساعد الله العرب وعاونهم الانكليز ماديا . انضم الينا الضباط والمتطوعون في الجيش التركي القديم وشكلوا نواة قواتنا النظامية .وقد استطاعت الجيوش العربية التقدم خلال اربعة عشر شهرا مسافة ٨٠٠ ميل الى الشمال وان تقطع سكة حديد الحجاز في جنوبي معان مما كان يشكل نجاحا عسكريا مهما لان القوات التركية في المدينة كانت تهدد العرب من المؤخرة . قمت بعد ذلك بهجوم جبهوي[٣١] ضد معان دون ان يخالجني الامل بالنجاح ، مستهدفا تغطية الاستعدادات العسكرية للجنرال اللينبي وكذلك للحيلولة دون تركز الاتراك . وقد وضعت نفسي مع قواتي تحت قيادة الجنرال اللينبي طوعا[٣٢] بغية اقامة تعاون اوثق معه . طلب الجنرال اللينبي فيما بعد ان تهاجم القوات العربية ثلاثة خطوط حديدية قرب درعا ، وقد نفذ

---

(٣٠) يقصد انه كان شريف مكة .

(٣١) في النص : جبهي .

(٣٢) التأكيد من قبلنا . الجنرال ادموند هنري اللينبي (E.H. Allenby) (١٨٦١ ــ ١٩٣٦) واحد من ابرز العسكريين البريطانيين بلغ مرتبة فيلد مارشال . اشترك بحماس في الحروب الاستعمارية البريطانية في افريقيا قبل الحرب العالمية الاولى .في بداية الحرب الاولى قاد قوات بلاده في الجبهة الفرنسية ومنذ أواسط عام ١٩١٧ اصبح قائدا عاما للقوات الحليفة في مصر وفلسطين ، ومنذ عام ١٩١٩ اصبح حاكما عاما في مصر ولعب الدور الاساس في قمع الانتفاضة المصرية التي وقعت في السنة نفسها . منح لقب اللورد . كان الامير فيصل على اتصال وثيق به وخضع كليا لتوجيهاته .

الجيش العربي واجبه فقطع هذه الخطوط قبل بدء هجـــوم الجنرال اللينبي يومين والذي انتهى بدخوله مدينة دمشق التي دخلتها القوات العربية مـــع جيش اللينبي • بدأت الثورة العربية بالانتشار منذ هذه اللحظة كالنار ووصلت اللاذقية بقفزة واحدة حيث دخل العرب بيروت قبل وصول الفرنسيين بيـــوم واحــد • وكانت القوات العربية هي الاولى التي دخلت حلب ايضا • وضعت خطط جميع هذه العمليات التي نفذتها القوات العربية ، بموافقــة الجنــرال اللينبي • ولم يلجأ العرب الى اي محاولة لاحاطة انفسهم بهالة مجد او التبجح بأي مأثرة فعالة • انهم قاموا بأسر ٤٠ الف شخص سلموهم الى الحلفاء • ولا داعي لاضافة شيء ما الى الثناء الذي افاض به الجنرال اللينبي على القـــوات العربية في تقاريره »[٣٣] •

لم يدع بيشون وزير خارجية فرنسا ان يمر هذا الكلام الذي كان قصد لويد جورج من اثارته واضحا بالنسبة للجميع • فسأل الامير فيصل عن مدى اشتراك القوات الفرنسية في هذه الجبهة ، فحددها فيصل بفرقة[٣٤] واحـــدة مع اربعة مدافع ٦٥ ملم ومدفعين ٨٥ ملم وجعل لها « دوراً باهراً » يقضي « بالعرفان الى الابد »[٣٥] (! !) •

ومن جانب آخر لم يتردد الفرنسيون في وضع احد اعوانهم المخلصين[٣٦] فوق نفس المنصة التي وقف عليها فيصل قبل قليل ليكيل له « الصاع صاعين » وليلقي كلمة جعلت صياغتها الادبية الرفيعة من لويد جورج ، كما يقول ، ان ينقل عنها مقاطع كبيرة[٣٧] ، وقد جاء فيها كل ما يشتهيه الفرنسيون من تنكر

---

(٣٣) Lloyd George, The truth... , Vol. II, p. 1030

(٣٤) كانت في الواقع اقل من فرقة .

(٣٥) Lloyd George, The truth... , Vol. II, p. 1030

(٣٦) هو الكاتب المسرحي اللبناني شكري غانم الذي استقر في باريس منذ مـــدة طويلة وقد ادعى انه يمثل منظمة سورية يبلغ عدد اعضائها في الداخــــل والخارج اكثر من مليون شخص .

(٣٧) راجع نص المقاطــع في :
Lloyd George, The truth... , Vol. II, pp. 1050—1057

لوجود روابط قومية وثقافية بل وحتى لغوية بين الحجاز وسوريا ومن تهجم شديد على الامير فيصل ومن تأكيد على وجود مصالح فرنسية قديمة في سوريا اقرتها الحكومة البريطانية قبل الحرب ومن طلب صريح بمنح « حق » الاشراف على كل سوريا الى فرنسا • وادعى صاحب الكلمة ان « جميع المثقفين السوريين المخلصين » يطالبون مساعدة دولة متقدمة في حالة تكوين دولة سورية موحدة ارضا وشعبا ولا يقف ضد ذلك ، حسب ادعائه ؛ سوى « عدد قليل من الرجعيين او الشباب الضالين المؤيدين الى حد ما للآراء البلشفية »[٣٨] (! !) •

لم يكتف الفرنسيون بالدور المفضوح لهذا الدعي ، بل وقف وزير الخارجية الفرنسية بنفسه امام المؤتمرين في ٢٠ مارت ١٩١٩ ملخصا رغبة فرنسا بـ : اولا اعتبار كل سوريا كيانا موحدا وثانيا منح فرنسا الانتداب عليها ، مبررا ذلك بتشعب مصالحها في هذه البلاد وقد اشار بصددها الى « العدد الكبير جدا من المستشفيات الفرنسية في سوريا وكذلك الكثير من المدارس الفرنسية في الارياف بحيث ان حوالي ٥٠ الف طفل يدرسون في المدارس الابتدائية الفرنسية ، كما توجد بالاضافة الى ذلك مدارس متوسطة كثيرة مع جامعة في بيروت ، وان كل شبكة الخطوط الحديدية السورية تعود الى فرنسا بما فيها خط بيروت ـ دمشق وطرابلس ـ حمص ••• وان مدينة بيروت ميناء فرنسي بمعنى الكلمة ••• » • ومن هذا المنطلق اعتبر بيشون مطالبة فرنسا بسوريا مجرد « دفاع عن حقوقها »[٣٩] ، فجاءت كلمته بذلك بمثابة رد رسمي صريح على نوايا الانكليز العلنية والخفية وعلى مخططات ونشاطات الامير فيصل ونظامه القائم في سوريا •

كان للمسألة السورية وجه آخر لم تكن تفاصيله معروفة ـ على الاقل في البداية ـ لدى الامير فيصل • فقد ظلت الدولتان الكبريان المنتصرتان

---

(٣٨) Ibid, p. 1052

(٣٩) Ibid, p. 1059

تجريان الاتصالات والمساومات الخاصة على مختلف الاصعدة فأضحت حلقات المصالح المتباينة حسب المناطق تؤثر بعضها في بعض وتفرض احيانا حلـولا متشابكة في اطر متباعدة • فلم يعد بالامكان مثلا فصل المشاكل الاوروبية عن تلك التي كانت تخص مناطق الشرق الاوسط • لذا كانت ابواب المتـاجرة القائمة على مبدأ التضحية بشيء في سبيل شيء مفتوحة على مصراعيهـا واصبحت مصالح الشعوب المغلوبة على امرها سلعة رائجة في سوق المصالح الدولية • وانطلاقا من هذا المبدأ المبرر في عرف الدول الكبرى جرت اتصالات فرنسية انكليزية خاصة خارج المؤتمر وعلى ارفع المسـتويات لتقرير مصير سوريا الذي اصبح موضوع نقاش مباشر بين لويد جورج وكليمنصو لمرات عديدة • وقد عهد الاول الى اللورد ميلنر بمهمة متابعة الموضوع خلال وجوده في باريس حيث اجرى اتصالات كثيرة بشأنه ووضع تقريرا مفصلا(٤٠) ضمنه مقترحاته التي اعتبرها عملية لضمان مصالح بلاده ولايجاد مخرج للازمة التي بدأت تستفحل بشكل يمكن ان يؤثر على العلاقات القائمة بين الدولتين •

ويجب ان نشير هنا الى انه حتى في هذه الحلبة ظل فيصل وطموحـات السوريين المشروعة ورقة رابحة بأيدي الانكليز الذين بدأوا يؤكـدون « بحماس » على ضرورة تلبيـة مطالب اهل سوريا والايفاء ــ ولكن في هذا المجال فقط ــ بالوعود التي قطعها الحلفاء لزعماء العرب في سنوات الحرب • فقد جاء على لسان اللورد ميلنر الذي كان اكثر الساسة الانكليز ميلا للتفاهم مع الفرنسيين حول المسألة السورية والاقتصار علـى ضمان بقـاء الامير فيصل للحفاظ عن طريقه على موقع قدم ثابت في البلاد ، جاء على لسانه أثناء تفاوضه مع رئيس الوزارة الفرنسية ، ما نصه :

« لا تنوي انكلترا ازاحة الفرنسيين عن سوريا واخذها لنفسها ، اذ لا تتعدى مصالح انكلترا العراق وفلسطين • الا اننا نريد مصالحة الفرنسيين مع

---

(٤٠) قدمه على شكل رسالة خاصة بعث بها الى لويد جورج في ٨ آذار ١٩١٩ .(Ibid, pp. 1045—1050)

فيصل ، فهذا امر ضروري بالنسبة للفرنسيين انفسهم لانه اذا عاند فيصل ورفض التعامل معهم ، فلا اعلم آنئذ كيف يستطيع مؤتمر السلم بعد تصريحاتنا العريضة عن حق تقرير المصير الكامل لشعب سوريا وعن حقه في اختيار حكامه ، ان يفرض الانتداب الفرنسي على سوريا » . فجاء جواب كليمنصو ليضع النقاط على الحروف عندما ذكر صراحة انه لا يرى فائدة في اللقاء مع الامير فيصل دون اشتراك مباشر من الانكليز الذين يتوقع منهم تحريضه ضد فرنسا[٤١] . وقد وعد ميلنر بتنظيم لقاء بين الجانبين باشتراك مباشر منه او من احد المسؤولين البريطانيين الاخرين ، الا ان الاعتداء على حياة كليمنصو واصابته بالجروح في اواخر شباط ١٩١٩ قد حال دون تحقيق خطة ميلنر في الموعد المتوقع ولكن لم يحل دون انتقاد كليمنصو له امام مؤتمر السلم فيما بعد واتهامه بالتلكؤ في تنفيذ ما تعهد به من ايجاد تفاهم بينه وبين الامير فيصل[٤٢] . وفي الواقع فقد اتهم الفرنسيون الانكليز مرات عديدة داخل المؤتمر بالعمل على خلق مشاكل لهم في سوريا بقصد الحلول محلهم هناك واضطر لويد جورج الى نفي هذه التهم عن بلاده اكثر من مرة حتى بلغ به الامر انه اعلن مرة ان الحكومة البريطانية قررت ان لا تتدخل بأي شكل كان في سوريا (! !) كي لا تتهم في فرنسا بأنها هي التي « تخلق المشاكل في سوريا عن قصد بهدف ازاحة الفرنسيين عنها »[٤٣] . وقد اتخذت الصحافة الفرنسية نفس الموقف بالتركيز على توجيه التهم الى بريطانيا وفضح نواياها والتهجم على الامير فيصل الى حد التعريض به[٤٤] .

لكن بالرغم من كل ذلك فقد استمرت الاتصالات والمساومات بين كبار المسؤولين الانكليز والفرنسيين . فبعد وصوله الى باريس من جديد في ايلول

---

(٤١) للتفصيل راجع : ف . ب . لوتسكي ، القضية العربية والدول المنتصرة ... ، ص ٢٤ ــ ٢٥ .

(٤٢) Lloyd George, The truth... , Vol. II, p. 1076

(٤٣) Ibid, p. 1060

(٤٤) راجع : سليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ٤٧١ .

١٩١٩ اقترح لويد جورج على كليمنصو الصفقة التالية : بقاء القوات البريطانية في فلسطين وسحبها من مناطق سوريا الساحلية لتحل محلها القوات الفرنسية ومن مناطق سوريا الداخلية لتحل محلها القوات العربية على ان تقوم بريطانيا بتشييد سكة حديد حيفا ــ بغداد ومد أنابيب النفط بين العراق والبحر الأبيض المتوسط . فجاء رد الفرنسيين الواقعي ، بالرغم من قبول الصفقة شكليا ، متوافقا مع حقيقة نياتهم تجاه سوريا اذ باشروا في الشهر نفسه برفع عدد قواتهم الموجودة هناك بحيث انها بلغت ١٤ الفا في الشهر التالي و ١٧ الفا في تشرين الثاني ثم ٢٧ الفا في كانون الاول(٤٥) . وعينوا الجنرال غورو في اواسط تشرين الثاني ١٩١٩ قائدا عاما للجيش الفرنسي في سوريا وكيليكيا ومندوبا ساميا لبلاده فيهما وهو لم يكن اقل حماسا من الضابط النابليوني (شوڤيين) لافكار التوسع الفرنسي .

اما الامير فيصل الذي دعاه لويد جورج لزيارة ثانية لزيارة لندن فقد رفض بدوره الاعتراف بالاتفاقية الجديدة التي اعتبرها استمرارا لمعاهدة « سايكس ــ پيكو » واصر على موقفه المتشدد من الوجود الفرنسي لا في سوريا فحسب بل وحتى في لبنان . فحاول المسؤولون البريطانيون من جديد تقريب وجهات النظر بين المسؤولين الفرنسيين والامير فيصل ولا سيما بعد ان بدأوا يخشون ان تتخذ احداث المنطقة مسارا لها يؤدي الى انفجار انتفاضات جماهيرية ضد مؤامراتهم مما كان يشكل حتما خطرا جديا يهدد وجودهم خاصة بعد ان بدأ الشعب التركي بالتحرك باسلوب ثوري جاد وبعد ان اضحت بوادر التحرك في العراق بادية للجميع . لذا صارح لويد جورج كليمنصو بأنه يخشى من ان يتحول الامير فيصل الى « ثان من طراز عبدالقادر الجزائري »(٤٦) . واستشهد

(٤٥) راجع ف . ب . لوتسكي ، القضية العربية والدول المنتصرة ... ، ص ٣٠ .

(٤٦) Lloyd George, The truth... , Vol. I, p. 289.

كان لويد جورج يحاول ادخال الروع في نفس كليمنصو حتى يدفعه للتفاهم مع الامير فذكره بالامير عبدالقادر الجزائري الذي قاد بجدارة نضال الشعب الجزائري ضد المحتلين الفرنسيين على مدى ١٥ عاما (١٨٣٢ ــ ١٨٤٧) مسببا لهم مشاكل وخسائر جسيمة للغاية .

ايضا بتجارب بلاده المريرة مع « العرب في السودان » • وبدا الشيء نفسه واضحا في المذكرة المفصلة[٤٧] التي قدمها الاول للثاني في ١٨ تشرين الاول ١٩١٩ وجاء فيها بهذا الصدد :

« •••• لا تستطيع حكومة صاحب الجلالة لهذا السبب اخفاء قلقها من نوايا الصحافة الفرنسية[٤٨] الواضحة في التعامل مع الامير فيصل والمشكلة العربية بتعال • واذا كانت سياسة الحكومة الفرنسية على هذا النهج فان الحكومة البريطانية تخشى من انها قد تؤدي الى فوضى مستفحلة لمدة طويلة جدا في جميع المناطق العربية والتي في الامكان ان تنتقل بسهولة الى كل العالم الاسلامي » • وقد يدفع ذلك بالامير ــ كما يقول التقرير ــ الى « اقامة العلاقات مع العناصر المعادية التي لا تزال موجودة في الشرق الاوسط[٤٩] وتشكل قوة معادية لفرنسا وكذلك لانكلترا » •

وفي التقرير اطناب كبير للامير « كسليل عائلة عريقة » و « حليف امين » و « ممثل شعب فخور » ، فهو شخص « من مصلحة الفرنسيين كما من مصلحة الانكليز الحفاظ على علاقات ودية معه » ، لذا من الضروري الحفاظ على نظامه ، وان « حكومة صاحب الجلالة تود كذلك ملاحظة ان الامير فيصل يرى من حقه ــ استنادا الى اتفاقية معتبرة[٥٠] ــ اقامة حكومة مستقلة في منطقة محددة بموجب اتفاقية عام ١٩١٦[٥١] والتي تدخل ضمنها أربع مدن هي دمشق وحمص وحماه وحلب • وكما هو واضح من الوثيقة[٥٢] التي استندت

---

(٤٧) Lloyd George, The truth... , Vol. II, pp. 1082—1100

(٤٨) بدات حملة جديدة في الصحافة الفرنسية ضد الامير فيصل وطموحات نظامه المشروعة .

(٤٩) اغلب الظن يقصد بتلك العناصر الكماليين والبلاشفة ، وبالفعل اجرى الامير فيمابعد اتصالاتمعينة بالكماليين فيتركيا واوروبا (للتفصيلراجع: ساطع الحصري ، يوم ميسلون . صفحة من تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، ١٩٤٨ ، ص ١٥٨ ــ ١٧٩) .

(٥٠) و (٥١) و (٥٢) يقصد « سايكس ــ بيكو » .

اليها في رسالتي هذه ، فان الحكومة الفرنسية ليست اقل التزاما من الحكومة البريطانية بمساندة وجود (Soutenir) الحكومة العربية في هذه المناطق مع ان من حقها (أي فرنسا) وحدها تعيين المستشارين هناك بطلب تلك الحكومة » • وقد اعرب لويد جورج عن مساندة بلاده المطلقة للامير فيصل « كواحد من حلفاء بريطانيا العظمى » التي يهمها لهذا السبب ، كما ذكر ، مدى التزامه والتزام الفرنسيين بتطبيق نصوص معاهدة « سايكس ــ بيكو » فيما يخص المناطق الداخلية من سوريا • اذن « فمن حقنا وواجبنا الايفاء بالمعاهدات التي اخذنا الالتزامات بموجبها على عاتقنا » • ولكن من الطريف ان نذكر ان بريطانيا نفسها لم تلتزم الا من جانب مصالحها البحتة بنصوص المواثيق والتعهدات الدولية المبرمة والممنوحة خلال سنوات الحرب وبعدها مباشرة ، والا فانه كان من المفروض ان تقام في مناطق اخرى من حصة بريطانيا انظمة مشابهة للنظام الذي اقامه الامير فيصل في سوريا •

دافع لويد جورج في ختام تقريره المفصل عن موقف بلاده ودحض الادعاءات الفرنسية حول دور الجنرال اللينبي والضباط الانكليز في تحريض الامير وتزويده بالسلاح للعمل ضد الفرنسيين وطالب بوضع حد لتهجمات الصحافة الفرنسية المستمرة بهذا الصدد حفاظا على العلائق القائمة بين البلدين • كما هدد من طرف خفي بأن في امكان بلاده ايضا كشف ما لديها من اوراق لولا علمها بأن ذلك انما يخدم مصالح اعداء التحالف الانكلو ــ فرنسي •

لم يقتصر ضغط الفرنسيين على الحملة الدعائية الواسعة التي شنتها صحافتهم ضد الانكليز والامير فيصل وعلى التهم الصريحة التي ضمنها كبار المسؤولين مذكراتهم العديدة التي قدموها الى كبار المسؤولين البريطانيين • بل انهم حاولوا ايضا تحويل قضية مصير ولاية الموصل الى وسيلة ضغط فعالة على اساس ما كانوا يتمتعون به من « حق » فيها بموجب معاهدة « سايكس ــ بيكو » • ففي المذكرة التي بعثها كليمنصو الى لويد جورج في كانون الاول ١٩١٩ اثار الفرنسيون شروطا جديدة لموافقتهم على وضع ولاية الموصل تحت الانتداب البريطاني • تقول المذكرة :

« ان منح الموصل (لبريطانيا) كأمر يتعلق بفرنسا ، يجب أن يكون على شكل تعويض ملموس تصر (على ضرورته) الصناعة والبرلمان الفرنسيان الا وهو المساواة التامة في استغلال مصادر نفط ميسوبوتاميا وكردستان . ان هذه المسألة موضع اهتمام كبير بسبب انعدام النفط كليا في فرنسا وحاجة البلاد اليه . وقد تحول النفط مثل الحديد والفحم الى واحد من اهم مستلزمات الاستقلال و « الدفاع عن النفس » بالنسبة لجميع الامم دون استثناء » . واعتبر رئيس الوزارة الفرنسية ذلك « التعويض الملموس » شرطا للتفاهم بين الطرفين حول مسألة مد الانابيب الى البحر واسلوب استخدامها وهي جزء من المشكلة السورية التي فصلها كليمنصو في مذكرته قصدا عن « قضية استقلال العرب »(٥٣) .

لم تؤد جميع هذه الضغوط والمساومات واللقاءات وتبادل الآراء والمذكرات الا الى زيادة سريعة في تعقيد المسألة السورية ومعها احراج الوضع الذي كان يعيشه نظام الامير فيصل الذي ، رأى ، بعد ان ابدى نشاطا كبيرا في باريس ولندن ، ان من الاصح له ان يعود الى سوريا وقد تيقن من موقف الفرنسيين المتشدد . ولكن لم يقدر بشكل صحيح احتمالات تحول مفاجيء في موقف الانكليز تجاه حكمه مما انعكس بشكل واضح في خطواته التالية التي كان التناقض فيها واضحا الى حد كبير . فمن جهة بدأ يرخي الحبل مع الفرنسيين ويدخل في مساومات جدية معهم ، ومن جهة اخرى ظل متشدد الموقف بالنسبة لبعض القضايا الحساسة التي كانت تمس مستقبل سوريا . وظهر هذان الجانبان المتناقضان لسياسته في الاتفاقية المؤقتة التي عقدها مع الفرنسيين اثر لقائه معهم بتوسط من الانكليز اثناء زيارته الثانية لاوروبا . وعلى ما يبدو فقد ظل المسؤولون البريطانيون يجهلون لفترة غير قصيرة مضمون الاتفاقية التي نص بندها الاول على الاعتراف بحق « الشعب الناطق بالعربية » في سوريا في « الاتحاد بهدف حكمه لنفسه كأمة مستقلة » .

---

(٥٣) Lloyd George, The truth... , Vol. II, pp. 1100—1101

وقد جاء في البند نفسه ان الشعب السوري « سوف يحتاج الى استشــــارة وقيادة احدى الدول الكبرى » التي حددتها الاتفاقية بفرنسا • و « الزم » البند الثاني الحكومة الفرنسية بـ « ابداء العون للحكومة السورية والدفاع عنها بهدف ضمان استقلالها الدائم » على ان تقوم الاخيرة بطلب تعيين عــدد من المستشارين والاداريين الفرنسيين « من اجل الاشراف على تسيير بعض المرافق كوزارة المالية والشؤون الاجتماعية والدرك والجيش وغير ذلك » على شرط ان يكون اختيارهم ومدة عملهم موضوع اتفاق مستقل بين الحكومتين •

ومنح البند الثالث الفرنسيين حق الاشراف الكلي على جميع الشؤون المالية للحكومة السورية • اما البند الرابع فقد حدد العلاقات الخارجيــة لحكومة الامير فيصل التي اصبح « يحق » لها اقامة العلائق مع الخارج ولكن « عن طريق الممثلين الفرنسيين فقط » الا ما يتعلق بباريس حيث يكون فيهـا ممثل سوري (!!) • واعترف البند التالي بالعربية لغة رسمية في البلاد وجعل البند الاخير مدينة دمشق عاصمــة لسوريا ومدينــة حلب مقرا للممثـل الفرنسي[٥٤] • ولكن لم يتوصل الجانبان ، مع ذلك ، الى الاتفاق حول مسألتين مهمتين الاولى تتعلق باقامة عدد من الحكومات المحلية داخل سوريا (فــي مناطق الدروز وفي لبنان) والثانية تتعلق بوجود برلمان سوري خـــاص • ولتوضيح الامر اكثر فمن المهم ان نورد هنا ما ذكره السكرتير العام لوزارة الخارجية الفرنسية بيريان بيرتيلو بصدد الاتفاقية وموقف الامير فيصل ردا على استفسار انكليزي في مؤتمر لندن ، اذ قال ما نصه :

---

(٥٤) Ibid, pp. 1107—1108 يشك البعض في حقيقة هذه الاتفاقيــة ، الا ان جميع المصادر الموثوقة ، بما فيها كتاب جورج انطونيوس الذي كان على اتصال وثيق بعدد من اقرب اعوان الامير وحصل على يوميات الاخير في باريس ، تؤكد صحتها وطابعها الاستعماري الصارخ (راجع :
George Antonius, The Arab Awaking. The Story of the Arab National Movement, London, 1945, pp. 300—301

راجع ايضا : ف . ب . لوتسكي ، القضية العربية والدول المنتصرة .. ، ص ٣٢) .

« ... ترك الامير باريس مقتنعا كل الاقتناع بالاتفاقية المبرمة وان ولاءه للحكومة الفرنسية يبدو ، كشخص شرقي ، أمرا غير ملام . وانه (بيرتيلو) شخصيا يثق كليا بنواياه الطيبة ، لكنه يدرك جيدا ان الأمير يتميز بطبع ضعيف وان موقفه يكون صعبا بسبب احاطته في دمشق بالعناصر التي تضمر العداء لفرنسا . اما اذا فقد الامير سلطته بسبب ضعف طبعه فان جميع الاتفاقات المبرمة معه تفقد بطبيعة الحال و فيالواقع (ipso facto) قوتها »[٥٥] .

ظهر في الوقت نفسه عنصر مهم ثالث ليؤثر باسلوب خاص في الاحداث السورية ومواقف الامير فيصل والذي ارتبط مباشرة بالخطط الامريكية للتغلغل في الشرق الاوسط[٥٦] . فمع اشتداد الصراع الانكلو ـ فرنسي برز اكثر فأكثر دور الامريكان داخل مؤتمر السلم في باريس ، وقد حاول الرئيس ولسن دفع مجرى احداث سوريا باتجاه يتفق تماما مع اهداف بنوده الاربعة عشر المعروفة واستطاع اقناع الاطراف المعنية بارسال بعثة دولية خاصة الى سوريا لوضع تقرير مفصل عن العوامل المؤثرة في مشكلتها . وقبل ذلك تحول رئيس الجامعة الامريكية في بيروت الى « مدافع امين » عن حقوق الشعب السوري امام المؤتمر . كما بدأ المبشرون الامريكان بالتحرك للترويج لفكرة الانتداب الامريكي . وزاولت البعثة التي تحولت الى امريكية محضة بسبب رفض الانكليز والفرنسيين الاشتراك في اعمالها ، زاولت نشاطا واسعا ترك اثارا واضحة على فكر اوساط سورية مهمة ، بما فيها الاوساط الوطنية وشخص الامير فيصل الذي علق آمالا كبيرة على نتائج اعمال البعثة وعلى موقف الرئيس الامريكي بشكل خاص واعتقد ان بامكانه الاعتماد على الوعود الامريكية السخية حول حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها بحيث اعترف

---

(٥٥) Lloyd George, The truth... , Vol. II, pp. 1108—1109

(٥٦) للتفصيل راجع الموضوع الثاني في هذا الكتاب « حول تغلغل النفوذ الامريكي في الشرق الاوسط وبنود الرئيس ولسن » .

بنفسه فيما بعد في رسالة خاصة بعث بها الى والده بأن الموقف الامريكي «كان السبب» في ما وقع له من «مأزق حرج»[٥٧] .

الا ان تأثير الموقف الامريكي امتد الى مدى ابعد من ذلك ، ولا سيما انه لم يكن بامكان الانكليز عدم الاهتمام به بشكل جدي ، ذلك لانهم كانوا يخشون المنافسة الامريكية اكثر من المنافسة الفرنسية اينما كانت وبأي ثوب ظهرت . ولم يكن ذلك سوى انعكاس طبيعي لواقع تناسب القوى على الصعيد الدولي . فكانت الولايات المتحدة وانكلترا تشكلان اكبر قوتين بعد الحرب العالمية الاولى وكان النزاع بينهما حول مناطق النفوذ قد وصل اوجه آنذاك . وبدأت الاولى تنافس بنجاح مصالح انكلترا في مناطق نفوذها السابقة مثل كندا واقطار مختلفة من امريكا اللاتينية واستراليا والصين كما ظهرت بوادر منافستها بالنسبة للشرق الاوسط ايضا مما دفع بالمسؤولين البريطانيين الى اجراء بعض التغييرات في سياستهم السورية ويبدو ذلك واضحا من اسلوب المذكرات والتقارير التي بعثوها الى المسؤولين الفرنسيين بعد ارسال البعثة الامريكية الى سوريا ومن موقفهم من البعثة نفسها ومن تقريرها المفصل ، حيث لم يؤكدوا الا على النقاط التي كان ورودها فيه من مصلحتهم بشكل او بآخر .

ترك سقوط وزارة كليمنصو في كانون الثاني ١٩٢٠ بدوره آثارا واضحة على مجمل القضية السورية ومعها على الموقف البريطاني منها . فان فشل كليمنصو في تحقيق الصدارة لفرنسا في الشؤون الاوروبية وتراجعاته الاضطرارية امام الامريكان والانكليز في قضايا دولية مختلفة ، بما فيها تنازله عن ولاية الموصل ، اثرت بشكل خطير على سمعته في نظر الرأسمالية الفرنسية والاوساط المتنفذة المرتبطة بها مما ادى الى فشله الذريع في انتخابات الرئاسة لعام ١٩٢٠ فابتعد على اثرها نهائيا عن المسرح السياسي . وكانت سياسته تجاه مصير سوريا من بين المواضيع التي تعرضت للنقد الشديد لانه بالفعل

(٥٧) راجع : سليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ٥٢١ .

كان يرى من مصلحة بلاده التوصل الى نوع من الاتفاق بين الاطراف المعنية دون اراقة الدماء وهذا ما دفع بلويد جورج الى الاعتقاد بانه فيما لو بقي في دست الحكم لمدة سنة اخرى لاصبح بالامكان ايجاد حلول لجميع المسائل المتنازع عليها[٥٨] . وقد حث كليمنصو شخصيا الامير فيصل على التفاهم مع الفرنسيين قائلا له « ... أؤكد لك انه لا يمكن ان تأتي بعدي حكومة ترضى حتى بجزء مما رضيت به انا الآن »[٥٩] .

كان من الطبيعي ان تتخذ الوزارة الفرنسية الجديدة برئاسة ميليران سياسة اكثر تشددا ازاء القضية السورية ، فهي قررت صراحة فرض السيطرة الفرنسية المباشرة على كل سوريا بدون منازع وبحيث تكون سوريا خالية من جيوب موالية للانكليز . ومن خطوات الوزارة الجديدة الاولى التي عبرت بوضوح عن نواياها ، انها باشرت برفع عدد القوات الفرنسية العاملة في سوريا بسرعة كبيرة من ٢٧ الفا الى ٣٢ الفا في كانون الثاني ١٩٢٠ والى ٤٠ الفا في مارت ثم الى ٥٠ الفا في مايس من العام نفسه[٦٠] . وعلى صعيد آخر ، ففي مؤتمر لندن للمجلس الاعلى للحلفاء الذي انعقد في شباط ١٩٢٠ للنظر في مشاكل الشرق الادنى ، بدأت الحكومة الفرنسية الجديدة تتساهل مع البريطانيين في تقرير مصير استانبول بهدف نيل موقف مشابه منهم بالنسبة لسوريا . فقد حصل البريطانيون على امكانية تعزيز قواتهم الموجودة في العاصمة التركية وحل البرلمان القائم فيها واقامة نظام احتلال هناك . واخيرا تقرر في نيسان منح فرنسا حق الانتداب على سوريا ولبنان ومنح بريطانيا حق الانتداب على العراق(مع ولاية الموصل) وفلسطين .

---

(٥٨) Lloyd George, The truth... , Voi. II, p. 1101

(٥٩) مقتبس من : ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، ص ٨٠ .

(٦٠) راجع : ف . ب . لوتسكي ، القضية العربية والدول المنتصرة ... ، ص ٣٥ .

بتأثير من هذه العوامل التي ارتبطت قوة فاعليتها بالمصالح الانكلو ـ فرنسية الانانية اولا واخيرا حدث تغيير كبير في موقف الانكليز من الامير فيصل ونظام حكمه . فقد وصل الامر بلويد جورج واللورد كرزن الى حد انهما لم يكلفا نفسيهما بعد ذلك حتى بالرد على رسائل ومذكرات الامير الاخيرة التي بعثها اليهما مستغيثا في احرج وادق ايام حكمه التي شهدت احداثا حاسمة وخطيرة للغاية . هكذا بقي فيصل وحيدا في الميدان وآنذاك فقط ادرك ان « لا فائدة محسوسة » من بريطانيا التي ، كما قال عنها في رسالة بعثها الى أبيه من باريس ، « استخدمتنا لمصالحها وتركتنا »[٦١] . وتعليقاً على الوضع الفكري للامير بعد عودته من سفرته الثانية الى اوروبا يقول وزير خارجيته الدكتور عبدالرحمن شهبندر ان « النقمة في نفسه وفي نفس كل واحد منا على انكلترا لانكارها عهودها الصريحة في ساعة الشدة » بلغت « اضعاف ما كانت على فرنسا »[٦٢] .

الا ان الامير لم يختر ، بالرغم من كل ذلك ، الطريق الاصوب والاصعب لانقاذ ما يمكن انقاذه . بل استمر على خطه التساومي السابق ولكن مع توجه فرنسي في هذه المرة علما بان جميع المؤشرات تبين بوضوح الاستعداد النفسي التام لدى الجماهير السورية ، في حالة تعبئتها الثورية الصحيحة ، ولدى اوساط بورجوازية مؤثرة لخوض نضال ناجح كان من شأنه ارغام المستعمرين على تراجعات مهمة ، ولا سيما بعد تأزم موقفهم في تركيا ، أو على الاقل وفي كل الاحوال انه كان يوءدي الى نقل نضال الشعب السوري الى مرحلة اعلى يفرض نهاية اسرع للوجود الاستعماري في البلاد .

يقول الاستاذ ساطع الحصري الذي ساهم في الاحداث السورية وراقبها عن كثب : «كانت الجماهير تقوم ـ من حين الى آخر ـ بمظاهرات صاخبة في

---

(٦١) راجع : سليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ٥٢٠ .

(٦٢) الدكتور عبدالرحمن شهبندر ، فيصل بن الحسين . آثار مبعثرة تدل المنقبين على القصر الشامخ ، ـ مجلة « المقتطف » ، الجزء الثالث ، المجلد الثالث والثمانون ، اكتوبر ١٩٣٣ ، ص ٢٩٤ .

الشوارع والميادين ،تعلن بواسطتها استعداد الجميع لانواع شتى من التضحية في سبيل استقلال البلاد وعز الاوطان » . ويقول ايضا : «ان معظم آراء المفكرين والسياسيين في سوريا ... صارت تنزع الى احداث (امر واقع) باعلان استقلال سوريا حالا ، من غير انتظار للقرار الذي سيصدره مؤتمر الصلح بشأن مصير البلاد »[٦٣] .

ويقول الاستاذ سليمان موسى « كانت هناك كراهية شديدة للفرنسيين خصوصا وللاجانب عموما ، وكان المتطرفون من المدنيين والضباط هم رجال الساعة في دمشق بعد ان نجحوا في دفع المعتدلين الى الانزواء » . وبالرغم من محاولاته الملموسة لتبرير مواقف الامير فيصل ، يعترف هذا المؤلف بأن « فريق المعتدلين من الشيوخ والزعماء التقليديين وكبار الملاك » فقط كانوا « يرون الاتفاق مع فرنسا »[٦٤] .

من هنا يتبين انه كانت تتوفر جميع عناصر النضال الناجح فيما لو وجد كذلك تنظيم وتوجيه ناجحان. وتبين الاحداث التي وقعت في الفترة من اواخر ١٩١٩ الحقيقة المهمة نفسها بشكل لا يقبل الجدل . فبعد ان تقرر سحب القوات البريطانية لتحل محلها القوات الفرنسية عقد المؤتمر السوري في ٢٤ تشرين الثاني ١٩١٩ اجتماعا خاصا وطالب بانشاء « حكومة مسؤولة امام الامة تثق بها وتمنحها اعتمادها المطلق وثقتها التامة لاتخاذ وسائل الدفاع عن وطنها المهدد بالاستعمار » . واذاع في الوقت نفسه بيانا الى الشعب حثه على « الوحدة التامة » و « الاستقلال التام »[٦٥] .

وما ان ذاعت انباء الاتفاق بين الامير فيصل وكليمنصو حتى ثارت ثائرة الرأي العام السوري ضده . فحدثت مظاهرات صاخبة في المدن ضد الاتفاق ،

---

(٦٣) ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، ص ١٠٣ .

(٦٤) سليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ٥٣٤ ، ٥٣٧ .

(٦٥) للتفصيل راجع : امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى . تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن ، المجلد الثاني ، القاهرة ، ص ٩٣ ــ ٩٥ .

وعارضته جمعية سوريا الفتاة ، واصدر المؤتمر السوري العام بيانا جاء على طرفي النقيض مع مضمون الاتفاق ، وقد ورد فيه « ان واجب الامة يقضي عليها بالدفاع عن وحدتها واستقلالها وشرف قومها الى آخر نسمة فيها » ، فأصدر زيد نائب الامير فيصل قرارا بحل المؤتمر بحجة نشوب « الخلافات بين اعضائه » و « تعدد المطالب والاتجاهات فيه »(!!)[٦٦] .

احس الامير فيصل بعد عودته مباشرة بالشعور المعادي السائد لاتفاقه مع الفرنسيين فقد اتهم بخيانة مصالح البلاد الوطنية العليا . وهذا بالضبط هو ما توقعه شخص لويد جورج الذي ذكر تعليقا على سياسة الامير باعجاب :

« يبدو ان الملك فيصل قد تضايق مخلصا من تزايد روح العداء بين شعبه نحو الفرنسيين فاتخذ خطوات يهدف منها الى اقناع السكان المحليين بالتصرف بود اكثر مع الدولة المنتدبة علما بانه جازف في ذلك بتعريض نفسه للاتهام بخيانة شعبه من اجل الفرنسيين »[٦٧] .

اضطر الامير للرضوخ للضغط الشعبي والكف عن التأكيد على اتفاقه مع كليمنصو لبعض الوقت حتى انه لم يعد يشير اليه في خطبه . الا انه بادر في الوقت نفسه الى اتخاذ اجراءات كان من شأنها تحديد النشاط الثوري للجماهير والقوى الوطنية المخلصة . فقام بابعاد بعض العناصر الثورية عن دست الحكم[٦٨] لتحل محلها العناصر المتخاذلة ، وعهد بالوزارة الى علي رضا الركابي الذي كان على استعداد تام للتراجع امام الفرنسيين في جميع المجالات حتى انه اعطاهم حرية التصرف لنقل قواتهم عبر الاراضي السورية بهدف ضرب الثوار الاتراك في كيليكيا ، وكان يعارض بشدة اللجوء الى حرب العصابات للضغط على الفرنسيين والتي ظهرت بوادرها الناجحة كرد فعل مشروع على سياسة المحتلين الاجانب مثيرة مخاوفهم بشكل جدي وكان في

---

(٦٦) سليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ٥٣٥ .

(٦٧) Lloyd George, The truth... , Vol. II, p. 1110

(٦٨) اضطر عدد من اعضاء حكومته المخلصين تجميد نشاطاتهم .

الامكان تطويرها لتؤدي دورا اكثر فاعلية • بينما اقنع الامير فيصل العديد من قادتها بالكف عن الاتيان بأعمال معادية ضد الفرنسيين(٦٩) خوفا من اثارتهم اكثر حسب تقديراته دون ان يعتبر ، كما سنرى ، من التجربة التركية المجاورة الناجحة في هذا المجال •

ومن جانب آخر كتب الامير فيصل الى الجنرال غورو يخبره عن كامل استعداده لتنفيذ بنود اتفاقه مع كليمنصو طالبا منه العون لتحقيق ذلك • كما قام شخصيا بزيارته في بيروت للغرض نفسه •

لم تؤد مواقف الامير الى تغيير الفرنسيين لسياستهم التي استهدفت الاحتلال المباشر لسوريا وهي ما افصح المسؤولون عنها وعلقت عليها الصحافة الفرنسية بكل صراحة بعد مجيء الوزارة الجديدة الى الحكم • فقد اعلن ميليران امام البرلمان بعد تسنمه السلطة مباشرة ان احتلال ولايتي دمشق وحلب يحتاج الى قوة عسكرية مؤلفة من ٣٠ الف شخص ، مطالبا اياه بالموافقة على تخصيص مبالغ ضخمة لتنفيذ العملية حتى « تجلب فرنسا لاهل سوريا تحت رايتها نعمة الحكم الجيد ، كما فعلت ذلك في المغرب »(!!) •

بدأ غورو بتنفيذ هذه السياسة بكل خشونة وتعال ، فازدادت مطاليبه من الامير وازدادت تراجعات الاخير امامه • فبينما استمر الفرنسيون في تعزيز قواتهم استمر هو في تقليص جيشه واتخذ موقفا سلبيا في غاية الفتور من آراء ومواقف بعض العسكريين من امثال يوسف العظمة والى حد ما ياسين الهاشمي(٧٠) وغيرهم من الذين كانوا يصرون على التعبئة العامة • وبينما كان غورو يتمادى في تعيين الضباط الفرنسيين في المرافق الادارية ويوسع كما يشاء من

---

(٦٩) ف . ب . لوتسكي ، الحرب الوطنية ـ التحررية في سوريا (١٩٢٥ ـ ١٩٢٧) ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩٦٤ ، ص ٧٤ .

(٧٠) اعتقله الانكليز بسبب مواقفه التي اعتبروها عدائية . (للتفصيل عن دور ياسين الهاشمي في سوريا راجع : سامي عبدالحافظ القيسي ، ياسين الهاشمي ودوره في السياسة العراقية بين عامي ١٩٢٢-١٩٣٦ ، الجزء الاول ، البصرة ، ١٩٧٥ ، ص ٦١-١١٠) .

صلاحياتهم كان الامير يحدد من مجال تحرك اعوانه المخلصين ويحل المؤتمر السوري ويأتي بالموالين للفرنسيين الى دست الحكم . وفي الوقت الذي كان يخشى الفرنسيون تعاظم دور الجماهير السورية في الاحداث الحدية كان يثور ثائرة « المسيح الجديد »[٧١] باسلوب لم يعهده فيه اقرب اعوانه[٧٢] . وقد وصل الامر به حد انه امر حرسه بضرب المظاهرات التي حدثت في دمشق يوم ١٩ تموز ١٩٢٠ احتجاجا على السياسة الفرنسية التي كانت تمس مصالح وكرامة الشعب في الصميم فسقط من الوطنيين باعتراف الامير نفسه ١٢٠ قتيلا و ٣٠٠ جريح[٧٣] ، بينما تقدر مصادر اخرى عدد القتلى بمائتي شخص[٧٤] . وقد قاد الامير زيد بنفسه الحملة ضد المتظاهرين ، كما جرى ، في الوقت نفسه ، تفريق مظاهرات اخرى .

ساهمت اجراءات الامير فيصل في شل الحركة الوطنية وحالت دون تعبئة الجماهير كما يجب حتى تستطيع خوض نضال فاصل من اجل فرض الحد الادنى من مطاليبها . وكما تقول الصحفية الفرنسية ب. جوليس التي كانت تراقب الاحداث عن كثب في دمشق ان الامير فيصل قد تمكن من «تهدئةاولى نفحات انتفاضة عامة وبداية وثبة جماهيرية للنضال من اجل قضية الاستقلال العربي » . وكما تذكر المؤلفة ان فيصلا وصف الوطنيين السوريين في لقاء لها معه بحنق وسماهم « برسل البلشفية »[٧٥] .

---

(٧١) كان فيصل هادئا في طبعه وظل يحافظ على هدوئه سواء داخل البلاد او خارجها باسلوب جلب انتباه الاخرين وقد شبه الرئيس الامريكي ولسن « طلعته بطلعة المسيح » .

(٧٢) راجع : ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، ص ١١٣ .

(٧٣) سليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ٥٦٣ .

(٧٤) امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، المجلد الثاني ، ص ١٨٧ .

(٧٥) B.G. Gaulis, La Question Arab, Paris, 1930, pp. 109, 111

(مقتبس من : ف . ب . لوتسكي ، الحرب الوطنية ــ التحررية في سوريا ، ص ٧٤ ــ ٧٥) .

هكذا خرج فيصل من الميدانين خاسرا • فهو لم يستطع اقناع الحلفاء بأساليبه السياسية على التراجع قيد انملة كما لم يستطع استيعاب الحقد الشعبي وتحويل الجماهير الى قوة فاعلة لتحقيق اهدافه المعتدلة جدا • ولم تؤثر بعض الخطوات الايجابية التي اتخذها (٧٦) في سير الاحداث بشكل يؤدي الى تغيير النتائج ذلك لانها جاءت بعد فوات الاوان وتمت تحت تأثير المواقف المتشددة للفرنسيين ومناورات الانكليز المفضوحة اكثر من ضغط الجماهير الغاضبة واخيرا لانها جاءت بدورها على شكل مناورات سياسية وحرب اعصاب واضحة بهدف فرض بعض التراجع الجزئي على الفرنسيين لذا ظلت نظرية في واقعها ولم يستطع الأمير اقرانها بالواقع • فما ان اقترب الخطب حتى ترك الميدان مما سهل تنفيذ خطط غورو بشكل لم يتوقعه الفرنسيون انفسهم •

في ١٤ تموز ١٩٢٠ وجه غورو انذارا نهائيا الى حكومة فيصل استهله بالاشارة الى منح فرنسا الانتداب على سوريا من اجل « اقامة الاستقلال والنظام والتسامح والرفاه لاهل سوريا ••• »(٧٧) مشيرا الى ان « فرنسا اقرت حق الشعب العربي القاطن في الارض السورية في حكم نفسه بنفسه » والى ان فيصلا نفسه قد « اعترف مع التقدير بان من صالح الشعب السوري طلب الاستشارة والعون من دولة كبيرة في سبيل تحقيق وحدته » و « لهذا الغرض توجه نحو فرنسا »(٧٨) • وبعد استعراضه للحوادث التي وقعت منذ « ان اخذت فرنسا الانتداب على عاتقها » ذكر الجنرال غورو في انذاره :

---

(٧٦) كاقالة وزارة الركابي والموافقة قبل ذلك على اعلان استقلال البلاد في ٨ آذار ١٩٢٠ •

(٧٧) يوجد بعض الاختلاف بين المقاطع التي اقتبسها لويد جورج من الانذار مع مضمونه بالشكل الذي نشره كل من ساطع الحصري وامين سعيد (راجع : ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، ص ٢٨٤–٢٩٢ ، امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، المجلد الثاني ، ص ١٦٧–١٧٤) •

(٧٨) مقتطفات الانذار في :
Lloyd George, The truth... , Vol. II, pp. 1111—1112

« جراء جميع هذه الانتهاكات اصبحت البلاد في فوضى مما دعانا الى توجيه قوات كبيرة الى هناك ، قوات اكبر مما كان يقتضيه استبدال القوات البريطانية في مناطق هادئة » .

بعد ذلك اتهم الانذار فيصلا بانه ادخل في حكومته اناسا معروفين بعدائهم لفرنسا ثم طالب في الاخير : ١ ــ بوضع سكة حديد رياق ــ حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي على ان تقوم « لجنة عسكرية فرنسية » بالاشراف على محطات رياق[٧٩] وبعلبك وحمص وحماه وحلب واحتلال المدينة الاخيرة عسكريا لكونها « حلقة وصل مهمة يجب الا تقع بأي حال من الاحوال في ايدي الاتراك » و ٢ ــ وقف التجنيد في جيش الشريف وتقليص الجيش نفسه الى «الحد الذي كان عليه قبل مجيء الفرنسيين » و ٣ ــ الاعتراف بالانتداب الفرنسي . وقد اكد الجنرال ان الفرنسيين سوف « يحترمون استقلال الشعب السوري ويكون ذلك في توافق تام مع مبدأ اعطاء الحكم للسلطات السورية التي تستمد صلاحياتها من ارادة الشعب ، وتطالب الدولة المنتدبة لقاء ذلك فقط بابداء العون على شكل مساعدة وتعاون لا يتخذ مطلقا طابع الحاق كولونيالي او حكم مباشر » و ٤ ــ قبول اوراق النقد التي اصدرها الفرنسيون والتي سماها الانذار « بالعملة الوطنية » و ٥ ــ معاقبة المذنبين الذين اتوا اعمالا معادية ضد فرنسا .

اعتبر غورو هذه الشروط « مجموعة لا تقبل التجزئة » وحدد اربعة ايام حدا اقصى لقبولها والا فان الفرنسيين يصبحون « على حق » في اتخاذ الاجراءات التي يرونها ضرورية وآنذاك « تتحمل حكومة دمشق جميع تبعات الاجراءات الحذية التي تؤسفني سلفا ولكني مستعد لان اتخذها بكل حزم وتصميم » ــ كما ورد في ختام انذاره .

بالرغم من كل تراجعات الامير وقبوله الكامل لشروط الانذار واتصالاته العاجلة مع غورو الا ان الاخير اتخذ جميع الاجراءات الكفيلة للقضاء على

---

(٧٩) ورد في النص "Bayak" (بياق) خطأ .

حكومته وادعى ، من اجل امرار مؤامرته ، انه تسلم جواب الامير على الانذار في صبيحة ٢١ تموز ، اي بعد انتهاء المدة التي حددها مع تمديدها ، فوجه قواته نحو دمشق التي انسحب منها فيصل مع اعوانه وافواج اخرى من الناس وقد ابدى وزير حربيته يوسف العظمة فقط صمودا خارقا وتحدى غطرسة الاستعماريين باباء نادر عندما تصدى للقوة الفرنسية الزاحفة المتفوقة عددا وعدة(٨٠) يوم ٢٤ تموز في ميسلون وفي معركة غير متكافئة مزق رصاص المحتلين صدره المليء بحب الوطن والايمان بالشعب واستشهد معه حوالي ٨٠٠ آخرين •

هكذا دخل الفرنسيون دمشق في ٢٥ تموز وبه انتهى عهد الحكومة الفيصلية في سوريا ، وقد قيم الامير نفسه هذه الاحداث « كأكبر عمل اعتداء مستهتر سجله التأريخ الحديث »(٨١) • اما المسؤولون البريطانيون فقد بدأوا يعلقون على الاحداث السورية المؤلمة باسلوب يتملصون من خلاله من مسؤولياتهم الضخمة تجاهها وفي ثوب المتألم على ضياع الحق الذي لم يكن هدرهم له في اماكن اخرى من نفس المنطقة اقل فظاظة • قيم لويد جورج الاحداث بهذا الشكل : « جاء عمل غورو الفظ ، بدون شك ، بتشجيع من الاوامر الصادرة في باريس عن اناس كانوا يفكرون آنذاك بتحويل سوريا الى مقاطعة فرنسية مثل الجزائر وتونس والمغرب • الا ان اعمال الفرنسيين الاعتدائية اثارت الرأي العام السوري الى درجة بدأت الاضطرابات التي تحولت الى انتفاضات علنية تنفجر الواحدة منها تلو الاخرى مما تطلب استخدام الحملات العسكرية التي كلفت غالياً وأدت وقتيا الى هدوء خادع يسبق العاصفة • ان الاستهانة بالاتفاق المعلن ادت الى شعور بالقلق في كل

---

(٨٠) قدر قوات يوسف العظمة بمئات قليلة من الجنود وحرس الامير ونحو ثلاثة آلاف من المتطوعين المزودين بالبنادق وبعدد قليل من المدافع وذخيرة محدودة للغاية .

(٨١) Lloyd George, The truth... , Vol. II, p. 1113

العالم العربي وخلقت لدى العرب شعورا بأن امم الغرب[٨٢] تكون صادقة فقط عندما تتكلم من خلال فوهات المدافع . لقد انتشر مثل هذا الشعور ايضا بين عرب ميسوپوتاميا وفلسطين مما ادى الى ازدياد تعقيد الاوضاع في البلدين »[٨٣] .

اما چرچل فانه بعد ان اعطى وصفا ملخصا لما جرى ، اقر بعض الحقائق باسلوب خاص عندما قال معلقا على نفس الاحداث « لقد جرت عمليات (الاحتلال) بمساعدة قوات الملونين من الافارقة الى حد كبير . ان الرأي العام البريطاني ، ولا سيما الضباط الانكليز الذين خدموا مع العرب آلمهم كثيرا ان يروا الناس الذين كانوا في الماضي القريب رفاقا وحلفاء لهم والذين انتظروا منا الحماية واقرار العدل يفنون ويطاردون من قبل الفرنسيين، وتحتل مدنهم باسلوب ان لم يناقض حرفيا ففي كل الاحوال يناقض روح المعاهدات وقد انقبض من كل ذلك ساستنا وضباطنا ، لكننا على علائق وثيقة مع الفرنسيين ويجب ان تبقى هذه العلاقات في المقام الاول . اننا لم نستطع مساعدة العرب بشيء ، الا ان هذه الاحداث قد اثارت القلق في العالم العربي والى وقت ما خلط العرب في حنقهم بيننا وبين الفرنسيين »[٨٤] .

وفي الختام يعود لويد جورج مرة اخرى ليفلسف الموضوع ويلقي تبعة الاحداث على عاتق بعض الضباط الفرنسيين متخطيا بذلك الطبيعة الاستعمارية لكل الخطط التي نفذت ومتجاهلا دور حكومته المدان فيها فيقول : « ان ثلاثة من ابرز الجنود هم غورو وساريل (Sarrail) و ويجاند (Weygand)

---

(٨٢) الصحيح حكام الغرب .

(٨٣) Lloyd George, The truth... , Vol. II, p. 1113

(٨٤) Ibid, pp. 1113—1114

المستندين الى قوات ضخمة قد اخفقوا في جعل سكان سوريا يتوالمون مع سلطة الفرنسيين مما شكل درسا بليغا للساسة الفرنسيين الذين فهموه في نهاية المطاف »(II)[85] .

* * *

يعطي ما سبق امكانية التوصل الى عدد من الاستنتاجات منها :

● بلغ الصراع الاستعماري من اجل مناطق النفوذ احدى ذرواته مع انتهاء الحرب العالمية الاولى ، وقد امتدت آثاره لتستوعب او تحرك اتجاهات وشخصيات سياسية مختلفة مما تجسد بشكل خاص في الصراع المحتدم من اجل سوريا ؛

● برز نجم الامير فيصل في الافق الدولي اكثر من خلال الصراع الانكلو ـ فرنسي الدائر حول مستقبل سوريا ، وقد اثبت جدارة مشهودة في مراحل معينة من ذلك الصراع وبشكل خاص في مؤتمر باريس ؛

● اولى الامير فيصل البريطانيين ثقة مطلقة غير مبررة ، وهو وان كان دون تفاؤل والده في هذا المجال الا انه كان اكثر استعدادا منه للتساوم معهم . ومن جانب آخر فانه كان شديد الحذر من الفرنسيين ، وقد نجم ذلك الى حد كبير عن موقف هؤلاء منه فانهم كانوا يعتبرونه ، كما ذكرنا ، جنديا بريطانيا مخلصا . لكن توجد من الدلائل ما يشير الى ان فيصلا كان على استعداد للتساوم مع الفرنسيين ايضا حتى ان القائد الفرنسي الجنرال غورو اتهمه صراحة بمحاولات التودد من الفرنسيين على حساب الانكليز وورد نفس الشيء في عدد من الوثائق الفرنسية الرسمية[86] . يقول الدكتور عبدالرحمن شهبندر ان الامير فيصل

---

(٨٥) Ibid, p. 1114

(٨٦) راجع : سليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ٥٧٥ ــ ٥٧٧ .

اصبح ، بعد عودته من سفرته الثانية الى اوروبا « اقرب الى الكولونيل كوس والكولونيل تولا ممثلي فرنسا في دمشق منه الى الكولونيل ايستن ممثل بريطانيا »[٨٧] . ومن المهم ان نشير بهذا الصدد الى ان الانكليز انفسهم كانوا في شك من احتمال تزود فيصل بالاموال من الفرنسيين ايضا[٨٨] . مع ذلك زاد حقد الفرنسيين نحوه بعد حضوره مؤتمر باريس بينما تعاظمت ثقة الانكليز به . وقد ظهرت آثار كل ذلك بعد فترة وجيزة جدا .

- لم يعط الامير فيصل امكانية مساومات الدول الاستعمارية في سبيل مصالحها على حساب الشعوب الاهتمام اللازم . من هنا لم يقدر بشكل صحيح موقعه الحقيقي في خضم الصراع الدولي الدائر والمصالح الاساسية المحركة اياه . فلم يتوقع ابدا ان يبقى وحيدا في الميدان لحظة توافق تلك المصالح . وهذا الدرس تعلمه الامير ايام محنته في سوريا وقد اصبح مفعوله واضحا ، ولكن بشكل سلبي ، على سلوكه السياسي في المرحلة التالية من نشاطاته . وربما يكفي ان نشير الى انه لم يتدخل بعد تسنمه عرش العراق وبالرغم من كل جراحاته العميقة في القضايا السورية الا في نطاق ضيق للغاية ؛

- جاء الامير الى باريس وفي نفسه رغبة اكيدة لنيل اكبر المكاسب الممكنة بالاساليب التقليدية من مجتمع دولي كان هدفه الرئيس تقسيم غنائم الحرب بموازين الصاغة . انه كان يرى مخالب الذئب جيدا ، لكنه ظل مع ذلك وديعا لم يغير من موقفه بعد عودته الا في نطاق ضيق جدا . فهو لم يرتفع في نضاله الى مستوى زعماء آخرين حضروا المؤتمر فأخذوا منه درسا بليغا جعلهم يتقربون خطوة اخرى من الجماهير وكان منهم الزعيم المصري المعروف سعد زغلول ؛

---

(٨٧) الدكتور عبدالرحمن شهبندر ، فيصل بن الحسين ، ص ٢٦٣ .
(٨٨) راجع : F.O. 371/4143 (152638)

● لا شك في ان الامير فيصلا لم يكن من الساسة الذين يضعون المـوت على رأس قائمة حساباتهم فيواجهونه في اللحظات الحاسمة التي يتقرر فيها مصير الشعب : « ان في وسع الانسان ان يكون سياسيا صالحا او رديئا ولكن اذا كان لا يستطيع ان يواجه الموت فانه لن يكون اكثر من مجرد رجل سياسي »(٨٩) • من هنا فان مسؤولية كبيرة تقع على عاتق الامير ، بغض النظر عن كل نواياه الطيبة ، في ما حققه المستعمرون مـن نتائج ومكاسب سريعة وسهلة نسبيا • فانه لم يؤمن ابدا بالعمل الثوري للجماهير لذا اثرت اعماله واجراءاته بشكل مباشر على مده وتطـــوره وحددت مجال تحرك قادة مخلصين من امثال يوسف العظمة الذي ادى اختلاف وجهات نظره مع فيصل الى توتر العلاقات بينهما بشكل خطير • وقد حمل الاول منهما الثاني مسؤولية ضعف امكانات الدفاع عندمـا ادلى قبيل موقعة ميسلون باعتراف خطير لواحد من ابرز رجال حكومة فيصل مؤكدا له انه « لو كان الملك فيصل يسير معنا على طول الخط منذ البداية ، لكان من المحتمل ان نعمل شيئا »(٩٠) • ومن المنطلق نفسه لم يؤمن الامير ، الا في حدود ضيقة جدا ، بحرب العصابات ولم يبذل اي جهد ملموس في سبيل تطويرها علما بانها اثارت مخاوف جدية بين المسؤولين الفرنسيين وحققت ، بالرغم من نطاقها الضيق ، نتائج مهمـة لا سيما في المنطقة الغربية • ففي معركة دارت بين العصابات الوطنيـــة والقوات الفرنسية المحتلة يوم ٤ كانون الثاني ١٩٢٠ في عمرة الامير محمود خسر الفرنسيون ٧٠ قتيلا و ١٧ اسيرا و ١٧ رشاشا ومدفعين جبليين وقد جيء بأسراهم الى دمشق حيث ارسلوا من هناك الى بيروت كدليل لنيات الامير الحسنة • وفي نفس الفترة تقريبا الحق الوطنيون في تل كلخ خسائر جدية بالمستعمرين وطالبوا بانزال العلم الفرنسي • اما

---

(٨٩) القول لجيفارا . راجـع : محمد حسنين هيكل ، عبدالناصر والعالـم ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٤٦٨ •

(٩٠) ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، ص ١١٠ •

في جبل النصيرية فقد حقق الثوار انتصارات اجبرت الفرنسيين علـى ارسال قوة كبيرة قوامها ١٢٠٠ رجل لقمع المقاومة ٠ وفي انطاكيـــة والحمام خسر الفرنسيون ٢٥ قتيلا و ٣٠ اسيرا[٩١] ٠

ان هذه الاحداث التي وقعت في رقعة صغيرة من البلاد اشغلت قوات فرنسية كبيرة وكلفت المستعمرين خسائر جدية في الارواح والاموال ، فلو جرى تطويرها باسلوب مدروس لتشمل كل البلاد لتحولت حتما الى قـــوة ضغط كبيرة ومستمرة ولاصبح بالامكان اجبار المستعمرين علـــى بعض التنازلات وعلى التروي اكثر قبل الاقدام على خطواتهم الاخيرة ٠ ولم يكـــن عبثا ان الفرنسيين كانوا يؤكدون دائما ، سواء في اتصالاتهم الشخصية او في مذكراتهم الرسمية ، على مشكلة « الخارجين على القانون »(!!) وان بندا من بنود الانذار الخمسة قد خصص لهذا الموضوع بالذات ٠

ومن الجدير بالذكر في هذا المجال ان الامير فيصلا قد اعجب بالتجربة التركية ولمس بنفسه انعكاساتها المهمة في اوروبا ٠ فقد كتب من باريس الى اخيه الامير زيد رسالة يتحدث فيها عن احترام الانكليز والفرنسيين للاتراك بعد ما اظهروه من قوة بقيادة مصطفى كمال واستنتج بأن «المسألة مسألة قوة لا حق ٠٠٠ الاستقلال يؤخذ ولا يعطى ٠٠٠ اتمنى ان الامة تؤيد قولي فعلا وتري للعالم بأنها ليست اقل حمية ومحبة لوطنها من الترك »[٩٢] ٠ لكنه مـــع ذلك لم يعتبر هـــو من هذه التجربة التي تتابعت احداثها بنجاح وبسرعة ولم يستطع ان يجعل منها نموذجا يطبقه في بلاده ذلك لانه شخصيا لم يكـــن في

---

(٩١) للتفصيل راجع : امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، المجلد الثاني ، ص ١٠٤ — ١١٦ ٠

(٩٢) مقتبس من : سليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ٥١٧ ٠

قيادته مثل مصطفى كمال اتاتورك[٩٣] الذي آمن بالعمل الثوري للجماهير فلم ينفصل عنها[٩٤] بل عمل بنشاط وحماس كبيرين بين الجنود والفلاحين والمثقفين والملاكين الليبراليين • وكان من الزعماء الشرقيين القلائل الذين لم يخدعهم المظهر الخارجي لبنود الرئيس ولسن والوعود الامريكيـــة السخية وخبث مناورات الدول الكبرى[٩٥] وآمن بالتنظيم فاستطاع ان يحرك الطاقة الهائلة الكامنة في الجماهير وينتصر بواسطتها على قوات ومؤامرات جميع الـــدول الاستعمارية تقريبـــا •

ان هذا الموضوع يستحق وقفة خاصة بحكم تشابه الظروف الى حد كبير وتطابق الزمن كليا بين ما حدث في تركيا وذلك الذي وقع في سوريا بينما انتهت الاحداث فيهما بنتائج متباينة للغاية •

خرجت تركيا من الحرب العالمية الاولى منهوكة القوى ، منحلة اقتصاديا وضعيفة عسكريا بحيث لم تبق من قواتها البالغة حوالي مليون شخص سوى آلاف قليلة من الجنود المنهارين والضباط اليائسين ، فتحقق بذلك الحلـــم القديم للدول الكبرى عندما جلست اخيرا حول مائدة واحدة لتشريح جثـــة « الرجل المريض » ولجعل الامبراطورية العثمانية علما من اعلام الماضـــي •

---

(٩٣) تماما على عكس ما ذهب اليه الاستاذ سليمان موسى الذي كتب يقول : « وكان فيصل حائرا في تقدير موقف اهل سوريا تقديرا صحيحا :هل يقاومون الفرنسيين مقاومة فعالة ام لا . وهذه الحيرة تفسر لنا اقامتـــه الطويلة في لندن وباريس : هل يملك قومه التصميم الكافي على المقاومـــة حتى يعود ويقودهم في القتال كما فعل مصطفى كمال » (راجع ص ٥٢٤ مـــن كتابـــه) .

(٩٤) لم يترك مصطفى كمال البلاد في ايام نضال شعبه ضد المستعمرين ورفض اقتراحا بالسفر سرا الى الولايات المتحدة بينما ترك غياب الامير فيصـــل عن البلاد فراغا سياسيا ضاعف من ارتباك القيادة وخططها بشـــكل ملموس .

(٩٥) للتفصيل راجع الوثائق المنشورة في: مصطفى كمال، طريق تركياالحديثة ١٩١٩ ــ ١٩٢٧ ، الجزء الاول (الترجمة الروسية ، موسكو ١٩٢٩) ، ص ١٠ ، ٩٣ــ٩٨ ، ١٠٧ــ١٠٩ ، ١١١ ــ ١١٢ ، ٤١٤ ، ٤٢٠ ــ وغيرها.

واصبحت على وشك ان تفعل نفس الشيء بتركيا نفسها عن طريق ضم قسم منها الى اليونان وفرض الاشراف الدولي على المضائق ووضع بقية البلاد تحت انتداب احدى الدول الكبرى او اكثر • وكانت الرجعية التركية على استعداد تام للمساومة مع الاعداء الذين احاطوا البلاد من جميع الجهات • فقد بدأت القوات اليونانية بالتدفق من جهة الغرب واحتل الايطاليون قسما من غربي الاناضول وكانت الجيوش الفرنسية تحتل كيليكيا على طول الحدود السورية وفي الشرق بدأت قوات الطاشناق الارمنية بالتحرك واحتلت قوات الحلفاء كل الجزء الاوروبي من تركيا بما فيها العاصمة استانبول ، وكانت السفن البريطانية واليونانية تطوق سواحل البحر الاسود التركية • وقد بلغ عدد جنود وضباط الاحتلال البريطانيين في تركيا العام ١٩١٩ أكثر من ٤١ الف شخص وبلغ عدد القوات الفرنسية حوالي ٤٩ الف والايطالية اكثر من ١٧ الف • وبعد فترة دخلت قوات يونانية كبيرة البلاد كما رابطت في مياهها الاقليمية اساطيل انكليزية وفرنسية وامريكية وايطالية ويونانية مع قوات بحرية كبيرة • وفي ظل مثل هذا الاحتلال العسكري المحكم توالت اخطر المؤامرات واخبث المناورات ضد استقلال تركيا وكيانها •

كان لفرنسا اطماع خاصة ومصالح متشعبة في تركيا تفوق اهميتها ما كان لها في سوريا الى حد كبير جدا • فقد فاق رأسمالها المستغل فيها رساميل جميع الدول الرأسمالية الاخرى المستغلة هناك تقريبا اذ بلغت حصة فرنسا ٦٣٪ من مجموع القرض العثماني[٩٦] مما كان يشكل مبلغا ضخما للغاية

---

(٩٦) بعد تدهور الاوضاع الاقتصادية في الامبراطورية العثمانية واندماجها بفلك العالم الراسمالي وتزايد تغلغل الدول الغربية في مختلف مرافقها ازداد اعتمادها على القروض الاجنبية بفوائد باهظة لمواجهة مشاكلها الاقتصادية المتفاقمة . وقد تحولت هذه القروض الى عبء ثقيل جدا على كاهل الدولة والى اهم وسيلة للتغلغل الكولونيالي في اجزاء الامبراطورية ، ولا سيما بعد ان فرض عليها الاشراف المالي منذ العام ١٨٨١ عندما تم تأسيس مؤسسة القرض العثماني بموجب مرسوم خاص وقد كان اعضاؤها من ممثلي البنوك الاوروبية الكبيرة .

يزيد عن مليار فرنك ذهب تحول الى اكبر عبء اقتصادي عانت منه الدولة العثمانية . وبلغت الرساميل الفرنسية في مجالات الانتاج الصناعي والخطوط الحديدية والمؤسسات المصرفية التركية وغيرها حوالي نصف مليار فرنك آخر [٩٧] . ومن جانب آخر بلغ التغلغل الثقافي الفرنسي في تركيا مدى ابعد بكثير مما حدث بالنسبة لسوريا والذي اكد عليه وزير الخارجية الفرنسية بيشون امام مؤتمر الصلح ، كما مر بنا ، كحجة مهمة للادعاءات الفرنسية ببلاد الشام . فبالنسبة لتركيا أصبحت اللغة الفرنسية منذ زمن بعيد اللغة الاوروبية المفضلة بين الاوساط المثقفة وتحولت الى اللغة الثانية للتعامل بعد التركية نفسها ، وكانت العوائل الارستقراطية تفضلها حتى على لغتها القومية ، فتركت مع الثقافة الفرنسية آثارا واضحة جدا على الآداب والعلوم والثقافة التركية . وبلغ عدد المدارس الفرنسية في تركيا حوالي ٥٠٠ مدرسة وصل عدد طلابها ما يقرب من ٦٠ الف شخص[٩٨] . فكان من الطبيعي ان تولي فرنسا بعد الحرب اهتماما بالغا بمصير تركيا وتلح على تطبيق الاتفاقات السرية بصدد تقسيمها مع المحافظة على مصالحها الاقتصادية المتفوقة هناك . ومن هنا اتخذ الصراع الانكلو ـ فرنسي على تركيا طابعا اخطر من صراعهما بشأن مستقبل سوريا ، حتى ان فرنسا وقفت ضد بنود كثيرة من « معاهدة سيفر » لانها كانت تمس مستقبل مصالحها في الاناضول فألحت على ضرورة تعديلها بعد عقدها مباشرة . كما انها تمسكت بكيليكيا بقوة لانها كانت واحدة من اغنى مناطق تركيا تميزت بخصوبة تربتها وكثرة المعادن في باطن ارضها وبشكل خاص خامات الحديد والفضة والنحاس وكانت بمثابة مخزن حبوب بالنسبة للاناضول واشتهرت بانتاج احسن انواع الكروم والحوامض والزيتون وبمناخها الملائم جدا لتربية دودة القز وانتاج احسن

---

(٩٧) الارقام مقتبسة من : ا . ف . ميللر ، دراسة في تاريخ تركيا المعاصر ، باللغة الروسية ، موسكو ١٩٤٨ ، ص ١٠٠ .

(٩٨) الارقام مقتبسة من : ا .م. شمس الدينوف ، النضال الوطني ـ التحرري في تركيا ، (١٩١٨ـ١٩٢٣) ، باللغة الروسية ، موسكو ١٩٦٦ ، ص ٣١ .

انواع القطن المصري . وقام الرأسماليون الفرنسيون منذ القرن الماضي ببناء خط حديدي في كيليكيا التي كانت بالاضافة الى ذلك على اتصال مباشر مع سوريا والطرق التجارية المؤدية الى ولاية الموصل مما اكسبها ، خاصة في نظر الفرنسيين ، اهمية سوقية واقتصادية متزايدة .

ومن اجل كل ذلك استماتت القوات الفرنسية طيلة العام ١٩٢٠ للحفاظ على كيليكيا الا انها اصيبت بفشل ذريع نتيجة التفاعل الايجابي الصحيح بين تصميم الجماهير وحكمة القيادة وهو ما يبقى عاملا اساسيا ضمن عوامل اخرى لم تنعدم الظروف الموضوعية لوجودها أو خلقها في سوريا ايضا . وقد لعبت حرب العصابات في تركيا ، والتي كانت تشرف عليها مثل سوريا لجان خاصة باسم لجان الدفاع ، دورا بارزا . علما بأن عدد المشتركين لم يتجاوز في بعض المناطق عدة مئات من المتطوعين الذين كانوا مجهزين باسلحة قديمة وذخائر قليلة الا انهم كانوا منظمين على شكل جماعات صغيرة سريعة الحركة، على اتصال جيد بقيادة المنطقة والقيادة العامة نفسها . واستطاع مصطفى كمال عن ادراك ، انقلب فيما بعد الى نقيضه ، تحريك الجماهير الكردية ايضا من اجل تحقيق الهدف المشترك الاسمى(٩٩) .

مكنت هذه العوامل وغيرها الثوار من تحقيق انتصارات باهرة على الفرنسيين المتفوقين عليهم عددا وعدة . ففي منطقة مرعش بدأت الشرارة الاولى للانتفاضة الجماهيرية حيث تمكن الثوار من مجابهة القوات الفرنسية التي ضمت فرقة جزائرية وقوات اخرى ، على مدى شهر كامل (من اواخر كانون الاول ١٩١٩ حتى كانون الثاني ١٩٢٠) واستطاعوا في النهاية تدميرها والاستيلاء على غنائم حربية كبيرة ساهمت في تطوير حركة المقاومة . وبعد فترة الحق الثوار في منطقة اورفه هزيمة نكراء اخرى بالقوات الفرنسية التي

---

(٩٩) من المفيد ان نذكر ان بعض رجال حكومة الامير فيصل اقترحوا في احرج ايامها الاخيرة التعاون « قلبا وقالبا » مع الفرنسيين والاشتراك « معهم في صد اعتداءات(!) العصابات التركية والكردية في الشمال » (راجع : سليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ٥٣٤ ، ٥٥٣) .

بلغ مجموع خسائرها هنا ما لا يقل عـن ٧٠٠ قتيل و ١٠٠ اسير مع اسلحـة وذخائر[١٠٠] • هكذا تمكن الثوار من الحاق هزائم متتالية بالقوات الفرنسية الغازية التي اضطرت على الانسحاب صوب سوريا والرضوخ اخيرا لارادة الشعب مع انها لم تتردد لحظة واحدة في اللجوء الى اكثر الاساليب ضـراوة بقصد فت عضد الجماهير وادخال اليأس في نفوس الناس • فخلال شهريـن فقط قامت المدافع الفرنسية بتهديم ٢٦٧٥ دارا من دور مدينة عنتاب وضواحيها وقتلت وجرحت اعدادا كبيرة من سكانها وسببت خسائر مادية قدرت بأربعين مليون ليرة ذهب • ولقد شهدت مناطق اخرى كثيرة صورا مشابهة او ابشع من هذه الصورة المأساوية التي لم تستطع ، مع ذلك ، وقف عجـلة الثورة الملتهبة[١٠١] • ويجب ان نأخذ بنظر الاعتبار حقيقة مهمة اخرى هي ان مقاومة الثوار الاتراك لم تقتصر على هذه الجبهة ، بل انها امتدت لتشـمل مناطق واسعة ومتفرقة ولتجابه عددا من الاعداء الشرسين المزودين بأفتك الاسلحة لكنهم اضطروا ، بالرغم من جميع امكاناتهم ، للخضوع اخيرا لارادة الشعب في تركيـا •

لم تكن الجماهير السورية اكثر تخلفا من الجماهير التركية او اقل وعيا واعتزازا منها او دونها استعدادا للتضحية ، انما العلة كانت تكمن مباشرة في القيادة التي التهت في قاعات ڤيرساي واروقـة الوزارات في لندن وباريس فلم يستطع حتى ابطال من امثال يوسف العظمة التأثير ، بعد فوات الاوان ، على سير الاحداث مما يبدو جليا من محاولاته اليائسة قبل موقعة ميسلون لكسب الوقت الذي كان يشكل عنصرا اساسيا بالنسبة له خاصة بعـد ان ساهمت اخطاء القيادة في شل الجماهير وعزلها • لكن مهما يكن من امر كان مـن

---

(١٠٠) للتفصيل راجع : أ . م . شمس الدينوف ، النضال الوطني ــ التحرري في تركيا ، ص ١٢٦ ــ ١٢٨ .

(١٠١) يحاول البعض تبرير موقف الامير الانهزامي بكونه اراد تجنيب البـلاد الويلات التي كان بامكان الفرنسيين الحاقها بها ، وهم ينسون او يتناسون بذلك ما جلبه الحكم الفرنسي من خسائر مادية وروحية جسيمة الـى البـلاد .

الاجدى لوزير الحربية يوسف العظمة الركون الى حرب عصابات متفرقة بدل المجابهة المباشرة للقوات الغازية وقد كان يعلم مسبقا عدم توفر شروط نجاحها • وفي الواقع لا يوجد اي تفسير آخر لهذا الامر سوى ارتباك القيادة العليا التي حاولت ، بالرغم من كل اخطائها ، القاء مسؤولية نتائج هزيمتها هي على الجماهير • فقد وصف الامير « الامة » في رسالة خاصة بعث بها لابيه بعد حدوث الكارثة ، بالجمود و « كأن لا علاقة لها بما يجري » وتأسف لان « الامة قوالة لا فعالة »[١٠٢] ، علما ان بعض الاحداث المتفرقة التي وقعت حتى بعد هزيمة القيادة من الميدان تدحض قول الامير وتؤشر بوضوح استعداد الجماهير للنضال والعمل ولرفض كل اشكال التبعية ونبذ كل من يتعاون مع المستعمرين • وخير دليل نورده في هذا المجال هو مصير رئيس الوزراء الموالي للفرنسيين علاءالدين الدروبي والوزير عبدالرحمن اليوسف اللذين ذبحا على ايدي الحوارنة • ومن المهم ان نشير بهذا الصدد ايضا الى ان الامير قد اعترف في الرسالة نفسها بانه شخصيا كان يعتقد « بأن الواجب يقضي علينا بالتساهل مع الدول بالنظر الى اطماعها والى ضعفنا »(!!)• وهو اقرار صريح للواقع الذي لعب الدور الاساس في تحديد اطار طابع الاحداث السورية مع نتائجها المؤلمة •

ومن الجدير بالذكر ان الامير توجه حتى بعد الضربة الكبيرة وبعد تحديده لجوانب مهمة من اسبابها ، توجه ثانية نحو اوروبا ليستمر على نهجه السياسي السابق وقد اختار هذه المرة ايطاليا • ومما دفعه الى ذلك حتما موقفها من قرارات مؤتمر لندن وسان ريمو حول تقسيم الاقطار العربية • فان ايطاليا كانت الدولة الوحيدة التي وقفت ضدها ولكن بدوافع لم تختلف في شيء عن تلك التي كانت تحرك الدول الكبرى الاخرى • فهي اعتبرت القرارات مجحفة بالنسبة لاطماعها لذا اشترطت ضمان مصالحها في آسيا

---

(١٠٢) راجع : سليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ٥٦٧ . اشار الامير الى نفس الراي في مناسبة سابقة (راجع المصدر نفسه ، ص ٥٣٦) .

الصغرى اساسا لاعترافها بها • الا ان الامير لم يبق طويلا في ايطاليا ، فبعد ان اعد بواسطة احد جهابذة القانون الدولي في روما تقريرا عن « الحق الضائع » توجه الى لندن حيث آن الاوان لتوزيع « مفاتيح العروش » ، فأصبح اهمها من نصيبه وذلك بحكم عوامل كثيرة لم ير المسؤولون البريطانيون فيها تناقضا مع خططهم ومستقبل مصالحهم • ويجدر ان نشير هنا الى ان المصادر اجمعت على ان الانكليز هم الذين اقترحوا عرش العراق على الامير فيصل(١٠٣) الا ارنولد ولسن وكيل الحاكم المدني البريطاني في العراق الذي يذكر في مقدمة الطبعة الثانية لكتاب الميجر سون « رحلة متنكر الى بلاد ما بين النهرين وكردستان » ان فيصلا هو الذي رشح نفسه لذلك العرش اذ كتب ما نصه : « ••• ومن بين مرشحين عديدين اقترحت أسماؤهم ، قدم فيصل بن الشريف حسين ملك الحجاز آنذاك نفسه فقبل ملكا »(١٠٤) •

تم تتويج فيصل في العرش الجديد يوم ٢٣ آب ١٩٢١ وكما يقول دزموند ستيوارت فـ « ان خمس سنوات من الصراع والشك والبهجة والكآبة والنفي انتهت في هذه اللحظة المتأخرة من الظفر المحفوف بالخطر »(١٠٥) • وبدأت معها مرحلة جديدة متميزة في حياة الملك فيصل السياسية •

* * *

قبل أن نأتي الى التقييم النهائي لشخصية الأمير الملك على ضوء الحقائق

---

(١٠٣) كان من المقرر اعطاء عرش العراق الى الامير عبدالله الذي ظل يحمل حتى الاخير شعورا مليئا بالخيبة تجاه شقيقه الملك فيصل (للتفصيل راجع : ساطع الحصري ، مذكراتي في العراق (١٩٢١ ــ ١٩٤١) ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٢٤ ــ ٢٥) •

(١٠٤) E.B. Soane, to Mesopotamia and Kurdistan in disguise, second edition, London, 1926, P. XV.

(١٠٥) دزموند ستيوارت ، تاريخ الشرق الاوسط الحديث ، ص ٢٥٩ــ٢٦٠.

الواردة وغيرها المعروفة يجدر بنا التأكيد باختصار على الجـــوانب الاخرى لسياسته وآرائه .

اثبت الامير فيصل خلال حكمه القصير في سوريا جدارة ادارية ملموسـة وقوة شخصية تحولت الى نقطة التقاء للاتجاهات والشخصيات السياسية في البلاد ، كان يعرف كيف يخاطب الناس ويؤثر فيهم ويجمع بين قلوبهم[١٠٦] ، تميز بالبساطة والسماحة ، وكل ذلك من الصفات الجيدة التي يفترض توفرها في الحاكم الناجح . ومن المهم ان نشير ايضا الى ان آثار التعصب الديني لم تظهر على الرجل وبذل جهودا كبيرة ، لم تخل طبعا من دوافع سياسية ، لكسب المسيحيين وابناء الطوائف غير المسلمة في سوريا ولبنـان ولم يحد عن نفس النهج بعد تسنمه عرش العراق ايضا . لقد كان يميل الى الاعتمـــاد علـى الكفوئين من الرجال بغض النظر عن انتماءاتهم الدينيـة والمذهبية وتتوفر امثلة كثيرة عن ايام حكمه في سوريا والى حد اقل في العراق تدل على هذه الحقيقة . الا انه كان يميل في الوقت نفسه الى فرض ذاته على الاخرين وجمع الموالين حوله . وفي العراق بدأ يستغل مركزه لبعض المنافع الخاصة بشكل لم يكن يتفق مع سمعته الرفيعة . جاء في احدى التقارير البريطانية السـرية : « ... بدأ الملك فيصل يسير في الآونة الاخيرة على سياسة جعل الموظفين ، بما فيهم المتصرفون ، يعتمدون عليه شخصيا ولهذه الغاية رفض ... الموافقة على عرض لائحة قانون للانضباط يوفر للموظفين ضمانات كافية ضـد الفصـل الكيفي »[١٠٧] . وقد اتهم نوري السعيد فيصلا قبل وفاته بأقل من سـنة بكونه « يستغل مكانته بصورة مستمرة للحصول على منافع شخصية تافهـة لنفسه ولحاشيته » واورد امثلة على تهربه « من دفع الضرائب والرسـوم الكمركية » وعن محاباته في « اشغال الوظائف الدبلوماسية ومنح الرواتـب

---

(١٠٦) توجد نماذج جيدة من خطبه وتوجيهاته في المجلد الثاني من كتاب امين سعيد وفي كتاب سليمان موسى . راجع أيضا : محمد صبيح ، فيصل الاول ، القاهرة ١٩٤٥ .

(١٠٧) F.O. 371/12259

التقاعدية بصورة غير قانونية »[١٠٨] . ولكن لا يمكن ان يؤاخذ عليه في هذا المجال انه ظل وفيا لمن تعاون معه ايام الحرب العالمية الاولى وخلال حكمه في سوريا فاعتمد على قسم منهم في العراق وظل على اتصال بمعظمهم كما عاون العديد منهم .

تعلم فيصل دروسا جديدة من تجربته في سوريا ادت الى تأصيل روح المساومة في اعماقه . لكنه لم يفقد ، مع ذلك ، ذاته وظل وزنه كبيرا في دفع عجلة الحكم العراقي مما كان يؤدي به احيانا الى التصادم مع الانكليز واقرب اعوانهم والى التهديد بالتنازل عن العرش كما حدث مرارا وانعكس بشكل خاص في خلافه المستفحل مع نوري السعيد قبيل وفاته بفترة قصيرة وقد استدعى الامر تدخل الانكليز الفعال لاصلاح ذات البين[١٠٩] .

ولكن في كل الاحوال لا يمكن انكار حقيقة واحدة هي ان قلب فيصل كان مليئا بالرغبة لتقديم اكبر الخدمات الممكنة حسب اعتقاده للبلاد وعاني الكثير من اجل ذلك ، وبقيت في اعماقه آثار جروح دامية تركتها دسائس والاعيب الدول الكبرى وهو لم يخف احيانا عدم ارتياحه من سياسة البريطانيين ، ولا سيما مع المقربين منه[١١٠] بحيث ان ذلك ترك أثراً واضحا على فكر ابنه غازي الذي ترعرع كره الانكليز في نفسه مع نشوئه المبكر . الا ان عدم تفاعل فيصل مع الجماهير واختياره للمساومات سبيلا سياسيا جعلا الانحدار ، لا الصعود ، واضحا في الخط البياني لحياته السياسية التي مرت بثلاث مراحل واضحة المعالم هي النشوء في العهد العثماني والتجربة في سوريا والخضوع في العراق . وقد عبر عنها احد اقرب اعوانه الدكتور عبدالرحمن

---

(١٠٨) راجـع : F.O. 371/12259 (E-2842); F.O. 371/16049 (E-5726)

(١٠٩) راجـع الوثائق نفسهـا .

(١١٠) توجد شواهد مقنعة على ذلك في كتابي امين الريحاني : « فيصل الاول »، بيروت ١٩٣٤ (الطبعة الثانية ١٩٥٨) و « ملوك العرب » ، الجزءالثاني، بيروت ١٩٥١ .

شهبندر بهذا الاسلوب « ... انه درس في الاستانة وتمرن في الشام وطبق في العراق »[111] .

واخيرا يجوز القول ان فيصلا كان يمثل الجناح اليميني للتحرك الوطني المستعد للتساوم ابدا ، غير المؤمن بالعمل الثوري الفعال وقوة الجماهير كأداته الرئيسة . انه كان يمثل الفكر الاقطاعي الليبرالي المشوب ببدايات الفكر البورجوازي النامي ولم يبلغ شأو العديد ممن سبقوه في هذا الميدان وعلى رأسهم الامير عبدالقادر الجزائري ، ويسمو مقام الاخير اكثر عندما يعطى فرق الزمن حقه . ولكن لم تخل خطوات فيصل الاول ، مع ذلك ، عن اهداف ومضامين وطنية واضحة المعالم استطاع بها تقديم خدمات معينة للتطور السياسي منذ ان دخل ميدانه فلا يصح ـ والحالة هذه ـ تصنيفه ضمن الرهط لرجعي من ساسة المنطقة .

---

(١١١) الدكتور عبدالرحمن شهبندر ، فيصل بن الحسين ، ص ٢٦٢ .

الموضوع الخامس

عن مؤتمر شعوب الشرق
في باكو

هناك(*) مبررات علمية وسياسية كافية للاهتمام بنشر مقالات وبحوث تتعلق بمواضيع مهمة غير مدروسة بما فيه الكفاية كأول مؤتمر لشعوب الشرق(١) الذي عقد في وقت مبكر . فمثل هذا الامر يساعد على الاقل في فهم أعمق للعوامل المحركة للاحداث التاريخية في اطار الترابط الافقي بين تلك الاحداث(٢) . وفي هذا بالذات تكمن اهمية مقال السيد زهير احمد القيسي « القضايا العربية في مؤتمر باكو ١٩٢٠ » الذي وردت فيه معلومات مهمة وطريفة تستلفت نظر القارىء والمتتبع معا . وبما انه سبق لي ان درست

(*) اعد البحث بناء على طلب « آفاق عربية » وذلك تعقيبا على مقال السيد زهير احمد القيسي « القضايا العربية في مؤتمر باكو ١٩٢٠ » ، وقد نشر كلاهما في العدد ١٢ (آب ١٩٧٦) من المجلة . نشر هذا البحث في الاصل تحت عنوان « حقائق اخرى عن مؤتمر شعوب الشرق » .

(١) من الجدير بالذكر ان المؤتمر الاول لشعوب الشرق لم يحض حتى الان بالاهتمام الكافي من لدن العلماء والمتتبعين .وربما يكفي القول هنا ان دوائر المعارف السوفيتية الكثيرة ، بما فيها الطبعات المختلفة من «دائرةالمعارف السوفيتية الكبرى » و « دائرة المعارف السوفيتية الصغرى » و « دائرة المعارف التاريخية السوفيتية » و « دائرة المعارف الفلسفية » لم تخصص مكانا للمؤتمر . وهذا نقص جدي تؤاخذ عليه تلك المؤسسة العلمية الكبيرة .

(٢) تشكل الاحداث التاريخية حلقات مترابطة فيما بينها ، ويكون ذلك الترابط عموديا ، اي في اطار مجتمع واحد وافقيا ، اي في اطار عدد من المجتمعات في آن واحد . بمعنى ان الحدث التاريخي المعين يكون حصيلة احداث اخرى داخلية سبقته كما يتحول هو الى بداية لاحداث اخرى تتبعه . من جانب آخر لا يستطيع هذا الحدث ان يبقى بمعزل عن تأثير الاحداث الخارجية فيتفاعل معها كما تتفاعل هي معه . فثورة الرابع عشر من تموز مثلا كانت تشكل امتدادا عموديا للوثبات والانتفاضات الكثيرة التي وقعت قبلها على مدى عشرات السنين ، لكنها كانت في الوقت نفسه امتدادا افقيا لثورات وتغييرات سياسية اخرى سبقتها في المنطقة . وبالطبع للترابط العمودي دور اكبر واهم في خلق الاحداث من الترابط والتفاعل الافقي .

هناك[*] مبررات علمية وسياسية كافية للاهتمام بنشر مقالات وبحوث تتعلق بمواضيع مهمة غير مدروسة بما فيه الكفاية كأول مؤتمر لشعوب الشرق[1] الذي عقد في وقت مبكر . فمثل هذا الامر يساعد على الاقل في فهم أعمق للعوامل المحركة للاحداث التاريخية في اطار الترابط الافقي بين تلك الاحداث[2] . وفي هذا بالذات تكمن اهمية مقال السيد زهير احمد القيسي « القضايا العربية في مؤتمر باكو ١٩٢٠ » الذي وردت فيه معلومات مهمة وطريفة تستلفت نظر القارىء والمتتبع معا . وبما انه سبق لي ان درست

(*) اعد البحث بناء على طلب « آفاق عربية » وذلك تعقيبا على مقال السيد زهير احمد القيسي « القضايا العربية في مؤتمر باكو ١٩٢٠ » ، وقد نشر كلاهما في العدد ١٢ (آب ١٩٧٦) من المجلة . نشر هذا البحث في الاصل تحت عنوان « حقائق اخرى عن مؤتمر شعوب الشرق » .

(١) من الجدير بالذكر ان المؤتمر الاول لشعوب الشرق لم يحض حتى الان بالاهتمام الكافي من لدن العلماء والمتتبعين .وربما يكفي القول هنا ان دوائر المعارف السوفيتية الكثيرة ، بما فيها الطبعات المختلفة من «دائرةالمعارف السوفيتية الكبرى » و « دائرة المعارف السوفيتية الصغرى » و « دائرة المعارف التاريخية السوفيتية » و « دائرة المعارف الفلسفية » لم تخصص مكانا للمؤتمر . وهذا نقص جدي تؤاخذ عليه تلك المؤسسة العلمية الكبيرة .

(٢) تشكل الاحداث التاريخية حلقات مترابطة فيما بينها ، ويكون ذلك الترابط عموديا ، اي في اطار مجتمع واحد وافقيا ، اي في اطار عدد من المجتمعات في آن واحد . بمعنى ان الحدث التاريخي المعين يكون حصيلة احداث اخرى داخلية سبقته كما يتحول هو الى بداية لاحداث اخرى تتبعه . من جانب آخر لا يستطيع هذا الحدث ان يبقى بمعزل عن تأثير الاحداث الخارجية فيتفاعل معها كما تتفاعل هي معه . فثورة الرابع عشر من تموز مثلا كانت تشكل امتدادا عموديا للوثبات والانتفاضات الكثيرة التي وقعت قبلها على مدى عشرات السنين ، لكنها كانت في الوقت نفسه امتدادا افقيا لثورات وتغييرات سياسية اخرى سبقتها في المنطقة . وبالطبع للترابط العمودي دور اكبر واهم في خلق الاحداث من الترابط والتفاعل الافقي .

بعض جوانب هذا الموضوع بالذات[٣] ارى من الضروري ، اتماما للفائـــدة واستجابة لطلب « آفاق عربية » الغراء ، ان اكتب البحث التالي تعقيبا عـلى المقال المشار اليه لانه يساعد ــ حسبما اعتقد ــ على اعطاء صورة متكاملـة عن المؤتمر ودوافعه مع نتائجه .

المنطلق النظري للمؤتمر :

ان اول سؤال يتبادر الى الذهن خلال البحث عن اول مؤتمر من نوعه ابدى سياسي فيلسوف مثل لنين اهتماما خاصا بعقده ، انما يدور حـــول المنطلق النظري الذي تحول الى العامل الحاسم لظهوره ، خاصة وان كل خطوة سياسية للينين كانت تستند الى تحليل نظري دقيق شكل ركنا اساسيا لانتصار اول ثورة اشتراكية في عهد بلغت الرأسمالية فيه اوج قوتها وعنفوانها .

اولى لينين ظروف شعوب الشرق ، ولا سيما الاسيوية منها ، عناية غير قليلة في دراساته التي تعود الى عهد ما قبل ثورة اكتوبر . فهو صـــاحب المصطلح السياسي المعروف « نهوض آسيا » والذي رأى في افقه مؤشرات سياسية مهمة ومعطيات كبيرة بالنسبة لحركة التاريخ الانساني حددهـــا بالاستناد الى تحليله لاحداث الثورة الدستورية في ايران (١٩٠٥ ــ ١٩١١) وثورة الاتحاديين في تركيا (١٩٠٨) وبعض التغييرات السياسية في جنـوب شرقي آسيا . وقبل الثورة ايضا أكد لينين حقيقة انتهاء حركات التحرر ــ الوطني في الغرب وانفجارها في الشرق . واشار الى وجود بورجوازية آسيوية بامكانها النضال باخلاص وثبات من اجل ديمقراطية حقة وشبه دور وموقع قادتها بدور وموقع القادة والمفكرين السياسيين الفرنسيين العظام في اواخـر

---

(٣) في مقالي « اكتوبر والمسالة الكردية » (ترجمـــة الاستاذ محمـد المـلا عبدالكريم) اشرت الى اشتراك مندوبين عرب في المؤتمر (راجـع : « الثقافة الجديدة » ، تشرين الاول ١٩٧١ ، ص ١٦٩) .

القرن الثامن عشر ، اي في مرحلة انفجار الثورة الفرنسية البورجوازية الكبرى وانتصارها[٤] .

بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية واثر التغيير الكبير الذي طرأ على تناسب القوى الطبقية على الصعيد العالمي وبحكم المد العارم في النضال الثوري الذي شمل بعد انتهاء الحرب جميع شعوب الشرق المجاورة للدولة الاشتراكية الاولى اصبح لزاما تعميق التحليل النظري ـ واحيانا في اطر جديدة ـ لواقع الشرق الجديد . وهذا ما حققه لينين كمنظر وكرئيس اول دولة اشتراكية بنجاح . فقد رأى لينين بثاقب نظره ان الثورة الاشتراكية والحركة العمالية في البلدان الرأسمالية المتطورة لا تشكلان وحدهما البعد المتكامل للنضال الثوري الناجح ضد الاستعمار الذي بدأ يعاني كثيرا من عنصر ثوري ثالث مهم هو حركات التحرر ـ الوطني للشعوب المضطهدة ، فبدأ بالكشف عن اهمية الروابط المنطقية بين العناصر الثلاثة في عالمنا المعاصر ووضع الاسس النظرية والعلمية لتحويل التحالف بينها الى قوة هائلة من شأنها وضع نهاية حتمية للاستعمار .

من هذه الزاوية بدأ لينين خلال عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ دراسة عميقة مركزة لظروف شعوب العالم الثالث واعطى شعوب الشرق المضطهدة مكانة خاصة في دراساته تلك التي صاغها في عدد من المقالات والخطب ولا سيما في كتابه المعروف « مرض الطفولة (اليساري) في الشيوعية » الذي الفه ونشره في ربيع عام ١٩٢٠ . وفي جميع هذه الدراسات كان لينين يؤكد باستمرار على اهمية النضال السياسي بين شعوب البلدان المستعمرة كما حدد فيها ابعاد واسلوب ذلك النضال بشكل واضح . فلم ينته عام ١٩١٩ حتى حدد أمام مؤتمر حزبي مهم احدى اهم مهمات المرحلة الجديدة بالاسلوب التالي : « والآن تقف امام جمهوريتنا السوفيتية مهمة حشد جميع شعوب الشرق ،

---

(٤) راجع ف . ي . لينين ، المؤلفات الكاملة ، الجزء ـ ٢١ ـ ، ص ٤٠٢ (باللغة الروسية) .

التي بدأت تستيقظ ، حولها لكي تناضل معها ضد الاستعمار العالمي »[٥] •
وفي الوقت نفسه اعتبر التحالف المتين بين الطبقات العاملة في جميع البلدان مع شعوب الشرق المناضلة الشرط الاساس للانتصار على الامبريالية بشكل حاسم •

وكان على لينين عرض افكاره الجديدة حول المسألة الكولونيالية على « الكومنيتيرن »[٦] الذي تشكل في آذار من عام ١٩١٩ وذلك بغية صياغة شعارات نهائية للنضال في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الاولى • ومن اجل ذلك كتب بنفسه بحثا خاصا عن المسألة القومية والكولونيالية قدمه الى المؤتمر الثاني للكومينتيرن الذي انعقد في تموز ـ آب ١٩٢٠ واشترك فيه الى جانب ماركسيي الغرب عدد غير قليل من ماركسيي الشرق (من الهند والصين وايران وتركيا وغيرها) • وقد وضع لينين امام المؤتمرين الخطوط العريضة للتاكتيك والستراتيج الجديدين الواجب اتباعهما في المجال الاهم لنضال القوى الثورية المعاصرة ، اي في الصراع ضد الاستعمار ، وجعل نضال شعوب الشرق الركن الاساسي الثالث لبنيان ذلك الصراع مع تأكيد خاص على ضرورة ايجاد علائق تحالفية وثيقة معه • فجاء في بحثه بالنص : « تصبح الحركة الثورية في البلدان المتقدمة مجرد خديعة بدون اتحاد قوي وشامل بين نضال العمال ضد رأس المال في اوروبا وامريكا ونضال مئات مئات الملايين من عبيد « المستعمرات » المضطهدين من قبل نفس رأس المال »[٧]• وبعد فترة وجيزة ذهب لينين الى حد ابعد حتى من ذلك عندما ربط في احدى وثائقه « مصير كل الحضارة الغربية » الى حد عظيم بـ « جذب جماهير الشرق الكادحة الى الحياة السياسية »[٨] •

---

(٥) المصدر نفسه ، الجزء ـ ٣٠ ـ ، ص ٣٢٩ •

(٦) « الاممية الشيوعية » وتعرف ايضا بـ « الاممية الثالثة » .

(٧) « المؤلفات الكاملة » ، الجزء ـ ٤١ ـ ، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ •

(٨) راجع : « لينين . حول الصداقة مع شعوب الشرق » ، موسكو ، ١٩٦١ ، ص ٢٣٧ (باللغة الروسية) .

ومن المفيد ان نشير الى ان آراء لينين حول الاهمية القصوى للنضال التحرري لشعوب الشرق اصطدمت بقصر النظر السياسي لبعض « اليساريين » من ماركسيي الشرق الاوائل من امثال المفكر الهندي م • ن • روي الذي حاول مع من شاطره الرأي اضفاء صفات المجتمعات الرأسمالية المتطورة على الواقع المتخلف للمجتمعات الشرقية ليجعلوا منها (اي من تلك الصفات) منطلقا تبريريا لارائهم الخاطئة حول نضج شروط انتصار الثورة الاشتراكية في الشرق • وعلى هذا الاساس ايضا اهملوا دور الفلاحين الذين اعتبرهم لينين بحق « الطريق الذي يمكن من خلاله ايجاد مفاتيح سماء الشرق »[٩] • كما انهم انكروا من المنطلق نفسه الامكانات الثورية الكبيرة لدى الطبقة البورجوازية الشرقية النامية واعتبروا حركات التحرر ــ الوطني ظاهرة رجعية باعتبارها جزءا من مرحلة تأريخية سبقت عصر انتصار الثورات الاشتراكية ونظروا بمنظار واحد تقريبا الى الرأسمال الوطني في الشرق والرأسمال الاحتكاري في الغرب فدعوا الى النضال ضد الاول منهما ايضا وبذلك غضوا الطرف بشكل فظيع عن واقع الوضع في بلدان الشرق الذي كان يحتم توجيه النضال الداخلي ضد بقايا تقاليد وعلاقات العصور الوسطى لا ضد رأس المال الوطني النامي الواقع بدوره تحت صنوف شتى من الضغوط التي كان من شأنها تحديد مجال تحركه وتطوره مما اكد عليه لينين بوضوح وربطه باسلوب خلاق بالشعور القومي البورجوازي بين شعوب الشرق المضطهدة فاعتبر انطلاقه امرا تأريخيا مبررا من جميع الوجوه[١٠] • وهو

---

(٩) يعتبر راي لينين في ذلك استمرارا لراي ماركس الذي راى في مسألة الارض « المفتاح الى سماء الشرق » ، وكان يقصد بذلك انه من خلال تحليل وفهم عميقين لتلك المسالة فقط يمكن الوصول الى تقييم نظري صحيح لواقع المجتمعات الشرقية .

(١٠) « المؤلفات الكاملة » ، الجزء ــ ٣٩ ــ ، ص ٣١٨ ــ ٣٣١ .

امر في غاية الاهمية لم يــدرك كنهه الى ذلــك الوقت العديد من ماركسيي الشرق[11] وحتى بعض ماركسيي الغرب كذلك •

الا ان هؤلاء الماركسيين « اليساريين » وقعوا في تناقض واضح فــي تقييماتهم ولا سيما في رأيهم حول نضج ظروف انفجــار الثورة الاشتراكية في بلدان الشرق على الاقل لانهم ربطوا مصيرها بانطلاق مسيرة الجيــوش الثورية المسلحة للكادحين من الاتحاد السوفيتي نحو تلك البلدان[12] • لذا كان من الطبيعي ان تصيب آراءهم هزيمة كبيرة فتبنى « الكومينتيرن » في مؤتمره الثاني[13] افكار لينين النظرية واعتبر النضال التحررى للشــعوب المضطهدة ركنا اساسيا في كيان الثورة العالمية فدعى الى جمــع الحركــات العمالية في البلــدان المتطــورة مــع حركــات التحرر ــ الوطني لشــعوب البلدان المتخلفــة والمســتعمرة في جبهــة موحــدة والى تبني الاحــزاب التقدمية في الاولى موقفا صريحا وحازما ضد السياسة الاستعمارية لحكومات بلدانها • ومن المهم ان نشير بهذا الصدد الى ان « الكومينتيرن » وضع فــي مؤتمره الثاني ٢١ شرطا لقبول اي حزب يرغب في الانتماء اليه ، وقد الــزم الشرط الثامن منها احزاب بلدان الميتروبول الوقوف بثبات ضد ســياسة « حكوماتها » الكولونيالية وان تساند « بالعمــل لا بالقــول جميع حركات التحرر ــ الوطني في المستعمرات •• » •

من هذه المنطلقات برز شــعار سياسي جديد الى الوجود : « يا عمال العالم وايتها الشعوب المضطهدة اتحدوا ! » الذي كان في واقعه تطويرا ذكيــا

---

(١١) راجع : « الكومينتيرن والشرق » ، من منشورات اكاديمية العلــوم السوفيتية ، موسكو ، ١٩٦٩ ، ص ٩٩ــ١٠٠ (باللغة الروسية) .

(١٢) للتفصيل راجع : ر . أ . اوليا نوفسكي ، نضال الكومنتيرن من اجــل ستراتيج وتاكتيك لينيني في حركات التحــرر الــوطني ، في كتــاب « الكومينتيرن وتقاليده الثورية » ، موسكو ، ١٩٦٩ ، ص ١١٦ ــ ١٣٩ (باللغة الروسية) .

(١٣) يعتبر من اهم مؤتمرات « الكومينتيرن » ، اشتركت فيــه ٦٧ منظمــة سياسية من مختلف انحاء العالم ٢٧ منها فقط كانت احزابا شيوعية.

متوافقا مع روح العصر لشعار الاممية الاولى « يا عمال العالم اتحدوا ! » الذي ورد في « البيان الشيوعي » لماركس وانجلس . وقد دافع لينين عن صحة الشعار بقوله : « ... من وجهة نظر (البيان الشيوعي) يعتبر هذا (اي الشعار الجديد) غير صحيح بالطبع ، ولكن (البيان الشيوعي) كتب في ظروف اخرى تماما . اما من وجهة نظر السياسة المعاصرة فانه صحيح . لقد احتدمت العلاقات ، فكل المانيا تفور ، وكل آسيا تفور .. »[14] . ومن الجدير بالذكر هنا انه في هذه المرحلة المبكرة بالذات ومن خلال مثل هذا التقييم النظري لظروف الشرق ظهرت لاول مرة فكرة امكانية التطور اللارأسمالي الذي تحول اليوم الى عامل حاسم في حياة العديد من شعوب العالم الثالث كما اصبح شعارا رئيسا لاحزاب ثورية مختلفة[15] .

اذن فان شعوب الشرق تحولت برفضها الثوري الرائع للقمقم الذي بذل المستعمرون طيلة عشرات السنين جهودا بالغة من اجل وضعها فيه ، تحولت الى قوة ثورية هائلة يجب ان يكون لها مكانها الخاص في جميع الحسابات السياسية لاي نضال ناجح ضد الامبريالية العالمية ، وهو ما قدره لينين و « الكومينيتيرن » بشكل صحيح . وليس مؤتمر شعوب الشرق في باكو سوى احد مظاهر ذلك التقدير الواقعي . فقد اتخذ « الكومينيتيرن » في مؤتمره الثاني قرارا خاصا حول ضرورة عقده بأسرع ما يمكن . فلم يمض اكثر من اسبوعين على انتهاء اعمال الاخير حتى افتتح في اليوم الاول من ايلول ١٩٢٠ اول مؤتمر لشعوب الشرق في مدينة باكو عاصمة اذربيجان السوفيتية تحت شعار « يا عمال العالم وايتها الشعوب المضطهدة اتحدوا ! » . وكان لاختيار باكو دون سائر المدن الاسيوية السوفيتية مغزاه السياسي . فهي نقطة التقاء بين القارتين اوروبا واسيا وهي مدينة شرقية عريقة ومركز

(١٤) « المؤلفات الكاملة » ، الجزء - ٤٢ - ، ص ٧١ - ٧٢ .

(١٥) يعتبر المؤلف السوفيتي ك . تروبانوفسكي اول نظري تطرق بوضوح الى هذه القضية المهمة في كتابه الذي اصدره في العام ١٩١٨ تحت عنوان « الشرق والثورة » (باللغة الروسية) .

بروليتاري مهم جمع بين عمال شتى الامم من الشرق والغرب ، كما شهدت لتوها أول اندحار كبير للرأسمالية في الشرق •

من وقائع المؤتمر :

تتوفر ، كما ذكرنا ، مصادر قليلة عن « المؤتمر الاول لشعوب الشرق »[١٦] الذي ورد اسمه ايضا كـ « مؤتمر باكو لشعوب الشرق » و « مؤتمر شعوب الشرق الادنى الثورية » و « مؤتمر المنظمات العمالية ـ الفلاحية في الشرق الادنى » الا انه دخل التاريخ باسمه الاول •

اتخذ قرار عقد المؤتمر في اواخر حزيران ١٩٢٠ من قبل « اللجنة التنفيذية للكومينتيرن » باشتراك عدد من اعضاء الوفود التي وصلت موسكو للمساهمة في اعمال المؤتمر الثاني للكومينتيرن • وبهذه المناسبة توجهت اللجنة بنداء[١٧] في ٢٩ حزيران ١٩٢٠ « الى الجماهير المضطهدة في ايران وارمينيا وتركيا » ، بينما خاطب مضمونه جميع شعوب الشرق على اساس ان مهمة المؤتمر ستكون « توحيد نضال عمال الغرب وفلاحيه مع نضال شعوب الشرق ضد العدو المشترك » • وتوجه النداء الى شعوب الشرق ايضا بالقول : « ستأتي اللجنة التنفيذية للكومينتيرن الى باكو ممثلة العمال الانكليز

---

(١٦) تقتصر تلك المصادر ـ حسب معلوماتنا ـ على ما ذكرته صحيفة « كومونيست » الباكوية وبعض صحف العاصمة عن وقائع المؤتمر والمجلة الوحيدة التي صدرت بقرار منه باسم « شعوب الشرق » وقد نشرت فيها اهم الوثائق التي اقرها المؤتمر وكذلك كتاب خاص نشره المستشرق السوفيتي زاخاروفيتش سوركين في عام ١٩٦١ بعنوان « المؤتمر الاول لشعوب الشرق » (يقع في ثمانين صفحة) و الجزء الثالث ـ القسم الاول ـ من « تاريخ اذربيجان » ، باكو ، ١٩٦٣ (ص ٢٥٩ ـ ٢٦٢) مع بعض المعلومات العرضية التي وردت في كتب ودوريات كرست بالاصل للبحث عن « الكومينتيرن » والسياسة اللينينية نحو الشرق مع دراسات اخرى قليلة جدا ، بعضها باللغات الاوروبية الغربية مثل "Le premier Congrés des Peuples de l'Orient", Petrograd, 1921.

(١٧) وقع النداء ممثلو الاحزاب الغربية ايضا •

والفرنسيين والامريكان والالمان والطليان ، للتداول معكم حول سبل توحيد جهود البروليتاريا الاوروبية مع جهودكم للنضال ضد العدو المشترك »[١٨].

يبدو الاهتمام المتزايد من جانب السلطة السوفيتية وقيادة «الكومينتيرن» بمؤتمر شعوب الشرق من خلال الشخصيات السياسية التي عهدت اليها مهمة تنظيم انعقاده . فقد ترأس « لجنة تحضير المؤتمر » الجورجي گ . ك . اردجونيكيدزه الذي يعتبر من قادة ثورة اكتوبر البارزين والذي تقلد مناصب حزبية ورسمية حساسة منها وزارة الصناعة الثقيلة . اما اعضاء اللجنة فكانوا الشخصية الارمنية والسوفيتية المعروفة ميكويان ورفيقة لينين في النضال ايلينا ستاسوڤا الروسية ونريمان نريمانوف كربلائي ـ نجف اوغلو السياسي الاذرى البارز الذي اصبح اول رئيس لدولة اذربيجان السوفيتية واخيرا سعيد ابراهيموڤيج جابييف الذي كان من الشخصيات الثقافية والسياسية المعروفة في داغستان .

كان من المقرر ان يشترك في المؤتمر ٣٢٨٠ مندوبا يمثلون مختلف شعوب الشرق . لكن اولى الارقام عن عدد المشتركين فيه ظهرت في جريدة « كومونيست » الباكوية التي ذكرت ان عددهم بلغ ١٨٩١ شخصا . وذكرت الجريدة نفسها ان من بينهم ثلاثة مندوبين عرب[١٩] . وقد دخلت هذه الارقام مع غيرها في معظم الادبيات المنشورة عن اعمال المؤتمر ونتائجه . ولكن الدراسة الجدية المقارنة التي اجراها المستشرق سوركين بينت الارقام التالية التي هي اقرب الى الصحة ، بحكم شواهد مقنعة ، من جميع الارقام الاخرى :

بلغ عدد المشتركين في المؤتمر ما لا يقل عن ٢٠٥٠ شخصا كان يوجد بينهم ١٠٧١ شيوعيا . اما الاكثرية الساحقة من بقية المشتركين فكانوا من غير الحزبيين . كما كان يوجد بينهم اناس ينتمون الى احزاب وجماعات متباينة

---

(١٨) نص النداء منشور في مجلة : « الاممية الشيوعية » ، موسكو ، العدد ـ ١٢ ـ ، ١٩٢٠ ، ص ٢٢٦١ ـ ٢٢٦٢ (باللغة الروسية) .

(١٩) « كومونيست » ، باكو ، ٢٠ ايلول ١٩٢٠ (باللغة الروسية) .

كالفوضويين والثوريين الايرانيين والاشتراكيين الثوريين واحزاب بورجوازية صغيرة اخرى . ومن حيث الانتماء الطبقي كان يوجد بين المؤتمرين ٥٧٦ عاملا و ٤٩٥ فلاحا و ٤٣٧ مثقفا بينما لم يشر ٥٤٢ مندوبا الى مهنهم . اما من حيث الانتماء القومي فقد انقسم المؤتمرون على النحو التالي : الاذربيجانيون ــ ٣٣٦ ، الاتراك ــ ٢٧٣ ، اللزگين (في شمال القفقاس) ــ ٢١٨ ، الفرس ــ ٢٠٤ ، الارمن ــ ١٦٠ ، الجورجيون ــ ١١٠ ، الروس ــ ١٠٩ ، الاوزبكيون ــ ٩٠ ، الچاچان (في شمال القفقاس ايضا) ــ ٨٥ ، القرغيز ــ ٧٧ ، التتر ــ ٧٠ ، الهنود ــ ١٤ ، الاكراد ــ ٨ ، الصينيون ــ ٧ ، العرب ــ ٦ . أما بقية المندوبين فكانوا ينتمون الى ثلاثين قومية اخرى . وكان نصيب المرأة في المؤتمر ٥٣ مندوبة[٢٠] .

اذن مثل العرب في المؤتمر ستة مندوبين لا ثلاثة كما ورد في مقال الاخ زهير وفي معظم المصادر الاخرى[٢١] . ولا شك في ان الرقم الاول ، اي الستة ، هو الصحيح . فان وصول المندوبين الى المؤتمر استمر بعد افتتاحه ايضا ، كما يبدو . وهنالك دليل مادي مهم يشير الى ان المشتركين من العرب كانوا حتما اكثر من ثلاثة اشخاص ، لان اهم وثيقة نشرت عن المؤتمر بعد انتهاء اعماله هي البيان الذي وجهه الى شعوب الشرق والذي جاءت في مستهله اسماء ٢٦ بلدا شرقيا اشترك ممثلوها في المؤتمر من بينها اسماء اربعة اقطار عربية هي مصر الذي جاء أسمها على رأس القائمة بعد تركيا وايران واحتلت اسماء شبه الجزيرة العربية وسوريا وفلسطين فيها الارقام ١١ و ١٢ و ١٣ بالتسلسل[٢٢] .

---

(٢٠) راجع ك . ز . سوركين ، مؤتمر شعوب الشرق الاول ، موسكو ، ١٩٦١ ، ص ٢١ــ٢٢ (باللغة الروسية) .

(٢١) وقعت بدوري في نفس الخطأ غير المقصود في مقالي آنف الذكر حيث ذكرت وبالاستناد الى جريدة « الكومونيست » ان عدد المندوبين العرب الى المؤتمر بلغ ثلاثة اشخاص فقط .

(٢٢) راجع مجلة : « شعوب الشرق » ، العدد الاول ، تشرين الاول ١٩٢٠ ، ص ٥٧ (باللغة الروسية) .

ولكن حتى في هذه الحالة لا يتفق العدد مع الحجم الحقيقي للعرب كاكبر شعب في الشرقين الادنى والاوسط وكشعب بلغ نضاله التحرري آنـــذاك شأوا ابعد بكثير عما بلغه نضال معظم الشعوب الممثلة في المؤتمر ، واخـيرا كشعب وجدت احداث ثورة اكتوبر صدى بعيدا بين مثقفيه ولا سيما بعـــد نشر السلطة السوفيتية لبنود معاهدة سايكس ــ بيكو السرية ولعوامل اخرى نأتي على تفاصيل قسم منها فيما بعد • وتوجد بـين ايدينــا بعض التبريرات المنطقية لهذه الحقيقة • فاولا كما يبدو من الوثائق التحضيرية للمؤتمر اولى المشرفون عليه اهتماما خاصا ببعض شعوب المنطقة المجاورة للدولة الاشتراكية الفتية كالاتراك والفرس والارمن[٢٣] ، فنـداء « اللجنـــة التنفيذيـــة للكومينيتيرن » كان موجها ، كما ذكرنا ، اليهم بالذات •

وحسبما يبدو ازداد الاهتمام بالعرب اثناء التحضير للمؤتمر خاصة بسبب انفجار « ثورة العشرين » العراقية في تلك الايام بالذات والتي وجدت صدى واسعا لها في الصحافة الأوروبية بما فيها الصحافة السوفيتية، بحيث أصبح موضوعها يحتل مكانة خاصة في اهم وثيقة اصدرها المؤتمر • ولكن عاملين متلازمين آخرين بدءا يؤثران آنذاك في الموقف • اولهما عامل الزمن الـذي لعب دورا واضحا في ان اكثر من ثلث العدد المتوقع من المندوبين لم يستطيعوا الوصول الى باكو في الوقت المحدد ، وكان هؤلاء على الاكثر ينتمون الى البلدان الشرقية غير السوفيتية[٢٤] • اما العامل الآخر والاهم فيتعلق بالموقف المتشدد الذي اتخذه الاستعماريون من المؤتمر ومحاولاتهم الجدية للحيلولة دون وصول المندوبين الى مكان عقده • فمثلا ان بعض السفن الانكليزيـة قامت خصيصا بحراسة شواطيء استانبول والممرات لمنع ذهاب الوفود مـن

---

(٢٣) اثناء عقد المؤتمر لم تكن السلطة السوفيتية قد اسست في ارمينيا الشرقية بعد فقد كان يحكمها الداشناقيون ، حتى ان ممثلي ارمينيا اضطروا للحضور الى باكو بشكل سري وبعد صعوبات جمة جابهتهم في الطريق •

(٢٤) هذه وغيرها من استنتاجاتي الخاصة استنبطتها من وثائق المؤتمر ، آمل ان اتمكن مـن تعميقها في المستقبل او يقوم بتطويرها آخرون •

تركيا الى باكو وبعد انسحابها الاضطراري فقط ، وذلك بسبب شدة العواصف ، استطاعت تلك الوفود الافلات من قبضتها والابحار بصعوبة بالغة الى السواحل السوفيتية من البحر الاسود . ومن جانب آخر قامت الطائرات الانكليزية بقصف السفينة التي كانت تقل الوفد الايراني في عرض بحر الخزر مما ادى الى استشهاد اثنين من المندوبين وجرح عدد آخر منهم(٢٥) . بالاضافة الى ذلك فان اذربيجان الشمالية ، حيث عقد المؤتمر في عاصمتها ، كانت محاطة باعداء الثورة من جميع الجهات . فقد كانت ارمينيا الشرقية في حوزة الداشناقيين ، وكانت جورجيا بيد المناشفة ، وكان الصراع دائرا في منطقة گيلان المجاورة بين الثوار واعدائهم . حتى ان وفود هذه المناطق بلغت مكان المؤتمر بصعوبة بالغة . ومن الجدير بالذكر ايضا ان الانكليز دبروا في تلك الفترة اغتيال ٢٦ من قادة ثورة اكتوبر في منطقة القفقاس وقد جرى تشييع رفاتهم في باكو ايام المؤتمر بالذات . وكما يروي السياسي التقدمي الكردي الاستاذ اسماعيل حقي شاويس الذي عاصر المؤتمر ان الكثيرين كانوا يرغبون في الاشتراك فيه لولا الاجراءات التي اتخذت للحيلولة دون ذلك(٢٦) . اذن من المتوقع جدا ان عددا اكبر من العرب كانوا سيحضرون المؤتمر لولا العوامل التي تطرقنا اليها .

لكن من هم هؤلاء العرب الستة الذين ساهموا في اعمال مؤتمر شعوب الشرق ؟ . حاول صاحب هذه الاسطر في حينه معرفة ذلك دون جدوى ، الا ان الشيء الوحيد الذي نستطيع الجزم فيه هو انهم كانوا من مصر وفلسطين وسوريا وشبه الجزيرة العربية(٢٧) . ولا يستبعد ابدا ان قسما منهم كانوا من

---

(٢٥) ك . ز . سوركين ، المصدر نفسه ، ص ٢٠-٢١ .

(٢٦) راجع مجلة « العهد الجديد » (باللغة الكردية) ، السليمانية ، العدد الاول ، آذار ١٩٦١ ، ص ٢١ .

(٢٧) ورد في كتاب « لينين وحركة التحرر ـ الوطني في بلدان الشرق » ، موسكو ، ١٩٧١ ، ص ٤٨٥ (باللغة الروسية) ان « مندوبي مصر وسوريا ساهموا بشكل خاص في اعمال المؤتمر » .

الوطنيين العرب الذين كانوا لا يزالون يقطنون تركيا وربما انهم وصلوا باكو مع الوفد التركي • ومما يعزز مثل هذا الاعتقاد هو النشاط الواسع الـذي مارسه الماركسيون الاتراك ، ولا سيما مصطفى صبحي ، في سبيل انجـاح المؤتمر وحشد اكبر عدد ممكن من ممثلي مختلف شعوب الشرق للاشتراك في اعماله • وفي الواقع يوجد ايضا ما يبرر الى حد ما الاستنتاج الذي ذهب اليه فواز طرابلسي ومن بعده زهير احمد القيسي من احتمال كون الامير شكيب ارسلان واحدا من المشاركين العرب في المؤتمر ، وهو ما سنعود اليه فيما بعد •

افتتح المؤتمر نريمان نريمانوف الذي توجه الى المجتمعين بمثل هـذه الكلمات المعبرة : « ايها الرفاق : لقد حالفني الحظ ان افتتح اليوم اول مؤتمر لم يره ولم يسمع به العالم من قبل ــ مؤتمر شعوب الشرق • ان الشـرق العريق الذي كان الاول في منحنا مفاهيم الاخلاق والثقافة سيتحدث اليـوم عن الآلام والجروح العميقة التي جلبها له رأسمال البلدان البورجوازية على مدى قرون عديدة » • واكد نريمانوف في خطابه على ضرورة توحيد جهـود شعوب الشرق في النضال ضد الاستعمار والعبودية •

ناقش المؤتمرون قضايا مهمة وحساسة من قبيل «الوضع الدولي ومهمات جماهير الشرق الكادحة » و « القضية القومية والكولونيالية » و « المسألـة الزراعية » • ومن الجدير بالذكر ان المؤتمرين على اختلاف اتجاهاتهم ركزوا الهجوم في خطبهم وكلماتهم على الاستعمار الانكليزي بشكل خاص • وكـان ذلك امرا طبيعيا لان معظم شعوب الشرق كانت واقعة آنـذاك تحـت نير الاستعمار الانكليزي الذي كان لا يزال يشكل القوة الدولية الاعظم • وهو بالاضافة الى ذلك ، بذل جهودا اكبر من الدول الرأسمالية الاخرى في سبيل وأد الثورة الاشتراكية الاولى في مهدها •

وقد تعرضت الدول الاستعمارية الاخرى ، وبشكل خاص الولايـات المتحدة الامريكية وفرنسا ، الى هجوم كبير شنه عليها الممثلون الغربيـون انفسهم • وتأتي كلمة الصحفي والكاتب الامريكي المعروف جون ريد على

رأس الكلمات الرائعة التي قدمت الى المؤتمر والتي اصبحت بمثابة « انشودته الاخيرة » اذ وافاه الاجل في طريق عودته من المؤتمر فدفن في موسكو . وكما ذكر الاخ زهير بالضبط توجد في كلمة جون ريد « رؤية مبكرة واضحة لجشع رأس المال الامريكي ومطامعه في الشرق » فدعى شعوبه الى الحذر من مناورات « الاصدقاء » و « المحررين » الامريكان . « ان شعوب الشرق ـ ذكر جون ريد ـ جربوا على مدى سنين طويلة نير المستعمرين الانكليز والفرنسيين والطليان ، فيعرفونهم جيدا ، يعرفون جميع اساليبهم . الا انهم احتكوا قليلا بالاستعمار الامريكي فيجوز ان يصدقوا مبشريه من ان امريكا « الحرة » ستحرر المستعمرات وتحكمها باسلوب احسن ، ستقوم باطعام هذه الشعوب وبالدفاع عنها . كلا ! ! . ان عمال وفلاحي الفلبين وشعوب امريكا الوسطى مع جزر بحر الكاريبي يعرفون ماذا تعني الحياة في ظل امريكا « الحرة » . واعطى الكاتب الامريكي امثلة حية عن كوبا وهايتي ثم انتقل الى وضع الزنوج فقال : « يوجد في امريكا الشمالية نفسها عشرة ملايين من الزنوج الذين لا يتمتعون لا بالحقوق السياسية ولا بالحقوق المدنية مع انهم حسب القانون مواطنون متساوون » . وقد دعى جون ريد شعوب الشرق الاوسط بشكل خاص الى ان تكون في غاية الحذر من المخططات الامريكية بعيدة المدى[٢٨] . كان الكاتب على بينة بالطبع من نشاطات الامريكان في المنطقة خاصة بعد اعلان بنود الرئيس ولسن الاربعة عشر التي كرس بندها الثاني عشر للبحث عن مصير شعوبها[٢٩] والذي وجد صدى عميقا ، ولكن خاطئا ، في نفوس العديد من سياسي الشرق الادنى . وربما كان في هذا الواقع

---

(٢٨) مقتبس من : ك . ز . سوركين ، المصدر نفسه ، ص ٢٨-٣٢ .

(٢٩) نص البند راجع :

C.E. Black and E.C. Helmreich, Twentieth Century Europe, New York, 1950, p. 840.

ما دفعه للتركيز على الموقف الصحيح الذي يجدر بشعوب المنطقة تبنيه ازاء محاولات التغلغل الامريكي(٣٠) .

القى ممثلون غربيون آخرون سلسلة كلمات مهمة فضحوا فيها الاستعمار الغربي وحثوا على التحالف بين الشعوب المضطهدة في الشرق والقوى الثورية في الغرب . فقد تكلم المندوب الانكليزي كفيلج عن « اضطهاد الرأسماليين والامبرياليين الانكليز » لـ « مصر وعدد من البلدان الاخرى » وقال : « ان الطبقة العاملة الانكليزية لا تتحرك بسهولة ، لكنها اذا خطت الخطوة الاولى فما من قوة تستطيع الوقوف بوجهها » . وفي التقرير المفصل الذي قدمه راديك بعنوان « الوضع الدولي ومهام الجماهير الكادحة في الشرق » اشارات عديدة لاحداث الشرق الاوسط والنتائج التي تمخضت عن انتهاء الحرب العالمية الاولى بالنسبة لاقطاره . وبصدد العراق ذكر راديك :

« وكان الانكليز يتكلمون هم ايضا عن استقلال العراق . فاذا بنا امام مشهد رائع : لكي تنشيء الرأسمالية الانكليزية دولة مستقلة من مليونين ونصف المليون نسمة ، انفقت ربع مليار من الجنيهات السترلينية خلال عام واحد . لماذا كل هذا الكرم الحاتمي الانكليزي ؟ . يتعذر الاجابة على هذا السؤال الا اذا فهمنا النزاع بين الرأسمالية الانكليزية والرأسمالية الفرنسية . عندما سئل لويد جورج ، رئيس وزراء انكلترا ، البرلمان ما اذا كانت بلاده تسيطر على ثروات العراق واذا كانت الرأسمالية الانكليزية تملك في البلد امتيازات تبرر انفاق مبالغ بمثل هذه الضخامة ، أجاب لويد جورج بانه ليس لبريطانيا امتيازات في العراق ولا هي تطلب منه شيئا ، وانما تكتفي بالمحافظة على الامتيازات السابقة التي منحتها حكومة السلطان للرأسماليين الانكليز . لكن عندما اكتشف معنى هذا القول ، وهذا ما فعله بيشون ــ وزير

(٣٠) في الواقع اخطأ الكثيرون من سياسيي الشرق الادنى ومؤرخيه في تقييمهم لبنود الرئيس ولسن ، وقد اوضحنا ذلك بشيء من التفصيل في قسم آخر من هذا الكتاب .

خارجية فرنسا ـ اتضح ان الرأسماليين الانكليز يملكون كل آبار النفط في العـراق » .

وبعد عرض نماذج مشابهة ، مع تأكيد خاص على الدوافع الحقيقيـة « لاهتمام » الغربيين بالارمن ، تطرق راديك الى مواضيع تخص « الثورة في المستعمرات » و « تحالف القوى التقدمية في الشرق والغرب » وغير ذلـك من المواضيع . وفي تعليق له امام المؤتمرين ذكر ان على الرأسمالية العالميـة ان تدرك « انه بات عليها من الان فصاعدا ان تخوض معاركها خارج شوارع العواصم الاوروبية ، في أرياف ومدن آسيا حيث ملايين المضطهدين الذين عوملوا في الماضي كالعبيد وحرموا من ابسط الحقوق الانسانية »[٣٠أ] .

ويجدر بنا ان نشير الى وجود بعض التفاوت من حيث المستوى النظري بين كلمات ممثلي الاحزاب الغربية وبين تلك التي القاها قسـم من ممثلي شـعوب الشرق غير السوفيتي . فمثلا ورد في كلمة الممثل الهندي مثـل هذا الرأي : « بين التاريخ اكثر من مرة ان حرية الهند تعني حرية العالم ونهاية كل حرب » فان « جميع النزاعات الهامة التي تحدث في العالم سببها الحقيقي الهند ولا شيء سوى الهند » . كما وردت حتى افكار متخلفة في كلمات بعض المشتركين . فمثلا حاول فخرالدين شاكر ـ احد اعضاء الوفد التركي ـ تبرير موقف الدولة العثمانية في الحرب العالمية الاولى التي لم تبتغ ـ حسب قوله ـ من اشتراكها فيها تحقيق مصالح او طموحات خاصة . واكثر من ذلك كان يوجد بين المشتركين في المؤتمر السياسي التركي المعروف ، وزير الدفـاع

(٣٠ أ) حول نصوص هذه الكلمات وغيرها من وثائق المؤتمر يمكن الرجوع الى : « المؤتمر الاول لشعوب الشرق . باكو ١ ـ ٨ ايلول ١٩٢١ » ، ترجمة فواز طرابلسي ، بيروت ، ١٩٧٢ .

السابق والدكتاتور الحقيقي خلال سنوات الحرب انور باشا[٣١] الذي اراد استغلال المؤتمر لاهدافه الخاصة باسلوب انتهازي ، فحاول ان يظهر نفسه في ثوب الحليف المخلص للكومينتيرن كما ادعى انه يمثل « اتحاد المنظمات الثورية في المراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر وشبه الجزيرة العربية والهنــد » . وتباهى جلاد الشعب السابق باعتماده في (النضال) على الفئات الاجتماعية الكادحة وعلى رأسها الطبقة الفلاحية وحاول تبرير موقفه خــلال الحرب وقبلها . ويمكن ان يؤخذ هذا بحد ذاته كدليل على الصدى الكبير الذي تركه عقد المؤتمر في اوساط شرقية متباينة .

تعرض عدد من الخطباء في كلماتهم الى الموقف المعاصر لـ « الامميــة الثانية »[٣٢] من المسألة القومية والقضية الكولونيالية . فهذه الاممية « لــم

---

(٣١) هو القطب الرئيس في الثالوث الدموي ـ طلعت ، جمال السفاح ، انور ـ الذي حكم الدولة العثمانية قبيل الحرب وخلالها . معروف بسياســته الطورانية المتعصبة وبدوره الكبير في المجازر الرهيبة التي اصابت جميع شعوب الامبراطورية العثمانية دون استثناء . بعد انتهاء الحرب هرب من تركيا وحاول باساليب شتى العودة الى الحياة السياسية . انضم في العام ١٩٢١ الى الحركة المسلحة المتخلفة في اواسط اسيا التي ساندها الانكليز والامريكان وقتل هذا « الحليف » للكومينتيرن في معركة مع قطعات مــن الجيش الاحمر .

يدعي ابراهيم فخرائي ان المؤتمرين في باكو اســتقبلوا انور باشــا بحماس وهتفوا بحياته (ابراهيم فخرائي ، ميرزا كوجك خان ســـردار جنكل ـ مرزا كوجك خان زعيم الغابة ـ ، تهران ١٣٤٤ ، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨) ، لكن الواقع هو عكس ذلك تماما ، اذ اقتصر ذلك « الحماس » على عدد قليل جدامــن القوميين العاطفيين ، اما الاكثرية الساحقة مــن المؤتمرين فقد اتخذت موقفا معاديا صريحا منه وعبرت عن اســتيائها لوجوده في المؤتمر حتى ان هيئة الرئاسة اضطرت على الا تسمح له بالقاء كلمته التي قدمت اليها مدونة ونوقشت جوانب منها .

(٣٢) تشكلت « الاممية الثانية » في العام ١٨٨٩ . سيطرت الافكار الاصلاحيــة بالتدريج على الاتجاه السياسي لهذه الاممية فحدثت خلافات وانشقاقات جدية داخلها بحيث اختفت عن الوجود قبيل الحرب العالمية الاولى . بعد الحرب اعيد تنظيم « الاممية الثانية » التي اتخذت مواقف انتهازية من قضايا ملحة منها المسألة القومية . في بداية الحرب العالمية الثانية اختفت هذه الاممية كمنظمة دولية .

تكن ـ كما ورد في احدى الكلمات ـ بحكم طبيعتها قادرة على مساندة الحركة الثورية بين الشعوب المضطهدة في مراكش والجزائر وتونس وآسيا الصغرى وايران والهند ومصر وغيرها . وهي اكثر من ذلك لم تستطع ان تأخذ على عاتقها مهمة المبادرة في مسألة التحريك الثوري لقارتي افريقيا واسيا[٣٣] ، بل وحتى القيام بالدعاية للافكار التحررية بين الجماهير المعذبة في هاتين القارتين » .

اولى المؤتمر عناية خاصة بالمسألة الزراعية والعشائر المتنقلة ووضع الفلاحين الذين كانوا يشكلون آنذاك الجيش الرئيس للحركات الثورية في جميع اقطار الشرق ، كما خصص جانبا من اجتماعه الاخير لقضية المرأة الشرقية . وقد القت عضو المؤتمر التركية نجية هانم كلمة ذكرت فيها المجتمعين بان جميع جهود شعوب الشرق من اجل نيل الحرية والاستقلال لن تؤدي الى النتائج المرجوة بدون انعتاق حقيقي للمرأة يؤدي الى اشتراكها الفعال في النضال المشترك ، وقالت بالنص : « اما انتم ايها الرجال اذا كنتم تريدون تحرير انفسكم فاستمعوا الى مطالبينا وساعدونا باخلاص » . وهي لخصت المطاليب « بالمساواة التامة بين الرجل والمرأة في مجالات التعليم والعمل والادارة والتشريع وبالمساواة بين الزوج والزوجة مع الغاء تعدد الزوجات وتأسيس لجان خاصة في المدن والارياف للدفاع عن حقوق المرأة »[٣٤] . فيعتبر المؤتمر بذلك احد اهم المؤشرات الاولى في المنعطف التاريخي لتحرك نساء الشرق .

وفي اليوم السابع من ايلول ، اي خلال اجتماعه الاخير ، اتخذ المؤتمر عددا من القرارات المهمة كانت تتعلق بعقد اجتماعات دورية لـ « مؤتمر شعوب الشرق » وبتأسيس « مجلس الدعاية والعمل لشعوب الشرق » من ٤٨ عضوا والذي كان من المقرر له ان يصبح بمثابة لجنة تنفيذية تتمتع بصلاحيات

---

(٣٣) في النص : القارتين السوداء والصفراء .

(٣٤) ك . ز . سوركين ، المصدر السابق ، ص ٤٠ .

واسعة خلال الفترات التي تقع بين اجتماعات المؤتمر نفسه مثل تنظيم العمل الدعائي « في كل الشرق » واصدار مجلة وجريدة بالاضافة الى الكراريس والبيانات وفتح جامعة للعلوم الاجتماعية خاصة بالعاملين في الشرق وتوحيد ومساعدة حركات التحرر في بلدانه . وتقرر ان يجتمع المجلس كل ثلاثة اشهر مرة واحدة على الاقل . وقد تم في اليوم نفسه انتخاب اعضاء المجلس الذي دخل فيه بالاضافة الى الشخصيات البارزة في اللجنة التحضيرية للمؤتمر عدد آخر من الشخصيات من امثال كيروف واسماعيل حقي من تركيا وحيدر خان من ايران وغيرهم . وانتخب المجلس بدوره هيئة رئاسة مؤلفة من سبعة اعضاء .

اصدر « المؤتمر الاول لشعوب الشرق » في ختام اجتماعاته ثلاث وثائق مهمة هي « بيان المؤتمر الى شعوب الشرق » و « موضوعات في المسألة الزراعية » واخيرا « نداء مؤتمر شعوب الشرق الى عمال اوروبا وامريكا واليابان » . وقد وردت في البيان[٣٥] الذي يعتبر اهم وثيقة اصدرها المؤتمر خلاصة للافكار التي جاءت في الخطب والكلمات التي القيت حول ضرورة توحيد وتشجيع كفاح شعوب الشرق وربطه بنضال كادحي الغرب وفي فضح طبيعة الامبريالية العالمية التي خاضت الحرب العالمية الاولى « لا من اجل بلدان اوروبا ، لا من أجل بلدان وشعوب الغرب ، بل من أجل (السيطرة) على بلدان وشعوب الشرق » .

وفي هذا البيان ايضا تركيز خاص على الاستعمار الانكليزي واعماله في الشرق[٣٦] ، وفيه اشارات كثيرة الى الاقطار العربية واستشهادات مختلفة باحداثها . فان الحرب العالمية الاولى ـ كما يقول البيان ـ اندلعت من اجل ان « يتقرر ايا من الرأسماليين ، الانكليز او الالمان ، سوف يسلخ جلد

---

(٣٥) نص البيان منشور في مجلة « شعوب الشرق » ، العدد الاول ، ١٩٢٠ ، ص ٥٧ ـ ٦١ .

(٣٦) حتى ان خاتمة البيان جاءت بهذا الاسلوب : « لتشتعل النار الابدية لحرب شعوب الشرق وكادحي كل العالم المقدسة ضد الاستعمار الانكليزي » .

العمال والفلاحين الاتراك والايرانيين والمصريين والهنود » • وهي – اي الحرب – انتهت « لتصبح بريطانيا الاستعمارية السيد المطلق اليد في اوروبا وآسيا » • لكن « ماذا قدمت انكلترا للجزيرة العربية والعراق ؟ • انها اعلنت ان ثلاث دول اسلامية مستقلة قد تحولت الى مستعمرات تابعة لها • وطردت اصحاب الارض من العرب من اراضيهم وحرمتهم من اخصب وديان نهري دجلة والفرات ومن افضل المراعي الحيوية لمعيشتهم ، وسلبت اثمن الموارد النفطية في الموصل والبصرة • وهكذا حرم العرب من جميع موارد الرزق ، بينما تراهن بريطانيا على المجاعة التي يعانون منها لاخضاعهم واستعبادهم » •

بعد ذلك يتساءل البيان : « ما الذي تقدمه انكلترا لفلسطين ؟ • انها ارضاء لحفنة من الرأسماليين اليهود والانكليز طردت العرب من اراضيهم ومنحتها للمستوطنين اليهود • ولكي تؤمن في الوقت نفسه متنفسا لتذمر العرب ، سلطتهم على المستعمرات اليهودية التي انشأتها هي نفسها ، زارعة الخلاف والتذمر والبغضاء بين جميع القبائل » • و « ماذا قدمت انكلترا لمصر حيث سكانها يرزحون تحت نير الرأسماليين الانكليز منذ ثمانية عقود ، وهو نير اثقل من نير الفراعنة الذين بنوا الاهرامات الجبارة بجهود العبيد» • من هنا فان « قهر وخراب وبؤس وجهل شعوب الشرق هي موارد الثروة بالنسبة لانكلترا الاستعمارية » •

ويخاطب البيان شعوب الشرق قائلا : «انتم مالكو اغنى واخصب واوسع الاراضي في العالم • وهذه الاراضي ، التي كانت بالامس مهد البشرية ، قادرة ليس على اطعام سكانها وحسب وانما ايضا سكان العالم اجمع » • مع ذلك فان المستعمرين يحاولون « استخدام الفلاحين الشرقيين المحرومين كعمال زراعيين او كمجرد عبيد ، في تركيا وايران والعراق •• يريدون استغلال جوع الفقراء الاتراك والايرانيين والعرب لبناء المصانع وسكك الحديد والمناجم ••» لكن لن تمر مؤامراتهم لان لابد وان « يستعر اوار الجهاد المقدس لشعوب الشرق وكادحي العالم اجمع ضد انكلترا الاستعمارية » •

وفي المكان الذي يتحدث فيه البيان عن « استغلال الرأسماليين الانكليز » لطاقات« الفقراء الجياع من الاتراك والفرس والعرب » في سبيل بناء المعامل والسكك ولاستخراج المعادن بابخس الاثمان يشير ايضا الى حقيقة اقتصادية مهمة اخرى تحولت مع اندماج اقطار الشرق الادنى بالسوق الرأسمالية العالمية الى عامل مهم لتحريك الاحداث فيها وهي تتعلق بوضع الحرفيين الذين بدأوا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر يعانون الامرين من ضغط الرأسمال الغربي في شكل بضائعه الاكثر جودة والارخص سعرا التي حالت دون حدوث تطور طبيعي في الانتاج الصناعي المحلي بالاسلوب الذي حدث في الغرب . وقد ذكر بيان المؤتمر بهذا الصدد « انهم (أي الانكليز) يريدون بواسطة منتوجات المعامل ذات الكلفة الرخيصة خنق الانتاج الحرفي وملايين الحرفيين المحليين الذين يملؤون مدن الشرق .. » .

وردت في ختام البيان شعارات كثيرة تحث شعوب الشرق على « الجهاد المقدس » ضد الاستعمار والاستغلال ومن اجل التحرير وتؤكد على انضمام كادحي الغرب الى ذلك الجهاد . ومن بين تلك الشعارات ورد هذا الشعار : « انهضوا ايها العرب والافغان الذين ضيعكم الانكليز في البراري الرملية وعزلوكم عن العالم . هبوا الى النضال ضد العدو المشترك ــ الاستعمار الانكليزي » .

تطرقت الوثيقة الثانية « موضوعات في المسألة الزراعية »[٣٧] الى مختلف مشاكل فلاحي الشرق « الذين يشكلون الطبقة المنتجة الوحيدة التي تطعم بجهدها لا الملاكين فحسب بل ايضا كل البورجوازية والبيروقراطية والتي تعانى من بقايا النظام الاقطاعي والعلاقات المرهقة ومن التزامات الملاكين وضرائب الدولة وتعيش في ظروف لا تطاق من الخراب الكلي والجوع المستمر والديون المتراكمة والعمل من اجل الملاكين وجامعي الضرائب

(٣٧) نصها منشور في مجلة « شعوب الشرق » ، العدد الاول ، ١٩٢٠ ، ص ٣٩ ــ ٤١ .

والمرابين » • ومن هنا وبسبب « اضطهاد واستغلال فلاحي بلدان الشرق من جانب السلطة والرأسمال الأجنبي والملاكين المحليين » أصبحت « كل أشكال التطور والوجود الانساني » من الامور المتعذرة بالنسبة لهم •

وضعت « الموضوعات » حلولا عديدة لمشاكل الفلاحين التي لا يخلو قسم منها من بعض المثاليات بالنسبة لعصرها سواء من حيث محتواها أو من حيث اسلوب تحقيقها • ولكن من المهم ان نشير الى ان هذه الوثيقة هي الاولى من نوعها التي دعا ممثلو معظم شعوب الشرق من خلالها الى تغيير العلائق الاجتماعية القائمة وعدم الاكتفاء بالتحرر السياسي ، فجاءت صياغة موضوعتها الرابعة بالشكل التالي :

« ان تثبيت الاستقلال السياسي وحده في بلدان شرقية مثل تركيا وايران وافغانستان وغيرها وكذلك اعلان الاستقلال السياسي في مستعمرات كالهند ومصر وما بين النهرين وشبه الجزيرة العربية وغيرها لا يمكنه ان يؤدي الى انقاذ فلاحي شعوب الشرق من الاضطهاد والاستغلال والخراب • فما دام النظام الرأسمالي باقيا في اوروبا واسيا فان بلدان الشرق التي تتحرر من التبعية السياسية لبلدان الغرب الاستعمارية ، تبقى حتما بحكم تأخرها الصناعي في تبعية اقتصادية تامة لها وسوف تكون كالسابق حقلا لاستغلال الرأسمال المالي للبلدان الصناعية الأوروبية المرتبط (أي الرأسمال) باسلوب الاستغلال الرأسمالي للفلاحين والعمال » •

ومن المهم بهذا الصدد ان نشير ايضا الى ان المؤتمر رفع لاول مرة وبهذا الاسلوب شعار « الارض لمن يفلحها » في سماء الشرق ، ذلك الشعار الحيوي الذي تحول اليوم وبعد مرور اكثر من نصف قرن الى حقيقة واقعة تلعب دورا اساسا في تقرير مصير ومسار شعوب شرقية كثيرة • فقد دعا المؤتمرون الى ثورة زراعية حقيقية عن طريق وضع قانون موحد للارض يقضي بأن « يكون كل من يزرع قطعة أرض بجهده الخاص صاحبا لها ولما تعطي من منتوج »[٣٨]•

(٣٨) ك . ز . سوركين ، المصدر السابق ، ص ٣٨ . وقد ورد نفس الشيء في الفقرة الثالثة من « موضوعات في المسالة الزراعية » .

اما الوثيقة الثالثة « نداء مؤتمر شعوب الشرق الى عمال اوروبا وامريكا واليابان »[39] فانها تعكس بشكل واضح المنطلق النظري لعقد المؤتمر واهدافه . ففيها عرض للواقع المؤلم الذي تعيشه شعوب الشرق وفيها دعوة حارة الى توثيق عرى التحالف النضالي « لان باتحادنا نحن واتتم ـ كما ذكر النداء ـ نشكل قوة لا تقهر » . وقد جاء في مستهل النداء : « يا عمال انكلترا وامريكا وفرنساوايطاليا واليابان والمانيا والبلدان الاخرى ! ، استمعوا الى ممثلي ملايين شغيلة الشرق ! . استمعوا الى الصوت الكئيب الذي يتوجه اليكم من بلدان آسيا وافريقيا المغلوبة على امرها ، من تركيا وايران والصين ومصر وافغانستان وبخاري وخوى . لقد سكتنا على مدى سنين طويلة ، على مدى عشرات السنين . انكم لم تسمعوا صوتنا ولم يحدثكم احد عن واقع حياتنا وكيف نعاني من سيطرة اولئك الذين كانوا سادة عليكم .. » . وعندما يستعرض النداء مآسي الحرب العالمية الاولى يتوجه باسم ممثلي الشرق الى عمال تلك البلدان قائلا لهم :

« لقد ساعدتم أصحاب المعامل والبنوك في اجبارنا على الاشتراك فيهذه الحرب التي كانت موجهة ضدكم وضدنا . ان حراب الجنود الاوروبيين هي التي اجبرت فلاحي المغرب والجزائر على الموت جراء الرصاص او البرد او المرض في ساحات فلاندر ونورماندي وشمبانيا[40] ، ودفعت بفلاحي الهند الى الموت في رمال ميسوبوتاميا وشبه الجزيرة العربية ، والزمت الفلاحين على العمل الشاق في الصحارى من اجل الحملة الانكليزية التي كانت تحارب الاتراك . ان تلك الحراب حولت الفلاحين الهنود الى دواب[41] نقل يحملون فوق ظهورهم العتاد للجنود البيض في ميسوبوتاميا ... » .

---

(٣٩) نص النداء منشور في مجلة « شعوب الشرق » ، العدد الاول ، ١٩٢٠ ، ص ٦٢ ـ ٦٤ .

(٤٠) تقع جميعها في فرنسا وشهدت معارك طاحنة في سنوات الحرب العالمية الاولى .

(٤١) في النص : جمال .

ثم يعطي النداء امثلة وشواهد مختلفة عن الواقع المعاصر لشعوب المنطقة التي بدأت بعد انتهاء الحرب تعيش ظروفا اقسى في ظل سيطرة الاستعماريين . « ففي سوريا دنست[٤٢] احذية الجنرال الفرنسي البنيان الحديث للاستقلال السوري » . وفي مدن « الجزائر وطرابلس وعنابة يسود الحكـــم المطلق للجنرالات الفرنسيين كما كان عليه الامر قبل الحرب » . وبعد امثلة اخرى يعود النداء فيقول : « وهكذا لم تنم تيجة دماء العمال والفلاحين الاسيويين ، ودماء العمال والفلاحين الافارقة التي اريقت في هذه الحرب (يقصد الحرب العالمية الاولى) ، لم تنم شـجرة الحريـة بل ظهرت أعـواد المشـانق للمناضلين من اجل الحرية » .

ويرفض النداء باسم شعوب الشرق هذا الواقع المؤلم المنـافي للحـق والمنطق ويبين بهذا الاسلوب العزم الاكيد لشعوب المنطقة على النضال المثابر من اجل ضمان حقوقها العادلة فيقول : « هنا ، في باكو ، حيث ملتقى اوروبا واسيا ، اجتمعنا نحن ممثلي عشرات الملايين من فلاحي وعمال آسيا المنتفضين حتى نعرض على العالم جروحنا ، حتى نعرض عليه آثار السياط فوق ظهورنا وآثار القيود على ارجلنا وايدينا ، ورفعنا هاهنا خنـاجرنا واسـلحتنا[٤٣] وسيوفنا واقسمنا امام العالم الا نستخدم هذه الاسلحة ضد بعضنا ، بـل نستخدمها للنضال ضد الرأسماليين » .

هكذا انتهت اعمال « اول مؤتمر لم يره ولم يسمع به العالم من قبل » . وفي اليوم التالي من انتهاء المؤتمر ، اي في الثامن من ايلول ١٩٢٠ ، عقـد « مجلس الدعاية والعمل لشعوب الشرق » اول اجتماع له قرر فيه اصـدار مجلة « شعوب الشرق » الشهرية بأربع لغات هي الروسية والعربية والتركية والفارسية . كما قام المجلس فيما بعد بنشر محضر جلسات المؤتمر وبترجمة أهم قراراته الى اللغات العربية والفارسية والتركية حيث أرسلها الى عدد من

---

(٤٢) في النص : قلبت ، خربت .

(٤٣) في النص : مسدساتنا .

بلدان الشرق • واصدر ايضا عددا من الكراريس وافتتح دورة دراسية خاصة في باكو • وتقرر فيما بعد ايضا اصدار جريدة باسم « الشرق الاحمر »• وقبل ان ننتقل الى البحث في مصير المجلس وعوامل اختفائه يجدر بنا تحديد اهمية المؤتمر نفســـه •

موقع مؤتمر شعوب الشرق في التاريخ :

كان المؤتمر في الواقع حدثا فريدا من نوعه لم يشهد له الشرق مثيلا من قبل[٤٤] • وقد جاء عقده في وقت بلغ النضال التحرري لشعوب المنطقة احدى ذرواته التاريخية التي فرضت انعطافا جديدا في مسار ذلك النضال • ومـــن مزايا المؤتمر انه ضم بالاضافة الى ممثلي معظم شعوب الشرق ، ممثلين بارزين ايضـا من الغرب ، كمـا ضم ممثلي العديد من الاحزاب والاتجـاهـات ابتداء من اقصى اليسار الى اليمين البورجوازي ، وممثلي مختلف الاديان والمعتقدات • ومن المفيد ان نذكر هنا ان بعض المشتركين في المؤتمر كـانوا يحضرون اجتماعاته مع سجاجيدهم ويؤدون الصلاة داخل قاعاته • كمـا ان قسما من اعضاء هيئة الرئاسة ظلوا طيلة ايام المؤتمر يحتفظون بمسابيحهم في ايديهم[٤٥] • ولكن كان يجمع هؤلاء جميعا هدف واحد وشعور واحد هـــو معاداة الاستعمار وضمان الاستقلال لبلدانهم • وقد اعترفت بذلـــك حتى

---

(٤٤) عقدت قبل ذلك مؤتمرات اخرى الا انها كانت خاصة بشعب شرقي واحد او بجماعة شرقية واحدة كالمؤتمر العربي الاول الذي اجتمع بباريس فـــي حزيران عام ١٩١٣ ، أو مؤتمرات « العثمانيين الجدد » وفيمـا بعـد « الاتحاديين » في الخارج ، ولكن لم يبلغ اي منها التمثيل الواسع الذي بلغه مؤتمر شعوب الشرق ، ولم يتبنى اي منها شعارات ثورية تعتمـد الكادحين اساس تحقيقها كما فعل المؤتمرون في باكـو .

(٤٥) ك.ز. سوركين ، المصدر السابق ، ص ٢٢ . مما يلفت الانتباه هـــو ان المؤتمر راعى شعور المسلمين الى حد كبير ، وقد اكد بعض الخطباء على ضرورة مراعاة القيم الروحية لشعوب الشرق ، وورد اسم استانبول في بيان المؤتمر كمكان « مقدس لدى المسلمين » ، كما اشار بعض المؤتمرين الى فقرات من النداء الذي وجهه لينين بعد انتصار الثورة الى مسلمي روسيا والشرق .

صحيفة « سلوڤا» المنشفية التي اتخذت موقفا عدائيا صريحا تجاه المؤتمر[٤٦]. ويعتبر موقف المستعمرين من المؤتمر والذي اعطينا شواهد عنه في مستهل البحث ، يعتبر مؤشرا مهما لاهميته ولتخوف هؤلاء من نتائجه . واعترفت اوساط يسارية غربية فيما بعد بتأثير أفكار وقرارات المؤتمر ، ولا سيما ندائه المؤثر الى عمال اوروبا وامريكا واليابان ، على الرأي العام التقدمي في بلدانها.

ومن المهم ان نشير ايضا الى ان المؤتمر لعب دورا واضحا في فضح وعزل الافكار الخاطئة للماركسيين « اليساريين » الشرقيين ، ولا سيما ما يتعلق منها بنضج ظروف انتصار الثورة الاشتراكية في بلدان العالم الثالث المتخلفة وبتقليل دور الفلاحين والبورجوازية الوطنية في النضال الثوري وبتوقعاتهم اللامنطقية حول حتمية فشل حركات التحرر ـ الوطني وآراء اخرى كان من شأنها ان تدفع بتلك الحركات الى ممر مغلق ومنزلق خطر على الاقل بعزلها عن القوى التقدمية النامية في الداخل والاوساط الثورية في الخارج .

ولكن بالرغم من كل ذلك لايجوز النظر الى نتائج المؤتمر في اطار ضيق معزول . بل يجب تقييمها من خلال عملية اوسع ارتبطت معطياتها بانتصار أول ثورة اشتراكية في العالم على تخوم الشرقين الاوسط والاقصى بالذات . وفي الاطار العام يجب ان نأخذ بنظر الاعتبار التأثير الشامل الذي تركه المنطلق النظري الجديد لستراتيج الكومينتيرن . فالاهتمام المتزايد والصحيح بحركات التحرر ـ الوطني وبجميع اشكال النضال العادل والصارم الهادف للانعتاق من نير الاستعمار احدث انعكاسات واضحة واحيانا عميقة بين شعوب القارات الثلاث وخاصة آسيا المرتبطة من جميع الجهات تقريبا بقلب الكومينتيرن النابض . ولم يكن عبثا ان زعماء ومفكرين كبارا من امثال غاندي وسان يات سن وتاغور وغيرهم بدأوا يخصصون في حساباتهم ،

---

(٤٦) « سلوفا » (الكلمة) ، تبليس ، ٣١آب ١٩٢٠ (باللغة الروسية) (مقتبس من : ك.ز. سوركين ، المصدر السابق ، ص ٢٠) .

ولاسيما في افكارهم ، مكانا خاصا للاتجاه السياسي الجديد الذي بدأ يهب مع ريح اكتوبر •

وفي مجال اقرب منا يمكن ان نورد العديد من الامثلة التي تلقي الضوء بشكل او بآخر على الحقيقة نفسها • فقد وجدت بيانات الدولة السوفيتية الاولى وكشفها للمعاهدات الاستعمارية السرية الى جانب التحولات الثورية النوعية الكبيرة في اول موطن اشتراكي اثارا واضحة على افكار الناس ، وبخاصة المثقفين في بلدان الشرقين الادنى والاوسط والتي انتقلت انباؤها اليها بشتى السبل • فمثلا بعد انتصار الثورة بفترة وجيزة شكلت لجنة خاصة برئاسة الشخصية التركية مصطفى صبحي والتي قامت بترجمة وثائق مهمة صدرت عن السلطة السوفيتية الجديدة الى اللغات العربية والتركية والفارسية وغيرها ونشرت اعدادا كبيرة منها [47] مثل النداء الموجه الى مسلمي روسيا والشرق الذي تضمن نصوص معاهدة « سايكس ــ بيكو » السرية التي اعيد نشرها في بيروت مما هز الوطنيين الى حد كبير • يقول المؤلف المصري أمين سعيد بهذا الصدد : « فجأة وعلى حين غرة اذاع راديو موسكو •• نصوص الاتفاقات السرية •• لاقتسام العالم واضطهاد الشعوب •• واذاع راديو موسكو فيما اذاعه نصوص المكاتبات التي دارت بين روسيا وفرنسا وانكلترا حول اقتسام بلاد الدولة العثمانية ، كما اذاع معاهدة بطرسبرج •• واتفاق سايكس ــ بيكو • أي انه كشف كل شيء واثبت خيانة الانكليز للعرب ، وانهم يمكرون به »[48] •

ونورد هنا مجرد بعض الادلة المادية التي من شأنها القاء بعض الضوء على هذا الرأي • فبالنسبة للعراق مثلا ذكرت سكرتيرة الشؤون الشرقية في

---

(٤٧) راجع : « الكومينتيرن والشرق » ، ص ٦٦ـ٦٧ •
(٤٨) امين سعيد ، ثورات العرب في القرن العشرين ، دار الهلال ، بلا ، ص٥٠ •

دار الاعتماد البريطاني گيرترود بيل[٤٩] في وقت مبكر ان جميع قطاعات الشعب بدأت تتحدث عن أنباء ثورة اكتوبر[٥٠] . أما سون الذي كان في عام ١٩١٩ حاكما سياسيا في السليمانية فقد ذكر في رسالة سرية خاصة بعثها الى الحاكم العام البريطاني ارنولد ولسن ، ذكر بأسف واضح « ان الناس هنا اخذوا لسوء الحظ يتفهمون افكار البلاشفة »[٥١] . ولم يكن مجرد صدفة ان قام السيدان الشيخ الخالصي ومحمد الصدر وهما من قادة ثورة العشرين البارزين وقد ابعدا الى ايران بسبب معارضتهما للمعاهدة الانكلو ـ عراقية لعام ١٩٢٢ ـ بتقديم مذكرة الى الدولة السوفيتية الفتية هذا نصها :

« نحن الموقعين ادناه كبار زعماء ميسوپوتاميا الممثلين في لجنة الدفاع الوطني[٥١ أ] ، مقدرين الموقف الصادق لدولتكم تجاه الشعوب الصغيرة ، نرفع لكم المذكرة التالية لترفعوها بدوركم الى المؤتمر (يقصدون مؤتمر لوزان) . »

ان شعب ميسوبوتاميا باسره قلق بسبب خرق استقلاله جراء التدخل في شؤون بلاده[٥٢] وانه لا يوافق ابدا على معاهدة التحالف المعقودة في

---

(٤٩) كانت كيرترود بيل تعتبر من انشط المسؤولين السياسيين البريطانيين في العراق . لعبت ، الى ان وافاها الاجل في بغداد عام ١٩٢٦ ، دورا بارزا جدا في ادارة الحكم وكان لها دورها في تنصيب فيصل الاول ملكا على البلاد . كانت مطلعة الى حد كبير على نفسيات الناس وشؤون المنطقة التي زارتها خصيصا قبل الحرب العالمية الاولى . من هنا تكتسب آراؤها اهمية خاصة .

(٥٠) "The Letters of Gertrude Bell", Vol. II, London, 1927, p. 485.

(٥١) راجع :

A.T. Wilson, Mesopotamia 1917-1920. A Clash of Loyalities A Personal and Historical Record, London, 1930, p. 145.

(٥١أ) شكل السياسيون العراقيون الذين أبعدهم الانكليز الى ايران ، جمعية خاصة غايتها ادامة النضال ضد الوجود الانكليزي في العراق .

(٥٢) في النص : « في شؤون ميسوبوتاميا » .

١٠ تشـرين الاول عـام ١٩٢٢ والتي تبـقى لذلك مجـرد من المفعـول القانـوني •

ان اللجنة تبلغ عن طريق حكومتكم المحترمة مؤتمر لوزان الموقر انها تحتج ضد هذا التدخل اللاقانوني من قبل انكلترا • وفي الختام تعلن اللجنة بحزم ان شعب ميسوپوتاميا لا يخل ببذل اي تضحية في سبيل الدفاع عن استقلاله ووضع حد للارهاب الانكليزي والقضاء على هذه المعاهـدة الجائرة • الصدر ، الخالصي ، حلمي وآخرون • طهران ٣٠ تشرين الاول ١٩٢٢ » •

وحال استلام هذه المذكرة بعث وزير الخارجية السوفيتي چيچيرين بنصها مع رسالة خاصة الى رئيس الوفد التركي في مؤتمر لوزان عصمت اينونو ، وقد جاء في رسالته : « اتشرف بان اوجه اليكم طيا مذكرة زعمـاء الحركة الوطنية في ميسوپوتاميا والتي استلمت نصها من طهران الآن »(٥٣) •

توجد ظواهر متشابهة تتعلق بمصر وسوريا ولبنان بشكل خاص • ففي مصر شكل فلاحو بعض المناطق أثناء انتفاضـة عام ١٩١٩ تنظيمات خاصـة اطلقوا عليها كلمة « سوڤيت » • ومن بين الوثائق المختلفة والطريفة التي يوردهـا المستشـرق السـوفيتي المعـروف أ•ن• خيفتس في كتابـه « الدبلوماسية السوفيتية وشعوب الشـرق ١٩٢١ ــ ١٩٢٧ » بيان أصدره بعض الوطنيين السوريين الشباب في كانون الاول ١٩٢٠ جاء فيه : « ان سعادة واستقرار كل العالم انما يعتمدان على اتحاد العرب والبلشفيـك » واختتمه اصحابه بهذا الشعار : «فليعش اتحاد كل المسلمين مع البلاشفة»(٥٤)

---

(٥٣) « وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي » ، الجزء السـادس ، موسكو ، ١٩٦٢ ، ص ٧٨ ــ ٧٩ ، ٦٠٦ . (باللغة الروسية) .

(٥٤) أ . ن . خيفتس ، الدبلوماسية السوفيتية وشعوب الشرق ، ١٩٢١ ــ ١٩٢٧ ، موسكو ، ١٩٦٨ ، ص ٣٠٨ــ٣٠٩ (باللغة الروسية) .

ومن المهم ان نشير هنا الى انه انتقلت بفضل جهود التقدميين الغربيين بعض افكار وقرارات « الكومينتيرن » و « مؤتمر شعوب الشرق الاول » الى حيز التنفيذ العملي في اقطار مختلفة من اوروبا الغربية والتي مس قسم غير قليل منها حركات التحرر ــ الوطني في البلدان العربية بشكل مباشر . فمثلا ظهرت في فرنسا بشكل خاص حركة احتجاج منظمة واسعة ضد اعمال القوات الفرنسية ــ الاسبانية المتحالفة اثناء قمعها لانتفاضة الريف في مراكش خلال ١٩٢٤ ــ ١٩٢٦ وضد القوات الفرنسية التي قامت بقمع انتفاضة الدروز في سوريا في عام ١٩٢٥ ــ ١٩٢٧ . وتشكلت في برلين سنة ١٩٢٦ عصبة النضال ضد النير الكولونيالي التي دخل في عضويتها الى جانب ممثلي الاوساط التقدمية الغربية ممثلون عن البلدان المستعمرة بما فيها عدد من الاقطار العربية . واشترك ايضا ممثلون عن مصر وفلسطين وسوريا والمغرب وتونس والجزائر في اعمال مؤتمر بروكسل الدولي ضد الامبريالية الذي انعقد في عام ١٩٢٧ وفي عصبة معاداة الاستعمار التي تمخضت عن هذا المؤتمر وضمت في صفوفها عددا كبيرا من تقدميي الغرب ومناضلي آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . وقد مثل العرب في مجلس العصبة محمد حافظ رمضان من مصر وشاذلي خيرالله من قادة حزب « الدستور » التونسي[٥٥]. ومن الجدير بالذكر ان الامير شكيب ارسلان مثل سوريا في احد اجتماعات المجلس العام للعصبة وقد القى كلمة خاصة بالمناسبة قيم فيها عاليا شعور كادحي الغرب نحو الشعوب المستعمرة واشاد بدور لينين في خلق هذا الشعور[٥٦] .

ومن جانب آخر قدم السكرتير العام لجمعية « نجمة شمال افريقيا » التي كانت تضم في صفوفها بالاساس المهاجرين الجزائريين في فرنسا ،

(٥٥) للتفصيل راجع : « لينين وحركة التحرر ــ الوطني في بلدان الشرق»، ص ٤٨٥ .

(٥٦) ك . ز . سوركين ، عصبة معاداة الاستعمار ، موسكو ، ١٩٦٥ ، ص ٦٣ . (باللغة الروسية) .

قدم الى مؤتمر بروكسل مطاليب كثيرة من بينها منح الاستقلال للجزائر . وقد اعتبرت السلطات الفرنسية ذلك بمثابة « تعد على سيادة فرنسا في شمالي افريقيا » فجعلته حجة لمنع نشاط الجمعية داخل الجزائر نفسها(٥٧) .

وبالطبع خشيت الدول الاستعمارية والقوى الرجعية المحلية ظهور مثل هذا الاتجاه الجديد في الفكر وفي التحرك السياسي ، لذا التجأت منذ الايام الاولى لانتصار الثورة الاشتراكية الى اتخاذ اجراءات معاكسة وركزت بشكل خاص على ايجاد السبل التي من شأنها دق اسفين في العلاقات الجديدة التي ظهرت نواتها لتوها وخاصة عن طريق بذر روح الشك في النوايا والاهداف . وربما يكفي ان نورد في هذا المقام مقال امين سعيد الذي يذكر بصدد الكشف عن بنود « سايكس ـ بيكو » السرية ما يلي : « واسرع الحسين (أمير الحجاز) الى الانكليز يسألهم عن هذه المكاتبات والمعاهدات والاتفاقات ، وكان بالفعل لا يعرف شيئا عنها ، وكان ، لسوء الحظ ، لا يزال يثق بالانكليز ويثق باخلاصهم ومودتهم . وردوا فقالوا بدون حياء ولا خجل ان « البلشفيك » اخترعوا هذه المكاتبات والمراسلات بغية افساد العلاقات بين العرب والحلفاء »(٥٨) . ويقال ان العديد من ساسة العرب صدقوا هذه الفرية ومنهم فيصل الاول الذي ظل يعتقد بصحة « اللعبة البلشفية » الى ان بين له لورانس المشهور حقيقة الامر(٥٩) .

وفي الواقع توجد شواهد تاريخية اخرى كثيرة تبين الآثار التي تركها « مؤتمر شعوب الشرق الاول » في اطار التأثير العام للانقلاب الفكري

---

(٥٧) راجع :
Andre Nouschi, La naissance du nationalisme Algérien, Paris, 1962, p. 62.

(٥٨) ورد ذلك في كتاب رسمي بعثته وزارة الخارجية البريطانية عن طريق القاهرة الى الامير حسين (راجع : امين سعيد ، المصدر السابق ، ص ٥٠) .

(٥٩) الدكتور عبدالجبار العطيوي ، حول الابعاد الجديدة لسياسة الدول الاستعمارية في المشرق العربي ١٩١٨ ـ ١٩١٩ ، بحث غير منشور .

الجديد الذي انتقلت اشعاعاته الى مناطق شتى من العالم • ولكن مع ذلك تبقى مسألة مهمة تستحق بدورها التفاتة خاصة وهي تتعلق بمصير المؤتمر ومصير « مجلس الدعاية والعمل لشعوب الشرق » • فانتهى المؤتمر ولم يجتمع ثانية مع انه اتخذ قرارا بشأن اجتماعه الدوري[٦٠] ومع ان مؤتمرات « الكومينتيرن » استمرت بحيث بلغ عددها سبعة مؤتمرات الى حين حله في مايس عام ١٩٤٣ • ولم يصدر المجلس من مجلة « شعوب الشرق » التي تقرر ان تكون شهرية سوى عدد واحد فقط كرس عمليا لاعمال ووثائق المؤتمر • ولم ينشر جريدة « الشرق الاحمر » التي اتخذ قرارا خاصا بشأن اصدارها[٦١] • ولم يطبع من الكراريس والنشرات سوى عدد ضئيل جدا • كما اقتصرت الجامعة المزمع تأسيسها على دورتين قصيرتين للشغيلة المحلية فقط • واخيرا توقف المجلس عن النشاط قبل نهاية عام ١٩٢١ واتخذ قرارا بحله في بداية العام التالي •

توجد تفسيرات مختلفة لهذا الامر ، اهمها ما ورد في تقرير « مجلس الدعاية والعمل » الذي قدم الى « الكومينتيرن » في نيسان من عام ١٩٢١ والذي برر النتائج المحدودة لاعمال المجلس بعدم توفر الكادر المتمكن والتغيير المستمر في أعضاء هيئة رئاسته • أما گ•ز• سوركين فانه ، مع اعترافه بتأثير ما ورد في التقرير الا انه يرفض ان يجعل منه السبب الرئيس لانتهاء اعمال المجلس ويربط المسألة بمبالغة الاخير في تقدير واقع حركة التحرر ــ الوطني في بلدان الشرق وبمبالغته ايضا في تقدير قواه وامكاناته الذاتية • وتأييدا لرأيه يرجع المؤلف الى ما ورد في المقال الافتتاحي للعدد الاول من مجلة « شعوب الشرق » الذي جعل من « دراسة جميع الاحزاب

---

(٦٠) وعلى هذا الاساس بالضبط وصف مؤتمر باكو بالاول ، لان القائمين على امره كانوا يتوقعون ان تكون هناك مؤتمرات لاحقة اخرى كما كان الامر بالنسبة للكومينتيرن •

(٦١) حتى ان المجلس طلب من لينين شخصيا ان يشترك بمقال في تحرير العدد الاول من الجريدة •

الثورية » في جميع بلدان الشرق وتحليل مناهجها ووضع « اصوب السبل للتغيير والبناء الثوري » ضمن مهام المجلس والمجلة الرئيسية[٦٢] ، اي جعل من هذه المهمة الصعبة والمعقدة خاصة بالنسبة للظروف السائدة آنـــذاك بمستوى نفس المهام الطبيعية للمجلة مثل دراسة الحركات الثورية والظروف الاقتصادية ــ الاجتماعية في الشرق •

اما نحن فنرى في ما ورد في التقرير وما ذهب اليه سوركين جانبا واحدا من الحقيقة ، وهو لا ينكر جانباً مهماً • ولكن مع ذلك فأن الأمر ــ كمـا نعتقد ــ يتصل بقضايا ابعد واعمق عما ذهبا اليها نحاول ايجازها فيما يأتي :

قبل كل شيء يجب ان نأخذ بنظر الاعتبار حقيقة ان بعض الحركات الثورية اليسارية التي ظهرت في المنطقة بتأثير مباشر من افكار ثورة اكتوبر لم تؤد ولم تستطع ان تؤدي الى نتائج ملموسة في ظل تناسب القوى آنذاك وفي ظروف تكالب جيوش ١٤ دولة كبرى على اول موطن اشتراكي • وخير دليل تأريخي على ذلك هو مصير حركة الجنگليين بزعامة كوچك خــــان ، ونهاية جمهورية گيلان التي تأسست في بداية حزيران وسقطت في نهــــاية ايلول من السنة التالية[٦٣] •

ولكن الاهم من ذلك هو ان لينين قيم ، كما ذكرنا ، الواقع السياســي والاجتماعي لبلدان الشرق بشكل صحيح فبنى سياسة الدولة السوفيتيــة الخارجية نحوها على اساس دقيق راعى فيه جميع خصائص وشروط المنطقة ،

---

(٦٢) ك . ز . سوركين ، المصدر السابق ، ص ٤٤ ، مجلة «شعوب الشرق»، العدد الاول ، ١٩٢٠ ، ص ٣ .

(٦٣) ظهرت منذ عام ١٩١٢ حركة ثورية في منطقة كيلان الايرانية اتخذت من غابات المنطقة الكثيفة مركزا لنشاطها ، ومن هنا جاء اسمها المقتبس مــن كلمة « جنكل » التي تعني الغابة في الفارسية . تطورت هذه الحركــة بعد انتصار ثورة اكتوبر وانتهاء الحرب العالمية الاولى وتحالفت مع القوى الثورية الاخرى فنجم عن ذلك تأسيس جمهوريـــة كيلان التي رفعت شعارات لم تراع الى حد كبير ظروف الزمان والمكان مما تحول الى احد اهم عوامل سقوطها .

واقعها المعاصر وافاق تطورها . ومن هنا اعطى الجوانب الايجابية والتقدمية في القوى البورجوازية الشرقية النامية التي انتقلت اليها السلطة او التي كان من المتوقع ان تنتقل اليها السلطة حقها ووقف الى جانبها وحاول تطويرها ومساعدتها في نضالها العادل ضد السيطرة الاجنبية ولا سيما بعد ان انتقل الحكم في تركيا الى الكماليين وبعد ان حدثت في ايـران تطورات جديـة اسفرت عن انتهاء حكم الاسرة القاجارية فيه[٦٤] . وبفضل ذلك حققت اول دولة اشتراكية في ظروف صعبة للغاية نجاحات مشهودة في الشرق اذهلـت دهاقنة السياسة في الغرب . فرئيس « الجارة الجنوبية » المتأخرة افغانستان اصبح يرنو الى كل تقرب وتعاون مع الدولة الجديدة وقد ورد ذلك في وثائق مختلفة منها الرسالة الخاصة التي بعثها الملك امان الله خان الى « الصديـق السامي » لينين يقول فيها : « بما انكم ورفاقكم اصدقاء البشرية اخذتم على عاتقكم مهمة مشرفة ونبيلة في الدفاع عن السلم وسعادة الناس واعلنتم مبدأ حرية ومساواة جميع بلدان وشعوب العالم لذا اعتبر نفسي سعيدا ان اتوجه اليكم ولاول مرة بهذه الرسالة باسم الشعب الافغاني الـذي يرنو الـى التقدم ... »[٦٥] . وقد اتبع ذلك وبالرغم من جميع محاولات الانكليز ، التوقيع على معاهدة الصداقة والتعاون بين البلدين في ٢٨ شباط ١٩٢١ والتي تم بموجبها منح قرض بالعملة الصعبة واسلحة وبضائع اخرى الى افغانستان، كما تم قبلها نصب اول اذاعة فيه قدمت هدية اليه[٦٦] .

---

(٦٤) للمستشرق س . ل . اكايف آراء جديدة بهذا الصدد تستحق الاهتمام (راجع : س . ل . اكايف ، ايران في فترة الازمة السياسية ١٩٢٠ ــ ١٩٢٥ ، موسكو ، ١٩٧٠ (باللغة الروسية) .

(٦٥) راجع : « وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي » ، الجزء الثاني ، ص ١٧٤ ، « لينين . حول الصداقة مع شعوب الشرق » ، ص٣٧٩ .

(٦٦) للتفصيل راجع : « وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي » ، الجزء الثالث ، ص ٥٥٠ ــ ٥٥٣ ؛ « لينين . حول الصداقة مع شعوب الشرق » ، ص ٢٦٩ ، ٣٧٩ ، «لينين وحركة التحرر الوطني في بلدان الشرق » ، ص ٣٢١ــ٣٢٣ .

وبنفس المستوى تقريبا تطورت العلاقات السوفيتية ـ الايرانية • فلم تمض على انتهاء المؤتمر اكثر من اربعة اشهر عندما اعلن لينين عن ترحيبه بتوقيع معاهدة مع ايران لان « علاقات الصداقة معه مضمونة بحكم توافق المصالح الاساسية لجميع الشعوب التي تعاني من نير الاستعمار »[٦٧] • وهكذا تم في ٢٦ شباط ١٩٢١ التوقيع في موسكو على المعاهدة الايرانية ـ السوفيتية التي نصت من بين ما نصت على عدم تدخل اي من الجانبين في الشؤون الداخلية للجانب الاخر • كما تضمنت المعاهدة تنازل روسيا السوفيتية عن جميع المعاهدات والاتفاقات المعقودة من جانب القياصرة والتي من شأنها مس سيادة ايران بما فيها نظام الامتيازات وحقوق الحصانة التي كانت تمنح للدول الكبرى وجميع قروض وفوائد وممتلكات الدولة القيصرية ، بما في ذلك بنك الأثمان الايراني[٦٨] • ومن الجدير بالذكر ان اثمان الممتلكات والمؤسسات التي تنازل عنها الجانب السوفيتي بدون مقابل تقدر باكثر من مائة مليون روبل ذهب[٦٩] • وقد تطورت العلاقات الاقتصادية بين البلدين بعد عقد المعاهدة بوتائر سريعة •

خطت العلاقات السوفيتية ـ التركية خطوات ابعد حتى من ذلك بحيث اصبح مصطفى كمال اتاتورك على « قناعة تامة » بانه فقط « بالتعاون الوثيق » بين الطرفين يمكن « التوصل الى الاهداف المرجوة » وهو ما ورد نصا في برقية له بعثها الى لينين في ١٨ كانون الاول ١٩٢٠ والتي رحب فيها بكل ما يؤدي الى تعميق العلائق القائمة بين البلدين وختمها بالقول : « انني اشكركم الى ابعد الحدود على السياسة البعيدة النظر التي تبنتها الجمهورية السوفيتية بمبادرتكم السامية في الشرق كما في كل العالم »[٧٠] •

---

(٦٧) « المؤلفات الكاملة » ، الجزء ـ ٤٢ ـ ، ص ١٣٢ •

(٦٨) « وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي » ، الجزء الثالث ، ص ٥٣٦ ـ ٥٤٤ •

(٦٩) راجع : م • س • ايفانوف ، دراسة في تاريخ ايران ، موسكو ، ١٩٥٢ ، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ • (باللغة الروسية) •

(٧٠) « وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي » ، الجزء الثالث ، ص ٤٥٠ ـ ٤٥١ •

وبالفعل تم بهذه الروح التوقيع في ١٦ مـارت ١٩٢١ على « معاهـدة الصداقة والاخوة » بين الدولتين والتي رأى فيها لينين من جانبه وسـيلة مهمة لابعاد شبح « الحرب الابدية » عن منطقة القفقاس[٧١] . وقد تحول التعاون بين الجانبين الى احد العوامل الحاسمة لانتصار تركيا على تدخـل الدول الاوروبية التي حاولت خنق الحركة الكمالية بكل السبل . فقـام الجانب السوفيتي بتزويد تركيا خلال عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١ ، اي في احرج ايام نضالها ضد المتدخلين ، باكثر من ٣٩ ألف بندقية و٦٣ مليون طلقة و٥٤ مدفعا مع الذخيرة الكافية و ٢٠ الف قناع لمقاومة الغازات واسلحة اخرى متنوعة مع كميات كافية من البنزين والنفط ساعدت القوات الثورية التركية في توجيه ضربات متلاحقة الى المعتدين الاجانب[٧٢] .

اذن ما كان بالامكان ان تتفق مثل هذه العلائق وآفاق تطورها مـع اجتماعات « مؤتمر شعوب الشرق » الدولية ومع نشاطات « مجلس الدعاية والعمل » التي كانت تتخذ في ظروف المنطقة طابعا سريا حتما مما كان يثير بلا شك بورجوازية هذه الاقطار التي كانت تخوض نضالا شاقا وعادلا ضد الامبريالية . والى جانب كل ذلك ما كان بالامكان ان تتفق العلاقات الانفة الذكر مع العديد من الشعارات التي رفعها المؤتمر والمهمات التي صاغهـا في اطار سبق الزمن بكثير ، لذا لم يأت في توافق مع واقع الشرق ومستلزمات نضال شعوبه في تلك المرحلة التأريخية . وفي الواقع اذا اخذت المسألة مـن جميع جوانبها وفي اطار الزمان والمكان مع التأكيد على حقيقة تخلف الوعي بين الجماهير الكادحة لمعظم اقطار الشرق ان لم يكن كلها بالنسبة لجانب غير قليل من شعارات ومهمات المؤتمر ، لظهر جليا عدم تناقض الموقفـين الاول والثاني بالنسبة للهدف الابعد خاصة وان المنطلق النظري للسياسة الخارجية

---

(٧١) « المؤلفات الكاملة » ، الجزء ـ ٤١ ـ ، ص ١٥١ .

(٧٢) للتفصيل راجع : أ . ف . ميللر ، دراسة في تاريخ تركيـا المعاصر ، موسكو ، ١٩٤٨ ، ص ١١٣ ـ ١٢٣ ؛ « لينين وحركة التحرر ـ الوطني في بلدان الشرق » ، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٨ (باللغة الروسية) .

للدولة الاشتراكية الاولى كان هو نفسه دون تغيير . بل بالعكس ان الابتعاد الى حد ما عن روح ذلك المنطلق نتيجة رفع الشعار الستاليني « البورجوازية القت راية النضال » هو الذي ادى لفترة زمنية محدودة الـــى مردودات عكســـية .

وحسبما نعتقد من المفيد بمكان ان نشير بهذه المناسبة الى بعد آخــر لسياسة الدولة الاشتراكية الاولى نحو الشرق وهو ما يتعلق بالاثار التـــي تركتها في بعض الاقطار العربية شبه المستقلة انذاك لان الامر يلقي بـــدوره بعض الضوء على الحقيقة التي ذهبنا اليها . وفي هذا المقام يكتسب الكشف لاول مرة بالنسبة لاوساطنا العلمية والسياسية عن اتصال الملك فيصل الاول بروسيا السوفيتية اهمية خاصة . فمن بين وثائق وزارة الخارجية السوفيتية غير المعروفة التي نشرها المستشرق خيفتس في كتابه آنف الذكر وثيقة تشير الى محاولة ممثل فيصل الاول الذي كان يحمل لقب صدقي اقامة اتصال مع روسيا السوفيتية في صيف عام ١٩٢١[٧٣] ، أي في ســنة تسـنمه للعرش في العراق (توج في آب ١٩٢١) . في الواقع اننا لا نعرف بين الساسة العراقيين المقربين من الملك فيصل شخصاً يحمل مثل هذا اللقب . ولكن باعتقادنا اما ان الاسم كان مستعارا لغرض التمويه او انه بالفعل كان بكر صدقي الضابـــط السابق في الجيش العثماني والذي كان على اتصال باشـــخاص كجعفــر العسكري وياسين الهاشمي ونوري السعيد المقربين من فيصل . كما انه كان مهتما قبل الحرب العالمية الاولى بالقضية العربية فهو الذي ايد المؤتمر العربي

---

(٧٣) أ . ن . خييفتس ، المصدر السابق ، ص٣٠٩ . من الجدير بالذكر ان العراقيين في الغالب كانوا يجرون اتصالاتهم بالسوفيت عـــن طريـــق سفاراتهم في طهران او قنصليتهم في تبريز كما فعل مثلا الزعيم الكردي المعروف الشيخ محمود البرزنجي الذي بعث برسالة خاصة الى لينين في عام ١٩٢٣ بواسطة القنصلية الروسية في تبريز .

الاول الذي انعقد في باريس في عام ١٩١٣[٧٤] ، وانه كان معروفا بالاضافة الى كل ذلك بروح المغامرة والكتمان • وفي جميع الاحوال لا يستبعد ابدا ان فيصلا قد تأثر في موقفه هذا بآراء والده الذي حاول في الفترة نفسها تقريبا اقامة علاقات دبلوماسية مع روسيا السوفيتية • الا ان مجال التحرك بالنسبة للاول منهما كان محدودا بسبب الظروف التي رافقت تسنمه للعرش وتتيجة سيطرة الانكليز المحكمة على جميع مجالات الحياة السياسية للبلاد لذا لم يستطع ، ولم يحق له اصلا ، تطوير العلاقات الخارجية للعراق حسبما كان يراه ضروريا فلم تسفر محاولته عن شيء • ان القضية ، على اي حال ، لها مغزاها التاريخي وهي تحتاج لذلك بالذات الى تمحيص وتقص جديين لغرض تحديد ابعادها ودوافعها الحقيقية •

ولكن لقصة العلاقات السوفيتية ــ الحجازية والسوفيتية ــ السعودية واخيرا السوفيتية ــ اليمانية تاريخ واضح وطريف الى حد ما ترجع بداياته الى كانون الاول ١٩٢٢ ــ كانون الثاني ١٩٢٣ عندما حضر اول وزير خارجية سوفيتي چيچيرين جلسات مؤتمر لوزان المعروف • فوثائق الخارجية السوفيتية القديمة تشير الى اتصالات ممثلي المنظمات الوطنية المصرية والفلسطينية والسورية بچيچيرين واجتماعهم به لمرات عديدة • ومن جانب آخر تم في نفس المؤتمر اول اتصال رسمي عربي مع الدولة الاشتراكية الاولى عندما تداول ممثل الحجاز مع چيچيرين امكانات اقامةعلاقات دبلوماسية بين الجانبين ، وتابع الموضوع فيما بعد ممثلا البلدين في روما الى ان تم الاتفاق في نيسان ١٩٢٤ على ا قامة التمثيل الدبلوماسي بينهما • وقد تقرر ان تكون للاتحاد السوفيتي في الحجاز مقيمية (او ممثلية) مع قنصلية عامة وان تكون للحجاز لدى الاول بعثة دبلوماسية • وكان كريم عبدالرحمن حكيموف ، وهو

---

(٧٤) بعث بكر صدقي مع اخرين ببرقية تأييد حار الى المؤتمر (راجع : محبالدين الخطيب ، المؤتمر العربي الاول ، القاهرة ، ص ٢٠٤ــ٢٠٦؛
M.Khadduri, Independent Iraq, 1932-1958, London, 1960,p. 107.

من الشرقيين ، اول ممثل وقنصل عام سوفيتي في الحجاز قدم اوراق اعتماده بتوقيع رئيس الدولة كالينين الى الملك حسين بتاريخ ٩ آب ١٩٢٤ ووصل السيد لطف الله ممثل الحجاز الى موسكو في بداية تشرين الاول من السنة نفسها . وذكر كالينين في ختام اوراق اعتماد حكيموف : « استغل هذه الفرصة لاعبر لجلالتكم وللشعب العربي الصديق عن تمنياتي بالخير والتوفيق »[٧٥] .

وبعد الانقلاب السعودي كان الاتحاد السوفيتي أول دولة اعترفت بالنظام الجديد واعتبر نفس حكيموف ممثلا لديه وتم تبادل الوثائق بين الطرفين بهذا الشأن في ١٦ و ١٩ شباط من عام ١٩٢٦ . وقد عبر الملك الجديد عبدالعزيز بن سعود في رسالته الجوابية على اعتراف السوفيت بنظامه عن امتنانه العميق لهذا الموقف وكذلك عن « الاستعداد التام للعلائق مع حكومة الاتحاد السوفيتي ومواطنيها كدولة صديقة » وقال « فلتكن العلاقات بين الدولتين قائمة على احترام استقلال البلدين الساميين »[٧٦] .

ومن المهم ان نلاحظ هنا ان الاتحاد السوفيتي تابع باتنباه مجرى الاحداث السياسية في شبه الجزيرة العربية قبل سقوط النظام الهاشمي في الحجاز وهو توقع الفشل في وقت مبكر نسبيا لمشاريع حسين السياسية . فعند اول لقاء بين وزير خارجية الاتحاد السوفيتي وممثل الحجاز في مؤتمر لوزان ذكر الاول للثاني بالنص : « نحن نؤيد[٧٧] جدا توحيد الشعب العربي ، ولكننا لا نستطيع التدخل في مسألة هل من المستحسن ان يكون هذا التوحيد على شكل كونفيدرالي تحت زعامة الحسين او ان يكون بشكل آخر ، فهذا امر يعود الى الشعب العربي نفسه » . والاهم من ذلك هو ما

---

(٧٥) «الاتحاد السوفيتي والبلدان العربية ١٩١٧–١٩٦٠ . وثائق ومواد». موسكو ١٩٥١ ، ص ٦٠ ، ٧٩٧ (باللغة الروسية) .

(٧٦) المصدر نفسه ، ص ٦١ – ٦٢ .

(٧٧) في النص : « نعطف جدا » .

ذكره چيچيرين للسكرتير العام لوزارة الخارجية الفرنسية حول الاوضاع في شبه الجزيرة قبل انتهاء الصراع بين الاطراف المتنازعة ، اذ قال له : « ان ابن السعود يلعب أكثر (من منافسيه) دور الموحد والمنظم والمجدد في شبه الجزيرة العربية ... وتتبع انكلترا في شبه الجزيرة خمس سياسات في آن واحد . فهي تؤيد ابن السعود مثلما تؤيد جميع منافسيه .. في شخصه (أي في شخص ابن السعود) تنمو قوة جديدة غير مناسبة في مضمونها لانكلترا التي وضعت مع ذلك لغما جيدا وهي تحاول في ظل هذا الواقع أن تكون معه (مع ابن السعود) في علاقات جيدة »[٧٨] .

وعلى أي حال ساهم الموقف السوفيتي في حدوث بعض التطور في العلائق القائمة بين البلدين بحيث تم رفع التمثيل الدبلوماسي بالنسبة للجانبين الى مستوى السفراء اعتبارا من كانون الثاني ١٩٣٠ . وقبل ذلك عبر الملك السعودي عن رغبته في زيارة ابنه وولي عهده الامير فيصل للاتحاد السوفيتي . وبالفعل تمت الزيارة في ٢٨ مايس ١٩٣٢ واستغرقت عشرة ايام وقد حمل فيصل معه رسالة من والده الى كالينين عبر فيها عن « الرغبة الاكيدة » في توطيد العلاقات بين البلدين[٧٩] . ومهما يكن من امر لم يخل وجود ممثل لاول دولة اشتراكية في مركز الحرمين الشريفين عن مغزى عميق .

وقد تطورت العلاقات بين اليمن والاتحاد السوفيتي بوتائر اسرع بحيث تخطت التبادل الدبلوماسي في أواسط عام ١٩٢٨ الى عقد « معاهدة للصداقة والتجارة » بين الطرفين في تشرين الاول من السنة نفسها امدها عشر سنوات

---

(٧٨) للتفصيل راجع : « لينين وحركة التحرر ـ الوطني في بلدان الشرق » ، ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩ .

(٧٩) راجع « الاتحاد السوفيتي والبلدان العربية ١٩١٧ ـ ١٩٦٠ » ، ص ٧٧ ـ ٧٨ ، ٧٩٧ـ٧٩٩ .

مددت فيما بعد بناء على اقتراح الامام يحيى لمدة عشر سنوات اخرى • وقد اصبح الاتحاد السوفيتي وسيطا لاقامة العلاقات الدبلوماسية بين المانيا واليمن في عام ١٩٢٩[٨٠] •

ان جميع هذه الصفحات المتلازمة فيما بينها والمجهولة الى حد كبير بالنسبة للاوساط العلمية في البلدان العربية تستحق اهتماما متزايدا من لدن الاختصاصيين والمعنيين لسبر اغوارها اذ تكمن فيها ، دون شك ، تجارب ودروس تأريخية لا تخلو من اهمية •

---

(٨٠) المصدر نفسه ، ص ٦٤ — ٧٧ ، ٧٩٨ — ٧٩٩ . ورد فيه ايضا نص المعاهدة السوفيتية — اليمانية مع وثائق ورسائل كثيرة تبادلها الامام يحيى مع المسؤولين السوفيت .

الموضوع السادس

"نشوء حركة التحرر الوطني العربي"

في دراسة سوفييتية

تحتل قضايا حركة التحرر الوطني للشعب العربي كعامل فعـال مؤثر في سير الاحداث العالمية ، وكظاهرة تقدمية حتمية ذات خصائص متميزة،مكانة جد بارزة في الاستشراق السوفيتي . فقد تطرق العديد من العلماء السوفيت ، باسلوب علمي ، الى مسائل نشوء هذه الحركة وموقعها التاريخي ومراحـل تطورها وتأثيرها الكبير ـ خاصة في المرحلة الراهنة ـ على تناسب القـوى لا في الشرق الاوسط حسب بل وعلى الصعيد العالمي ايضا . وتبقى دراسات وبحوث ليبيديف ولوتسكي وليفين وميرسكي ولاندا ولازاريف وداتتسك وفيدچنكه وعشرات غيرهم نقاطا مضيئة في عالم الاستعراب لانها تحدد اولا وقبل كل شيء ، وعلى أساس مادي ، الطبيعة العادلة للنضال العربي ، كـأي نضال تحرري ، وتعطي الجماهير ـ دون ان تنكر دور الفرد ـ حقها فـي خلق وتطوير احداث ذلك النضال .

وفي هذا الاطار بالذات قدم الاستشراق السـوفيتي في أواسـط عام ١٩٧٥ اتتاجا علميا مهما لمستشرق معروف هو الدكتور ل . ن . كاتلوف الذي اتحف منذ نهاية الخمسينيات مكتبة الدراسات الشرقية بعدد من البحـوث القيمة سواء عن « ثورة العشرين » في العراق[1] او عـن قضايا النضـال الجماهيري والتطور الاقتصادي ـ الاجتماعي في بعض الاقطـار العربية ،

---

(١) ل.ن. كاتلوف ، الانتفاضة الوطنية ـ التحررية لعام ١٩٢٠ في العراق ، ترجمه الى العربية الدكتور عبدالواحد كرم ونشرته وزارة الاعلام تحت عنوان « ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق » . صدرت الطبعة الثانية من الكتاب عن دار الفارابي اللبنانية في عام ١٩٧٥ وقد راجعهـا الاستاذ عبدالرزاق الحسني .

وعلى رأسها اليمن[٢] • اما كتابه الجديد[٣] فقد خصص لدراسة مهمة وقضية اهم هما : « نشوء حركة التحرر الوطني في المشرق العربي (اواسط القرن التاسع عشر ـ ١٩٠٨) »[٤] •

يقع الكتاب في ثلاثمائة واربع وعشرين صفحة مقسمة الى خمسة فصول تعالج قضايا الوضع والتطور الاقتصادي والكيان الاجتماعي في المشرق العربي وتغلغل الدول الرأسمالية فيه خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر و اوائل القرن العشرين ، أي الظروف الموضوعية التي خلقت الجو لظهور الحركات الجماهيرية ونشوء الفكر القومي العربي قبل وبعد ثورة الاتحاديين في عام ١٩٠٨ • وقد خصص المؤلف الفصلين الأخيرين من كتابه لدراسة مختلف جوانب هذين الموضوعين المهمين اللذين تكمن فيهما المقدمات الاساسية « فترة المخاض » التي كان لا بد منها كي تبلغ الحركة الوطنية العربية ما بلغته من شأن في عالمنا المعاصر •

في الفصل الاول من كتابه « التطور الاقتصادي »[٥] (ص٨ ـ ٤٩) يتكلم الدكتور كاتلوف عن الحكم العثماني وتأثيره السلبي الكبير على الحياة الاقتصادية في البلدان العربية • وقد انعكس ذلك قبل كل شيء في الزراعة والانتاج الزراعي ـ عماد الحياة الاقتصادية لجميع اصقاع الامبراطورية العثمانية انذاك • وقد ترك هذا الواقع في المناطق العربية ـ حيث المساحات الخصبة الشاسعة والمياه الوافرة والتقليد الزراعي الغني ـ اثارا واضحة الى

---

(٢) من اهم كتبه في هذا المجال « الجمهورية العربية اليمانية » ، موسكو ، ١٩٧١ ، (٢٨٧ صفحة) .

(٣) نشرت الصحف المحلية نبأ صدور هذا الكتاب (« الثورة » ، ١٩ حزيران ١٩٧٥) .

(٤) ل . ن . كاتلوف ، نشوء حركة التحرر ـ الوطني في المشرق العربي (أواسط القرن التاسع عشر ـ عام ١٩٠٨) ، موسكو ، دار العلم ، ١٩٧٥ .

(٤) في النص : التغيير أو التطور في الاقتصاد .

حد كبير انعكست لا في تقليص الانتاج الزراعي حسب ، بل في تقليص واضح غير مبرر في الاراضي الصالحة للزراعة التي اصبحت تشكل بالتدريج امتدادات صحراوية لا غير • ويكفي القول هنا ان عدد القرى في سهول حلب الغنية قد تقلص من اكثر من ثلاثة الاف قرية في اواسط القرن السادس عشر الى ٤٠٠ قرية فقط في أواخر القرن الثامن عشر (ص٨) • ولئن كان وضع المدن في ظل الحكم العثماني احسن بقليل من وضع الريف ، الا انه حتى هنا لم يتمتع بامان نسبي سوى الرأسمال المستغل في قطاع التجارة الخارجية ، وبوجه خاص ما كان منه بيد التجار الاجانب • وقد ساء وضع سكان المدن والارياف على السواء مع تغلغل الرأسمال التجاري الاوروبي في الولايات العربية خاصة منذ اواخر القرن الماضي • فقبل كل شيء وجهت موجة البضائع الاوروبية الرخيصة ضربة قاصمة الى نواة الصناعة الوطنية التي بدأت تتكون في بعض المجالات الحرفية • وقد اشتدت هذه الضربة وامتدت الى مجالات اخرى بعد ان اتخذ التغلغل الاقتصادي الاوروبي طابعا سياسيا وستراتيجيا جديدا استوجبه ازدياد التنافس بين الدول الكبرى من اجل « ممتلكات » « الرجل المريض » •

وبهذا الصدد يورد المؤلف معلومات مهمة عن اسلوب ومدى ومجالات تغلغل الدول الغربية في المناطق العثمانية من الوطن العربي مما ادى الى تغييرات كبيرة في حياتها الاقتصادية التي بدأت ترتبط بسرعة بعجلة العالم الرأسمالي • فقد بدأ الاخير يسيطر بخطوات سريعة على طرق المواصلات والموانيء والانتاج الزراعي وعملية استخراج المعادن وغيرها من خيرات البلاد العربية • فمثلا ان السفن والقوارب العربية التي كانت تمخر عباب البحر وتصل معظم موانيء الشرق الاوسط تحت العلم العثماني ، بدأت تختفي لتحل محلها سفن العالم الرأسمالي • وعلى سبيل المثال لا الحصر : قدمت موانيء سوريا في عام ١٩١٠ اكثر من ٩٧٪ من خدماتها للسفن البريطانية والروسية والفرنسية والنمساوية ـ المجرية والايطالية والامريكية بينما لم تصب السفن التي كانت تحمل العلم العثماني من تلك الخدمات سوى أقل من ٣٪ • وفي الوقت

نفسه بدأت الدول الاوروبية بالسيطرة على السكك الحديدية الموجوده وبناء اخرى جديدة في المناطق العربية • وقد ساهم ذلك بشكل واضح في تسريع عملية تغلغلها الاقتصادي والسياسي وفي تعميق التنافس الدولي من اجل السيطرة على بلدان الشرق الاوسط •

وفي المجال الزراعي بدأت الشركات الغربية ايضا تجد لها مواقع اقدام ثابتة في الاجزاء العربية من الامبراطورية العثمانية • وقد وصلت نشاطاتها في هذا الحقل الى مجال التفكير في اقامة مستوطنات خاصة في بعض المناطق ، كما عمل الالمان مثلا بالنسبة لفلسطين ، حتى انهم تعاونوا في هذا المجال مع الحركة الصهيونية لانهم كانوا يرون في بناء مثل تلك المستوطنات « بداية لتحويل فلسطين الى مستعمرة المانية »(ص ١٧) • وبشكل عام وصل ارتباط المشرق العربي بالسوق الرأسمالية حد ان الانتاج الزراعي فيه بدأ يخضع أكثر فأكثر لحاجات ومتطلبات تلك السوق بالذات ويتأثر بعواملها بصورة مباشرة •

ولكن مع تغلغل الدول الرأسمالية في المناطق العربية ظهرت ، الى جانب التجارة والزراعة ، اهتمامات اقتصادية جديدة لعبت دورا واضحا في مصير المنطقة من جميع النواحي • ويأتي الاهتمام بالثروات المعدنية الغنية في مقدمة هذه الاهتمامات • اذ لم تنتج المناطق العربية في ظل الحكم العثماني المتخلف سوى الملح وذلك بأسلوب بدائي ، بينما تظهر منذ النصف الثاني من القرن الماضي نشاطات واسعة لتحديد الثروات الكامنة في باطن الارض العربية ولايجاد وسائل السيطرة عليها والاستفادة منها • ويأتي النفط ، بطبيعة الحال، في مقدمة هذه المعادن التي شدت الدول الغربية وبقوة الى هذه المناطق • ففي عام ١٨٨٩ باشر الجيولوجيون السويسريون بالبحث عن مكامن النفط في منطقة الاسكندرونة • وسرعان ما نزل الخبراء الانكليز والالمان والامريكان الى ميدان البحث عنه في فلسطين والعراق • وقد رافق تلك المحاولات البحث ايضا عن معادن اخرى مثل الفوسفور الذي حصل الانكليز والالمان في اواخر القرن التاسع عشر على حق التنقيب عنه واستخراجه في منطقة السلط في

الاردن • واعارت المنظمات الصهيونية في الفترة نفسها اهتماما خاصا بالثروات المعدنية في قاع البحر الميت •

هكذا اتخذ تغلغل الدول الرأسمالية في بلدان المشرق العربي اشكالا ، وابعادا مختلفة ومؤثرة • فقد بلغ مثلا الرأسمال الفرنسي المتداول في سوريا فقط ، وفي بداية القرن العشرين ، اكثر من ٢٠٠ مليون فرنك (ص ١٩) • وبطبيعة الحال ترك مثل هذا الوضع اثارا بعيدة المدى على الحياة الاقتصادية في البلاد العربية وساعد على حدوث تغييرات مهمة في الكيان الاجتماعي والتطور اللاحق في العلاقات القائمة في المجتمع العربي • لقد اعار ل • ن • كاتلوف هذه القضايا المهمة اهتماما خاصا ووضعها في اطارها الصحيح من حيث تأثيرها وتفاعلها ، واعطى من خلال ذلك امثلة حية ، واستند الى ارقام موثوقة تعطي فكرة واضحة عن مدى تغلغل الرأسمال التجاري الاحتكاري الاوروبي ــ الامريكي في اجزاء مهمة من الوطن العربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقد الاول من القرن العشرين • كما انه توصل الى استنتاجات مهمة قلما نجد لها مثيلا في الدراسات الاخرى ، يستحق قسم كبير منها التأمل ، لا كمجرد عرض تأريخي للماضي ، بل لانه يلقي الضوء ايضا على قضايا كثيرة معاصرة • بين المؤلف مثلا كيف ان المناطق العربية كانت بشكل عام اقل سرعة في الاندماج بالسوق الرأسمالية العالمية من بقية الولايات العثمانية • فان معدل نصيب الفرد السنوي من التجارة الخارجية للامبراطورية العثمانية قبيل الحرب العالمية الاولى كان ٢و٢ ليرة ، بينما ينخفض هذا المعدل في العراق الى ٥و١ ليرة وينخفض في اليمن الى مستوى ادنى ــ ٤٥و٠ ليرة فقط ، في الوقت الذي يرتفع نفس المعدل في المناطق السورية (وخاصة في لبنان) الى ٨و٢ ليرة (ص ٤٥) • وقد اثرت مردودات هذا التباين في سرعة التطور فيهذاالجزء او ذاك من المشرق العربي •

يولي الدكتور كاتلوف اهتماما خاصا بالسياسة الاقتصادية لسلاطين آل عثمان لانها ــ الى جانب الاندماج بالسوق الرأسمالية العالمية ــ تركت اثارا

عميقة على الكيان الاقتصادي ـ الاجتماعي العربي وسرعة التغييرات الجارية داخل هذا الكيان . فقد بين المؤلف في هذا القسم من كتابه كيف ان تلك السياسة تحولت الى عبء ثقيل على كاهل المواطن العربي وامام عجلة التطور في بلاده . فحتى الاصلاحات التي اضطر الحكام العثمانيون الى تبنيها لم يمتد اثرها الا في حدود ضيقة الى المناطق العربية ، وهي في الغالب كانت تستهدف هنا فرض مركزية الحكم والقضاء على الحركات الانفصالية التي بدأت تظهر في هذه المنطقة او تلك . واكثر من ذلك تمكن الحكام من تحويل المناطق العربية الى مصدر اقتصادي مهم لانجاز اصلاحاتهم في الاناضول وذلك عن طريق ما كانوا يجمعونه من ضرائب هناك . فقد جمعت السلطات خلال السنة المالية ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ ، وحسب معطياتها التي هي دون الواقع بكثير ، حوالي ٢و٥ مليون ليرة ذهبية فقط عن الضرائب المباشرة من المناطق العربية الخاضعة لنفوذها . وهي الى جانب ذلك حولت مؤسسة القرض العثماني الى وسيلة اخرى لابتزاز اموال طائلة من تلك المناطق . فخلال العقد الاول من القرن العشرين استطاعت السلطات العثمانية ، وبشتى الاساليب ، جمع (٦) ملايين ليرة ذهبية لدفع قروض الدولة ، وهي مبلغ ضخم جدا خاصة حسب مقاييس ذلك الزمن (ص٢٥ ـ ٢٦) . من هنا فأن السياسة الضريبية للعثمانيين كانت ـ كما يرى المؤلف بحق ـ تعبر اكثر من أي شيء اخر عن الابتزاز والاستغلال في السياسة الاقتصادية العامة للعثمانيين في المناطق العربية (ص ٢٤) .

ومن الجدير بالذكر ان العثمانيين لم يخصصوا سوى جزء قليل جدا من الاموال الطائلة التي كانوا يجمعونها في الولايات العربية لتطويرها هي بالذات. فكما يروي المؤلف لم يبن في جميع تلك الولايات سوى مشروعين حكوميين يستحقان الاهتمام خلال حقبة تأريخية طويلة شملت أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، وهما مشروع سكة حديد الحجاز ومشروع ري الفرات . وقد بوشر بالاول منهما في العام ١٩٠٠ بالاعتماد على تبرعات المسلمين في جميع انحاء العالم والاستقطاعات الاجبارية من رواتب الموظفين

وغيرها • ولكن حتى هذا المشروع لم تكن له اهمية اقتصادية تذكر بالنسبة للبلدان العربية التي ظلت تعاني الكثير من سياسة الاهمال الاقتصادي في جميع النواحي • وحتى قانون الارض لعام ١٨٥٨ الذي كان خطوة اقتصادية مهمة بحد ذاته ، لم يعط نتائج ملموسة في الولايات العربية ، واعتبره الفلاحون وسيلة اخرى لابتزاز ضرائب جديدة ولفرض التزامات مختلفة عليهم •

كان من الطبيعي جدا ان يكون مجال تحرك الرأسمال الوطني في ظل السياسة الاقتصادية المتخلفة للعثمانيين ، وفي ظروف الارتباط المتزايد بالسوق الرأسمالية العالمية ، مجالا ضيقا للغاية لم يساعد على بروز القوى الاقتصادية الجديدة على المسرح بسرعة كافية • والمؤشر المهم لذلك هو الفشل المتلاحق للمشاريع الاهلية التي كان يفكر في انشائها بعض الممولين المحليين • بل ان قسما كبيرا من هذه المشاريع لم ير النور اصلا مثل المشروع الذي ازمع عدد من التجار المحليين تحقيقه لبناء شبكة من الخطوط الحديدية تربط بين مدينتي بغداد والنجف وبين الاولى وخانقين ، ومشروع اقامة شركات خاصة لنقل البضائع بين حلب والاسكندرونة • والقسم الاخر من تلك المشاريع كان يتحرك في مجال ضيق للغاية مثل الشركة الخاصة التي اسست في بغداد عام ١٩٠٨ بقصد اقامة صناعة متطورة للغزل والنسيج في البلاد (ص ٢٣ ــ ٢٤ ، ٤١) •

وقد اثر هذا ، الى جانب عوامل اخرى كثيرة ، سلبا في عملية تكوين السوق المشتركة • وبالمناسبة فان العلائق الاقتصادية في تلك الفترة بين الولايات العربية المختلفة كانت ضعيفة الى حد كبير • فمثلا ان قيمة البضائع العثمانية التي دخلت موانيء بيروت ويافا والاسكندرونة في عام ١٩١٠ لم تبلغ سوى حوالي ١٦٪ من مجموع قيمة البضائع التي دخلت هذه الموانيء في السنة نفسها ، علما بأن قسما كبيرا من تلك البضائع العثمانية لم يكن بالاصل مستوردا من الولايات العربية • وقد جاء الارتباط بالاسواق الاوروبية في هذه الفترة عاملا مساعدا فعالا لعرقلة تطور العلائق الاقتصادية بين الاجزاء

المختلفة من المشرق العربي • فكما يبين ل • ن • كاتلوف ان « الاهمية النسبية للعلاقات السورية ــ الفرنسية ، والسورية ــ الانكليزية ، والعراقية ــ الانكليزية ، والطرابلسية ــ الايطالية ، قد ارتفعت على حساب العلائق الاقتصادية السورية ــ العراقية والسورية ــ الحجازية والعراقية ــ النجدية » (ص ٤٩) •

في الفصل الثاني من كتابه (ص ٥٠ ــ ١١١) يتطرق المؤلف باسلوب علمي عميق ، وبالاستناد الى ارقام واحصاءات كثيرة واستشهادات بعدد غير قليل من المراقبين ، الى مجموعة من القضايا المهمة المتعلقة بالكيان الاجتماعي ــ الاقتصادي للمشرق العربي في فترة بحثه التي شهدت تغييرات ملحوظة في علاقات الانتاج والروابط الاجتماعية القائمة ، وذلك كأنعكاس طبيعي للتغييرات التي طرأت على اسس الحياة المادية للمجتمع العربي • فمثلا ان ازدياد الطلب على المنتوج الزراعي نتيجة الاندماج بالسوق الرأسمالية العالمية ، كان يعني ازدياد الاستغلال الاقطاعي والخروج من الانتاج الطبيعي ودخول النقد كعامل حاسم في تنظيم العلاقات • وان موجة البضائع الاوروبية الرخيصة التي غزت اسواق المشرق العربي كانت تعني انكماش وتقلص الانتاج الحرفي فيه • وقد تركت مثل هذه التغييرات وغيرها اثارا مباشرة على مواقف مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية من الاحداث المهمة التي ساهمت في نشوء حركة التحرر ــ الوطني العربي ،وهذا ما توصل الى تحديده ل • ن • كاتلوف بنجاح كما سنعود اليه فيما بعد •

في القسم الاول من هذا الفصل « العلاقات الاجتماعية ــ الاقتصادية في الريف » يقدم المؤلف لوحة متكاملة الى حد كبير عن طبيعة العلاقات الاقطاعية في الريف العربي الحديث والعوامل التي تأثرت بها هذه العلاقات التي كانت متباينة في واقعها بحكم تباين ظروف المكان في تلك الرقعة الشاسعة من الوطن العربي التي كانت تجمع بين مظاهر مختلفة تتجسد في المراحل الاخيرة للاقطاع في منطقة ما ، تقابلها في اخرى بقايا واضحة من المشاعية • ولتحقيق اهدافه

العلمية بدقة يتكلم المؤلف اولا عن العشائر المتنقلة ثم عن العشـــائر نصف المتنقلة • وحسب المناطق يتكلم عن الجزء الجنوبي ـ الغربي من شبه الجزيرة اولا ، ثم عن منطقة العلويين وجبل الدروز ، واخيرا عن سهول ســـوريا ، وجبال لبنان وفلسطين ومناطق بغداد والبصرة والموصل • وقد استطاع بذلك تحديد الفروق والخصائص المميزة لهذه الاجزاء من المشرق العربي مما يعطي الباحث عن تأريخه الحديث امكانية فهم اعمق للمظاهر السياسية والاجتماعية المختلفة حسب مناطقه • اي ان المتتبع يستطيع من خلال ذلك تحديد بعض العوامل الكامنة وراء قوة بعض الاحداث هنا وضعفها هناك • وقد توصل ل • ن • كاتلوف بهذا الصدد الى سلسلة استنتاجات مهمة خاصة فيما يتعلق بالتغييرات الاساسية في العلاقات المتبادلة بين الطبقات والفئات العربية المختلفة ، وبين هذه وتلك مع السلطة العثمانية • فمثلا ان الانتقال من البداوة الـــى الاستقرار كان يعني في العديد من المناطق ازدياد سلطة الشيوخ الاقتصادية والسياسية وظهور فئات غنية مهيمنة على القرى الجديدة ، والتي كان رفاهها متأتيا من تعميق الاستغلال الاقطاعي للفلاحين • ولكن مع ذلك ظلت عوامل مؤثرة كثيرة تجمع بين هؤ لاء واولئك ، بين الاسياد والاتباع ضد الحكـــم العثماني الذي كانت سياسته الزراعية والضريبية تثير الفلاح ضده ، وسياسته المركزية تثير بنفس المستوى رئيسه الذي لم يكن يرغب في ايجاد منافس لـــه داخل العشيرة او القرية • وهذا بحد ذاته ، مع احتفاظ العشائر بتنظيماتهـــا السابقة في ظروفها الجديدة (خاصة تنظيماتها الحربية) ، كان من العوامل المؤثرة في سير الاحداث السياسية في معظم الولايات العربية •

ولكن على الرغم من ذلك ، بدأ التناقض يتعمق ويطفو على السطح اكثر فأكثر داخل الريف العربي بشكل اعطى مردودات سياسية مهمة في عدد غير قليل من اجزاء المشرق العربي • ولعل الحركات الفلاحية في لبنان قبل الحرب العالمية الاولى نموذج ساطع لهذا الاستنتاج • وقد اثرت على تعميق التناقضات الداخلية الالتزامات الاقطاعية المرهقة الجديدة التي اثقلت كاهل الفلاح بشكل

لم يسبق له مثيل • هنا لعبت عملية تمركز ملكية الارض في ايدي حفنة قليلة دورا ملحوظا ايضا في تنظيم العلاقات وفق اسس جديدة بين الاقلية المالكة والاكثرية المجردة من الارض • فمع فجر القرن العشرين كانت الملكية الكبيرة للارض هي قاعدة تنظيم العلائق في الريف • فمثلا كانت ملكية ١٢ من كبار اقطاعيي البصرة تشكل ١٦٠ ــ ٤٠٠ هيكتار ، بل اكثر ، من بساتين النخيل بالنسبة للواحد منهم • وفي الفترة نفسها تحول عدد كبير من شيوخ العشائر البدوية (خاصة في سوريا والعراق) الى ملاكين كبار يسيطرون على مساحات شاسعة في المشاعات السابقة • وتحول كذلك قسم من كبار موظفي الدولة العثمانية ــ وكانوا بالطبع من الاتراك ــ الى ملاكين جدد ، خاصة في سوريا • كما بدأ يظهر في بعض اجزاء المشرق العربي نوع من الملاكين الجدد ــ تجار المدن الذين بدأوا بدورهم وبشتى الاساليب يستحوذون على أراضي الفلاحين ، وبوجه خاص ما كان منها قريبا من المراكز المدنية • وقد تغلغل هؤلاء التجار والمرابون الى مناطق ابعد ايضا ، وكانوا في بعض الاحيان يلعبون دور الوسيط بين الفلاح والسلطة التي كانت تشجع ظهور مثل هذه الفئة المالكة •

وبمناسبة استعراضه لمسألة الارض يتطرق ل • ن • كاتلوف ايضا الى اراضي المنظمات الصهيونية في فلسطين ، والتي كما يقول عنها على الرغم من انها لم تكن انذاك تشكل مساحات كبيرة « الا انها كانت في توسع مستمر » (ص ٨٣) • وكان معظمها يقع تحت اشراف جمعية الاستيطان اليهودية التي كانت تمول من جانب المالي الباريسي المعروف ادموند روتشيلد وبعض المنظمات الصهيونية مع عدد من اغنياء اليهود في روسيا والنمسا وبريطانيا وغيرها • ودخل يهود الولايات العربية (خاصة في سوريا) ضمن الفئة المالكة الجديدة من التجار الذين تغلغلوا في الريف • وتمكن قسم منهم بالفعل من الاستحواذ ــ عن طريق القروض ــ على اراضي عدد غير قليل من فلاحي قرى غوطة دمشق (ص ٨٢) •

وبغض النظر عن تغلغل التجار في الريف والعديد من المناطق ، وتزايد دورهم في دفع عجلة الحياة الزراعية ، وعلى الرغم من ازدياد دور النقـود في تنظيم العلاقات ، الا ان السيادة المطلقة تقريبا ظلت للاسلوب الاقطاعي فـي الانتاج وفي تنظيم علاقاته (علاقات الانتـاج) • فلم تظهـر العـلاقـات الرأسـمالية الجديـدة الا في نطاق ضيق وفي بعض المنـاطق القريبـة من المدن الكبيرة (بيروت ، دمشق ، بغداد ومدن اخرى قليلـة) • وحسـب المعلومات التي يوردها ل•ن• كاتلوف يمكن اعتبار جبال لبنان المنطقةالنموذج لظهور العلاقات الرأسمالية في الانتاج الزراعي بالنسبة للمشرق العربي انذاك ، حيث كانت الملكية الفردية للفلاحين والانتاج من اجل السـوق من المظاهر الملحوظـة فيها الى حد كبير • ولكن حتى في مثل هذه المناطق ظل الاسلوب الجديد في الانتاج والعلاقات يتحرك في اطار محدود لم يستطع احداث تغيير ملحوظ في الخطوط العامة للعلاقات الاقطاعية وشبه الاقطاعية السائدة ••

لقد ترك اندماج المشرق العربي بالسوق الرأسمالية العالمية والخروج من الانتاج الطبيعي في الزراعة وازدياد الانتاج البضاعي فيها وبالنسبة للمنتـوج الحيواني أثارا واضحة على وضع المدينة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين • ففي الوقت الذي بدأ فيه تقلص واضـح في عدد المنتجين الحرفيين ، ازداد ــ وبسرعة ــ عدد الناس الذين ارتبطـوا بالسوق الرأسمالية • وقد رافق ذلك نشاط اقتصادي كبير ادى الى تطـور نسبي سريع في المدينة ، خاصة في سوريا والعراق ، وبدرجة اقل في مناطـق شبه الجزيرة • وبأمكان الارقام التالية اعطاء صورة عن ابعاد ذلك التطور : ارتفع عدد سكان القدس خلال مائة عام (١٨١٤ ــ ١٩١٥) من ١٢ الفا فقط الى ٨٠ الفا ، وارتفع عدد سكان دمشق خلال ١٨٤٩ ــ ١٩١٥ من ١٥٠ الفا الى الضعف (٣٠٠ الف) ، اما بغداد فقد ارتفع عدد سكانها من عشرين الف نسمة في عام ١٨٣١ الى ١٤٥ ألف شخص في عام ١٩٠٠ ، وازداد عدد سكان عمان من ألف شخص في عام ١٨٨٠ الى عشرة آلاف شخص في عام ١٩٠٠ •

وجرى تطور اسرع بالنسبة للمدن الساحلية التي كانت على اتصال مباشر بالاسواق الاوروبية . فخلال اقل من قرن ارتفع عدد سكان حيفا الى عشرين ضعفا ، وازداد سكان البصرة من عشرة الاف نسمة في اواخر الثلاثينيات من القرن الماضي الى حوالي ٦٠ الف شخص في بداية القرن العشرين . اما بيروت فانها تحولت من قصبة صغيرة لم تتجاوز نفوسها ١٢ الف شخص في عام ١٨٤٨ الى مدينة كبيرة بلغ عدد سكانها قبيل الحرب العالمية الاولى ٢٠٠ الف نسمة ، اي حوالي ١٧ ضعفا (ص ٩٠ – ٩١) .

وكما بين المؤلف ، فأنه لم يجر تقلص الانتاج الحرفي في الولايات العربية بوتيرة واحدة . فمثلا ظل هذا الانتاج في شبه الجزيرة على وضعه السائد تقريبا حتى الحرب العالمية الاولى . بينما احتفظ الانتاج الحرفي في العراق بوجوده بالنسبة لبضائع معينة ذات طابع محلي ، اي بضائع خاصة لم تنتج المصانع الغربية مثلها . ولكن حتى هذه كانت مدينة ببقائها الى حد كبير لتركيز طاقة العمل من جانب الحرفيين الذين كانوا يعملون مع بزوغ الشمس حتى غروبها . اما في سوريا فقد جرت عملية انحلال الانتاج والتقليد الحرفيين بوتائر اسرع من بقية الولايات العربية .

ولكن من المهم ان نلاحظ ان انحلال الانتاج الحرفي في المشرق العربي لم يجر على حساب التحول الى مرحلة اعلى في الانتاج (أي التحول الرأسمالي) الا في نطاق ضيق جدا اقتصر على مناطق محدودة . بل ان معظم الحرفيين الذين اشهروا الافلاس تحت ضغط البضائع المستوردة توجهوا نحو الريف وبقي قسم قليل منهم يزاول التجارة في المدن او يعمل فيها كمجرد عمال في الغالب . وقد اثر هذا الواقع على وضع واهمية عدد من المدن والقصبات التي كانت تحتل ، بفضل انتاجها الحرفي ، مركزا اقتصاديا مرموقا كما حدث مثلا لمدينة تكريت في العراق . وقد عوض بعضها الاخر عن الانتاج الحرفي بالانتاج الزراعي مثل مدينة السلط في الاردن .

وفي صدد بحثه عن المدن ، يورد ل • ن • كاتلوف بعض المعلــومات الطريفة عن تغير بعض مظاهرها وظهور بعض الخدمات الاجتماعية فيها • ففي بغداد مثلا تم شق أول طريق مرصف في عام ١٨٧٠ • وفي عام ١٨٧٩ بــدأ توزيع المصابيح النفطية على شوارعها • وقد شهدت المدن السورية تطـورا اكبر • فتم تشييد عدد من الشوارع في دمشق والقدس وبيروت وغيرها • كما تم تأسيس أنابيب الماء في بيروت في عام ١٨٩٧ ، وفي دمشق في عام ١٩٠٨ • وجرى انشاء خطوط الترام في الاخيرة في عام ١٩٠٧ وفي الاولى تم انجازها في عام ١٩٠٩ •

يبين المؤلف ، ان العلاقات والروابط بين المدينة والريف اخذت تتقوى اكثر فأكثر ، وبدأت الاولى تترك اثارا اعمق على مجرى الحياة في القرية • وقــد دشنت ، ولو في اطار محدود ، بداية الهجرة من الريف الى المدينة منذ اواخر القرن التاسع عشر الى حيث يعود ظهور الاحياء الفقيرة جدا (الصرائف) في ضواحي المدن • وقد كون هؤلاء المهاجرون من الريف ، مع الحرفيين الذيــن فقدوا مصدر العيش ، النواة الاساس للطبقة العاملة التي كانت تمر بمرحلة التكوين • وهنا يورد ل • ن • كاتلوف بعض المعلومات المهمة عن هذه الطبقة الاجتماعية الجديدة التي لا تتوفر ــ كما يذكر ــ معلومات دقيقة لتقــدير عددها انذاك • ولكن بعض المطلعين قدر عدد هذه الطبقة في سوريا ولبنــان وحدهما قبيل الحرب العالمية الاولى بحوالي ٣٠٠ الف شخص ، كان اقل مــن ثلثهم فقط يعملون في المؤسسات الانتاجية كعمال اجيرين موزعين على عــدد كبير من المانيفاكتورات الصغيرة (كان يوجد في جميع سوريا ولبنان انذاك ١٢ مشروعا فقط تجاوز عدد العمال في الواحد منها ١٠٠ شخص) • ولــم تكن عملية تكون الطبقة العاملة تجري في اجزاء المشرق العربي على نفس النمط وبنفس الوتيرة • فالارقام التي ذكرناها بالنسبة لسوريا تشــير الى ســرعة نسبية في تكون هذه الطبقة هناك تفوق نسبة تكونها في العراق وبشــكل خاص في شبه الجزيرة حيث اقتصر العمل الاجير على مينائي الحديدة والجدة •

من المعلومات الواردة في الكتاب يتبين ان المرأة العربية قد نزلت الى ميدان الانتاج الصناعي قبل الحرب العالمية الاولى بفترة طويلة • فقد بلغ عددهن في صناعة النسيج في سوريا وحدها حوالي ثمانية آلاف امرأة (ص ٩٤ — ٩٥) •

ولكن عددا كبيرا من العمال — خاصة الوقتيين والموسميين منهم — لم يفقدوا في تلك المرحلة الصلة نهائيا بالريف ، بل كانوا يريدون من عملهم الجديد في المدن وسيلة لدعم وضعهم الاقتصادي المتدهور في الريف • وقد كانت هذه الظاهرة واضحة الى حد كبير في البصرة حيث كان يبلغ عدد العمال الموسميين فيها في فترة كبس التمور حوالي ٢٥ الف شخص سنويا • وقد اثر عدم الاستقرار على العمل ، اي الجمع بين الصناعة والزراعة ، بين المدينة والريف ، على تكون الكادر العمالي المتخصص سلبا • وقد تأثر هذا الاخير ، أي تكون الكادر العمالي المتخصص ، كذلك بالتقاليد البالية الكثيرة والروابط القبلية التي لم يستطع العامل الجديد التحرر منها بسهولة • هنا يورد المؤلف عددا من الامثلة الطريفة التي تلقي الضوء على هذه النقطة ، وتوضح العوامل التي اثرت على تطور الوعي العمالي في تلك المرحلة • فمثلا كان المقاولون المحليون يدفعون لقاء استخدام كل ٥٠ عاملا خلال تشييد سكة حديد بغداد ليرة ذهبية واحدة شهريا لشيخهم • وكان عمال احدى الفرق الاركيولوجية العاملة في اواسط العراق على اتصال يومي بابناء عشيرتهم ، حتى انهم كانوا يساهمون في النزاعات التي كانت تحدث لها مع العشائر الاخرى •

هكذا يبين المؤلف ان الطبقة العاملة في الولايات العربية الداخلة ضمن الامبراطورية العثمانية كانت تمر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بمرحلة التكون ، وانها كانت قليلة العدد ، موزعة على المعامل والمؤسسات الصغيرة ، وواقعة تحت تأثير قيم وعلاقات مرتبطة بمجتمع ما قبل الرأسمالية ، وانها كانت لغاية عام ١٩٠٨ محرومة من الانظمة والقوانين التي من شأنها تنظيم ظروف عمل افرادها وعلاقتهم باصحاب العمل • وكان هذا ،

مع توفر الايدي العاملة العاطلة ، من العوامل المساعدة على انخفاض اجور العمال الى حد كبير • فان معدلها اليومي بالنسبة لعامل النسيج في العراق كان يبلغ سبعة قروش فقط • وكان عامل الغزل في معامل الحرير السورية يحصل في اليوم على ٥ـ١٠ قروش بينما كان زميله في معامل نسيج القطن يتقاضى ٥ر٢ـ٥ قروش فقط • وبالطبع كان مستوى اجور العاملات والعمال الموسميين والاطفال ادنى من ذلك بكثير • ولكي يعطي صورة اوضح عن وضع العامل الاقتصادي يورد ل • ن• كاتلوف نماذج من اسعار الحاجيات الضرورية في دمشق والتي كانت تبلغ بالنسبة للرطل (٦ر٢ كغم) من الطحين ٥ر٢ قرشا والسكر ٦ـ٨ قروش والرز ٥ر٦ قروش واللحم ١٤ـ١٥ قرشا والدهن الحيواني ١٨ـ٣٠ قرشا (ص ٩٧) •

ينتقل المؤلف في قسم خاص من هذا الفصل الى البحث عن العوائل والجماعات التقليدية والفئات البورجوازية الجديدة في المدن ووزنها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لاقطار المشرق العربي في تاريخها الحديث • فبالنسبة للاولى (اي الجماعات التقليدية) ، يبين الدكتور كاتلوف صلتها القوية في المدن ، وخاصة في القصبات ، بالاوساط الاقطاعية المحلية أو في بعض الاحيان بالباشوات الاتراك •• ويعطي بعض الامثلة على ذلك : عائلة العظم في دمشق، المنتمية الى باشوات سوريا ، وطوقان في نابلس ، والعمري في الموصل وجميل زاده والشاوي وكبه في بغداد • ويشير ايضا الى الدور الكبير لبعض العوائل الدينية في المدن • فقد كان افراد هذه وتلك يستطيعون التأثيربشكل واضح على سير الاحداث وتنظيم العلاقات في المدن ، حتى ان بعض المصادر تشير الى ان ما لايقل عن ١٠٪ من مشاكل المواطنين في مدينة البصرة كانت تحل لا من قبل السلطة بل من قبل الملاكين والتجار فيها (ص ١٠٠) •

شهدت تلك الفترة ميلاد فئات اجتماعية بورجوازية جديدة في المدن ، والتي بدأت تثبت وجودها وتعبر عن واقعها بشكل او اخر • وكان كل تغيير في ذلك التعبير يعتمد الى حد كبير على مدى تطورها ، خاصة في امكاناتها ،

لايجاد مواقع ثابتة لها في الحياة الاقتصادية • وبالفعل فقد كان قسم من هذه الفئات المنتمية الى الطبقة البورجوازية الجديدة ضعيفا الى حد واضح • فمثلا لم يتمكن الصناعيون من اصحاب المعامل الصغيرة والمحلات الحرفية المتطورة من ان يلعبوا دورا ملحوظا في الحياة الاجتماعية ـ الاقتصادية الا في سوريا وبالذات في بيروت • بينما لم يكن وجود لمثل هؤلاء في شبه الجزيرة • وكان العراق يحتل مرتبة اعلى منها وادنى من سوريا في هذا المجال • وكان هؤلاء ، حيثما وجدوا ، يلعبون دورا ثانويا بالنسبة لنشاطات الطبقة البورجوازية ، خاصة لان قسما كبيرا منهم كان في الاصل من اغنياء التجار الذين كانوا يزاولون في الوقت نفسه الربا ويولون اعمالهم التجارية اهتماما اكبر مما كانوا يولونه لاعمالهم الصناعية • من هنا نرى ان دور ووزن البورجوازية التجارية ، على عكس رجال اعمال الصناعة ، قد نما بسرعة ملحوظة ، خاصة لان هذه الفئة ، بالاضافة الى ظهور مهمات تجارية واسعة جديدة امامها بعد الاندماج بالسوق الرأسمالية العالمية ، فان اعمالها توسعت ايضا في ميدان التبادل بين المدينة والريف • وقد برزت البورجوازية التجارية الكبيرة بسرعة ، وعلى الاخص تلك الفئة منها التي كانت مرتبطة بالرأسمال الاجنبي (الكومبرادور) ، والتي يمكن اعتبار بيت ساسون في بغداد النموذج الامثل لها ، اذ كان ممثلو هذا البيت التجاري يحتلون مكانة مرموقة في تجارة بومباي ، ويملكون معامل للنسيج في مانجستر ، وكانوا على اتصال وثيق بجماعة روتشيلد في لندن • وكانت توجد في مانجستر جماعات تجارية اخرى من حلب وبغداد تلعب دور الوسيط بين تجار الجملة العرب والمعامل المحلية هناك •

ومما زاد من ارتباط هذه الفئة بالرأسمال الاجنبي انها كانت تعتمد الى حد كبير في نشاطاتها التجارية الواسعة على ذلك « الرأسمال » بالذات • فمن اجل ضمان وصول الغزول الحريرية كانت الشركات الاحتكارية الفرنسية تمنح سنويا عددا من تجار لبنان مبلغا من القروض يتراوح بين ٦ و ٧ ملايين

فرنك (ص ١٠٣) • واقتصرت الامتيازات المالية للبنوك الاجنبية التي افتتحت في سوريا والعراق على المنتمين الى البورجوازية التجارية الكبيرة المرتبطة بعجلة الصناعة الغربية ، مما اتاح لافرادها امكانات اكبر للضغط على صغار التجار المحليين واستغلالهم كمايشاوءون• فكانوا هم الذين يحددون اسعار شراء المواد الاولية والحاجات الاخرى التي كانت تصدر للخارج • فمثلا كان كبار مصدري البصرة يقررون في اجتماع سنوي خاص اسعار جميع انواع التمور • وبالطبع فان الافلاس كان ينتظر كل تاجر صغير او متوسط يحاول النزول الى ميدان منافسة هؤلاء التجار الكومبرادور المسنودين من قبل الشركات الاجنبية ، والذين بدأوا — مع توسع نشاطهم التجاري — يخضعون هؤلاء التجار الصغار والمتوسطين اكثر فاكثر لنفوذهم عن طريق مدهم بما يحتاجونه من اموال على شكل قروض ذات فوائد عالية وصلت نسبتها السنوية في بعض مناطق غزة مثلا الى ٤٠ و ٨٠ بالمائة •

ومن الجدير بالذكر ان الجانب الاكبر من التجار الكومبرادور في الولايات العربية كانوا من غير العرب وغير المسلمين • فلم يكن من بين العشرين مصدرا للتمور في البصرة سوى ستة من التجار العرب الذين كان قسم منهم من المسيحيين • وكان التجار اليهود يشكلون القسم الاكبر من التجار الكومبرادور في العراق وفي صنعاء ، بل ان بعض الشركات التجارية اليهودية نزلت كمساهمة في مجال نيل الامتيازات • اما البورجوازية التجارية العربية فانها كانت تتألف بالاساس من صغار ومتوسطي التجار ، تستثنى من ذلك بيروت وجبال لبنان فقط • ففي بغداد وحدها كان يوجد حوالي اربعة الاف دكان مع ٢٠٠ خان تقدم خدماتها لاقل من ١٥٠ الف شخص من سكانها • وفي الحديدة كان يعمل حوالي ٥٠٠ مخزن صغير بينما لم يتجاوز عدد سكانها (٣٥) الفا (ص ١٠٤ — ١٠٥) •

هكذا كان تكون الطبقة البورجوازية في المشرق العربي يجري في ظروف معقدة مرتبطة بسيطرة رأس المال الاجنبي واضطهاد الحكم العثماني المتخلف

فلم يستطع الرأسمال الوطني مثلا التوجه نحو المشاريع الصناعية الا في مجال محدود جدا وفي مناطق محددة • لذا اصبحت التجارة والربا والارض المجال الافضل لاستغلاله ، مما كان يؤثر بشكل مباشر على عملية واسلوب تراكم رأس المال وحركة النقود ــ وهما العاملان المهمان في التطور الاقتصادي اللاحق للمجتمع •

من خلال هذه الوقائع وغيرها توصل ل • ن • كاتلوف الى الاستنتاج بأن الطبقة البورجوازية الجديدة لم تستطع ، بالرغم من مواقعها المهمة في المجال الاقتصادي ، ان تتحول الى قوة مستقلة في الكيان الاجتماعي للمدينة العربية في تاريخها الحديث • اكثر من ذلك ان فئات كثيرة من هذه الطبقة (صغار التجار واصحاب المحلات الحرفية وغيرهم) كانت تلاقي الكثير من اضطهاد رأس المال الاجنبي والكومبرادور المحلي ، الا انها بحكم واقعها لم تستطع ان تتحرك باتجاه من شأنه فرض رياح التغيير على المجتمع المدني • وربما كانت « الانتليجينسيا » التي حصل افرادها على ثقافتهم في اوروبا هي الوحيدة من فئات الطبقة البرجوازية التي بدأت تتحرك بمثل هذا الاتجاه • ولكن حتى نشاطات هذه الفئة كانت متأثرة الى حد واضح بوزنها الكمي (قلة عددها) ، وانتماء افرادها الاجتماعي الذين كانوا بالاساس من ابناء العوائل المالكة الكبيرة ومن البيوت التجارية المعروفة •

بمثل هذا الاسلوب العلمي الدقيق ، وبالاستناد الى ارقام كثيرة ، ومعلومات مهمة ، ومن خلال نظرة ثاقبة مقارنة ، استطاع المستشرق السوفيتي الدكتور ل • ن • كاتلوف في الفصلين الاولين من كتابه اعطاء فكرة واضحة عن العوامل الاقتصادية ــ الاجتماعية التي كان من شأنها ان تؤثر على ابعاد حركة التحرر ــ الوطني العربي في بدايات مسارها التأريخي ، وهو ما نلاحظه في عرضنا للفصول التالية من الكتاب •

* * *

رافق التغلغل الاقتصادي للدول الرأسمالية في بلدان المشرق العربي تغلغل سياسي وايديولوجي واسع ، ساهم في تسريعه ضعف الدولة العثمانية وتخلفها الكبير عن الزمن في جميع المجالات ــ السياسة والاقتصاد والفكر • واتخذ هذا التغلغل ابعاده المتكاملة مع انتقال الرأسمالية الى اعلى مراحلها ــ الاستعمار ــ ، الذي بدأ مع ظهوره صراع قوي بين الدول الكبرى من اجل السيطرة على الولايات العربية الداخلة ضمن الامبراطورية العثمانية •

وكان لهذا التغلغل السياسي ــ الاقتصادي ــ الايديولوجي للدول المتطورة وجه آخر بالنسبة للشعب العربي ، كما كان عليه الامر تماما بالنسبة للشعوب الشرقية الاخرى • فقد ساهم بشكل جدي في كسر طوق العصور الوسطى الذي كان يكبت التحرك الفكري لهذه الشعوب في ظل استبداد سلاطين آل عثمان فبدأت تدخل منذ القرن الماضي ومع الخروج من ذلك الطوق ، في فلك التطور العالمي والتبادل الثقافي مع شعوب الدول الاوروبية المتقدمة • وبالنسبة لبلدان المشرق العربي هيأت التغييرات التي حدثت في القاعدة الاقتصادية وفي العلاقات الاجتماعية القائمة ، الارضية المناسبة لميلاد افكار جديدة ، وتقبل مكتسبات الدول الرأسمالية المتطورة في مجالات العلم والتكنيك والثقافة والنظريات الاجتماعية والسياسية • اي بكلمة اخرى ظهرت في المشرق العربي مقدمات جدية للتغيير والتجديد في جميع مجالات الحياة الاجتماعية •

لقد كرس ل • ن • كاتلوف لهذين الموضوعين المهمين (التغلغل السياسي للدول الرأسمالية ، والتجديد الفكري ــ الاجتماعي في المشرق العربي) الفصل الثالث من كتابه الذي يحمل عنوان « الوضع الاجتماعي السياسي » (ص ١١٢ــ١٥٨) •

يتطرق المؤلف في القسم الاول من هذا الفصل الى اطماع الدول الرأسمالية في البلدان العربية ، واساليب تغلغلها السياسي فيها ، والتي ظهرت بداياتها مع ظهور مسألة تقسيم ممتلكات الامبراطورية العثمانية • ففي نهاية

القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، بذلت كل من انكلترا وفرنسا مساعي محمومة لتثبيت سيطرتهما على مصر • واستطاعت هاتان الدولتان خلال القرن الماضي وبداية القرن الحالي فرض سيطرتهما على جميع الاقطـار العربية الافريقية ، مما مهد السبيل اكثر للتغلغل في الجناح الشرقي من العالم العربي ، لا سيما بعد ان استطاعت انكلترا فيالقرن التاسع عشر فرض سيطرتها علـــى اليمن الجنوبية والبحرين وبعض مشيخات المناطق الشرقية من شبه الجزيرة • وقد جرت محاولات مباشرة للتغلغل الصريح حتى في بعض الولايات العربية الواقعة بصورة مباشرة تحت الحكم العثماني ، كما حصل مثلا في عام ١٨٦٠ ــ ١٨٦١ عندما حاول نابليون الثالث استغلال بعض الاضطرابات الدينية فـي لبنان لفرض حماية فرنسا عليها • الا ان خلافات الدول الكبرى من اجـــل السيطرة على ممتلكات الدولة العثمانية ، وشعارها الديماغوغي حول المحافظة على وحدة الاراضي العثمانية ، قد حالت دون تمكن الدول الرأسمالية مـــن تحقيق السيطرة السياسية المباشرة على المشرق العربي حتى الحرب العالميـة الاولى • وحتى بالنسبة للكويت التي أصبحت منـذ عام ١٨٩٩ محميـة بريطانية ، فأن الاخيرة اعترفت ولو شكليا بسيادة الدولة العثمانية عليها •

اتخذ التغلغل السياسي للدول الرأسمالية في المشرق العربي ، كما يبين المؤلف ، اشكالا واساليب مختلفة كانت تعبر في كل الاحوال عن اهتمامهـــا الكبير بهذه البقعة الحساسة من الشرق الاوسط • فقد تحولت القنصليـات الاوروبية في بيروت ودمشق والقدس والبصرة وبغداد وغيرها الى مراكــز لنشاطات واسعة استهدفت تحويل هذه الرقعة العربية او تلك الى منطقة نفوذ مغلقة لهذه الدولة الكبرى او تلك ، وانها في نشاطاتها كانت تتمتع بحمايـــة واسعة منحتها اياها مواثيق دولية معينة يمتد مفعولها الى حد التدخل المباشر في بعض القضايا الداخلية • وكان القناصلة الاجانب يعتمدون في ذلك على رجال الضبطية المحليين ، بينما كان لبعض القنصليات حرسها الخاص كما كان عليه الامر مثلا بالنسبة للمقيمية البريطانية في بغداد ، والتي كانت لديها قوة

خاصة مؤلفة من ٢٥ شخصا • وكانت تحتفظ ايضا بسفينة حربية ساحلية في نهر دجلة استخدمتها مرارا ضد الناس الذين كانوا « يعتدون » على المصالح البريطانية (ص ١١٧) • وفي بعض الاحيان كان استياء قنصل أجنبي يؤدي الى (ازاحة) او نقل مسؤول كبير محلي من منصبه • وبالطبع ازداد مجال تحرك هذه القنصليات بشكل متواز (واحيانا اسرع) مع تقوية موقع الرأسمال الاوروبي في الشرق • كما بدأت منذ اواسط القرن التاسع عشر تعير خطط اليهود للاستيطان في فلسطين اهتماما كبيرا • ففي وقت مبكر من عام ١٨٣٨ قدم ممثلو الاوساط الرسمية الانكليزية مشروعا حول اقامة دولة يهودية في فلسطين تكون تحت الحماية البريطانية • كما ان تقوية حركة هجرة اليهود مع ظهور المنظمات الصهيونية كانت مرتبطة بصورة مباشرة بخطط عدد من الدول الاوروبية التي ساندت الهجرة الى فلسطين • يذكر المؤلف في هذا المجال ان المنظمات الصهيونية التي دعمت من قبل انكلترا كانت هي الاقوى من بين مثيلاتها (ص ١١٦) •

مع نهاية القرن التاسع عشر توسعت نشاطات رجال الاستخبارات الغربية واتصالاتهم في المشرق العربي • وكان هؤلاء يتجولون في اصقاعه بشتى الحجج وتسلم قسم منهم بعد الحرب العالمية الاولى مناصب مهمة في اجهزة الحكم التي اقامتها دولهم فيها مثل مس بيل وليجمان في العراق ، ولورانس في شبه الجزيرة ، وجورج ـ بيكو في سوريا وغيرهم •

يولي الدكتور كاتلوف منظمات التبشير اهتماما خاصا لانها ، كما يقول ، كانت « وسيلة مهمة للتغلغل السياسي والايديولوجي للدول الاوروبية » في البلدان العربية الاسيوية ، والتي تعود بداية وجودها هناك الى نهاية القرن السادس عشر (ص ١١٧ ــ ١١٨) • ومع ان هذه المنظمات نشطت في العراق وبشكل خاص في سوريا ، الا انها استطاعت التوغل حتى الى المناطق البعيدة والمتأخرة جدا • فمثلا استطاعت واحدة من هذه المنظمات العاملة في جنوب

العراق تأسيس فروع لها في نجد وعمان وارسال ممثلين عنها الى غيرهما من مناطق شبه الجزيرة •

قامت منظمات التبشير في نهاية القرن الماضي بتأسيس شبكة من « المؤسسات الخيرية » والمدارس في مختلف مناطق العراق وسوريا ، فقد تحول التعليم الى اهم وسائلها للتغلغل والتأثير في بلدان المشرق العربي • وهنا يكفي القول بانه خلال السنة الدراسية ١٨٩٩ــ١٩٠٠ كان ٨٦٪ (٢١ر٣١٠ من مجموع ٢٧ر٨٧٠) من طلاب سوريا (عدا جبال لبنان) يدرسون في المدارس المسيحية الاجنبية والمحلية ، علما بان عدد الاخيرة كان قليلا بالمقارنة مع المدارس الاجنبية • ومن المهم ان نشير الى ان الدراسة في مثل هذه المدارس كانت موجهة الى حد كبير لخدمة أهداف الدولالأوروبية الكبرى التي كانت مناهج هذه المدارس تحيطها بهالة من التقديس المثالي • وبينما كانت هذه المدارس تفسح المجال لتدريس جوانب مختلفة من الادب الكلاسيكي ، وحتى الرجعي الاوروبي ، كانت تضع في الوقت نفسه اسماء كتاب ومفكرين من امثال فولتير وهيجو في لائحة الاسماء الممنوعة • وكان المبشرون يتدخلون في العديد من القضايا الداخلية ، خاصة فيما كان يتعلق بشؤون الطوائف المسيحية • وكانوا في اتصالاتهم بابناء هذه الطوائف يتسببون احيانا في حدوث اصطدامات دموية بينهم كما حدث في عام ١٩٠١ في القدس • وهناك حالات غير قليلة اتخذ التبشير فيها وسيلة لاخفاء نوايا سياسية وتجسسية معينة • فمثلا كان المبشر پالجريف عميلا لنابليون الثالث ، وقد استطاع ، بحجة التبشير ، دراسة المناطق الوسطى والشرقية لشبه الجزيرة (ص ١٢١) •

وقد امتدت نشاطات رجال التبشير والقناصل والرحالة الغربيين الى اقامة اتصالات وثيقة مع عدد غير قليل من رؤساء العشائر والاقطاعيين المتنفذين وكبار التجار في اقطار المشرق العربي • ويورد ل • ن • كاتلوف امثلة حية عن ذلك : فقد اعترفت المس بيل بنفسها انها اقامت اثناء رحلتها للعراق في بداية القرن العشرين علاقات ودية مع عدد من رؤساء العشائر البدوية الذين اصبحوا

من المساندين الفعالين للادارة التي اقامها الممثلون الانكليز بعد الحرب العالمية الاولى في البلاد . كما ان زيارتها في الفترة نفسها الى جنوب سوريا والاردن اعطت نتائج مثمرة من اهمها تقوية النفوذ البريطاني بين رؤساء الدروز وعدد من شيوخ القبائل المتنقلة ، بحيث ان لورانس المعروف قد اعتمد في نشاطاته الواسعة خلال الحرب الاولى على نتائج علاقاتها والمعلومات التي جمعتها . ويؤكد المؤلف ان مثل هذه العلاقات اعطت نتائجها الملموسة بالنسبة لبريطانيا حتى قبل سقوط الامبراطورية العثمانية ، وبوجه خاص في فرض سيطرتها على الكويت .

اما الحكام الايطاليون في اريتريا فقد حققوا بعض النجاحات في هذا المجال ، في المناطق الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة ، حيث استطاعوا اقامة علاقات قوية مع عدد من اقوى شخصيات المنطقة ، ووصل نفوذهم في اليمن حد انهم كانوا يجندون هناك المرتزقة ، ويستخدمونهم مع قواتهم في حروبهم الاستعمارية ضد الحبشة وطرابلس . كما حققت اتصالات فرنسا بالنسبة لسوريا نجاحات كبيرة ايضا بحيث ان بعض الطوائف المسيحية قد طالبت قبل الحرب باقامة الحماية الفرنسية على سوريا .

هكذا كانت الاقسام العربية من الامبراطورية العثمانية تشغل في بداية القرن العشرين مكانة بارزة بالنسبة لخطط ومحاولات الدول الرأسمالية الكبرى للتغلغل في ممتلكات « الرجل المريض » وايجاد ظروف مناسبة للسيطرة عليها . يوضح المؤلف ان الدول الكبرى في ظروف النزاع المعقد فيما بينها ، وانقسامها الى معسكرين متنافسين ، حاولت كل منها اختيار انسب المناطق بالنسبة لمصالحها . ففرنسا مثلا طالبت بسوريا حيث كانت تدعي حماية الاقليات المسيحية وتتمتع بمركز اقتصادي قوي . بينما كانت انكلترا تفكر في حالة تقسيم الامبراطورية العثمانية بالعراق وشبه الجزيرة اكثر من أي بقعة اخرى من المشرق العربي . وقد توصلت هاتان الدولتان في عام ١٩١٢ الى اتفاق أولي حول تحديد مناطق النفوذ بينهما . وكانت المانيا

المنافسة الكبرى لهما في هذا الميدان ، ذلك انها كانت تخطط بدورها من اجل فرض سيطرتها الوحيدة على جميع اراضي الامبراطورية العثمانية . وكانت لايطاليا ايضا اطماعها في الاراضي العربية . وقد توصل الدكتور كاتلوف في ختام هذا القسم من بحثه الى الاستنتاج بان « التناقضات الحادة بالنسبة لمصير الممتلكات العربية التابعة للامبراطورية العثمانية كانت واحدة من العوامل المهمة في اندلاع الحرب العالمية الاولى » (ص١٢٢) .

خصص المؤلف القسم الثاني من الفصل الثالث للبحث عن طبيعة نظام الحكم العثماني الذي لم يكن يمثل لغاية اواسط القرن التاسع عشر سوى عدد من الامارات الاقطاعية تجمعها السيادة الاسمية للسلطان التركي . ولكن بدأ منذ ذلك التأريخ اتجاه واضح نحو مركزية الحكم واصلاح وضع الامبراطورية للحيلولة دون انهيارها . ومن هنا تبدأ ايضا ، وبتفاوت ، السلطة الفعلية للباب العالي بالنسبة لبلدان المشرق العربي . فقد تمكن العثمانيون من تقليص نفوذ عدد من العوائل الاقطاعية الكبيرة في بعض المناطق العربية ، وادخال السلطة في بعضها الاخر . وبالرغم من ان هذا الاتجاه الجديد قد ساعد الى حد ما على تهيئة الظروف للتطور الاقتصادي والثقافي والاجتماعي في اجزاء الامبراطورية ، بما فيها العربية ، الا انه كان قليل التأثير والنتائج بشكل عام ، خاصة بعد ان بدأ عهد السلطان عبدالحميد الاستبدادي المتخلف الذي استمر لاكثر من ثلاثة عقود تعتبر من اهم واخطر المراحل في تاريخ الشرق الادنى باسره . وقد ساهم عدد غير قليل من متنفذي الشعوب غير التركية في تثبيت دعائم نظام حكم عبدالحميد وتعميق مساوئه اكثر فأكثر ، منهم سكرتيره الخاص احمد عزت باشا وهو من دمشق ، وكان له تأثير كبير في رسم السياسة العامة للسلطان عبدالحميد .

لقد عانت البلدان العربية ، مثل بقية اجزاء الامبراطورية العثمانية ، الكثير من مساوىء سياسة عبدالحميد البوليسية ومن جواسيسه وتعاونه مع اكثر الفئات تخلفا ، وكذلك من محاولاته المستمرة لاثارة نار الفتن بين

الطوائف والعشائر المختلفة . فقد تمكن رجاله بهذا الاسلوب فقط من قمع انتفاضة عشائر المنتفك في عام ١٨٨٠ ــ ١٨٨١ ، كما انهم كانوا يبذرون بذور الشقاق في اليمن وبصورة مدروسة بين ابناء الطوائف الزيدية والشافعية والاسماعيلية . وغالبا ما كان عبدالحميد واتباعه يلجأون الى اكثر القوى رجعية في سبيل وقف عجلة التطور وقمع الحركات الثورية التي كانت تتوفر جميع شروط انفجارها وتطورها .

وقد وقف السلطان عبدالحميد بحماس ضد جميع اشكال التجديد والتطور . ففي الوقت الذي كان يدعو الى الجامعة الاسلامية ، كان يضرب بشدة عددا بارزا من رجال الفكر الاسلامي ويحارب المصلحين منهم ، بل منع دخولهم الاراضي العثمانية من مصر حيث كان مركز نشاطهم . وقد قامت السلطات في أواخر عام ١٩٠١ باعتقال الشخصية العربية المعروفة عبدالحميد الزهراوي ونفته الى حمص لانه « تجرأ » واعطى رأيه في بعض قضايا الفقه والصوفية باسلوب يختلف عن رأي بعض المتزمتين المتزلفين من اتباع السلطان . ولم يكن مصير العالم المفكر محمود شكري الالوسي باحسن من ذلك . فقد اتهمه رجال عبدالحميد بالعطف على الحركة الوهابية .

ظهر الوجه الكالح لسياسة السلطان عبدالحميد اكثر بروزا في موقفه من الصحافة . فقد اجرى سلسلة من التعديلات والتغييرات في قانون المطبوعات (سن لاول مرة في عام ١٨٥٧) بشكل يخدم أهدافه في كبت الكلمة الحرة بسلسلة من الاجراءات فاقت في تخلفها روح عهد محاكم التفتيش في اوروبا . ومن الطريف ان نشير هنا الى ان السلطان كان بنفسه رقيبا على الصحافة المركزية التي كانت تصدر في العاصمة استانبول . بل اكثر من ذلك اختفى كليا استخدام كلمات ومصطلحات مثل « الدستور » و « الثورة » و « مجلس النواب » و « الحرية » و « الديناميت » و « القنبلة » وما شابه في التأليف والنشر في عهده . وقد بلغ الامر بالصحافة العثمانية حد انها احتارت في كيفية نشر نبأ مقتل الرئيس الفرنسي كارنو في عام ١٨٩٤ . فمن جهة لم يكن من

السهل عليها نشر نبأ اغتيال رئيس دولة ، ومن جهة اخرى كانت تخشى ان تعزي « الوفاة » الى شيخوخة الرئيس الفرنسي لان السلطان بدوره قد دخل هذا الطور من عمره !

امتدت اثار هذه السياسة المضحكة الى الصحافة في المشرق العربي كذلك • فعلى سبيل المثال تم في عام ١٨٨٩ غلق احدى الجرائد البيروتية لمجرد انها تجرأت واستخدمت في مقال لها عن وصف روما كلمة « الخلافة البطريسية » • ولم تصدر في العراق وشبه الجزيرة ايام عبدالحميد سوى الصحف الرسمية • اما في سوريا ، حيث كانت تصدر صحف غير حكومية عديدة ، فقد بقيت فقط تلك التي كانت تتمسك بدقة بالقرارات الرسمية حول النشر • ومنذ عام ١٨٨٤ منع دخول الجريدة المصرية المعروفة « الاهرام »[٦] وبعض الدوريات الاخرى الى الاراضي العثمانية •

من جانب اخر فرضت السلطات رقابة مشددة على المطبوعات الخارجية • فقد تضمنت قائمة الكتب المنوعة اسماء مؤلفات عدد من ابرز كتاب ومفكري الغرب من أمثال شكسبير وروسو وزولا وفولتير وغيرهم • وكان يمنع منعا باتا تداول صحف ومطبوعات القوى المعارضة للسلطان والتي كانت تطبع في الخارج • ففي عام ١٨٩٩ تم اعتقال أحد رجال شيخ الكويت مبارك الصباح وحكم بالسجن لمدة طويلة لمجرد انه قام بتسجيل اسم سيده كأحد المشتركين في جريدة « الخلافة » المعارضة[٧] •

مست سياسة عبدالحميد الرجعية الشعور القومي للشعب العربي مثل بقية الشعوب غير التركية الداخلة ضمن الامبراطورية • فنظريا كان عبدالحميد ينظر الى « اتباعه » المسلمين نظرة متساوية على اساس مبادىء « الجامعة الاسلامية » الا انه في الواقع تبنى سياسة ادارية لم تراع فيها مطلقاالخصائص

---

(٦) علما ان جريدة « الاهرام » كانت تميل يومذاك الى العثمانيين وتناهض الوجود البريطاني في مصر .

(٧) كان الاتحاديون يصدرونها في القاهرة .

القومية للشعوب الاخرى . فمثلا كانت مناصب الولاة وكبار الاداريين الذين يعينون من العاصمة مقتصرة بالاساس على العناصر التركية المقربة من السلطان ، حريمه او حاشيته . وكان عبدالحميد يميل الى اختيار كبار المسؤولين من الولايات والشعوب الاخرى ليربطهم بهذا الاسلوب بالمركز . من هنا فان معظم موظفي المراكز الحساسة في المناطق العربية كانوا من العناصر الاجنبية . انهم كانوا من الاتراك والالبان أو البوسنيين المهاجرين. واستغل عبدالحميد قانون عام ١٨٦٤ حول اعتبار التركية اللغة الرسمية في البلاد لفرضها في جميع المجالات ، وللضغط على اللغات الاخرى . فمعرفة اللغة التركية كانت من الشروط الاساسية للتقدم في الوظائف الحكومية . كما جرى التدريس في المدارس الحكومية القليلة في الولايات العربية باللغة التركية .

ان كل هذه الامور اثارت ، كما يبين المؤلف ، حفيظة الجماهير العربية التي كانت مستاءة في الوقت نفسه من ضعف الاجهزة الادارية ، وتفشي الرشوة بين موظفيها . ويذكر انه « كان مدى الخدمات الفعلية يعتمد فقط على مدى الرشوة التي تقدم » (ص ١٣٣) . ويورد امثلة حية بهذا الصدد ، كما يستشهد بابيات للشاعر الشعبي اللبناني اسعد رستم الذي عاش في المهجر :

« ودخلت بيروت الجميلة تائقا
للاهل بعد تشوق وتحسر

فأتى الي مفتشا مأمورها
قال : افتح الصندوق ، قلت له اصبر

فغمزته ووضعت في يده مجيديا
فقال الشكر يا « حضرتلرى »[8]

---

(٨) نقلت من النص العربي ، راجع الدكتور كمال اليازجي ، الشيخ ابراهيم الحوراني في فجر النهضة الحديثة (١٨٦٤ – ١٩١٦) ، القاهرة ، ١٩٦١ ص ٨٢ .

كان من الطبيعي جدا ان يسود في ظل مثل هذا النظام التسيب ، والتهريب وقطع الطرق ، وسرقة الخزائن ، والاعتداء في جميع مجالات الحياة ، حتى ان المؤلف يذكر ان الناس في مثل تلك الظروف كانوا يخافون الالتجاء الى السلطات التركية لانهم « كانوا يخشونها اكثر مما كانوا يخشون الشقاة والسراق الذين لم تستطع هذه السلطات وضع حد لهم » (ص ١٣٤) ، فكانوا يعيثون فسادا في كل مكان ولا يهابون السلطة في شيء . بل انهم كانوا في بعض الاحيان يتلقون التشجيع المباشر او غير المباشر من لدن المسؤولين . ولهذه الاسباب وغيرها لم تتمتع السلطة العثمانية باقل سمعة وادنى احترام في الولايات العربية . وقد ولد ذلك حقدا مشروعا في نفوس مختلف الفئات ضدها .

كرس الدكتور كاتلوف القسم الاخير من هذا الفصل لموضوع شيق وفي غاية الاهمية : « الجو الاجتماعي ــ الفكري » ، وفيه يحدد الظروف الموضوعية الجديدة التي حتمت تغيير المجتمع التقليدي القديم وجعلت الناس يفكرون باسلوب جديد ، وينظرون الى الاشياء والمتغيرات في الحياة نظرة اكثر واقعية من السابق . وقد حدثت هذه القفزة المهمة بعد جمود استمر لقرون عديدة ، بفعل التطور الاقتصادي ــ الاجتماعي في القاعدة (البناء التحتي) ، وساهم في صقلها التعرف السريع على مكتسبات اوروبا العلمية والتكنيكية ، والاتصال المباشر بالثقافة الاوروبية ، وبمقاييس الحياة الاجتماعية ــ السياسية هناك . ولم تجر هذه العملية بمستوى واحد في الاجزاء المختلفة من المشرق العربي ، بل انها تأثرت بعامل الموقع وبعوامل اخرى . فبالنسبة لسوريا مثلا كانت اسرع واعمق مفعولا بحكم موقعها اولا ، ونتيجة لحملة نابليون على مصر التي امتدت اثارها المباشرة (حملة نابليون على سوريا) وغير المباشرة (حكم مصر لسوريا) اليها ايضا .

لقد لعب الشباب العربي الذي كان يعمل او يدرس في استانبول وبقية مدن الامبراطورية المتطورة دورا اساسيا في التأثير على الحياة الاجتماعية ــ

الفكرية في الولايات العربية • ففي اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تلقى حوالي ثلاثة الاف شاب عربي التدريب في مدارس استانبول العسكرية • كما تلقى اخرون علومهم في المؤسسات غير العسكرية (ص ١٣٦)• وكان هؤلاء في مركز التغيير الفكري والتحرك السياسي والاحتكاك بالخارج بالنسبة للامبراطورية كما اسهموا بانفسهم ، وباشكال مختلفة ،في هذه الحركة التي امتدت اثارها الى مختلف مجالات الحياة •

وبغض النظر عن الاهداف الحقيقية للبعثات التبشيرية ، فانها ، وبحكم واقع حياة افرادها واسلوب تفكيرهم ، تحولت ايضا الى حلقة وصل بالحضارة الاوروبية الحديثة • ويعطي المؤلف هنا بعض الامثلة الطريفة على ذلك • فمثلا كانت ايلي سمث ـ زوجة رئيس البعثة البروتستانتية الامريكية في بيروت ـ اول من نادى وعمل من اجل تأسيس اول مدرسة مدنية للبنات في الامبراطورية العثمانية • وقدمت مدارس التبشير اول مسرحية للهواة ، وقامت مؤسساته بتنظيم ندوات خاصة مفتوحة لتعريف الناس بمنجزات اوروبا العلمية والاجتماعية • ومن المهم ايضا ان نشير الى انه قد تخرج عدد غير قليل من رجال الفكر والسياسة العرب البارزين من مدارس التبشير • وبفعل جميع هذه العوامل الداخلية والخارجية بدأت في اواخر القرن الماضي نهضة شاملة امتدت اثارها الى مختلف مجالات الحياة الفكرية والاجتماعية في المشرق العربي • وهي على الرغم من اهميتها وقوة تأثيرها ، كانت تنمو وتتكامل في ظل ظروف معقدة اهمها واكثرها تأثيرا اسلوب « التفاعل بين الحقائق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقيم الروحية للشرق والغرب» (ص١٣٧)• فمثلا ان موقف معارضي التجديد قد تقوى نتيجة لواقع ان الاتجاهات الجديدة في الحياة الاجتماعية وفي تفكير الناس كانت تتفق في خطوطها العامة مع ما اتت به اوروبا التي كانت سياستها الرسمية القائمة على الاستغلال والتغلغل تثير الاستياء في نفوس الناس وتجعلهم ينظرون بحذر الى كل شيء مرتبط بها • وقد خلق هذا ـ الى جانب عوامل اجتماعية وفكرية اخرى ـ نزاعا فكريا

حادا بين المحافظين والمجددين ، ولا سيما في بدايات النهضة الجديدة • وكانت توجد ايضا عوامل اخرى مهمة (الواقع العشيري والخلافات الطائفية والصلة الضعيفة بين اجزاء المجتمع العربي وقوة التقليد وغيرها) تعيق عملية التغيير الاجتماعي •

لكن تلك العوامل ، رغم ما بلغت من القوة والتأثير ، لم تستطع ايقاف عملية التغيير ، وان استطاعت اعاقتها ، لانها اصبحت حتمية بالنسبة للمشرق العربي • فهي ظهرت للسطح بفعل قوة دفع عوامل داخلية كانت مرتبطة بالتحولات المهمة التي جرت في قاعدة المجتمع نفسه • ومن هنا امتدت رياح التغيير ــ كما يؤكد المؤلف ــ الى أكثر اجزاء المشرق العربي تأخرا ، الى شبه الجزيرة وغيرها ، حيث لم يكن بالامكان عزلها عن العالم الخارجي بواسطة سور صيني جديد • ويورد المؤلف تأكيدا لاستنتاجه هذا امثلة كثيرة عن مظاهر التغيير في شبه الجزيرة واليمن والتي استطاعت فرض نفسها بالتدريج على الرغم من جميع عواصف المقاومة التي كانت تهب بوجهها ، كما حدث مثلا اثناء مد خطوط التلغراف في الحجاز •

اما في العراق فقد جرى التغيير بوتائر اسرع ، واعطى نتائج اعمق من ذلك ، كما امتدت آثاره الى مجالات اوسع واشمل منها الادب الذي بدأ منذ النصف الثاني من القرن الماضي يبحث عن أشكال جديدة للتعبير عن مضامين جديدة كانت تهم المجتمع وتتعلق به اكثر من المضامين الكلاسيكية السابقة التي بدأت حتى هي تعبر بشكل او اخر عن الافكار الجديدة • ويورد المؤلف هنا تأكيدا لقوله قصائد الشاعر محمد سعيد الحبوبي التي بدأت تبحث عن السعادة البشرية باسلوب كلاسيكي •

وشمل التغيير المدارس ومناهجها ، وبشكل خاص بعد ان وجدت مدارس التبشير طريقها الى العراق منذ النصف الاول من القرن الماضي • وكانت هذه المدارس الجديدة تهتم بمواضيع جديدة ، وتعير القضايا الاجتماعية بعض اهتمامها ، مما جلب انظار الناس اليها كما حدث مثلا عندما

قدمت مدرسة الدومينيكان في الموصل عام ١٨٩١ أول تمثيلية في تأريخ العراق ، والتي كانت تبحث عن حياة الفلاح وعلاقته بالارض • وقد لعبت اصلاحات مدحت باشا دورا واضحا في دفع عجلة التغيير بالنسبة لبلاد الرافدين خاصة لان اثارها كانت شاملة ، وكان بامكانها تحريك الجماهير المسلمة اكثر من العوامل الاخرى • ويذكر المؤلف ان فترة عبدالحميد المظلمة قد اثرت سلبا في عملية التغيير ، ولكن لم يكن بامكانها وقف عجلتها ، خاصة بعد ان امتدت اثارها الى مختلف الاوساط والفئات الاجتماعية التي كان لبعضها وزنها وتأثيرها الكبيران على افكار الناس • ويورد الدكتور كاتلوف مثلا على ذلك الحلقات الدينية التي بدأت تعطي تفسيرات جديدة للعديد من القضايا المهمة ، مثل الحلقة التي كان يرأسها مفتي العراق محمد فيضي الزهاوي ، والحلقة التي كان يشرف عليها العالم المعروف محمود شكري الالوسي ، والتي كان الرصافي من بين المشتركين فيها • وكانت هذه الحلقات تناقش مواضيع مثل : الوضع المعاصر للاسلام ، والمشاكل الادبية ، والجديد في التكنيك الاوروبي وما شابه • وقد تطورت وقويت الاتجاهات الجديدة بشكل خاص بعد انتصار ثورة الاتحاديين • ولكن في كل الاحوال ظهرت منذ اواخر القرن التاسع عشر، وفي بداية القرن العشرين ، مؤشرات كثيرة لميلاد فكر جديد مناقض للفكر التقليدي المحافظ في العراق ، فقد كان اصحابه يؤمنون « بالتغيير في الحياة السياسية والاجتماعية على اسس جديدة » و « ينتظرون الفرصة للتعبير عن وجودهم » (ص ١٤٥) •

اما بالنسبة لسوريا (ونقصد بها دائما سوريا الكبرى) فأنها بحكم موقعها اولا ، وبحكم تكوينها السكاني ثانيا ، وبفعل مجموعة عوامل اخرى ، كانت مهيأة لتقبل التغيير واعطاء الجديد من الافكار اكثر من اي جزء اخر من اجزاء المشرق العربي ، خاصة اذا اخذنا بنظر الاعتبار واقع ان التطور الاقتصادي هنا سبق تلك الاجزاء وبشكل هيأ جميع الظروف لتحطيم اطر الاقتصاد القديم وميلاد اسس وعلاقات اقتصادية جديدة • يذكر ل • ن •

كاتلوف ان اولى مؤشرات الخروج عن اسلوب التفكير القديم في سوريا تعود الى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، والتي عبرت عن نفسها انذاك في ذلك الاهتمام الكبير ــ والجديد في مضمونه ــ باللغة العربية وبتاريخ العرب القديم • ومنذ اواسط القرن الماضي بدأ في أوساط « الانتليجينسيا » السورية ، التي كانت تمر بمرحلة التكوين ، نقاش حام حول مواضيع جدية كالعلاقة بين الدين والعلم وبين النظام الاجتماعي والدولة ، وموقع الفرد في المجتمع ، ودور واهمية الادب وما شابه • وقد جذب قضايا النظام الاجتماعي ــ السياسي في الدول الاوروبية المتقدمة ، وكذلك تطور الفكر الاجتماعي ــ السياسي في الغرب ، انظار الفئة المثقفة السورية الى حد كبير • فتوجه ابناء هذه الفئة الى قراءة مؤلفات المتنورين الفرنسيين ، وايدلوجيي الثورة الفرنسية ، والنظريات الفكرية والسياسية المعاصرة في ذلك الوقت •

ويعود الى تلك الفترة ظهور عدد من الجمعيات والمنظمات الثقافية التي ترك نشاطها ، كما يذكر المؤلف ، اثارا كبيرة مباشرة على الفكر الاجتماعي في سوريا ، كما اثر بصورة غير مباشرة في البلدان العربية الاخرى • وكان للمثقفين السوريين دور كبير في ميلاد وتطور الادب العربي الحديث والمطبوعات التقدمية والفكر الاجتماعي المعاصر على الصعيد العربي لا السوري وحده •

وقد لعبت المدارس الحديثة دورا بارزا في عملية التغيير في سوريا ، فهي لم تقتصر هنا على مدارس التبشير ، بل قامت بعض المؤسسات المحلية بفتح مثل تلك المدارس ، وكانت اولها تلك التي اسسها ببيروت بطرس البستاني في عام ١٨٦٣ • ومن المهم ان نذكر أيضا ان فتح المدارس الحديثة في سوريا لم يقتصر على الاوساط المسيحية ، فقد قامت الجمعية الخيرية الاسلامية منذ عام ١٨٧٩ بتأسيس مدارسها الخاصة • خطا التعليم النسائي ، منذ ان دشن

لاول مرة في عام ١٨٣٠ ، خطوات أوسع في سوريا مما كان عليه الامر في الاجزاء الاخرى من المشرق العربي .

اما الادب في سوريا فقد شهد تطورا نوعيا كبيرا امتدت آثاره الى الشكل والمضمون ، وقد لعب الى جانب الصحافة ، دورا واضحا في توعية الناس ، وبوجه خاص مثقفي المدن . والى تلك الفترة يعود ايضا ميلاد عدد من الجرائد والمجلات : « نفير سوريا » (١٨٦٠) و « الجنان » (١٨٧٠) و « الجنينة» (١٨٧٢)[٩] و « المقتطف » التي صدرت لاول مرة عام ١٨٧٦ في سوريا ثم انتقلت الى القاهرة منذ عام ١٨٨٢ . وقد ساهمت جميعها في نشر الافكار الجديدة التي اهتمت بها واشتركت في مناقشتها اوساط واسعة شملت الموظفين واصحاب الاعمال الحرة والمعلمين والتجار وغيرهم الذين فاق اهتمامهم بها اي جزء اخر من المشرق العربي ، وبدرجة كان يصعب على حكم عبدالحميد الاستبدادي وضع حد لها ، او تحول قوة التقاليد الموروثة دون حدوث هزة كبيرة في الافكار السائدة بين الناس والتي بدأ اقواها يعاني، باشكال مختلفة ، من ازمات جدية جعلت التجديد مهمة ملحة حتى بالنسبة لها . وبهذه المناسبة يستعرض ل . ن . كاتلوف جوانب مهمة من حركات التجديد والاصلاح في سوريا ، ويورد امثلة كثيرة وطريفة لتوضيح مسيرة التغيير في الافكار وبين الناس ، منها ما حدث في الكلية البروتستانتية السورية (فيما بعد الجامعة الامريكية في بيروت) في عام ١٨٨٢ عندما القى أحد أساتذتها محاضرة بمناسبة تخرج الدورة الطبية في الكلية ، وتطرق فيها ايجابيا الى بعض جوانب نظرية داروين مما اثار اوساط التبشير وادارة الكلية فاتخذت الاخيرة قرارا بفصل المحاضر . الا ان اصحاب التجديد والتحرر لم يقفوا مكتوفي الايدي امام سطوة التقليد ، بل عبروا عن وجودهم في ثوب المتحدي الذي يرنو الى افاق جديدة . فقامت مجلة « المقتطف » اولا بنشر نص المحاضرة ، ثم

---

(٩) يقول فيليب دي طرازي انها صدرت في عام ١٨٧١ (فيليب دي طرازي ، تاريخ الصحافة العربية ، الجزء الثاني ، بيروت ١٩١٣ ، ص ٢٢) .

اعلن قسم كبيرمن طلاب الكلية الاضراب احتجاجا على فصل أستاذهم ، وكان يقود الاضراب جرجي زيدان واسكندر البارودي • وقد ادى الامر الى حدوث صدام بين المحافظين والمضربين وتدخلت الشرطة وجرى فصل عدد من طلاب الكلية النشطين فأستقال قسم من اساتذتها البارزين بينهم يعقوب صروف وفارس نمر •

كمؤشر مهم اخر لميلاد الافكار الجديدة في المجتمع يورد المؤلف مسألة تحرير المرأة، لا سيما وان هذه المسألة خرجت هنا من مجرد التداول النظري الى حيز التطبيق العملي • اذ بدأت المرأة السورية في وقت مبكر نسبيا تساهم في الحياة الاجتماعية والثقافية ، وتعمل هي بنفسها من اجل تحرير المرأة من قيود الماضي • ففي عام ١٨٦٧ نشرت وردة اليازجي أول مجموعة شعرية لها • وبعدها بفترة قليلة بدأت ماريانا مرعش بنشر سلسلة مقالات حول تعليم المرأة في مجلة « الجنان » وجريدة « لسان الحال » • واصدرت المهاجرة السورية هند نوفل أول مجلة نسائية عربية في القاهرة في عام ١٨٩٢ ، والتي كانت تحمل اسم « الفتاة » ، وساهمت هي وعدد من اخواتها في تحرير مجلات المرأة المصرية •

تعدت نشاطات المرأة السورية هذه المجالات فدخلت منذ الربع الاخير من القرن الماضي مجال التنظيم النسوي أيضا • ففي عام ١٨٧٩ استطاعت جوليا الحوراني ، وبتشجيع من زوجها ابراهيم الحوراني ، انتؤسس اول جمعية نسائية باسم « باكورة سوريا » • وكما يؤكد الدكتور كاتلوف كان تأثير هذه الجمعية والاخريات التي تأسست من بعدها كبيرا الى درجة « انها لعبت دورا لا يستهان به في رفع الموقع الاجتماعي للمرأة السورية »(ص١٥٣)• ومن المهم ان نلاحظ بأن هذه النهضة النسوية لم تقتصر على المسيحيات ، بل انها شملت المرأة المسلمة في سوريا والتي بدأت تساهم بدورها في النشاط الاجتماعي ــ الثقافي في البلاد •

وهكذا شهدت سوريا في النصف الثاني من القرن الماضي ، وبداية القرن العشرين حركة اجتماعية فكرية واضحة المعالم • ولكن ــ كما يوضح المؤلف ــ اقتصرت الافكار البرجوازية الليبرالية او البورجوازية الديمقراطية انذاك على الفئة المثقفة في الولايات السورية الاكثر تطورا • فلم يستطع حملة هذه الافكار ايصالها الى الجماهير الواسعة لان « النخبة المثقفة في الولايات العربية كانت معزولة روحيا عن الكادحين » ، ولان « الطبقة المتوسطة التي كان بأمكانها ان تصبح حلقة وصل بين الفئات الواسعة من الناس وكبار ممثلي الانتليجينسيا » لم تكن قد ظهرت بعد (ص ١٥٤) • وهذا بالذات جعل الناس المتأخرين يبحثون ، في ظروف ازدياد الاستغلال وتعقيد ظروف الحياة المعاشية ، عن « الماضي الذهبي » ، ويسيرون وراء السراب ، مما كان يعطي التقاليد البالية امكانية الاحتفاظ بمواقع قوية في المجتمع • وهذا بالطبع كان يحدد من مجال التحرك الفكري في المشرق العربي ، وهو ما حدد له المؤلف الصفحات الاخيرة من الفصل الثالث من كتابه •

بهذا الاسلوب الجدلي حدد المؤلف معالم التحرك الفكري ــ الاجتماعي في المشرق العربي خلال مرحلة حساسة من تأريخه الحديث • وهو بذلك يعطي القارىء المتتبع امكانية فهم اعمق للعوامل التي تركت اثار بصماتها المباشرة على التحرك السياسي في الفترة نفسها • انالمواضيع التي طرحت في هذا الفصلمن الكتاب ، وكذلك اسلوب معالجتها وعرضها من جانب المؤلف ، تميط اللثام عن كوامن خفية كثيرة لحركة التحرر ــ الوطني العربي في مرحلة نشوئها ، وتعطي اجوبة مقنعة لاستفسارات كثيرة تفرض نفسها عند محاولة فهم علل نجاح هذا الحدث السياسي هنا واخفاق نظيره هناك •

* * *

هكذا تمكن المستشرق السوفيتي ل • ن • كاتلوف خلال المواد التي استعرضها ، والمناقشات التي اجراها ، والاستنتاجات التي توصل اليها في

الفصول الثلاثة الاولى من كتابه ، من تهيئة « الجو الفكري » اللازم لفهم عوامل ومقدمات نشوء حركة التحرر ـ الوطني في المشرق العربي ، واعطى الدلائل الضرورية لتسهيل تحديد نواحي القوة والضعف في تلك الحركة التي كرس لها الفصلين الاخيرين من الكتاب •

ففي بداية الفصل الرابع « الحركات الجماهيرية عشية ثورة تركيا الفتاة في عام ١٩٠٨ » (ص ١٥٩ ـ ٢٣٣) يحاول المؤلف ـ وفي ضوء الحقائق الواردة في الفصول السابقة حول السياسة الاقتصادية للعثمانيين وحكم عبدالحميد الاستبدادي ، واندماج المشرق العربي بالسوق الرأسمالية العالمية ، وما نجم عن ذلك من تعميق الاستغلال الاقطاعي وظهور الفئات الجديدة ـ تحديد تناسب القوى الطبقية في الانتفاضات والحركات التي انفجرت هنا وهناك قبل ثورة الاتحاديين • فبحكم عوامل ثابتة ، كان الفلاحون (المستقرون منهم والمتنقلون) يشكلون الجيش الرئيس لتلك الانتفاضات والحركات ، ذلك لانهم كانوا ينظرون بعين الشك والحقد الى ممثلي السلطة الذين لم يتمكنوا من القضاء على الفوضى والتسيب ، وحيثما تمكنوا من ذلك جلبوا لهؤلاء معهم الضرائب المضاعفة وسيطرة الموظفين المرتشين وامكانية اكثر لتجريدهم من الارض • وفي الوقت نفسه لم يكن الفلاح مرتاحا من التغلغل الاجنبي الذي ادى الى الخروج من الانتاج التقليدي وتعميق الاستغلال، وعبء كل ذلك وغير ذلك كان يقع على عاتقه هو لا غيره • فكان والحالة هذه يشكل ، بغض النظر عن مستوى وعيه ، الشخص الاكثر استجابة لنداء كل تحرك يعبر عن الاحتجاج او الاستياء من الوضع المتفسخ السائد ، ويعطي امل الانعتاق منه • ولكن ـ مع ذلك ـ كان يؤثر على موقفه هذا عدد من العوامل المهمة مثل العلاقات والروابط التقليدية القائمة • ولم يتخذ نضاله في هذه المرحلة بعد طابعا مناهضا للاستغلال الاقطاعي الا فيما ندر •

اما القوى الاجتماعية المدنية فانها كانت اقل نشاطا ، خاصة لان القوى الجديدة في المدينة كانت ما تزال ضعيفة جدا • فالطبقة العاملة ـ كما بينا ـ

كانت تمر بمراحل التكوين ، ولم تدرك واقعها بعد كقوة طبقية مستقلة ، كما انها لم تكن منظمة ، لذا فان تحركها ــ ان وجد ــ لم يتخذ سوى طابع عفوي، وكانت البورجوازية الصغيرة في مدن المشرق العربي تتألف انذاك . وحتى بداية القرن العشرين ، من صغار التجار بالاساس ، اي ممن كانوا على اتصال مباشر بالعلاقات الاقتصادية الجديدة : كانوا اما تجارا للمواد الاولية المحلية التي كانت تصدر للخارج ، او تجار المفرد للبضائع المستوردة . وفي الحالتين كان ظهورهم وبقاؤهم مرتبطا بالاحتكارات الاجنبية او بالكومبرادور المحلي . ومن هذا الواقع كان ينبع موقفهم السياسي ــ الاجتماعي المزدوج . فمن جهة كانوا يريدون ،بالطبع، الاحتفاظ بموقعهم الاقتصادي، ومن جهة اخرى كانوا يرغبون في الانعتاق من ضغط الرأسمال الاجنبي وكبار تجار الجملة المحليين ، الاول يدفعهم الى التروي والحذر والثاني يجعلهم مهيأين لتقبل اي تغيير من شأنه الحد من نفوذ الرأسمال الاجنبي والكومبرادور المرتبط به . يشير المؤلف الى عامل مهم اخر كان يحد من الوزن النوعي وبالتالي من تأثير هذه الفئة في المجتمع ، وهو مرتبط بحقيقة ان معظم افرادها انذاك كانوا من غير العرب او من غير المسلمين . ومن هنا كان وزن الفئات الوسطى للمجتمع المدني القديم (الحرفيون والسماسرة والتجار الذين كانوا منشغلين بالتجارة المحلية وغيرهم) اكبر من البورجوازية الصغيرة الجديدة . واستمر هذا الوضع لفترة غير قليلة ، وبالتحديد الى ان برز المثقفون على المسرح . ومما كان يؤثر على موقف هؤلاء انهم كانوا يحترفون اعمالا غير ثابتة معرضة للانحلال والزوال في الظروف الاقتصادية الجديدة (كما كان الوضع بالنسبة للحرفيين مثلا) فأصبحوا مصدرا جديدا لتزويد دهماء المدن بعناصر جديدة . ولكن لم يدفع هذا الواقع المؤلم بهؤلاء الى مجال التحرك الثوري بقدر ما دفعهم الى التمسك بالماضي بشكل رومانتيكي ، وهذا كان يجعل منهم في الوقت نفسه فريسة سهلة للفئات المدنية التقليدية العليا . فأنهم مثلا اشتركوا بحماس منقطع النظير في المذابح المسيحية بدمشق في عام ١٨٦٠ ، والتي وقف ضدها أكثر الناس وعيا من امثال الامير عبدالقادر الجزائري وغيره . ولكن مع ذلك كان

يجمع هؤلاء بالبرجوازية الصغيرة وشائج حقدهم وخوفهم الواقعي من التغلغل الاجنبـــي •

وفي هذه المرحلة التأريخية المهمة (النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) ظهر فراغ سياسي مهم في المشرق العربي كان لا بد من ملئه : الاستياء من سياسة سلاطين آل عثمان ، ومن التغلغل الاجنبي جعـل اوساطا واسعة مستعدة للتحرك ، ولكن المسألة كانت تعتمد الى حد كبير على القوى والفئات التي كان بمستطاعها قيادة مثل هـــذا التحرك • فالفئـــات البورجوازية الجديدة التي كانت مستاءة جدا من سياسة السلطة لم تكن قوية ومؤثرة وموحدة بدرجة تستطيع اخذ زمام القيادة بيدها بسهولة • ثم ان اقوى واغنى هذه الفئات ، ونقصد بها الكومبرادور ، كانت مرتبطة بألف خيط بعجلة الرأسمال الاجنبي ، لذا فانها ـ حتى في حقدها على النظام القائم ـ كانـت تتحرك في ذلك الاطار بالاساس • ففي الوقت الذي كانت ضد التسيب وضـد التفرقة في ظل الحكم العثماني ، نجد انها كانت مرتاحة من سياســـته التي فسحت المجال للتغلغل الاوروبي وتدخله الذي كان بمثابة ضمانة اكيدة لموقعها وتطورها اللاحق هي • ولكن على الرغم من ذلك تركت هذه الفئة بصماتها على الاتجاهات الفكرية والاجتماعية الجديدة في المشرق العربي •

أما البورجوازية الوطنية فانها كانت ضعيفة الى درجة لم تستطع بعـد التأثير على سير الاحداث في المدينة وخاصة في الريف • وهي ، وان تحركت ، فان مجال حركتها كان مقتصرا على المدن الكبيرة ، أي حيث كان للسـلطة وللاجنبي نفوذ كبير من شأنه حصر المعارضة بسهولة • وفي كل الاحوال كان للفكر البورجوازي العربي النامي تأثير اكبر في الاوساط المسيحية السورية •

احتفظت الطبقة الاقطاعية في تلك المرحلة مقابل ذلك بنفوذها الكبير على كادحي الريف ، بل وبدرجة واضحة على كادحي المدن ايضا • فكان الموقف السياسي للفئات المختلفة من هذه الطبقة يؤثر بشكل مباشر علـــى تحـرك الجماهير • وبطبيعة الحال لم يكن لتلك الفئات مواقف متشابهة ازاء الاحداث

الجارية ، بل ان عوامل معينة كانت تفرض تباينا واضحا في التفكير والموقف بالنسبة لها • فمثلا ارتبطت مصالح قطاعات واسعة من تلك الطبقة (كبار الاقطاعيين في المناطق الزراعية المتطورة مثل اواسط سوريا ولبنان وفلسطين ومناطق البصرة والموصل وبغداد وزعماء الطرق الدينية وغيرهم) بالنظام القائم ـ واحيانا بالسلطان نفسه ـ الى درجة انها تحولت الى خير دعم للحكم في الولايات العربية • واذا وجد من بين المنتمين الى هذه القطاعات اشخاص اتخذوا ، لاسباب محددة ، مواقف مناقضة ، فانهم ما كانوا يعبرون بها ابدا عن المصالح السياسية والاجتماعية للفئة التي كانوا مرتبطين بها اجتماعيا • الا اننا نلاحظ في المناطق البعيدة من النفوذ المباشر للحكم العثماني ، في اليمن مثلا ، موقفا مخالفا تماما للموقف الذي ذكرناه ، ذلك لان زعماء مثل هذه المناطق كانوا يدركون جيدا ان نفوذهم وبقاءهم لا يعتمدان ابدا على الوجود العثماني الذي ، على العكس من ذلك ، كانوا يرون فيه منافسا لهم لانهم كانوا يتلمسون توفر جميع امكانات اقامة سلطتهم الوحيدة •

ان هذه السياسة المركزية اثارت ايضا اشراف مكة وزعماء الحركة الوهابية • وقد وقف كل هؤلاء على رأس الحركات المعارضة القوية التي انفجرت ضد السلطة العثمانية في المشرق العربي • ومما كان يساعدهم على اتخاذ مثل هذا الموقف القيادي هو انهم كانوا ما يزالون يحتفظون بعلاقاتهم القوية بابناء العشائر في مناطقهم • وقد ادرك السلطان واتباعه هذا الواقع ، فكانوا يحاولون بشتى الاساليب شراء ذمم رؤساء العشائر وربطهم بالبلاط • الا ان محاولاتهم هذه ، والتي لم تكن سوى وجه اخر للسياسة المركزية الجديدة ، لم تعط السلطة نتائج ملموسة كبيرة •

ولكن قيادة هؤلاء الرؤساء والزعماء للحركات المسلحة التي وقعت قبل ثورة الاتحاديين قد اثرت على طابعها العام ، وعلى ديمومتها واستيعابها للجماهير تأثيرا كبيرا جدا • فبما ان نفوذ كل رئيس ثائر كان محصورا بين ابناء عشيرته ، أو في احسن الاحوال بين عدد من العشائر المتحالفة ،فان الطابع

المحلي الضيق كان يفرض نفسه دائما على الحركات التي تنفجر هنا وهناك ، والتي كان من الصعب جدا دفعها في مجرى موحد • وقد استغلت السلطة العثمانية هذه الحقيقة وبذلت كل ما في وسعها لبث التفرقة والشقاق بين العشائر والطوائف المختلفة حتى لا يجتمع شملها وتتوحد كلمتها •

هكذا ، ومن خلال هذه اللوحة لتناسب القوى الطبقية ، يحدد الدكتور كاتلوف الموقع الحقيقي للفئات والطبقات المختلفة في حركة التحرر الوطني في المشرق العربي • وهذا ايضا يساعد كثيرا في فهم الابعاد الحقيقية للانتفاضات التي وقعت هناك قبل ثورة الاتحاديين ، ومدى تأثيرها ونتائجها بالنسبة للتطورات السياسية في هذا الجزء من الشرق الاوسط •

والانتفاضات التي وقعت خلال تلك المرحلة التاريخية كانت كثيرة ومختلفة في طابعها ، دوافعها المباشرة ونتائجها ، وان كانت متفقة في خطوطها العامة ودوافعها غير المباشرة • يستعرض المؤلف هذه الحركات المناهضة للحكم العثماني حسب تسلسلها الزمني ومناطق حدوثها، فيتكلم اولا عن «الانتفاضات الجماهيرية في سوريا وفلسطين » خلال الفترة ١٨٤٠ ــ ١٨٦٠ ومنها انتفاضة حلب لعام ١٨٥٠ وانتفاضة حوران لعام ١٨٥٢ وانتفاضة العلويين في جبل الانصاري في عام ١٨٥٤ وغيرها • ويتكلم أيضا بشكل خاص عن « الحركات الفلاحية في لبنان » والتي كانت لها خصائصها المميزة • فهنا ، على العكس من المناطق الاخرى ، ليس من النادر ان نرى الفلاح والاقطاعي في خطي نار متقابلين •

يبحث المؤلف ايضا عن الانتفاضات التي حدثت في العراق ، خاصة في مناطق الفرات الاوسط ، والتي كانت ، كما يقول عنها، « الشكل الفعال الوحيد للتعبير عن استياء الجماهير » (ص ١٨١) • كما يتكلم بشيء من التفصيل عن الحركات والانتفاضات في مناطق شبه الجزيرة ويعطي مكانا خاصا لعرض احداث « الانتفاضة اليمانية » • ويحاول في دراسته لجميع هذه الانتفاضات وغيرها ، البحث عن عواملها الخفية المحركة ، ومدى نجاحها او

فشلها مع تبيان اسباب كل ذلك . المهم ان هذه الانتفاضات بالرغم من جميع نواقصها وجوانب الضعف فيها (ص ٢١٥ ـ ٢٣٣)قد ادت الى رفع الوعي القومي بين الناس وساهمت بشكل جدي في اضعاف السلطة العثمانية في المشرق العربي ، وفي انحلال الامبراطورية العثمانية ككل ، وتحرير بعض المناطق العربية من نفوذها . وساهم كل ذلك ، وبدرجات متفاوتة ، في تكوين الفكر القومي العربي ، وهو الموضوع الذي كرس له المؤلف الفصل الخامس والاخير من كتابه .

ان ميلاد وتكوين الفكر (لا الشعور) القومي كظاهرة سياسية ـ اجتماعية مهمة تحتاج الى ظروف خاصة ومناخ ملائم لقولبته في اطار فلسفي يتحول في مرحلة معينة الى قوة دفع كبيرة يعتمد عليها ميلاد او انفجار الاحداث الجديدة وتطورها . وبالنسبة للمشرق العربي ، كما كان عليه الامر بالنسبة لبقية شعوب المنطقة ، ساعد ظهور وتطور اسس العلاقات الرأسمالية في الاقتصاد وكذلك تنشيط العلائق الاقتصادية المتبادلة بين المناطق المختلفة على حساب انحلال انعزالها الاقتصادي السابق ، ساعد في تهيئة الظروف الموضوعية اللازمة للتراص القومي ـ الشرط الاساس لميلاد الفكر والادراك القوميين ، لظهور الهاجس الوطني ـ القومي البورجوازي كجزء اساس للايديولوجية البورجوازية في المراحل الاولى من نشوئها وتطورها .

وكما يبين المؤلف ، فأن عملية بعث الادراك القومي في المشرق العربي قد مرت بدرب طويل ،ولكن مع ذلك فقد وجدت في القرن التاسع عشر المؤشرات الكافية في جميع المستويات الاجتماعية والتي تبين ظهور هذه العملية انذاك . المهم هنا انه توصل الى الاستنتاج ، وبالاستناد الى حقائق كثيرة ملموسة بان عناصر ادراك الشخصية القومية بدأت تتغلغل منذ القرن الماضي ، ولو بشكل غامض ، الى فكر الجماهير الواسعة ايضا . اي ان مثل ذلك الادراك لم يقتصر على النخبة فقط . وهنا لعبت الانتفاضات المختلفة دورها . فانها بانفجارها ضد الادارة العثمانية كانت تتسم بطابع معاد للدولة التركية فأثرت والحالة

هذه في العلاقات بين الترك كشعب حاكم والعرب كشعب محكوم • وقد ترك هذا الواقع انعكاسات مباشرة في المجال الايديولوجي • وهنا يستشهد ل • ن• كاتلوف باقوال القنصل الفرنسي في بغداد الذي اكد « انبعاث التفاخر بغابر ايام العرب في بداية القرن الماضي » • واثناء انتفاضة حلب لعام ١٨٥٠ رفع الثوار شعار تبديل السلطان التركي بآخر عربي (ص ٢٣٤) •

ولكن لم ينم الشعور بوحدة القومية العربية بين الجماهير بنفس سرعة الشعور بالتمييز عن المجموعات القومية الاخرى •

وهنا يورد المؤلف ما ذكره الشخصية البارزة عبدالرحمن الشهبندر من ان الناس كانوا ما يزالون يتأثرون بمفاهيم « الخلافة » و « الامامة » اكثر من « الوطن » و « الشعب » • ولكن مع ذلك بدأوا بالتدريج يعيرون الشخصية القومية والانتماء القومي اهتماما اكبر فأكبر • اما الفئة المثقفة فأنها ادركت بسرعة الاهمية السياسية والاجتماعية لمثل هذه المفاهيم واصبح عناصرها رواد صياغتها ونشرها • وقد كرس كاتلوف قسما خاصا من الفصل الخامس لهذا الموضوع المهم « رواد الفكر القومي ــ الوطني العربي » (ص ٢٣٦ ــ ٢٥٦) •

في هذا القسم يستعرض المؤلف نشاطات وافكار رواد الفكر القومي البورجوازي العربي ويحدد جوانب القوة والضعف في مواقفهم وارائهم • وقد وجه هؤلاء في البداية اهتمامهم الى اللغة واحياء التراث وبعث الماضي التليد ، وبدأوا يفهمون بالتدريج اهمية الجوانب الاخرى من الحياة الاجتماعية والسياسة • كما ان الوطن العربي لم يعن بالنسبة لم سوى سوريا والعراق والحجاز واليمن ونجد • ولم يتمكن هؤلاء من الاجابة على سؤال مهم وملح فرض نفسه في تلك المرحلة • فالفكر القومي كان بحكم الواقع موجها انذاك لخدمة بناء مجتمع بورجوازي متحرر ، اي انه ظهر كنقيض للاقطاع وعلاقاته واسلوب انتاجه المتمثل في النظام العثماني واسسه ودعائمه • ولكن ظهر في الوقت نفسه خطر كبير اخر بالنسبة للمشرق العربي تمثل في التغلغل الاجنبي

وامكانية تحويل اقطاره الى مستعمرة خاضعة للدول الرأسمالية . فأصبح هؤلاء الرواد البعيدون عن الجماهير امام اختيار اهون الشرين . فبعضهم كان يرى في الاول خطرا اكبر فوجه جل نشاطه ضده ، واخرون رأوا في الثاني ذلك الخطر الذي يجب الوقوف بوجهه . وقد لعبت الانتماءات الدينية والطائفية وحتى العشائرية دورها في اتخاذ الموقف المحدد ، اي ان الرواد لم يبلغوا بعد مستوى السمو الفكري القومي المتكامل الذي كان من شأنه تجاهل مثل تلك الانتماءات . وقد انعكس ذلك في الفكر بشكل مباشر . فالرواد المسلمون اصحاب التجديد والتحرر كانوا يريدون التغيير بالاساس للوقوف بوجه اوربا ، بينما كان الرواد من المسيحيين (وكانوا يشكلون الأكثرية) يرون الشر كل الشر في حكم سلاطين آل عثمان . فانعكس الاول والثاني في الاراء والنظريات والاجتهادات التي تحولت باختلافها الى عائق امام بلورة فكر قومي موحد .

وفي ضوء ذلك ينظر المؤلف الى نشاطات وافكار بعض المثقفين العرب الاوائل مثل كتابات رزق الله حسون ، واحمد فارس الشدياق ، وبطرس البستاني ، وناصيف اليازجي وغيرهم . وقد اصدر الاول من هؤلاء اول جريدة عربية غير رسمية في عام ١٨٥٥ باسم « مرآة الاحوال » ، التي اصبحت بسرعة واحدة من اوسع صحف الامبراطورية انتشارا . وقد كان صاحبها يؤمن بأمكانية تحرير العرب بمساعدة اوربا ، فوقف ضد السيطرة التركية وضد اراء الذين كانوا يدعون الى التفاف الشعوب المسلمة حول السلطان مثل الشدياق وغيره . ولكن سرعان ما ترك التناقض بين النظرية والتطبيق في السياسة الرسمية لاوروبا اثاره المباشرة على فكر الرواد الذين بدأوا يفكرون بايجاد حل للقضية العربية في الاطار العثماني ، هذه القضية التي بدأت ابعادها بالتكامل منذ ان انتقل ادراك الشخصية القومية في الفكر الى الشعور بوجود حقوق قومية ثابتة لا بد من النضال من اجل ضمانها .

وكما يذكر المؤلف ، فان الاتجاه نحو الاستقلال السياسي في الفكر القومي العربي بدأ يتبلور منذ فترة مبكرة نسبيا • وهنا يورد قصائد ابراهيم اليازجي كمؤشر لذلك ، خاصة تلك التي قام بالقائها في اجتماع مغلق ضم مجموعة من مثقفي بيروت في ٥ شباط ١٨٦٨[١٠] •

كان لا بد من ايجاد وسيلة لنشر وتحقيق اهداف الفكر القومي الذي بدأ ينتقل من دور التكوين الى دور التبلور والتطور ثم النضوج • وهنا برزت الحاجة الى وجود تنظيمات خاصة تأخذ على عاتقها مثل تلك المهمة الملحة ، فقام خمسة من طلاب الكلية البروتستانتية السورية في عام ١٨٧٥ بتشكيل اول جمعية سياسية معروفة في تأريخ العرب الحديث صاغت الطموحات القومية للشعب • وبالاستناد الى محتويات ثلاثة من منشورات هذه الجمعية ، وعن طريق دراسة مذكرات بعض اعضائها ، توصل المؤلف الى الاستنتاج بان « الاهداف الرئيسة للجمعية قد حددت بشكل واضح الى حد كبير : فقد ربطت شعارات ديمقراطية عامة متضمنة هجوما شديدا على الحكومة المركزية للامبراطورية العثمانية باخرى قومية في وحدة متكاملة » (ص ٢٤١) •

---

(١٠) اغلب الظن يقصد قصيدة اليازجي المعروفة التي يقول في مطلعها :

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

فيم التعلل بالامال تخدعكم
وانتم بين راحات القنا سلب

لا دولة لكم يشتد ازركم
بها ولا ناصر للخطب ينتدب

جاء في المنشور الاول[11] : « ابناء سورية : ان اصلاح الترك[12] محال، والا فما الذي يمنعهم من ان ينصلحوا منذ عشرين سنة الى الان ،وقد تعهدوا بشرفهم للرعية مرارا لا تحصى بالاصلاح ، فماذا تؤملون منهم ؟ » • وجاء فيه ايضا : « الا يوجد بين عقلائنا وابناء وطننا وذوي حميتنا اناس يقدرون ان يتولوا امورنا ، ويغاروا على شرفنا ، وانهاض وطننا ونحن مليونان فقط أبناء وطن واحد »[13] • وقد ختمه أصحابه بالقول : « أما نحن فقد نذرنا اموالنا ونفوسنا فدية عن الوطن ، فلم تعد لنا بل له ، فوالله العظيم لنقلقن راحة الموت التي انتم فيها ولو شربنا كأس الحمام • ومن يعش ير » •

ويتوجه المنشور الثالث الى « اهل الوطن » مذكرا اياهم كيف ان الحكام « امتهنوا حرمة كتبكم » و « سنوا نظامات تقضي بتلاشي لغتكم الشريفة ، وسدوا ابواب النجاح واتخذوكم ارقاء كأن لا شيء من شعائر الانسانية عندكم • وقد كنتم اصحاب الحل والعقد ، ومنكم ظهر اولو العلم ، والفضل ، وبكم اهلت البلاد وامتدت الفتوحات ، وعلى قواعد لغتكم بنيت اصول الخلافة التي اختلسها منكم الاتراك ••• » • وهنا يستعرض اصحاب المنشور منهاج عمل جمعيتهم واهدافها ، وكما يقولون ، انهم توصلوا الى اقرارهما « بعد الائتمار مع اخوانهم (في النص اخواننا) في أقصاء البلاد » • وهم يهددون بكل صراحة بأنه في حالة عدم تلبية مطاليبهم فأنهم يتقاضون « الى حد السيف » من اجل تحقيقها ، وهذه الاهداف هي :

---

(١١) هذه المناشير كانت خطية ، وقد ظهرت في دمشق وبيروت وطرابلس وغيرها . تحتفظ سجلات وزارة الخارجية البريطانية بثلاثة منها ،احدها بصورته الاصلية وقد وجد معلقا على الابواب والجدران في شوارع بيروت في ٢٧ حزيران ١٨٨٠. (راجع : « مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق » ، المجلد الثاني والاربعون ، الجزء الرابع ، تشرين الاول ١٩٦٧ ، ص ٧٨٧ — ٧٩٢) •

(١٢) نقل من النص العربي دون تصرف . راجع المصدر السابق ، ص٧٨٧ .

(١١٣) لم يقتبس المؤلف نصا سوى المقطع الاول من المنشور ، بقية النصوص منقولة من جانبنا من المصدر السابق .

« اولا ـ استقلال نشترك به مع اخواننا اللبنانيين بحيث تضمناالصوالح الوطنية .

ثانيا ـ ان تكون اللغة العربية رسمية فيالبلاد ،وان يحق لابنائها الحرية التامة في نشر افكارهم ومؤلفاتهم وجرنالاتهم بمقتضى واجبات الانسانية ومقتضيات التقدم والعمران .

ثالثا ـ ان تنحصر عساكرنا في خدمة الوطن وتتخلص من عبودية الرؤساء الاتراك ... » .

وفي خاتمة المنشور مقاطع من رائعة اليازجي « تنبهوا واستفيقوا ايها العرب » .

كما نرى ان مضامين المناشير الثلاثة تعبر بوضوح تام عن التذمر الكبير من السلطة وسياستها . وفيها تحريض واضح على الانتفاض وتمسك شديد بمفاخر العرب ، ولغتهم وتأكيد على طاقاتهم وحقوقهم . وكما يلاحظ الدكتور كاتلوف فان الطابع القومي فيها غلب الطابع الديني الذي استخدم بدوره لخدمة الاول منهما . ولكن في الوقت نفسه تشير مضامين هذه المناشير الى المراحل الاولى من تكوين الفكر القومي . فقد طالب مؤسسو الجمعية بالاستقلال لوطنهمالصغير سوريا فقط ، ولم يتمكنوا بعد من تحديد معنى الاستقلال القومي بمفهومه الواسع . ومع ذلك يعتبر تأسيس الجمعية الاولى بمثابة تدشين بداية مهمة لاسلوب جديد في النضال تبعها تطور كمي ونوعي ذو تأثير فعال على النضال التحرري وبلورة الفكر القومي ـ الوطني في المشرق العربي . ومن الجدير بالذكر ان تأسيس هذه الجمعية ونشاطها قد رافق تماما فترة الحركة الدستورية وقمة نجاحاتها في الامبراطورية العثمانية والتي تمخض عنها دستور عام ١٨٧٦ .

بعد ذلك يستعرض المؤلف النشاطات والاثار التي تركتها بعض حركات التجديد في الاسلام والتي جاء طابعها السياسي ـ الاجتماعي ردا على التغلغل

الاوروبي وعلى محاولات عرض حضارة العالم الرأسمالي في ثوب مثالي على العرب والشعوب المسلمة • كما كانت بطابعها ذلك بمثابة بديل للنظـــام العثماني الذي بدأ الانحلال ينخر في كل جزء منه • وفي هذا المجـــال يولي المؤلف حركة جمال‌الدين الافغاني الذي « ظهر على المسرح السياسي للبـلاد العربية في بداية السبعينيات » اهتماما كبيرا ، خاصـــة لان « اراء الافغاني كانت تعكس التناقض المتزايد والحاد بين شعوب الشرق المضطهدة والرأسمالية الاوروبية التي دخلت مرحلة الاحتكار » ولان هذه الاراء ، بالرغم مـن جميع نواقصها ، « اثرت بشكل ملحوظ على تطور الفكر الوطني ـ الاجتماعي في البلدان العربية » (ص ٢٤٨) • وقد وصل ذلك الفكر في اطار حركات التجديد الديني الى الرأي حول ضرورة اقامة خلافة عربية ، وهو ما يرى فيه الدكتور كاتلوف انعكاسا خاصا « لظهور ونمو محاولات العرب في ســـبيل التحرر القومي » (ص ٢٥٥) • وكان عبدالرحمن الكواكبي ـ احد تلامذة الافغاني ـ رائد هذا الاتجاه الجديد •

وهكذا نلاحظ ان الاستقلال القومي ، كمخرج عملي لمشاكل المشـرق العربي في تلك المرحلة التأريخية ، قد عبر عن نفسه بأشـكال مختلفـة في الاتجاهات الفكرية التي ظهرت وتطورت في القـرن الماضي وبداية هـــذا القرن • صحيح ان اصحاب ذلك الرأي لم يكونوا يشكلون بعد سوى اقلية صغيرة ، الا ان الذي اثر على نتائج نشاطاتهم بشـكل اكثر كان ـ في رأي المؤلف ـ انعزالهم أو بعدهم عن الجماهير والحركـات الجماهيريـة التي لم يثقوا بطاقاتها الكامنة ، وهم بذلك لم يستطيعوا اختيار الـــدرب الاصوب لتحقيق اهدافهم وشعاراتهم • فكان قسم منهم يفكر في مساعدة الـــدول الاوروبية الكبرى • وكان اخرون يؤمنون بانقلابات وتغييرات فوقية • والحالة الوحيدة التي بدأت الانظار فيها تتوجه نحو الحركات الجماهيريـة اقتصرت على الاهتمام المتزايد الذي بدأ رجال الفكر في المشـــرق العربي يبدونـه للانتفاضات والحركات المسلحة التي شملت مختلف مناطق شبه‌الجزيرة ،فانهم بدأوا يفهمون جدوى ذلك الاسلوب من النضال لتحقيق الهدف •

اذن شهد المشرق العربي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ميلاد وصراع وتفاعل اتجاهات فكرية جديدة مهمةظهرت ،قبل كل شيء ،نتيجة تغييرات سريعة في قاعدة المجتمع نفسه . الا انها ـ بعد ميلادها ـ تأثرت ايضا ببعض العوامل الخارجية التي ساهمت بشكل او اخر في تطويرها وصياغتها . وفي مقدمة هذه العوامل الخارجية تأتي حركة تركيا الفتاة ونهوض اسيا ، وهما الموضوعان اللذان كرس لهما المؤلف القسم الاخير من الكتاب . فقد تأثر المثقفون العرب بأفكار الاولى ، وتحولت اجزاء من بلادهم الى مراكز لنشاطات زعمائها . كما كان يربطهم بهؤلاء حقدهم المشترك على النظام الحميدي الاستبدادي المتخلف ، واصبحت مطبوعات الحركة بمثابة حلقة وصل اخرى بين المثقفين العرب والافكار البورجوازية الديمقراطية الغربية . وكما يذكر المؤلف ، ففي رأي قسم كبير من رواد الفكر القومي العربي الاوائل انه كان بالامكان ضمان طموحات العرب عن طريق « تحقيق مبادىء المساواة امام القانون وفي الحقوق والواجبات ، وادخال نظام حكم تمثيلي وتحديد سلطات السلطان » (ص ٢٥٧) وهي المبادىء الاساسية لحركة تركيا الفتاة .

جذبت افكار حركة تركيا الفتاة ، واساليب نضالها ، الشباب المثقف العربي المتذمر من حكم عبدالحميد بشكل متزايد بحيث ساهم الكثيرون منهم بصورة مباشرة في الحركة وتنظيماتها ومطبوعاتها ، وتأثرت بها المنظمات والصحافة العربية ، ولا سيما تلك التي كانت تعمل وتطبع في الخارج . وقد تحولت القاهرة الى مركز من اهم مراكز الحركة ، وفيها بدأ انصارها اصدار عدد من الصحف المعارضة للحكم والتي وان كانت تصدر بالاساس بالتركية الا انه كان من بينها عدد من الصحف التي كانت تصدر باللغتين العربية والتركية مثل « خواطر » و « اميد » و « الخلافة » و « الشورى العثمانية » وغيرها . وقد لعبت هذه الاخيرة التي تأسست في عام ١٩٠٧ ، دورا بارزا بين الناس . ويعطي المؤلف امثلة كثيرة وحية عن التعاون الوثيق بين زعماء الحركة من الاتراك والشخصيات العربية المعارضة لحكم عبدالحميد ، وعن نشاطات حركة

تركيا الفتاة في الولايات العربية ، وكذلك عما لاقاه الوطنيون العرب من ملاحقة جراء تأييدهم لافكار ونشاطات الحركة وزعمائها •

لقد اثر « نهوض اسيا » على النضال التحرري والفكر الديمقراطي بين معظم شعوب الشرق• وبالنسبة للشرق الاوسط بالذات ترك حادثان مهمان وقعا في هذه الفترة اثارا مباشرة على شعوبه : اولهما الحرب الروسية ـ اليابانية (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥) وثانيهما هو الثورة الروسية عام ١٩٠٥ • وكان لهذين الحادثين مغزاهما الكبير • ففي الاول انتصرت دولة اسيوية على دولة اوروبية لها اطماعها الواسعة في الامبراطورية العثمانية ، وحققت جيوشها انتصارات كثيرة على القوات التركية خلال سلسلة من الحروب وقعت بين الطرفين • وبالنسبة للثاني تحدت شعوب روسيا ، وباشتراك فعال من جانب الطبقات الكادحة ، النظام القيصري الذي كان يمثل واحدا من اكثر الانظمة الاستبدادية المعروفة في العالم • وعلى ما يبدو فان المثقفين بدأوا يتابعون بشغف تطورات مثل هذه الاحداث • فكتب سلامة موسى عن فرحة الناس بانتصار اليابان « لان روسيا كانت تمثل اوروبا التي كانت تنتمي اليها انكلترا » • واعتبر شاعر سوري سقوط ميناء روسي على ايدي اليابانيين بمثابة فرحة لكل الشرق ، ومأساة للغرب (ص ٢٧٨) • وتركت الثورة الروسية ايضا اثارا معينة على الفكر الثوري والنشاط السياسي للمثقفين والجماهير الكادحة بين الشعوب الاخرى ، فظهرت مفاهيم جديدة حول النضال المشترك ، ونشطت الجمعيات السياسية اكثر من السابق وبدأت اساليب جديدة في النضال • ويورد هنا المؤلف شواهد كثيرة منها مظاهرة اول مايس ١٩٠٧ في بيروت التي ، كما يقول عنها ، نظمتها « مجموعة من المثقفين العرب التقدميين » (ص ٢٨٢) •

وهكذا ساهمت مجموعة عوامل فعالة ، داخلية بالاساس ، وخارجية ، في تكوين حركة التحرر ـ الوطني في المشرق العربي والتي اصبحت ملامحها واتجاهاتها وقواها المحركة واضحة الى حد كبير قبل ثورة الاتحاديين في عام

١٩٠٨ ، وقد تركت طبيعة تكوين هذه الحركة انذاك اثارها الواضحة على تطورها اللاحق فيما بعد • فهي منذ ميلادها كانت حركة تمثل طموحات مشروعة لشعب مضطهد اراد في البداية الانعتاق من الاستبداد والتخلص من التخلف ثم ربط هذا وذاك بالتحرر القومي والبناء الذاتي • فانعكس كل ذلك في افكار الناس وفي ايديولوجية الحركة نفسها التي كانت بحكم جميع العوامل حتمية تأريخية مشروعة •

* * *

من هذا العرض لكتاب المستشرق السوفيتي ل • ن • كاتلوف « نشوء حركة التحرر ــ الوطني في المشرق العربي » يظهر ان بين ايدينا مجهودا علميا قيما حقا ، تمكن صاحبه من الجمع بشكل خلاق بين النظرية (التفسير المادي للتاريخ) والتطبيق (واقع الاحداث وتطورها في المشرق العربي) • فالقاريء والمتتبع يحس في كل صفحة من الكتاب بالحركة والتغيير ، بالربط الموضوعي للاحداث والتفسير المنطقي لوقوعها ، لنجاحها او فشلها مع تحديد واضح لاثارها في الحالتين •

وما كان باستطاعة المؤلف تحقيق مثل هذا النجاح ، بالطبع ، دون الاستناد الى مجموعة كبيرة من المصادر بشتى اللغات ، بما فيها مصادر اصيلة وموثوقة • فقائمة مصادر الكتاب تشير الى اسماء ثلاثمائة وخمسين كتابا ومؤلفا وتقريرا ودورية ، مائة وتسعة وعشرون منها بالروسية ، ومائة وواحد وعشرون منها بالعربية ، وسبعة وسبعون منها باللغات الانكليزية والالمانية والفرنسية ، وثلاث وثلاثون منها عبارة عن دوريات رسمية وشبه رسمية مع صحف مختلفة • ونود ان نجلب الانتباه هنا الى بعض المصادر الروسية القديمة التي تحتوي على معلومات وحقائق قيمة هي في مستوى التقارير والوثائق البريطانية والفرنسية ، وفيها اشارات لاحداث قلما يوجد لها مثيل في المصادر الاخرى • فعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر اننا لم نعرف حتى الان ان السلطات في بغداد قد اكتشفت في صيف عام ١٩٠٢ مجموعة كبيرة

من البيانات السرية لحركة تركيا الفتاة مع عدد من الصحف المعارضة للسلطان والتي كانت تصدر في الخارج لدى عدد من الضباط والجنود في ثكنات الجيش مما ادى الى اعتقال ستة عشر ضابطا وارسالهم مخفورين الى استانبول (ص ١٦٩) • ان الكشف عن مثل هذه الحقائق سوف يساعد حتما في القاء ضوء اكثر على و قائع واثار بعض الاحداث المهمة في تاريخ المشرق العربي الحديث •

ولكن على الرغم من ذلك يحس في الكتاب بفراغ عدم استخدام بعض المصادر المهمة عن تلك الفترة ، خاصة تلك التي الفها بعض المشتركين في احداثها • وهنالك ايضا بعض المصادر القليلة التي تلقي الضوء على جوانب معينة من الحياة الاقتصادية لهذا الجزء او ذاك من المشرق العربي كان بامكان المؤلف الاستفادة منها في درسه لنواح مختلفة من مسألة اندماج الولايات العربية بالسوق الرأسمالية العالمية • ومن المصادر الاصيلة المهمة التي لم تستخدمها الصحف العربية الصادرة في تلك الفترة ، والمليئة بالمعلومات الطريفة عن سياسة السلطة العثمانية تجاه الولايات العربية ، وعن التحرك السياسي والاجتماعي في هذه الاخيرة وعن انعكاسات ثورة الاتحاديين في المشرق العربي • ولئن كان للمؤلف عذر في عدم توفر مثل تلك الصحف في المكتبات السوفيتية ، فانه لا عذر له في عدم استخدامه حتى لجريدة « الاهرام » المصرية التي تتوفر ـ حسبما نعلم ـ اعدادها القديمة هناك وهي ، وان لم تطبع في المشرق العربي ، الا انها كانت من اولى واهم جرائد الوطن العربي وفيها معلومات قيمة ايضا عن الدولة العثمانية وعن ولاياتها العربية •

واننا في الوقت الذي ننتقد فيه الدكتور كاتلوف من ناحية اهماله غير المتقصد لبعض المصادر المهمة[١٤] نود في الوقت نفسه التأكيد على حقيقة ان

---

(١٤) من الجدير بالذكر ان الدكتور كاتلوف كان في زيارة علمية للعراق بدعوة من جامعة بغداد استغرقت عدة اشهر قضاها بين المكتبات وفي الاتصال بالشخصيات العلمية والثقافية مما يساعده حتما في ملء هذا الفراغ في طبعة قادمة لكتابهالذي اغلب الظن هو موضوع رسالته الجديدة لنيل شهادة دكتوراه ناوك (العلوم) .

العبرة ليست في استخدام اكبر كمية من المصادر بقـــدر ما هي في كيفيـة استخدامها ووضع مضمونها في اطار علمي متماسك يعطي فكرة واضحة عـن البحث ، وهو ما وفق اليه المؤلف بكل جدارة ٠

والمهم ، والجديد ايضا في الكتاب ان صاحبـه درس حركة التحرر ــ الوطني في المشرق العربي كوحدة متكاملة ، متصلة احداثها ببعضها البعض بشكل عضوي وكتعبير عن واقع قومي محدد ٠ وانه نظر بالمنظار نفسه الـى الحياة الاقتصادية ــ الاجتماعية وتطوراتها ، اي انه قدم لوحة موحدة استند في رسم ابعادها الى واقع الارض والنفسية واللغة والمصالح المشتركة والتاريخ والمصير المشترك ٠ وهو بهذا يكون اول مستشرق ــ حسبما نعلم ــ يعطي الموضوع مثل هذا البعد وبهذا العمق في البحث والاستنتاج ٠

والمهم ايضا ان المؤلف لا ينظر بشكل جامد ــ كما كان يفعل بعض المستشرقين ولم يزل يتمسك به بعض الكتاب السطحيين ــ الى تأثير انعكاسات بعض الاحداث العالمية الكبيرة على التطور الفكري وبالتالي التحرك السياسي بين الشعوب المضطهدة ٠ فمثلا انه يعترف بان تأثير الحرب اليابانية ــ الروسية على العرب كان أكثر بكثير من تأثير الثورة الروسية للعـام ١٩٠٥ ، وذلك بغض النظر عن عظمة الاخيرة وعمق اشعاعاتها الثورية وهو في مثل هذا الرأي ــ وبالنسبة لغيره ــ يستند الى الحقائق المادية الملموسة وبها يعطي التحليـل العلمي السليم لهذا الواقع التأريخي او غيره (ص ٢٧٧ ــ ٢٧٩) ٠ وبالاسلوب الموضوعي نفسه يعالج مثلا حركة التبشير في المشرق العربي ٠ ففي الـوقت الذي يكشف فيه النوايا الخفية والاهداف الحقيقية للبعثات التبشيرية ، يقيم دورها الكبير كحلقة وصل مع الحضارة الاوروبية وكاحدى اهم وسائل نشر التعليم الحديث في الولايات العربية ٠

في الواقع ان نواحي القوة والتجديد في الكتاب كثيرة جـــدا ٠ ومن الطبيعي في الوقت نفسه الا يخلو مثل هذا الجهد الكبير الذي يعالج موضوعا حساسا ومعقدا من بعض الهفوات القليلة التي نعترف مقدما بانها لا تقلل ابدا

العبرة ليست في استخدام اكبر كمية من المصادر بقـــدر ما هي في كيفيـة استخدامها ووضع مضمونها في اطار علمي متماسك يعطي فكرة واضحة عـن البحث ، وهو ما وفق اليه المؤلف بكل جدارة •

والمهم ، والجديد ايضا في الكتاب ان صاحبـه درس حركة التحرر ـ الوطني في المشرق العربي كوحدة متكاملة ، متصلة احداثها ببعضها البعضـ بشكل عضوي وكتعبير عن واقع قومي محدد • وانه نظر بالمنظار نفسه الـى الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية وتطوراتها ، اي انه قدم لوحة موحدة استند في رسم ابعادها الى واقع الارض والنفسية واللغة والمصالح المشتركة والتاريخ والمصير المشترك • وهو بهذا يكون اول مستشرق ـ حسبما نعلم ـ يعطي الموضوع مثل هذا البعد وبهذا العمق في البحث والاستنتاج •

والمهم ايضا ان المؤلف لا ينظر بشكل جامد ـ كما كان يفعل بعضـ المستشرقين ولم يزل يتمسك به بعض الكتاب السطحيين ـ الى تأثير انعكاسات بعض الاحداث العالمية الكبيرة على التطور الفكري وبالتالي التحرك السياسي بين الشعوب المضطهدة • فمثلا انه يعترف بان تأثير الحرب اليابانية ـ الروسية على العرب كان أكثر بكثير من تأثير الثورة الروسية للعـام ١٩٠٥ ، وذلك بغض النظر عن عظمة الاخيرة وعمق اشعاعاتها الثورية وهو في مثل هذا الرأي ـ وبالنسبة لغيره ـ يستند الى الحقائق المادية الملموسة وبها يعطي التحليـل العلمي السليم لهذا الواقع التأريخي او غيره (ص ٢٧٧ ـ ٢٧٩) • وبالاسلوب الموضوعي نفسه يعالج مثلا حركة التبشير في المشرق العربي • ففي الـوقت الذي يكشف فيه النوايا الخفية والاهداف الحقيقية للبعثات التبشيرية ، يقيم دورها الكبير كحلقة وصل مع الحضارة الاوروبية وكاحدى اهم وسائل نشر التعليم الحديث في الولايات العربية •

في الواقع ان نواحي القوة والتجديد في الكتاب كثيرة جـــدا • ومن الطبيعي في الوقت نفسه الا يخلو مثل هذا الجهد الكبير الذي يعالج موضوعا حساسا ومعقدا من بعض الهفوات القليلة التي نعترف مقدما بانها لا تقلل ابدا

من قيمته العلمية الكبيرة • فبالاضافة الى مسألة المصادر التي سبقت الاشارة اليها ، نلاحظ ان المؤلف في دراسته لقضايا الحياة الاقتصادية ــ الاجتماعيــة للمشرق العربي اعار العراق وسوريا اهتماما اكبر من بقية اجزائه • وربما كان ذلك مرتبطا الى حد ما بمسألة بداية تخصص المؤلف ، فقـــد كانت ثــورة العشرين في العراق مع مقدماتها الاقتصادية ــ الاجتماعية باكورة انتاجه في حقل الاستشراق • ولكن في كل الاحوال يجب الا ننسى عــــدم توفر المصـــادر والدراسات عن التطور الاقتصادي ــ الاجتماعي لاقطار شــــبه الجزيرة في تاريخها الحديث •

ومما يؤخذ عليه المؤلف ايضا انه لم يبين لماذا آمن بعض رجال الفكــر في المشرق العربي بالماسونية • هل انهم فهموا طبيعتها الرجعية المناهضة لمصالح العرب ولمصالح الشعوب والمكرسة اساسا لخدمة الرأسمالية والاستعمار ؟ • ان تفسير هذا الامر بشكل علمي ليس ــ كما نعتقد ــ امرا صعبا ، على مستشرق متمكــن مثل ل • ن • كاتلوف •

واخيرا فأننا نؤكد مرة اخرى الاهمية العلمية الكبيرة لكتاب ل • ن • كاتلوف الذي يعتبر بحق نموذجا حيا لدراسة حركات التحرر للشعوب باسلوب علمي موضوعي مجرد • انه كتاب جدير بكل اهتمام •

المحتـــوى

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغـداد
(١٦٤٩ لسنة ١٩٧٨)

تصميم الغلاف : نضال الآغـا
الخطوط ـ رضـا الخطـاط
الاشراف الفني : نجم عبدالله كاظم

دار الحرية للطباعة ـ بغـداد ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والفنون

السعر ٣٠٠ فلس

دار الحرية للطباعة - بغداد

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والاعلان ١٩٧٨

الموسوعة الصغيرة

٣٧

النهضة

د. كمال مظهر أحمد

الموسوعة الصغيرة

٣٧

النهضة

الموسوعة الصغيرة

(٣٧)

النهضة

"Renaissance"

الدكتور كمال مظهر أحمد

المؤلف في سطور

كمال مظهر أحمد

- ولد في السليمانية سنة ١٩٣٧
- تخرج في كلية الآداب بجامعة بغداد بمرتبة الشرف عام ١٩٥٩
- نال شهادة الدكتوراه في أكاديمية العلوم السوفيتية عام ١٩٦٣
- نال شهادة دكتوراه (ناوك) (العلوم) في المؤسسة نفسها عام ١٩٦٩
- يعمل أستاذا مساعدا في قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة بغداد
- نشر عدة مقالات وبحوث باللغات العربية والكردية والروسية
- من مؤلفاته:
- كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، أضواء على قضايانا (قضايا) في الشرق الأوسط

مقدمة

تحتل النهضة "Renaissance" مكانة جد بارزة في تاريخ أوروبا، بل في كل التاريخ الحضاري الإنساني لما قدمت من جديد في مجالات الإبداع الفكري والفني ولما أحدثت من تغيير في نظرة الإنسان للحياة وفي تقييماته لمظاهرها بحيث أنها (النهضة) غدت تشكل نقلة كبيرة ذات مضمون شامل في مسيرة التطور البشري تعدت آثارها حدود القارة الأوروبية بشكل يحس المرء حتى اليوم بإشعاعاتها النيرة أينما كان. فقد تمخضت النهضة عن إحياء القديم وتطوير ما كان قائما وتدشين بدايات رائعة في حقول شتى من المعرفة الإنسانية. من هنا لم يكن عبثا أن أطلق المفكرون إسمها على عصر كامل من تاريخ أوروبا، لا يزال المؤرخون وغيرهم من الباحثين يجدون في سبر أغواره، وحسبما يبدو فإن هذه المهمة الجليلة لن تنتهي لأن كنز النهضة العامر يدخل في عداد اللامنتهي.

إذن لابد لكل مثقف من أن يكون على إلمام كاف بتاريخ النهضة الأوروبية، ظروف ميلادها ومنجزاتها الأصيلة في مجالات شتى فنية وأدبية وعلمية. وثمة نقطة أساسية أخرى تجعل من دراسة النهضة وإستيعاب تجاربها مهمة ملحة يقع إنجازها على عاتق المختصين. فهناك شبه كبير بين أحداث أوروبية كثيرة طفت على السطح في عصر النهضة ومايجري الآن فوق مسرح أقطار العالم الثالث من أحداث ومتغيرات سريعة مع الأخذ بالحسبان فارق الزمان والمكان. لذا بمستطاع أبناء شعوب عالمنا الثالث، وبخاصة من يدخل منهم في عداد قادة الرأي والفكر وأصحاب القلم، أن يستنبطوا دروسا جديرة من ذلك التاريخ الحافل.

تستهدف هذه الدراسة تقديم صورة مركزة عن الخلفية التاريخية التي أفضت الى خلق النهضة مع تحديد مراحلها وخصائصها ونتائجها الى جانب عرض سريع لإبداعات عدد من كبار أعلامها الأفذاذ ليصبح في الإمكان إلقاء ضوء أكثر على أهم جوانب هذا الموضوع الشيق والشاق.

الفصل الأول
أوروبا على مشارف عصر جديد

عاشت القارة الأوروبية قرونا طوالا إتسمت الى حد كبير بالتخلف والظلام والتزمت، إتفق المؤرخون على تسميتها بالعصر الوسيط الذي إمتد، في رأي بعضهم، حتى أواسط القرن الخامس عشر وفي رأي الآخرين منهم الى أواسط القرن السابع عشر. ومهما يكن من أمر تحديد الإطار الزمني لهذا العصر فإن أواخره، التي غطت فترة زمنية غير قصيرة، شهدت بوادر تغييرات مهمة نقلت القارة الأوروبية الى عصر حافل جديد وضعتها أحداثه في وضع متميز عن معظم مناطق العالم الأخرى التي كان يعيش بعضها حياة بدائية، كما كان عليه الأمر في القارتين الأمريكيتين عند إكتشافهما، ودخل بعضها الآخر مرحلة الإقطاع لتوه فكانت العلاقات البترياركية (الأبوية) تحتفظ في مجتمعاته بقوة أساسية مثلّما كان الوضع في مناطق أفريقية وحتى آسيوية واسعة، وغدا بعضها الثالث، ونقصد بها شرقنا العريق، يعيش جزرا حضاريا خطيرا بعد أن دشن اللبنات الأولى في أساس الحضارة الإنسانية ودفع بعجلتها خطوات كبيرة على درب النمو والتكامل.

شهدت القارة الأوروبية (لا سيما الأجزاء الغربية منها) في فجر عصرها الجديد أحداثا تاريخية -إجتماعية وفكرية في غاية الأهمية تحتل النهضة فيها مكانة بارزة. ولم تكن الإستكشافات الجغرافية الكبرى وحركة الإصلاح الديني والثورات البورجوازية الجارفة والتطورات العلمية الخلاقة وغيرها من المظاهر المهمة الجديدة أقل أهمية من النهضة، فجميعها كانت تشكل حلقات متصلة لسلسلة واحدة تركت آثارا عميقة على مجمل التاريخ الإنساني. وبطبيعة الحال لم تقع كل هذه الأحداث بصورة عفوية أو إعتباطية، بل إنها جاءت بمثابة تعبير طبيعي عن تغييرات عميقة بدأت تأخذ مكانها - بحكم عوامل محددة - في قاعدة المجتمعات الأوروبية الغربية قبل غيرها فإنتقل إليها الثقل الحضاري لتبدأ من حيث وصل الشرقيون.

فقبل كل شئ بدأت العلاقات الرأسمالية الجديدة تظهر وتنمو في رحم المجتمع الإقطاعي الأوروبي في القرون الأخيرة من العصر الوسيط مما تحول الى عنصر أساسي في تسريع عملية إنحلال القاعدة الإقتصادية لذلك المجتمع الذي أخذ يلفظ القديم ويتقلف الجديد. بدأت عملية التحول هذه بطيئة لتغدو أسرع فأسرع مع تقادم الزمن وبفعل محركات فرضت نفسها كعوامل مؤثرة ثابتة. فقد حدثت طفرة نسبية في تطور وسائل الإنتاج الحرفي والزراعي الأوروبيين خلال الفترة الممتدة بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر عندما بدأ الفلاحون والحرفيون الأوروبيون يتمتعون، بالرغم من ثقل الإستغلال الإقطاعي الواقع عليهم، بنوع من إمكانات التصرف الذاتي والإستفادة المتزايدة من نتاج عملهم فأصبح بإمكانهم أن يولوا تطوير وسائل عملهم إهتماما أكثر بقصد تحقيق فوائد أكبر، فتراكمت تجاربهم التي أفضت الى تطوير متزايد لتكنيك الإنتاج. وهكذا لم يحل القرن السادس عشر حتى حدثت تغييرات عميقة في الإنتاج المادي لأقطار عديدة في غرب القارة الأوروبية ووسطها.

أدى هذا التقدم في الإنتاج المادي الى تسريع عملية تراكم رأس المال في البلدان الأوروبية بوتائر لم يعرفها التاريخ سابقا ولم تجارها فيها آنذاك أي بقعة أخرى في العالم. ومن المهم أن نلاحظ أن هذه العملية لم تعتمد في البداية على تطور الإنتاج في الريف والمدينة وإزدياد الإرتباط بينهما، وعلى تقدم التجارة الخارجية فحسب، بل إعتمدت كذلك على عنصر بشري مهم نجم عن تحول آلاف مؤلفة من الفلاحين الذين فقدوا كل مصدر للعيش في الريف الى أيد عاملة رخيصة للغاية ضمنت لأصحاب الورشات الجديدة أرباحا طائلة أعطتهم إمكانات أوسع لتطوير مؤسساتهم.

ومن جراء هده العوامل وغيرها شهدت أواخر العصر الإقطاعي الأوروبي ميلاد طبقات وفئات إجتماعية جديدة تحولت الى لولب التغيير في القارة ذلك لأنها كانت لها مصالحها وطموحاتها التي إصطدمت مباشرة بما كان يسود

أوروبا من قيم وأفكار بالية الى حد أصبح من المتعذر التعايش معها. ففي أواخر القرن الخامس عشر ظهرت العناصر الأولى للبورجوازية كطبقة في عدد من المجتمعات الأوروبية الغربية وهي بدأت تتطور بسرعة بحيث لم يمر أكثر من قرن عندما تحولت في إنكلترا، مثلا، الى طبقة متكاملة من جميع الأوجه تقريبا.

لعبت المراتب المختلفة للطبقة البورجوازية دورا أساسيا في التغييرات السريعة التي شهدتها القارة الأوروبية على أصعدة شتى إجتماعية وإقتصادية وفكرية، إلا أن الفئة المثقفة البورجوازية (الإنتلجينسيا [1] البورجوازية) هي التي وقع على عاتقها القسط الأكبر من مهمات التطوير المادي والفكري الأوروبي في المرحلة الجديدة . فأبناء هي الفئة هم أكثر الناس الذين أسهموا في تطوير وسائل الإنتاج عن طريق الإختراعات الحديثة، وهم الذين قاموا بصياغة أفكار الطبقة البورجوازية في إطار فلسفي وإستنبطوا النظريات والأفكار الإقتصادية الجديدة التي كان من شأنها هز أركان المجتمع الإقطاعي القائم بشكل ينحسر عن المسرح بأسرع ما يمكن ليحل محله مجتمع أكثر تطورا بما لا يقاس.

وكان منطقيا أن يأخذ أبناء هذه الفئة بين أيديهم قيادة دفة الحركة الثقافية – العلمية – الفكرية العظيمة في عصر النهضة. وقد فرضت حاجات المجتمع الجديد على هؤلاء توجها شاملا وأكبر الى حد لا يقاس بالمرحلة السابقة، نحو الثقافة الدنيوية. وعلى سبيل المثال لا الحصر نورد هنا مثلا واحدا كمؤشر مقنع لهذه الحقيقة الثابتة. فإن نمو الإنتاج السريع وإزدياد دور النقد في التعامل والتطور التجاري المتشعب الذي أصبح يعتمد على عقد الصفقات والقروض والتنافس الحاد وعوامل أخرى كثيرة أدت الى ظهور مشاكل ونزاعات إقتصادية ومالية لا تحصى بين مختلف أصناف التجار وأصحاب الورشات والمحلات الحرفية والمخترعين وغيرهم الذين أصبحوا بحاجة ملحة الى عون المحامين لإيجاد مخارج وحلول قانونية وعملية لمشاكلهم المعقدة. وهذا بالذات يفسر لنا

---

[1] مشتقة من الكلمة اللاتينية ((إنتلجينس)) التي تعني الموهوب والقدير أو العليم والفاهم.

لماذا أصبح المحامون يشكلون جزءا كبيرا ومؤثرا للغاية من الإنتلجينسيا البورجوازية.

من الضروري أن نشير هنا الى حقيقة أخرى ترتبط بالإنتماء الإجتماعي لأبناء الفئة المثقفة الجديدة. فعلى العكس تماما من العهد الإقطاعي خرج معظم هؤلاء من بين صفوف أبناء الفئات الإجتماعية الدنيا (دون المتوسطة)، ولم يفقد قسم كبير منهم -على الأقل في حدود الأجيال الأولى- كل الخيوط التي كانت تربطهم بالأوساط التي خرجوا منها. وفي ذلك بالذات نجد تفسيرا مقنعا لإهتمامات أعلام النهضة بالتعبير عن واقع تلك الفئات سواء في لوحاتهم أو في مؤلفاتهم التي إنعكست فيها بقوة -كما نرى ذلك فيما بعد- لغة وحكم وأمثال وفولكلور الأوساط الشعبية. بل أكثر من ذلك ظل بعض أفراد الفئة المثقفة الجديدة ينتمون فكريا الى نفس الأوساط الإجتماعية التي خرجوا منها فعبروا عن مشاكلها الحياتية بإخلاص وبأسلوب لا يخلو من عمق فلسفي منهم الثوري الألماني توماس مونزير (١٤٩٠ - ١٥٢٥) والمفكر الفرنسي جان ميسيلييه (١٦٦٤ - ١٧٢٩).

تكونت في المرحلة نفسها الطبقة العاملة في الأقطار الأوروبية. وجاء تكونها على حساب الفلاحين المعدمين الذين جردوا من الأرض وكل مصدر آخر للعيش في الريف، ومن الحرفيين الصغار الذين فقدوا إمكانات العمل في ظل الإنتاج الرأسمالي الأكثر كما والأجود نوعا والأرخص سعرا مما كانوا ينتجونه هم. ولقد مرت الطبقة العاملة، مثل البورجوازية، بمراحل مختلفة الى أن تبلورت وتكاملت في النهاية. ففي البداية ظل العمال الأجيرون يشكلون جزءا صغيرا في الكيان الإجتماعي حتى في أكثر الأصقاع الأوروبية تطورا. وتكونت بالتدرج بروليتاريا [١] الورشات التي ظل معظم أفرادها يحتفظون لفترة طويلة من

---

[١] من الكلمة اللاتينية "Proletarii" التي تعني (الأرث) و(الوراثة). أستخدمت كمصطلح إجتماعي لأول مرة في عهد الرومان. فبموجب الإصلاح الإداري الذي قام به القيصر سيرفيوس تيلليوس تم تقسيم المجتمع الروماني في القرن السادس قبل الميلاد الى خمس فئات إجتماعية حسب

الزمن بعلاقاتهم بالريف وببعض وسائل الإنتاج، بل أقاموا نوعا من العلاقات البترياركية (الأبوية) مع أصحاب الورشات التي إنتقلوا إليها. من هنا فإن الطبقة العاملة لم تشكل في عصر النهضة سوى عنصر إجتماعي غير واع لدورها وموقعها فلم تستطع، والحالة هذه، أن تكون أكثر من وقود لتسيير عجلة التغيير.

حتمت التغييرات الكبيرة التي شهدتها المجتمعات الأوروبية ظهور أفكار جديدة تعبر عن مصالح وأهداف وتقييمات الفئات والقوى الإجتماعية النامية التي خاضت، مضطرة، معمعان صراع مستديم مع القديم فغدت بحاجة ملحة الى تعابير ومنطلقات قوية تمثل واقعها وتستهدف تثبيت وتطوير مصالحها وقيمها. ولم تكن النهضة في إطارها العام سوى واحدة من الظواهر التاريخية - الإجتماعية المبكرة التي رافقت فترة الإنتقال من العصر الوسيط الى العصر الحديث.

تعددت العوامل التي أدت الى تكامل عناصر ميلاد النهضة والتحولات التي جرت في قاعدة المجتمعات الأوروبية الغربية لتشمل جملة عوامل خارجية تفاعلت مع تلك، بل أعطت بعضها قوة دفع كبيرة وأسهمت بشكل مباشر في ميلاد بعضها الآخر. ففي المرحلة الأخيرة من العصر الوسيط بدأت أوروبا تستقبل مؤثرات شرقية مهمة هزت أركان قيم مجتمعاتها الإقطاعية العتيدة. وكان الجانب الأكبر من هذه المؤثرات الشرقية إسلامية الأصل والمنبع وصلت الأرض الأوروبية عن طريق الأندلس وصقلية والأقطار العربية المشرفة على السواحل الشرقية لحوض البحر الأبيض المتوسط. فبفضل الأندلس إنتقلت مؤلفات الفلاسفة الأقدمين، وعلى رأسهم أرسطو وأفلاطون، الى أيد أوروبية بعد طوال

إمكانات أفرادها المادية، وقد وزعت مقاعد مجالس الشعب عليها على أساس نسبي. ولكن بقيت فئة معدومة لم ترث شيئا في الأصل فأطلقت عليها كلمة البروليتاريا ومنحت مقعدا واحدا من مجموع ١٩٣ مقعدا من مقاعد المجلس. تغير، بالطبع، المفهوم الإجتماعي والسياسي لهذا الإسم. ترجمت ((البروليتاريا)) الى العربية لأول مرة أثناء مؤتمر شعوب الشرق في باكو (أيلول ١٩٢٠) فقد كتب على إحدى لافتات المؤتمر: ((يا صعاليك العالم إتحدوا)).

فقدانها، وهي وإن لم تخل من بعض النواقص إلا أنها كانت تحتوي أيضا إضافات جديدة نابعة من أصول حضارية إسلامية. وعن طريق صقلية التي ظلت بأيدي العرب المسلمين على مدى قرنين إنتقل الشئ الكثير من العلوم الطبيعية والطبية والفلسفية إلى أصقاع أوروبية شتى. وإن الموجات الصليبية المندحرة لم تنقل معها الى حيث أتت الروايات المغرية عن ترف الشرق وجلاله فحسب، بل حملت كذلك من بدائع الفكر والصنعة ما كان يكفي لتحريك أي عقل ودفعه الى المقارنة المجدية. وبعد عودة السادة الإقطاعيين ورجالهم من المشرق بدأوا يدركون مغزى ((أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا)) بعد أن جعلتهم الكنيسة الكاثوليكية يعملون في عقر دارهم لآخرتهم فقط وكأنهم يموتون غدا. فبدأ الأوروبيون، كالشرقيين، يجمعون بين المفهومين، وإذا بالقصور الشامخة تظهر تدريجيا الى جانب الكنائس والأديرة.

سبقت النهضة الكبرى، وبفعل العوامل السابقة أو بعضها، ومضات حضارية أخرى كالنهضة الكارولنجية في القرن التاسع والأوتونية في القرن العاشر وغيرهما فيما بعد، إلا أنها جميعا ظلت تتحرك في إطار ضيق لتتحول الى أشبه ما يكون بخلفية تاريخية للنهضة الأوروبية الكبرى التي بلغت الذروة في أواخر القرن الخامس عشر وتميزت عن كل ما سبقها بخصائص لم تشهد لها أوروبا مثيلا من قبل.

الفصل الثاني
إطارها الزمني وخصائصها

مفهوم النهضة:

مما تقدم يبدو أن ((النهضة)) كانت وليدة مجموعة عوامل داخلية أساسية وخارجية مساعدة تفاعلت في رحم المجتمع الإقطاعي الأوروبي. من هنا فإن النهضة كانت تشكل، بحكم واقع تكونها، إتجاها جديدا في التفكير والنظرة الى الأمور تختلف كليا عما كان يسود ذلك المجتمع من قيم نجمت عن طبيعة العلاقات الإقطاعية التي تحولت الى عبء في غاية الثقل على كاهل الناس وكذلك عن جمود ودكتاتورية الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تقيد الفكر وتحول دون الإبداع، فبدأ المفكرون بالبحث عن أساليب جديدة لمناهضة الأفكار والنظم السائدة ولفضحها. وبقصد تحقيق هذا الهدف توجه هؤلاء الى بعث الثقافات القديمة، ولا سيما الأغريقية منها، فهم كانوا يتصورون أن بإمكانهم الإنعتاق من قيود العصر الوسيط والتعمق في فهم الطبيعة والتعبير عنها والإستفادة منها عن طريق إحياء التراث القديم. من هنا جاء إسم الإتجاه الفكري الجديد "Renaissance" الذي يعني (البعث) أو (الإحياء) أو (الميلاد الجديد) في الفرنسية وقد إستخدمه رجال النهضة أنفسهم لأول مرة [١].

يرى بعض الفلاسفة والمؤرخين أن الإنسانية لم تعرف من قبل حدثا أهم وأخطر من ((النهضة)). وفعلا ترتبط بعصر النهضة إبداعات وتغييرات فكرية عميقة تستأثر وقائعها حتى اليوم بإهتمام المئات من المؤرخين والفنانين والنقاد المنتمين الى مدارس فكرية مختلفة. لذا وليس مجرد صدفة أن تظهر نقاشات وإجتهادات علمية مختلفة تتناول خصائص النهضة وإطارها الزمني وغير ذلك من المواضيع المهمة التي نحاول فيما يلي إلقاء بعض الضوء على جوانبها الأساسية.

---

[١] في العربية تستخدم (النهضة) للتعبير عن ذلك الإتجاه الفكري الأوروبي وعن عصره، وقد غدا تداولها كمصطلح تاريخي شائعا بين المؤلفين منذ عشرات السنين.

إيطاليا والإطار الزمني للنهضة:

يدخل تحديد الإطار الزمني لعصر النهضة والبلدان التي شملتها مظاهر النهوض الجديد مع تعيين مداها وآثارها ضمن القضايا المعقدة التي لا يزال يدور حولها نقاش علمي مفيد. لم تخضع، بالطبع، جميع نتاجات القرنين الخامس عشر والسادس عشر الإبداعية لقيم وإتجاهات النهضة، فإلى جانب أفكارها إستمرت كذلك ثقافة العصر الوسيط. ثم إن مظاهر النهضة لم تقتصر على بلد أوروبي دون آخر كما لم يجر تطورها ومن ثم ذبولها بوتيرة واحدة وعلى نمط واحد. فقد إختلفت هذه الأمور حسب البلدان والظروف. ولكن يوجد نوع من الإجماع العام على إعتبار إيطاليا مهدا للنهضة والحركة الإنسانية، وعلى هذا الأساس يمكننا إعطاء فكرة عامة عن الإطار الزمني للنهضة وتحديد مراحلها الرئيسة.

أدت مجموعة عوامل محددة متفاعلة فيما بينها الى ظهور أفكار النهضة في إيطاليا قبل غيرها، فقد إزدهرت هذه البلاد في أواخر العصور الوسطى بسرعة مدهشة. فمنذ القرن الحادي عشر غدت إقتصادياتها تعتمد بشكل متزايد على التجارة الخارجية وإرتفعت طاقة سفنها في حوض بحر الأبيض المتوسط بوتائر سريعة لأنها إحتكرت كل تجارة أوروبا مع الشرق[١] الذي وجدت بضائعه النادرة من توابل وحرير وعطور ومصوغات ذهبية وفضية سوقا رائجة لها في كل الأقطار الأوروبية تقريبا، جنى منها الطليان بالذات أرباحا طائلة جعلت ((من كل واحد منهم أغنى من السابق)) [٢]. فلم ينته القرن الثالث عشر حتى أصبحت إيطاليا تحتل مكان الصدارة في مختلف مجالات حياة القارة

[1] J. R. Strayer and others, The Mainstream of Civilization, second edition, New York, 1974, P. 207.

[2] H. Baron, The Crisis of the Early Italian Renaissance, Princeton, 1967, P. 365.
يخص المؤلف بالذكر أهل فلورنسا علما يقصد فترة من تاريخها تميزت بالحروب والغزوات المستمرة.

الإقتصادية والإجتماعية، وتقدمت مدنها على غيرها بسرعة. ففي البندقية وحدها بلغ عدد العاملين في مجال صناعة الأقمشة حوالي ١٦ ألف شخص وفي مجال صناعة السفن ٦ آلاف شخص[١]. وإذا كان الرقم الأول يعكس واقع التقدم الصناعي للبندقية فإن الرقم الأخير يبين مدى إزدهار تجارتها التي أصبح نقل بضائعها بحاجة إلى أسطول كبير من السفن يمخر عباب البحر الأبيض المتوسط ويصل الى مياه بحر الشمال. ولم يتردد البنادقة، شأنهم في ذلك شأن سكان المدن والموانئ التجارية الإيطالية الأخرى، في ولوج كل ميدان تجاري يأتي منه ربح مضمون. فزاول العديد منهم تجارة الرقيق الأبيض حيث كانوا يزودون حريم قصور الشرق بالبلقانيات ولم يترك قرار البابا حول حرمان ((هذا العمل اللامسيحي)) أي أثر في النفوس لأنه كان يشكل ((تجارة مربحة للغاية))[٢].

إزدهرت جنوا وفلورنسا ومدن إيطالية أخرى بنفس المستوى، بل إن الأخيرة فاقت البندقية في مجالات إقتصادية عديدة. فإن النشاط الإقتصادي الواسع في مجالي الصناعة والصيرفة الذي دفع بفلورنسا الى موقع ((يؤثر في إقتصاد كل أوروبا))[٣] قد جعل ظهور أولى المؤسسات ذات الطابع الرأسمالي على صعيد العالم فيها أمرا طبيعيا. ففي فلورنسا، لا في غيرها، ظهرت أولى العلاقات الرأسمالية وأولى المانيفاكتورات (الورشات) وأولى الإتحادات المالية التي كانت تضم عددا كبيرا من الحرفيين والتجار وتقوم بالإشراف على شؤون الإنتاج والتصدير. ففي القرن الرابع عشر كان عدد المحلات الحرفية الكبيرة الفلورنسية التي بلغت مرحلة الإنتاج المانيفاكتوري في صنع الأقمشة وحدها يزيد على ٢٠٠ محل[٤]. وقد أدى هذا التطورالصناعي السريع الى أن يشكل

---

[١] تتجسد مدلولات هذه الأرقام وغيرها إذا قيمناها بميزان عصرها.

[2] . G. Cl. Sellery, the Renaissance. Its Nature and Origins, Madison, 1962, P. 18.

[3] . D. Hay, The Italian Renaissance in its Historical Background, Cambridge, 1966, P.89.

[٤] البرفيسور ف. ف. سميونوف، تاريخ العصور الوسطى، باللغة الروسية، الطبعة الثالثة، موسكو، ١٩٧٠، ص ٢٨٠.

العمال حوالي ٨٠٪ من مجموع السكان العاملين في المدينة[١]، وهو رقم لم يكن له شبيه لا في إيطاليا فحسب، بل على صعيد كل القارة الأوروبية والعالم.

وفي نفس المرحلة التاريخية ظهرت في فلورنسا أكبر المؤسسات الصيرفية الحديثة التي كانت تتعامل بأقوى عملة ذهبية على صعيد القارة الأوروبية[٢] وفتحت باب الإعتماد أمام التجار، بل إنها كانت تقوم بإقراض الدول الأوروبية الأخرى بما تحتاج من أموال، كما فعلت ذلك مرارا مع إنجلترا. وكانت البابوية تعتمد على المصارف الفلورنسية في جمع وارداتها في أقطار أوروبية مختلفة[٣]. وليس مجرد صدفة أن معظم المصطلحات المصرفية التي تستخدم في اللغات الأوروبية اليوم هي إيطالية الأصل والمنشأ جاء قسم منها عن طريق الإتصال بالعرب والمسلمين والبيزنطيين.

ومن مظاهر الإزدهار الفلورنسي أن عدد سكان المدينة قد تضاعف بمقدار أكثر من مرتين خلال ما ينيف على القرن ونصف القرن. ففي أواخر القرن الثالث عشر بلغ عدد سكان المدينة حوالي ٧٠ ألف شخص ثم إرتفع الى ما لا يقل عن ١٥٠ ألف شخص في منتصف القرن الخامس عشر مما يشكل قفزة كبيرة حسب المقاييس الديموغرافية لأواخر العصر الوسيط عندما كان عدد سكان أكبر مدينة أوروبية يربو على حالي ٨/١ الرقم الأخير[٤].

وجدت هذه التطورات العميقة إنعكاسات واضحة لها في طبيعة الأنظمة السياسية القائمة آنذاك في المدن الإيطالية المتقدمة. فإن معظم العوائل الإيطالية الحاكمة أصبحت على إرتباط وثيق بالتجارة والصناعة وتوليهما إهتماما أكبر مما

---

[1] J. Gage, Life in Italy at the time of Midici, London, 1968, P. 101.

[٢] سبقت فلورنسا في أواسط القرن الثالث عشر جميع المدن الإيطالية في سك نقودها الذهبية التي عرفت ب ((الفلورين)) وقد تأخرت البندقية عنها في هذا المضمار بما لا يقل عن ثلاثة عقود.

[٣] ف. ف. سميونوف، المرجع السابق، ص ١٨٧، ص ٢٨٠ – ٢٨١.

[٤] نفس المرجع، ص ١٨٢.

توليه الأرض والزراعة. وأسرة ميديجي[1] الفلورنسية خير نموذج لهذا النوع الجديد من العوائل الحاكمة. ومن الجدير بالذكر أن أصحاب المال، ولا سيما التجار، لم يكونوا يشكلون الأكثرية في بعض المجالس الرسمية في عدد من المدن الإيطالية. ولكن حتى ذلك كان يعكس واقع الزخم الإقتصادي الجديد الذي إمتص كل أوقات الرأسماليين الطليان الذين قيموا((الوقت كأثمن شئ)) بالنسبة لمصالحهم[2]. والمهم هو أن الواقع الجديد قد جعل بقاء أي نظام في المدن الإيطالية يعتمد في كل الأحوال على موقف رجال المال ومؤازرتهم بعد أن غدت مؤسساتهم تشكل أحيانا ((دولة داخل دولة))[3].

ما تقدم يعني أن عملية إنحلال العلاقات الإقطاعية بدأت في إيطاليا قبل غيرها وظهرت فيها بحكم ذلك متطلبات المجتمع الجديد قبل غيرها أيضا. وفي ذلك بالذات يكمن السبب الرئيس لتحول إيطاليا الى مهد للنهضة بحيث أن فلورنسا كانت تشكل أكبر مركز لنشاطاتها خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر وفيها ظهر عدد كبير من أبرز روادها وأعلامها الأفذاذ فإستحقت بحق لقب ((عاصمة النهضة))[4].

تفاعلت مع هذا العامل الأساسي جملة عوامل أخرى ساعدت في تسريع ميلاد ونمو عناصر النهضة في إيطاليا. فإن هذه البلاد لم تكن مجرد حلقة وصل تجارية بين أوروبا والشرق، بل إنها كانت، وبحكم ذلك، تشكل في الوقت نفسه حلقة وصل ثقافية مهمة بين الجانبين. فعن طريقها إنتقلت أفكار ومظاهر حضارية شرقية مهمة تركت آثارا واضحة على معالم النهضة الأوروبية. وتعود بداية ذلك الدور بشكل خاص الى فترة الحروب الصليبية التي أجمع المؤرخون على تأثيرها الكبير في نقل مقومات حضارية كثيرة من الشرق الى الغرب

---

[1] أصل الكلمة من " Medici" ذات الصلة بالعمل الصيدلي والطبي.

[2] J. Gage, Op. Cit., P. 57.

[3] هكذا وصف أحد بنوك مدينة جنوة في حينه (Ibid, P. 57).

[4] ف. ي. روتينبورغ، عمالقة النهضة، باللغة الروسية، لينينغراد، ١٩٧٦، ص ٣٠.

إنعكست، أول ما إنعكست، في النهضة. وكان موقع جنوا بارزا في هذا المجال بشكل خاص، فإنها قامت منذ الحملات الصليبية الأولى بإقامة مراكز تجارية لها في كل من سوريا وفلسطين.

عبرت عناصر الثقافة الشرقية، وعلى رأسها العربية الإسلامية، عن ذاتها في أفكار النهضة المبكرة وفي مكتسباتها المتأخرة سواء بسواء. فمن الثابت تقريبا أن إثنين من الرواد الثلاثة الأوائل للنهضة، ونقصد بهما دانتي وبوكاشيو، قد تأثرا في أبرز نتاجاتهما الفكرية بإبداعات الشرقيين[1].

وفي المجال العلمي يكفي أن نورد هنا مثالا واحدا لا يخلو من مغزى عميق. ففي عصر النهضة بالذات إختار البرتغاليون من بين الكثيرين فاسكو دى جاما لقيادة حملتهم التاريخية الى الهند وذلك لما كان يتصف به من صفات نادرة، وقد زودوه بأحسن ما عرفت أوروبا من سفن وبأرقى ما توصل إليه فكر أهلها من خرائط وآلات فلكية يحدوهم في ذلك أمل تحقيق حلمهم الكبير. إلا أن الملاح البرتغالي وجد نفسه، مع ذلك، بأمس الحاجة الى عبقرية ((ليث البحر)) أحمد بن ماجد الذي إلتقى به في مدينة ماليندي الكينية فسلمه عن قناعة تامة زمام قيادة حملته التي لولاه لما حققت ما أرادت بمثل تلك السرعة.

كان يوجد عامل مهم آخر جعل من التربة الإيطالية مكانا أصلح لتفتق بذور النهضة فيها قبل غيرها. فكما هو معروف أن هذه البلاد قد تحولت منذ قرون سبقت عصر النهضة الى أهم مركز للكنيسة والعالم المسيحي بأسره مما أثر على ظهور وتطور النهضة فيها من قطبين متناقضين الى حد ما. فإن جانبا كبيرا من أفكار النهضة إنصب، كما سنرى، على نقد الكنيسة الكاثوليكية التي كانت روما تشكل قلبها النابض فتجسدت فيها، أكثر من غيرها، جميع الجوانب السلبية التي أثارت الإستياء في نفوس الأوروبيين. هذا من جهة، أما من الجهة الثانية فإن الكنيسة نفسها إضطرت أن تضع في حسبانها التحولات الجديدة التي

---

[1] سوف نعود الى هذا الموضوع في الفصل الخاص بأعلام النهضة.

رافقت النهضة بشكل جدي ذلك لأنها بدأت تخشى أن تفقد تأثيرها في المجتمع فحاولت جذب بعض رجال النهضة الى جانبها وإهتم عدد من البابوات من هذا المنطلق ومن بعض المنطلقات الذاتية كذلك (كحب بعضهم للعلم ورعايتهم للعلماء)، إهتموا بدراسة أفكار الإنسانيين عن كثب منهم إبن قارع أجراس الكنيسة السابق البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥) الذي عرف بأفكاره المتحررة وتقييمه الصحيح لواقع مرحلته فلم ير أي تعارض بين إهتماماته بثقافة ما قبل الميلاد مع إخلاصه للمسيحية، فهو كان يبتغي، عن إدراك ذكي، التوفيق بين هذه الأخيرة و((خير ما في الحضارة القديمة وإعادة بناء روما كعاصمة للعالم المسيحي))[1]. لذا لم يتردد نيقولا الخامس في نشر الوكلاء في أرجاء القارة الأوروبية بقصد جمع أكبر عدد ممكن من المخطوطات تحولت الى ثروة كبيرة لمكتبة الفاتيكان. كما إستعان بخدمات المؤرخ والمحقق البارع لورينزو ڤالا (Lorenzo Valla) (١٤٠٧ - ١٤٥٧) وغيره لتحقيق هذه المخطوطات. وقد سلك عدد آخر من البابوات نفس النهج، ولكن في نطاق أضيق، مما لعب بعض الدور في إحياء التراث القديم وتشجيع الإنسانيين في مساعيهم وتكريس إمكانات مجموعة من عباقرة النهضة لتخليد جانب من إبداعاتهم الفنية على جدران وأقبية أشهر الكنائس الإيطالية من قبيل كنيسة القديس بطرس المعروفة وقاعات الفاتيكان.

يجب أن لا ننسى كذلك أن إيطاليا نفسها كانت مهدا للثقافة الرومانية القديمة التي أعطت التطور الحضاري الإنساني الشئ الكثير مما تحول الى حافز معنوي مهم لرجال الفكر الطليان الذين لم يفقدوا كليا إتصالهم بماضي شعبهم العريق، ولا سيما وأن بلادهم إحتفظت بآثار ذلك الماضي أكثر من أي بلد آخر. ومن المهم أن نلاحظ بهذا الصدد أن الآثار القديمة تلك كانت تعود الى أكثر عهود العصر القديم إزدهارا من الناحية الإقتصادية وديموقراطية من الناحية

---

(1) J. R. Strayer and others, Op. Cit, PP. 362 – 368.

السياسية في إطار العلاقات السائدة يومذاك وهي كانت تبدو متفوقة من كل الأوجه على ما كان يسود عهد الإقطاع الأوروبي في مرحلة إنحلاله وضموره فإتخذها مناهضو هذا الأخير حسب فهمهم إياها ووفق ما أسبغوا عليها من صفات هي لم تكن لتتميز بها دائما، أداة لهدم أسس النظام المتعفن القائم. وفعلا إنها أدت مثل ذلك الدور بنجاح الى حد كبير لأن مجرد المقارنة البسيطة كانت تبين البون الشاسع بين قمة إزدهار عصر سابق وحضيض تحلل عصر قائم.

وما دمنا بصدد ذكر العوامل التي جعلت من إيطاليا رائدة للنهضة فيجب أن نشير كذلك الى حقيقة مهمة أخرى هي أن إتجاهات عصرها وجدت لها إنعكاسات سريعة في نتاجات الأدباء والفنانين الموهوبين المتميزين بالحس المرهف الذي يعبر عن مكنوناته بسرعة على عكس النتاجات العلمية والتقنية التي تحتاج الى وقت أكبر وتجارب علمية كانت غالبا ما تستغرق فترة زمنية طويلة بحكم بساطة وسائل الإنتاج والعمل آنذاك. ثم أن إيطاليا عرفت بروعة طبيعتها التي أغنت لغتها الدارجة وأدب شعبها مما تحول الى مصادر طاقة لإبداعات أبنائها الخلاقة في شتى حقول النتاج الفني والأدبي والى أساس لتذوق هذا النتاج في أشكاله المختلفة. ففي ذلك العصر ما كاد أن يرتقي شاعر شعبي إيطالي منصة ليلقي منها شيئا مما تفتقت به قريحته حتى يهم أصحاب الحوانيت الى غلق محلاتهم ليتمتعوا بما يلقيه ذلك الشاعر من نتاجاته[1].

نتيجة لهذه العوامل الرئيسة ظهرت النهضة وتبلورت مقوماتها في إيطاليا قبل غيرها، فإستطاعت أن تقدم لها من الخدمات وعناصر التطور ما لم يكن بإمكان أي بلد أوروبي آخر تقديمه، بحيث لم يكن حتى بإمكان التدهور الذي أصاب الحياة الإقتصادية والسياسية لإيطاليا منذ العقود الأخيرة من القرن

---

[1] هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، نقله الى العربية الدكتورة زينب عصمت راشد والدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٠، ص ٤١ - ٤٢.

الخامس عشر بسبب التدخل الأجنبي وتحول طرق المواصلات من البحر الأبيض المتوسط، لم يكن بإمكانه وقف التطور العارم لمظاهر النهضة فيها. ويكفي أن نقول هنا إن العمالقة الأفذاذ ليوناردو دافينشي وميخائيل أنجيلو (ميكلانجيلو) وروفائيل وغيرهم قد عاصروا فترة الإنحلال هذه وأعطوا في سنواتها وفي ظل ظروف شاقة، نتطرق الى جوانب منها، ما يبقى خالدا أبد الدهر. ولقد دفع مثل هذا الواقع ببعض المؤرخين الى الإعتقاد بأن النهضة إنما إقتصرت على إيطاليا وحدها. ولئن كان في ذلك بعض المبالغة إلا أن حقيقة تأثير أفكار النهضة الإيطالية على البلدان الأخرى أمر معترف به لدى الجميع. ولكن على أي حال فإن إرتباط النهضة الوثيق بإيطاليا يجعل منها الأنموذج الأمثل لتحديد إطارها الزمني بشكل عام حسب المراحل التالية:

١. المرحلة المبكرة وتشمل أواخر القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر.

٢. مرحلة السمو والتكامل وتشمل نهاية القرن الخامس عشر والربع الأول من القرن السادس عشر.

٣. المرحلة المتأخرة في القرن السادس عشر.

ينطبق نفس التقسيم الى حد كبير على أقطار أوروبا الغربية كذلك. وكانت المرحلة الأولى هي مرحلة الميلاد والتكون والثانية هي مرحلة النضج والتكامل، بينما تشهد أفكار النهضة والحركة الإنسانية في المرحلة الثالثة أزمة جدية نعود الى ذكر تفاصيلها فيما بعد. وقد تميزت كل مرحلة من هذه المراحل والنهضة بمجموعها بعدد من الخصائص الأساسية التي ميزتها في نقاط كثيرة عن الحركات الفكرية التي سبقتها والتي تلتها.

خصائص النهضة الأساسية:

تميزت النهضة ومعها الحركة الإنسانية بخصائص بارزة جعلت منها ثورة ثقافية وفكرية ذات طابع خاص في التاريخ الإنسان، وسنحاول فيما يلي تحديد أهم جوانب تلك الخصائص بإيجاز.

١ - لم تظهر النهضة في الأقطار الأوروبية في وقت واحد، ذلك لأن ميلادها إعتمد على مدى تطور العلائق في القاعدة الإجتماعية لكل قطر. فهي ظهرت في إيطاليا وفي أقطار أوروبا الغربية قبل غيرها، بينما لم تمتد سوى ومضات منها الى بلدان أوروبا الشرقية[1] والى مناطق البلقان التي كانت ترزخ تحت الإحتلال العثماني. ولكن حتى هذه الأقطار قد عززت مقومات النهضة بإبداعات عدد من أبنائها المفكرين. ويكفي هنا أن نشير الى أن العالم الشهير كوبرنيكوس كان بولوني المولد والجنسية. بهذا المفهوم تكون النهضة حصيلة ثقافية لجميع الشعوب الأوروبية التي إرتبطت نسبة دورها فيها بظروفها الداخلية الخاصة. وإذا أخذنا تأثيرات وإنعكاسات الحضارات الشرقية بنظر الإعتبار يمكن آنذاك إعتبار النهضة حصيلة ثقافية إنسانية في إطارها العام. وفي الواقع لا يصح إلا أن نأخذ هذه النقطة بنظر الإعتبار جديا لأنها تشكل في حقيقة أمرها نتيجة منطقية للتفاعل المستمر بين الحضارات المختلفة في مجرى أشمل من النهضة نفسها من حيث التأثير والتأثر، وهو أمر لم يجد له - بكل أسف- أي إنعكاس في مؤلفات الغربيين الذين وإن كانوا يعترفون بفضل الشرقيين على التطور الأوروبي اللاحق إلا أنهم لم يقيموا النهضة بما فيه الكفاية بإعتبارها إنعكاسا لجهد مشترك. ومما يعطي رأينا قوة إضافية هو أن تأثيرات النهضة نفسها كونت نقطة مضيئة جديدة في المجرى الحضاري الأشمل فلم تقتصر إشعاعاتها على جزء من أوروبا أو القارة بأسرها بل إنها تسربت بسرعة وبقوة نسبيتين لتمتد

---

[1] تأثر الروس في بناء قصر الكريملن بفن العمارة الإيطالية. وقد تم بناء سور وأبراج الكرديملن تحت إشراف معماريين إيطاليين في ١٤٨٥ - ١٤٩٥.

بأشكال مختلفة الى أجزاء العالم الأخرى حيث أسهم علماؤها ومفكروها في تطوير مكتسبات النهضة في أطر جديدة متوافقة مع مستلزمات وقيم المراحل التاريخية التالية.

٢ - إرتبطت سرعة تطور النهضة بشكل مباشر بسرعة تطور العلاقات والمظاهر الإقتصادية - الإجتماعية الجديدة حسب البلدان الأوروبية المختلفة. فإن بدايات النهضة في إنكلترا تعود، مثلا، الى القرن الرابع عشر، إلا أن إحتدام الصراع الإقطاعي في البلاد والذي أفضى الى حرب أهلية ضارية[١]، قد عرقل بشكل جدي تطور النهضة الإنكليزية خلال القرن الخامس عشر بحيث لم تنتعش مظاهرها من جديد إلا في أوائل القرن السادس عشر وهو القرن الذي شهدت إنكلترا فيه بداية تطور إقتصادي وإجتماعي ملموس. وفي إسبانيا أعاق الإنحلال السريع الذي هز بسرعة مختلف جوانب حياة شعبها مع عوامل أخرى، أعاق نمو وإنتشار النهضة فيها بنفس السرعة التي ظهرت بها هناك في وقت مبكر نسبيا.

خلاصة القول هي أن ميلاد النهضة ثم تطورها لم يجريا على نسق واحد، بل إختلفا حسب البلدان والظروف، والنهضة هي حصيلة جهد أوروبي في إطارها الضيق وعالمي في نطاقها الواسع.

٣ - بالرغم من وجود عناصر مشتركة قوية بين مظاهر النهضة في البلدان الأوروبية المختلفة إلا أنها مع ذلك تميزت في كل قطر ببعض الخصائص الذاتية الناجمة غالبا عن ظروفها المحلية التي حتمت أو إستوجبت التأكيد على مظهر معين أكثر من مظاهر النهضة الأخرى. ففي ألمانيا مثلا ركز الإنسانيون على دراسة ما أسماه إرازمس[٢] ب ((فلسفة المسيح))[٣]، فإتخذت النهضة

---

[١] نقصد بها حرب الوردتين (١٤٥٥ - ١٤٨٥).

[٢] من أبرز الإنسانيين. للتفصيل عنه راجع الفصل الخاص بأعلام النهضة.

[3] "The Renaissance and the Reformation 1300 – 1600", Edited by D. Weinstein, New York, 1955, P. 19.

الألمانية طابعا فكريا عميقا مس قضايا الكنيسة الكاثوليكية بشكل مباشر مما كان له أبلغ الأثر في حركة الإصلاح الديني هناك. بينما جرى في فرنسا تأكيد خاص على دراسة القانون الروماني القديم وقد تحول ذلك الى سابقة مهمة لتطور الدراسات القانونية فيها[1]. أما في إنكلترا فقد إستندت قاعدة النهضة الفكرية على القضايا الفلسفية والجمالية التي عبرت عن نفسها بشكل صارخ في مجالات الأدب والإجتماع والمسرح، ولم تخل النتاجات الفكرية فيها من طابع ديني، لا سيما في فترة الحرب الأهلية التي شهدت الى جانب ذلك روايات تغنت كالسابق ببطولات الفرسان. وقد عبر الإتجاه الفكري الراديكالي عن نفسه في بعض البلدان بشكل أقوى مما كان عليه في بلدان أخرى. ولكن ظل التشابه والتقارب بين مظاهر النهضة يشكل في كل الأحوال الطابع الطاغي لثقافتها على صعيد القارة الأوروبية.

٤ - لم يتقيد رجال النهضة، ولا سيما في إيطاليا، بالتخصص في مجال دون آخر. فغالبا ما كان الواحد منهم يتمسك بناصية حقول مختلفة من المعرفة والإبداع الفني. وخير مثال على ذلك هو الرسام الخالد ليوناردو دافنشي الذي كان نحاتا بارعا وأديبا لامعا ومهندسا متفوقا وعالما بارزا في الرياضيات وميكانيكيا إخترع عددا كبيرا من الآلات والمكائن، كما إهتم بالطب، خاصة ما يتعلق بتشريح جسم الإنسان. أما كوبرنيكوس فإنه كان مفكرا وعالما ضليعا في مجال الفلك، درس القانون والطب والفلك في بلاده وفي إيطاليا. وفي الأولى إشتغل في مجالات إدارية ومالية مختلفة الى جانب إنغماسه المتواصل وعلى مدى ٤٠ عاما في تجاربه العلمية الصرفة. وتضعه أراؤه وإستنتاجاته المهمة في مصاف مفكري عصره. ولم يكن ماكيافيللي مجرد مؤرخ أو رجل سياسة فحسب، بل كان أيضا فيلسوفا وأديبا بارعا. وسنتعرض لنماذج أخرى من هذا القبيل عند بحثنا عن أعلام النهضة.

---

[1] تشتهر الجامعات الفرنسية بإهتمامها الكبير بالقانون منذ زمن بعيد، حتى أن اللغة الفرنسية أصبحت تتميز بمكانة خاصة في تنظيم شؤون العلاقات الدولية.

٥ - أولى رواد النهضة، خاصة في المرحلة الأولى من مسار تطورها، إهتماما كبيرا للغاية بالنتاج الفكري لعصر ما قبل الإقطاع، أي ذلك العصر الذي كان المفكرون فيه متحررين من قيود الكثلكة فكانوا يهتمون بالحياة وبالإنسان أكثر من أي شئ آخر. وقد نبع مثل هدا الإهتمام من جانب الرواد عن إيمانهم المطلق بأنهم يتمكنون، بعد قرون متواصلة من الإستبداد الفكري للعصر الوسيط، من العودة الى الإهتمام بالحياة والتعمق في فهم الطبيعة والتعبير عنها والإستفادة منها فقط عن طريق بعث التراث القديم. وقد بلغ تمسكهم بإحياء مخلفات ذلك العصر حد أن الناس ظلوا طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر يعتبرون كل مظاهر النهضة مجرد بعث لنفس حقول المعرفة التي كانت تسود عهدي الرومان والأغريق بشكل خاص. أي أنهم لم يعتبروا ميلاد تلك المظاهر إستجابة طبيعية لحاجات إجتماعية جديدة تخطت متطلباتها حاجات المجتمعات القديمة بمراحل عديدة لذا إحتوت على أفكار وإبداعات وإبتكارات لم يكن بالإمكان مجرد التفكير بها في العصر القديم لإنتفاء الحاجة إليها أصلا. فإن عوامل النهضة، كما ذكرنا ذلك في مكان آخر، كانت عميقة ومتشعبة بحيث لم يكن في الإمكان أن تكون هذه الظاهرة الحضارية الجديدة مجرد إحياء للقديم أو نتيجة مباشرة لسقوط القسطنطنية وإنتقال البيزنطيين مع مخطوطاتهم اليونانية القديمة الى إيطاليا كما يعتقد ويؤكد العديد من المؤرخين. الواقع هو أن ((أوروبا إستيقظت وغدت متلهفة للمعرفة الجديدة))، وبما أنها إستيقظت وأصبحت متلهفة الى الجديد من العلوم والمعارف فقد تشعبت توجهاتها لتحقيق تلك الغاية الرفيعة منها أن أبناءها إنكبوا على ((دراسة ما أهمل من ثروة كلاسيكية قديمة لم تنس نهائيا)). من هنا لا يمكن للنهضة أن تكون سوى ((مرحلة في مسار التطور الفكري))[1] لا إستنساخا للماضي كما يبدو ذلك بشكل أوضح فيما يلي من مواضيع.

---

(1) A. J. Grant, A History of Europe, Part II, London, 1929, PP. 463, 465.

٦ - كان من الطبيعي أن يرتبط جانب مهم من إبتكارات عصر النهضة العلمية والتقنية بمصالح البورجوازية النامية مما تجسد بشكل واضح في التطورات الكبيرة التي حدثت في المجالات المتعلقة بالملاحة كتطور صناعة السفن والتقدم الهائل في حقل الدراسات الجغرافية والفلكية التي كان يستحيل بدونها كشف الطرق التجارية الجديدة مع العالم القديم والجانب الغربي من الكرة الأرضية. ففي هذه المرحلة بالذات ظهرت نشرات جغرافية مختلفة إحتوت على معلومات علمية وإجتماعية مهمة وطريفة للرحالة إستهوت حتى القارئ البسيط. وقد إزداد الإهتمام كذلك بالرياضيات والنبات وبعدد آخر من العلوم الطبيعية التي أسهمت بأشكال مختلفة في تطوير الحياة الإقتصادية لبلدان أوروبا وفي تلبية حاجات ذلك التطور. وهي عززت - كما سنرى - أسس الآيديولوجية البورجوازية الجديدة بإثباتها، على أساس التجربة، بطلان الكثير من الأراء والأفكار الإقطاعية البالية التي ظلت تسود المجتمعات الأوروبية على مدى قرون طوال.

٧ - يعتبر الإنسانيون آيديولوجيي عصر النهضة، فهم الذين خطوا الخطوة الأولى في وضع الأسس الدنيوية للثقافة الجديدة. ينحدر مصطلح الإنسانية والإنسانيين (Humanism – Humanistic) كتعبير إجتماعي فكري ظهر في القرن السادس عشر[1]، من الكلمة اللاتينية (Humanitas) التي تعني الإنسانية حرفيا وهي مقتبسة بدورها من (Homo) التي تعني الإنسان. وقد أراد أصحاب الإتجاه الجديد بإختيارهم لهذا الإسم التأكيد على الطابع الدنيوي للعلوم

في الواقع أن جرانت يقول في نهاية رأيه المذكور آنفا أن النهضة كانت تشكل((مرحلة في مسار التطور الفكري الأوروبي))، إلا أننا لم نقتبس الكلمة الأخيرة من مقولته هذه لعدم إتفاقها مع رأينا الذي عرضناه ضمن كلامنا عن الخاصية الأولى من خصائص النهضة بإعتبارها أشمل من كونها مجرد نهضة أوروبية وأحرى أن تكون ذات طابع إنساني.

[1] تم تثبيته كمصطلح متداول في القرن السادس عشر، وإلا فإن بعض الإنسانيين غالبا ما إستخدموا (Humanitas) في نتاجاتهم قبل ذلك التاريخ.

والآداب وعلى قيمة الفرد في الحياة بعد تجريده منها على مدى قرون طويلة، وبشكل خاص بعد أن تحولت النقابات والأصناف الى تنظيمات جامدة فرضت قيودها عليه. فإن أبرز خاصية للحركة الإنسانية هي تأكيدها على الذات أو شخصية الفرد (Individual – Individualism) [1]. ولم يأت ذلك إعتباطا، بل أن متطلبات الحياة في العصر الجديد قد فرضت تغييرا كبيرا على موقع وتصرف الفرد في المجتمع. فلم يعد بإمكان الأصل والإنتماء العائلي مثلا تحديد مكانة وإمكانات أبناء الفئات الإجتماعية العليا كما كان عليه الأمر في السابق عندما كان الإقطاعي يأتيه بحكم الإنتماء الوراثي مورد كبير دون بذل جهد يذكر، بينما أصبح لزاما على الرأسمالي- خاصة في المراحل الأولى من ظهور الرأسمالية - أن يعمل ويتحرك ويبذل النشاط ويدخل حلبة المنافسات ويلجأ الى المناورات ويراقب وضع السوق وتقلباته بدقة. وهو كان يفعل كل ذلك من أجل تطوير إمكاناته التي أصبحت عرضة للزوال في خضم التنافس المتزايد. من هنا أصبح التأكيد على قيمة الفرد الكامنة في ذاته وصفاته لا في إنتمائه سمة بارزة لدى مفكري عصر النهضة الذين إعتبروا الإنسان ((مقياسا لكل ما يخلقه الإنسان))[2]، فهو الذي ((يعرف ما يفعل وكيف يستغل إمكاناته ومواهبه الكامنة)) لكي ((يجني أحسن الفوائد مما يتاح له من فرص ليشق طريقه في هذا العالم))[3]. وبذا تحول الفرد في نظر الإنسانيين الى أهم عنصر من عناصر الطبيعة فكانوا يؤكدون على قدرته الخارقة التي تجعل منه كائنا يستطيع ((طرق كل الأبواب)) فإن ((كل الطرق مفتوحة أمامه)) مادام ((تكمن فيه بذور معارف شتى)).

---

[1] لم يقصد الإنسانيون بمصطلح ال (Individualism) معناه الحرفي- الفردية، بل كانوا يقصدون به التأكيد على ذات الإنسان أو شخصية الفرد.

[2] M. L. Bush, Renaissance, Reformation and the outer World, London, 1967, P. 153.

[3] R. R. Palmer and J. Colton, A History of the Modern World, third edition, New York, 1965, P. 51.

ومن المنطلق نفسه أكد الإنسانيون بشكل خاص على قضايا الفرد الحياتية وعلى وجهة نظره الى مظاهرها مع تمجيد أفعاله التي كان من شأنها الترفيه عنه في حياة الدنيا. بل إن سعادة الذات كانت تبرر، في نظر معظمهم، سبل تحقيقها. فإن أورينزو ڤالا أكد بحماس على أن هدف الحياة إنما هو السعادة وعلى الناس أن يصبوا إليها لكونها ((إرادة الطبيعة نفسها)) كما كان يقول[١]. وقد أعطى تفسير مثل هذه الآراء مجالا للإبتعاد أحيانا عن بعض القيم المعنوية والإنغماس بشكل متطرف في ملذات الحياة، مما برز بشكل خاص بين أفراد الأوساط المتمكنة في إيطاليا. مع ذلك يجب أن نؤكد إن الإنسانيين كانوا يرومون من تأكيدهم على الذات إعطاء الفرد موقعه الطبيعي في المجتمع وهم في تمسكهم بقيم الماضي ما كانوا يستهدفون مجرد تحويل الفرد الى ((رجل ثقافة)) وحسب بل وتحويله كذلك الى ((مواطن أفضل وأفيد))[٢] وفي ذلك، دون شك، توجه أخلاقي مهم يجب أن يقيم من خلال منظور إجتماعي ووطني عام.

وعلى أية حال فإن نظرة الإنسانيين الى حياة الدنيا جاءت نقيضة للرهبنة التي كانت تقضي بتكريس كل ما في الحاضر من أجل الآخرة مما كان يشكل بدعة كنسية بعيدة عن الروح الأصيلة للديانة المسيحية وهو أمر برهن عليه رجال الإصلاح الديني ومفكرو النهضة بشكل لا يقبل الجدل. ومن المفيد أن نذكر بهذا الصدد أن نمط حياة البابوات وكبار الأساقفة كان على طرفي نقيض مع ما إبتدعت أفكارهم من تعاليم. لذا فإن موقف الإنسانيين في هذا المجال كان يشكل ثورة تحد كبيرة بوجه التزمت الكنسي الذي جرد الإنسان من قيمه وأهمية وجوده في هذه الحياة. بينما جعل الإنسانيون من فهم الإنسان وما يحيط

---

[١] من آراء لورينزو ڤالا أن ((كل ما في الإنسان، من جسم وروح، هو من تصميم إلهي، فلا جزء فيه آت من الشيطان)) (مقتبس من:

E. Garin, Italian Humanism. Philosophy and Civic Life in the Renaissance, translated by P. Munz, Oxford, 1965, P. 50).

[2] H. Baron, Op. Cit, PP. 451 – 452.

به واحدا من أهم مقاصدهم، وهذا ما تحول بالتالي الى عنصر محرك مهم لكل علم ومعرفة جديدة.

٨ - شكل الجانب الأكبر من الآرء والأفكار التي رافقت النهضة النواة الأولى للآيديولوجية البورجوازية. ولكن تجاوزت جوانب معينة من تلك الأفكار أحيانا إطار هذه الطبقة الجديدة لتعبر بشكل أو آخر عن طموحات الفئات الإجتماعية الدنيا بما فيها الطبقة العاملة الوليدة، بل إنها إرتبطت في أحيان أخرى ولأسباب ذكرناها بالكنيسة وبالإقطاعيين كذلك. وقد نجم عن ذلك بعض الإختلاف والتناقض في مظاهر معينة للنهضة ولا سيما في الإتجاهات الفكرية التي برزت الى الوجود في عهدها. ولكن تبقى أفكار النهضة في مجملها تمثل البورجوازية النامية. وبما أنها كانت تناقض أساسا قيم المجتمع الإقطاعي فقد إتسمت بطابع ثوري وأصبحت تعبر عن طموحات جميع الطبقات والفئات التي إتفق تغيير ذلك المجتمع مع مصالحها الأساسية.

برزت خصائص النهضة ومقوماتها هذه في إيطاليا أولا ومنها بدأت تنتشر الى الأقطار الأوروبية الأخرى لتتطور وتتأقلم في توافق مع الظروف الخاصة بكل واحد منها. ولم يجر هذا التأثير بنفس المستوى، ذلك لأن الأقطار الأوروبية نفسها لم تكن في القرن السادس عشر مهيأة لتقبل إشعاعات النهضة الإيطالية بدرجة واحدة. فنرى إنعكاسات محدودة متأخرة لعناصرها في مناطق البلقان وأوروبا الشرقية لتزداد كما ونوعا وسرعة بشكل لا يقاس في إنكلترا ولا سيما في فرنسا والأراضي المنخفضة[1]. وكانت سبل إنتقال آثار النهضة من إيطاليا متنوعة للغاية[2]. فبالنسبة لفرنسا، مثلا، لعبت غزواتها العسكرية دورا مباشرا لإحتكاك النبلاء الفرنسيين بأسلوب حياة وثقافة سكان المدن الإيطالية المزدهرة فإقتبسوا منهم طرز ملابسهم وأسلوب تعاملهم الإجتماعي كما تأثروا

---

(1) A. J. Grant, Op. Cit., Part II, P. 459.

(2) R. Weiss, the Spread of Italian Humanism, London, 1964, Pp. 87 – 97.

بآدابهم وعلومهم. وسرعان ما تحول البلاط الفرنسي نفسه الى مركز أساسي لتلقف وتطوير مظاهر النهضة الإيطالية. فبتأثير من عمارتها - على سبيل المثال لا الحصر- تم بناء القصر الملكي المعروف لوفر في باريس[1] الذي يأتي حتى اليوم على رأس قائمة المزارات الفكرية في العالم.

لعب طلاب العلم دورا مهما في مجال نقل آثار النهضة الإيطالية المبكرة الى بقية أنحاء أوروبا. فبعد أن بدأت في فلورنسا منذ أواخر القرن الرابع عشر دراسة اللغة اليونانية القديـمة بأسلوب جديد لتنتشر الى أجزاء البلاد الأخرى بسرعة، توافد العديد من أبناء الأقطار المجاورة على المدن الإيطالية بقصد تعلم هده اللغة والوقوف عن كثب على نتاجات أفلاطون وآرسطو وغيرهما. وقد حمل هؤلاء عند عودتهم الى أوطانهم الكثير من بذور الأفكار الجديدة لتعطي ثمارا يانعة إختلفت عن أصلها بشكل أو بآخر[2]. وكيفما كان الأمر فقد تمخضت مراحل النهضة الثلاث في مهدها - إيطاليا، وفي الأقطار المجاورة لها، عن نتائج مهمة للغاية تركت آثارها على التطور الفكري والعلمي اللاحق لكل العالم. وبالطبع في الإمكان تجسيد خصائص النهضة أكثر من خلال إلقاء بعض الضوء على نتائجها الأساسية وذلك بحكم التشابك الكبير بينهما مما يبدو واضحا من مضمون الفصل التالي.

---

[1] ف. ف. سميونوف، المرجع السابق، ص ٥٠٧.

[2] "The Renaissance and the Reformation 1300 – 1600", PP. 9, 13.

الفصل الثالث
نتائج النهضة

أدت أفكار النهضة ونتاجاتها الى نتائج إجتماعية وثقافية وعلمية وسياسية مهمة أسهمت بشكل فعال في تطوير المجتمع الأوروبي أولا والحضارة الإنسانية ثانيا، وقد كتب الخلود لبعض آثارها منذ لحظة ميلادها. وسنحاول فيما يلي التعرض بإيجاز الى الجوانب الأساسية لأهم النتائج التي تمخضت عن النهضة في إطارها الشامل.

١ - هزت أفكار النهضة وإبداعاتها الخلاقة أسس القيم الفكرية للمجتمع الإقطاعي في العصر الوسيط. فقبل كل شئ كشفت إهتمامات الإنسانيين المتعددة الجوانب الكنيسة الكاثوليكية وبدع رجالها على حقيقتها. وأول ما يجلب النظر في هذا المجال هو أن رجال النهضة أولوا دراسة وترجمة الكتب الدينية القديمة جانبا كبيرا من إهتمامهم وهذا بحد ذاته كان يعني كسر الإحتكار الذي فرضته الكنيسة على مدى قرون طويلة بالنسبة لهذا العمل. فبدأ اللغويون والعلّماء من غير رجال الدين يضطلعون بهذه المهمة ويكشفون بها للناس قضايا في غاية الأهمية. فمثلا أن لورينزو ڤالا الذي إستعان به شخص البابا لتحقيق بعض المخطوطات بين وجود أخطاء كبيرة في ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة اللاتينية وقد نشر بحثا خاصا بهذا الصدد. كما بين في بحث آخر له أن ((هبة قسطنطين))[1]، وهي الوثيقة التي كان يستند اليها البابوات في إدعائهم السلطة الدنيوية، مزورة من أساسها وتعود الى القرن الثامن لا الرابع الميلادي مما ترك أثرا سلبيا كبيرا على سمعة البابوية. وقد أثبت لورينزو ڤالا أنه لا يحق للبابوات التمتع بأى سلطة دنيوية لا في الفاتيكان وروما ولا في

---

[1] ((هبة قسطنطين –Donation of Constantine)) وثيقة مزورة دونها مستشارو البابا في القرن الثامن إدعوا فيها أن الإمبراطور الروماني قسطنطين (٣٠٦ - ٣٠٧) منح البابا سلطة دنيوية على كل القسم الغربي من الإمبراطورية بما في ذلك إيطاليا. وقد حول البابوات هده الوثيقة المختلقة الى أساس قانوني في صراعهم المرير من أجل السلطة الدنيوية.

الممتلكات البابوية ولا في أي جزء آخر من العالم، بل تجرأ أن يقول عنهم بكل صراحة أنهم قد تحولوا من ((قساوسة الى قطاع طرق وذئاب))[1]. وفي الواقع لولا حماية بعض المتنفذين للورينزو ڤالا ولولا الخشية من النتائج المحتملة لما ترددت البابوية في تقديمه الى محاكم التفتيش. وعلى أي حال فإن عمل ((صاحب الفكر الثاقب)) لورينزو ڤالا كان من القوة والعمق بحيث يعتبره العديد من المؤرخين((بداية للدراسات الإنتقادية العلمية الحديثة))[2] فمن خلال التمعن النافذ والمقارنة الدقيقة وجد ڤالا أن اللاتينية التي دونت بها الوثيقة تختلف في نقاط حساسة عما كان شائعا في عهد قسطنطين وإن بعض المدن التي وردت أسماؤها في ((الهبة)) لم تكن قد بنيت بعد في ذلك العهد[3].

أسهمت هذه الإهتمامات والإستنتاجات المهمة في تجريد رجال الكنيسة من سلاح ماض هو تفسير مضامين الكتاب المقدس والمؤلفات الدينية القديمة كما يشاؤون وبناء تعاليم على أساسه بعيدة كل البعد عن الروح الأصيلة للديانة المسيحية. ومما سهل مهمة الإنسانيين في هذا المجال أن العديد منهم كانوا في الأصل من رجال الدين أو درسوا في مؤسسات الكنيسة الكاثوليكية فوقفوا بثاقب نظرهم وبعمق على ثغرات هذا الجهاز الحساس وحددوا عن كثب المساوئ الكبيرة التي كان يتخبط فيها رجاله بدءا بالرأس وإنتهاءا بالقاعدة. ولقد بلغ رد فعل بعض الإنسانيين نحو الكنيسة حد أنهم رفضوا كل ما يتعلق بها. فالأديب والمفكر الفرنسي رابلييه (Rabelais) (١٤٩٤ - ١٥٥٣) لم يعاد الكاثوليكية فحسب بل أنه لم يرض حتى بالآراء البروتستانتية الإصلاحية، فسخر بأسلوب لاذع من التعصب الديني الأعمى وإنتقد نواقص المذهب البروتستانتي

---

(1) مقتبس من أ. أ. جوبير، التطور اللاحق للحركة الإنسانية في القرن الخامس عشر، باللغة الروسية، ((تاريخ العالم))، الجزء الثالث، ص ٦٢٨.

(2) J. R. Strayer and others, Op. Cit., P. 354.

تأثر العديد من أبرز رجال الفكر بلورينزو ڤالا فيما بعد منهم إيرازمس وڤولتير وآخرون كثيرون.

(3) R. Weiss, Op. Cit, P. 43.

مما عرضه الى هجوم مباشر من شخص الزعيم البروتستانتي المعروف كالڤن. وقد ذهب بعضهم الآخر الى مدى أبعد حتى من ذلك فتعرضوا بسبب آرائهم الى إرهاب السلطة والكنيسة التي حرمت، كما سنرى، تداول مؤلفاتهم، كما أتهم العديد منهم بالهرطقة فأدخلوا السجن وتعرضوا للتعذيب أو أحرقوا بالنار.

لم يقتصر رد فعل رجال النهضة على الكنيسة وتعاليمها، بل إنهم رفضوا جميع مظاهر الفنون والآداب المرتبطة بالعصر الوسيط الذي إعتبروه فترة تخلف وجهالة فأطلقوا عليه إسم ((العهد الغوطي)) وهو ما كان يعادل في المعنى إسم ((البربر والبرابرة)) آنذاك، علما بأنهم لم يكونوا محقين في ذلك كليا، لأنه لم يخل، وما كان بالإمكان أن يخلو، العصر الوسيط من مكتسبات وتطورات مهمة كانت نتيجة حتمية للتطور المستمر للمجتمعات البشرية. وعلى أي حال فقد دفع موقف الإنسانيين هذا، الناس الى ألا يروا في العصر الوسيط سوى ظلام دامس وقيود ثقيلة مما أسهم بشكل مباشر في تهيئة الجو الفكري الملائم للإنتقال الى عصر جديد أرقى. ومن الجدير بالذكر أن الإنسانيين هم الذين إستخدموا لأول مرة مصطلح ((القرون الوسطى)) للدلالة على العصر الذي سبق النهضة وأتبع عهد الرومان والأغريق حسب مفهومهم.

٢ - قلنا أن إهتمام الإنسانيين بالتراث القديم كان يشكل واحدة من الخصائص الأساسية لعصر النهضة مما أدى الى نتائج علمية وثقافية مهمة للغاية ولا سيما أن ذلك التراث وإن لم يهمل كليا في العصر الوسيط إلا أنه قد شوه الى حد كبير. فتحمس رجال النهضة في جمع نوادر المخطوطات المهملة في الكنائس والأديرة القديمة وأصبح للمهتمين بالمخطوطات وكلاء يبحثون عنها في كل مكان ويدفعون لقاءها مبالغ مغرية. كما بدأت حركة نقل واسعة لمئات المخطوطات القيمة من القسطنطنية[١] الى إيطاليا بشكل خاص فتوسعت المكتبات وتأسست أخرى جديدة. ولقد بذل الإنسانيون جهودا خارقة في

---

[١] مع تقدم العثمانيين في آسيا الصغرى وإقتراب خطرهم من عاصمة البيزنطيين القسطنطنية (إستانبول) بدأ علماؤها يغادرونها الى إيطاليا ناقلين معهم مجموعات قيمة من المخطوطات القديمة.

تحقيق هذه المخطوطات وترجمتها ونشرها وتمكنوا من تصحيح معظم النصوص القديمة المترجمة في العصور الوسطى حاذفين منها الإضافات المتقصدة كما قاموا لأول مرة بترجمة جميع النتاجات المعروفة للشعراء اليونانيين القدماء بما في ذلك أعمال هوميروس وكذلك النتاجات الفلسفية القديمة بضمنها معظم مؤلفات أفلاطون. وكان من الطبيعي أن يترك كل ذلك آثارا واضحة على حقول مختلفة من المعرفة الإنسانية وبشكل خاص في مجالات الدراسات الأدبية والفلسفية والتاريخية التي ظهر بالنسبة لها عنصر مهم جديد ساعد على تنشيط الجدل الفلسفي وفي التوصل الى إستنتاجات وحقائق تاريخية جديدة كما أوحى الى أدباء النهضة ببعض الأفكار الجديدة.

في نفس العصر قام عدد من التجار الأوروبيين المتأثرين بأفكار النهضة بجمع الآثار القديمة في الشرق وبنقلها الى بلدانهم حيث حظيت بإهتمام كبير من لدن بعض الإنسانيين، وقد دشن ذلك بداية ظهور علم جديد في عصر النهضة يهتم بدراسة الكتابات والنقوش القديمة يعرف بال"Epigraphy"

٣ - شهد عصر النهضة، ولا سيما في القرن السادس عشر، تقدما كبيرا في حقل العلوم الطبيعية التجريبية. ففي العصر الوسيط لم يجر سوى تأكيد محدود على الكيمياء، ذلك لأن البعض كانوا يعتقدون بإمكانية تحويل المعادن الإعتيادية الى أخرى ثمينة بواسطة تفاعلات كيمياوية[1]. وقد جرى إهتمام أقل من ذلك وبأسلوب غير علمي بالفلك لعلاقته بالتنجيم، بينما أهملت جميع الجوانب الأخرى من العلوم الطبيعية بل وشوه قسم كبير منها.

أما في عصر النهضة فقد غدا الإهتمام بالعلوم الطبيعية - مثلما ذكرنا- جزءا ملازما لمتطلبات المجتمع الجديد. فإن البورجوازية النامية كانت بحاجة الى تقدم مثل هذه العلوم من منطلقين، الأول لأنها كانت تشكل عنصرا أساسيا لتطوير إمكاناتها الإقتصادية نتيجة الإختراعات المهمة التي جاءت وليدة ذلك التقدم. أما منطلقها الثاني فقد إرتبط بالنتائج الثابتة المتمخضة عن المكتسبات

---

[1] وهو ما عرف عند العرب بالسيمياء.

العلمية التي عززت الى حد كبير أساس الأفكار الجديدة بفضحها الأسس الواهية للفكر الإقطاعي.

إمتدت آثار التطور العلمي الجديد الى مجالات مختلفة، وقد أحدثت إنقلابا فعليا في حقول معينة منها. ففي مجال الفلك، مثلا، توصل العلماء في عصر النهضة الى نتائج باهرة بمعنى الكلمة. فإن كوبرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) هو أول من وضع نظرية المجموعة الشمسية القائلة بأن الأرض تشكل أحد توابعها وهي تدور حول الشمس وحول مدارها في آن واحد، بينما كانت الكنيسة تعتبر الأرض مركزا ثابتا للكون تدور حولها الأجرام السماوية، بما فيها الشمس[1]. وقد قام عدد من العلماء فيما بعد، وخاصة جوردانو برونو (Brunno) (١٥٤٨ - ١٦٠٠) وغاليليو غاليلي (Galieli) (١٥٦٤ - ١٦٤٢) الإيطاليان، بتطوير نظرية كوبرنيكوس. فإن برونو قد أشار الى وجود مجموعات شمسية كثيرة أخرى الى جانب مجموعتنا الشمسية والتي لا يستطيع سكان الأرض رؤيتها، كما أكد هو، بسبب بعدها الكبير، وهو نفس الإستنتاج الذي توصل اليه الفلكيون خلال العقود الأخيرة. ثم أن برونو توقع وجود الحياة فوق الكواكب الأخرى أيضا. أما غاليليو فقد وضع أسس العلم التجريبي الحديث، فأثبت بالتجربة أن مدة ذبذبة البندول ثابتة مهما تغيرت سعتها، وبين خطأ إستنتاجات آرسطو حول حركة الأجسام فهي تسقط - كما أوضح - بنفس السرعة وبعجلة ثابتة مهما إختلف وزنها وأيد نظرية كوبرنيكوس. بهذا الأسلوب وبحكم إستنتاجاتهم العلمية دشن هؤلاء العلماء بداية عزل العلوم الطبيعية عن اللاهوت.

حقق علماء النهضة مكتسبات مشابهة أو قريبة في مجالات البحث الطبي (لاسيما التشريح) وفي الرياضيات والجيولوجيا والتعدين. فإنهمك الجراحون في تشريح جسم الإنسان وتطوير الأناتوميا وتوصلوا الى إستنتاجات مهمة أسهمت جديا في تطوير هذا العلم المرتبط بحياة الإنسان مباشرة والذي تحول

[1] أهدى نيكولا كوبرنيكوس بحثه الى شخص البابا!.

الى موضوع أساسي للتدريس في بعض الجامعات الأوروبية. وبذلك لعب علماء النهضة دورا كبيرا في تحرير العقلية الأوروبية من الخرافات التي جعلت من شق الرؤوس وذرها بالملح لطرد الأرواح الشريرة وبتر الساق بالفأس من ((أنجع)) وسائل العلاج الطبي[1].

لم تكن النتائج التي توصل إليها العلماء في حقول البحث الجيولوجي والتعدين قليلة الشأن، فعلى سبيل المثال نذكر أن العالم الألماني جورج باوير(١٤٩٤ - ١٥٥٥) خلف لنا مؤلفا ضخما في هذا المجال سماه((حول التعدين في إثني عشر كتابا)) يعتبر من أهم المصادر الأصيلة لدراسة تطور وسائل الإنتاج والتكنيك المستخدم لإستخراج المعادن خلال المراحل المبكرة للتطور الرأسمالي الأوروبي.

٤ - إن واحدة من أهم نتائج النهضة هي أنها تحولت الى عامل مساعد مهم في تكوين اللغات القومية الأوروبية الموحدة. ففي السابق كانت العلوم والآداب حكرا على فئات صغيرة من المجمتع كانت معرفة أبنائها اللاتينية تعتبر من مظاهر تمييزها عن عامة الناس وهي تحولت بذلك الى لغة التأليف والنقاش وحتى المخاطبة بين مثقفي العصر الوسيط مما ساعد بشكل غير مباشر على نمو اللهجات المحلية وإزدياد التباين بينها. ولكن مع تغيير النظرة الى الفرد المجرد كأهم عنصر في المجتمع كان من الطبيعي أن تتغير النظرة أيضا الى كل ما يتعلق بحياة هذا الفرد المادية والمعنوية. وتأتي اللغة من بين القضايا الأساسية التي تأثرت مباشرة بآثار هذا التغيير، إذ تحولت مظاهر النهضة الى مقومات مهمة لظهور لغات أدبية موحدة في أقطار أوروبية مختلفة. فلقد بدأ عدد كبير من رجال النهضة، لا سيما الأدباء منهم، يكتبون للناس وبلغة الناس جاعلين الثروة الغنية الكامنة في الأدب الشعبي أداة مهمة للتعبير عن أفكارهم ومصدر وحي

---

[1] يروي أسامة بن منقذ شواهد في غاية الغرابة عن الطب الأوروبي أيام الحروب الصليبية (للتفصيل راجع: الدكتور عبدالقادر أحمد اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، صيدا -بيروت، ١٩٦٩، ص ٢٦٨ - ٢٧٠).

لنتاجاتهم. وخير مثال على هذا الإتجاه الجديد في الكتابة والتعبير هو فرانسوا رابلييه الذي كان أبرز علم بين رجال النهضة الفرنسيين. راعى رابلييه في كتاباته ذوق القارئ البسيط وأعار، من أجل ذلك، تقاليد الأدب الشعبي المتداول إهتماما كبيرا وكتب بأسلوب رائع، غني وقريب الى حد كبير من الكلام الشائع بين الناس مما جعل منه أبرز أديب فرنسي في القرن السادس عشر ولقد أصبح لمؤلفاته، مثل مؤلفات العديد من رجال النهضة، رواج كبير بين الناس.

لم يعن مثل هذا الإهتمام النوعي الجديد باللغات المعاصرة إهمال أعلام النهضة للغات القديمة، وعلى رأسها اللاتينية التي لم تفقد أهميتها من وجهة نظر علمية بحتة حتى يومنا هذا. فقد تخصص عدد غير قليل من الإنسانيين في دراسة اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية القديمة. وكان معظمهم يجيدون اللاتينية بطلاقة ويتباهون بذلك كتعبير عن تمسكهم بالتراث القديم الذي إعتبروه نقيضا للقيم السائدة فأرادوا عن طريق اللاتينية إقتباس ما يمكن تحويله الى سلاح ماض ضد تلك القيم.

ولكن من المهم أن نلاحظ بهدا الصدد حقيقة أخرى هي أن معظم الإنسانيين الذين كتبوا باللاتينية كانوا يكتبون في الوقت نفسه بلغاتهم القومية، كما أن مؤلفاتهم اللاتينية كانت تترجم بعد فترة وجيزة لم تكن تتجاوز أحيانا السنة الواحدة الى اللغة القومية بل وإلى عدد من اللغات الأوروبية المعاصرة. والأهم من ذلك أن رجال النهضة قصروا الكتابة باللاتينية في الغالب على تلك الحقول والمواضيع التي كانت تهم العلماء والفلاسفة ورجال السياسة في الصميم، لذا أرادوا مخاطبتهم بلغتهم دون أن يتغير هدفهم الأساس- هدم صرح الفكر الإقطاعي الكنسي. بل أن بعضهم كتب باللاتينية عمدا لأنه كان يخشى إستنكاف من يخاطب ويناقش قراءة نتاجاته فيما لو كتبها باللغة القومية الدارجة. مع ذلك بدأت هذه الظاهرة تختفي بسرعة، فقد قل عدد الذين كانوا يكتبون باللاتينية، وبشكل خاص في مجال الإنتاج الأدبي، الى أن توارى الأمر

كليا كظاهرة ثقافية إرتبطت بعصر معين. وفي الأخير ظلت اللغة اللاتينية تشكل مصدرا مهما لصياغة المصطلحات العلمية الجديدة وذلك لسهولة الإشتقاق والتركيب فيها ولسيولة التعبير عنها.

تفاعلت هذه الحقائق مع عوامل أخرى رافقت تكون السوق الموحدة لتتحول الى عامل مهم في عملية تبلور اللغات القومية الإيطالية والإنكليزية والفرنسية والألمانية وغيرها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وقد ساعد نفس الشئ على نضوج الآداب القومية الأوروبية التي غدت في متناول الجميع، على عكس نتاجات عصر ما قبل النهضة التي إقتصرت على النخبة من العارفين للاتينية القديمة.

٥ - أسهمت أفكار النهضة ونتائجها بأشكال مختلفة في بعث الشعور القومي بين أبناء العديد من الشعوب الأوروبية، لا سيما لأن تحويل اللغات الحديثة الى أداة للتعبير عن النتاج الفكري لعب دورا كبيرا في رفع وعي الناس الذين أصبح ذلك النتاج في متناولهم. ويزداد تأثير هذا العامل إذا أخذنا بنظر الإعتبار حقيقة أن الجانب الأعظم من نتاجات عصر النهضة، والأدبية منها بشكل خاص، كان يفضح عيوب المجتمع الإقطاعي ويبشر بالتراث بأسلوب شيق يستهوي حتى القارئ البسيط الذي - إضافة الى كل ذلك - أصبح تداول الكتب في مقدوره بعد إختراع الطباعة بالحروف المتحركة في أواسط القرن الخامس عشر.

يدخل إختراع الطباعة الحديثة ضمن أهم المكتسبات العلمية والثقافية لعصر النهضة وإستجابة رائعة لمتطلباتها. فإن الإهتمام المتزايد باستنساخ المخطوطات القديمة بأكبر عدد وأحسن شكل ممكن دفع بالأوروبيين الى إقتباس الطريقة الصينية للطبع بواسطة الألواح الخشبية المحفورة. ومن جانب آخر حاول الإنسانيون وأنصار الإصلاح الديني الخروج على إحتكار الكنيسة الكاثوليكية وقساوستها للكتب الدينية بالعمل الجاد في سبيل نشرها على أوسع

نطاق ممكن حتى يبينوا للناس مدى إبتعاد البابوية عن القيم الأصيلة لديانته. ومنذ أن أثبت دانتي بمؤلفاته إمكانية تحويل اللغات القومية الى وسيلة للتعبير الفكري بدل اللاتينية - لغة الخواص- إشتدت الحاجة الى الكتب بشكل لم يسبق له مثيل، وذلك لأنها بدأت تأخذ سبيلها الى العوام كذلك.

إستوجبت هذه العوامل، مع غيرها، تطوير وسائل نشر الفكر لتواكب المهمات الإجتماعية الجديدة. فأجرى الأوروبيون تحسينات ملموسة على الطبع بواسطة الألواح الخشبية، ثم حدثت المفاجأة الكبرى في حوالي العام ١٤٤٥ عندما إهتدى الألماني يوحنا غوتينبورغ (١٤٠٠ - ١٤٦٨) الى صنع أول آلة طبع خشبية تعمل باليد وتستخدم الحروف المتحركة، بلغت طاقتها القصوى طبع ١٠٠ صفحة في الساعة مما كان يشكل تطورا نوعيا هائلا في عالم الطباعة.

ولد إختراع غوتينبورغ وفي أحشائه بذرة التطور وقوة النماء السريع وإمكانات العطاء الواسع. فقد أسهم بقسط كبير في التقدم العلمي وبعث التراث وإنتشار الأفكار الرائعة للنهضة وما تبعها من فكر متحرر وفي تعميم الثقافة القومية وبلورة اللغة الأدبية الموحدة لجميع الشعوب بالتتابع. وسرعان ما تحول الإختراع الجديد الى حافز معنوي كبير بل ومادي للإقبال على التأليف بعد أن غدت السوق مكان عرض الكتب للجميع بدل المكتبات الخاصة القليلة التي كان نطاق تداول محتوياتها محدود للغاية. ولولا إختراع الطباعة لظلت الكتابة والقراءة والتعليم بشكل عام حكرا على النخبة من الفئات الإجتماعية العليا ورجال الدين، بينما أصبحت كتب التعليم بفضل الطباعة الحديثة في متناول أبناء الطبقات الفقيرة أيضا وذلك نتيجة توفرها وبفضل رخص أسعارها.

ومع أن غوتيبورغ وشركاءه حاولوا الإحتفاظ بسر الإختراع الجديد أطول فترة ممكنة إلا أنه سرعان ما إنتشر في ألمانيا والأقطار الأوروبية الأخرى وعلى رأسها مهد النهضة إيطاليا. فلم ينقض أكثر من نصف قرن ونيف حتى وصل مجموع ما طبع من الكتب بواسطة الحروف المتحركة في أوروبا حوالي ٣٠

ألف كتاب معدل المطبوع من الكتاب الواحد ٣٠٠ نسخة، بمعنى أن مجموع ما طبع من الكتب خلال أقل من ستة عقود كان ٩ ملايين نسخة مما شكل بداية مهمة لظهور أساس مادي عظيم للتطور العلمي والثقافي الهائل الذي غير وجه العالم بشكل سريع. فلا غرو، والحالة هذه، أن إعتبر المؤرخون عمل غوتينبورغ أعظم مكسب ثقافي قدمه الشعب الألماني للبشرية في القرن الخامس عشر فهو، كما يقول أحدهم ((من النوع الذي يحدث مرة واحدة ولن يتكرر أبدا))[1].

٦ - كان من الطبيعي أن تؤدي التغييرات الجذرية والإبداعات الخلاقة التي رافقت النهضة الى تعميق مظاهر الصراع في المجتمعات الأوروبية المتقدمة، ذلك لأنها كانت تتميز بطابع تمرد صارخ على قيم الإقطاع ومساوئ الكنيسة الكاثوليكية وهي شكلت من هذا المنطلق نواة الفكر البورجوازي النامي. ثم إن طابع التمرد المذكور لم يقتصر على حقل دون آخر، بل إنه عبر عن نفسه موضوعيا في مجال العلوم التجريبية البحتة البعيدة عن السياسة والأدب بشكل أكثر بروزا من معظم المجالات الأخرى لأن النتائج العظيمة التي توصل إليها العلماء فضحت بشكل مباشر الأفكار المتخلفة التي كانت تبشر بها الكنيسة والتي ظلت تقيد عقول الناس على مدى قرون طويلة. لذا لم يكن عبثا أن لا تقتصر مواقف الكنيسة والسلطة المتشددة للغاية على أولئك الإنسانيين الذين جاهروا للكثلكة عداءهم الصريح بل تمتد الى عدد كبير من أعلام النهضة البارزين وعلى رأسهم بعض العلماء. ومن المؤشرات المهمة لهذه الحقيقة النشاط الكبير الذي زاولته محاكم التفتيش في هذه الفترة بالذات. فإنها أعلنت، مثلا، بطلان أفكار كوبرنيكوس وحرمت كتابه الذي قضى العالم الكبير كل حياته في تأليفه، كما فعلت الشئ نفسه مع غاليليو الذي حوكم وأرغم على نبذ تأييده لنظرية كوبرنيكوس عن دوران الأرض حول الشمس.

---

(1) G. C. Sellery, Op. Cit., P. 234.

وقد قضى العديد من علماء ومفكري النهضة عمرهم داخل أقبية السجون الموحشة أو صعدوا على أعواد المشانق أو أحرقوا وهم أحياء. فإن العالم والمفكر الإيطالي برونو قضى ثماني سنوات بين جدران محاكم التفتيش وأقبية تعذيبها المرعبة تم بعدها حرقه علنا في إحدى ساحات روما في تشرين الثاني ١٦٠٠[١]. أما العالم اللغوي الفرنسي دوليه فقد نفذ فيه حكم الموت حرقا بإحدى ساحات باريس في آب ١٥٤٦ لأنه بشر من خلال مطبعته الخاصة بأفكار الإنسانيين المتحررة.

ولكن عبثا حاول الظلاميون حجب الشمس بالغربال وإرجاع عقارب الساعة الى الوراء. والدليل المعبر الذي يستحق الذكر هنا هو ذلك النصب التذكارى الشامخ لدوليه الذي رفع الستار عنه عام ١٨٨٩ في إحتفال مهيب بنفس المكان حيث أتت فيه النيران على جسده دون أن تتمكن من فكره السامي وروحه العالية. وهكذا تحول موقع مأساة العام ١٥٤٦ الى ساحة جميلة بباريس يزينها تمثال ليروي بصمت مدو قصة رائعة للأجيال.

عند بحثنا عن أعلام النهضة سوف نرى نماذج أخرى من ضحايا محاكم التفتيش والأنظمة الإقطاعية التي لم تأت إجراءاتها المتشددة مجرد تعبير عن تعميق الصراع بين القديم والجديد، بل إنها عبرت بقسوتها أيضا عن محاولات يائسة للحفاظ على قواعد نظام نخرت الأفكار الجديدة أسسه من الأعماق وبشكل أصبح من المتعذر عليه الصمود طويلا.

٧ - أدت النهضة الى حدوث تغيير جدي في الوضع الإجتماعي للمرأة الأوروبية. وقد نجم ذلك عن عاملين مهمين إرتبط أولهما بنظرة الإنسانيين الى موقع الفرد في المجتمع الذي تشكل المرأة نصفه أو أكثر ونتج الثاني منهما عن الحاجة الى جهود المرأة في الإنتاج، ولا سيما في بدايات ظهور الرأسمالية

---

[١] دافع جوردانو برونو بثبات عن أفكاره وآرائه فقد تميز بشجاعة خارقة وصلابة نادرة، حتى أنه توجه الى الحكام أثناء صدور حكم الموت عليه قائلا لهم بتهكم((أغلب الظن أنكم تصدرون حكمكم بخوف أكبر مما أتلقاه به أنا)).

عندما إزداد الطلب على الأيدي العاملة بشكل لم يسبق له مثيل. وعلى أي حال فقد نزلت المرأة الأوروبية في عصر النهضة الى ميادين الإنتاج الصناعي والتأليف والعمل المسرحي والنقاش الفلسفي وأصبحت تتمتع بمكانة إجتماعية أسمى من السابق، وبشكل خاص في المدن الإيطالية المزدهرة التي ساعدت ظروفها على أن تحصل المرأة فيها على درجة عالية من الثقافة[1].

لم تقتصر نتائج النهضة والحركة الإنسانية على ما سبق ذكره، بل إنها أدت في الوقت نفسه الى نتائج أخرى كثيرة في مجالات الإبداع الفني والتطور الفكري والإنتاج الأدبي وغير ذلك من حقول المعرفة الإنسانية المهمة التي تتجسد بشكل واضح من خلال إستعراضنا لحياة وإبداعات عدد كبير من أبرز أعلام النهضة الخالدين.

---

(1). "Renaissance and Reformation, 1300 – 1648", Edited by G. R. Elton. Second edition, New York , - London, PP. 85 – 86.

الفصل الرابع

الخالدون

مما تقدم يبدو واضحا أن النهضة لعبت دورا كبيرا للغاية في الحياة الثقافية لأقطار أوروبا وأثرت عن طريقها في مجمل الفكر والفن الإنسانيين، وهي تشكل بذلك نقطة مضيئة في الحضارة البشرية. فإلى عهدها تعود النتاجات الأدبية والفنية الخالدة التي بلغت قمة الروعة والجمال، وإليها يعود فضل التطورات الكبيرة في مجال إحياء التراث القديم والتقدم الكبير الذي إمتدت آثاره الى مختلف حقول العلم والمعرفة بما فيها الفلسفة والعلوم الطبيعية والإنسانية والتربوية والفنون والسياسة وغيرها.

إشتركت جميع الشعوب الأوروبية، كما سبق الذكر، في خلق مقومات النهضة وذلك بما قدمت لها من ثروة غنية كامنة في تجارب الماضي والفلكلور الشعبي والتقاليد القومية وأخيرا بما قدمت من أبناء بررة مستعدين للعمل والتضحية بتفان أصيل في سبيل دفع عجلة التطور الإجتماعي خطوات كبيرة الى أمام. فقد أكد العديد من الإنسانيين الى ضرورة العمل الجاد، ولا سيما أنهم كانوا يرون أن الإنسان لا يولد عالما أو مفكر إنما يستطيع بلوغ مثل هذه المراتب وغيرها عن طريق بذل الجهد المتواصل. وكانوا هم خير نموذج لذلك الإنسان الأقرب من الكمال الذي كان يعمل ليل نهار ويخدم بإخلاص ويحاول أن يفيد ويستفيد بكامل طاقاته. ويمكن أن نورد بهذا الصدد بعضا من أقوال الإنساني الإيطالي بيير باولو الذي كان يرى غاية السعادة في العمل الدؤوب، حتى أنه شبه الليل بالموت ((ما دام يذهب الوقت في النوم هباءا)) حسب قوله. ومن آرائه أيضا- وهو كان يخاطب في ذلك العلماء بشكل خاص- إن من ينضح العرق يتغلب على الصعاب وينال العلى[1].

---

[1] ن. ف. بيفياكينا، الإنساني بيير باولو فيرجيو، العمل الفكري والعلماء، - ((أوروبا في العصور الوسطى. إقتصاد، سياسة وثقافة، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٧٢، ص ٣٤٢.

بمثل هذه الروحية العالية عمل وأنتج رجال النهضة. وفي الواقع لا يمكن قطعا حصر أسماء جميع مفكري ورسامي وأدباء وعلماء ذلك العصر، إذ توجد مئات من الأسماء اللامعة التي تركت آثارا خالدة في شتى مجالات حقول المعرفة سبق أن تطرقنا الى عدد قليل منها من خلال عرضنا لخصائص ونتائج النهضة. وسنحاول فيما يلي إعطاء فكرة عامة عن نشاطات عدد آخر من هؤلاء العمالقة الأفذاذ بشكل يمكن من خلاله تقديم صورة معبرة عن واقع النهضة في مراحلها المختلفة.

رواد النهضة

كان من المنطق أن يظهر رواد النهضة والحركة الإنسانية في إيطاليا قبل غيرها. فقد وضع المفكرون الثلاثة دانتي وبترارك وبوكاشيو هنا اللبنات الأولى في صرح النهضة الشامخ مما يعطي نشاطاتهم وأفكارهم أهمية خاصة يمكن الوقوف من خلالها على الأبعاد الأساسية للمرحلة المبكرة من ميلاد النهضة.

دانتي (١٢٦٥ – ١٣٢١):

دانتي أليجيري شاعر إيطالي معروف ويعتبر بإتفاق الآراء المبشر الأول للنهضة. ولد في فلورنسا وإشترك بنشاط في حياتها السياسية وكان يميل الى الإتجاهات المعارضة هناك حتى حكم غيابيا لهذا السبب فبقي يعيش بعيدا عن مسقط رأسه الى أن وافاه الأجل حيث دفن في رافنا.

كان دانتي واحدا من أثقف مثقفي عصره[١] مما أعطاه إمكانية فهم جوانب مهمة غير مرئية من محركات الحياة والمجتمع لم يكن من السهل إدراك كنهها آنذاك. فقد وضع اليد بسرعة على الدور الكبير الذي بإمكان اللغة القومية

---

[١] حسب تأكيد بعض المؤلفين تحتاج دراسة دانتي وترجمة الكوميديا بالنسبة للمتخصصين الأوروبيين، حيث الأجواء العلمية المناسبة، الى وقت يتراوح بين ال ١٥ وال ٢٥ عاما.

أداؤه في التحريك من أجل التغيير، فأصبح أبرز رائد للدعوة الى إستخدام اللغة الإيطالية الدارجة في النتاج الأدبي بدل اللاتينية مما وجد له صدى واسعا بين الأوساط المثقفة خاصة في فلورنسا حيث بدأ المثقفون يحسون ((حلاوة الأسلوب الجديد)) حسب وصفهم إياه[1]. وكان لمؤلفات دانتي بالذات الدور المبكر المهم في تثبيت هذا الإتجاه الجديد لأنه تمكن بأسلوبه الموسيقي الأخاذ من دفع أعداد متزايدة من الأدباء والقراء الى الإهتمام به وتذوقه فوضع بذلك بداية مهمة لإخراج الأدب من النطاق المدرسي الضيق للعصر الوسيط إذ لم يبق هذا العنصر الفكري المهم محصورا ضمن حلقات التدريس الضيقة وحكرا على الفئة المختارة من عارفي اللغات القديمة، بل غدا بطاقاته الخلاقة في متناول الجميع تقريبا.

بلغ حماس دانتي للغته القومية حد أنه لم يكتف بالتأليف بها فحسب بل جلب كذلك إنتباه الناس والمختصين إليها كعالم لغوي بأن كرس لدراستها وللتأكيد على أهميتها وقوة أدائها عددا من البحوث منها كتابه ((حول اللغة الدارجة))[2]. وأول كتاب في المقارنة عن اللغة الرومانية وشعرها. وما أروع تشبيه دانتي للغته القومية ب ((خبز الشعير))، لأن هذا بالذات كان يشبع بطون الآلاف المؤلفة من بسطاء الطليان يومذاك، بينما كانت أنواع الخبز الأخرى، شأنها شأن اللغة اللاتينية، حكرا على فئة قليلة من الناس. إن في هذا التشبيه الموفق مغزى عميقا من شأنه إعطاء صورة معبرة واضحة عن واقع توجهات هذا الشاعر العظيم. فهو أراد أن يكتب للناس، للشعب الإيطالي، فإختار لغة الناس لمخاطبتهم وتوجيههم، ووقف بثبات المؤمن ضد الذين يحاولون الإنتقاص من ((لغتنا الشعبية الجميلة)) كما كان يقول.

---

[1] أ. أ. جوبير، دانتي، باللغة الروسية، ((تاريخ العالم))، الجزء الثالث، ص ٦٢١.

[2] ألفه باللغة اللاتينية لأنه أراد به جلب نظر الكتاب والعلماء الى إمكانات اللغة الإيطالية في التعبير فقد كان يخشى إستنكاف هؤلاء تداوله لو كتبه بالإيطالية.

كتب دانتي باكورة نتاجه الأدبي ((حياة جديدة)) باللغة الإيطالية وهي عبارة عن مجموعة قصائد مع تعلّيقات نثرية يروي فيها الكاتب قصة حبه لفتاة أحلامه الفلورنسية باتريس بورتيناري والتي بدأت منذ لقائه الأول بها في التاسعة من عمره ولم تنته بوفاتها في الثامنة عشرة من عمرها بل تحولت الى مصدر وحي للعديد من إبداعاته الشعرية. لا تقتصر أهمية هذا الكتاب على شكله ومضمونه الرفيعين فحسب بل المهم فيه أيضا أن صاحبه أثبت بالتجربة إمكانية التحدث للناس عن القضايا الحياتية الواقعية بأسلوب أدبي يفهمونه كما يعيشونه فجاء ذلك بمثابة خروج جرئ على الطوق المدرسي التقليدي السائد الذي حدد مجال التحرك الأدبي بشكل جامد.

بلغ أدب دانتي الذروة شكلا ومضمونا في رائعته ((الكوميديا)) التي عرفت من بعده مباشرة ب ((الكوميديا الإلهية))، فقد رصعها بدرر اللهجات الإيطالية، مع تأكيد خاص على اللهجة التوسكانية، وبروائع الحكم والأمثال الشعبية وبالنماذج التاريخية الحيوية وهي تميزت، نتيجة كل ذلك وغير ذلك، بأسلوب من البناء الفني المتناسق لم تبلغه أي لغة أوروبية أخرى يومذاك. فلا غرو أن تحولت ((الكوميديا الإلهية)) الى القاعدة الرصينة للغة الأدبية الإيطالية الموحدة المليئة حتى اليوم بحكم وأمثال وتعابير دقيقة إستخدمها دانتي ببراعة في ((الكوميديا)).

تتعدى أهمية ((الكوميديا الإلهية)) المؤلفة من مائة أنشودة تضم أكثر من أربعة عشر ألف بيت، الناحية اللغوية الى حد بعيد جدا. فقد وردت فيها أفكار إجتماعية وسياسية - فلسفية عميقة في مضمونها الملئ بأشجع تحد صارخ للقيم البالية وبتطلعات ذكية نحو عالم أفضل بأسلوب مستعار. فالكوميديا ملحمة شعرية خيالية ينتقل صاحبها من خلالها الى العالم الثاني المؤلف من ثلاثة أقسام أو مراتب هي الجحيم أو النار والمطهر أو الأعراف والفردوس أو النعيم. ويختار دانتي من الشاعر الروماني الوثني ڤيرجيل (٧٠ - ١٩ ق. م.) دليلا له

خلال مروره بأوار الجحيم ورحاب الأعراف حتى بلوغه أعتاب الفردوس حيث كانت حبيبته باتريس بإنتظاره.

لم يأت إختيار دانتي لڤيرجيل دليلا له في جولته عبثا، بل كان في الأمر مغزى عميق. فقد عاصر ڤيرجيل أيضا غروب عصر وتمنى في أشعاره بزوغ فجر ((العصر الذهبي)) وتغنى بتقاليد روما القديمة التي آمن بعظمتها فأحبها من الأعماق. ثم أن ڤيرجيل كان بخلقه الرفيع وتواضعه الأصيل ونشاطه الجم وإخلاصه النادر يمثل خير نموذج لإنسان عصره في نظر أعلام النهضة. مع ذلك ترافق دانتي الى الفردوس أحب إنسانة من مجتمعه. ولا يمكن تجريد ذلك، بالرغم من قوة خيال الشاعر وتعلقه بحبه لباتريس وتمسكه بتلابيب المسيحية، من عنصر الإعتزاز بالفرد الجيد المعاصر له الذي جعله في الجنة جنبا الى جنب أحب شخص الى قلبه.

تتميز ((الكوميديا الإلهية)) بتابع موعظي ديني عام لم يكن بإمكان دانتي التجرد منه، إلا أنها تحتوي الى جانب ذلك على أقسى وأبلغ نقد أدبي وجه الى الكنيسة ورجالها حتى ذلك اليوم. فقد كرس دانتي الأنشودة الأولى التي تدور أحداثها في الجحيم لتعرية أنانية وتفسخ وقسوة وأطماع رجال الكنيسة. والأهم من ذلك هو إلتقاء دانتي في الأنشودة التاسعة عشرة وفي سعير النار أيضا بعدد من البابوات والقساوسة الذين باعوا صكوك الغفران جنبا الى جنب مع الذين أجرموا في حياة الدنيا أو خانوا الأوطان مع أسوأ النماذج البشرية من سراق وقطاع طرق وغشاشين ومنافقين أفاكين وغيرهم. وجعل دانتي من النار الأزلية دارا أبدية للبابوات الذين يذكر في ملحمته إلتقاءه بهم وتحدثه معهم. بينما أولى شعراء الوثنية وفلاسفتها في المقابل إحتراما كبيرا لأنهم خدموا العلم والمجتمع بإخلاص فإختار واحدا منهم دليلا له ليصبح هذا النموذج للمفكرين القدماء أقرب شخص إليه بعد حبيبته باتريس التي هي في الوقت نفسه نموذج، مثلما ذكرنا، لإنسان عصره. وقد إختار الأعراف مكانا للأقدمين المخلصين بما

فيهم كل حاكم روماني وثني خدم بلاده أو إبتعد عن الفساد والرشوة. ولاشك في أن الحس الديني المرهف لدانتي وتبجيله للمسيحية قد لعبا دورهما الكبير في أن جعل الأعراف، لا النعيم، مكانا لهؤلاء، إلا أن ذلك لا يخلو أيضا عن نوع من التفضيل للفرد المخلص المعاصر له.

ومهما يكن من أمر فإن المهم هو إحتواء صور ((الكوميديا الإلهية)) الجريئة على نقد صريح ولاذع للكنيسة مع دعوة بليغة للناس الى التمسك بالخلق الفاضل وبالقيم الوطنية الرفيعة، فهؤلاء فقط هم الذين ينعمون بالفردوس في الكوميديا بغض النظر عن مكانتهم الإجتماعية السابقة في حياة الدنيا.

كل ذلك مهم، وأكثر من مهم، لكن ((الكوميديا الإلهية)) تعتبر أيضا أول قصة تحتوي على مضمون وطني عـميق مع تعبير واضح عن الوجود القومي للشعب الإيطالي. فلقد كان صاحبها يحلم بالوحدة الإيطالية وبالقضاء على الحروب والنزاعات الداخلية ويميل الى إلغاء السلطات الدنيوية للبابوات[1] وكان كل ذلك يدخل ضمن المستلزمات الأساسية لتطور البلاد السياسي.

يحس المرء في ((الكوميديا الإلهية)) بظهور بوادر ومؤشرات فكرية لعصر جديد. فبالإضافة الى كل ما تقدم يتحدث دانتي من خلال رائعته وعبر الحوار الذي يجريه مع مختلف الشخصيات التي يتصور الإلتقاء بها، يتحدث في الواقع عن الإنسان الجديد في مدن إيطالية متطورة ويؤكد بصورة مختلفة على ذات الفرد وقيمة الإنسان ((الذي ولد ليحلق عاليا)). وهو يرى بعمق جمال الطبيعة ويستقي منها بالذات المناظر الخلابة التي يقع ناظره عليها في رحاب الفردوس الفسيحة.

ما سبق يبين كيف أن ((الكوميديا الإلهية)) كانت تتسم بحركة متحمسة نحو الأمام، وهي مليئة بروح متفائلة تبشر عن إيمان بإمكانية إيجاد حلول لجميع

---

[1] قبل أن يثبت لورينزو ڤالا زور ((هبة قسطنطين)) إنتقد دانتي هذه الوثيقة بعنف دون أن يعرف أنها مختلقة (راجع: R. Weiss, Op. Cit., P. 43)

مشاكل المجتمع الإيطالي. وهذا ما دفع دانتي إلى أن يختار لملحمته الشعرية إسم ((الكوميديا)) التي كان أدباء العصر الوسيط يطلقونه على كل نتاج فني يحتوي على نهاية متفائلة تبشر بالخير والسعادة([1])، كما ينطبق على مضمون الملحمة المفهوم الفني الآخر الكوميديا التي تستهدف إنتقاد سلبيات المجتمع والعادات البالية بأسلوب ساخر. أما نعتها بالإلهية فقد أطلقه عليها فيما بعد المعجبون بالملحمة تعبيرا عن كمالها الذي ظهر في قوة مضمونها وبعد أهدافها وسمو أفكارها ودقة تعابيرها وتصويرها الرائع للإنسان والطبيعة وصياغتها الموسيقية الجذابة ومن ثم الجو الروحي السامي الذي تدور فيه إحداث الملحمة. وخلاصة القول أن ((الكوميديا الإلهية)) كانت بحق ((المرآة التي عكست كل معارف وآمال ومشاعر العصر))[2] بأروع تعبير وأصدقه.

وبالرغم من كل ذلك لا تخلو مواقف دانتي ونتاجاته، بما فيها ((الكوميديا الإلهية)) من بعض التناقض ومن حلقات ضعيفة. فهو قد أدرك في المنفى وبعد أن جاب مناطق إيطالية مختلفة، أدرك أسباب وهن بلاده السياسي فدعا - وكان على حق في ذلك - الى المواطنة الموحدة ونبذ الخلافات، لكنه بشر الى جانب ذلك ببعض الآراء المثالية كوسيلة أساسية ناجعة في رأيه لإيجاد مخرج لتلك المشكلة السياسية العويصة من قبيل التطور الذاتي للقيم المعنوية لدى الإنسان وتأصيل الحب للعلم بين جميع الناس. وقد ضم آراءه السياسية هذه بشكل خاص في كتابه ((الوليمة)) الذي لم ينته من تأليفه. ثم إن عدم توفر الظروف للقضاء على الإنقسام الإقطاعي الداخلي جعل دانتي يفكر في نظام ملكي موحد للعالم تكون بلاده مركزا له ويجعل من الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي كادت أن تصبح أقرب الى إسم دون مسمى ((أعظم أمل للعالم المسيحي)) وخير وسيلة لتحقيق الوحدة الإيطالية.

---

[1] أصل (الكوميديا) مقتبس من كلمة (Komodia) اليونانية القديمة التي كان يقصد بها في البداية الأغنية المرحة.

[2] A. J. Grant, Op. Cit., P. 464.

ومن هذا المنطلق ألف كتابا باللاتينية عن الملوك ضمنه إنتقادات لاذعة للبابوية بينما أحاط سلطة الإمبراطور وإمكاناته وأهدافه بهالة مثالية بعيدة عن الحقيقة والواقع. لكن حتى ها هنا يجب أن لا ننسى أن دانتي وضع ((ضرورة توافق)) ما كان يدعو إليه من نظام سياسي ((مع مصلحة كل العالم)) على رأس قائمة دواعي إقامته[1] وإنه ظل حتى الرمق الأخير يدعو بإخلاص الى أن يسود السلام العلاقات الدولية.

هكذا نرى أن دانتي الذي وضع اليد بمهارة على سلبيات مجتمعه وحدد بعمق أسبابها وإقترح العديد من المستلزمات الواقعية لإستبعادها نراه يتمسك أيضا ببعض الأفكار المثالية وحتى المتخلفة يعتبرها وسائل عملية لتحقيق أحلامه الرفيعة. وهذا بالذات يفسر لنا بعض الجوانب السلبية أو المتناقضة في أفكاره التي أصبحت تعبر، بحكم ذلك، عن مصالح فئات إجتماعية مختلفة. ثم إن دانتي لم يستطع التجرد كليا من قيم العصور الوسطى رغم نبذه المخلص أياها، وهو أمر يجب أن يؤخذ بالحسبان عند تقييم أعمال ونتاجات الرائد الأول للنهضة الذي ((كان أول شاعر للعصر الحديث)) إلا أنه كان في الوقت نفسه ((آخر شاعر للعصر الوسيط)).

لا يمكن، بالطبع، لمثل هذه الأمور أن تنتقص من مكانة دانتي الرفيعة. فهو يكفيه الفخر في أنه كان أول من دعا في عصر مظلم الى حرية الشعور وإنطلاق العقل لفهم العالم وإحترام قيم الفرد فأيقظ العقول من سباتها الطويل ووجه ضربة قوية الى القيم الإقطاعية والكاثوليكية السائدة وإستحق بحق لقب المبشر الأول لأفكار النهضة. ويكمن في ذلك أيضا سر ذلك التأثير الكبير الذي تركته أعمال دانتي على الأدب والفن العالميين والفكر السياسي الأوروبي. فإن العديد من أبرز الكتاب والشعراء والنحاتين والرسامين والموسيقيين المنتمين الى شعوب مختلفة إستقوا الوحي في نتاجات لهم من ((الكوميديا الإلهية)) بالذات.

---

[1] للتفصيل راجع: "The Renaissance and the Reformation 1300 – 1600", PP. 39-40

وفي الواقع قيم جميع الأدباء الأوروبيين المتحررين من قيود الكنيسة دانتي كشاعر مبدع ومفكر عظيم. أما في بلاده فقد تحولت نتاجاته منذ القرن الرابع عشر، أي مباشرة، الى مغذ لأفكار حركة التحرر- الوطني للشعب الإيطالي، وقد برز ذلك بشكل خاص في النصف الأول من القرن التاسع عشر عندما بلغت حركة الوحدة الإيطالية ذروتها. كما وجدت أفكار دانتي رواجا كبيرا بين الحركات الشعبية التي وقعت فيما بعد والتي وصمتها الكنيسة بالهرطقة.

وقبل أن ننتقل الى البحث عن رواد النهضة الآخرين يجدر بنا أن نشير بإيجاز الى أن هنالك بعض الأدلة المنطقية تبين بوضوح تأثر دانتي في كوميدياه بصور وآراء عربية الأصل إسلامية الصياغة[1] وردت في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري وفي كتاب الفتوحات المكية لإبن العربي. فإن المؤرخ آسن بلاسيوس بين أن ترجمة الأحاديث المتعلقة بالإسراء والمعراج الى اللغات الأوروبية تعود الى قرون سبقت ميلاد دانتي، كما ألف أحد رجال الدين المسيحيين في عهده (عهد دانتي) كتابا عن حياة الرسول وردت فيه أوصاف المعراج والصراط المستقيم وإنتشر في أصقاع أوروبية شتى. ثم أن دانتي تلقى ثقافته الأدبية على يد عالم فلورنسي كان على إلمام تام بالثقافة العربية بحيث إنعكست آثارها في قصائد ألفها عندما كان فكر دانتي دخل أوج تبلوره. ولا داعي أصلا للتأكيد على أن دانتي المتبحر في التاريخ والآداب والعلوم كان يهتم حتما بكل حرف يفوه به أستاذه وبكل إبداع يسجله يراعه.

إن تأثر رائد النهضة الثالث بوكاشيو بقصة ألف ليلة وليلة[2] يشكل دليلا آخر يجعل من رأي بلاسيوس منطقيا مقنعا، ولاسيما أن بوكاشيو مع زميله وأستاذه بترارك كانا أول مفكرين تأثرا بدانتي وسارا على نهجه.

---

[1] كرس العدد السابع من ((الموسوعة الصغيرة)) ((دانتي ومصادره العربية والإسلامية)) لعبد المطلب صالح لهذا الموضوع بالذات. راجع كذلك د. عبدالقادر أحمد اليوسف، المرجع السابق، ص ٢٨٠ – ٢٨١.

[2] سنعود الى هذا الموضوع في مكان آخر من هذا الفصل.

بترارك (١٣٠٤ – ١٣٧٤)

يأتي الشاعر والكاتب الإيطالي المبدع فرانجيسكو بترارك (Petrarca) على رأس الجيل القديم من الإنسانيين. ينتمي الى عائلة تجارية فلورنسية طردت مع دانتي من المدينة قبل مولده بعامين بسبب موقفها السياسي. درس القانون والعلوم الدينية ودخل في خدمة الكنيسة. جاب بترارك المدن الإيطالية والأقطار الأوروبية المختلفة فإطلع على حياة الناس ومشاكل المجتمع عن كثب.

أعجب بترارك أيما إعجاب بالثقافات القديمة فأولى تعليم اللاتينية إهتماما كبيرا بحيث لم يستطع أحد من الإنسانيين التعبير مثله بهذه اللغة ولم يضاهه أحد في ولعه بجمع أقدم المخطوطات وأندرها، وفي إستنساخها وتحقيقها. فكانت مجموعته من المخطوطات تفوق أية مجموعة أخرى كما ونوعا، بما في ذلك المكتبة البابوية[1]. قضى بترارك معظم سنوات عمره بين مخطوطاته محققا إياها حتى أنه إستطاع الكشف عن عدد من المخطوطات غير المعروفة لرجال الفكر القدماء من أمثال الكاتب والسياسي والخطيب الروماني شيشرون (١٠٦ – ٤٣ ق. م.) الذي جلب إنتباهه بشكل خاص.

جاء إهتمام بترارك بالقديم نتيجة إصطدامه بواقع أفكار العصر الوسيط فإصبح يعتقد أن الأسلوب الذي سلكه الأقدمون هو الطريق الأصوب لتحرير الإنسان وخدمة الفكر والمجتمع فإستعار من المؤلفين القدامى الكلمة اللاتينية "Humanitas" وكرر هو، ومن بعده المتأثرون به، إستخدامها على نطاق واسع كما حاول بحماس تثبيت قيمها، فكان بذلك أول من وضع ((المعرفة الإنسانية)) في مواجهة مباشرة مع اللاهوت.

كان يختفي وراء نشاطات بترارك وأفكاره شعور وطني فياض، فقد قيم حكم الرومان القدماء كعصر بطولي نموذجي في تاريخ بلاده لذا كان يرى في بعث تقاليده خلق أساس قوي للحياة السياسية والثقافية المعاصرة ولتحقيق

---

[1] R. Weiss, Op. Cit., PP. 24 – 26.

وحدة إيطاليا التي كانت تشكل حلمه الأكبر: ((فمن هو ذا الذي يمكن أن يخامره الشك في أنه لو بدأت روما تعي ذاتها بنفسها فإن الجرأة القديمة ستنفجر من جديد؟"[1] بهذا الأسلوب العميق عبر بترارك عما يجول في خاطره من شعور وطني جياش وطموح نبيل.

إذن توجهات تطلعات بترارك في الحياة والإبداع نحو خدمة الحاضر، فكان نبراسه العمل بإخلاص من أجل الناس والوطن. كما سار على نفس نهج دانتي حول ضرورة ربط الفرد بذاته لا بإنتمائه أو إنحداره العائلي ووقف من هذا المنطلق ضد الأرستقراطية التي كان ينتمي إليها بنفسه، وأيد الثوار الذين إنتفضوا ضد الإقطاع في روما عام ١٣٤٧.

عبرت هذه الآراء والمواقف عن نفسها بوضوح في مؤلفات بترارك[2] الذي قرض الشعر وكتب في التاريخ والسياسة والأخلاق والفلسفة، فكرس إحدى روائعه الموسومة ب ((الروح العالية)) للإنتفاضة التي وقعت في روما، ودعا في رائعة أخرى له الى الوحدة والى نبذ الخلاف والشقاق مختارا لها إسما معبرا هو ((وطني إيطاليا)) (Italia mia) التي لم تفقد قيمتها شكلا ومضمونا حتى اليوم. وكتابه ((أفريقا)) ملئ بالروح الوطنية السامية. وقد إنتقد بترارك مساوئ الكنيسة بشدة في عدد من نتاجاته المهمة، خاصة في قصائده التي أسماها ((رسائل بدون عناوين)). وأخيرا يجب أن نشير الى أن حب بترارك لفتاة أحلامه لاورا تحول أيضا الى مصدر وحي للعديد من نتاجاته الأدبية، إلا أنه ظل، على العكس من دانتي، يحوم في قصائده وكتاباته حول مشاكل هذه الدنيا بشكل مباشر. ومع أن بترارك لم يبتعد كليا عن المجاز والإستعارة إذ يحاول ببراعة إستغلال المعنى الرفيع لإسم محبوبته[3] في تعابير مجازية إلا أن أسلوبه

---

[1] مقتبس من : أ. أ. جوبير، فرانجيسكو بترارك، - ((تاريخ العالم))، الجزء الثالث، ص ٦٢٥.

[2] ألف بترارك عددا كبيرا جدا من المؤلفات، ضاع قسم غير قليل منها (R. Weiss, Op. Cit., P. 26)

[3] أسمها مقتبس من كلمة Lauro التي تعني أوراق أو شجرة الغار في الإيطالية، ولقد جعل الإغريق والرومان القدماء اكليل الغار رمزا للإنتصار والمجد والظفر.

ظل مع ذلك قريبا الى سمع وقلب وعقل القارئ في تناسق موسيقي عجيب. ولئن جعل دانتي من ڤيرجيل مرافقا له في الحياة الثانية فإن بترارك إستعان كذلك بهذا الشاعر الوثني نفسه ولكن بأسلوب قريب من هذه الحياة. فإنه إستعار، مثلا، من أحد مؤلفات ڤيرجيل قضايا معينة للتعبير بها عن آثار نابولي في بعض من قصائده. وقد جاءت مثل هذه التعابير المباشرة بمثابة خطوة سريعة نحو إنطلاق أكبر، لا سيما إذا أخذنا بنظر الإعتبار الفرق الزمني الجزئي بين دانتي وبترارك. من هنا لم يقل تأثير الأخير على أعلام النهضة الطليان وغيرهم من تأثير دانتي خاصة وأن معظم أنسانيي عهده إما كانوا من أصدقائه المقربين أو من تلاميذه بل إن أفكار بترارك إنتشرت في خارج إيطاليا بشكل أسرع من أفكار معاصريه ومعظم الإنسانيين الذين أتوا من بعده ممن بلغ تأثرهم به حد أنهم حاولوا تقليده في كتاباتهم أكثر من تقليدهم للكتاب الأقدمين بحيث يمكن التحدث عن مدرسة بتراركية خاصة لم تقتصر على إيطاليا بل إمتدت الى ماوراء الألب([1]).

لم يستطع بترارك، بالرغم من كل تطلعاته، قطع جميع الخيوط التي كانت تربطه بالماضي وقد إعترف بذلك شخصيا. من الطبيعي، إذن، أن ظهر بعض التناقض في آرائه ومواقفه شأنه في ذلك شأن دانتي. فبعد يأسه من تحقيق الوحدة الإيطالية بالأساليب التي كان يؤمن بها وعن طريق القوى التي إعتبرها جديرة للإضطلاع بتلك المهمة السامية يخطو بترارك خطوة كبيرة الى الوراء عندما يبدأ في أواخر حياته بالنظر الى إحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة وسيلة لإيجاد الحلول لمشاكل بلاده السياسية. كما أن حبه للحياة والإنسان غالبا ما كان يصطدم ببقايا أفكار التقشف والرهبنة التي ترعرع في أحضانها. وقد ظهر هذا التناقض بجلاء في مؤلف له عن الحياة دونه على شكل حوار مع أحد الزعماء الروحانيين الأوائل للمسيحية.

---

(1) R. Weiss, Op. Cit., PP. 27-29, 34, 86, 98 – 112; "The Renaissance and the Reformation 1300 –1600", P. 9.

قضى بترارك الفترة الأخيرة من عمره في عزلة تامة عن العالم الخارجي، ولكن لم ينفصل حتى آنذاك عن التفكير في مصير وطنه وعن مشاكل الناس وغيرها من القضايا الحيوية مما يعطيه مكانة متميزة في بدايات عصر النهضة وفي تأثيراته المباشرة على الإنسانيين الآخرين، منهم الرائد الثالث بوكاشيو الذي كان من أوائل تلاميذه وأقرب أصدقائه.

بوكاشيو (١٣١٣ – ١٣٧٥):

ولد الكاتب الإيطالي البارز جيوڤاني بوكاشيو في باريس في عائلة فلورنسية إمتهنت التجارة. أراد والده أن يجعل منه تاجرا أو محاميا، ولكن لم تكن لدى بوكاشيو رغبة نحو أي من المهنتين. بعد عودته الى إيطاليا بدأ نشاطه الأدبي في مدينة نابولي التي كانت تجمع آنذاك بقايا القديم المتمثلة في مظاهر الفروسية وبدايات التحول الجديد المتمثلة في ظهور بعض الإنسانيين فيها. تمتع بوكاشيو في نابولي برعاية ملكها كما وقع في حب إبنته غير الشرعية ماريا التي لعبت في حياته ما لعبته كل من باتريس بورتيناري ولاورا في حياة دانتي وبترارك الإبداعية.

عاد بوكاشيو في ريعان شبابه وأوج نشاطه الأدبي الى فلورنسا التي إستقبلته بحفاوة إذ حققت بورجوازيتها النامية آنذاك الإنتصار على الفئة الأرستقراطية الحاكمة فيها فظهر أمام الكاتب المبدع مجال أرحب للنشاط الفكري الذي إمتد الى الناحية العملية أيضا بولوجه عالم السياسة. فقد وقف الكاتب المبدع بحماس الى جانب المؤسسات الجمهورية الجديدة وإضطلع بعدد من المهام الدبلوماسية الكبيرة. ومع أنه لم يقف الى جانب الفئات الإجتماعية الدنيا في مدينته والتي بدأت تتحرك بدورها من أجل ضمان مصالحها، إلا أن نشاطاته تميزت، مع ذلك، بطابع ديمقراطي وطني عميق ولا سيما أنه إستمر في أداء الرسالة التي بدأها دانتي وبترارك فلعب دورا بارزا في

رفع الشعور الوطني بين أبناء جلدته كما ساهم بقوة نتاجاته الأدبية في تعزيز مكانة اللغة القومية الإيطالية كلغة بحث وتأليف، خاصة وأنه دون بها معظم مؤلفاته.

بلغ بوكاشيو قمة إبداعه الفني في رائعته ((ديكاميرون)) المؤلفة من مائة قصة قصيرة قضى ثلاث سنوات في تأليفها وهو يرويها على لسان سبع شابات وثلاثة شبان أمضوا عشرة أيام في ڤيلا خارج المدينة أثناء إنتشار الطاعون في فلورنسا عام ١٣٤٨ كان يروي الواحد منهم قصة واحدة في كل يوم. ومن هنا جاء إسم الكتاب (ديكاميرون) الذي يعني في اللاتينية ((مذكرات عشرة أيام)).

تحتوي مجموعة ((ديكاميرون)) على قصص تروي مغامرات بعض التجار في بلدان مختلفة وعلى أخرى مقتبسة بأسلوب رفيع من الأساطير والقصص الشعبية المتداولة ومن الحكايات الشرقية المعبرة[1] ولكن الأحداث اليومية لحياة المجتمع تحتل المكانة الأولى في المضمون العام لقصص((ديكاميرون)) التي أصبح أبطالها، بحكم ذلك، من أبناء المجتمع الإيطالي بدءا بالملوك والزعماء وإنتهاءا بالخدم وبسطاء الفلاحين. وقد صب المؤلف جميع إمكاناته في السخرية في هذا الجانب من قصصه، فيثير الضحك بذكاء مقصود في أعماق القارئ على أعمال وتصرفات الرهبان والوعاظ والمبشرين والقساوسة الكاثوليك وغيرهم من رجال الأكليروس الذين يصورهم بوكاشيو كطفيليين متخنين ومخادعين منغمسين في الفسق والفجور وكأناس ضليعين في النفاق والرياء. وفي الواقع لم يمس بوكاشيو المسائل الدينية، إلا أن خطوته الجريئة في كشف رجال الكنيسة لم تخل من أثر مهم في خلق الإتجاهات المقبلة لمعالجة الجوانب السلبية في التعاليم الكاثوليكية المبتدعة بنفس الجرأة. ثم إن قصصه مليئة بالأمثلة الحية عن إنتصار القيم الحياتية الرفيعة المتوافقة مع عقل الإنسان ومصالحه في العصر الجديد الذي لم يبق فيه مكان

---

[1] لا يستبعد أبدا إحتمال تأثر بوكاشيو بألف ليلة وليلة التي ترجمت الى اللاتينية أيام الصليبيين.

لقيم لم تعط الإنسان حقه كأداة خلق مبدع، فقد طور بوكاشيو الرأي القائل بأن منزلة الفرد لا تعتمد على إنتمائه العائلي بل تعتمد على ما يأتي به من أعمال وأفعال.

ومن المهم أن نشير أيضا الى أن بوكاشيو لم يعد مثل دانتي بحاجة الى تقمص أناس من الماضي السحيق وإختيار أجواء من العالم الآخر ليعبر عن طريق أولئك وتلك عما كان يجيش في صدره من نقد لاذع للمظاهر المتفسخة، بل إنه يبقى في أجواء الواقع الملموس ويتكلم في ((ديكاميرون)) على لسان أبناء الجيل الجديد المنتمين الى الفئات الجديدة عما يدور في أعماقهم من تعرض مشروع لسلبيات الواقع الإجتماعي. وقد عبر الكاتب بشكل غير متقصد كذلك عن أسلوب حياة الطبقة الإجتماعية الجديدة وبعدها، مثل الطبقة الأرستقراطية السابقة، عن الأوساط الشعبية. فعندما كان هؤلاء العشرة حسب تصور الكاتب - يقضون حياتهم ويدرأون الخطر عن أنفسهم بهذا الأسلوب كان الطاعون يلتهم حياة المئات من أبناء الفئات الفقيرة في المدينة.

وبالرغم من كل ذلك فقد بدأ بوكاشيو يعاني، مثل سلفه دانتي ومعاصره بترارك، أزمة نفسية حادة في خضم التناقضات الإجتماعية التي كانت تعيشها المدن الإيطالية والتي إنعكست آثارها بقوة في مجال النشاط الفكري. وقد وقع أخيرا تحت تأثير أحد رجال الكنيسة فبدأ يبدي الندم على ما ظهر في نتاجاته من تعلق بحياة الدنيا، ولولا تدخل بترارك الذي كان بوكاشيو يعتبره مرشدا له، لتخلى نهائيا عن كل نشاط أدبي. ومع ذلك كرس بوكاشيو أواخر حياته للعمل العلمي الصرف كالبحث عن المخطوطات القديمة والتأليف في مجال التاريخ كما أسس في فلورنسا كرسيا لشرح مؤلفات دانتي وعلق بنفسه على سبع عشرة أنشودة من أناشيد ((الكوميديا الإلهية)) وهو أول من سجل تاريخ حياة مؤلفها في كتاب خاص.

سيبقى إسم بوكاشيو خالدا ولا سيما قصة ((ديكاميرون)) قد جلبت له سمعة عالية وهي تمثل - عند مقارنتها بنتاجات دانتي وبترارك - مرحلة أعلى في مسار التطور الأدبي الإيطالي والأوروبي. فقد ظل هذا الأدب مدينا، في تطوره اللاحق، لبوكاشيو طيلة عصر النهضة وحتى بعدها، أكثر من أي إبداع فردي آخر[1].

وفي ختام حديثنا عن الرواد الثلاثة علينا أن نؤكد مرة أخرى على أنه بالرغم من جميع نواحي الضعف الطبيعية في نتاجاتهم وآرائهم فإن دورهم في النهضة يبقى بارزا ومتميزا إذ هم الذين وضعوا اللبنات الأولى التي إعتمد عليها التطور اللاحق لأفكارها التي تعمقت بعدهم وبفضلهم أكثر من السابق، فيكفي دانتي وبترارك وبوكاشيو فخرا أنهم وضعوا ((بداية ثورة في التأليف))([2]) مما إنعكس في جميع الإتجاهات والمسارات الفكرية الجديدة. وربما كان إرازمس من أبرز الإنسانيين الذين حافظوا الى حد كبير على تقاليد هؤلاء الرواد في مرحلة بلغت النهضة فيها أوج نضجها.

الإنساني البارز إرازمس الروتردامي (١٤٦٦؟ - ١٥٣٦)

يحتل إرازمس الروتردامي مكانة خاصة في تاريخ النهضة الأوروبية لا لسعة إطلاعه فحسب بل كذلك لأنه ترك آثارا مباشرة على الحركة الفكرية في عدد من الأقطار الأوروبية. فقد ولد في روتردام بهولندا حيث بدأت حياته العلمية والدراسية بين جدران كنائسها، ثم إنتقل الى باريس لنيل الدكتوراه في العلوم الدينية من جامعتها وشغل هناك منصب عميد كلية دي فرانس الرفيع، وعمل ما يربو على ستة أعوام محاضرا في جامعات إنكلترا، ولا سيما في كمبرج، وإنتقل نشاطه العلمي الجم الى كل من ألمانيا وإيطاليا وسويسرا الى أن وافاه الأجل بمدينة بازل السويسرية.

---

(1) R. Weiss, Op. Cit., P. 33.

(2) D. Hay, Op. Cit., P. 80.

طبقت شهرة إرازمس كلغوي وأديب ومفكر فذ على جميع الأوساط العلمية والثقافية الأوروبية بسرعة. كان ضليعا في معرفة اللغتين اللاتينية واليونانية وألف عددا من الكتب حول دراستهما، إلا أنه أولى اللاتينية إهتماما أكبر فقد كان يتكلم ويؤلف بها.

إن أجل خدمة قدمها إرازمس هي ما قام به من تثبيت للنصوص الأصلية للعهد الجديد ولعدد من الكتب الكنسية القديمة مع ترجمتها الى اللاتينية ترجمة دقيقة واضحة. وقد أعطى ذلك، مع تعليقات وشروحات إرازمس نفسه، إمكانية فهم أعمق لمضمون الكتاب المقدس. ومن أعـماله الجليلة أيضا أنه قام بجمع وشرح مختارات من حكم وأمثال الكتاب الأقدمين فأسهم بذلك الى حد كبير في نشر الأفكار الإنسانية بين أوساط ثقافية أوروبية مختلفة إذ يعتبر مؤلفه ((كتاب الأمثال)) الذي إنتهى منه في العام ١٥٠٠ من أشهر نتاجاته وهو عبارة عن مجموعة من حكم وأمثال وطرائف الكتاب الأقدمين ألحق بها تعليقات عميقة في مضمونها وأهدافها حولت الكتاب الى حافز مهم لرواج الفكر الإنساني في عصر النهضة، فقد ترجم الى عدد من اللغات الأوروبية وإنتشر على نطاق واسع.

تمسك إرازمس في آرائه بالديانة المسيحية فأكد على قيمها الأخلاقية والمعنوية التي إعتبرها قمة ما توصل إليها الفكر الإنساني في مسار تطوره ونظر من هذا المنطلق الى العلوم والثقافات القديمة كمقدمة للإنتقال الى مرحلة أعلى إرتبطت بظهور المسيحية التي إعتبر تعاليمها أرفع من أن تمتد إليها يد الإصلاح لذا وقف ضد الحركة اللوثرية وناقش آراء دعاة الإصلاح من أمثال الألماني فون هوتن ولوثر وقد نشر كتابا سماه((حرية الإرادة)) تهجم فيه بشدة على أفكار مارتن لوثر ودافع من خلاله عن حرية إرادة الفرد.

ومع ذلك فقد تحولت أفكار إرازمس، رغما عنه، الى قوة دفع بارزة ضمن مقومات حركة الإصلاح الديني. فإنه، كما ذكرنا، ترجم الإنجيل والكتب الدينية

القديمة بشكل دقيق ومفهوم مما أدى الى كشف مدى إنحراف كبار رجال الدين وإبتعادهم عن المبادئ الأصيلة للمسيحية التي إستهدف هو من توضيحها محاربة الشرور الإجتماعية في عصره. فأشار في مؤلفاته الى بعض الأضرار المعنوية الناجمة عن التملك الفردي وعن الفوارق الإجتماعية الصارخة والفقر. وذهب الى مدى أبعد من ذلك بكثير عندما إنتقد بأسلوب ساخر للغاية إستهتار القساوسة وإنغماسهم في ملذات الحياة مختفين تحت واجهات شتى. ويعتبر كتابه اللاذع ((في مديح الغباوة)) أو ((تمجيد السفاهة)) نموذجا صارخا لإنتقادات إرازمس للقيم الدينية والسياسية السلبية في عصره إذ يثير الضحك بقوة وبذكاء خارق في أعماق القارئ على تصرفات المنافقين والدجالين والجهلة ويكشف فيه نواقص الكنيسة ورجال الدين بأسلوب أقوى من معظم معاصريه فساعد بذلك على إنضاج شروط إنفجار حركة الإصلاح الديني، ولا سيما أن مؤلفاته كانت تترجم بسرعة الى اللغات الأخرى وكانت تلقى رواجا كبيرا بين الناس بحيث بلغ مجموع ما طبع من بعض كتبه، وبشكل خاص كتابه ((في مديح الغباوة)) عشرات الألوف من النسخ وهي رقم قياسي نادر بالنسبة لعصره.

كان إرازمس الروتردامي هادئا في طبعه، ميالا الى السلم والتسامح لذا لم يكن يحبذ الإنقلابات والتغييرات المفاجئة، إنما كان يميل الى إستخدام العقل والتعليم لدفع الناس الى الطريق السوي. فقد إعتبر عقل الإنسان أسمى شئ في الوجود لابد من تحويله الى الأساس الذي يجب أن يستند إليه كل حكم موفق. فعلى الحاكم الناجح أن يلجأ الى العقل في سبيل القضاء على التناقضات والخلافات والحروب الداخلية وإقامة سلم دائم عن طريق إيجاد حلول عادلة للمشاكل الدولية. وقد ضمن آراءه السياسية هذه كتابه ((تربية الأمير المسيحي)). وفي كتابه هذا أكد إرازمس على ضرورة أن يبذل الأمير قصارى

جهده لكسب حب الشعب بأن يكون ((شفوقا، حليما وأنيسا)) و((يختار وزراءه من بين أناس يتسمون بالصفات نفسها)) ويحاول((أن يعرف مملكته جيدا))[1].

أولى إرازمس من نفس المنطلق تقريبا، مسألة التعليم جانبا كبيرا من إهتمامه، فقد نشر بشأنها عددا من الآراء القيمة كتنديده مثلا بأسلوب التعليم الإقطاعي وكشفه للجوانب الشكلية والجمود الصارخ فيه وإحتجاجه ضد أساليب الضرب والزجر المتبعة مع الطلاب ومطالبته بجعل التعليم سهلا ومفهوما ومتوافقا مع ذوق الطلبة بحيث ينمي فيهم روح الإبداع الذاتي.

هكذا نرى شمولا واضحا في أراء إرازمس وإتجاهاته مما جعله في نظر العديد من المؤرخين ((أبرز وجه عرفته الحركة الإنسانية على الإطلاق))[2] بل منحه بعضهم لقب ((أمير العلماء))[3]. فلا غرو أن نال إرازمس إعجاب الجميع، ومنهم بعض ملوك أوروبا الذين إستعانوا بخدماته، كما وجد لغة مشتركة مع معظم إنسانيي عصره الذين تحولوا الى أصدقاء مقربين إليه، وكان توماس مور، رائد الفكر الإشتراكي المثالي، واحدا منهم.

الإشتراكيون المثاليون

منذ أن ظهرت الفوارق والإختلافات بين الفئات الإجتماعية ومنذ أن ظهر الإستغلال وتسلط القوي على الضعيف بدأت الجماعات المغلوبة على أمرها تبحث عن مخارج وأساليب من شأنها التخفيف عن آلامها. ولم تقتصر توسلات هذه الفئات على الإنفجار والتمرد ضد الواقع المجحف بل إنها بدأت أيضا تسبح في حالم الخيال من أجل غد أفضل مما عبر عن ذاته واضحا في

---

(1) "Action and Conviction in Early Modern Europe", editors J. K. Rabb and J. E. Seigel, Princeton, 1969, PP. 20 – 21.

(2) "Renaissance and Reformation 1300 – 1600", edited by G. R. Elton, second edition, New York – London, 1968, P. 59.

(3) R. Palmer and J. Colton, Op. Cit., P. 59.

الأدب الشعبي لمختلف الشعوب. ففي عهد الأغريق والرومان القدماء ظهرت أسطورة ((العصر الذهبي)) الخالي من الفوارق والإستغلال.

ومن جانب آخر حاول العديد من المفكرين صياغة نفس الطموحات في أطر فكرية متباينة، فأفلاطون بالرغم من مثاليته ودفاعه عن ((مجتمع العبيد)) كان يحلم بإقامة نظام مثالي يتولى فيه الفلاسفة مقاليد الحكم الذي عليه إشاعة نوع من التملك الجماعي وأن يأخذ على عاتقه مهمة تربية الأطفال وتعليم الجيل الناشئ. وفي القرن الثاني قبل الميلاد أبحر الكاتب الإغريقي يامبول في قصة خيالية الى جزيرة ما تقع الى الجنوب من شبه الجزيرة العربية تقطنها عشيرة سعيدة لا يعرف أبناؤها الإستغلال والفروق فرأى الكاتب فيها النموذج المثالي للحياة. وفي العصر الوسيط، وحتى بعد ذلك، بدأ الناس يحلمون بإحياء المثل المسيحية الأولى حول المساواة والأخوة.

كان من الطبيعي أن يتخذ مثل هذا التوجه الفكري طابعا أكثر شمولا وأعمق تعبيرا مع ظهور العلاقات الرأسمالية وإزدياد الفروق الإجتماعية وتفاقم التذمر بين الناس. جاء في مبحث إنكليزي يعود الى الربع الأخير من القرن السادس عشر: ((من الذي رأى في أي عهد كان مثل هذا العدد من الناس المتذمرين والمستائين من أوضاعهم ومثل هذا العدد القليل من القانعين بها، ومثل هذا العدد الكبير من الراغبين في التغيير والتجديد، أو هل سمع شخص ما بمثل هذا العدد من أنواع المصلحين، أو بتعبير أصح من مخربي النظام الطبقي والدولة، وبمثل هذا العدد الهائل من ناقدي الملوك وأعمالهم وبمثل هذا العدد القليل من الموالين لهم؟)).

ليس غريبا أن إتخذت أفكار المساواة وطموحات العدالة الإجتماعية في ظل مثل هذه الظروف بعدا جديدا وبارزا بحيث ظهر في عصر النهضة إتجاه إشتراكي مثالي[1] واضحة المعالم، تبناه عدد من الإنسانيين البارزين المنتمين

---

[1] نتعرض هنا للخطوط الأساسية لهذا الموضوع الذي يستق تخصيص بحث مستقل لدراسته.

الى أقطار أوروبية مختلفة، يعتبر توماس مور الإنكليزي رائدا لهم وتومازو (توماس) كامبانيلا الإيطالي ممثلا بارزا للطموحات الإشتراكية المثالية الأكثر راديكالية والتي بدأت تعبر عن نفسها بوضوح منذ ذلك العصر أيضا.

عالج الإشتراكيون المثاليون مشاكل مجتمعاتهم بأسلوب جديد إختلف عن جميع الأساليب المعروفة الأخرى وإتسم، بارلغم من نبل دوافع وأهداف أصحابه، بطابع خيالي بعيد المنال. فإن توماس مور يتحدث في أبرز مؤلف له عن بلاد سعيدة في جزيرة ((يوتوبيا)) البعيدة الخالية، بفضل نظامها، عن المشاكل التي تعاني منها المجتمعات الأخرى. ففي ((يوتوبيا)) لا يوجد مكان للتملك الفردي والإستغلال، والمخازن عمومية تزود كل فرد بما يحتاج مجانا ولكل دار بابان مفتوحان أمام الكل بإستمرار، والعمل الجسماني ملزم بالنسبة لجميع المواطنين دون أن تتجاوز مدته ست ساعات في اليوم. وتتمتع المرأة اليوتوبية بالمساواة التامة في الحقوق والواجبات، وهي لا تهتم إلا بالجمال الطبيعي، فلا تستخدم مستحضرات التجميل لأن رجال الجزيرة لا يحبذونها ولأن تكامل الخلق يأتي في نظرهم قبل جمال الخلقة. وفي مثل هذا الجو من العلاقات يرتفع وعي سكان ((يوتوبيا)) الى درجة يحتقرون الذهب فيصنعون منه السلاسل للعبيد والقعادات للأطفال والشارات للمجرمين.

أما الفيلسوف والسياسي والشاعر والعالم الإيطالي كامبانيللا فقد ذهب في مؤلفه ((مدينة الشمس)) الى مدى أبعد من سلفه توماس مور[1]. فالناس في مدينته الفاضلة ((لا يخدمون الأشياء بل تخدمهم الأشياء))، والكل يعملون أربع ساعات في اليوم إذ لا مجال ((للعاملين اللئام والطفيليين)). ويعيش سكان المدينة في بيوت عامة ويأكلون في المطاعم معا. وفي مدينة الشمس تتعهد الدولة تربية الأطفال وتعليمهم.

---

[1]. في العديد من أفكاره تعدى كامبانيللا حدود فلسفة عصر النهضة ·(للتفصيل راجع:

E. Garin, Italian Humanism. Philosophy and Civic Life in the Renaissance, Oxford, 1965, PP. 215 – 220)

ظهر في عصر النهضة إشتراكيون مثاليون آخرون يحملون أفكارا مشابهة لأفكار مور وكامبانيللا أو قريبة منها، مثل سيرانو الفرنسي وتوماس مونزير الألماني وغيرهما. وقد كان الأخير الوحيد بين الإشتراكيين المثاليين الذي ربط بين النظرية والتطبيق بأن بشر بآرائه بين الأوساط المسحوقة فتحول الى واحد من أبرز قادة الحرب الفلاحية الألمانية المعروفة (١٥٢٤ - ١٥٢٥).

لم تستند أفكار الإشتراكيين المثاليين الى أرض الواقع، بل كانت تدور في عالم الخيال. ولم يكن مجرد صدفة أن إختار توماس مور لمؤلفه ذائع الصيت إسم ((يوتوبيا)) التي تعني في اللاتينية (المكان الذي لا وجود له). ومع أن أفكار هؤلاء قد تركت آثارها على الإتجاهات الإشتراكية اللاحقة إلا أنها ظلت محدودة التأثير في عصر النهضة، محصورة في نطاق ضيق، لا سيما إذا ما قيس، مثلا، بالإطار الواسع والمتنوع الذي ظهرت فيه نتاجات الفنانين من رسامين ونحاتين وغيرهم.

الرسامون والنحاتون

للرسم والنحت جذور عميقة في حضارة الإنسان، وهما يتطوران عادة بسرعة أكبر نسبيا من غيرهما حالما يتوفر المناخ الملائم لمثل ذلك التطور. وهذا ما حدث في عصر النهضة بالذات عندما إنطلق الفن من عقاله بسرعة مدهشة لم يضاهه في ذلك أي حقل من حقول المعرفة الإنسانية الأخرى. فقد كان لا بد للفن أن يجرف أمامه حاجزا هائلا حصر الإبداع في أطر ضيقة للغاية جعلت الإنسان يفقد إحساسه بجمال الطبيعة. فلوحات العصر الوسيط كانت قاتمة، مليئة بالتشاؤم، بل ((تنفر منها النفس)) حسب تعبير ر. م. سكوب. من هنا فقد أصبح لزاما على الفنانين الجدد قطع درب شائك حتى يكون في وسعهم تحويل الإنسان ((الصغير والذليل في الفن الغوطي)) الى ((عملاق مرفوع

الرأس))[1] ((يغزو السماء نفسها))[2] وليحولوا مأساة المسيح من شبح مخيف الى درس في الحياة من أجل الفكر والمبدأ. فبفضل ريشة عباقرة النهضة أسبغ الموت على المسيح المصلوب حلة المجد ليختفي وراءها ما عاناه من عذابات وآلام، أنه ((فوق الصليب رجل في شرخ الشباب)) وفي طفولته البريئة، كأي طفولة، يحوم حول ((العذراء الأم)) لتوحي ملامحها بالعلاقات الإنسانية الأصيلة وما يدور في قلب كل أم تجاه رضيعها.

توجد عوامل أخرى أسرعت من الإنطلاقة الكبرى للفن في عصر النهضة. فقد إشتركت جميع الشعوب الأوروبية تقريبا في إغناء هذا الجانب المهم من الحياة الثقافية. وينطبق نفس القول على الفئات الإجتماعية المختلفة للشعوب تلك. فإن حياة بسطاء الناس بتناقضاتها الحادة بين عذابات الإستغلال وتفاؤل الحياة وبساطة الإبداع مع قوته في مجالي الفلكلور والإنتاج الحرفي قد تحولت الى مصدر وحي وإلهام للفنانين الذين خرج العديد منهم من بين صفوف تلك الأوساط ليصعدوا ولكن دون أن يفقدوا كل ما كان يربطهم بماضيهم من جذور. أما الأغنياء فإنهم بدأوا يميلون، بتأثير مباشر من زخم القيم الجديدة، الى تخليد أنفسهم في هذه الحياة من خلال الفن فقربوا الرسامين والنحاتين من أنفسهم وأغدقوا عليهم بسخاء.

تمثل نتاجات عصر النهضة الفنية اليوم مكانة جد بارزة ضمن أثمن ما في التراث الإنساني. وقد عبر رسامو ونحاتو ذلك العصر عن خصائص النهضة وجسدوها بشكل واضح يمكن الوقوف عليه من خلال عرضنا لحياة وأعمال ثلاثة من أبرزهم، وهم ليوناردو دافينشي وميخائيل أنجيلو وروفائيل سانتي الذين ظهروا بدورهم في إيطاليا لتحتل بفضلهم ونتيجة جهودهم، مكانة خاصة في هذا المجال كذلك.

---

(1). M. L. Bush, Op. Cit., P. 153.

(2). R. Palmer and J. Colton, Op. Cit., P. 52.

ليوناردو دافينشي (١٤٥٢ - ١٥١٩)

قلما عرف التاريخ عبقريا مسيطرا على زمام حقول شتى فنية وعلمية وفكرية وأدبية مثل ليوناردو الذي يعتبر عن جدارة واحدا من أبرز البارزين من بين العباقرة الذين أبدعوا في عصر النهضة. ولد ليوناردو في بلدة فينشي من أعمال فلورنسا التي تكونت فيها إمكاناته الفنية وبدأت أيضا نشاطاته الإبداعية المبكرة.

آمن ليوناردو دافينشي إيمانا مطلقا ذا مسحة فلسفية بوجود علاقة ثابتة بين الفن والعلم ولم يحد عن هذا الرأي حتى الأخير. فهو كان يرى أنه لا بد للإبداع الحقيقي في فن الرسم أن يعتمد على التحديد الدقيق لأبعاد الصورة بشكل متناسب مما يتطلب - كما كان يؤكد - الإلمام التام بالرياضيات. وإذا أراد الرسام الأصيل التعبير عن تفاصيل الإنسان بدقة، فإن عليه أن يقف على دقائق جسمه وهذا يفرض إلماما كافيا بالأناتوميا التي أولاها شخصيا إهتماما خاصا. وأخيرا حدد ليوناردو العلاقة بين العلم والرسم من خلال الطبيعة نفسها فهي - كما كان يكرر بإستمرار - تشكل المختبر الأساس لجميع العلوم كما تشكل، في الوقت نفسه، الحقل الرئيس لإبداع الرسامين الذين طالبهم بالمعرفة الحقيقية وبالإطلاع الواسع حرصا منهم على إصالة إبداعاتهم الفنية. وقد طبع له كتاب بعد وفاته ضم ملاحظاته القيمة حول هذا الموضوع.

وضع ليوناردو دافينشي الرسم في مرتبة أعلى من جميع الفنون الأخرى ذلك لأنه يستطيع ((التعبير عن كل ما يقع تحت النظر)) وحتى أنه يطلق إسم العلم عليه فيذكره في كتاباته بهذه الصيغة أحيانا. وقد سيطر بنفسه على زمام هدا الفن الى حد الكمال. بحيث تعتبر القلة الباقية من لوحاته من أندر وأثمن ما أنتج في هذا الميدان وهي تعبر عن الثروة الفنية الكامنة في الطبيعة والحياة نفسها بشكل متفائل لم يبتعد عنه الرسام العبقري حتى في لوحاته التي كرسها للشخوص والأحداث الدينية على الأقل لأن المرء لا يلمس فيها الرهبنة القاتمة

المفتعلة التي تتميز بها نتاجات العديد من الرسامين الآخرين. ففي لوحته المعروفة ((العذراء والزهرة)) جسد ليوناردو بشكل مبدع سعادة أم شابة تلعب مع طفلها البكر. وفي لوحته الأخرى المشهورة جدا((موناليزا)) أو ((جوكندا)) التي رسمها في حوالي العام ١٥٠٣[1] أعطى صاحبة الصورة الرائعة الجمال بعدا فنيا خاصا من خلال نظرتها البعيدة المعبرة وإبتسامتها الغامضة التي أصبحت، ولم تزل، مدار نقاش العديد من الرسامين والمختصين في فن الرسم وغيرهم.

هكذا جعلت إبداعات ليوناردو دافينشي النابعة من إطلاعه الواسع مع تعـمقه الخارق في التعبير عن نفسيات شخوص لوحاته، وتمكنه العجيب في الجمع بين الألوان فيما بينها ومع مضمون اللوحة، إضافة الى الحركة الملموسة بشكل غريب في رسومه، جعلت منه رائدا للمرحلة الجديدة في تطور الفن الإيطالي وبالتالي الأوروبي.

لا يمكن فصل ليوناردو المفكر عن ليوناردو العالم عن ليوناردو الرسام، ولا يجوز فصل هذا أو ذاك عن ليوناردو الإنسان. فهو كان يؤلف في ذاته شخصية متكاملة وعبقرية متشعبة تفاعلت فروعها فيما بينها لتعطي نتاجاته المختلفة قوة فائقة فريدة. فإنه كان عالما عبقريا أغنى تقريبا جميع حقول المعرفة بملاحظاته الدقيقة وتوقعاته العميقة. فقد درس وبحث في الرياضيات والنبات والميكانيك والفيزياء والفلك والجيولوجيا والأناتوميا وفسيولوجيا الإنسان والحيوان وفي الفنون العسكرية. وإعتمد في مجالات كثيرة من هذه العلوم على تجارب ودراسات من سبقوه مع إستنتاجاته الشخصية. ففي الميكانيك، مثلا، إعتمد على مكتسبات أسلافه وعلى تجاربه الذاتية الغنية كمهندس زاول المهنة فإهتم بقضايا كثيرة من قبيل الفعل ورد الفعل والتوازن وسقوط الأجسام ومقاومة المواد المختلفة وغيرها ووضع بالإستناد الى كل ذلك مشاريع مختلفة ((للمدينة المثالية)) وطور فن بناء القبب وبدأ بوضع خرائط

---

[1] تعتبر من أثمن موجودات متحف اللوفر بباريس إن لم تكن أثمنها قاطبة.

ومخططات بهدف تطوير الميكانيك المستخدم في البناء. وكانت محاولاته لصنع أجهزة طائرة جديدة في بابها وقد إعتمد فيها أيضا على التجربة وعلى ملاحظة دقيقة لعملية تحليق الطيور المختلفة فوضع عن الطيران ما لا يقل عن مائة نظرية وتوصل فعلا الى صنع آلات تطير بواسطة اليد أو الزنبرك وإستنتج - وهذا مهم جدا بالقياس الى زمانه - أن نجاح الطائرة إنما يعتمد على وجود محرك خاص بداخلها. والى جانب ذلك توجد بين مخطوطاته صور لمظلات (البراشوت) والطائرات العمودية (الهليوكوبتر)، وقد أراد من الأولى ضمان هبوط الإنسان من المناطق المرتفعة الى الأرض برفق.

وضع ليوناردو دافينشي أيضا تصاميم مختلفة لعدد من المكائن المختلفة منها آلة للنسج وأخرى للندف وثالثة لصقل الزجاج وآلة طابعة وآلة خاصة بالنجارة وماكنة لحفر القنوات ومصاهر للمعادن وغيرها. وهو أول من حاول تحديد قوة الضوء وعلاقتها بالبعد المكاني على أساس التجربة ويمكن إعتبار مقارنته بين إنتشار الأمواج فوق سطح الماء من جهة وإنتشار الصوت والضوء من جهة أخرى بمثابة إحدى الإشارات الأولى لنظرية التموج الضوئي.

إهتم ليوناردو طوال حياته كرسام وعالم بالأناتوميا، وهو لم يقتصر على تشريح الإنسان بل قام في الوقت نفسه بتشريح أجسام حيوانات مختلفة وإن المخططات والصور الأناتومية التي تركها لا تفوق الى حد كبير نتاجات عصره في هذا المجال فحسب بل إنها تفوق أيضا شبيهاتها في العهود التالية. وهنا توصل العالم الفنان الى عدد كبير من النتائج الباهرة أيضا، فقد تمكن فصل رأس الضفدعة وقلبها عن جسمها وهو أول من حدد بشكل صحيح عدد فقرات عظم العصعوص لدى الإنسان. وعلى ما يبدو أنه كان يفكر في تطور الإنسان من الأشكال البدائية الى أن بلغ التكامل لأن كتابة وصف توضيحي مقارن بين الإنسان والحيوانات القريبة الشبه به كانت ضمن مشاريعه العلمية.

أما في مجال الفلك فقد وقف ليوناردو بثبات ضد الآراء التي كانت تجعل من الأرض مركزا ثابتا للكون وهو أول من حدد بشكل صحيح اللون الرمادي للقمر، كما توقع حدوث تغييرات على أوضاع اليابسة والمياه المحيطة بالأرض في الماضي وذلك بالإستناد الى إستنتاج إستنبطه من وجود بقايا الحيوانات البحرية في أماكن تبعد كثيرا عن سواحل البحار والمحيطات.

ويجدر بنا أن نشير أخيرا الى أن ليوناردو دافينشي قد أسهم أيضا في تطوير أجهزة الحرب فمن بين مخططاته وخرائطه ما يشير الى آليات تشبه الدبابات والمصفحات كما حاول تطوير المفرقعات والمدافع ووضع خططا ناجحة لصنع ملابس الغوص والجسور المتنقلة وغيرها كوسيلة ذود عن الحرية، فقد جاء في مذكراته قوله: ((إني أخترع من وسائل الهجوم والدفاع ما نواجه به بأس الطغاة الطامعين، لكي نحافظ على النعمة الكبرى التي وهبتنا الطبيعة ألا وهي الحرية))[١]. إن ليوناردو كان نصيرا مخلصا للسلم[٢] فوقف ضد الحرب بقناعة مفكر واصفا إياها كأسوأ أشكال الجنون المتوحش، وقد أصاب كبد الحقيقة في ذلك دون أن يعلم إن بعضا من نتاجاته النادرة ستصبح في يوم من الأيام إحدى الضحايا الثمينة التي لا تعوض لحروب نابليون وهتلر، بل وحتى للحروب التي وقعت في أيامه. فقد كلفه ملك ميلان بإقامة نصب تذكاري لعميد أسرته سفورزا، فأولى ليوناردو الطلب جانبا كبيرا من إهتمامه مما يبدو واضحا من المخططات العديدة التي وضعها لتنفيذ المشروع الذي كان من المقرر أن يبلغ إرتفاع حصانه فقط أكثر من سبعة أمتار. وقد صب ليوناردو التمثال من الصلصال فجاء النموذج تحفة نادرة عرض في إحدى ساحات المدينة الى أن يتم صب التمثال الأصلي من البرونز. إلا أن هجوم فرنسا على ميلان والحاجة

---

[١] مقتبس من: الدكتور جلال شوقي، عبقرية ليوناردو دافينشي في الهندسة، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٢٧٣.

[٢] بإقتراح مجلس السلم العالمي إحتفلت مختلف الأوساط الفكرية والعالمية في نيسان ١٩٥٢ بمناسبة مرور خمسمائة عام على ميلاد الفنان المبدع والعالم الكبير ليوناردو دافينشي.

الملحة للبرونز لصنع الأسلحة قد حالا دون تنفيذ المشروع. والأنكى من ذلك هو أن الجند الفرنسيين بعد دخولهم ميلان إتخذوا من نموذج النصب هدفا للرماية أثناء تدريبهم[1] فأتوا على عمل فني رائع أمام أعين صاحبه الذي لم يتحمل وقع الصدمة فإنتقل الى البندقية ومنها إلى فلورنسا.

سجل ليوناردو دافينشي جميع ملاحظاته وإستنتاجاته العلمية بلغته القومية وعارض بشدة - كإبن بار لشعبه وعصره- إستخدام اللاتينية. ومن أقواله الرائعة بهذا الصدد:((لدي في لغتي من الكلمات الكثيرة ما يجعلني أن أشكو من إنعدام الكلمات التي أستطيع التعبير بواسطتها عن مضامين أفكاري)). ومن عادته أنه كان يحمل دائما معه دفترا خاصا لتسجيل ملاحظاته التي كان يرتبها فيما بعد حسب المواضيع وتسلسلها وكان يدونها بخط معكوس، أي من اليمين الى اليسار، ومن الطريف أنه كان يجيد إستعمال كلتا يديه في الكتابة والرسم دون صعوبة. ولكن لم يصلنا، بمزيد من الأسف، أي من مؤلفاته الكاملة، إلا أنه توجد الآن، ولحسن الحظ، حوالي سبعة آلاف صفحة[٢] متفرقة من مخطوطاته في عدد من المتاحف الأوروبية (في لندن وباريس وميلان وغيرها) من شأنها إعطاء فكرة واضحة عن عظمة وعمق هدا الفنان العالم.

ومما يجدر بالذكر هنا أن مذكرات ليوناردو من الإشارات ما يدل على أنه كان مطلعا على مؤلفات عدد من العلماء المسلمين منهم الرازي وإبن سينا.

بوشر بطبع مؤلفات ليوناردو منذ النصف الثاني من القرن الماضي ولم ينجز حتى الثلاثينات من هذا القرن وهذا يفسر لنا لماذا كان تأثيره على التطور العلمي محدودا مما ترك أثرا سلبيا على سرعة ذلك التطور لأن العديد من الإختراعات التي توصل إليها العلماء في القرون التالية كان ليوناردو قد إكتشفها أو إقترب من إكتشافها في عصره. فعلى سبيل المثال لا الحصر أن ليوناردو

---

[1] M. L. Bush, Op. Cit., P. 163.

[٢] ف. ي. روتينبورغ، المرجع السابق، ص٧.

توصل الى تحديد بعض الظواهر القمرية قبل غاليليو بحوالي مائة عام، وإن بعض المخترعين الأمريكان توصلوا الى صنع أول آلة طابعة [1] بعد أن خطط ليوناردو لصنعها بما لا يقل عن ٣٥٠ عاما.

لا يمكن في الواقع، حصر إبداعات هذا الإنسان العظيم في مجالات العلم والفن، علما بأنه عاصر عهدا شهد الإنحلال يدب في مختلف مرافق حياة بلاده السياسية والإقتصادية والإجتماعية حتى أنه إضطر أن يقضي العقدين الأخيرين من عمره في الترحال والتجوال بحثا عن المكان المناسب لعمله وإبداعه مما أثر على نتاجه بشكل ملموس، وذهب أخيرا الى باريس تلبية لدعوة ملك فرنسا فرانسوا الأول حيث حظي برعايته الشخصية فقد خصص له قصرا بجوار قصره، وكان يزوره غالبا بنفسه ويقضي ساعات طوال في الحديث معه. ولكن لسوء الحظ لم يدم هذا النعيم طويلا إذ وافى الأجل الفنان العبقري بعد سنتين بعيدا عن وطنه الذي رفع رأسه الى العلا، وكان آخر مآثرة له قبيل وفاته أنه أوصى بكل ما يملك لخادمه الذي ظل مخلصا له حتى الأخير.

ميخائيل أنجيلو (١٤٧٥ – ١٥٦٤):

ميخائيل أنجيلو (ميكلانجيلو- Michelangelo) نحات ورسام ومعماري وشاعر إيطالي معروف، درس وترعرع وتعلم الرسم والنحت في فلورنسا. عاش أنجيلو حوالي ٩٠ عاما إمتد من بداية الربع الأخير للقرن الخامس عشر وشمل أكثر من كل النصف الأول من القرن السادس عشر، أي أنه عاصر أهم مراحل الثورة الثقافية الأوروبية الحديثة التي تحولت بلاده الى أبرز مركز لإشعاعاتها النيرة.

جعل ميخائيل أنجيلو من الإنسان الموضوع الرئيس لنتاجه الفني. فقد ركز كل إهتمامه منذ الخطوات الإبداعية الأولى على ((جسم الإنسان الرائع)) حسب

---

[1] تم إختراع أول آلة تابعة في العام ١٨٦٧.

تعبيره، فكان يجسده في أعماله عاريا كما ولدته أمه، يعبر جسمه عن القوة والعزيمة والثبات ووجهه عن الزهو والسمو الإنسانيين. وهو أراد بذلك الخروج على قيم العصر الوسيط وتزمت الكنيسة والتأكيد على حياة الدنيا والإشادة بتحرر المفكرين القدامى وعلى رأسهم النحاتون الذين إطلع الناس لأول مرة في عهده على تماثيلهم الرائعة المكتشفة من قبيل ((أبولو)) و((أفروديت)) وغيرهما.

هكذا خرج ميخائيل أنجيلو في صنع تماثيله على تصورات الكنيسة الكاثوليكية وأفكارها الخيالية القاتمة في التعبير عن رجال الماضي، فجاء تمثاله الرائع ((داود)) الذي قضى حوالي ثلاثة أعوام في نحته من المرمر وبإرتفاع بلغ أكثر من خمسة أمتار بمثابة صيحة مدوية بوجه القيم الجمالية والفكرية للقرون الوسطى. وسار على نفس النهج في صنع تماثيله الأخرى المعروفة ((الرحمة)) و((موسى)) و((العبد المقيد)) و((العبد المحتضر)) وغيرها. وقد عبر هذين الأخيرين، وفي تماثيل أخرى له، عن رجولة الإنسان البسيط المصر على الإنعتاق من أغلاله بشكل خلاق.

لم ترق تعابير ميخائيل أنجيلو الفنية وآراءه الفكرية لأهل السلطة في بلاده، ولاسيما أنه كان يميل بشدة الى الإتجاهات الجمهورية -الديمقراطية التي كانت تعيش مرحلة صراع مريرة. وقد وقف بحماس الى جانب النظام الجمهوري الذي إنتصر وقتيا في فلورنسا وإشترك مع سكانها في الدفاع عنها أثناء محاصرتها من قبل قوات البابا والجيوش الأجنبية كرئيس للمهندسين المسؤولين عن صيانة أسوار المدينة على مدى أحد عشر شهرا من الحصار المستمر. وبعد سقوط فلورنسا في العام ١٥٣٠ إضطر أن يختفي ولم ينل عفو البابا إلا بعد أن تعهد بإنجاز بعض الأعمال الفنية له، لكن دون أن يقضي ذلك الخضوع الإضطراري على مشاعره الداخلية الأصيلة التي عبر عنها بصدق وقوة في أبيات شعرية جوابية تعليقا على الأبيات التي قالها الشاعر جوڤانين ستروتسي

إعجابا منه بتمثاله الرائع ((الليل)) الذي يمثل حسناء غارقة في النوم وقد بلغ إطراء الشاعر لبراعة نحتها حد أنه تصور أنها ستنطق فيما لو إستيقظت. وإذا بنا نجد ميخائيل أنجيلو الملئ بالحركة والحيوية يرى في رده ((السعادة في النوم)) بل يرى سعادة أكبر في ((أن تصبح حجرا)) لأن في ((هذا العصر المجرم المخزي)) سيصبح ((الموت واللاشعور مصيرا محسودا))، لذا يتوسل الفنان بإسم الحسناء النائمة في دياجير الليل عدم إيقاظها من نومها العميق[1].

كان من الطبيعي ألا ينجو الفنان العبقري المتحرر من غضب المتخلفين فكريا في عصره، فظل الجواسيس يراقبون تحركاته كما عهد البابا إلى أحد الرسامين بإجراء ((تعديلات)) على التعابير العارية في بعض لوحاته فأثار ذلك الرسام المأجور بعمله إحتقار المجتمع ونقمة الفنانين ضده. وقد بدأ ميخائيل أنجيلو يشعر في مثل هذه الظروف بالوحدة أكثر فأكثر فصار يبتعد بالتدريج عن النحت والرسم وكرس الجانب الأكبر من العقود الثلاثة الأخيرة من حياته للفن المعماري ولقرض الشعر الذي تميز فيه كذلك بالعمق والتعبير التراجيدي الموفق، فتكلم في قصائده عن الحب كتعبير عن تعلق الإنسان بجمال الطبيعة كما وصف وحدة الفنان في محيط معاد وتطرق الى مواضيع أخرى كانت تعبر في مجملها عن خيبة مرة لأحد الإنسانيين الكبار العاجز أمام زحف الظلم والحيلولة دون إنتصار الإرهاب بواسطة الأفكار والقيم المثلى التي آمن بها كغيره من الإنسانيين البارزين.

روفائيل (١٤٨٣ – ١٥٢٠):

ولد الرسام والمعماري الإيطالي البارز روفائيل سانتي في مدينة أوربينو القريبة من فلورنسا وقضى سنوات عديدة من شبابه في الأخيرة حيث درس

---

[1] راجع نص أبيات جوفانين ستروتسي ورد ميخائيل أنجيلو في: أ. جوبير، المرجع السابق، ص ١٢٧.

بعمق نشاطات من سبقوه هناك وبشكل خاص أعمال ليوناردو دافينشي كما أغنى تراثها الفني بإبداعات جديدة، ولكن إرتبط الجانب الأكبر من نشاطه بالعمل في مدينة روما.

أعطى روفائيل بدوره التراث الإنساني ورواده القدماء مكانة بارزة في أعماله، حتى أنه أبرز صور فلاسفة من أمثال آرسطو وأفلاتون وبطليموس وسقراط وغيرهم مع قضايا دنيوية كثيرة أخرى إرتبطت بأفكار الإنسانيين في لوحاته التي رسمها بطلب من البابا على جدران وسقوف أبنية الفاتيكان. وقد ذهب روفائيل الى حد أبعد من ذلك عندما عبر عن رجال الكنيسة أنفسهم في أوضاع توحي بوضوح وكأنهم حكماء العصر القديم يبحثون ويناقشون مثلهم ولكن في ملابس الرهبان. لم يتمكن روفائيل، مع ذلك، من التعبير عن كل ما كان يجيش في صدره من أفكار الإنسانيين بسبب الإرهاب المسلط بشكل متزايد على رقاب المفكرين الطليان، لكنه إشترك بحماس في الحركة الوطنية التي كان إستقلال الفكر ووحدة إيطاليا ضمن شعاراتها الرئيسية.

ترك روفائيل، بالرغم من قصر عمره (عاش ٣٧ عاما)، مجموعة كبيرة من اللوحات الرائعة التي- على العكس من أعمال ليوناردو دافينشي- بقي معظمها حتى يومنا الحاضر وهي تزين الآن قاعات أشهر المتاحف العالمية مع جدران وقبب كثيرة في الفاتيكان. تتميز لوحات روفائيل بقوة ودقة التعبير بدءا بأعماله الأولى مثل ((أحلام فارس)) ولوحاته الشهيرة المتكاملة من جميع الأوجه مثل ((المدرسة اللاتينية)) و((العذراء)) و((العشاء الرباني)) وغيرها. ولديه لوحات عديدة أظهر فيها مفاتن المرأة بشكل بارع. وعلى ما يبدو أنه لم يرتو من جمال الطبيعة اللامحدود، ففي إحدى رسائله يقول: إن التعبير عن حسناء يتطلب رؤية العديد من الجميلات، وبما أن مثلهن قلة والإختيار الموفق لن يكون هينا يضطر الرسام الى التوسل ببعض الفكر الذي يراوده ويحاول التعبير عنه[1]. من هنا يبدو

---

[1] مقتبس من أ. جوبير، ثقافة النهضة الإيطالية، ص ١٢٦.

واضحا أن روفائيل قد أطلق العنان أحيانا لخيال الفنان المبدع حتى يعطي نتاجاته بعدا جماليا أعمق.

برع روفائيل سانتي في فن العمارة أيضا حتى أنه عين مسؤولا معماريا أولا في بناية كنيسة القديس بطرس المعروفة في روما قبل الإنتهاء منها. وتشهد آثاره المعمارية البارزة في إيطاليا اليوم على عبقريته الأصيلة وتفوقه الكبير في هذا المضمار كذلك.

ظهر عباقرة آخرون كثيرون في مجال الإبداع الفني في عصر النهضة من أمثال جوتو ودوناتيللو وتيتيان وغيرهم الذين سجل التاريخ لهم ما أتوا من الأعمال الفنية والفكرية بمداد من الفخر، خاصة وأنهم أفلحوا في تحويل الفن الى غاية تخدم الفرد والمجتمع وذلك بتعبيرهم المباشر عن آلامهما وآمالهما. ويكفي هؤلاء الخالدين أن الفن الأصيل ظل من بعدهم، وسيبقى، يخدم الإنسان، وهو ما تشهد عليه تجارب الحياة الزاخرة بشكل لا يدحض.

لم يقتصر التطور الفني في عصر النهضة على وجهيه البارزين الرسم والنحت، بل إمتد كذلك الى مجالات أخرى أهمها فن العمارة. فقد شهد عصر النهضة ميلاد أبنية شامخة جديدة في طرز بنائها تدخل اليوم بدورها ضمن الآثار الحضارية الخالدة. ومما يجدر بالذكر في هذا الصدد أن سرعة الإنجاز تحولت الى مظهر مهم من مظاهر تكنيك البناء الحديث. فقد غدا تشييد القصور الفخمة والكنائس ذات القباب العالية المزخرفة بشكل دقيق يستغرق سنوات عدة بدل العقود وأحيانا القرون من الزمن كما كان عليه الأمر في السابق. ولا شك في أن كل ذلك يشكل صفحات بارزة في حياة الإنسان وتاريخ تطوره.

تطور البحث التاريخي

يأتي التأريخ على رأس قائمة العلوم الإنسانية التي تأثرت بأفكار النهضة، وقد سبقت الإشارة ضمن المواضيع السابقة الى نواحي معينة تتعلق بهذا الأمر.

فإن الإهتمام فإحياء التراث القديم كان يعني بحد ذاته إلقاء أضواء كاشفة على صفحات مجهولة من تاريخ أوروبا السياسي والثقافي والإجتماعي في عهدي الرومان والأغريق، كما بدأ الإهتمام، مثلما ذكرنا، بآثار الشرق فيرتبط ظهور ال (Epigraphy) (دراسة النقوش والمنحوتات القديمة) كعنصر من عناصر دراسة تاريخ ما قبل الميلاد بعصر النهضة مباشرة. ولكن لم يقتصر الأمر على هذه النواحي المهمة، بل طرأ كذلك تغيير ملموس في أسلوب البحث التاريخي وفي نظرة المؤرخين الى الأحداث وموقع الفرد فيها. فقد ظهرت النظرة الإنتقادية بالنسبة للمصادر والبحوث التاريخية المدونة مما أسهم بشكل جدي في الكشف عن جوانب الضعف الكبيرة التي تميزت بها الدراسات والتفسيرات التاريخية في العهود السابقة وفي إثبات حقائق تاريخية مهمة أدى بدوره الى تعرية الفكر الإقطاعي. فإن لورينزو ڤالا أثبت بعد البحث المفصل والتمحيص الدقيق وبالإستناد الى براهين وأدلة مقنعة زور ((هبة قسطنطين)) فجاء عمله هذا بمثابة خطوة نوعية جريئة في مجال البحث التاريخي نحو الأمام. وجرى لأول مرة في عصر النهضة تقسيم التاريخ الى القديم والوسيط والحديث. كما ظهرت في هذا العصر أيضا دراسات تاريخية من نوع جديد تهتم بأحداث الوطن بشكل متكامل موحد وبمفاخر الماضي بأسلوب متوافق مع الشعور القومي والوطني الذي طفا على السطح. فإن ف. گويجارديني (١٤٨٣ - ١٥٤٠) مثلا هو أول مؤرخ درس تاريخ إيطاليا في إطار موحد على عكس المؤرخين السابقين الذين تعودوا على دراسة حكوماتها ومناطقها المختلفة كوحدات منعزلة. وبدافع الشعور القومي أيضا بدأ المؤرخون الجدد يبحثون عن حلول عملية لمشاكل مجتمعاتهم السياسية ويحاولون معرفة الأسباب الطبيعية للأحداث التاريخية ومن هنا فإنهم رفضوا تأثير ((القوى الغيبية)) في خلق وتقرير مصير الأحداث وبدأوا يبحثون في دور الفرد المدرك (القادة والشخصيات التاريخية البارزة) في سير الأحداث. لكن لم يتجاوز سوى عدد قليل جدا من المؤرخين

الإنسانيين هذا الحد من التفسير البراغماتي للتاريخ. فإن غاية ما عـملوه أنهم بحثوا في العوامل المنطقية وغيرها التي كانت تحرك القادة السياسيين. ففي رأي گويجارديني أن أنانية الأفراد هي التي تختفي وراء الأحداث ولم يعط الجماهير أي دور، بل نظر إليها بإحتقار واضح عندما دعا صراحة الى إبعادها عن دست الحكم الذي يجب أن يقتصر - حسب رأيه - على الفئات الإجتماعية العليا.

ومن الجدير بالذكر أن العديد من الإنسانيين الذين إهتموا بقضايا الأدب والفكر والفلسفة كانوا مؤرخين في نفس الوقت وقد قدموا خدمات جليلة مباشرة في مجال البحث التاريخي كما تشكل مؤلفاتهم الأخرى اليوم مصادر مهمة جدا للباحثين في التاريخ الأوروبي منذ أواخر العصر الوسيط. ولكن ظهر الى جانب هؤلاء عدد من الإنسانيين الذين إستحوذ التاريخ على أفكارهم فخصصوا الجانب الأكبر من إهتماماتهم للبحث فيه ولدراسة أحداثه. ويعتبر ماكياڤيللي أبرز مؤرخ ظهر في ذلك العصر والذي لا يزال يتردد إسمه بأشكال مختلفة وفي أوساط متباينة بأسلوب يسترعي الإنتباه.

ماكياڤيللي (١٤٦٩ – ١٥٢٧)

ينتمي المؤرخ والمفكر السياسي المعروف نيكولو (نيقولا) دي بيرناردو ماكياڤيللي الى أسرة فلورنسية نبيلة عريقة تدهور وضعها الإقتصادي الى حد الإفلاس قبل مجيئه الى الحياة. بعد طرد الأسرة الحاكمة مديجي من فلورنسا وإعلان النظام الجمهوري فيها عام ١٤٩٨ تعاون ماكياڤيللي بحماس مع النظام الجديد وشغل منصب سكرتير مجلس العشرة الذي كان يشرف على قضايا الدفاع والسياسة الخارجية لجمهورية فلورنسا. ومع أنه لم يدخل ضمن كبار المسؤولين إلا أنه تمكن بذكائه ونشاطه الكبيرين من ترك أثر واضح على حياة فلورنسا السياسية في عهدها الجديد. فقد قام بحوالي عشرين سفرة دبلوماسية ناجحة إلتقى خلالها بشخصيات أوروبية مهمة على رأسها ملك فرنسا لويس

الثاني عشر والبابا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة مكسميليان الأول وغيرهم.

بعد الإطاحة بالمؤسسات الجمهورية وعودة ميديجي في ١٥١٢ الى السلطة أبعد ماكياڤيللي من منصبه وبعد فترة ألقي القبض عليه بتهمة الإشتراك في مؤامرة إستهدفت بعث النظام الجمهوري فنفي - بعد التعذيب- الى قرية قريبة من فلورنسا حيث قضى بقية حياته في البحث والتأليف تاركا وراءه عددا من المؤلفات التي تعتبر من أهم نتاجات عصر النهضة في حقلي التاريخ والفكر السياسي، لا سيما كتابه ذائع الصيت ((الأمير)) الذي يعتبره معظم المؤرخين ((نتاجا خالدا عن حق)) من بين نتاجات النهضة الإيطالية[١] فيؤكدون فيؤكدون على ضرورة ((دراسته كعلم لا دعاية))[٢]. ومن مؤلفاته المهمة الأخرى أيضا ((فن الحرب)) و((تاريخ فلورنسا)) الذي يقع في ثمانية مجلدات وقد كرس في الواقع لمجمل تاريخ إيطاليا السياسي ويعتبر بحكم تعمقه في تقييم الأحداث السياسية ومن حيث أسلوبه الدراماتيكي وقوة لغته ((واحدا من أعظم مكاسب الدراسات التاريخية الحديثة))[٣] وهو لم يفقد أهميته حتى اليوم بالرغم من بعض الأخطاء التي وقع فيها المؤلف عند روايته لعدد من الأحداث التاريخية.

إعتبر ماكياڤيللي في البداية، الجمهورية نظاما أمثل للحكم وخدمها بصدق في مطلع حياته العملية، لكن بعد تحليله للأوضاع القائمة في إيطاليا التي تميزت بإستفحال الحروب والخلافات بين مدنها ومقاطعاتها وبالضعف المتناهي الذي جعلها هدفا سهلا للغزو الأجنبي المستمر توصل في ((الأمير)) الى الإستنتاج بأن خير نظام يمكنه تحقيق وحدة إيطاليا والذود عنها هو ذلك النظام الذي يستند الى سلطة مركزية دكتاتورية مطلقة قوية لا تقف في سبيلها

---

(1) R. Palmer and J. Colton, Op. Cit., P. 55.

(2) "Renaissance and Reformation 1300 – 1600", P. 109.

(٣) و. ل. فاينشتين، علم التاريخ الأوروبي الغربي في العصر الوسيط، باللغة الروسية، موسكو – لينينغراد، ١٩٦٤، ص ٢٧٩.

الإعتبارات الدينية والدنيوية والأخلاقية. فإن مصالح الدولة العليا، وبوجه خاص وحدة البلاد، تبرر في رأيه لجوء الأمير أو الملك الى جميع السبل كإستخدام القوة التي تشكل - كما كان يؤكد - أساس الحق، والقسوة والإغتيال وخيانة العهد والقسم والتوسل بالتضليل والرشوة والركون الى الخديعة والكذب والنفاق، أي أن الغايات السامية تبرر الوسائل أيا كانت. وهو كان ينصح حكام إيطاليا بألا يخجلوا من إختيار أي أسلوب مهما تدنى لتحقيق أهدافهم وطموحاتهم السياسية، فالحاكم الناجح هو الذي يلجأ الى الأساليب الإنسانية والحيوانية حسب الظروف والحاجة ويعرف كيف يجمع بين خدع الثعالب وفورات الأسود لأن المحك والأساس لتقييم السياسة هو النجاح. وعلى هذا الأساس ظهر فيما بعد مصطلحا ((الماكياڤيلية)) و((الماكياڤيلي)) وتطلق الأولى عادة على السياسة التي لا تعير القيم الأخلاقية أي إعتبار ويطلق الثاني على الشخص الدي يتبنى مثل تلك السياسة.

لكن يجب النظر الى ماكياڤيللي من زاوية أخرى تماما. فهو كان، قبل كل شئ، وطنيا مخلصا يتحرق شوقا الى تحرير بلاده- التي أحبها أكثر من روحه كما جاء في إحدى رسائله الخاصة[1]- من الغزاة وتحقيق وحدتها وبعث مجدها الغابر، فوضع بالإستناد الى تحليل واقع ظروف إيطاليا وحبه الجامح لها وإلى تجاربه العملية الغنية نظرية رصينة ذات أسس واقعية كان لا بد من الركون إليها في حالة العمل الجاد على طريق الوحدة والتحرير آنذاك. فقد وقف بشدة ضد سياسة الإقطاعيين والبابوية لأنه إعتبرهما من أهم العراقيل التي تحول دون تقدم عملية التوحيد السياسي وإعتبر تعاليم الكنيسة بمثابة عبء يحول دون الإبداع النشط للإنسان. إلا أن هذا لا يعني أن ماكياڤيللي كان يناهض الدين، بل على العكس من ذلك أنه كان يؤمن بإمكانية تحويله الى أداة سياسية فاعلة في حياة الشعب[2].

---

(1) E. Chabod, Machiavelli and the Renaissance, Cambridge, 1960, P. 141.

(2) Ibid, PP. 95 – 96.

إنتقد ماكيافيللي بشدة النظام العسكري القائم في البلاد لإعتماده على المرتزقة الوقتيين الذين وصفهم كحثالات المجتمع لا يهمهم سوى النهب فدعى الى تأسيس جيش منظم دائمي يعتمد على التجنيد العام للشباب حتى يتحول الى قوة تحرير وردع حقيقية بيد الأمير الدكتاتور. فقد كان ماكيافيللي يحلم مخلصا بأن تتحرك جيوش المدن الإيطالية ((بدافع الأهداف الوطنية)) كي يغدو بإمكان الطليان ((رفع كرامتهم عاليا أمام أوروبا))[1] وليحقق الأمير الجديد ذلك الواجب الأقدس كان عليه أن يعرف في نفس الوقت كيف يختار أعوانه المقربين من بين الناس القديرين والمخلصين ممن لا يعرفون التزلف والتملق فيتحولون الى سند أمين لحكمه، ولكن عليهم أن يعلموا أن وزنهم إنما يعتمد على الموقف الذي يتبناه الأمير على ضوء إخلاصهم وتفانيهم له ولنظامه.

لعبت آراء ماكيافيللي السياسية دورا مهما في تطوير الدراسات التاريخية ونظرياتها، فقد تخطى في بحوثه حدود التفسير البراغماتي للأحداث في وقت مبكر وبدأ ينظر إلى الدولة وقوانينها نظرة واقعية نابعة من التجربة والتحليل لا من اللاهوت ونظرية الحق الإلهي في الحكم، آمن بحتمية الأحداث التاريخية وبالترابط فيما بينها بغض النظر عن إرادة المشتركين فيها. وتوصل الى الرأي بأن الصراع السياسي هو المحرك الأساس للتاريخ وغالبا ما يتخذ ذلك الصراع طابعا إجتماعيا وطبقيا ما دام يوجد - كما ذكرنا في كتاباته - تناقض مستفحل بين مصالح الشعب والفئات المالكة. ففي كتابه الضخم ((تاريخ فلورنسا)) يتتبع النضال بين الجماهير والأرستقراطية على طول مسيرة تاريخ إيطاليا. ومن هنا، أي من خلال بحثه عن العوامل المحركة للأحداث التاريخية بغض النظر عن إرادة الأفراد الصرفة، تخطى ماكيافيللي مؤرخي عصر النهضة وتقدم عليهم.

كان ماكيافيللي يمثل في آرائه الفكر البورجوازي النامي الطموح وقد مجد في كتاباته التجار والحرفيين المتمكنين من سكان المدن الإيطالية الذين

---

[1] Ibid, P. 135; R. Palmer and J. Colton, Op. Cit., P.55.

يصفهم بالشعب (Popolo) ودعا الأمير الى الإهتمام بهم وتهيئة الأجواء التي من شأنها تطوير مصالحهم والترفيه عنهم. إلا أن البورجوازية الإيطالية قد توقفت عن النمو بسرعة بعد ميلادها المبكر فهي بدأت تعيش أزمة جدية قبل وفي عهد ماكياڤيللي لذا ظلت ضعيفة ولم تستطع أن تتحول الى القوة الجديرة للإضطلاع بالمهام الجسيمة التي كانت تنتظرها في ظروف إيطاليا الصعبة. وكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك في آراء ماكياڤيللي المتحمسة للنظام الملكي المطلق مما كان يعني في الواقع نوعا من التساوم مع الفكر الإقطاعي[1]، وفي معاداته للديمقراطية وتخوفه من الجماهير التي ((تنجرف بسهولة مع المغامرات)) حسب رأيه وكان يصفها ب ((السواد)) أو ((العوام)) (plebs) وقد عبر عن موقف عدائي صريح نحوها من خلال تقييمه لبعض الإنتفاضات الجماهيرية التي وقعت في إيطاليا. وبحكم ذلك فإن ماكياڤيللي يتوجه في جميع مؤلفاته الى الأمراء وأصحاب الكلمة وأصدقائه المفكرين ويكتب لهم لا للجمهور[2].

لا تنتقص هذه النواحي السلبية الواردة في أفكار ماكياڤيللي من أهميته كمؤرخ وكوطني مخلص لبلاده إذا قيمت بشكل صحيح في إطار زمانها ومكانها ودوافعها الأصلية لا الشكلية. وفي الواقع شوه ((الماكياڤيليون)) سمعة ماكياڤيللي الى حد كبير. فقد تهجم عليه بعض الحكام الذين تعدوا في سياساتهم اليومية الأمير النموذج لدى ماكياڤيللي بأشواط بعيدة ومنهم الملك البروسي فردريك الثاني الذي كرس - مع ذلك - كتابا خاصا ((لدحض)) آراء ماكياڤيللي ألفه في سنة تسنمه العرش[3].

[1] ظهرت أنظمة الحكم المطلق في أوروبا في أواخر العصر الوسيط وجاء ظهورها في توافق مع متطلبات المرحلة التاريخية مع أنها لم تكن في واقعها سوى أعلى أشكال النظام السياسي للإقطاع، وهي لم تفقد في عهد ماكياڤيللي جوانبها الإيجابية بعد.

[2] "The Civilization of the Renaissance in Italy", An Essay by J. Burckhardt, New York and Toronto, P. 93.

[3] عنوانه ((ضد ماكياڤيللي)) وقد ألفه في العام ١٧٤٠.

ومن جانب آخر حاول العديد من الحكام الدكتاتوريين في أزمنة مختلفة وفي ظروف متباينة وتربة تختلف كل الإختلاف عن تربة إيطاليا القرن السادس عشر إستغلال جوانب معينة من آراء ماكياڤيللي لمصالحهم الضيقة التي تجسدت في الإستئثار بالسلطة. وكان الزعيم الفرنسي المعروف ريشيليو (١٥٨٥ – ١٦٤٢) الذي حقق نجاحات سياسية مشهودة، أول شخصية مستبدة وجد في نفسه الجرأة الكافية ليعترف صراحة بأنه مدين في الكثير من آرائه ومواقفه لماكياڤيللي، أما البقية فقد طبقوا ما نادى به ماكياڤيللي عمليا وإستنكروه نظريا، وغالبا ما قاموا بتطبيق آرائه في ظروف تختلف كليا عن الظروف التي ولدت أفكار ماكياڤيللي ومن أجل أهداف تختلف عن تلك التي توخاها هو.

ومما زاد في الإساءة الى سمعة ماكياڤيللي وآرائه، موقف الكنيسة المعادي منه وقرارها حول منع تداول كتبه علما بأنه ألف ((تاريخ فلورنسا)) تلبية لطلب البابا نفسه[1]. وأساء إليه أيضا تأكيد العديد من المؤرخين البورجوازيين، لا سيما علماء الإجتماع الفاشيون، على نظريته حول السلطة الدكتاتورية المطلقة بشكل مجرد وسكوتهم المطبق عن أفكاره حول النظام الجمهوري الذي أقر بأنه خير نظام للحكم لأن في ظله تقرر الكفاءة، لا الوراثة، من يستحق تبوء السلطة. ولكن بلغ تمجيد النازيين والفاشيين لماكياڤيللي، بالرغم من ذلك، حد أن هتلر كان يضع كتابه ((الأمير)) الى جانبه في كما كتب موسوليني رسالة حول نفس الكتاب لنيل درجة الدكتوراه وقد مجد فيها، وفي تعليق آخر كتبه حول نفس الموضوع بعد تسلمه للسلطة، موقف ماكياڤيللي من حكم الفرد المتسلط فخلص الى القول ((أن مذهب ماكياڤيللي حي اليوم بعد أربعة قرون))[2]!!.

---

[1] من الطريف أن نذكر أن الكنيسة أصدرت في العام ١٥٥٩ أمرا يقضي بحرق نموذج ماكيافيللي، بينما طبعت روما مؤلفاته وعرضت كوميدياته بحضور البابا نفسه قبل ذلك بحوالي ربع قرن فقط.

[2] نيقولو ماكيافيللي، الأمير، تعليق بنيتو موسوليني، مقدمة كريستيان غاوس، تعريب خيري حماد، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٠، ص٦.

هكذا تعرض ماكياڤيللي الى هجوم الكثيرين، كما إنبرى آخرون للدفاع عنه من منطلقات غير علمية فقد إعتبروه أكثر الناس صراحة لأن ((كل إنسان ماكياڤيللي في ذاته)) كما كانوا يؤكدون في معرض دفاعهم عنه. لكن يخلط هؤلاء وأولئك بين ماكياڤيللي المؤرخ والماكياڤيلية، وفي تقييماتهم لأفكاره يبتعدون عن الإطار الواقعي الذي عاش الرجل فيه مراقبا الأحداث من خلاله ومقيما إياها عبر محاولة مخلصة لإيجاد حلول تراءت له، بسلبها وإيجابها، خير سبيل لتحقيق غاية نبيلة توخاها عن إيمان وإدراك عـميقين، فكان ماكياڤيللي إبن عصره ومجتمعه. وليس عبثا أن إهتدى بأفكاره وإستفاد منها أو أشاد بها أبرز المفكرين والساسة منهم الفلاسفة ماركس وديكارت وبيكون والساسة الوزير الفرنسي الأول ريشيليو - أنجح ساسة أوروبا في النصف الأول من القرن السابع عشر - والملكة ألزابث الأولى التي يصف المؤرخون عصرها عادة بالعصر الذهبي ونابليون بونابارت الذي قرأ ((الأمير)) بإمعان وعلق عليه ويتوقع بأنه ترجمه الى الفرنسية كذلك.

يجدر بنا أن نشير هنا الى أن ماكياڤيللي كان ذا باع طويل في الأدب، فقد خلف من بعده عددا من الأناشيد والقصائد والرسائل والكتابات النثرية التي إنتقد فيها بشدة تقاليد المجتمع البالية مع سلبيات الكنيسة وقد أغنى بها الأدب الإيطالي بقوة ووضوح وعمق أدائها السلس البعيد عن الإسهاب والإطناب. وحسبنا إننا لا نبتعد عن الواقع إذا قلنا أن مؤرخ عصر النهضة الكبير يستحق بجدارة الكلمات المعبرة التي حفرت على شاهد ضريحه في فلورنسا تخليدا لذكراه:

((أنى للمديح أن يفي هذا الإسم حقه))

لم يكن ماكياڤيللي الوحيد من بين أعلام النهضة الذي إصطدم بالواقع، فقد شاركه في ذلك إنسانيون آخرون عاصروا المرحلة الأخيرة من النهضة.

الإصطدام بالواقع

تحولت الآراء المثالية السامية والتوجهات الإنسانية لرجال النهضة وإبداعاتهم الى محرك مهم للحركة الفكرية الأوروبية ووضعت بدايات جديرة لإنطلاقات أعمق فيما بعد إلا أنها لم تستطع تحقيق آمالهم الواسعة خاصة ما كانوا يتصورونه من إنعتاق حقيقي للإنسان وللقيم مع إنحسار ظل المجتمع الإقطاعي. فكان لا بد للجيل الأخير منهم من الإصطدام بالواقع بعد أن بدأ تطور العلاقات الرأسمالية في القارة الأوروبية يؤدي الى حدوث إحتدام التناقضات الإجتماعية التي إنعكست في إستقطاب الفئات المختلفة وفي إزدياد دور النقود وفي ظهور أساليب أكثر مكرا من أجل تحقيق الغايات. وقد جاء التعبير عن هذا الواقع بشكل واضح في نتاجات أديبين بارزين عاصرا المرحلة الأخيرة من النهضة هما شكسبير الإنكليزي وسيرڤانتس الإسباني وقد بلغ كلاهما ذروة مجده في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر وقد توفي كلاهما في نفس العام.

شكسبير (١٥٦٤ – ١٦١٦):

ولد الشاعر الإنكليزي الكبير والروائي العالمي البارز وليام شكسبير بمدينة ستراتفورد في عائلة حرفية. درس النحو واللغة في مدينته، ولكن ما تلقاه من التعليم كان محدودا فقد إضطر الى ترك الدراسة في الرابعة عشرة من عمره ليساعد والده الذي ألمت به ضائقة مالية. إنتقل في بداية شبابه الى لندن وبدأ يعمل ممثلا في أحد مسارحها ويعيش على ما يدره عليه من مورد قليل مع مورد أقل كان يأتيه من كتاباته لبعض النصوص المسرحية.

لا تتوفر معلومات كثيرة عن تاريخ حياة شكسبير مما أعطى المجال لظهور بعض الآراء غير العلمية منذ أواسط القرن التاسع عشر تنكر وجود شخصيته وتحاول تصوير نتاجاته وكأنها من تأليف أناس آخرين مثل الفيلسوف

بيكون وبعض أدباء ذلك العصر والأرستقراطيين المولعين بالأدب. وكانت حجة معظم أصحاب مثل هذا الرأي هي إستحالة كون أعمال عبقرية مبدعة كتلك التي كتبها شكسبير من نتاج ممثل بسيط لم ينتم الى وسط إجتماعي أرستقراطي ولم ينل ثقافة جامعية رفيعة.

يعتبر شكسبير بحق إبن الشعب، خدم الأدب والمسرح بصمت، ففي أعماله ال ١٥٤ ومسرحياته ال ٣٧ قلما يتطرق الى ذاته بينما يلتجئ الى تقاليد المسرح الشعبي والشعر الشعبي الإنكليزي والأساطير التاريخية ليعالج من خلالها المشاكل المعاصرة. فيدور الهدف البعيد من مضمون معظم قصصه التاريخية المبكرة حول ضرورة وجود حكومة موحدة قوية تتمكن من القضاء على التسيب الإقطاعي. ومع أنه فضل النظام الملكي على الجمهوري ولم يتشكك في إمتيازات النبلاء إلا أنه ظل واقعيا في كتاباته، فقد أراد ملكا يضمن حكمه وحدة البلاد وإستقرارها، ملكا حكيما إنسانيا كان هنري الخامس نموذجه في ذاكرة الشعب ومن خلالها في قصص شكسبير التي تفضح بنفس الدوافع الملوك الضعفاء من أمثال هنري السادس وريتشارد الثاني والملوك المستبدين من أمثال ريتشارد الثالث والملك جون. وفي كل الأحوال يحاول الكاتب التعبير من خلال قصصه الدرامية التاريخية ((هنري الخامس)) و((هنري السادس)) و((ريتشارد الثاني)) و((ريتشارد الثالث)) و((الملك جون)) وغيرها التعبير عن نظرة الشعب الإنكليزي تجاه أنظمة هؤلاء والأحداث التي وقعت أيام حكمهم.

إنعكست في الواقع المرحلتان الثانية (أي مرحلة التكامل) والثالثة (أي المرحلة المتأخرة) من أفكار عصر النهضة والحركة الإنسانية في مؤلفات شكسبير. ففي نتاجاته المبكرة نسبيا مثل ((روميو وجوليت)) و((حلم في منتصف ليلة صيف)) و((تاجر البندقية)) تطغي فكرة إنتصار الإنسان على قوى الشر والتخلف. ولكن في كتاباته الدرامية المتأخرة التي تعود الى بداية القرن

السابع عشر تتعمق المآسي كتعبير عن التناقضات الإجتماعية التي بدأت بدورها تتعمق أكثر فأكثر. ففي ((هامليت)) و((عطيل)) و((الملك لير)) و((تيمون الأثيني)) وغيرها يكشف شكسبير عن الهوة العميقة بين آمال وأمنيات رجال النهضة وواقع الحياة والمجتمع. فقد حاول إبراز جوانب ذلك الواقع من خلال التأكيد على دور المصالح الذاتية في تحريك الناس وتبيان الصراعات التي يصبح البسطاء والطيبون فيها ضحايا أصحاب القوة والجاه. إنه ينظر من خلال ((هامليت)) مثلا الى خدع الحياة إذ لا تعكس تراجيديا بطل القصة سوى مأساة إنسان طيب يصطدم بشرور المجتمع. ويتجسد الإصطدام بالواقع بشكل أعمق في ((تيمون الأثيني))[1]، فقد عبر شكسبير بجلاء من خلالها كيف أن قيمة الفرد في المجتمع الجديد لا تعتمد أيضا على صفاته الشخصية بل أصبحت تعتمد على إمكاناته المادية. فإن تيمون الثري كان محترما لدى الناس، ولكن عندما أفلس إبتعد عنه الجميع. إن آهات تيمون بعد إفلاسه إنما هي تعبير صادق عن سحر وقوة الذهب الذي ((يجعل من القبح جمالا)) و((يقلب الكذب صدقا)) و((يعيد الشيخ شابا))، فهو ((أجمل هدية للعيون الفانية)) وبريقه ((يفوق كل شئ كالنار الموقدة)) ولا ((فتاة لا تفتح صدرها ليستقبل حبيبا جميلا كهذا ينساب من السقف)).

وعندما يرى تيمون كيف أن بمستطاع الذهب أن يجعل من الإنسان عبدا، ينقلب من عنصر إجتماعي مرح الى شخص منزو، حاقد على جميع الناس الذين تحولوا في نظره إلى ((ألعوبة في يد أصحاب الذهب))، فغدا ((التغاضي عن جميع البشر)) و((إحتقار كل الناس)) ناموسه ((لما تبقى له من أيام))، وأصبحت ((الصداقة والضيافة والمجتمع والرحمة)) في نظره مجرد ((كلمات فارغة)) و((القريب والجار والمواطن)) ((أسماء ميتة لا خير فيها)). فلا عجب

---

[1] نشر الدكتور عبدالواحد لؤلؤة الترجمة العربية لهذه المسرحية المعبرة في الآونة الأخيرة (الكويت، ١٩٧٧).

أن يتمنى ذلك الإنساني النبيل المعاصر في الثوب الأثيني القديم ((إستنزال الوباء على الأرض)) بعد إصطدامه بالواقع وفهمه لسحر المال الذي يجعل من اللاهثين وراءه أن ((يسرقوا من الشحاذ كلبه)).

((لدي شجرة، تنمو هنا في باحتي
وتدفعني الحاجة الى قطعها
وعلي أن أسقطها قريبا. قل لأصحابي
قل لأهل أثينا، حسب تسلسل المراتب
من الرفيع الى الوضيع جميعا، بأن من يرغب
في قطع بلاياه فليتعجل
ويأت هنا، قبل أن تمس شجرتي الفأس،
ليشنق نفسه..))

بمثل هذه الإستعارة الرائعة والعميقة يعبر ((تيمون)) عن واقع مؤلم لم يدركه إلا بعد أن أدى به ((التبذير الى الشحاذة)) بحيث ((يكاد أصحابه لا يعرفونه)) ويكاد لا يحظى ((بنظرة من الناس الذين كانوا يوما يتملقون ويتعشقون ويتعلقون بإيماءة)) منه. عبر سيرڤانتس عن نفس الواقع تقريبا، ولكن بأسلوب آخر تماما.

سيرڤانتس (١٥٤٧ – ١٦١٦)

يعتبر سيرڤانتس أبرز كاتب ظهر في إسبانيا، وضع كتاباته أسس اللغة الأدبية الإسبانية الموحدة وساهم في تطوير الأدب العالمي. عاش سيرڤانتس في شبابه في إيطاليا ووقع في أسر القراصنة الجزائريين، وقد حاول خلال سنوات خمس التخلص بشتى الأساليب الجريئة من الأسر. بعد عودته الى إسبانيا عمل موظفا وجاب مناطق مختلفة من بلاده التي بدأت تعيش فترة تدهور وإنحلال فإطلع عن كثب على الوضع السئ للناس وعلى ما كانوا يعانونه من ضغط

الكنيسة ومحاكم التفتيش التي تحولت الى عبء ثقيل على الحركة الفكرية الإسبانية. وقد دخل سيرڤانتس نفسه السجن مرتين بتهم ملفقة حتى أنه بدأ بتأليف كتابه المعروف ((دون كيخوت)) أو ((دون كيشوت)) داخل السجن وهو عبارة عن قصة واقعية تعبر عن روح عصر كاتبها العبقري بأسلوب رائع.

يحلم بطل القصة دون كيخوت بإحياء الفروسية في وقت ولى عهدها، فهو الوحيد الذي لم يفهم هذه الحقيقة لذا يظهر في ثوب مضحك أمام القارئ، وهو كان يحاول تغيير الواقع بأساليب إقطاعية. ففي العهد الإقطاعي كان كل شئ يعتمد على قبضة الأقوياء. وها هو دون كيخوت يحاول تغيير الواقع بقوة يده فيدافع عن الثكالى واليتامى ويعاقب الأشرار، ولكن لا يستطيع في الواقع أن يفعل شيئا بل يتسبب في إنتشار الفوضى ويجلب الضرر لبعض الناس. إلا أن دوافعه كانت نابعة من حب الخير والإنسان، فهو مدافع أمين عن الحرية والعدالة، وحامي المحبين، والمعجب الولهان بالعلم والشعر. إذن لم يكن هذا الفارس الشهم سوى إنساني أصيل. فمثله العليا مليئة بأفكار معاداة الإقطاع التي سادت عصر النهضة والتي ولدت في خضم الصراع ضد قيم المجتمع الإقطاعي. ولكن المجتمع الذي جاء كبديل له لم يستطع تحقيق أحلامه المثالية، فيتهكم الفلاحون الأغنياء القساة والتجار من دون كيخوت ويضحكون على محاولاته للدفاع عن الفقراء والضعفاء وعلى طيبته وإنسانيته. هكذا عبر سيرڤانتس بعبقرية عن الواقع وعن موقف الفئات الجديدة وعن صراعات المجتمع التي تعجز القيم المثالية والأحلام الرومانسية من معالجتها.

نال كتاب ((دون كيخوت)) شهرة واسعة، فقد ترجم الى عدد كبير من اللغات وأعيد طبعه عشرات المرات وعلى مدى قرون طويلة وذلك لما كان يتميز به من تعبير سلس وعرض كوميدي أخاذ.

خاتمة

من كل ماتقدم يبدو واضحا أن النهضة تشكل نقطة وهاجة في حضارة الإنسان وفترة مليئة بالدروس والعبر والإنجازات الرائعة، وهي لذلك جديرة بالفهم والتقصي. ومع أن النهضة تعتبر من المواضيع التي لقيت إهتماما واسعا من لدن مئات المؤرخين وغيرهم، إلا أن المجال لا يزال مفتوحا لإضافات جديدة الى ذلك البحر الزاخر. وبوسع الشرقيين أن يدلوا بدلوهم في هذا الميدان الرحب بوضع اليد على جذور جديدة لمقومات النهضة.

وأغلب الظن سيكون في الإمكان تحقيق ذلك الهدف العلمي الرفيع بعد مسح علمي شامل للمخطوطات العربية الإسلامية الغنية التي لا تزال أكداس منها تنتظر التحقيق العلمي الجدي وبالعودة الموضوعية الى المصادر الأوروبية الأصيلة حول هذا الموضوع.

المراجع

-الى جانب المراجع التي وردت أسماؤها ضمن هوامش الكتاب يمكن الرجوع كذلك الى المؤلفات التالية:

- Gilmore R., The world of Humanism, 1453 – 1517, New York.
- Hay, D., The Italian Renaissance in Its Historical Background, Cambridge, 1968.
- Laven, P., Renaissance Italy 1464 – 1524, London, 1966.
- Schweitzer F, Dictionary of the Renaissance.
- Singleton Ch., Art, Science and History in the Renaissance, Baltimore, 1967.
- "The Civilization of the Renaissance", New York, 1959.

صدر من الموسوعة الصغيرة

٢٤. المدخل الى الفكر الفلسفي عند العرب. د. جعفر آل ياسين.
٢٥. الصهيونية ليست حركة قومية. بديعة أمين.
٢٦. الدفاع المدني الشعبي. صالح مهدي عماش.
٢٧. النسبية بين نيوتن وأنشتاين. د. طالب ناهي الخفاجي.
٢٨. فن التمثيل عند العرب. د. محمد حسين الأعرجي.
٢٩. الموسيقى الألكترونية. علي الشوك.
٣٠. دراسة في التخطيط الإقتصادي. د. يحيى علي النجار.
٣١. الرواية العربية والحضارة الأوربية. شجاع مسلم العاني.
٣٢. نقد الفكر البورجوازي ترجمة: يوسف عبدالمسيح ثروة.
٣٣. الطاقة وآفاقها المستقبلية. عادل كامل جميل.
٣٤. فن الترجمة د. حياة شرارة.
٣٥. صورة الكون . د. محمد عبداللطيف مطلب.
٣٦. إتجاهات النقد الأدبي الفرنسي المعاصر. نهاد التكرلي.

المحتويات